أنيس منصور

لا حرب في أكتوبر ولا سلام



مكتبة مدبولي

لا حرب في أكتوبر
ولا سلام !

أنيس منصور

لا حرب في أكتوبر
ولا سلام !

مكتبة مدبولي

الطبعة الأولى
١٩٩٠

الغلاف للفنان : مصطفى حسين
إشراف فنى : إبراهيم فريح
تجهيزات فنية : سعيد أبو مسلم

كلمة أولى وأخيرة أيضا

من كل الديانات التى آمن بها الناس، لا تزال الحرب أعنفها ولكنها أكثرها استعدادا لأن تتفكك وأن تضعف وتخمد..

وقد عرفنا فى الشرق الأوسط كل أنواع الحروب، ووقف إطلاق النار، والحروب الباردة، والتربص والحقد والمرارة.. والرغبة فى استئناف كل الشرور المنظمة من جديد...

وبعد ألوان وأشكال وأحجام من الحروب بين العرب وإسرائيل دفاعا عن الشعب الفلسطينى فى وجوده كريما على أرضه، وبعد الهزائم المريرة والانتصارات الخاطفة.. ثم الانتصار الرفيع فى حرب أكتوبر والإنسحاب من الأرض العربية فى سيناء، تمهيدا لإنسحاب إسرائيل من بقية الأرض المحتلة - كان لا بد أن نفكر وندبر من أجل السلام الشامل. والحياة الإنسانية المتحضرة فى حدودنا الآمنة المضمونة دولية.. ولكن كما هى عادتنا نحن العرب اختلفنا: إنها حرب جديدة بين أنفسنا وفى معسكراتنا وبين قلوبنا وعقولنا.. بين الأشقاء.. وبدلا من أن نشير إلى ناحية واحدة ونقول : العدو الغاضب.. أشرنا بكل أصابعنا إلى أنفسنا وإلى صورنا فى المرآة وإلى ظلالنا على أرضنا وقلنا : العدو.. الأعداء.. والأخوة الخونة.. العملاء..

وهكذا اتسعت ساحة الحرب وضاقت مساحة السلام..

فأصبحنا من خوف الحرب فى حرب.. ومن سوء الظن بالسلام فى حرب.. وكان أملنا، يوم قالها الرئيس السادات: لا حرب بعد اليوم، أى أن تكون حرب أكتوبر آخر الحروب، وأن تكون بداية السلام الدائم.. إنه

أمل عظيم.. ونحن أبناء الديانات السماوية العظمى أى أبناء وأحفاد الأمل والخير والسلام على الأرض بين الناس وبين الإنسان ونفسه وبين العقل والقلب، السلام على هذه الأرض والسلام فى جنات تجرى من تحتها الأنهار..

ولكن كما هى عادتنا نحن العرب لا أملا كبيرا فى السلام، ولا خوفا صغيرا من الحرب..

وهكذا كما ترى فى حالة سلام تشبه الحرب، وفى حالة حرب كأنها وقف إطلاق النار..

لقد دربنا الحمام أن تكون صقورا، ودربنا الصقور أن يكون لها رجع الحمام - ولا حول ولا قوة إلا بالله!

أنيس منصور

لابد من موافقة مصر !

فى السياسة كما فى الطب : كل داء له دواء، وكل دواء قد يؤدى إلى داء أيضا. أما مرض العصر فهو الإسراف فى تناول الأدوية. أى عندما يصبح الدواء داء. ويصبح الطبيب مرشدا سياحيا إلى العالم الآخر!.

وفى السياسة : كل مشكلة لها حل. وكل حل له مشكلة، ومشكلة المشاكل هى كثرة الحلول. وزيادة عدد الأطباء والساسة حول فراش المريض تؤكد له أن حالته خطيرة، وأن الأعمار بيد الله، وليست بروشتات الأطباء وبيانات الساسة.

وفى عصرنا الحديث يقوم الساسة بدور الأطباء والأنبياء معا. من أجل معجزة واحدة، هى أن الجنة فى هذه الحياة وعلى هذه الأرض.. أما الصراط المستقيم فهو أن نمشى وراءهم جميعا!.

ولكن ما أصعب ذلك مع تعدد هؤلاء الأنبياء وزحامهم على رءوسنا وفى عيوننا وفى أحلامنا. ولذلك فإن لم تكن الحقيقة قد ضاعت تماما، فنحن الذين ضعنا منها، وهى لم تعد قادرة على أن تهتدى إلينا..

وأوضح صورة لهذا الغموض هى ما يحدث فى إسرائيل الآن.. فهم فى حالة

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٣/١٥

غليان انتخابى. وكل شئ قد وضعوه فى النار. وكل شئ يلفه الدخان. أو هكذا نرى نحن الأشياء من القاهرة. فالمعلومات تجئ إلينا من مصادر متعددة، أيسرها وأصعبها أيضا: الصحف. وهذه الصحف أكثرها مستقلة.

أى أنها صحف الرأى الآخر : ويمكن أن نقول عن كل الآراء فى إسرائيل إنها الرأى الآخر. لأنه لا يوجد رأى واحد هو «الرأى» - إلا رأى رجال الدين.

ولهم حزب سوف يظل حاكما إلى غير نهاية. وهذا الحزب هو القادر على أن يجعل أية «كتلة» أقوى وأقدر على الحكم.

ومع ذلك فمن الصعب علينا هنا. أن نعرف ما هى الفروق بين السياسة والدين؟ هل الدين سياسة؟ وهل السياسة دين؟ وهل الأطباء حاخامات أو أنهم المرضى أيضا؟

إننا، لاشك، حديثو العهد بالفهم القريب للمسرح السياسى فى إسرائيل فكل شئ يصرخ. ولا يعرف بوضوح إن كانت الأحزاب الكبرى هى التى على المسرح، وأن الأحزاب الأخرى مثل الكورس الإغريقى، تغنى وترقص ولا تتدخل فى مسار الأحداث.

وربما أدى هذا التبسيط إلى افساد المعنى تماما، لأنه لاشى صغيرا فى إسرائيل ولا شئ كبيرا فيها، فكل كبير يتألف أو «يتآلف» مع أشياء صغيرة متماسكة ومتينة النسيج والهدف..

ولابد أن توضح لنا الأحزاب السياسية فى إسرائيل برامجها وأهدافها. أولا: من واجبها ذلك. وثانيا : لأن الصور تتداخل على الشاشة السياسية فى مصر فكل الأحزاب لها إرسال واحد ومن قناة واحدة، وأحيانا يتبادلون القنوات، ويتبادلون المقاعد، ويستعيرون الملابس والأقنعة. فالوضوح ضرورة.. وثالثا : لأنه بدون مصر لا سلام ولا حرب. ولكى ينجح أى برنامج سياسى فى الانتخابات وبعدها، فلابد من أن يتفق مع السياسة المصرية. وأساس السياسية المصرية : اتفاقية كامبد دافيد. التى هى «اسلوب عمل» أو «خريطة سلام» وليست هى السلام نفسه. ولكن عن طريقها وبسببها، تختفى الحرب مع مصر ومع بقية العرب.

وربما كانت العبارة الواحدة الوحيدة التى تتفق عليها الأحزاب السياسية فى

إسرائيل، أنها تؤيد كل كلمة جاءت فى اتفاقية «كامبد دافيد». وإذا كانت هناك اجتهادات سياسية فهى فيما بعد اتفاقية كامب دافيد. أو كيف يحكم الفلسطينيون أنفسهم بأنفسهم.

وقد جاء ثلاثة من أقطاب حزب العمل الإسرائيلى: بيريز وإيبان وبارليف يوم ٧ نوفمبر الماضى. وكانت لهم ندوة رائعة مع الدكاترة مصطفى خليل وبطرس غالى ومحمود محفوظ وحلمى عبد الرحمن وأنا. وقد استمعنا إلى منطق حزب العمل فى كل القضايا.

فهم عندما يتحدثون عن الأردن أو الحل الأردنى يقصدون الشعب الفلسطينى، لأن سكان الأردن فلسطينيون. ولذلك فلابد من استدعاء الملك حسين ليكون له الدور الذى رسمته اتفاقية كامب دافيد..

ولابد من السير مع الأردن، فى نفس الطريق الذى سارت فيه مصر. أولا: أن تكون هناك «مساحة» للتفكير السياسى يمكن الوقوف عليها. والبداية منها. أو كما قال بيريز : موطئ قدم سياسى.

ثانيا : أن يكون هناك استعداد للاتفاق المؤقت.

ثالثا : أن يكون هناك استعداد لإعلان موقف، دون ضغط على الطرف الآخر..

وقد رأى حزب العمل أن تجاربه الطويلة قد علمته أن هذا ممكن، وأنه ليس من الضرورى أن يتحقق كل شئ مرة واحدة. لأن هذا ضد طبيعة البشر. أما «الحكم الذاتى» فهو لكل الناس على معظم الأرض - وهى إحدى قضايا حزب العمل التى يجب أن تبدأ بها المناقشة، والخلاف عليها.. وحزب العمل يفهم تماما مخاوف الشعب الفلسطينى من منظمة التحرير الفلسطينية. ومن الملك حسين. ولكن فى المراحل الأولى لا يستطيع الشعب الفلسطينى أن يصل إلى حل بعيدا عن الأردن، ولا الأردن بمعزل عن الشعب الفلسطينى.. ولا يستطيع الشعب الفلسيطنى أن يقرر لنفسه بعيدا عن منظمة التحرير وليس أمامه إلا أن يعتمد على نفسه أو على مساعدة إسرائيل ثم إن حزب العمل. كما قال بارليف، يعرف حدود إسرائيل، ويدرك صعوبة التعايش مع الفلسطينيين وغيرهم من الدول العربية فإسرائيل مساحتها ثلث سيناء وسكانها ثلث القاهرة.

ولابد من السلام لكى تعيش. وقد جربت الحياة مع الكثافة العربية فى الضفة الغربية وهى الآن تجرب الحياة مع الكثافة العربية حولها.. ولا ينقذها من نفسها ومن غيرها إلا السلام وهى لذلك لابد أن تعرض أعماقها على مصر..

وقد عرض أقطاب حزب العمل مخططهم السياسى كاملا على الرئيس السادات.. ثم انفرد به شمعون بيريز ليعرض عليه البدائل السياسية التى قد تقتضيها المعارك الحزبية فى إسرائيل..

ثم جاء السيد موشى ديان ليعرض وجهة نظره. وموشى ديان له اجتهادات جريئة فى السياسة. وهو لا يعرف من الذى سوف يرتضى هذه السياسة. وهو حتى الآن لم يعلن «حزبه» الجديد.. بل إنه سوف ينتظر حتى يوم ٢ أبريل القادم.. فإن وجد له اتباعا أعلن فورا عن «القائمة الوطنية المستقلة».

واسمها بالعبرى «راحيل» - وهو إسم زوجته أيضا.

يقول ديان : إننى مثل قائد فى معركة. لابد أن يكون لى قوات قبل أن أحارب وأنا الآن لا أعرف من الذى سوف يمشى ورائى.

وقد تخبطت الاجتهادات فى تفسير فلسفة ديان. ولذلك جاء يوضحها. فأعلن للرئيس السادات أنه لم يخرج عن اتفاقية كامب دافيد فى كلمة واحدة. وأنه لهذا السبب قد بعث ببرنامجه مكتوبا إلى الكنيست وأنه قد وضع هذا البرنامج فى نهاية «مذكراته» التى تنفرد بترجمتها.

وقد سمعت د. مصطفى خليل أخيرا فى أكثر من مناسبة وفى حضور ديان يقول : لولا جهود موشى ديان ما وقعت إسرائيل اتفاقية كامب دافيد.. أما بقية برنامج موشى ديان فهو واقعى عملى يعتمد على المعايشة الطويلة لكثير من الفلسطينيين فهو يرى أن قوات الاحتلال الإسرائيلية يجب أن تخرج من حياة الشعب الفلسطينى لأنهما شعبان مختلفان تماما. ويستحيل أن يتطابقا أو يتشابها وليس ضروريا. ولكن يكفى أن يتعايشا وأن يتعاملا. فإذا خرجت قوات الاحتلال يجب مطالبة الفلسطينيين بأن يجلسوا على مائدة المفاوضات وسوف يرفضون ذلك. إذن فليس من الضرورى أن تكون مفاوضات، ولا من الضرورى أن تكون معاهدات. فهم لن

يجيئوا خوفا من أنفسهم أو من الملك حسين.. إذن لابد أن يجرى الانتخابات لاختيار زعمائهم من رؤساء البلديات أو من كبار العائلات. وقد يرفضون الانتخابات. إذن فلا داعى لهذه الانتخابات، فليختاروا من يريدون بأية صورة. إنهم أحرار فى ذلك. وأمامهم أن يطلبوا أية مساعدة من أى نوع من الملك حسين.. قضاة أو مدرسين أو أطباء. وهم أحرار فى اختيار قوات البوليس التى تحمى بلادهم. وسوف يسعدهم كثيرا أن ينزل العلم الإسرائيلي. فلينزل وليضعوا بدلا منه أى عدد من الأعلام. إنهم أحرار. وإذا شاء الشعب الفلسطينى أن يطلب مساعدة إسرائيل فهو حر. ثم إنهم أحرار فى تسويق حاصلاتهم الزراعية. إنهم الآن فى الضفة وغزة يعتمدون على الشركات الإسرائيلية فى تصدير الموالح والفواكه الأخرى.

يروى ديان، على سبيل الفكاهة، أنه سأل أحد التجار الأغنياء من أبناء غزة: ماذا تفعل لو جاءت السعودية وطلبت إليكم أن تقطعوا صلتكم بإسرائيل وتدفع لكم العشرة ملايين دولار التى تكسبونها كل سنة؟

فأجاب التاجر: إذا لم تكن تعرف الإجابة الآن فأنت لم تفهمنا بعد. إننا سوف نحصل على هذا المبلغ من السعودية ونمضى فى التجارة مع إسرائيل!

وقال ديانا أيضا: إننى أختلف تماما عن السيد مناحم بيجن. فهو رجل قانونى ولذلك فكل شئ عنده يبدأ بالمعاهدات المكتوبة. فإذا لم تكن معاهدة صحيحة وموقعة من جميع الأطراف، فإنه لن يتحرك خطوة واحدة ولكننى أرى أن هذه المعاهدات قصاصات ورق. والتاريخ يحدثنا عن مصير مثل هذه الأوراق وكيف إن الشعوب داستها بالأحذية فى ظروف كثيرة. ولكن أهم من المعاهدة: التجربة.. فنحن فتحنا الجسور بيننا وبين الأردن. فتحناها من طرفنا نحن. وقد عبر هذه الحدود ذهابا وإيابا ملايين الفلسطينيين.. بل يجئ إلى إسرائيل ١٥٠ ألفا من كل البلاد العربية يزورون أقاربهم ويدخلون المستشفيات للعلاج ولرؤية البكينى على بلاجات تل أبيب! وإذا لم تعجبنا هذه الجسور المفتوحة ففى وسعنا أن نغلقها من جانبنا.. ولكن بقاء هذه الجسور مفتوحة، دون معاهدة مكتوبة، أكبر دليل على نجاح الأمر الواقع..

وإذا كانت هناك تسمية تنطبق على ما يجرى الآن فى الانتخابات الإسرائيلية فأحسن تعبير هو الذى استعيره من شمعون بيريز: إنها لعبة رسم خرائط المستقبل.

ونحن نقف على خريطة الماضى والحاضر..

وإذا صح ما قالته قارئة الكف لموشى ديان فى خان الخليلى أول أمس، فسوف يكون له ١٣ مقعدا فى الكنيست.

والذين يضعون أصابعهم على النبض السياسى والدينى فى إسرائيل يؤكدون أن هذه المقاعد سوف يقتطعها ديان من حزب العمل، ويقال أكثر من ذلك عددا ويقال أقل.

وديان ليس على يقين من ظهور عيزر فايتسمان فى هذه المعركة. وإذا ظهر فأين يقف؟.. وإذا وقف فهل يكون وحده أو مع ديان أو مع حزب العمل؟ ديان يقول: إن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بالخطوة القادمة لعيزر فايتسمان..

ولا أحد يعرف بعد ذلك أين يقف ديان فهو قد غير مواقعه كثيرا وادار ظهره لاصدقائه واطلق لسانهم عليه أيضا..

ولكن المؤكد أن حزب العمل هو الذى سوف يفوز بأغلبية المقاعد، ولذلك فقد يتآلف مع ديان أو الحزب الدينى. فقائمة ديان سوف تؤدى إلى حرمان حزب العمل من أن ينفرد وحده بالسلطة. وديان يعرف جيدا فلسفة حزب العمل.

فقد كان هو من حزب العمل ثم انشق عليه وانضم إلى تحالف الليكود مع السيد بيجين، ثم انشق عليه.. وعلى الجميع وهو «يجرى» وحده..

أما لماذا يجرى ديان؟ وهو سؤال شخصى، سببه الاستغراب لحالته الصحية، فهو مصاب بالسرطان وقرحة فى المعدة وانكسار فى العمود الفقرى وأشياء أخرى كثيرة، ليس أقلها أنه فى السابعة والستين من عمره، وأنه «ذئب شارد»، وأنه قادر على أن يخلع جلده ويضع أنيابه فى أظافره وأظافره فى عين أى أحد، كان معه أو كان عليه.

فالإجابة هى أن الصراع يعطى السياسيين والعسكريين مزيدا من الصحة والحيوية..

وعندما علم ديان أن سائق سيارته كان أسيرا فى حرب سنة ١٩٦٧ سأله عن إحساسه الآن، فقال: والله لا أفهم ما الذى فعله الرئيس السادات.. إنه ساحر.. لقد

كنت أسيرا، ورأيتك تزور الضباط الأسرى وترفض أن تمر علينا نحن الجنود. والآن أنت ضيف مصر وآمن على نفسك.

قال له ديان : ياليتنى كنت الآن أسيرا فى مصر، إذن لاسترحت من عذاب السياسة فى إسرائيل!

ولا أظن انه يتوقع من أحد أن يصدقه، لأنه يستطعم عذوبة العذاب السياسى والانتخابى!

وعلى طريقة اليهود فإنهم يجدون فى كل شئ معنى دينيا، فكل الأشياء والأحداث والقصص رموز لها معنى عميق، فقد وقف د. بن اليسار السفير لمدة عشرة أيام فقط، يعلن فى العشاء الذى أقامه لديان، أنه على باب بيته توجد «مزوزة» وهى هدية من أب مات ابنه فى حرب ٧٣. وقد أهداه هذه «المزوزة» حماية وأملا فى ألا يموت أحد فى حرب بعد اليوم.

أما هذه «المزوزة» فهى عبارة عن صندوق صغير من المعدن يضعه اليهود على الجانب الأيمن من بيوتهم. وفى داخل الصندرق آيات من سفر «التثنية» بالتوارة تقول إن الإنسان يجب أن يحب الله من كل قلبه وبكل قوته. وحين يقوم وحين ينام. وأن يطلب إلى أولاده أن يفعلوا ذلك. وأن يضع هذه المعانى على باب بيته..

حتى لا يموت أحد فى حرب، وحتى يكون السلام بين الناس. وليس على هذه الأرض من يحتاج إلى السلام مثل مصر وإسرائيل. فقد اختارهما القدر ليكونا قدوة لكل الشعوب فى المنطقة وفى العالم.

يروى د. هنرى كيسنجر فى كتابه الذى صدر منذ أيام بعنوان «للنشر» أنه زار الرئيس السادات فى استراحة وزارة الثقافة. وأنه رأى الاهرامات الضخمة شامخة أمامه. يقول كيسنجر : إن الإنسان لا يشعر بضآلته أمام شئ صنعه بيديه، كما يشعر أمام هذه الأهرامات. فقد صنعها الإنسان يتحدى بها الزمن ويتحدى بها ضعفه أيضا. إن هذه الأهرامات تتحدى المصريين والإسرائيليين الذين اجتمعوا معا بالقرب منها فى فندق مينا هاوس.. إن عظمتها تتعالى وتعلو على البيروقراطية التى سوف تفسد كل اتفاق عاجل بين مصر وإسرائيل.. فهل يا ترى اتخذ الرئيس السادات قراره بالسفر إلى القدس

فى هذا المكان؟ يجيب كيسنجر قائلا: إن قرار الرئيس السادات بزيارة القدس يشبه الأهرامات: فهى بسيطة ومخيفة أيضا!

إنه محكوم على مصر وإسرائيل أن تحققا السلام - أبسط وأروع وأخطر نجاح يحلم به أى شعب عظيم! ■

تعالوا إلى برلمان عربي !

جربت أوروبا أن تفرض الرأى والدين الواحد والمذهب الواحد بالقوة. فكانت الحروب.. وكان النصر هو أقسى من الهزيمة.. ومن العار ألا يكفوا عن هذه المحاولات الإجرامية الفاشلة. فاتجهوا بالسلام يتعاقدون على طعام واحد. فكانت السوق وكان البرلمان الأوروبى..

إنه درس لنا وعبرة

عندما ذهب الرئيس السادات إلى البرلمان الأوروبى حدثهم عن أنفسهم أكثر مما حدثهم عن الأمة الإسلامية. فقد طلب أن يكون لهم دور. فليست أمريكا وحدها القادرة على أن يكون لها دور فى حل مشاكل الشرق الأوسط. وهذا ما تعتقده الدول الأوروبية. فمن أجل أن تنفرد أوروبا بحل مشاكلها وتسويق بضائعها وأن تكون قوة ثالثة فى وجه أمريكا وروسيا، جلسوا معا، وتعاقدوا وفتحوا الحدود واتجهوا إلى أهل الجنوب. وكان الحوار بين أغنياء الشمال وفقراء الجنوب.. أو بين أصحاب المصانع وأصحاب المناجم، أو بين الذين ينتجون والذين يستهلكون..

وقبل أن يقترب الرئيس السادات من البرلمان الأوروبى أشارت السيدة سيمون فيل رئيسة البرلمان إلى إحدى العمارات. وسألت: هل تعرف ما هذه العمارة الضخمة؟

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٢/٢٢.

إنها من أجل ترجمة الحوار والنصوص إلى اللغات الأوروبية.. فكل كلمة نترجمها إلى عشر لغات أوروبية!..

أما المعنى الذى قصدته السيدة سيمون فيل رئيسة البرلمان فهو: أنه رغم هذه الخلافات اللغوية الحادة، استطاع الأوروبيون المتحضرون أن يجلسوا معا. وأن يتدارسوا مصالحهم الاقتصادية. وأنه رغم الخلافات السياسية فليس أسهل من الاتفاق على الرغيف والنبيذ والزبد والحرير والذهب. فالشعوب تمشى على بطونها.

وعندما تتعانق فإنها تتعانق ببطونها أيضا - هذه العبارة لم تقلها السيدة سيمون فيل، إنما قالها الشاعر الألمانى هينريش هينه. ونقلها عنه الشاعر الفرنسى فيرلين فقال: إننى أجد مذاق شفتيها عسلا فى معدتى..

وأنه أسهل كثيرا جدا أن تتفق الشعوب اقتصاديا من أن تتفق سياسيا. بل إذا أرادت أن تتحد عقليا فلابد لها أن تتحد معويا.

وكما أن العضو فى أى برلمان لا يمثل دائرته الانتخابية، إنما يمثل الشعب كله، فكذلك أعضاء البرلمان الأوروبى. لا يمثل الواحد منهم شعبه ، إنما كل الشعوب الأوروبية. وفى داخل البرلمان الأوروبى يجلس الأعضاء أحزابا: أحزاب الوسط فى الوسط، وأحزاب اليمين إلى اليمين، واليساريون إلى اليسار.

اتفقوا فكريا من أجل أن يتفقوا ماديا.

ويوم جلسنا نتعشى على مائدة رئيسة البرلمان، وجدت إلى يمينى رئيس المجموعة البريطانية وإلى يسارى رئيس المجموعة الألمانية، وأمامى رئيس المجموعة الهولندية وإلى جواره رئيس المجموعة الإيطالية. وكان الحديث بيننا بالألمانية والإيطالية والإنجليزية. أما الطعام أمامنا فكان فرنسيا بريطانيا إيطاليا. أما الأطباق فمن المانيا، وأما الملاعق فمن أسبانيا، وأما السكاكين فمن بلجيكا، وأما الأكواب فمن هولندا، وأما الملح فمن أيرلندا، وأما الزبد فمن الدنمرك.. أما هذه الأبهة فمن لوكسمبورج. ومن الممكن أن تجد على مائدة أشقائنا العرب فى الخليج التفاح من لبنان، والخضروات من العراق، واللحم من السعودية، والأطباق والملاعق والسكاكين من أوروبا وأمريكا. فالعالم كله على مائدة واحدة: تماما كما تفتح الراديو وتحرك أصابعك يمينا وشمالا فتجد

كل أصوات العالم فى غرفتك. فالدنيا كلها تلتقى فى أى وقت فى أى مكان.. هكذا تقاربت الدنيا فى صادراتها ووارداتها.

وقد لاحظ الرئيس السادات فى حديثه مع الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان أنه عندما يتحدث عن المستشار الألمانى هلموت شميت فإنه يقول: هلموت قال لى، وأنا قلت لهلموت!..

هكذا تقاربت المسافة بين ألمانيا وفرنسا، أعدى الأعداء.. بعد مئات السنين من الحروب والدماء، وتراث الحقد، ورضاعة الثأر، والانتقام الأبدى بين الألمان والفرنسيين..

انتهى ذلك وانسابت المياه بين أنهار الدولتين، كما انساب ملايين السياح وألوف الملايين من العملات وأصبحت ألمانيا أغنى دولة. وأصبحت فرنسا أقوى الدول الأوروبية..

ومن ١٥٠ عاما تنبأ السياسى الكبير مترنيخ فقال: سوف يجئ يوم عندما تعطس فيه باريس، تصاب العواصم الأوروبية بالزكام..

وبعد البرلمان الأوروبى إذا عطست لوكسمبورج أصيبت بقية العواصم، فهم جميعا يشمون هواء واحدا، ويواجهون ميكروبا واحدا بدواء واحد، وأطباء مختلفين اتفقوا على تشخيص الداء، وتوحيد الدواء..

فهل هذا الذى تحقق لأوروبا مستحيل على غيرها؟..

لم يعد مستحيلا.. ولكن كان كذلك..

ولابد أن دول الحضارة الأوروبية قد تعمق شعورها بالندم ومع الشعور بالندم تأكد شعورها بالعار: إذ كيف تملك كل هذه القدرات العقلية الإبداعية، ولا تجد صيغة مقبولة من الجميع للجلوس معا فى حوار وحارت سبل الحوار. وتعددت الصيغ وتبددت. وذهب زعماء وجاءوا وكما تخيم السحب سوداء فى سماء أوروبا - أى تكون خيمة قائمة مظلمة. استطاعوا أن يصنعوا خيمة أخرى مضيئة. هى البرلمان الأوروبى.. لرعاية مصالحهم. وذلك بتوزيع ثرواتهم وتصفية خلافاتهم. وأهم من ذلك أن يقدموا للعالم نموذجا للاتفاق رغم الاختلاف أو للاتفاق الاقتصادى الذى لا يتعارض مع الاختلاف السياسى.

ومعنى ذلك أن الدول الأوروبية لا ترى أن الوحدة السياسية ممكنة بل هى المستحيل، فليس فى استطاعة أحد أن يلغى كل هذه الفوارق السياسية والأمزجة الطبيعية ويجمع الناس فى بوتقة واحدة ساخنة تذوب فيها الفوارق فإذا ذابت أصبحت كتلة واحدة تختلف عن كل العناصر الأساسية.. لقد كانت الحروب الدموية والسياسية والدينية فى أوروبا جحيما عاصفا. وفى هذا الجحيم ووسط هذه الدماء ذابت الفواصل بين الشعوب واتحدت فى عويل واحد. ولكن عندما جفت الدماء والدموع وتلاشى الدخان، عادت الشعوب إلى ما كانت عليه وأسوأ فليس أسوأ من حرب تنتصر فيها إلا حرب تنهزم فيها.

فقد عرفت ألمانيا.. مثلا.. كل أنواع النصر، وعرفت بعد ذلك كل أنواع الذل. فقد نفخها التصر فطارت فى الهواء، لتعيدها الهزيمة تحت الأقدام. ولم تكن المعارك إلا بوتقة حامية تصلاها الشعوب وتخرج منها برغبة واحدة مؤكدة هى الانتقام.. ومن انتقام إلى انتقام اندفعت عجلة الكراهية تسحق الشعوب الأوروبية.

والعالم كله يتفرج الآن على نموذجين للرخاء والثراء والعظمة: ألمانيا واليابان.. وهما الدولتان المنهزمتان المنكسرتان فى الحرب العالمية الثانية.، إنهما دولتان بلا جيوش. فقد تولت أمريكا الدفاع عنهما. وعندما كانت أمريكا تبنى قواعدها الذرية فى اليابان وصواريخها النووية فى ألمانيا. كانت هاتان الدولتان ترسيان قواعد المال والأعمال فى كل أسواق الدنيا. وإذا كانت أمريكا قد احتلت هاتين الدولتين عسكريا. فإن اليابان قد احتلت أمريكا تجاريا. وألمانيا احتلتها ماليا..

ومنذ أيام الرئيس الفرنسى ديجول وأوروبا تعانى هذه الإهانة: أن أوروبا قد خلقت أمريكا لتركع هى عند قدميها. أى أنه مطلوب من الخالق أن يعبد أحد مخلوقاته!..

وعندما صفق البرلمان الأوروبى واقفا، كما صفق الكونجرس الأمريكى واقفا، وكما صفق الكنيست الإسرائيلى للرئيس السادات: كانت هذه الحفاوة لفكرة جديدة جريئة. لأن رجلا شجاعا جاء يعرض أسلوبا فى الحياة - أى جاء يعرض فكرة توسيع مجال الحياة الرخية الآمنة!..

وإذا نحن انتقلنا من الشمال إلى الجنوب العربى الإسلامى، فإننا ثلاثة أمثال دول البرلمان الأوروبى عددا وأكثرهم ثراء وأوسعهم أرضا وأغزرهم ماء..

وإذا كان أعضاء البرلمان الأوروبى يتحدثون عشر لغات فنحن نتحدث ثلاث لغات: العربية والفارسية والانجليزية. وفى مصر مياه غزيرة. وفى السودان عشرات الملايين من الأرض الخصبة، وفى الصومال وتشاد وجيبوتى واليمن، أنواع مروعة من الفقر والجفاف. وفى القاهرة عشرة ملايين نسمة أى ما يعادل كل دول الخليج..

وفى الشرق العربى نصف احتياطى الطاقة. ومن الشرق العربى تتدفق كل رءوس الأموال على أوروبا وأمريكا وآسيا.

والكويت يأتى بالماء من العراق ويشرب من البحر، والسعودية تفكر فى نقل جبال الجليد من القطب الجنوبى، بينما تستطيع أن تنقل الماء من العراق وعبر البحر الأحمر من مصر.

وفى الضفة الغربية من فلسطين يشربون من الأمطار ومن المياه المالحة فى الأنهار والآبار.. والمياه القليلة تتوزع بالحرب بين سوريا ولبنان والأردن والضفة الغربية، وتتربص بها إسرائيل التى سوف تشرب من البحر فى السنوات القادمة..

وفى استطاعة كل الدول البترولية أن تشترى «العلم» أى الخبرات العلمية وتطبقها على صحاريها.. ومصر قد اتجهت في ثورة علمية إلى زراعة الصحراء الغربية.. وقد كشفت الخرائط التى التقطتها الأقمار الصناعية الأمريكية والتى عرضها د. فاروق الباز على الرئيس السادات. أن فى سيناء وديانا خضراء ومياها كثيرة. وأنه لابد من بناء السدود.. وفى نفس الوقت نحن ننقل مياه افريقيا إلى اسيا لأول مرة فى التاريخ.. ونقوم بتحويل المصريين إلى ملاك لأرضهم بعد أن كانوا سكانا لها.. وبذلك نعيد غرس المصرى فى أرضه التى عاش عليها ألوف السنين. فكأننا بعد أن استقرت جذورنا التاريخية. نضيف إليها جذورا جغرافية.

وإذا كان العراق قد استعان بعشرات الألوف من الفلاحين المصريين. ففى استطاعة السودان الشقيق أيضا. وقد كان السودان يوصف بأنه «سلة الحبوب» لأوروبا وافريقيا. وفى استطاعة السودان أن يستعين بمئات الألوف من الفلاحين المصريين. وإن

كانت مصر سوف تستوعب فلاحيها وعمالها. وقد تستدرجهم من البلاد العربية أن يعمروا أرضهم ويملكوها - فهى أولى بهم ولكن قبل أن يتحقق الاتفاق الاقتصادى بين الدول العربية. لابد أن يتأكد لدى العرب والمسلمين أيضا: أن أحدا لا شأن له بالأوضاع الداخلية لأى من هذه البلاد. تماما كما لا شأن لفرنسا بألمانيا ولا لألمانيا بإيطاليا ولا لهولندا ببلجيكا ولا شأن لهم جميعا بما يحدث فى داخل اليونان.

فإذا استطاعت الدول العربية والإسلامية أن تستريح إلى ذلك، كانت الخطوة التالية هى الأسهل. وأوروبا قد ضربت لنا المثل الرفيع على ذلك..

وليس من هدف واضح أمام «الجمعية التأسيسية للشعوب الإسلامية والعربية» إلا أن تدعو إلى برلمان عربى يكون مقره فى أصغر دولة عربية - تماما كما اختارت أوروبا كلها دوقية لوكسمبورج (٣٠٠ ألف نسمة - ١٢٠ بنكا - ٢٠ ألف موظف يعملون فى البرلمان الأوروبى - ويولد فيها طفل كل أسبوعين وغالبا يكون الطفل أنثى - وتقع فيها جريمة كل سبعة شهور - وحادث سيارة كل سنتين - وتموت فيها النساء فى التسعين والرجال فى السبعين - وتنفق مئات الملايين مساعدة لكثير من الجمعيات الفقيرة فى العالم؟!).. والفلاسفة الاوروبيون الذين فكروا فى الدولة الواحدة لكل العالم جعلوا إسمها يوتوبيا - أى التى ليس لها مكان. أى ليس لها مكان إلا فى رءوس أصحابها.. فقد حاول الفيلسوف الإغريقى افلاطون أن يخلق «الجمهورية». ووضع على رأسها الفلاسفة وهم طواحين الفكر، ولما طلب إليه أحد الملوك أن يقوم هو بنفسه بتطبيقها فى إحدى الجزر فشل الفيلسوف أفلاطون. وهرب من الجزيرة.. ومن التجربة أيضا!.. ووجد أن المسافة كبيرة جدا بين الفكر والواقع، أو بين صاحب الرأى والذين يريد إقناعهم به.

ولذلك كان الفلاسفة يحلمون بأن يكون الفيلسوف هو الملك. أى صاحب الرأى هو صاحب القرار. إنه حلم لم يتحقق. ولكنه لم يختف. فلا يزال الملك يريد أن يكون فيلسوفا، أى يجمع إلى القوة التنفيذية قوة التفكير أيضا، ولا يزال الفيلسوف يحلم بأن يكون ملكا - أى يجمع إلى قوة الرأى القدرة على تطبيقه.. وحاول الفيلسوف الانجليزى توماس مور أن يتخيل جمهورية مثالية. وكانت مثالية حالمة، وحاول الفيلسوف العربى الفارابى أن يتخيل «المدينة الفاضلة» - وهى جميعا صروح فكرية

أخلاقية. ترفض طبيعة الإنسان.. وتتنكر لحرية الاختيار والاختلاف عند كل إنسان.. ولذلك استقرت فى متاحف التاريخ مثل مومياء لعروس جميلة ماتت ليلة زفافها!..

وقد عاش الفلاسفة إلى جوار الملوك. كما عاش أرسطو إلى جوار الاسكندر - فقط إلى جواره، ولكن لا أرسطو أصبح ملكا. ولا الإسكندر أصبح فيلسوفا.

وعندما طلبوا إلى الفيلسوف الإيطالى بيندتو كروتشه أن يكون أول رئيس لإيطاليا بعد موسولينى. تذكر ما أصاب أستاذه الفيلسوف اليونانى أفلاطون فاعتذر..

مرة واحدة فى التاريخ إلتقى القائد العبقرى الإسكندر الأكبر والفيلسوف العظيم أرسطو. وكان ذلك على وجهى ميدالية ذهبية من اختراع الأديب الفرنسى جان كوكتو. فقط على ميدالية فى سلسلة مفاتيح. كان كوكتو أراد أن يشنق «الفكرة الخيالية» فعلقها فى سلسلة ذهبية - كحلم يجب أن يموت.. وقد مات..

ولذلك اتجهت الدول الأوروبية الغربية إلى الواقع الملموس. بعد أن عانت من الانهيارات الفكرية: النازية والفاشية والشيوعية. وبعد أن أيقنت أنه ليس من الطبيعى أن يكون للدول الأوروبية إطار فكرى واحد. وأن تذوب معاً لتكون دولة ممسوخة لها حاكم واحد - منتهى الدكتاتورية!..

وكما يحدث فى حياتنا العادية، فنحن أبناء الدول النامية تبدأ من حيث إنتهى الأوروبيون. وننقل ثمرات تجاربهم العلمية. وتجاربهم الاقتصادية. والبرلمان الأوروبى هو أحسن نموذج لذلك.

وقد حدث عند رأس سنة ١٧٠١ أن ألقى الملك الإنجليزى وليام الثالث كلمة فى البرلمان فقال: «إن عيون أوروبا كلها تنظر إليكم. تريد أن تعرف ما الذى يستطيعه البروتستانت فى مواجهة الكاثوليك.. إننا قادرون على أن نجعل هذا البرلمان أكبر وأرحب، ونستطيع أن نهدمه على رءوسنا.. وليس أسهل من البناء إلا الهدم، ونحن لم نقطع كل هذا المشوار الطويل، ونكتوى بمشاعرنا الوجدانية، لكى نموت تحت أنقاضنا الفكرية؟!

ولم يسقط هذا البرلمان البريطانى بل استقر، وأصبح قدوة ديمقراطية لكل

الشعوب. ولم يكن من أجل البروتستانت وحدهم. ولا من أجل الشعب الانجليزى العريق فى إيمانه بالحرية وكرامة الإنسان، إنما من أجل الشعوب.. وكذلك البرلمان الأوروبى..

ثم «البرلمان العربى» الذى يضم المسلمين: العرب والفرس ومسلمى أفغانستان وباكستان والهند واندونسيا والملايو والدول الافريقية..

وعلى الدول العربية والإسلامية أن تعيد قراءة الأسس التى قام عليها برلمان أوروبا - أسس الاتفاق ومبادئ الخلاف. ثم هذه الصورة الناجحة فى النهاية. فإذا لم تبادر هذه الدول العربية فتحذف من قاموسها كلمات ضالة طائشة مثل «التضامن العربى» وتضع بدلا منها «السوق العربية» أو «البرلمان العربى» فسوف نضيع الوقت فى مناقشات لغوية - بسكون الغين!..

إن أحدا من الذين يودعون فلوسهم فى البنوك العالمية لا يسأل: إن كان صاحب البنك يهوديا أو مسيحيا أو ملحدا فرنسيا أو ألمانيا.. إن أحد من الذين يركبون السيارات الكاديلاك أو الطائرات البوينج أو يتعاطون عقاقير شركات باير وفيزر ولاروش وبوتس، لا يسأل أيضا ما هو دين أو أخلاقيات هذه الشركات الكبرى.. إن الذى يعنيهم هو : المنفعة أو المتعة..

وسوف يكسب العرب من العرب أضعاف ما يكسبون..

فإذا كنا بهذا التسامح أو بهذه اللامبالاة ونحن نشترى ونتعامل مع أوروبا وأمريكا.. فمن الأولى أن نتعلم ذلك ونحن نتعاقد أو نتفاهم مع الأشقاء العرب المسلمين من افريقيا وآسيا.. فتمتد أيدينا عبر البحار: الأبيض والأحمر والميت والهندى، وعبر الأنهار: النيل والكونغو والفرات واليرموك والأردن..

وفى التاريخ العربى والإسلامى محاولات كثيرة للوحدة السياسية أو الوحدة المذهبية. ولكن لم نجرب الوحدة الاقتصادية أو التعاون التجارى أو تشغيل رءوس الأموال أو توظيف الأيدى العاملة، أو توزيع المياه أو فتح الحدود والجيوب. وكما أن أوروبا قد ازدادت راحتها وأرباحها من هذه الأسواق المفتوحة، فمن المؤكد أن الدول العربية سوف تزداد ثراء أيضا. وبذلك تكون قد حققت أهدافا كثيرة فى قرار واحد:

الوفاء بإلتزاماتها الدينية والقومية. وملاحقة التطورات الحضارية، فازدادت قوة وأمنا.

وهذا هو الهدف البعيد لجامعة الشعوب الإسلامية والعربية، وفى استطاعتنا بالفهم والاحترام المتبادل والاخلاص، أن نجعل البعيد قريبا. وأن نجعل الصعب سهلا. فقد نجحت أوروبا حين جعلت المستحيل ممكنا رائعا.

وتقول لنا «التوارة» إنه بعد طوفان نوح اقام احفاده برجا عاليا، على شاطئ الفرات. وارتفع البناء. وأحس الناس بأنهم أعلى من الأرض. وأقوى من النهر وأبعد من إرادة الله. ويقال إن الله سمعهم فقال: هؤلاء جماعة يتكلمون لغة واحدة. فأحسوا بأنهم اقوياء. وأول ما فعلوه هو أنهم تعالوا حتى كفروا. فسوف «أبلبل» ألسنتهم، فلا يدرى أحدهم ماذا يقول الآخر، فكأنهم بلا ألسنة، وكأنهم بلا آذان.. أى بلا عقل أيضا!..

فاختلفوا وتقاتلوا وتصدع «برج بابل» حتى سقط عليهم!..

أما المعنى فهو أن أبناء اللغة الواحدة أقدر على التفاهم. فإذا تفاهموا كانوا لسانا واحدا. ورأيا واحدا. وهدفا واحدا - منتهى القوة!..

ولكنهم عندما أقاموا برجهم العالى توهموا أنهم أقاموا أصبعا شامخة أدخلوها فى عين السماء، أو صنعوا لسانا حادا تطاولوا به على الله. فعاقبهم الله بغرورهم وجهلهم.

وكما أن برج بابل القديم قد أقيم بعد طوفان نوح، فإن البرلمان الأوروبى قد أقيم بعد طوفان الإسكندر وهانيبال ونابليون وهتلر وموسولينى وستالين وبرجنيف. أقاموه ليرتفعوا به فوق الخوف والثأر والاسراف فى إنفاق الطاقة الإنسانية.. فهل نستطيع نحن أن نتحد ضد طوفان الجوع - إلى الرغيف والأمان والإسلام؟. فلا راحة لجائع، ولا نوم لخائف، ولا أمان بغير إيمان..

.. إلا إذا كنا نرى أننا فى حاجة إلى طوفان يغرق دموعنا فى دمائنا فى عارنا.. ولا أظن أننا فى حاجة إلى أسوأ مما نحن فيه.. فقد أرتدينا الخوف عباءات واسعة، أخفينا تحتها أيدينا خناجر مسمومة، وتظاهرنا بعد ذلك بالحب ونحن كارهون، وبالإسلام ونحن كافرون..

ولأننا نخشى التجربة الجديدة والتاريخ القريب، أنعشنا تراثا باليا فأقمنا برجا بابليا فى كل عاصمة. وكأن البرج تمثال عال شامخ بالجهل بالتاريخ، وبالتعالى على النهاية المحتومة! وما قيمة البناء يرتفع، والنفوس تنحط؟ وما قيمة الواجهة من ذهب والنوافذ من فضة، إذا كانت العقول من طين؟!

وقد رفض ابن نوح عليه السلام أن يركب مع أبيه فى سفينته فغرق. ولم يكن ذلك إلا مصيرا محتوما لأول رافض فى التاريخ!..

وليس البرلمان الأوروبى، والدعوة إلى البرلمان العربى، إلا زورقا للنجاة.. إلا مظلة واقية.. إلا سفينة نوح نقيمها على الأرض قبل أن يغرقنا الطوفان الذى بدأت مياهه الحمراء تتدفق علينا من كل اتجاه: شيوعية وفوضوية وعنصرية ومذهبية وإرهابية..

وسوف يذهب العناد بالدول الشقيقة إلى أن تقيم برجا آخر عربيا هو : برج «لا»..

لا.. لكل ما يجئ من القاهرة !..

وإذا كان ابن نوح قد سار ضد التيار حتى مات، فإن الأبراج لا تعرف السباحة!.. ■

انتهى الدرس الأول!

لا توجد رواية في الأدب العالمي أكثر انطباقا على حالنا، مثل رواية «رحلات جليفر» للقس الإنجليزي الساخر سويفت ولا توجد صفحات أكثر اقترابا من مهازلنا ومآسينا مثل رحلة جليفر مرة في بلاد الأقزام ومرة في بلاد العمالقة..

ويكفى أن نستعرض ما نسميه في العالم العربي بلقاء القمة.. أي لقاء رؤساء الدول. أي اقتراب الرءوس العربية القادرة على التفكير والقادرة على التدبير من أجل أن تضع سياسة واحدة ضد موقف واحد. أو عدو واحد. وقد أجمعت دول القمة في كل لقاء على أن مصر هي أكبر دولة عربية، وهي الدولة القادرة على الحرب وعلى السلام، وأنهم - فرادى - عاجزون عن مواجهتها. ولذلك يجب أن يلتقوا في قمة. وهذه القمة تنتقل من عاصمة إلى عاصمة، ويكون هذا الانتقال هو الحركة الوحيدة المؤكدة، أملا في أن تكون خطواتهم التالية في مثل تأكيدها ويقينها. ولكن مع الأسف - لم تذهب رءوس رؤساء القمة إلى أبعد من التقارب والتهامس في موقفهم المعادى لمصر ومن معها - أي إسرائيل وأمريكا والسودان وسلطنة عمان ثم أكثر رؤساء الدول العربية الذين لا يجدون الشجاعة في أن يجاهروا برأيهم في نجاح مصر وفشلهم..

ولابد أن نعود إلى رحلات جليفر. وفي هذه الرحلات لقاءات قمة أيضا وهذه

نشر هذا الموضوع في ١٩٨١/٨/٢٣

اللقاءات لها طابع فلسفي. أى تلاعب لفظى وبهلوانية عقلية يعجب لها القارئ ويضحك، ويكون المؤلف أسعد الجميع، لأنه حقق الذى يريد: وهو اقناع القارئ وإسعاده، فيصفق للمؤلف الذى أفلح فى أن يجعل القارئ اضحوكة لنفسه. وهذا هو الهدف الأسمى من الفن الكوميدى - كما قال أستاذنا العظيم أرسطو - وهى بديهيات معروفة عند دارسى الأدب والمسرح فى العالم..

وأحدث مؤتمرات القمة، ولن يكون آخرها عربيا، هو قمة عدن، بين رئيس ليبيا القذافى ورئيس أثيوبيا منجستو ورئيس اليمن الجنوبية على ناصر ولم يخرج هذا المؤتمر عن كل مؤتمرات القمة العربية. فكلمة السر لكى يدخل أى عضو هى أن يشتم مصر، وكلمة السر لكى يخرج من قاعة المؤتمر هى أن يتوعد أمريكا. وليس القارئ فى حاجة إلى أن ينظر إلى الخريطة ليرى كيف تتعاون طرابلس وعدن فى آية عملية عسكرية لحماية إحداهما من العدوان الخارجى.. العدوان على ليبيا سوف يكون من مصر، العدوان على اليمن سوف يكون من السعودية.. والعدوان على أثيوبيا هل يكون من السودان أو من الصومال. أو هى اثيوبيا التى تهدد الدولتين علنا. وتهادتهما سرا؟..

وإذا نظرت إلى الخريطة، فأنت إنسان جاد أكثر مما يجب، وأنت قد انخدعت بما قلته أنا لك الآن.. ولكن الجادين لا ينظرون إلى الخريطة، ولا يقلبون فى القواميس العسكرية بحثا عن مفردات البيان الملتهب الذى أصدره الرئيس اليمنى.. وربما كانت السعودية هى وحدها التى يجب أن تنظر إلى الموقف بجدية وأسى أكثر. فالخطر على حدودها ليس من اليمن الجنوبية، إنما من اليمن الشمالية التى تعيش على أموال السعودية. والتى تعطى لأشقاء الجنوب أموال الأخ السعودى الأكبر.. ومن العجيب حقا أن أكثر أموال السعودية وشركاتها وبنوك تحويل العملة فيها لأبناء اليمن الجنوبية بها، وهم الذين يبعثون بأموالهم سرا إلى أشقائهم الشيوعيين!..

وكما يحدث فى رحلات جليفر، فقد دخل الرؤساء الثلاثة أقزاما، وتحولوا على مائدة واحدة إلى عمالقة، ثم عادوا فخرجوا بأحجامهم الحقيقية وأصغر.. لماذا؟.. لأن الإنسان عملاق عندما يتكلم، وقزم عندما يفعل.. أو أن الإنسان امبراطور عندما يحلم، متسول عندما يصحو من نومه..

فإن كان المقصود هو تهديد مصر.. وهو المقصود فعلا. فكيف يكون؟ إن لدى

ليبيا أسلحة كثيرة. نحن نعرف ذلك ولكن ما الذى تستطيعه ليبيا لمصر مهما تكدست أسلحتها على حدودنا ومهما طال مدى صواريخها، مهما تجاوزت طائراتها سرعة الصوت... فقط أن يدخلوا الأراضى المصرية ويخطفوا جنديا أو ينسفوا سيارة، هذا ممكن. ولكن لابد أن يحسبوا رد الفعل المصرى..

وقد أسعدنى الحظ أن أرى الرئيس السادات. بعد ١٤ ساعة من العمل المتواصل المرهق، يطلب الفريق الجمسى ويقول له: أريد أن تكون ضربة الجيش المصرى للجيش الليبى تأديبية فقط. لا أريد أن أخسر الشعب الليبى. أريد تهذيب القذافى لكى يعرف حدوده وحجمه!.

والطبيعى أن يكون الرئيس السادات بسبب الإرهاق الشديد، عصبيا وأن يستجيب للروح العامة فى مصر التى تمنت القضاء على القذافى نهائيا فقد كان، ولايزال. فى مصر شعور عام بأننا تركنا القذافى يكبر ويكبر. وكان من الممكن وضعه فى حدوده وفى مكانه المناسب.. إن عبد الناصر هو المسئول عن جنون القذافى. وكان من الممكن أن يقضى الرئيس السادات على القذافى من الداخل. وأن يقضى عليه عسكريا. ولكن الرئيس السادات يرى أن القضاء على القذافى يجب أن يكون بأيدى الليبيين أنفسهم وإذا أخطأ القذافى، وقد أخطأ كثيرا، فليكن عقابه شخصيا وليس شعبيا. فنحن نريد أن تكسب الشعب الليبى ضد مغامرات رئيسه القذافى..

ولو كان الرئيس الليبى قادرا على شئ لفعل. ولكنه أخفى عجزه الاقليمى بأن أصبح شخصا كريها عالميا. فهو يبعثر أموال الشعب على قضايا التمرد الدولية. ولكن مشاركة الرئيس الليبى فى مثل هذه القضايا، جعلت دوره خرافيا. ولأنه خرافى فهو مضحك. وقد ارتضى الرئيس القذافى أن يكون ارهابيا بدلا من أن يكون رئيس دولة غنية جدا، قرر هو أن يجعلها فقيرة جدا.

وسوف تكون هناك قمة جديدة لحل المعضلة اللبنانية. وسوف يتشاجر العرب من جديد: هل القضية لبنانية حقا.. أو أنها عربية ليبية سورية لبنانية إسرائيلية أمريكية سوفيتية؟ هل المشكلة لبنانية والحل سورى؟ أو هل المشكلة سورية والحل عربى؟ أو هل المشكلة عربية والحل دولى؟ أو هل المشكلة دولية والحل سعودى؟ أو هل المشكلة

سعودية والحل مصرى؟.. وكما ترى.. لا حل لهذه المشكلة، لأنها لا حدود لها أولا. ولا رغبة عند أحد من أهل لبنان فى حلها..

وكما أن الرئيس القذافى شخصية خرافية عالمية فهو شخصية «تخريفية» عربية. فهو يلغى القرآن ويضع قرآنا جديدا. وهو يلغى المفهوم السليم للإسلام. ويؤلف اجتهادا ينافى كل المذاهب الإسلامية. فهو واضع كل قانون ولذلك لا يوجد قانون يلزمه.

فمنذ سنوات أعلن الرئيس القذافى أن المياه الإقليمية يجب أن تتسع. ولم ينتظر أحدا أن يناقشه، أو العالم كله أن يناقشه ويتفق معه. فعند كل الدول - برا وبحرا وجوا - حدود متفق عليها للملاحة والصيد والطيران واستخراج الطاقة. وكل مشاكل الدنيا حدود. ولأن التاريخ كله حروب فى حروب. فلابد أن يعاد النظر بعدها فى كل الحدود والسدود والقيود. ودون انتظار لأحد أعلن الرئيس القذافى أن حدوده الدولية تمتد إلى ما يشاء. وأثناء المعركة الانتخابية الأمريكية بعث برسالتين لكارتر وريجان. وكان المعنى الذى قصده الرئيس الليبى هو أن مناورات الأسطول السادس فى البحر الأبيض هى فى صميم المياه والأجواء الاقليمية - أى أن المناورات عدوان على ليبيا لا تسكت عليه.

وفى سنة ١٩٧٣ أطلقت إحدى الطائرات الليبية النار على طائرة أمريكية وكذلك فى العام الماضى. ومنذ أيام أيضا..

وكان الرد الأمريكى على العدوان الليبى، دليلا على أن الإدارة الأمريكية قد تغيرت. وأن السكوت على ليبيا سوف يؤدى إلى تشجيع دول أخرى فضرب الطائرتين الليبيتين، لم يكن المقصود منه ليبيا وحدها، إنما أية دولة أخرى.. والاتحاد السوفيتى الذى يحمل ليبيا على كتفيه..

وفى إدارة الرئيس كارتر تقدم الرئيس الليبى بشكوى من القوات المصرية على حدوده. ونقل الرئيس كارتر هذه الشكوى إلى الرئيس السادات. وكان رد الرئيس السادات أن الرئيس الأمريكى يستطيع بسفن الفضاء وطائرات الاستطلاع أن يعرف صحة هذه الشكوى. ولكن المعنى الذى أرادته الإدارة الأمريكية فى ذلك الوقت.. هو

أن ليبيا تشكو إلى أمريكا، وأن أمريكا تقبل هذه الشكوى وتنقلها، وتنقل معها أيضًا أن أمريكا وليست روسيا - هى التى تقبل الشكوى الليبية وتنظر فيها، ومعها شئ من التحذير المهذب. أى أن القذافى رجلها، رغم كل ما يحيط به من حرس ألمانى شرقى وخبراء سوفيت وجنود كوبيين. وقد فهمنا ذلك من وقت طويل - أى من سنة ١٩٦٩ عندما رفع القذافى يده العارية من السلاح وحنجرته المجهولة من كل أذن. وقال للأمريكان: أخرجوا من قاعدة هويلس..

فخرجوا. واعترف القذافى صراحة بأنه عندما علم أن الأمريكان قد خرجوا أفزعه ذلك.. وقال للصحفية الايطالية أوريانا فلاتشى: إن دراستى للتاريخ علمتنى أنه ما من مرة خرجت قوة عظمى. إلا تركت مكانها لدولة عظمى أخرى!..

وقد صدق القذافى، فعندما خرج الأمريكان دخل السوفيت - ولكن الذى «يبدو فقط» هو أن الأمريكان قد خرجوا!.

والأمريكان أكثر الناس خوفا مما حدث فى الأيام الأخيرة. فمنطقة الشرق الأوسط هى منطقة الرمال المتحركة والحدود الذائبة، والوجوه المتعددة للرأس الواحد. ولدى الأمريكان تاريخ طويل فى الأزمات الدولية التى بدأت بالمشاكل الصغيرة وانتهت بمواجهات عنيفة: أزمة برلين والحرب الكورية والتدخل الصينى فى كوريا وخليج تونكين الذى استدرج أمريكا إلى حرب فيتنام والأزمة المجرية والعدوان الثلاثى على مصر وأزمة الصواريخ الكوبية وغيرها..

ولذلك يتساءل الأمريكان: ألم يكن فى الإمكان التجاوز عن العبث الليبى؟ كان من الممكن. ولكن هل يمكن التجاوز عن إهانة أمريكا وتمريغها فى الوحل بعد الذى حدث فى إيران وأفغانستان وغيرهما؟ ويتساءل الأمريكان: ومن الذى يستطيع أن يؤكد لنا أن الطائرات الليبية هى التى بدأت بإطلاق النار؟.. ومن الذى يؤكد أن الحادث قد وقع فى الأجواء الدولية؟.. ثم هل فكرت أمريكا فى ٢٥٠٠ من المواطنين يعيشون فى ليبيا؟.. وهل فكرت فى منع القذافى للبترول عن أمريكا؟..إلخ.

هل هذا الحادث مفاجأة؟ ليس مفاجأة لأحد، لا لليبيا ولا أمريكا. هل ناقش الرئيس السادات والرئيس ريجان احتمال وقوع مثل هذا الحادث؟ نعم. لقد تناقش

الرئيسان فى تفاصيل ما يجرى فى ليبيا والتسلل الشيوعى و «الاحتواء» السوفيتى لكثير من الدول.. والتردد الأمريكي من التدخل لحماية مصالحها فى المنطقة.. والذى حدث أخيرا ليس إلا معنى واحد، هو «الردع» الأمريكى لليبيا، والردع معناه: تخويف ليبيا حتى لا تتورط فى مواقف أخرى تكلفها خسائر أفدح. وهذا هو الردع المحدود الذى استخدمته أمريكا كثيرا منذ الحرب الباردة. ولكن هناك «الردع الاستراتيجى» أى تخويف روسيا حتى لا تتورط الدولتان فى مواجهة خاسرة لكل من الدولتين العظميين. وهذا ما حرصت عليه الدولتان منذ الفراغ السياسى الذى خلقته ألمانيا النازية فى أوروبا. فأمريكا وروسيا تتواجهان وتصعدان وتتباريان فى الأسلحة المتطورة وتتوازن قواهما. ويكون التوازن استعدادا للحرب التى لا يريدانها.. وهكذا من تخويف إلى تعادل إلى تهديد - وهذا الردع الشامل لأعظم دولتين فى القرت العشرين..

ولم يحدث أن استطاعت حكومة أمريكية أن تشخص ويلات الشرق الأوسط كما فعلت حكومة ايزنهاور مع وزير خارجيته فوستر دالاس. ولم يحدث أيضا أن أساءت حكومة تطبيق هذا التشخيص الصحيح كما فعلت حكومة أيزنهاور أيضا.. لأنها تبنت التفكير الساخن بأعصاب باردة. وكانت القضية التى أمامها: تلك المساعدات الاقتصادية والعسكرية الهائلة التى يقدمها السوفيت فى الشرق الأوسط. وكان رد الفعل الأمريكى هو سحبها مشروع تمويل السد العالى المصرى. وكان ذلك استمرارا فى سوء الفهم وسوء التقدير، الذى بلغ قمته فى ذلك الوقت، وفى كل وقت، بوضع إسرائيل فى كفة، والعالم العربى كله فى كفه أخرى..

ويوم إلتقى ايزنهاور ودالاس وكتبا معا البيان المشهور يوم أول يناير سنة ١٩٥٧، الذى وافق عليه الكونجرس، دخل هذا اليوم فى التاريخ على أنه انتقال الشرق الأوسط. من الدوران فى فلك قديم إلى الدوخة فى فلك جديد. لقد انتهت سيادة بريطانيا وفرنسا على مقدرات الشرق الأوسط. وانفردت أمريكا بذلك. فقد تسلم ايزنهاور عصا المايسترو الذى يقود ألوف العازفين للحن التعايش السلمى بين أمريكا وروسيا فى المنطقة. ولم يكن اللحن جيدا، ولا كان العزف ناجحا، فالمايسترو لم يقرأ النوتة الموسيقية بعناية، ولا اتسع وقته لحفظها والتدرب عليها!..

وكانت سياسة ايزنهاور الجديدة هي سياسة «الاحتواء». احتواء الدول ومشاكلها حتى لا تتعرض إلى انتهازية السوفيت. وكان ذلك موقفا سلبيا.. وفي رسالة ايزنهاور إلى الكونجرس الأمريكي بعد ذلك بأيام، قال بوضوح: إن الروس يحلمون بالشرق الأوسط منذ أيام القياصرة حتى أيام البولشفيك، إنهم يريدون القوة السياسية بنشر تعاليمهم الشيوعية في المنطقة ولو تركناهم يفعلون ذلك لخسرنا افريقيا واوروبا الغربية أيضا.. فكان ذلك أحسن تشخيص، أما سوء الفهم فكان أسوأ علاج! وفي عصر الرئيس كنيدي اتخذت الإدارة الأمريكية سياسة جديدة. هي «الردود المرنة» أي أن رد الفعل الذي تقوم به الإدارة يجب أن يكون مرنا. وهذه المرونة مصدرها أن الأجهزة المختلفة تضع أمام الرئيس الأمريكي عددا من الخيارات، وهو وحده الذي يختار من بينها ما يراه مناسبا. ولو وقعت الحادثة الليبية في عهد الرئيس كنيدي لضرب المطارات الليبية أو طالب بخروج السوفيت من ليبيا فورا..

ولو حدث ذلك أيام الرئيس ترومان لاستخدم القنبلة الذرية في ضرب مدينة طرابلس. بشرط ألا تحترق آبار البترول الأمريكية.

وعلى أيام الرئيس كنيدي كان الأمريكان يعانون من حالة مرضية هي : انفجار الحرب الثالثة في أي وقت وفي أي مكان ولأي سبب.. وبسبب هذه العوامل المجهولة المتنوعة، كانت نظرية الإدارة الأمريكية هي ترك اختيارات عديدة ومتنوعة على مكتب الرئيس..

وظهرت بعد ذلك نظرية «الردع المكثف» - أي حشد كل القوى لضرب العدوان مرة واحدة وفي فترة قصيرة. والأكتفاء بهذه الخسائر الفادحة التي لحقت به ليخاف غيره من المعتدين في أماكن أخرى. وأعظم مثال لذلك ضرب اليابان بأول قنبلة ذرية في التاريخ.. بهذه القنبلة انتهت الحرب العالمية الثانية. وازداد الخوف من الحرب الثالثة التي يمكن أن يشنها من يملك هذه القنبلة!.

وفيلسوف السياسة الإيطالي مكيافللي هو صاحب العبارة الخالدة استعراض القوة والتهديد بها، يوفر عليك حروبا كثيرة!..

وربما كان هذا هو السبب في أنه في أعقاب حرب الثلاثين عاما في أوروبا، لم

تقم إلا حروب صغيرة. لقد جربت أوروبا الحرب الشاملة المدمرة، ولذلك لم يشأ أحد أن يكررها. إنما فقط يهدد بها دون أن يجد نفسه مضطرا إليها. ولم تكن دوافع الحروب الصغيرة بعد الحرب الثلاثينية سوى الاستيلاء على مساحة أرض أو احتلال قلعة أو توسيع نطاق كنيسة..

فهل هذه المعركة الجوية غير المتكافئة بين ليبيا وأمريكا قد انتهت عند هذا الحد؟.. هل هى انتهت لأن أمريكا قد أعلنت ذلك؟ هل انتهى الدرس الأول والأخير الذى أعطته أمريكا لليبيا وغيرها؟.

لقد أعلن القذافى فى الشهر الماضى أن المخابرات الأمريكية إذا كانت لاتزال تدبر للقضاء عليه، فسوف يغتال الرئيس الأمريكى وغيره من الزعماء.. وسوف يخرب المصالح الأمريكية فى أى مكان. وهو كلام لا يقوى على تطبيقه الرئيس الليبى.

وتجربتنا مع الرئيس الليبى تؤكد أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من الكلام، وإذا كان هذا ما يفعله معنا، فما الذى يستطيعه لأمريكا؟

ولن تحدث مواجهة بين السوفيت والأمريكان من أجل ليبيا أو حماقة ليبيا. وسوف يحاول الرئيس الليبى أن يستعدى روسيا على أمريكا، وسوف يطلب إليها أن تقطع علاقتها بها.. وإلا..وإلا اضطر الرئيس الليبى إلى أن يعيد حساباته مع السوفيت. وأن يكون له «موقف مع الصديق». ومن المؤكد أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك أيضا.

وسوف يتجه الرئيس الليبى، كما فعل بالأمس، إلى أن يطلب من العرب جميعا أن يدينوا العدوان الأمريكى على الأجواء الليبية.. فماذا لو فعل بعض العرب ذلك؟ وماذا لو عقدوا مؤتمر قمة جديدا وموسعا لإدانة العدوان الأمريكى «الجديد» على أمن وسلامة الهواء الليبي؟..

إننا مرة أخرى فى صميم «رحلات جليفر» الخرافية والتخريفية أيضا. وأمام هذه النكتة المكررة للعجز والهلوسة عندما تحتشد قمة الخطابة وفروسية العصور الوسطى. وإن كان لهذه القمة الجديدة جدا من معنى فهو: الاستمرار فى الابتعاد عن القضية الحقيقية فى العالم العربى، وهى ما الذى فعلوه، وسوف يفعلونه، لحل مشكلة الشعب

الفلسطيني؟.. ما الذى قدموه، أو سوف يقدمونه، بأموالهم ورجالهم، لكى يكون للشعب الفلسطيني وطن يحكمه مستقلا؟ كيف يحل العرب مشكلة فلسطين بضرب لبنان وتمزيقه؟، كيف يحل العرب مشكلة فلسطين أولا والقدس ثانيا؟.. كيف لا يحاسب العرب السعودية على مشروعها الذى أصيب بالسكتة القلبية فور ولادته؟.. كيف لا يسأل العرب الملك الحسن الثانى عن اتصالاته الطويلة مع إسرائيل وانتظاره لزعيم حزب العمل بيريز فى الأسبوع الماضى من أجل تقديم مشروع لتسوية القدس؟.. وقد أسمى هذا المشروع «تحليل وتحريم» القدس.. أى تحليلها للعرب.. وتحريمها على اليهود؟!.. كيف لا يتساءل العرب: مادامت السعودية قد اتفقت مع إسرائيل على وقف النار، ومادام المغرب يتفق مع إسرائيل على مشكلة القدس، فلماذا لا يعرف بقية العرب ذلك؟ وإلا فما معنى هذه المحاولات الى لا تذهب إلى أبعد من إثارة الانتباه، ثم الصمت بعد ذلك؟..

أما موعد الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها.. فسوف يكون فى مؤتمر القمة القادم فى طرابلس - ومن المؤكد أن الاسئلة سوف تكون أكثر، والاجابة أقل، والفهم أندر!.. ■

نستخدم خطأ كلمات صحيحة!

نحن نسرف فى استخدام كلمة «المرحلة».. فنقول: فى المرحلة الحالية يجب أن نفعل كذا، وفى المرحلة القادمة يجب أن نفعل كذا.. والمعنى واحد: أن مرحلة انتهت وأن مرحلة بدأت. وأن هناك خلافات بين المرحلتين. وأننا لذلك يجب أن نغير أسلوبنا فى العمل..

ونحن لا نقصد أن هناك تغييرا أساسيا قد وقع. إنما لدينا هذه الرغبة، لأن التغيير الأساسى إذا وقع، فإنه يفرض علينا مفهومات مختلفة وأساليب جديدة لتحقيقها.

والإسراف فى استخدام كلمة «مرحلة» يدل على أننا نخجل من أن نثبت على وضع واحد. وأن الشئ الذى لا نخجل منه هو التغير المستمر. فإذا حدث تغير فإننا نطالب أنفسنا بأن نثبت عليه. فكأننا نطالب أنفسنا بشيئين متناقضين معا الاستمرار والاستقرار..

الاستقرار هو أن يبقى الحال على ما هو عليه..

والاستمرار معناه أن نمضى فيما نحن فيه. نتحرك ونتغير وألا نكف عن ذلك.

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٤/٤

والاستقرار معناه أن نتوقف عن التغير أو الرغبة فى التغير..

ولكن عندما استخدم الرئيس حسنى مبارك كلمتى «الاستمرار والاستقرار»، لم يقصد بهما شيئا واحدا، إنما قصد شيئين مختلفين: الاستمرار فى عمليات السلام.. والاستقرار للأوضاع الداخلية المضطربة بأن يكون ضبط وربط ويقظة على سلامة الناس.. فتهدأ الأوضاع الداخلية لتتفرغ للأوضاع الخارجية القلقة المحفوفة بالشك فى نيات إسرائيل، والشك الإسرائيلى فيما تخبئه لها مصر.. أو معناه ألا تنعكس هذه الأوضاع الخارجية على حالة الأمن الداخلى بعد عمليات العنف التى أودت بحياة كثيرين فى أسيوط والقاهرة، ثم بحياة الرئيس السادات..

فكأننا لا نريد تغييرا فى الأوضاع الداخلية، بينما نريد استمرار التغيير فى الأوضاع الخارجية.. فننتقل من تأكيد قليل إلى تأكيد أكبر، ومن تطبيع قليل إلى تطبيع أكثر. أى أن يتزايد التغيير فى اتجاه واحد. بينما تتوقف التغيرات فى الداخل تماما، حتى لا تذهب فى أشكالها العنيفة إلى أبعد مما وصلت إليه..

مثلا: فى مواجهة الفساد الأخلاقى والإدارى والكسب غير المشروع.. فإننا نطالب بالاستمرار والاستقرار معا، فنحن نطالب بمحاسبة اللصوص. وأن نظل متمسكين بهذا الشعار أو بهذه القاعدة..

وقد جربنا ذلك كثيرا قبل ثورة يوليو وبعدها. فكانت حملات التطهير، وتطهير التطهير.. وأمسكنا لصوصا، وظلمنا من ليسوا لصوصا. واليوم نحاكم الذين سرقوا ونهبوا وأفسدوا. وسوف نمضى فى ذلك كثيرا وربما طويلا..

وكما يحدث فى كل مرة عندما نسرف فى استخدام الكلمات العنيفة، ونحشد مشاعر الناس لكراهية اللصوص والشماته فيهم والرغبة فى عقابهم نجد الناس قد ضاقوا بكل ذلك. ضاقوا به لأنهم قد ملوا النغمة الواحدة.. وملوا المحاكمات الطويلة.. وأهم من ذلك أن الناس لا يجدون عائدا ماديا. فالأموال التى استردتها الدولة من اللصوص لم تنتقل إلى جيوب الناس..

وسوف تفزع الدولة أيضا من أن تتهم كل غنى بأنه لص وتصبح المعركة بين كل الأغنياء وكل الفقراء. والغنى الشريف والغنى اللص. وتصبح الثروات معناها السرقات.

وهنا يحاول الناس أن يبحثوا لأنفسهم عن السبب الحقيقى. هل هو الدولة بقوانين الانفتاح؟ هل هو القوانين الكثيرة جدا التى يتوه فيها القاضى والمتقاضى واللص والمحامى والشعب؟ هل صحيح أن الدولة حريصة على محاربة اللصوص. أو أن وراء هذه الحرب أهدافا شخصية.. أى أننا نقوم بما هو سليم لأسباب خاطئة؟ وهنا تتدخل الدولة لايفاد المجتمع كله من فتنة مادية..

وكما بدأنا نتحدث عن مرحلة جديدة فى ضبط اللصوص ومعاقبتهم، فإننا بدأنا مرحلة جديدة فى إطفاء الغيظ فى كل شركة وكل مؤسسة وكل بيت وكل مصر، حتى لا يفقد الناس ثقتهم فى كل شئ نظيف شريف..

ولابد أن نعتدل بين هذا التطرف فى محاربة اللصوص، والتطرف فى غض النظر عنهم.. ويكون الاعتدال هو أن نتحدث عن أن القانون لا يمنع الكسب الحلال ولا يمنع أن يكون الإنسان مليونيرا.. وأن يكون فى مصر مئات الألوف من أصحاب الملايين بشرط.. بشرط أن يؤدى كل إنسان ما وجب عليه نحو الدولة، أى من الضرائب والتأمينات وفوائد القروض، وأن يكون لديه الدليل الصحيح عن مسار أمواله ذهابا وإيابا.. وهذا ينقلنا إلى معنى آخر من معانى التغيير:

فهناك خوف من التغيير..

وهناك خوف على التغيير..

فإذا كان التغيير فى الاتجاه الصحيح، فإننا نخاف على التغيير أن يتوقف. وإذا كان التغيير فى الاتجاه الخاطئ، فإننا نخاف من التغيير أن يمضى هكذا دون أن يتوقف. أو دون أن نقوم بتعديل مسار هذا التغيير..

وهناك مصدران للتغيير..

أن يجئ التغيير من أعلى، وأن يجئ التغيير من أسفل..

وقد عرفنا فى تاريخنا أنواعا من التغيير من أسفل هو الذى تريده الجماهير. أى عندما تكون هناك إرادة شعبية نحو الإصلاح. وتكون هذه الإرادة العامة هى الثورة..

فالثورة الشعبية هى التى تفرض التغيير من أسفل.. أما التغيير من أعلى

فهو الذى يضعه الزعماء والقادة والمفكرون.. ثم يقنعون به الجماهير. وتكون الجماهير سندا ومنطلقا..

وقد يتحقق هذان النوعان فى وقت واحد. فتفرض الجماهير امانيها واسلوبها على القيادة والزعامة. ويكون دور الزعامة هو صقل وتنظير هذه المشاعر الشعبية. وهكذا يكون التغيير من أعلى استجابة لرغبة التغيير من أسفل. وقد عرفنا ذلك فى ثورات عرابى وسعد زغلول وعبد الناصر والسادات..

ولأن الدافع إلى التغيير يكون نفسيا أول الأمر، فإننا نخطئ فى فهم هذه الرغبة أيضا ونتصور أن تغيير وضع مثل تغيير ثوب. ولكن تغيير الأوضاع مثل تغيير الريش عند الطيور، والأزهار عند الأشجار، والبشرة عند الإنسان - يحتاج إلى وقت. ولابد أن تكون ضرورة قوية. ويخيل إلينا أن رصف طريق بين بلدين، هو المثل الأعلى لما يجب أن نفعله فى العلاقات الإنسانية.. فنحن عندما نرصف الطرق فإننا نسوى الأرض وندكها ثم تغطيها بالأسفلت. وهكذا فى يوم أو يومين تكون ناعمة كالحرير.. فتنزلق عليها السيارات ذهابا وإيابا.. وهكذا نربط بين المدن وبين سكان المدن.

ولكن ليست بهذه السهولة محاولة تسوية العلاقات بين صديقين أو بين عدوين أو بين دولتين. فالعلاقات الإنسانية صعبة ومعقدة، والعلاقات الاقتصادية والسياسية أيضا. ولذلك فإذا احتاج رصف الشارع وتسويته إلى أيام، فإن رصف العلاقات الإنسانية وتسويتها بين مصر وإسرائيل احتاجت، ولاتزال، إلى سنوات.. ويوم ٢٥ أبريل القادم ليس إلا البداية..

وقد كنا من عادتنا فى الأفلام القديمة أن ينتهى الفيلم بزواج البطل والبطلة. وكنا فى ذلك الوقت، نرى أن الزواج هو النهاية. ولكن الفهم الواقعى للحياة جعلنا نرى أن الزواج هو بداية العلاقات العادية بين رجل وامرأة. أى بداية المشاكل. أما فترة ما قبل الزواج. أى فترة الحب والشوق وتحدى الأسرة والمجتمع، فهى الفترة غير العادية. أى الفترة التى يكون فيها كل شئ بعيدا صعبا. ولأنه بعيد وصعب وملتهب، فالكلمات والأفكار أيضا. ويجئ الزواج نهاية لمرحلة صعبة. ولكنه بداية لمرحلة أصعب. وهى أصعب لأنها عادية.. أى مرحلة «تطبيع» العلاقات بين اثنين من الناس لا يعرف

أحدهما الآخر.. أو أنهما قد تعارفا فى ظروف غير طبيعية. وأنهما تغلبا على الظروف غير الطبيعية أملا فى أن تكون الظروف طبيعية بعد ذلك. هذه الظروف هى التى تبدأ عندما ينتهى الفيلم. وهذا ما سوف يحدث أيضا بعد ٢٥ أبريل القادم.. فعند هذا اليوم تنتهى الظروف غير الطبيعية لتبدأ الأحوال الطبيعية لدولتين عاشتا بالحرب أملا فى أن تعيشا بالسلام بعد ذلك. ويحدث فى السلام ما يحدث بين جارين أو صديقين من اختلاف واتفاق.. ولكن المهم الا يصل الخلاف إلى الحرب.

ومن أخطائنا فى فهم التغيير أيضا أننا نتصور أن الأخطاء التى وقعت قبل ذلك فى حياتنا العامة كانت بسبب الأشخاص الذين كانوا يديرون الحياة فى مصر. فالتغيير المطلوب إذن، هو تبديل هؤلاء الأشخاص. ولذلك فعندما نتكلم عن «المرحلة الجديدة» فإننا نقصد أولا: الشخصيات الجديدة التى لها أفكار جديدة وأساليب جديدة، والقادرة على نقل المجتمع كله من عربة قديمة إلى عربة جديدة.. ومن قطار بضاعة إلى قطار ركاب.. ومن سيارة إلى طيارة!! وهو خطأ لأن التغيير لا يكون شخصيا - أى بسبب الأشخاص. إنما التغيير يتم بسبب تداخل وتعاون عناصر عديدة مادية وإنسانية، وأوضاع داخلية وخارجية، وفكرية وسياسية. تهزنا جميعا لأننا فى وعاء واحد. أو على ظهر زورق واحد نتساقط معا ونتساند معا. ونحرص معا على السلامة.

ثم إن تغيير الأشخاص ليس هو التغيير، فليس أسهل من أن تأتى كل يوم بوزير فى نفس الوزارة. وليس أسهل من أن يعلن كل وزير رأيا مخالفا لسلفه العظيم!

وليس أسهل من أن ترتبك الوزارة كلها. ويكون الارتباك بسبب إشباع رغبات الناس فى تغيير الوجوه، ثم إن الوجوه الجديدة معناها الكفاءة الجديدة، ولا أظن أن لدينا كل هذا العدد المطلوب من كوادر السياسة وكوادر الخبرة الفنية.

وقد حدث كثيرا هذ التغيير «الوهمى» للقيادات، مما أدى إلى أن أصبح التغيير معنى فارغا، وأصبح التغيير مرادفا للعبث، وهذا يذكرنا بما حدث فى أحد مسارح القاهرة عندما عرضت مسرحية من «أدب اللا معقول» أى أدب العبث. فقد وقف الملك ينادى على الشاعر الفلانى.. ثم يطلب إليه أن يلقى بنفسه من النافذة.. ثم ينادى على الشاعر الفلانى، ويأمره بأن ينتحر.. ويتوالى الشعراء ولا يمل الملك دعوتهم إلى الموت.. وينزل الستار دليلا على نهاية المسرحية، وعلى أن الملك قد

أجيبت كل رغباته.. فما هو المعنى؟ لا معنى إلا أن الملك يلهو.. وإلا أن لهو الملك هو قضاء وقدر.. وإلا أنه يحقق رغبة الشعب فى التغيير، ورغبته هو فى التلاعب بالشعب والذين يعبرون عن آماله وأحلامه إذن فليس تغيير الأشخاص هو الذى يؤكد انتقالنا من مرحلة إلى مرحلة.

ولو عدنا إلى الزورق الذى نحن جميعا فيه، وتصورنا أن الزورق لا يكاد يمضى بعيدا عن الشاطئ حتى نرى ضرورة تغيير الركاب والقيادة. فنعود إلى الشاطئ. وبعد ذلك نمضى قليلا ثم نرى أن التغيير واجب. فنعود إلى الشاطئ مرة ثانية وثالثة.. وهكذا يتحرك الزورق ولا يتقدم، وإذا تقدم فلكى يعود.. ونظل فى حالة اهتزاز أو شلل.. لا لسبب غير الرغبة فى التغيير..

وكنا فى مصر نضحك على أمير عربى متشدد فى فهمه للدين.. اشترى طائرة وحاول أن يسافر بها إلى أمريكا فلم يفلح ولم يعرف أحد السبب.. وأخيرا عرفنا أنه فى كل مرة ترتفع الطائرة ويحين موعد صلاة الفجر، فإنه يأمر الطيار أن يتجه بالطائرة نحو القبلة.. وكذلك حين تحين صلاة الظهر وبقية الصلوات، وهكذا يظل القائد يتجه بطائراته إلى الكعبة.

وأخيرا أعلن الطيار أنه لا يستطيع أن يصل إلى أمريكا، ولذلك هبطت الطائرة ولم يسافر الرجل.. وهو فهم سيئ وخاطئ للدين.. ففى استطاعة الإنسان أن يصلى جالسا أيا كان اتجاه الطائرة. ولكن الرجل لم يفعل لأنه جاهل.. ولذلك يبعث على الضحك..

وفى التاريخ الإنسانى تجربتان واسعتان لمعنى التغيير: تجربة نابليون عندما أتى بعدد كبير من العلماء، وأعطى لكل واحد وزارة، فجعل الأديب وزيرا للثقافة وجعل الطبيب وزيرا للصحة وجعل الضابط وزيرا للحربية والمحامى وزيرا للعدل.. إلخ، وكانت النتيجة أن كل واحد منهم قد غير الأسس والمبادئ الأساسية فى وزارته.. دون أن يدرى بما يفعله زملاؤه.. ودون ترابط.. المهم هو أن يترك آثاره على كل فكرة.. وكل تطبيق لها..

وهذه الوزارة عرفت فى التاريخ باسم «وزارة العلماء» أى الوزارة الواحدة لعدد

من الوزراء المختلفين.. أو وزارة الوزارات.. وأحسن صورة كاريكاتورية لهذه الوزارة أن جلس الوزراء ظهرا لظهر.. أما وجوههم وأنظارهم وأهدافهم فأبعد من ذلك كثيرا..

وقد عرفنا فى مصر أشكالا وألوانا لمثل هذه الوزارة بكل مزاياها وعيوبها وفداحتها أيضا..

وكانت اليابان فى أوائل القرن التاسع عشر أسبق دول العالم إلى نوع آخر من التغيير، فقد تشكلت الوزارة بسبب فكرة خطرت على رأس الامبراطور. وكانت هذه الفكرة هى خطة متواضعة.. واجتمع الوزراء واتفقوا على توضيح وتدعيم هذه الخطة.. وتعاهدوا على الالتزام بها.. وكان الامبراطور يغير الوزراء ولكن الخطة لا تتغير..

وفى الدول الاشتراكية تحولت هذه الفكرة إلى خطة مدروسة محسوبة الشكل والحجم لسنوات قادمة..

وهذه الوزارة عرفت فى تاريخ الحكم بإسم «الوزارة العلمية» - أى الوزارة التى يختلف فيها الوزراء، ولكن الهدف لا خلاف عليه..

فإذا كان هناك تغيير ضرورى فهو فى الأشخاص، ولكن الطريق والهدف معروف لدى الجميع.

ففى وزارة العلماء يكون تغيير الأشخاص هو التغيير.. لأن كل واحد منهم يعتمد على فكره، وكل واحد كالعنكبوت ينسج خيوطه التى يعيش عليها أو التى يشنق منها أيضا.. فالوزارة مغامرة غير محسوبة..

أما الوزارة العلمية فليست فيها مغامرة.. فالوزير يروح ويجئ لخطأ فى العلاج أو فى التطبيق.. أما المغامرة الحقيقية فعندما يحاول أن يغير فلسفة العمل أو الهدف من التغيير.. ولذلك عرفت الحكومة العلمية الاستمرار الهادئ... بينما لم تعرف حكومة العلماء إلا التبديل العنيف..

أما الذى يحدث فى مصر فشئ عجيب حقا، فلا يكاد أحد يعلن عن مرحلة قادمة حتى يردد الناس نفس الكلمة ويطالبون بذلك فى كل مجال.. مع أن هناك

مجالات يستحيل تغييرها.. هل يمكن تغيير الطائرات والسيارات والتليفونات وتدفق المياه من النيل إلى البحر ومواقيت الصلاة ودين الدولة؟.. وإذا قال واحد: أمسكوا الحرامى.. تطوع الناس لإلقاء الوحل على آخرين، وإذا شب حريق.. تزاحم الناس يلقون فيه بالورق والوقود، وإذا انهدم بيت.. أحس الناس أن البيوت كلها سوف تقع.. وإذا فسد الدجاج يصيح الناس: والأرز والسمك والسجائر.. وإذا قتل مسلم مسلماً، فليس كل المسلمين قتلة.. ولا كل المسلمين يستحقون القتل.. وإذا قتل مسلم مسيحيا، أو العكس، فليست هذه رغبة شعبية لإنقاص عدد المسلمين أو القضاء على الأقباط..

ويكفى أن نلاحظ أنفسنا عندما نتحدث عن ضرورة التغيير والتبديل، لنجد أننا نبدأ الكلام بحرارة والتفكير بحماسة.. وبعد لحظات يتثاءب بعضنا.. ثم نتثاءب جميعا ويكون التثاؤب دليلا على الملل.. أى الملل من استخدام نفس الكلمات ونفس المعانى كل يوم.. أى أننا لم نتغير اليوم عما كنا عليه بالأمس.. وننسى أن الشعب، مثل الحكام أيضا، يعرفون الملل الذى هو كيمياء من : التعب والرغبة فى التغيير والخوف من التغيير، وكما يحدث فى كل ليلة ينتهى التثاؤب بالنوم.. أما النوم فهو القاضى العادل بين الرغبة المستمرة فى التغيير، والرغبة الملحة فى التمدد بلا حركة، أى بلا تغيير، ويرى العالم فرويد أن أحلامنا فى النوم، ليست إلا تحقيقا مزيفا لرغباتنا، وأن الإنسان عندما ينام يكون مثل طفل جائع، فتأتى أمه فترضعه فينام، والأحلام هى الرضاعة التى يقدمها الإنسان لنفسه لعله ينام.. وينام.. فإذا لم ينم الإنسان، كان معنى ذلك أنه يرفض هذه الرضاعة، أى يرفض هذه المسكنات ويأبى إلا طعاما حقيقا..

ولما كان تحقيق أحلام الناس ليس بهذه السهولة، فقد عرف أكثر المفكرين والساسة والمصلحين الأرق ليلا ونهارا..

إذن فما هو التغيير المطلوب؟.. يجب أن نغير نظرتنا إلى التغيير، فلا أحد يملك عصا سحرية، يضرب بها الأرض الصفراء فتكون خضراء.. لقد فعلها موسى عليه السلام.. بإذن من الله، فأكلت عصاه أفاعى فرعون.. ثم ضرب بها البحر الأحمر، فكان طريقا خرج منه بنو إسرائيل فى مثل هذا اليوم تماما من ٣٢١٢ عاما، ولكن موسى

عليه السلام كان نبيا، وكان الذى يفعله معجزة، والمعجزات ليست لغير الأنبياء..

أما نحن فلا نملك هذه المعجزات، ولذلك يجب أن نعرف أن التغييرات محسوبة - أى لها حسابات.. لها قواعد ولها زمان ولها مكان.. وأن عامة الناس الطيبين، ليس لديهم متسع من الوقت لكى يفكروا فى مثل هذه المعانى.

ومن هنا كان واجبنا أن نساعدهم وأن نرشدهم. ومن وسائل إرشاد الناس أن نوضح لهم معانى الكلمات التى يستخدمونها.. والتى تدفعهم إلى الاسراف فيها. فإذا أسرفوا اعتادوا عليها.. وإذا اعتادوا ظنوها حقائق.. وطالبوا أنفسهم بضرورتها.. أى ضرورة التغيير من أى نوع، وفى أى وقت ولأى سبب وبلا سبب.

وهذا ليس خطأ الناس وحدهم، إنما خطأ الذين يتولون إدارة حياة الناس، أفكارهم وأعمالهم..

ولذلك فنحن، بكل صراحة وصدق، نستخدم خطأ كلمات صحيحة!.. ■

الرئيس السادات استقبل مبعوث القذافى فى باريس ؟! ثم رفض الصفقة السرية !

من عيوبنا نحن العرب أن نرى حلا واحدا لكل المشاكل. أو طريقا واحدا لأى هدف. ولذلك فنحن لا نرى إلا رأيا واحدا. أى أننا لا نقبل وجهات النظر الأخرى والاحتمالات المتعددة.. فكان من المألوف عندنا أن نقول: من ليس معنا فهو علينا. أو إما أن تكون صديقى وإما أن تكون عدوى.

ولذلك اختلفنا، ولم نحترم وجهات نظر الآخرين. مع أننا لو نظرنا إلى الآخرين لوجدنا أن الخلافات بيننا كثيرة، ابتداء من الوجه حتى القدم، وأننا نعايش هذه الاختلافات أو الخلافات ونقبلها على أنها حقيقة جسمية. ونرى فى ذلك الاختلاف الهائل بين وجوه الناس وبصماتهم دليلا على عظمة الله.. وننسى أن هناك مثل هذه الخلافات والاختلافات فى الفكر والعواطف والطرق والأهداف!..

ومعنى ذلك أننا نسلم بالاختلافات الجسمية، ولا نسلم بالخلافات الفكرية أو العاطفية. أى أننا نوافق على قدر من الخلاف فيما بيننا. وهذا هو الفهم الصحيح. لولا أننا لا ننتقل بعد ذلك إلى التسليم بالخلافات فى الرأى. وكما أنه ليس من الطبيعى أن يتشابه اثنان من الناس فى كل الملامح، فإن من الطبيعى ألا يتطابق الناس فى كل

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٤/٥

الأفكار. وإذا تطابقت الأفكار فمن الممكن أن تفترق الطرق. وإذا افترقت الطرق فمن الممكن أن يتوحد الهدف..

وليست هذه نظرية جديدة. ولكنها الدنيا كلها.. أى التاريخ من ماضيه إلى حاضره إلى مستقبلنا أيضا.. وأقرب الأمثلة إلينا ما يحدث فى أوروبا: السوق الأوروبية أو البرلمان الأوروبى. إنها مجموعة من الدول اختلفت فى أشياء كثيرة، ليست اللغة أقل ما بينها من خلافات. ومع ذلك فإنها تجلس معا لتتفق. أى لتسوى ما بينها من خلافات. فإذا ظهرت خلافات جديدة، عادت تحسم هذه الخلافات. ووسيلتها إلى ذلك: الحوار. والهدف هو المصالح المشتركة واستبعاد العنف كوسيلة لفرض الرأى الواحد والمصلحة الوحيدة لشعب دون الشعوب الأخرى.. وفى الاجتماعات الأخيرة للسوق الأوروبية اختلفوا بعنف، وأصدروا بيانا مشتركا حزينا. ولكن أوروبا التى عرفت الحروب والثورات، هى أكثر الشعوب إيمانا بالسلام والتعايش والوفاق والبناء. وليس من الضرورى أن تبدأ اجتماعات تجار السوق الأوروبية بالعناق والقبلات. أو أن تنتهى بذلك، مثل كل الأفلام الرومانسية التى يكون فيها الزواج السعيد تاجا على رءوس المحبين فيصفق له المتفرجون.. ولا من الضرورى أن تكون المناقشات مذبحة هادئة يخرج فيها كل واحد سلاحه الأبيض من وراء ظهره ويشق به بطن جاره.. لا شئ من ذلك حدث أو سوف يحدث.. فقد اختلفوا. وغضبوا وحزنوا على عجزهم عن الاتفاق هذه المرة، وهم على يقين من أنهم سوف يتفقون. وقد قرأنا ما قاله المستشار الألمانى هيلموت شميت، وما أعلنته السيدة مرجريت تاتشر. ولو كان هذا المؤتمر قد انعقد فى بغداد، على الطريقة العربية، لقال شميت لمرجريت تاتشر: إنى سوف أدخل إليك من نافذة غرفة نومك وأطلق عليك الرصاص!..

ولكن هذا الأسلوب الركيك فى فهم النزاعات وتسويتها لا يكون أوروبيا متحضرا. إنما هو اسلوب عربى. وسوف يبقى كذلك إلى أن نتعلم من التاريخ. والذى يجب أن نتعلمه من التاريخ كثير جدا. ولكن ألف باء التجربة التاريخية هى : أن نتعلم كيف نختلف!..

وهذا ما قاله الرئيس أنور السادات للرئيس حافظ الأسد قبل ذهابه إلى القدس، لقد توقف فى دمشق وطلب من الرئيس السورى أن يعلن فى مؤتمر صحفى: أنه

مختلف مع الرئيس السادات فى زيارته للقدس، لأنه لا يصح أن تجلس مع اليهود. وأنه لذلك يستنكر هذه الخطوة المصرية غير التقليدية. ولكنه متفق مع مصر فى هدفها..

وطلب إليه الرئيس السادات أن يدين هذه المبادرة المصرية، ويمنتهى العنف. وقد وعده الرئيس السادات بأن يعلن هو الآخر فى نفس المؤتمر الصحفى: أنه يؤيد الرئيس الأسد فى هذا القرار. ولكنه مؤمن بما سوف يفعله من أجل مصر ومن أجل سوريا ومن أجل القضية الفلسطينية!.. واختلف الرئيسان. ولم تفرض مصر رأيها على سوريا.

ولكن لماذا تريد سوريا أن تفرض رأيها على مصر؟ ولماذا ترى سوريا أن ما قامت به مصر خيانة عربية، وأن مصر قد باعت الأمة العربية؟!.. ولم نتهم نحن سوريا بالخيانة لمجرد أنها اختلفت معنا فى الرأى، ولا حتى عندما حاولت بالتشويش والتشهير أن تفرض رأيها علينا.. ولا اتهمنا أحدا من «الرافضين» العرب. إنما اكتفينا بوصفهم بالرافضين لوجهة النظر المصرية. ولم نقل الخونة والعملاء والمرتزقة..

فنحن نقبل أن يكون هناك خلاف. وأن يكون هناك اتفاق. وليس من الطبيعى أن نتفق فى كل شئ، رغم اختلاف مذاهبنا السياسية وأوضاعنا الداخلية، ووجود «القوى الضاغطة» على الدول العربية الأخرى.. سواء كانت هذه القوى الضاغطة: تلك التى تملك الفلوس أو التى تبتز الفلوس ثمنا للسلاح!..

ورفضت مصر قبل ذلك «تصنيف» الدول العربية: رجعية وتقدمية، جمهورية وملكية، سنية وشيعية، عربية وفارسية، لأن ذلك شأن هذه الدول. ويجب أن نقبل أنفسنا على ما نحن عليه. وإذا كنا فى مصر قد ثرنا على النظام الملكى، فنحن لا نصدر ثورتنا للخارج. فنحن قد ثرنا على نظامنا الملكى، وليس على النظام الملكى أو الإمارة أو المشيخة أو حكم العائلة الواحدة. فليس هذا مما يعنينا. وقد عانينا فى مصر أيام الرئيس عبد الناصر، كيف أصبح المصرى قبيح الوجه والوجهة، قبيح الرأى والرؤية. فقد كنا مثل حمام الزاجل نسافر إلى البلاد العربية وفى أرجلنا منشورات ضد هذه النظم. فقد كان مبعوثونا يأكلون خبزهم بالتخويف، ويطيلون إقامتهم بالإرهاب. ولكن فى عهد الرئيس السادات عدلت مصر عن هذا التصنيف السياسى أو الدستورى، وعاد لكل مصرى وجهه المشرق ووجهته النبيلة، ورؤيته ورأيه الخاص الذى لا يفرضه على

أحد..

ثم كان التضامن العربى: أى اتفاق العرب على هدف واحد، رغم الاختلاف فى كل شئ. أى أنه بالتضامن العربى: أمكن أن نتفق ونحن مختلفون. وأن نختلف ونحن متفقون أيضا! تماما كما تختلف الأصابع فى اليد الواحدة، وكما تختلف الأنغام فى اللحن الواحد!..

وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ طلبت سوريا والأردن من الرئيس جمال عبد الناصر أن تشاركانا فى المعركة. فرفض الرئيس عبد الناصر. لأنه كان يعلم جيدا أن المقصود بالعدوان هو مصر والثورة المصرية واسقاطه هو.. وأنه لا يريد أن تكون الخسارة أفدح، وذلك بأن تحتل إسرائيل الأردن وسوريا معا. فالرئيس عبد الناصر لم يشأ أن يفرض الموقف الحزين على سوريا والأردن. ولم يكن زعيما أنانيا يستعير اسلوب شمشون، فتنهار القومية العربية عليه وعلى أصدقائه وعلى الأمة العربية كلها. ولكنه لم يفعل.. إيمانا منه بظروف كل دولة وقدرتها على الوقوف وتقديم واجب المشاركة الوجدانية فى محنة مصر.. وفى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ طلب الأردن أن يدخل المعركة. فأرسل إلى الرئيس السادات السيد عادل حماش وزير القصر يقول إن سوريا تضغط عليه أن يدخل المعركة. فقد كانت سوريا قد انهزمت أمام إسرائيل منذ اليوم الثالث. ولكن الرئيس السادات طلب إلى الملك حسين ألا يدخل المعركة. لأن جيشه عريان بلا غطاء جوى. وجاء رفض الرئيس السادات إنقاذا للملك حسين وللأردن كله، فلو دخل المعركة لاستولت إسرائيل على الأردن وأطاحت بالملك حسين.. ولتغير التاريخ، ولازدادت القضية الفلسطينية تعقيدا. ولكن الرئيس السادات لم يفعل. ولم يفرض الحرب على الأردن، تقديرا لظروف الأردن والشعب الفلسطينى والملك حسين..

وما يقوله الملك حسين الآن ضد الجيش السورى هو نموذج للسلوك العربى، أو للطريقة العربية فى تغيير المواقف عاطفيا. فالملك حسين يفضح سوريا التى انهزمت فى حربها ضد إسرائيل!..

أين كان هذا الرأى منذ وقت طويل؟ لقد اختفى هذا الرأى وراء الخوف من سوريا، ووراء التضامن مع سوريا ضد مصر. فلما اختلفت سوريا مع الأردن، ولما هددت سوريا الأردن بالتدخل العسكرى، أخرج الملك حسين ما أخفاه فى جيبه من رأى

حقيقى فى الجيش السورى والحكومة السورية وحزب البعث!..

وليس ما يقوله الملك حسين حبا فى مصر، أو تقربا لها، إنما هو يقول ذلك لأن الرؤية العربية مثل الرأى العربى - فالرؤية العربية لا تميز الألوان إنما هناك لون واحد دائما. فالعقلية العربية مصابة بعمى الألوان فهى مع سوريا اليوم، وضدها غدا. ولا يمكن أن نتفق مع بعض آرائها، وضد بعضها الآخر، فى وقت واحدا!..

ومصر عندما أمدت جيش العراق بالسلاح مع اختلافها معه فى غزو إيران. نموذج للنظرة المصرية الواسعة.. أى التى تشمل الاتفاق والاختلاف معا. فمصر ترى أن عدوان العراق على دولة إسلامية أخرى مثل إيران. لا ضرورة له، وأنه يمكن بالمفاوضات ألا تكون مصادمات. ولكن العراق عندما طلب إلى مصر ذخيرة وسلاحا وافقت مصر أول الأمر: على أن يمر سلاح أوروبى عبر الأجواء والأراضى المصرية وثانيا على أن يكون هناك جسر جوى بنقل الذخيرة إلى العراق - عشرات الألوف من الأطنان. وكان من الممكن أن نعطيها للعراق دون مقابل، لولا ظروفنا المالية الصعبة، ولولا ثراء العراق الذى لا حد له!..

وهناك مثال آخر : فبعد أن انقطعت العلاقات بين مصر والمغرب بصورة مهينة لكل العرب. طلبت المغرب سلاحا من مصر. ووافق مصر. وجاء ضباط مغاربة إلى القاهرة. واختاروا ما يحتاجون إليه.. ونقل السلاح من القاهرة إلى باخرة مغربية فى ميناء الاسكندرية. ولم تطلب مصر ثمنا لهذا السلاح.

فعلى الرغم من الخلاف السياسى والقطيعة الدبلوماسية. فإن مصر قد أعطت السلاح، للمغرب وللعراق بعد ذلك.

والملك الحسن يعلن الآن - مع الأسف وهو ليس صادقا فيما يقول - أن الرئيس السادات هو الذى طلب إليه أن يمر بالمغرب عائدا من كامب دافيد والحقيقة إن سفير الملك الحسن هو الذى جاء إلى الرئيس السادات يؤكد له ضرورة أن يتوقف فى الرباط. ولم يكن فى نية الرئيس السادات أن يلتقى بالملك الحسن، لأنه يعرف الحرج الذى يعانيه الملك بعد أن رفضت بعض الدول العربية اتفاقية كامب دافيد - دو أن يقرأها أحد منهم. وإذا كان أحد قد فعل فهو لم يستوعبها. فحتى لا يحرج الملك الحسن. قرر

الرئيس السادات أن يعود من واشنطون إلى القاهرة مباشرة.. ولكن الرئيس السادات توقف فى الرباط. استجابة لإلحاح السفير السفير المغربى.

ولكن الملك الحسن له عذره المقبول، فالسعودية هى التى تنفق على معاركه ضد البوليساريو ولو وقف إلى جوار مصر فإن مصر لا تستطيع أن تعوضه عن ألوف ملايين الدولارات وعلى الرغم من هذا الموقف الرافض لمصر. فإننا لم نرفض أن نمده بالسلاح مجانا!.

وأخيرا عندما أعلن الرئيس جعفر نميرى عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والسودان وتبادل السفراء من جديد، شاركنا الشعب السودانى فرحته بذلك. فهذا هو الاسلوب الطبيعى بين البلدين. وعندما سحب السودان سفيره فى مصر، لم تفعل مصر أكثر من سحب سفيرها. وأعلن الرئيس السادات: أن السودان حر فى اتخذ ما يراه مناسبا له. ومصر تدرك تماما الظروف الخاصة لكل دولة عربية. وحتى إذا لم تعد السودان سفيرها مرة أخرى، فسوف تبقى العلاقات بين البلدين متصلة عميقة.. فهى أقوى من أن يدعمها سفير، أو تطعمها وتسقيها علاقات دبلوماسية.

وكان فى نية الرئيس السادات أن يحيى عودة العلاقات بين البلدين فى حديثه إلى الصحفيين فى عيدهم الأول، لولا زحمة القضايا الداخلية والمهنية التى تحدث عنها..

ومن الغريب حقا أن يعلن الرئيس القذافى إدانة السودان. وأن يطالب بطرده من جامعة تونس. أما السبب فهو أنه أعاد العلاقات الدبلوماسية مع مصر، وفى هذه الإعادة تدعيم لموقف السودان ضد التدخل الليبى فى تشاد وفى غابات السودان.

اما الأكثر غرابة فهو أن الرئيس القذافى قد أرسل مبعوثا خاصا للرئيس السادات يوم ١٢ فبراير الماضى. وقابله الرئيس السادات فى باريس. واستغرقت المقابلة ثلاث ساعات. وهذا المبعوث من أشد المقربين إلى الرئيس الليبى.

وطلب مبعوث القذافى فتح الحدود فورا بين مصر وليبيا.

ثم تقدم بطلب عجيب هو أن تشترى ليبيا «الأسلحة الخردة» من الطائرات والدبابات والمدافع السوفيتية. وأن يتم ذلك عن طريق «اتفاق سرى» مكتوب.. أى أن

القذافى يريد عودة العلاقات مع مصر «سرا». ثم هو بعد ذلك يستنكر السودان الذى يفعل ذلك علنا..

وقد رفض الرئيس السادات تماما كل ما تقدم به المبعوث الليبى، قائلا: أريد أن أكون واضحا تماما، والذى أقوله لك الآن ليس جديدا. فقد أعلنته أكثر من مرة. نحن لا نريد أرضا ولا بترولا ولا مالا من ليبيا. ونحن لا شأن لنا بالنظم التى تتبعونها. تماما كما أنه لا شأن لكم بنظامنا الذى تعلنون أنكم سوف تعملون على اسقاطه. وإن لم يكن ذلك وقاحة، فهو جهل وقلة أدب. فلماذا لا تريحون أنفسكم؟.. نحن لا نقبل ما تعملون، ولا أنتم سوف تقبلون ما نعمل!..

ونحن نعرف أن السوفيت قد أكدوا للرئيس القذافى أن مصر تستعد لغزو ليبيا. ولذلك يجب أن يستعد لهذا اللقاء بالأسلحة السوفيتية والمرتزقة من الألمان الشرقيين والكوبيين.

ولابد أن الروس أيضا هم الذين اقنعوه بشراء أسلحتهم التى أكلها الصدأ فى مصر.

وبسبب هذا المبلغ الضخم الذى سوف يدفعه سرا، يضمن سكوت مصر أو «تحييد مصر».

وفى حديث الرئيس السادات إلى مبعوث القذافى أكد له: أقول لك للمرة العشرين.. يا ابنى إن مصر لا يمكن شراؤها بالمال. وكان من الواجب أن يقتنع القذافى بذلك. وقد حاول كثيرا. وفشل لأنه لابد أن يفشل. وحاول مؤتمر بغداد أن يدفع ألوف الملايين، ورفضنا أيضا. فالفلوس لا تجعل الإنسان العادى زعيما، ولا تجعل الدولة الغنية دولة قائدة.. أو زعيمة.. إنما هناك أشياء أخرى كثيرة لا يمكن شراؤها بالمال: القيم الأخلاقية.. الحرية.. الكرامة. كيف تجرد مصر من تاريخها وعظمتها، لمجرد أنها بمحنة اقتصادية سوف تزول؟. ولا أريد أن أعيد وأزيد فى أسباب هذه المحنة. فهذا قدرنا. ونحن نتجاوز القدر بالإرادة حين نحل مشاكلنا، ونعمر أرضنا ونبنى مستقبلنا.. عد إلى القذافى وقل له: وفر عليك مالك. وانصحه بأن يقرأ التاريخ، التاريخ القريب للعلاقات المصرية الليبية. حينئذ سوف يكشف أنه قد نسى أننا رفضنا مثل هذا العرض المهين قبل ذلك!..

ولولا أن الرئيس القذافى قد هاجم السودان، ما كنا قد نشرنا سطرا واحدا عن هذا اللقاء السرى الطويل. الذى سوف ينكره القذافى. فإذا فعل فإنه سيفتح على نفسه بابا، ومن وراء هذه الأبواب سوف تنهال أخبار أخرى أكثر سوءا !..

وليس الرئيس القذافى استثناء من قاعدة التفكير على الطريقة العربية.

إنما هو نموذج صحيح لهذا الخطأ فى الفهم واتخاذ القرار. ويكفى أن نرى من هى الدول التى وقف معها القذافى بالرأى والفلوس؟.. ثم كم من الوقت استمر على نفس الرأى وبنفس القدر من الفلوس؟.

ثم كم عدد الرافضين للموقف المصرى؟ إنهم كثيرون. والحقيقة أنهم ليسوا كثيرين، لأنهم قد رفض بعضهم البعض. فهل فعلوا شيئا غير الذى فعلته مصر؟ لم يفعلوا. هل فى استطاعتهم؟ نعم إذا اتحدوا فى الرأى فأضافوا إلى قوة الرأى قوة الفلوس. ولن يحدث ذلك، لأننا لسنا أبناء السوق الأوروبية المشتركة. إنما نحن أبناء «سوق عكاظ».. أى أبناء الخطب ترن وتطن. وأبناء الصف الواحد يجب أن يقف فيه الواحد وراء الاخر. فإما نفعل ذلك وإما لا يكون عمل. مع أننا فى الصلاة لا نفعل ذلك. فلو نظرت إلى الناس حول الكعبة لوجدت الوجوه متقابلة متضادة.. وننسى أن هذا طبيعى لأن الهدف واحد. والهدف هو القبلة. فلماذا لا نفعل فى السياسة ما نفعله فى الصلاة. أن نتفق على القبلة، وأن نختلف فى مكان ركوعنا وسجودنا، قربا وبعدا منها؟..

ولكن لماذا نفعل ذلك كل يوم، ولا ندرك أن هذا ممكن فى أشياء أخرى؟ أما الجواب فهو الذى قاله الرئيس السادات للمبعوث الليبى: قل للقذافى إننى سبق أن نصحت الرئيس حافظ الأسد بأنه ليس من الضرورى أن نتفق فى كل شئ.. لقد كبرنا ونضجنا. وجربنا وعانينا وقرأنا تاريخنا وتاريخ العالم. ولكننا لم نتعلم الحد الأدنى من التاريخ الذى نشارك فى صنعه.. شئ واحد يجب أن نتعلمه أولا هو: أن نتعلم كيف نختلف. وبعد ذلك سوف نتعلم تلقائيا كيف نتفق! واختفى المبعوث ليظهر القذافى على حصان أبيض فى تشاد - إنه إذن لن يتعلم! ■

نحن نزحف على سيناء
ولكن بأسلحة أخرى!

فى الحرب : المدافع قبل الزبدة..

فى السلام : الزبدة قبل المدافع..

ففى الحرب كل شئ يجب أن يكون من أجل الدفاع عن بقاء الإنسان..

وفى السلام، بعد أن تأكدنا من البقاء، فكل شئ يجب أن يكون من أجل حياة الإنسان..

وفى زمن الحرب ترتفع نسبة الزوج..

وفى وقت السلام ترتفع نسبة الطلاق..

لأننا فى مواجهة الخطر نتقارب ونتحد حتى نتلاشى المسافات والخلافات بيننا. ونكون معا سدا منيعا.. فنواجه الموت بأن نتكاثر. وبذلك نعوض على الإنسانية ما نفقدته بالحديد والنار.. وفى أيام السلام يشعر الناس بالراحة، وبأن قيدا قد انكسر، وخطرا قد ابتعد، وعبئا قد ارتفع.. وهكذا يتخفف الناس من الهموم، ويريدون نسيان الماضى أو تغييره، والهرب إلى مستقبل جديد.

وفى استطاعتك أن ترقب حركاتك فى مواجهة العواصف، فإنك تزرر ملابسك

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٥/٢

وتلملم أطرافها، ولكن عندما يكون الجو حارا، فإنك تفتح ملابسك وتخلعها وتنشر ذراعيك وساقيك. والحرب هى العاصفة المميتة، والسلام هو الدفء الذى تتراخى له أطرافنا وأفكارنا واعصابنا..

وفى أعقاب الحروب يراجع الناس أنفسهم. ويكون لديهم سؤال واحد يحتاج إلى إجابة عاجلة: من الذى فعلها؟ أى من الذى جعلنا نحارب حتى الموت، ويحرمنا من نعمة السلام؟ من الذى خدعنا؟ من الذى سحرنا؟ من الذى حولنا من بشر إلى حيوانات، ومن حيوانات إلى أدوات خشبية يحركها كيف شاء؟ كيف استطاع؟ ومن الذى ساعده على ذلك، أى من الذى ساعده علينا وضدنا؟.

فكأننا وقد فرغنا من الحرب، نريد أن نستأنفها، ولكن بأسلحة أخرى. كأنه من الصعب علينا أن ننتقل من الحرب إلى السلام وننسى كل ما حدث قبل ذلك.

تماما كما نعرض أجسادنا لأشعة الشمس، ثم ننتقل إلى الظل ونتوهم أن هذا الانتقال سوف يغير لون بشرتنا.. أو كما يفقد الإنسان ساقه أو ذراعه فى الحرب، فإذا انتهت الحرب توهم أن يعود إليه كل الذى فقده.

ومعنى ذلك أن آثار الحرب عميقة. ومن آثار الحرب : أن الحرب نفسها لا تنتهى بسرعة.. تماما كما يحمل الإنسان حقيبة ثقيلة على كتفيه مسافة طويلة ثم يضعها فجأة على الأرض. فإنه يظل يشعر بأنها توجع كتفيه، كأنها ما تزال هناك!. أو كما ينزل الإنسان من الاتوبيس الذى يجرى بسرعة. فعل الرغم من أن قدميه قد لامستا الأرض. فإنه يظل يجرى إلى جواره.. وإذا لم يفعل ذلك بعض الوقت، فإنه يتحطم..

وكذلك حالنا مع نهاية الحرب، فإننا لا ندخل السلام بسرعة. إنما يبقى صدى المدافع فى آذاننا. وأعمدة الدخان فى عيوننا، وتباريح التعصب والسهر والمرارة فى قلوبنا.. والرغبة فى الانتقام، من أنفسنا ومن غيرنا أيضا..

ولذلك ففى أعقاب الحروب تحدث «المواجهات» بين الناس.. ويشعر الناس بالرغبة فى الهروب من «التعبئة العامة» ومن «الطابور» ومن «النشاط الاجبارى».. ويريدون أن يتحللوا من قيود كثيرة.. وأن تنفرط حياتهم.. وأن يحاسبوا أنفسهم وغيرهم دون خوف..

وفى أعقاب الحروب يشعر الناس بالإرهاق الشديد. وهذا الإرهاق يجعل الناس غير قادرين على الفرحة أو على الحزن.. بل إن الفرحة الشديدة من الممكن أن تكون قاتلة كالحزن الشديد.. تماما كما يرتفع التيار فجأة فيضئ المصباح أكثر، ثم يحرقه. أى أن الضوء الشديد يؤدى إلى الظلام الشديد.

ولذلك فمثل هذه المواجهات لا تطول. لأن أحدا لن يحتمل كثيرا هذه المعارك الكلامية أو الفكرية. فالناس قد تعبت من المعارك. قد تعبت من العنف مع العدو، والعنف مع الصديق. ولذلك تكون اللامبالاة هى السلوك العام بعد ذلك.

وحتى لا تطول هذه اللامبالاة بين الناس، فإن الحكومات فى فترة السلام تستنهض الهمم وتنفخ فى النفوس. وتدفعهم إلى استئناف العمل لبناء البلاد التى تخربت. ويكون لكل شئ مذاق الحرب مرة أخرى. فاللهجة: استنفار. والأسلوب: تعبئة شعبية والهدف: هزيمة الكسل والغلاء والاستهلاك والتواكل..

ثم ترتفع النبرة فتكون الدعوة: إصلاحا جديدا. أو اعلانا لثورة بيضاء أو خضراء..

ونحن مقبلون على معركة السلام، يجب أن نعرف كيف تحقق السلام. إن السلام لم يتحقق بالحرب. فقد كانت بيننا وبين إسرائيل حروب عديدة. ولم تسفر الحروب إلا عن استئناف لها، ورغبة فى الانتقام، وأمل فى النصر. ولم يتحقق السلام بيننا وبين إسرائيل لأننا حاربناها فى ١٩٧٣. وأننا انتصرنا عليها إنما لأننا أدركنا بعد حرب ٧٣ إنه فى الإمكان أن نمضى من حرب إلى حرب إلى غير نهاية. وأن هذا سخف فى التفكير. وجنون وطنى. لذلك كان لابد أن نبحث عن اسلوب آخر، وعندما اخترنا ذلك، كنا قد قررنا أن التفاهم هو الاسلوب المنشود. فكانت زيارة الرئيس السادات إلى القدس هى بداية التفاهم. وأساس هذا التفاهم: أننا نرفض سلسلة الحروب إلى غير نهاية. وأننا يجب أن نتفاهم على إنهاء الحروب. ولكى تنتهى الحروب يجب أن نتفق على أسباب اشتعالها. وهى تشتعل لأن إسرائيل تحتل أرضنا. فإذا خرجت من هذه الأرض، لم يعد لدينا مبرر للحرب. ولكى نخرج إسرائيل من أرضنا، يجب أن نتفق على كيفية خروجها. وعلى أن يكون إنسحابها مضمونا. ولذلك أدخلنا أطرافا عالمية تضمن أن يظل السلام دائما بيننا.

وعندما تفاهمنا كنا قد صححنا مجموعة من الأفكار التى رحنا ضحيتها. فمن أفكارنا نحن فى إسرائيل «كيان صغير» يمكن القضاء عليه إذا تضافرت الدول العربية. وأننا بذلك نستطيع أن نضع العالم كله أمام الأمر الواقع، وكان ذلك هدف حربنا سنة ١٩٤٨. ولم تفلح فى ذلك. ولأن إسرائيل لم تكن وحدها. فلم يؤيدنا العالم كله فى دعوانا. فعدنا إلى الحرب مرة بعد مرة ولأسباب مختلفة. وإن كان الهدف الرئيسى هو: أن إسرائيل لابد أن تزول.

وقد أدت هزائمنا المتكررة أمام إسرائيل إلى اعتقادنا بالعجز عن مواجهة إسرائيل بمالها وسلاحها وأمريكا وروسيا والعالم الغربى كله. أما سبب هذا العجز فهو أننا لسنا مزودين بالسلاح المتطور. ثم إن أحدا لا يمدنا بذلك فليس لدينا مال، ولا رجال قادرون على استيعاب العلوم العسكرية الحديثة، وعلى ذلك فالهزيمة قدرنا، كما أن النصر قدر إسرائيل. حتى كانت حرب ٧٣، فصححنا بذلك مثل هذه الأفكار الخاطئة التى تسلطت علينا..

وبهذه الحرب أيضا صححت إسرائيل مجموعة من الأفكار الجامدة. من بينها: أن أحدا لا يستطيع أن يهزمها. ومن بينها أن العالم كله لن يسمح بذلك. وأن العرب أغنياء جهلاء. وأنهم لم يتفقوا ولن يتفقوا. وأن إسرائيل هى الأقلية الساحقة فى الشرق الأوسط. وأن العرب هم الأغلبية المسحوقة. وأن إسرائيل هى أمريكا الشرق الأوسط، وأننا نحن الهنود الحمر. وأن رئيس وزراء إسرائيل هو الذى يحكم أمريكا، أما الرئيس الأمريكى، فليس إلا رئيس بلدية الولايات المتحدة الأمريكية. وأن وسائل الاعلام والكونجرس والبورصة التى يسيطر عليها اليهود قادرة جميعا على «فبركة» أى رئيس لأمريكا فى أى وقت.

وقد ثبت خطر كل ذلك بعد انتصارنا فى حرب ١٩٧٣ - انتصارنا على مخاوفنا. وانتصارنا على غرور إسرائيل أيضا.

وكل محاولات السلام بين مصر وإسرائيل هى محاولات للتفاهم. إننا لم نفرض السلام على إسرائيل، ولا هى فرضته علينا. إننا أردناه، وهى أرادته. لأننا تفاهمنا على أن الحرب ليست هى الأسلوب الوحيد للبقاء والحياة، انها دمار وخراب وحقد

ومرارة وحديد ونار ودم ودمع.. وأمامنا التاريخ الإنسانى كله.. وأمامنا تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.

وفى لغتنا العربية.. أن السلام معناه المصافحة باليد.. أى باليد التى خلت من السلاح.. والعناق هو سلام حار.. ومن أساليب رجال الأمن أن يعانقوا الناس الذين يشكون فيهم، وعن طريق هذا العناق يتحسسون بأجسادهم وأيديهم إن كان أحد يخفى سلاحا فى ملابسه، ثم إن الإنسان الذى يعانقك هو يصافحك بكل جسمه.. وتكون هذه المصافحة الجسمية تأكيدا لأنه لا يحمل سلاحا، أى أنه لا يكن لك عداوة.. فالسلام هو مصافحة منزوعة السلاح ماديا ومعنويا..

وأنت لا تصافح بحرارة من لا تعرف، إنما تصافح وتعانق من تعرف.. ولأنك تعرفه وتأمن إليه، فأنت تقترب منه وتستلم لذراعيه دون خوف.. لماذا؟ لأن هناك اتفاقا على إلقاء السلاح. ونحن اتفقنا على ذلك، لأننا تفاهمنا على اسلوب آخر للحياة معا، لتبادل التحيات والمصالح. وكما أن الحرب هى عمل عنيف لفرض وجهة نظر أخرى، فإن السلام هو حوار هادئ لتلاقى وجهات نظر مختلفة، وتبادل مصالح متنوعة من أجل منفعة شعبين متجاورين..

والآن ونحن فى سلام، فإننا مقبلون على العمل بحرارة الإقبال على القتال وفى شكل التعبئة العامة.. والهدف أيضا هو: تعمير سيناء - أو تعمير أى أرض صحراوية فى مصر، أو تعمير بيوتنا بالطعام وجيوبنا بالمال وقلوبنا بالأمل..

وكما ترى فإن أسلوب بناء السلام أو استعادة الأرض، مثل اسلوب الحرب.. ولكننا هذه المرة نحارب عيوبنا.. ونقهر عجزنا. إننا نزحف على سيناء ولكن بوسائل دفاعية وقتالية مختلفة..

فقد كانت الحروب هى السبب الأول فى انصرافنا عن بناء أنفسنا، وتكاليفها الفادحة هى التى وجهت أموالنا من الزبدة إلى المدافع، والآن يجب أن تتجه أموالنا إلى قنواتها الصحيحة: الخبز والأرض والمسكن والمصنع. ولكن من الخطر أن نتصور أن كل نفقات التسليح قد تحولت إلى الطعام والشراب والمسكن، لأنه لابد أن يكون لنا جيش قوى يحمى سلام مصر، ويحمى أمن الأمة العربية. وكما أن تكاليف الحياة قد ارتفعت،

فكذلك أسعار الأسلحة والذخائر وقطع الغيار والتدريب المستمر والإبقاء على الكفاءة القتالية..

وكما أن السلام قائم على التفاهم، ويعيش به.. فكذلك بناء مصر فى زمن السلام يجب أن يقوم على التفاهم بين الخبراء.. ولهذا كانت مؤتمرات خبراء الاقتصاد وخبراء تنمية الإنسان.. من أجل مصر سنة ٢٠٠٠..

ولكى نصل إلى مصر ٢٠٠٠ يجب أن نعرف مصر الآن، ولكى نعرف مصر الآن، يجب أن نعرف كيف كانت مصر الأمس..

فمن الخطأ أن نتصور أن اليوم حرب وغدا سلم لأن السلم وإن كان قد بدأ، فإن متاعب الحرب لم تنته بعد.. إنما نحن نحتاج إلى وقت لكى نفهم ونستوعب وننتقل من حالة إلى حالة.. ومن حرب بالحديد والنار، إلى حرب أخرى بالمنجل والمطرقة وكتاب الله.. ولذلك فكل رأى يقول: إن الخطأ كله بالأمس، هذا خطأ.. وكل رأى يقول: إن الصواب كله غدا، خطأ أيضا..

وكل من يقول: إن الجريمة فعل ماض: خاطئ.. وكل من يقول: إن البراءة هى ما نفعله اليوم من أجل الغد: خاطئ أيضا..

فعند صناعة أقدار الشعوب، لا أحد برئ ولا أحد مجرم.. إنما نحن نحمل المسئوليتين معا فى وقت واحد. وليس من الحكمة أن ننظر وراءنا فى غضب دائم، ولا أن نتطلع أمامنا فى سعادة مستمرة - لأن اليوم وقد ولد بالأمس، ولأن الغد قد ولد اليوم.. فالأيام تتواصل وتتواصل. وكذلك تاريخ الحرب وتاريخ السلام. تاريخ الجريمة وتاريخ العقوبة، قرار الإدانة وقرار البراءة.. والتاريخ خيوط وعقد وقماش ومقص.. زعم يخطئ. وزعيم يصيب.. وشعب يبكى ويتعب.. ويفرح ويتعب أيضا..

وكما أنه من أخطاء الحروب أن تقوم على سوء الفهم وسوء الاستعداد وسوء التدريب، فكذلك السلام. ولذلك فليس لدينا ما يبرر العجلة فى وضع الخطط، ولا الاستعجال فى اتخاذ القرار، ولا التشنج فى زراعة الأشجار. فليس من الحكمة أن نفرح بالأشجار الخضراء تغطى الأرض الصفراء، وبعد أيام تذبل الأشجار فتكون هى الأخرى صحراء فوق صحراء.. فالسلام : تقوية للأرض وحرثها وبذرها وريها وتركها للشمس..

ومن مزايا السلام أن الأعصاب أهدأ وأن الوقت أطول.. بينما فى الحرب نستطيع فى لحظة واحدة أن نحرق كل شئ فيكون الرمل فى لون الشجر فى لون الناس: أسود فاحما حزينا!.

وأنا لا أخاف على مصر من السلام، ولكن أخاف على السلام من بعض أبناء مصر الذين يتعجلون الحلول، لأنهم بذلك يتعجلون خلق المشاكل فى صورة جديدة!

وكما تفاهمنا حتى لا تكون حرب، يجب أن نتفاهم حتى لا تكون للسلام نتائج الحرب، فيصبح الأخضر أصفر، والحى ميتا، والأمل يأسا، والغد مثل الأمس.. وأخشى أن تكون إسرائيل عندما انسحبت قد استدرجتنا إلى سيناء فتغرق أنفسنا فى آمال واسعة فى إصلاحها بسرعة.. فيكون الإصلاح أكثر فداحة من إصلاح مديرية التحرير والوادى الجديد والصالحية.

وهناك طريقتان لإعلان الحرب على رمال الصحراء: الطريقة المصرية وهى أن نصلح مائة ألف فدان تصبح بعد سنوات مائة فدان خضراء.. والطريقة الإسرائيلية وهى إصلاح مائة فدان تصبح بعد سنوات مائة فدان خضراء ويكون إنتاجها معادلا لما ينتجه ألف فدان مصرية.. وقد فعلت إسرائيل ذلك فى سيناء. فأقامت القرى الصغيرة السياحية الجميلة ونحن فعلنا ذلك فى الغردقة وفى مجاويش.

وهذا بالضبط ما يجب أن نفعل: مساحات صغيرة من النجاح المؤكد.. أى من القرى الأنيقة والواحات الحديثة.

ولابد، بعد كل هذه السنوات، أن نكون قد استفدنا من تجاربنا ومن تجاربهم. وأن يكون أهم ما تعلمناه أن الوقت فى صالحنا وأن لدينا منه الكثير. فلدينا ملايين الشبان وهؤلاء هم الوقت والمال والإرادة.. وهم المستقبل الأخضر لمصر وادى النيل ومصر سيناء آمين!. ■

أي عدوان على السودان
هو عدوان ليبي!

شئ غريب أن تعلن مصر والسودان أنهما شقيقان. ولكى يؤكدا صحة هذه «الدعوى» فإنهما يصدران من حين لآخر شهادة ميلاد تؤكد هذه الحقيقة!..

كأننا فى حاجة إلى أن نقول إن مياه النيل هى أمنا، وأن التاريخ أبونا.. ولكن هذا هو منطق الشعوب العربية «العاطفية» التى يدفعها الغضب أو «العشم» إلى أن تتنكر لأبيها وأمها.. وتتوهم أن الذى يجرى فى عروقها ماء وليس دما..

غير أننا اعتدنا على ذلك - مع الأسف.. فما هو الخطر الذى جعلنا نؤكد هذه الأخوة. ونعلن أنها ضرورية وأننا إذا لم نقف معا سقطنا معا؟..

إن الخطر عربى أيضا - أو أن الخطر عربى «الإسم» سوفيتى «الإثم» والضحية هى تشاد. تمهيدا لتهديد السودان ودول إفريقية أخرى صغيرة..

والسوفيت قد كدسوا فى ليبيا سلاحا قيمته ٢٠ ألف مليون دولار. والسلاح دبابات وطائرات وصواريخ متطورة. بل إن السوفيت أعطوا لليبيا طائرات اس. اس ١٢ التى يبلغ مداها ٥٠٠ كيلو متر.. كما أن السوفيت أعطوا ليبيا مدافع بعيدة المدى تهدد الأسطول الأمريكى فى البحر الأبيض..

وقد كفل السوفيت بتدريب الليبيين على استخدام هذه الأسلحة المتطورة. ولكن

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٣/٢٢

ما تزال الطائرات والدبابات وناقلات الجنود البرازيلية فى قبضة السوفيت والألمان الشرقيين والكوبيين والكوريين واليوغوسلاف والباكستانيين. ولم يتقدم الليبيون كثيرا فى استخدام هذه الأسلحة. ففى العام الماضى هرب طيار ليبى بطائرة ميج ٢٣ وسقط بها فى صقلية.. وهرب طيار آخر إلى اليونان لاجئا سياسيا، ولكن طائرته تحطمت أيضا. وتقييم ليبيا على الحدود المصرية خطوطا دفاعية مسلحة - مثل ماجينو وسجفريد وبارليف. مع أنه ثبت عسكريا أن هذه الحوائط المنيعة لا تستطيع أن تمنع قذيفة من بندقية لصيد العصافير.. إن القذيفة تعبر أى سد مهما كان منيعا. ثم إن الحرب الحديثة لم يعد فيها القاتل فى حاجة إلى أن يرى القتيل. إنه يصيبه دون أن يراه!

ولكنها صورة من الابتزاز الرفيع لأموال الرئيس القذافى. لعلها تريح أعصابه من أى هجوم مصرى مرتقب - إذا تقدمت القوات الليبية تهدد السودان..

وعلى الرغم من أن الرئيس القذافى يؤكد أنه اتجه إلى شراء السلاح السوفيتى لأن أمريكا رفضت أن تعطيه سلاحا - تماما كما أعلن الرئيس عبد الناصر ذلك، فكسر احتكار الأمريكان والغرب للسلاح المصرى، إلا أن الرئيس الليبى عندما أراد أن يعبر عن خوفه الشديد من القوات المصرية على حدوده، فقد لجأ إلى الرئيس كارتر، والرئيس كارتر يرى أنه هو الذى منع مصر من غزو ليبيا..

وحتى إذا لم يكن ذلك صحيحا، فإن الصحيح هو أن أمريكا قد قبلت الوساطة الليبية. وأن أمريكا أرادت أن تؤكد للرئيس السادات أنها لا توافق على «غزو» مصر لليبيا.. وأنها سوف تحمى القذافى!..

وبعبارة أخرى : أن ليبيا تشترى السلاح السوفيتى، لأن أمريكا رفضت أن تبيعه لليبيا، ولكن أمريكا وافقت على حماية ليبيا من مصر.

أى أن روسيا تحمى ليبيا عسكريا، وأمريكا تحميها سياسيا!..

أهو لغز؟ هو كذلك. ولكنه ليس اللغز الوحيد فى السياسة الدولية. ويمكن اضافة علامات تعجب أخرى كثيرة: فأمريكا سكتت على استيلاء روسيا على كوبا، وسكتت على استيلاء روسيا أخيرا على السلفادور. فليس غريبا أن تكست على استيلائها مرة ثالثة على تشاد..

وليس من الطبيعى أن تقوم «تشاد» هذه، التى لا يعرفها المواطن الأمريكى العادى أو حتى الأوروبى، بدور منطقة «السوديت» بين ألمانيا وتشكوسلوفاكيا. فقد كانت منطقة السوديت سببا للغزو النازى لتشكوسلوفاكيا، واسترداد هذه المنطقة الآهلة بالسكان الألمان، ثم اشعال هتلر للحرب العالمية الثانية!..

وهتلر هو الذى قال: إن الله وحده هو الذى قرر أن تتولى ألمانيا وحدها إعادة رسم الخريطة الأوروبية، والخريطة العالمية بعد ذلك!..

إذن لقد كان وحيا من الله : أن يغزو هتلر العالم كله. ويغير وجه الخريطة بالدم والدخان. ثم انتهت الحرب بأن تغيرت خريطة ألمانيا التى انفلقت على نفسها: نصفين! ولذلك رأى أحد المؤرخين بعد ذلك أن عبارة الزعيم النازى هذه صحيحة مائة فى المائة. إذا أدخلنا عليها تغييرا صغيرا وذلك بأن نضع كلمة «هتلر» بدلا من كلمة الله..

أو إذا وضعنا كلمة القذافى بدلا من كلمة هتلر. فالرئيس القذافى حاول بالمال والفكرة السوفيتيه أن يساعد قوات ايرلندا، والمسلمين فى جزيرة مندناو فى الفلبين، وكذلك الألوية الحمراء، وعصابة بادر - ماينهوف - وأن يفجر القنابل فى مصر، وأن يساعد المنظمات الفلسطينية ضد بعضها البعض.. وأن يضم تونس بالقوة ومطالة بالفلوس، وأن يثير البوليساريو على المغرب، وأن يجعل اتحاده مع سوريا مثل اتحاد كوكبى الزهرة والمريخ، وأن يساعد باكستان فى بناء مفاعلاتها الذرية. وأن يؤيد ثورة الخومينى الشيعية وفى نفس الوقت يؤيد انفصال الأكراد السنيين، ويتنصل من جريمة اغتيال الامام الصدر إمام الشيعة فى لبنان.

فما الذى يعتمد عليه الرئيس القذافى؟ إنه يعتمد على الفلوس والجرأة الجنونية والسوفيت. وبالفلوس يستطيع أن يشترى من يشاء، وبالجرأة يستطيع أن يندفع فى كل اتجاه، وبالأسلحة السوفيتية والقوات الشيوعية يستطيع أن يهدد كل الدول الصغيرة حوله..

وعندما اختار السوفيت تشاد وجدوا لذلك أسبابا كثيرة. فتشاد احتلتها فرنسا ستين عاما. وحاولت فرنسا أن تمزقها أولا، ثم أن توحد بين طرفيها ثانيا.. فجعلت

الأنقسام حقيقة والوحدة وهما، ووقفت الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية تتفرج على النزاع السياسى فى تشاد الصغيرة التى تضم عشرين حزبا، أو عشرين قبيلة، لها شكل الأحزاب وإن لم تكن لها فلسفتها وبرامجها . واستعانت فرنسا بالزعماء ضد الزعماء. أما ليبيا فوجدت أن الشمال الإسلامى من تشاد به يورانيوم - وكانت فرنسا تسمى الشمال المسلم «تشاد التافهة» والجنوب المسيحى حيث القطن، كانت تسميه «تشاد النافعة».

ودخلت القوات الليبية الصغيرة التى نظمها الروس، كما دخلت قوات سوريا إلى لبنان. وقبل دخول القوات الليبية سبقتها الفلوس. وسبقتها الأسلحة السوفيتية والتدريب الطويل. والقوات الصغيرة الافريقية المسلمة والمرتزقة.

وكان لابد أن تنسحب القوات الفرنسية، تمهيدا لإعلان الوحدة الوطنية. وأعلنت النيات الطيبة وتكدس السلاح الذى ألقاه الشعب لكى يتعانق الجميع دون أن يخفوا شيئا وراء ظهورهم. ولما جرد الشعب نفسه من كل سلاح دخل الليبيون والكوبيون والكوريون والألمان الشرقيون، وخرج الفرنسيون لينزلوا بقواتهم لمساعدة الدول الافريقية المجاورة..

ولما أعلنت ليبيا «الوحدة الاندماجية» مع تشاد منعت نيجريا بترولها عن تشاد - وهو ما يعادل ٩٥٪ من احتياجاتها..

وأقفت فرنسا إرسال زوارق الطوربيد والصواريخ التى تعاقدت عليها ليبيا منذ أربع سنوات. وظل أكثر من مائة بحار ليبى ينتظرون فى ميناء شربورج. ولكن فى نفس الوقت وافقت الحكومة الليبية على منح شركة «الفا - أكويتين» الفرنسية حتى استنباط البترول. هل هذا ثمن لذلك؟ إنه لغز آخر فى السياسة الدولية..

وفى نفس الوقت طاشت صواريخ المانية غربية فى سماء ليبيا.. وظهرت اسلحة صغيرة من السويد.. كما ظهر تجار ليبيون فى بون عاصمة ألمانيا واستوكهلم عاصمة السويد. مع تغطية صحيفة تستنكر موقف ألمانيا والسويد معا. وهذا لغز جديد أيضا!.

فهل تستطيع ليبيا الصغيرة أن تثير مثل هذا الفزع حولها؟ نعم. لقد

استطاعت لأن ليبيا قزم يركب كتفى عملاق.. بل أكتاف أربعة من العمالقة: المال والسوفيت والعجز الأمريكى والتمزق العربى..

ولذلك أدرك الرئيس الليبى أن هذه الأسلحة التقليدية لن تحقق له امبراطورية الصحراء، ولن تمكنه من تنفيذ الوحى الإلهى بتغيير الخريطة الإفريقية ثم الخريطة العالمية بعد ذلك.. وكان عليه أن يحلم بأن تكون لديه القنبلة الذرية. فساعد باكستان على بناء مفاعلاتها النووية - ونفت باكستان ذلك، وليس من الضرورى أن نصدقهما: فالصدق فى السياسة نوع من الترف وقد سرقت ليبيا من النيجر عشرين طنا من أوكسيد اليورانيوم، أى الذى يسمى «بالكعك الأصفر» والذى يمكن تحويله إلى مواد ذات نشاط إشعاعى كبير، لاستخدامه فى القنابل الذرية سوى إسرائيل وليبيا!..

وإذا كان الامام الشيعى الخومينى قد احتجز خمسين رهينة امريكية، فإن الرئيس الليبى يريد احتجاز مثل هذا العدد من الدول الافريقية الصغيرة. وبذلك يكون الرئيس القذافى مثل سمكة صغيرة يريد أن يصبح حوتا. إنه يعلم يقينا أن هذا مستحيل. ولكن الذين ركبوا رأسه وأركبوه ظهور الكوبيين والألمان الشرقيين وغيرهم من الشيوعيين، يؤكدون له أن هذا ممكن. والأمثلة فى التاريخ كثيرة: بريطانيا احتلت الهند.. والبرتغال احتلت بلادا أضعاف أضعاف عددها ومساحتها.. وإسرائيل استطاعت أن تضرب الدول العربية جميعا فى وقت واحد سنتى ٤٨ ، ٦٧. والرئيس القذافى لديه ما هو أكثر مما كان لدى بريطانيا والبرتغال وإسرائيل. المال والإيمان برسالته السماوية وأعظم الأسلحة الروسية!..

ونجاح الرئيس القذافى فى تشاد سوف يغريه من النجاح. فالنجاح مثل ماء البحر، كلما شربت منه، ازددت عطشا. وفى أمثالنا الشعبية: ما الذى جعلك هكذا فرعونا؟ قال: لم أجد أحدا يوقفنى عند حد!!.

وإذ كانت مصر قد استطاعت، ولا تزال، أن توقف القذافى عند حده وحدوده وحجمه، فهى ما تزال وحدها قادرة على ذلك.. ويوم دخلت القوات المصرية إلى ليبيا كانت التعليمات محددة. وقد سمعت بأذنى الرئيس السادات وهو يصدر أوامره العسكرية: اضرب.. وكن موجعا. ولكن لا نريد أن يحس الشعب. الليبى أننا نقصده.

إننا نقصد القذافى. لكى يعرف قدرتنا وقدرته. ويعرف أننا نستطيع أن نفعل ما هو أكثر ولكننا لا نريد ذلك..

ومن يومها والرئيس الليبى يعرف ما الذى يستطيع، وما الذى نقدر عليه. والذين يفكرون له يعتقدون أنه إذا هاجم السودان من الشمال أو من داخل غاباته بقواته المرتزقة، فإن مصر لا تستطيع أن تسحب قواتها من الشمال إلى الجنوب، أو من الغرب إلى الجنوب. وهو يتصور أن السودان سوف يكرر لنا ما حدث فى حرب اليمن..

وكأن الرئيس الليبى يريد أن يساهم مع الرافضين، فى إفساد اتفاقية السلام مع إسرائيل، وبذلك نحتفظ بقواتنا فى مواجهة إسرائيل وفى مواجهته، وتعجز بعد ذلك عن مساعدة السودان..

وجاءت مناسبات سياسة كبرى استغلها الرافضون ضد مصر والسودان. مثلا مشروع نقل المياه من مصر فى افريقيا إلى مصر فى آسيا - أى إلى سيناء.. أو حتى عندما وعدت مصر بأن تعطى لإسرائيل ماء إذا هى أعادت القدس إلى الشعب الفلسطينى. ولم يكن ذلك سوى وعد، يشعل النار فى خيال أى اسرائيلى - والذى يزور الجناح الاسرائيلى فى السوق الدولية يجد أن أهم ما عرضته إسرائيل هى الأنابيب الخاصة برى الأشجار ريا شخصيا - أى شجرة شجرة. وذلك عن طريق «للتنقيط» كأن الماء قطرة توضع فى العين.. ونحن ننظر إلى ذلك فى دهشة. فالماء الذى يستخدمه الواحد منا فى الاستحمام مرة واحدة يكفى لرى فدان فى إسرائيل. إلى هذه الدرجة يقتصدون فى الماء. فالماء هو الذهب. والحرب بين إسرائيل ولبنان والأردن هى حرب على الماء. فالآبار والأنهار فى إسرائيل قد جفت وارتفعت فيها نسبة الملوحة. فإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى الشرق الأوسط التى تشرب من البحر. وشقيقتنا السعودية التى لا تجد الماء تريد أن تنقله على شكل جبال جليدية من القطب الجنوبى. بدلا من نقله بالأنابيب من مصر عبر البحر الأحمر!..

وتحركت أثيوبيا وبعض الدول الافريقية تعترض على نقل مصر لمائها من الوادى إلى سيناء. وأصبح واضحا أن الاستيلاء الشيوعى على السودان معناه استيلاء على مياه النيل - أى على موارد الحياة المصرية. ومعنى ذلك أن السوفييت الذين أخرجتهم

مصر من الشباك قد عادوا إليها من الباب. وأن السوفيت سوف يتحكمون فى حياة مصر وكل وادى النيل وقلب افريقيا وقرن افريقيا..

ولا يزال هذا أملا. ولكن هذا الأمل يفترض أن مصر لا تدرى به. وأنها قد غابت عن هذه الحقيقة. وأنها إذا عرفت ذلك فهى عاجزة عن فعل شئ للسودان. لأن السودان بلاد شاسعة وغابات مترامية. وأن المرتزقة والخونة قد تواروا وراء أشجارها. وأن القوات المرتزقة الليبية سوف تدخل الخرطوم ليلا، ليطلع النهار على أهل السودان وقد أصبحت مثل تشاد أو اثيوبيا أو اليمن الجنوبية أو افغانستان..

ولكن مثل هذه الأوهام تتجاهل قوة الرئيس جعفر نميرى والشعب السودانى وقوة الشعب المصرى. وأننا ، مصر والسودان، لسنا فى حاجة إلى أن نبرز شهادة الميلاد لنؤكد لأنفسنا ولغيرنا أننا أشقاء. وأن السودان جزء من مصر وأن مصر جزء من السودان، وأننا معا نحيا ومعا نموت. والشعوب لا تموت إذا كان الخطر الذى يهددها: فى حياتها، وقبل حياتها: فى كرامتها، والحياة بلا كرامة لا تساوى نقطة عرق. ولكن الحياة بكرامة تساوى كل قطرة دم. وقد امتحنت مصر والسودان مرات كثيرة . ونجح الشعبان. وسوف ينجحان..

إن الخطوة السودانية الأخيرة، أى عودة العلاقات التى لا يمكن أن تنقطع بين البلدين، تحطيم جديد للرفض العربى.. أو لجبهة : لا.. لكل شئ ايجابى من أجل السلام أو من أجل سلامة الشعوب العربية من القيادات الشاذة فى سوريا وليبيا واليمن الجنوبية..

وليس شيئا جديدا يقال لأول مرة: أن الاعتداء على السودان إعلان للحرب على مصر. ونحن نعلم مقدما من الذى سوف يعتدى على السودان مهما كانت الأعلام المرفوعة ضد الخرطوم. إنها أعلام ليبية الألوان سوفيتية الصنع. يستوى لدينا أن يكون العدوان على السودان من الغرب أو من الشرق.. فالأصابع التى تحرك المرتزقة ضد السودان مشدودة بخيوط حمراء. فهل يفعل السوفيت ذلك فى السودان؟ هل يفعل السوفيت ذلك فى الدول الافريقية الأخرى الصديقة لفرنسا الصديقة لروسيا؟..

إن إدارة الرئيس ريجان الجديدة قد استطاعت، فى جهات عديدة وفى وقت

قصير، أن تقف فى وجه الرئيس برجنيف، فوضعت أقدامها دون أن تكون لها قواعد ثابتة. دون أن تحتاج إلى معاهدات فلا أحد يريد أن يتعاهد مع أمريكا على وجود قواعد برية أو جوية أو بحرية - لا مصر ولا اسرائيل ولا السعودية.

ولكن أصبح واضحا تماما أن مخاوف إدارة كارتر قد تخلصت منها الإدارة الجديدة.. وأصبحت لأمريكا قواعد فى الصومال وفى عمان، دفاعا عن الطاقة التى يحتاج إليها العالم المتحضر. وتهديداً للسوفيت أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك.. كما أن أمريكا قد وزعت سلاحا ومساعدات عسكرية لمصر والسودان والسعودية وعمان والصومال. ولكن سوف تكون امريكا بعيدة تماما عن القتال - أو عن المشاركة بقواتها فى أية معركة..

إذن فسوف نقف جميعا ضد أى عدوان على السودان - لأن العدوان على الخرطوم هو هجوم على عمق مصر.. كما أن العدوان على السلوم هو عدوان على سواكن..

ولابد أن نشعر نحن المصريين والسودانيين معا، بالخجل من أنفسنا فى كل مرة نقسم على المصحف ثلاثا أننا أشقاء. فمن قال إننا لسنا كذلك؟.. لا أحد سوانا!.. ■

التكامل: أمل وعمل

الوحدة العربية.. القومية العربية.. جامعة الدول العربية.. الوحدة الفورية.. الوحدة الاندماجية.. التضامن العربى.. جامعة الشعوب العربية والإسلامية - من أكثر الكلمات انتشارا على ألسنة العرب. ولذلك فهى أكثرها شعبية وأشدها غموضا ويجئ الغموض إليها لأن الطريق إلى تحقيقها طويل. وهو طويل متعرج، يمر بكل ما فى الشعوب العربية من ضعف وعقد وخوف وتردد.. وأهم من ذلك كله: أن مثل هذه الكلمات تتمرغ كثيرا على صفحات القواميس اللغوية، وتتوقف طويلا على ألسنة الشعراء، وتدوخ أطول فى كواليس السياسة. ولكن معانى هذه الكلمات واحدة: أن تتقارب الدول العربية وتتحد أهدافها ووسائلها. من أجل أن تكون قوة فى مواجهة قوى أكبر. ولكن لأن القوى الأكبر لا تريد هذه الوحدة. ولأن العرب غير قادرين على فهمها وتحقيقها، فإن هذه الوحدة لم تنجح مرة واحدة، وفى كل الوحدات التى تمت، كانت مصر هى «واسطة العقد» - كما يقول الشعراء. فمصر هى كبرى الدول العربية.

وهى الدولة الوحيدة الأفروآسيوية. وهى الدولة التى تستهدف الخطر الأكبر. وفى نفس الوقت هى الدولة التى عاشت من ألوف السنين فى وحدة داخلية - بين كل طبقاتها وشمالها وجنوبها فهى قد آمنت بأن الوحدة ممكنة فقد عاشت وخيل إليها أنه

نشر هذا الموضوع فى ١٧/١٠/١٩٨٢

من الممكن أن تفرضها على الآخرين. وفى نفس الوقت أدركت الدول العربية أن الانضمام إلى مصر يجعلنا أقوى عودا. وأعمق جذورا. وأشد على مقاومة الغزاة والطامعين فى أرضها ومائها وخيراتها - أى أننا أردنا الوحدة، والدول الأخرى أيضا.

ولم ننجح إلا فى وحدة واحدة : أن يكون الشعب المصرى منسجما متسقا متقاربا. وإذا غاب هذا المعنى عنك، فانظر إلى شعب لبنان. إنه نموذج لما يجب ألا تكون عليه الشعوب. وكما أن إسرائيل نموذج للشعوب التى اقتعلت من كل أرض، وغرزت فى قلب الشرق الأوسط فمصر عكس ذلك تماما. إنها لم تقتلع من أية أرض. إنما هى هنا من ألوف السنين على أرضها. ولذلك كان استقرارها طويلا، وأصالتها عميقة. فهى نموذج لما يجب أن تكون عليه الشعوب داخليا وخارجيا. ولذلك كانت وما تزال مثلا عاليا لكل أنواع الوحدة والاتحاد.

وفى القاموس السياسى العربى العالمى أمثلة كثيرة على الوحدة بالأمر المباشر. وعلى الوحدة بالغزو، وعلى الوحدة الاقتصادية. وعلى الوحدة السياسية. وعلى الوحدة العسكرية. وأمامنا أمثلة عديدة ناجحة. ففى أوروبا: السوق الأوروبية المشتركة. والبرلمان الأوروبى وحلف الأطلنطى. وحلف وارسو والأوبك بين دول البترول وفى داخل هذه الاتحادات خلافات شديدة. بين فرنسا وألمانيا وايطاليا: خلافات حول زراعة وصناعة وبيع النبيذ. وبين بريطانيا وفرنسا خلافات حول البطاطس. وبين ايطاليا وفرنسا خلافات حول القمح. ولكن رأت هذه الدول رغم اختلافاتها اللغوية والعرقية والسياسية أن السوق الواحدة هى المصالح الواحدة. وأن من الممكن أن تتفق الشعوب على أن تختلف فى معظم الأشياء وتتفق فى بعضها، فالوحدة الأوروبية لم تقض على الخلافات اللغوية أو العرقية، ولا أدت إلى توحيد النظم السياسية. ولا أن يكون حكامها واحدا، أو كثيرين يتناوبون الحكم - فتلك خرافات ترفضها الحرية - وترفضها المصلحة الواحدة للجميع..

وفى داخل الأحلاف العسكرية خلافات شديدة. ولكن رغم هذه الخلافات فإن وجود الدول معا، يمثل أعلى درجات المصلحة. وفى نفس الوقت يمثل الصورة المثالية للقوة. فإن تقف الدولة وحدها تقع. وإن تقف مع أخريات تقف. وكثيرا ما يسخر الساسة الكبار من الوحدة الأوروبية. ولكن لا يزال حلم أوروبا أن تكون واحدة. وحلم

أوروبا وأمريكا أن تكونا واحدة.. وما الأمم المتحدة بكل منظماتها إلا حلم لتحقيق الوحدة الإنسانية بإزالة أسباب الخلاف بين الشعوب من أجل أن يتحقق السلام والرخاء للجميع..

والمستشار الألماني بسمارك هو صاحب العبارة المشهورة والخاطئة أيضا.. أوروبا ليست إلا كلمة جغرافية - أى لها وجود جغرافي. وليس لها وجود تاريخي. أو أنها مختلفة جغرافيا، ولذلك اختلفت تاريخيا. ومادامت قد اختلفت فى الوديان والجبال، فقد اختلفت فى المصالح أيضا. وعلى ذلك يجب أن تبقى مختلفة. ولكن هذا المستشار بسمارك هو الذى حقق الوحدة بين الولايات الألمانية. وبدأت هذه الوحدة اقتصاديا، وبعد ذلك اتحدت سياسيا. والذى كان يراه خرافة أصبح واقعا، فاتحدت المصالح الأوروبية. وكانت بذلك نموذجا حضاريا لما يجب أن تفعله الدول الأخرى. ولكن الدول الأوروبية فعلت ذلك لأنها بلغت درجة أعلى منا فى الفهم وفى معرفة مبادئ الحساب السياسى والاقتصادى. ولذلك فرغم أن الروابط بين الدول العربية أقوى وأعمق من التى بين الدول الأوروبية. فلم تنجح وحدة عربية.. وعلى الرغم من أن الأرض واحدة واللغة والدين والتاريخ والمال والطاقة والأيدى العاملة والأنهار والبحار. فإن العرب لم يبلغوا ما بلغته الدول الأوروبية أو الدول الامريكية فى الوحدة من أجل الصالح العام. أو الخير العام، أو القوة المؤكدة وفشل العرب فى تكوين الوحدة أو التضامن أو السوق المشتركة أو الحلف العربى أو الإسلامى أكبر دليل على أن المسافات التى تفصل بين العرب «عقلية» فى الدرجة الأولى. أى أن العرب لا يفهمون أين مصلحتهم. ولأنهم لا يفهمون فليس الطريق واضحا بين الأمل وتحقيقه. وأن مدى الفكر العربى لا يذهب إلى أبعد من الأمس واليوم، ولا يصل إلى الغد وما بعد الغد..

ومن مظاهر الجهل العربى أننا عندما نتحدث عن الوحدة. فإننا نريد الشكل الذى يزيل كل ما بيننا من فوارق.

ومن مظاهر الجهل أيضا: أننا نريد تحقيق ذلك اليوم أو غدا.

ومن مظاهر الجهل: أن يتحقق كل ذلك بالقوة. بقوة الخطابة. بالزعيم يقف ويعلن الوحدة. وهى لحظة غير إنسانية، إنما هى لحظة إلهية: «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» - استغفر الله لى ولمثل هذه الزعامات المقدسة!.. ولذلك

فشلت، وكان من الواجب أن تفشل، الوحدة المصرية السورية. ولا يخفف من وقع الفشل علينا أن الرئيس عبد الناصر قد أعلن أنه أرغم على ذلك.. أى أن السوريين فرضوها على المصريين..

وليس هذا عذرا مقبولا.. فالرئيس عبد الناصر كان يريد هذه الوحدة. فلأنه زعيم كان يشعر دائما أن مصر مكافأة متواضعة، وهو يستحق علاوة عليها. فلما طالبت سوريا بالوحدة، رأى أن العراق يجب أن يكون العلاوة وكذلك اليمن وليبيا والسودان.. إلخ.

وتمشينا مع أقدم التقاليد المصرية تحول الحاكم المصرى إلى فرعون - والفرعنة صناعة شعبية مصرية. فالمصريون قادرون على افساد الحكام وجعلهم فراعنة.

وهذه مقدرة تدل على العجز أيضا. فهم قادرون على إذلال أنفسهم. وتشجيع الحكام على استعبادهم. وكذلك كانوا مع الرئيس جمال عبد الناصر. ولذلك كانت سوريا أقدر وأشجع فى الكفر بمصر الفرعونية.

وقد حدث فى دمشق عشرات الأمثلة التى تجعل من الشعب السورى أول من يطلب الطلاق من مصر.. وفى زواج الدول بعضها من بعض تكون «العصمة» فى يد الزوجين. وأن شعبا يقبل من زوجة أحد الضباط الكبار أن تدخل صالون الحلاقة. وتأمر بطرد كل السيدات لتجلس وحدها، لا يمكن أن يكون شعبا محترما. ولذلك رفض السوريون الوحدة مع الشعب المصرى، وإن كانوا قد قبلوها مع الزعيم المصرى جمال عبد الناصر.. وقد سمعنا فى إذاعة دمشق ليلة الانفصال، الشيخ الطنطاوى يتحدث عن الوزراء السوريين الذين رفض أن يقابلهم الرئيس عبد الناصر. أما السبب الذى أبدى لهم فى ذلك الوقت فهو أن السيد الرئيس ليس عنده وقت هذه الأيام. ثم رأى السوريون وسمعوا أن الرئيس قد شهد حفلة أم كلثوم وعبد الحليم حافظ ونجوى فؤاد حتى الصباح. إذن فعنده وقت للهزل، وليس عنده وقت للجد..

ويوم تقدم السفير السورى الجديد المرحوم سامى الدروبى بأوراق اعتماده سفيرا لسوريا فى مصر بعد الانفصال، نزلت الدموع على خديه.. لأنه ما كان يتمنى أن تكون سوريا دولة ومصر دولة أخرى. ولكن كان هذا هو شعوره الخاص، فقد تعلم

وعاش وتزوج فى مصر. أما الشعب السورى فكان يرى أن كرامته أصبحت كرامتين: لأنه انفصل عن مصر ولأن سوريا قد عادت له.. وقد يبدو حادث صالون الحلاقة تافها. ولكنه ليس كذلك. فإذا أضفنا إليه صور بعض الضباط المصريين يركبون السيارات المكشوفة وقد تصلبت أعناقهم واكتسحت عيونهم أبناء الشعب السورى احتقارا لهم وتعاليا عليهم، وإذا عرفنا أن الحرب بين بروسيا والنمسا قد قامت فى سنة ١٨٧٠ لأن السفير الفرنسى قد «لطعه» الامبراطور الألمانى خمس دقائق، أدركنا كيف يمكن أن يؤدى عود كبريت مشتعل إلى كبرى الحرائق فى التاريخ..

فقد كانت المسافة بيننا وبين سوريا بعيدة من كل الوجوه. ولم يفلح هذه الوحدة المقررة - أى التى تمت بقرار. أن نحقق للبلدين شيئا. إنما أن تؤكد لهما أن الشئ الوحيد الممكن هو ألا تكون هناك وحدة. فليس هذا مكانها ولا زمانها..

ثم جاء دور الوحدة بين مصر وليبيا والسودان. وكان الرئيس الليبى القذافى يرى أن تتم بسرعة. وأن يكون ذلك بقرار يتخذه الرئيسان السادات ونميرى فورا. أما لماذا تكون الوحدة «فورية»؟ فلأن هناك تجارب سابقة فاشلة.. وحتى لا تعود هذه الكوابيس المزعجة تسيطر على أحلام طلاب الوحدة. كان لابد أن تتم بسرعة. على أن تناقش جميع الأطراف مشاكل الوحدة بعد ذلك. أى تكون الوحدة هكذا: نتحد اليوم ونتخانق غدا. أى المهم أن نثبت قدرتنا على الوحدة، وأن نخفى عجزنا عن تحقيقها. وبذلك تكون الوحدة نوعا من اخراج الحكام لشعوبهم. أو لتوريط الشعوب مع حكامهم..

وكما أن الرئيس جمال عبد الناصر مسئول عن النمو المبكر والسريع للرئيس القذافى. عندما قال عنه «رأيت فيك شبابى»، فإن الرئيس السادات مسئول عن «وقف نمو» الزعيم الليبى. فقد عاش الرئيس القذافى يحلم بأن يكون مثل الزعيم عبد الناصر، تلميذا فى مدرسته. وبعد ذلك ناظرا لمدرسته. بشرط أن تكون المدرسة هى مصر، فيكون رئيسا لمصر.. ومن المؤكد أنه صاحب هذه العبارة: مصر شعب بلا زعيم وليبيا زعامة بلا شعب. فإذا كانت الوحدة بين البلدين أصبح القذافى زعيما للشعبين. ولابد أن يكون هو أيضا صاحب هذه العبارة: الفلوس فى ليبيا والشعب فى مصر. والشعبان معا: شعب واحد سعيد. بشرط أن يكون الرئيس القذافى زعيما للبلدين.

وعندما تواضع الرئيس القذافى رأى أن يكون قائدا أعلى للقوات المسلحة أو على الأقل نائبا لرئيس الجمهورية. وهى أحلام لم يجرؤ على أن يجاهر بها أيام استاذه وناظر مدرسته: الرئيس جمال عبد الناصر. ولابد أن يكون الرئيس السادات هو الذى جعل حياة القذافى أكثر صعوبة وأشد تعقيدا.. فقد استدرج الرئيس القذافى إلى مصر. ثم طلب إليه أن يتحدث إلى الشعب المصرى رجالا ونساء. وبذلك أفلح الرئيس السادات فى أن يشنق القذافى بلسانه هو. فقد تطاول القذافى على رجال الدين والدين والمرأة والقيم الأخلاقية والاجتماعية وأهان كل الناس من كل لون ووضع وسن.. وعاد إلى بلاده سعيدا. ونحن أيضا. هو لأنه فتح قلبه لمصر، ونحن لأننا أخرجناه من قلوبنا وعقولنا. ولم يعد الرئيس السادات فى حاجة إلى رفض الوحدة الاندماجية الفورية مع ليبيا.. فقد كانت محاورات القذافى بمصر «حيثيات الحكم». لرفض هذه الوحدة!..

وفى حديث الرئيسين حسنى مبارك وجعفر نميرى بمناسبة «التكامل» بين البلدين، لم تغب عنهما هذه المعانى كلها. وهذا واضح فيما قاله الرئيس نميرى. ولا غابت الوحدة المصرية السودانية القديمة. والوحدة الثقافية الحديثة، وهذا واضح فى كلمة الرئيس مبارك..

وقد اتفق الرئيسان على أن الوحدة أو التكامل بين مصر والسودان قديم. وأن هذا التكامل قد قامت به الشعوب وحدها، دون ضغط من أحد: إلا حبها وإلا مصلحتها وسلامتها. وأن الذى فعله الرئيسان ليس إلا إعلانا لما تحقق فعلا على مدى سنوات طويلة. وليس إلا تبشيرا بما سوف يتحقق فى المستقبل فالتكامل ينساب بين البلدين كما ينساب ماء النيل من حيث يشاء الشعبان إلى حيث يشاء الله. بل إنها مشيئة الله أن يكون الشعبان شعبا واحدا: واحد الطريق واحد الهدف. وليس له من هدف إلا الخير والسلام.

ولا خوف من أن نقع فيما وقعنا فيه مع سوريا. فقد كان الشعبان مختلفين تماما. والمسافة بينهما كبيرة فى الجغرافيا والتاريخ والوحدة مع سوريا جاءت من فوق. عندما ألتقى جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى. أما الوحدة أو الاتحاد أو التكامل مع السودان فقد بدأ واستمر ونجح تحت.. أى بين الشعبين. وحتى لو جاءت سنوات تعترض هذه المشيئة الشعبية. فإن هذا الاعتراض يكون مثل اعتراض الجنادل

والشلالات. تدور حولها المياه. أو مثل اعتراض السدود. تتوقف أمامها لتتدفق وراءها. فكما أن أحدا لا يستطيع أن يمنع المطر. فإن أحدا لا يقدر على أن يوقف الماء. ويستحيل عليه أن يوقف ارتماء الشعب السودانى فى أحضان الشعب المصرى.. فليس الذى بين الشعبين قبلات فقط. ولكن خبز وحب وحرية واحترام وأمان..

والذى تحقق بين مصر والسودان نموذج لما يجب أن يكون بين الشعوب العربية، وبعد ذلك بين الدول العربية..

ما تزال الوحدة الرسمية أو التكامل الاقتصادى طفلا يحبو بين مصر والسودان.. ومادام طفلا فمن المناسب أن نتذكر ما نقوله للأطفال.. وأقرب الأمثلة على ذلك حكاية الأب اسكليروس. فقبل أن يموت جمع أولاده حوله. وأعطاهم «حزمة» من الأعواد الخشبية وطلب إليهم أن يحطموها.. فعجزوا. ففك هو الحزمة وراح يحطمها عودا عودا. أما المعنى فهو أنهم إذا تفرقوا انكسروا. وإذا اتحدوا انتصروا. ولا تزال هذه القصة التى نعلمها للأطفال وننساها عندما نكبر، هى أحكم القصص.

ولا خوف علينا من الوقوع فى الأخطاء ونحن نكمل بعضنا البعض. فقد وقعنا فيها كثيرا ثم اعترافنا بها. واتفقنا على أنه سوف تكون خلافات. ولكن سوف تكون تسوية مستمرة لها. وهذا هو الطبيعى. فليس الذى بيننا وبين السودان هو «تطبيعا للعلاقات» بين البلدين. فالتطبيع يكون بين شعبين مختلفين. إنما العلاقات طبيعية ونحن نريدها أن تنمو وأن يكمل بعضها بعضا. ثم إننا لم نبدأ كل ذلك أمس أو أول أمس.. إنما كل ذلك قد تم من ألوف السنين عبر الصحارى والجبال والوديان. على ظهور الإبل والسفن النيلية..

وكل الذى أعلنه الرئيسان مبارك ونميرى ليس إلا جدول أعمال الوحدة بين البلدين أو لائحة العمل الوحدوى.. أو قواعد اللعبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والحضارية بين أبناء جنوب مصر وشمال السودان.

وقد عملت الشعوب وعملت فأحسنت العمل، وعلى الله التوفيق.. ■

غاندي .. يموت مرتين

غاندي .. يموت مرتين

الذين اغتالوا أنديرا غاندى أطلقوا عليها رصاصا كثيرا مع أن رصاصة واحدة تكفى. بل طوبة صغيرة، فهى رقيقة نحيفة ريشة تمشى على الأرض، وإذا كانوا أطلقوا عليها عشر رصاصات فقط، فلأنه لم يكن لديهم أكثر من ذلك، فهى ليست واحدة ولا عشر نساء، إنما هى عشرات الملايين فى ثوب واحد.

وهى طفلة صغيرة وجدوها قد ربطت ذراعيها وأسندت ظهرها إلى الحائط والنار إلى جوارها فأنقذوها. ثم سألوها فقالت : أردت أن أجرب ما الذى كانت تفعله جان دارك التى طالبت باخراج الإنجليز فأحرقها الإنجليز.

ولكن الإنجليز خرجوا من الهند سنة ٤٧ دون أن تحترق أنديرا غاندى. إنما ادخرت حياتها ضحية للتعصب الدينى بعد ذلك.

وهى مثل كليوباترا التى انتحرت بأن اطلقت أفعى لسعتها فى صدرها وماتت فى غاية من الأبهة والجلالة. وكذلك أطلقت أنديرا غاندى أفعى التعصب فالتفت حولها رصاصات وماتت فى الهدوء الذى عاشت به، وحاولوا إنقاذها، ولكن المشكلة الآن ليست مشكلة انديرا التى ماتت، إنما مشكلة الهند التى عاشت.

وهى أيضا مثل شجرة الدر قتلها حراسها. بالقباقيب فلم يكونوا يعرفون الرصاص

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٤/١١/٤

فى ذلك الوقت. فالذين كانوا يحمون حياتها سرقوها - حاميها حراميها وحماتها جناتها.

وهى مثل مارجريت تاتشر ترأس أعرق دولة ديمقراطية فى العالم حاول الارهابيون اغتيالها هى ومجلس وزرائها. وإذا كانت تاتشر قد نجت من الموت. فإن بريطانيا وكل دولة أخرى لا تستطيع أن تواجه الاغتيال الذى يقوم به فرد، ولا العالم كله قادر على مواجهة الارهاب المنظم. وهكذا يتسلح العالم بأسلحة نووية وسفن فضاء قاتلة، ولكن هذه الأسلحة كلها عاجزة عن استئصال الحقد الذى فى الصدور. وإذا كان المؤرخون قد شغلوا أنفسهم كثيرا بالبحث عن الاسم المناسب لهذا العصر الذى نعيش فيه والذى تزاحمت فيه سفن الفضاء وتكدست على أرضه الصواريخ من كل نوع. فمن المؤكد أننا نعيش فى عصر الإرهاب العالمى المنظم.

إذن فما هو الأمن والأمان عند أى أحد من الناس إذا كان الحارس الذى يقف ببابك هو الذى سوف ينسف الباب والجالس وراءه؟. ما هى قداسة البابا إذا كان حرسه السويسرى هو الذى سوف يغتاله وبإسم الدين أيضا؟!.

سوف يقال الكثير عن أنديرا والهند والتعصب الدينى والاغتيال والارهاب. أما انديرا غاندى نفسها فقد ذهبت وسوف تبقى الدول والشعوب والأحقاد ويتطور السلاح القاتل ويبقى الحقد الدينى والتعصب العنصرى كما كان وأكثر. فنحن أولاد قابيل الذى قتل أخاه هابيل وسالت دماؤه على الأرض - فكان منها الزرع والضرع، وعلى الزرع عشنا وفى دم كل منا هذه الرغبة القوية فى أن نقتل أحب وأعز الناس لدينا وعلينا - ألسنا أحفاد قابيل الذى قتل أخاه هابيل؟.

بلى نحن كذلك.

اما أنديرا غاندى فلن تحتفل بإطفاء الشمعة السابعة والستين بعد خمسة عشر يوما، إنما سوف تحتفل الهند اليوم بإشعال بعض الألواح الخشبية يلقون عليها القليل من الدهن ويحرقون جثمانها النحيل الهزيل وسوف ينثرون رفاتها فوق أنهار الهند وعلى أرضها بذور الشجاعة والتسامح والوطنية.

أما أنديرا فقد كانت وحيدة أبويها نهرو وزوجته إبنة كشمير كمالا، وقد تزوج

نهرو كمالا دون أن يراها ولا أن يعرفها وإن كان والده قد نصحه بأن يكون رقيقا معها، وقد تجرأ نهرو وسأل والده كيف يفعل ذلك وهو لم ير إلا صورتها؟ وكان رد والده : إننى فعلت مع أمك نفس الشئ فلم أرها إلا يوم الزفاف.

ولم يجرؤ نهرو أن يناقش أباه، ولكن أنديرا استطاعت ذلك فيما بعد.

ولدت أنديرا غاندى سنة ١٧ وكانت الحرب العالمية مشتعلة وكانت الهند تعانى أشكالا وألوانا من العذاب والجوع والجفاف والمظاهرات. وكان الزعيم غاندى الحافى العريان صاحب الماعزة والمغزل القائد الروحى الذى واجه الامبراطورية البريطانية ويطالب بخروجها من الهند ولم يكن لديه إلا سلاح واحد هو أن يقول لا.. بصوت مرتفع. فقد كان يستسلم للذين يضربونه حتى يخجل الذى يضربه مما يفعله وكان يسمى ذلك : المقاومة السلبية أو المواجهة السلمية، وكان يطلب من الشعب الهندى أن يقاطع الملح الذى تنتجه بريطانيا فى الهند وتبيعه للشعب وأن يقاطع البضائع الأجنبية والبريطانية خصوصا، وعاشت أنديرا هذه التعبئة الوطنية..

وفى الثانية من عمرها كانت لها عروس جميلة وجاءها أحد أقاربها بفستان أحمر لهذه العروس وأسعدها ذلك وراحت تتحدث عاليا إلى العروس والفستان وتدور بها فى القصر الكبير لكن أحد أقاربها نبهها إلى أن الفستان مصنوع فى الخارج وبسرعة نزعت الطفلة الفستان وألقت به فى دورة المياه، وجاء من يقول لها بل إن العروس نفسها صناعة أجنبية، وهنا أوقدت أنديرا نارا وألقت بالعروس وهى تبكى.

وفى الرابعة من عمرها ذهبت مع أمها إلى المحكمة لترى جدها وأباها فى السلاسل وفى القفص. ثم طلبت من أمها أن تحملها على كتفيها وسألت أمها بصوت مرتفع: هل هذا فيلم سينمائى؟

وضحك الحاضرون ووضعت الأم يدها على فم الطفلة تمنعها من أية تساؤلات أخرى.

وعندما بلغت الثانية عشرة من عمرها طلبت إلى والدها أن تنضم إلى الحزب فرفض فغضبت الابنة المدللة وقررت أن تنشئ لنفسها حزبا جديدا وشكلت حزبا اسمه «فيلق القرود» وانضم إليها عشرة آلاف طفل وكانوا يضعون ذيلا يتساوى طولا وقصرا

حسب مكانة الطفل ودوره فى خدمة الحزب. وكان ذيلها أطولها جميعا. أما أفراد هذا الحزب فقد كانوا يأتون بالطعام والشراب لقوات المقاومة السلبية وكانوا يتسلقون الأشجار والبيوت. يتجسسون على رجال الشرطة ويعرفون منهم من الذى سوف يلقى القبض عليه وينقلون هذه الأخبار إلى رجال المقاومة وهكذا وجدت أنديرا نفسها فى بحر السياسة وألقت بها السياسة فى بلاد كثيرة وفى مدارس أكثر، ففى كل مرة يذهب أبوها إلى السجن تدخلها أمها فى إحدى المدارس فى الهند أو بريطانيا أو فرنسا أو سويسرا، وكل مرة تدخل أمها المستشفى علاجا لمرض السل كانت أنديرا تأوى إلى الأقسام الداخلية لإحدى المدارس الأجنبية فى عاصمة أوروبية. ولم تكمل أنديرا غاندى تعليمها، ولكن والدها كان يبعث إليها برسائل ممتعة من السجن فقد شغل نفسه بتلخيص تاريخ العالم لابنته ثم كتب إليها خلاصة حكمته فى الحياة والسياسة والتسامح والتعايش بين الأديان فى الهند وفى العالم.

وكان الزعيم غاندى يعلمها كيف يكون الصبر على المكاره وكيف يكون الابتسام فى وجه الأعداء وكيف تتسع الأحضان لمن يختلفون معها فى اللون واللغة والدين، وكان يبعث بها إلى معسكر المسلمين الذين يحاربون معه ضد الاحتلال البريطانى.

وشاعر الهند العظيم طاغور كان يروى لها أشعاره ويلقنها معانيها. وكانت تحفظ عنه قصيدته التى يتحدث فيها عن الحب والسلام. وكيف أن رجلا ذهب إلى الملك وقال له: هل تستأجرنى خادما لك؟ فقال الملك: نعم استطيع ذلك فسأله الرجل ولكن بأى شئ؟.. فأجاب الملك بقوتى.

فقام الرجل وأخرج ميزانا من جيبه ووزن قوة الملك فوجدها لا تزن شيئا فتركه، وجاء إلى تاجر وسأله فأجاب التاجر أستطيع أن أزنك بذهبى. فأخرج الرجل الميزان ووجد أن الذهب لا وزن له، ثم ذهب الرجل إلى سيدة جميلة فاتنة وكانت الشمس قد غربت فسألها وأنت؟ فقالت نعم استطيع أن أزنك بجمالى ودلالى، فأخرج الرجل الميزان من جيبه ووجد أن الجمال لا وزن له، وأخيرا ذهب إلى طفل وسأله إن كان قادرا على أن يستأجره خادما له فقال الطفل: نعم فسأله الرجل وبأى شئ فأجاب الطفل بالحب.

فأخرج الرجل الميزان من جيبه وهبطت إحدى كفتى الميزان فلاشئ يزن الحب فى هذه الدنيا، إنه أعظم وأروع ما خلق الله بين إنسان وآخرين.

ولم تكن أنديرا تعرف بالضبط معنى الحب ولا دلالة هذه القصيدة الرمزية العظيمة. وفجأة دخل الحب قلبها. إنه شاب أفاقت أمها ذات يوم فوجدت نفسها فى أحضانه، فقد أغمى عليها فى إحدى المظاهرات وأنقذها هذا الشاب المسمى فيروز غاندى وظل يتردد على بيت الأسرة حتى ظن بعض الناس أنه يحب أمها ولكنه كان معجبا بها وبنهرو والزعيم غاندى، وكانت أم أنديرا تشير إليه على أنه ابنها أو كأنه ابنها. بل أن نهرو كتب من السجن يقول لو كان فى الهند أربعة مثله لقفزت الهند إلى الأمام عشرات السنين.

ولكن الشاب فيروز غاندى تقدم يخطب أنديرا وكانت مفاجأة وكارثة أيضا من غير دينها، وأعلنت أنديرا أنها تحبه ولا يهمها إن كان فقيرا أو غنيا أو كان منبوذا مختلفا عنها وهى ابنة الأصول والثراء والمجد السياسى. إنها تحبه وقررت الزواج منه وغضب الكثيرون، ولكن الحب الذى جاء فى قصيدة طاغور كان له فعل السحر فى حياتها وفى مستقبل إيامها. ولم يعرف أحد كيف تتم مراسم الزواج هل هى على مذهبه الزرادشتى أو على مذهبها الهندوكى؟، وتم الزواج وفقا لطقوس دينها وانجبت منه ولدين، وحاول فيروز غاندى أن يكون جديرا بها لا مجرد زوج ابنة نهرو السياسى العظيم تلميذة غاندى الأب الروحى للهند فدخل الانتخابات ونجح وأصبح عضوا فى البرلمان، ورأس إدارات صحفية كثيرة وقد إنشغلت أنديرا بأبيها وبالسياسة وأصيب فيروز بالأزمة القلبية الأولى وفى الثانية توفى سنة ٦٤.

وقد حضر زفاف أنديرا غاندى عدد كبير من الشخصيات العالمية فى مقدمتهم مدام كورى مكتشفة الراديوم ووصفت أنديرا غاندى وهى ترتدى ثوب الزفاف فقالت : إنها رقيقة ناعمة سعيدة كبيرة الأنف واسعة العينين فاتنة الشعر كأنها خرجت لتوها من إحدى قصائد هوميروس.

وعندما جاءت أنديرا غاندى رئيسة للوزراء اتجهت إلى الأقليات فى الهند وأعطت خمس ولايات هندية حكما ذاتيا، ومن بين هذه الأقليات التى تمتعت بالحكم الذاتى طائفة السيخ فى ولاية البنجاب - إنهم الذين قتلوها بعد ذلك.

ولكن عندما قاومها السيخ حاربتهم فهى إن كانت تحب السلام فهى لا تخاف الحرب، وإن كانت تحب التعايش بين الأقليات فهى تقاوم الخروج على قانون الأغلبية.

وعندما التقت أنديرا غاندى برؤساء تحرير الصحف المصرية فى العام الماضى كنت أجلس إلى جوارها أراها شاحبة الوجه مشدودة البشرة لامعة العينين هامسة الصوت تعرف أنها توزن بالماس وأنها إن لم تكن أعظم رجل فى الهند فهى أعظم امرأة فى العالم.

وقد اختارتها الاستفتاءات العالمية أحب شخصية وأعظم امرأة. وفازت عشر مرات بالدكتوراة الفخرية من جامعات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وحصلت على مئات النياشين. كل ذلك تشعر به أنديرا غاندى طول الوقت. ولما نهضت تزحلقت فأسندتها بذراعى وداعبتها قائلا : لقد ساندت سبعمائة مليون هندى.

فضحكت قائلة : إذن فأنت رجل قوى. ولو كان الأمر بيدى لساندتها طويلا طويلا. وإذا كان هناك أناس يولودون عظماء وأناس يصيرون عظماء. فأنديرا غاندى عاشت وماتت كذلك.

وكأنه محكوم على الشعب الهندى على مدى ٣٦ عاما أن يقتل غاندى مرتين فى سنة ٤٨ اغتالوا الزعيم غاندى وفى سنة ٨٤ اغتالوا انديرا غاندى.

وكل غاندى وكل أصحاب الأمال الكبرى فى الدين والسياسة فى أى بلد يموت مرتين.

مرة برصاص أبناء دينه ومرة برصاص أعداء دينه فى المرة الأولى اتهموا غاندى بالتسامح مع المسلمين فقتله صحفى هندوكى، ولو عاش لقتله واحد من السيخ.

وفى المرة الثانية اتهموا أنديرا غاندى بالتعصب للهندوك فقتلها أثنان من السيخ، ولو عاشت لقتلها واحد من الهندوك.

لقد أخرسوا غاندى وأسكتوا أنديرا، ولكنهم أيقظوا الفتنة.

وللرصاص بقية غدا وبعد غدا ■

ليست السفينة
وإنما هو نوح

هل هو ضعف فى القيادة السوفيتية؟

هل هو كذب فى القيادة الامريكية؟

هل هى رغبة مؤكدة عند الدولتين العظميين فى حياة أفضل وأطول؟

هل هى مناورة تقليدية مع بداية دورة الأمم المتحدة والحملة الانتخابية الامريكية، وغيرها من الاسئلة، بمناسبة لقاء الرئيس ريجان والوزير القديم العتيد أندريه جروميكو؟. وهل جروميكو هو الرئيس القادم للاتحاد السوفيتى؟ وهل الرئيس تشرنينكو مريض، وأن مرضه هو الذى جعله يلين؟

وهل الرئيسان - هذه المرة ولآخر مرة - صادقان فى الاتفاق على انقاص أسلحة الدمار فى الأرض وفى الفضاء حول الأرض؟.

لقد رأيت فى التليفزيون البريطانى جيشا كامل الأسلحة والعتاد، ينتقل إلى ألمانيا الغربية جوا وبحرا وبرا، كما لو أن عدوانا روسيا قد وقع، إنها عملية تستغرق يوما أو يومين، تتكلف ثلاثين مليون جنية، تدفعها بريطانيا التى تعانى من أزمة اقتصادية عنيفة. هذه الأزمة جعلت الشعب البريطانى يتساءل فى التليفزيون: هل من

نشر هذا الموضوع فى ٨٤/٩/١٦

الديمقراطية إعفاء الملكة من دفع الضرائب؟. وقد رأيت عشرات المشاهدين وقد صدمهم هذا السؤال. فهم لا يحبون أن يتناولوا الأسرة المالكة بهذه الجرأة ورفع الكلفة.. وبعضهم يبدو وقد خجل من هذا السؤال، كما أنه خجل من الامتناع عن الاجابة عنه.. فالناس أمام القانون سواء، ثم إن الملكة تدفع الضرائب، وتنفق على وظيفتها من مالها الخاص، وقد شاركت أيضا هى والأمراء فى تمويل هذه الحملة العسكرية المكونة من عشرين ألف جندى، عبروا بحر الشمال إلى المانيا الغربية.

ولا تصف بريطانيا جيش العدو الوهمى الذى ذهبت تحاربه بأنه قوات معادية، إنما بأنه قوات «برتقالية اللون» فى مواجهة قوات «زرقاء اللون».. كما أن الروس وحلفاءهم لا يصفون العدو الذى يستعدون لمحاربته بأنه «العدو» إنما بأنه القوات «الجنوبية» فى مواجهة القوات «الشمالية». ويرى الناس فى عدم استخدام كلمة العدو بين المعسكرين دليلا على أن أحدا لا يريد أن يعادى أحدا. إنما يريد أن يؤكد للناس أنه مضطر إلى العداء أو مضطر إلى الحرب.

أى أن أحدا فى الشرق والغرب لا يريد هذه الحرب النووية، اكتفاء بالحروب الصغيرة فى القارات الخمس تلك الحروب التى تزودها الدول العظمى بالسلاح. فإن لم تكن الدول العظمى تحارب مباشرة، فهى تساعد على استمرار هذه الحروب. لتظل مصانعها الضخمة تنتج السلاح وقطع الغيار، وتنتج الذخيرة، وتنتج العقول الالكترونية الى توجه مسار الذخيرة إلى قلوب الأبرياء فى كل مكان - كل ذلك باسم الحرية والاستقلال وعدم الانحياز إلى الشرق أو إلى الغرب أو إلى أية دولة من الدول التى تستنزف موارد العالم الثالث: البترول والفوسفات واليورانيوم والكوبالت وعباد الشمس الضرورى لصناعة الذخيرة، فالعالم الثالث كله حقول تجارب، وشعوب العالم الثالث حيوانات للمعامل تستخدمها شركات الأدوية والكيماويات..

وقد اندهش الشعب الامريكى جدا لأن التليفزيون يعرض الباليه الروسى ويعرض أساليب التخسيس فى بولندا وبلغاريا، وكيف أن الشعوب الاشتراكية حريصة هى أيضا على الرشاقة واللياقة.. أى ليس من الضرورى أن يكون هذا الاستعداد، وأن تكون هذه الرشاقة استعدادا للدورة الاوليمبية التى انسحبوا منها، إنما هى الرشاقة من أجل اللياقة والصحة والعافية. فالصحة ليست من صفات الغرب وحده، والرشاقة ليست

من صفات بنات باريس ولندن، ولاجين فوندا هى وحدها رائدة وضع العضلات فى سيقان المرأة وذراعيها، استعدادا لدخول المرأة فى معركة مع الرجل، أى أنه إذا كان الرجال قد فاتهم أن يتحاربوا، فلا مانع أن تستعد النساء لمثل هذه المعركة.

وفجأة انتقلت طائرة تنقل قلبا من موسكو وطائرة أخرى تنقل إحدى الكلى - مساعدة للذين يحتاجون إليهما فى الغرب. ويندهش الناس فى العالم الغربى لهذا التحول الإنسانى السوفيتي. كأن من المؤكد علميا لدى الغرب أن الروس لا قلوب له، وأنهم لا يستجيبون إلى أى نداء إنسانى، فإذا فعلوا ذلك فهو معجزة، إذ تحول الحيوان الاشتراكى إلى إنسان رأسمالى - كأن الحيوانية اشتراكية والإنسانية رأسمالية؟

وفى نفس الوقت يزداد العنف الدموى الوحشى بصورة فردية فى كل العواصم الغربية. ففى لندن تنشر الصحف كل يوم جرائم من نوع غريب، كأن هناك «هيتشكوك» يعيش فى الظلام، ويقدم للعالم كل يوم حلقة فى مسلسلات الرعب.. فمنذ يومين تزوج شاب عن حب عميق، والتف حوله الناس يبخرونه وينشرون فى سمائه الملح الذى يوجع عيون الحاسدين، وفى الليلة الأولى من شهر العسل ينحنى على زوجته يعانقها ويقبلها ويذكرها بالحب الذى كان، والحب الذى هو كائن، والعشق الذى هو آت، ثم قتلها.. وكأن قتل العروس وصراخها المكتوم لم يشف غليله، فاتجه إلى أمها وأختها، وقتلهما معا. وسلم نفسه للبوليس وهو يقول: قد اكتملت سعادتى.. أحببتها وقتلتها.. وأريد أن ألحق بها شنقا!.

وقبل ذلك بيوم واحد تسلل شاب إلى بيت عروسين وانفرد بأخت العروس وتركها، ثم اتجه إلى العروسين وقتلهما. وإلى حماة العريس وحماة العروس وقتلهما، وهرب. وعندما ألقى القبض عليه قال: كان فى نيتى أن أستسلم.. فقد استرحت الآن نفسيا..

أما فى باريس فيوجد عشرون ألف طفل دون العاشرة، قد أرغمهم الكبار على الدعارة - أرجو أن تقبل هذه العبارة الغامضة مؤقتا حتى أوضحها لك حالا - فهؤلاء الأطفال وقعوا ضحايا عدد من النساء والرجال الشواذ، فالواحد من الكبار يعتدى على الصغير جنسيا ثم يضربه ويسيل دمه، ويجعله يلعق الأرض والأحذية ويستسلم نهائيا، وكل ذلك يتم تصويره على فيديو كاسيت، ويلقى رواجا عظيما، وبعد أن يتم كل

ذلك يقوم طفل آخر بقتل الطفل الغارق في دمه، ويتم تسجيل ذلك وبيعه أيضا.

ومنذ أيام اعتقل البوليس سيدة علقت عددا من الأطفال في حبل واحد، لم تعلق أجسادهم إنما رءوسهم فقط، وقد أنفذت سلكا ساخنا في عيون الأطفال وسجلت ذلك بالألوان على ڤيديو كاسيت.

وفي أمريكا اعتقل البوليس رجلا وزوجته، وقد ذبحا أطفالهما وقدماهم طعاما لعدد من الرجال والنساء يأكلون ذلك وهم يعرفون ما الذي يأكلونه، ثم يقومون جميعا بذبح بعضهم البعض والكاميرات الضخمة تسجل ذلك في ألوان زاهية صافية، ويعرضون هذه التسجيلات سرا للمصابين بالشذوذ النفسي والعقلي - أي للذين يجدون العذوبة في العذاب، للذين يجدون المتعة الجنسية في موت الآخرين وصراخ الأطفال ودماء الأبرياء.

هل معنى ذلك أن الإنسانية وحشية الأعماق مجرمة الحقيقة، وأن هذا الذي يقوم به الرؤساء من الدعوة إلى هذه الأظافر النووية والمخالب الالكترونية وانزال الأقمار القاتلة من حول الأرض إلى باطن الأرض، ليس إلا إخفاء لهذه الحقيقة؟ هل نحن مجرمون أفرادا، مسالمون شعوبا، أو وحوش أفرادا محاربون شعوبا؟ هل انتشار المخدرات والمنبهات والكاسيتات دليل على أن هذه هي الأعماق المخيفة للإنسان، وأن الإنسان - كما كان قديما - ذئب مفترس وكلب جبان؟..

هل الإنسان جبان فرديا، شجاع اجتماعيا؟ هل الإنسان يعذب نفسه عندما يعذب الآخرين؟ وهو لذلك لا يقتل أحدا لأنه لا يريد أحدا أن يقتله، إنما هو يكره القاتل والقتيل، فهو يشاهد بالألوان صورة بشعة عنيفة لكل الذي يكرهه، ثم إنه يتعذب لذلك.. فهو إذن يريد أن يعذب نفسه، يريد أن يصفع خده بيده، ويركل ظهره بقدمه، ويلعن إنسانيته بحيوانية الآخرين.. حتى هذا الرأى أو حتى هذه النظرية التى تربعت على عرش علم النفس التحليلي، وتوجت العالم الكبير فرويد على علم النفس والعلاج النفسي، فنظرنا إليه بعظيم الاحترام، كأنه النبي يوسف عليه السلام المفسر الأول للأحلام، هذه النظرية لم تعد صحيحة، وفرويد ليس إلا نصابا عبقريا، فالتليفزيون البريطاني سوف يعرض غدا أخطر مسلسل علمي تاريخي عن العالم الكبير فرويد، وفي المسلسل يؤكد مؤلفوه من علماء النفس أن فرويد كان كذابا

مريضا، فهو قد نصب علينا خمسين عاما حين فتح أعماقنا لنرى وحوشه في داخلنا، فالقفص الصدرى للإنسان ليس إلا قفصا فى حديقة الحيوان، والإنسان حيوان مفترس يأكل لحم أخيه وعظمه، وهو يريد أن يعتدى عليه جنسيا وأن يلتهمه عاطفيا، فالأبن يريد أمه والبنت تريد أباها، ولكن الدين هو الذى يمنعنا من ذلك، ولا يزال الدين هو الفرامل والعوائق والزراير على كل حواسنا الخمس..

(اكتشف شاب أنه متزوج من أمه منذ ست سنوات فأبلغ البوليس، ولما استدعى البوليس أمه قالت: لقد أعطيت ولدى وهو طفل لعائلة فى الريف لكى تتولى تربيته، ولما كبر راح يبحث عن أمه وأسرته، فاقتربت منه وعطفت عليه وأكدت له أننى سوف أقف إلى جواره أساعده فى البحث عن والدته، ثم أحببته وعرضت عليه الزواج وتزوجته حتى لا تفوز به امرأة أخرى! روعرض التليفزيون الزوج، وقد أخفى وجهه بين يديه خجلا، تماما كما فعل «أوديب» فى الأسطورة الإغريقية القديمة، فعندما علم أوديب أنه تزوج أمه فقأ عينيه حتى لا يرى الناس تنظر إليه احتقارا لحيوانيته)..

حتى فى هذا التفسير العلمى الذى تعلمناه من فرويد، يرى العلماء الجدد أنه كان كذابا نصابا، وأن كل التجارب التى عرضها علينا وراح يجهدنا ويجهد نفسه فى تفسيرها كانت من اختراعه هو. فالمرضى الذين روى قصص حياتهم لم يكن لهم وجود، والكلام الذى وضعه على ألسنتهم كان من اختراعه، والأحلام التى سجلها وراح يفسرها كانت من تأليفه «إذن فهو الرجل المريض الكذاب الذى اخترع علاجا لأمراض قد ابتدعها قبل ذلك، ويعترف العلماء فى هذا المسلسل أنهم كانوا يعرفون هذه الحقيقة عن العالم الكبير فرويد، ولكن كان من الصعب اقتلاع هذه المعانى وقد ترسخت فى عقول الناس..

وهكذا يدخلنا العلماء فى عذاب جديد، وهو أنهم يجردوننا من التفسيرات الجاهزة لحل مشاكل النفس البشرية، ومعنى ذلك أننا نتعذب ونعذب غيرنا. دون أن يكون هناك معنى. فالمعنى الذى كان لدينا لم يعد له معنى. ونبى التحليل النفسى ليس إلا مدعيا للنبوة.. وهكذا يقوم علم جديد ينسف علم التحليل النفسى والعلاج النفسى، بإخراج جثة فرويد من قبره واتهامه بتزويد الكلمات ومعانيها وتضليل الإنسانية ودفعها إلى راحة وهمية..

فما هو إسم هذا العذاب الجديد الذى نضيفه إلى كل أشكال العنف والقتل؟.. إنه: عدم التصديق لكل ما يقال.. لما يقوله الزعماء ولما يقوله العلماء، فلا رؤساء الدول صادقون فى وقف السباق العلمى نحو تدمير الإنسان فى أسرع وقت بقتله على الأرض وقتله فى الفضاء. ولا العلماء صادقون عندما يفسرون ذلك بأنه حرمان جنسى أو عدوان جنسى..

ألا ترى العلماء أيضا قد نزعوا السقف من فوق كل بيت، وسحبوا الغطاء من فوق النائمين، وكذلك المخدرات والمراتب، ثم أشعلوا النار فى ضمائرنا ، وحركوا رجال الدين ضد رجال العلم والسياسة، وضد النظريات الحديثة فى الحروب والعلاج؟.. ألا ترى أن علماء النفس راحوا يغتالون انبياءهم مثل بقية المجرمين الذين يغتالوا حكماءهم، ومثل الآباء الذين يأكلون أبناءهم، والأمهات اللاتى يهتكن أعراض بناتهن، ويبعن دماءهن فى الكاستات الملونه..

إن أول آيه فى التوراة تقول: فى البدء كانت الكلمة، وكانت الكلمة هى الله.. أى كلمة الله أو حكمة الله أو أن الله وحكمته شئ واحد..

أما الآن فلم يعد للكلمة معنى، ولم تعد لهذه البداية قيمة. ولم يعد للناس إله يصدقونه.

وفى القرآن الكريم كانت أول آية تقول :

إقرأ..

أى اقرأ الذى أمامك.. أى اتل.. أى فكر فى حكمة الله الذى علمك كيف تقرأ، وكيف تفكر فى أن الله علم الإنسان بالقلم.. علم الإنسان ما لم يكن يعلم.. علمه أن يعرف وأن يفكر وأن يحلل، وأن يهتدى إلى حقائق لم يكن يعرفها، وأن يمضى فى ذلك إلى غير نهاية..

ألا ترى أن الإنسان بعلومه الحديثة ونظرياته الجديدة والحاده والمتواصل يفقد الإيمان بشئ، وهذا الشئ يكبر ويتعاظم حتى يصبح الإنسان عاجزا عن إدراك الكلمة.والحكمة وعاجزا عن قراءتها، إنه كالأعمى الذى لا يرى، والمجنون الذى لا يعى، وإنه هكذا قد قضى على عقله بعقله. وإنه قد سحب الطريق من قدميه، وإنه قد

استأصل قدميه حتى لا يمشى، وأن يظل هكذا ضالا مضللا، فإذا جاء الزعماء يحدثونه عن السلام فإنه لا يستمع إليهم، فلم يعد يعرف معنى أن يكون أحد زعيما وأن يتكلم وأن يستهل كلامه بالسلام..

ومن ثلاثين عاما كنا نتابع مسرحيات «العبث» فى فرنسا وعلى المسرح المصرى، وهى مسرحيات اللامعقول.. اللامنطق.. اللامعنى، ومعنى هذه المسرحيات أن الأنسان يقف على المسرح ويردد بمنتهى الدقة والأمانة كل ليلة عبارة كتبها أحد المؤلفين، هذه العبارة لا معنى لها، ويرى الممثل والمخرج أن الأمانة والدقة تقتضيانه ألا يضيف كلمة أو حرفا يجعل لهذه العبارة أى معنى، فالخروج على النص هو أن يكون مفهوما لأن المؤلف يريد ألا يكون مفهوما..

ألا ترى أن الذى كان يقدمه مسرح اللا معقول فى باريس وفى مصر بعد ذلك، نبوءة لما سوف يحدث فى سنة ٨٤ فى كل العواصم العالمية؟ ألا ترى أن مسرح العبث قد فشل فشلا تاما؟ لأن من أهداف المسرح أن يفضح الناس وأن يعرض عليهم عيوبهم فإذا عرفوها عالجوها، وقد عرفوها ولكنهم أمعنوا فى ذلك.. فإذا لم يكن هذا هو الطوفان، فما اسم هذا الضياع؟ وإذا كان هذا هو الطوفان أفلا ترى أننا فى حاجة إلى نوح يدعو ربه فيغرق الأرض ومن عليها ليبقى عدد قليل من عباده؟!.. هذا العدد القليل هو الذى يقيم عليهم دنيا جديدة.. ألا ترى أن حرص عدد من الأثريين والمغامرين فى البحث عن سفينة نوح فوق جبل ارارات على حدود روسيا وتركيا وإيران، دليل على أننا فى حاجة إلى سفينة نجاة، وأننا فى حاجة إلى نوح، وأننا فى حاجة إلى طوفان عنيف.

وكما أن الله سبحانه وتعالى عندما أطلق أمطار السماء لتغرق أهل الأرض، كان قد أوصى رجلا صالحا هو نوح أن يبنى سفينته على الشاطئ، ومادام نوح هذا لم يظهر بعد على أى شاطئ، فمعنى ذلك أن الطوفان الذى قدر الله أن يجتاحنا لم يبلغ أوجه بعد. ولكن طوفان الدم والعنف والكذب والخداع والتضليل تتعالى موجاته وصولاته وجولاته فى كل الهيئات الدولية والاذاعات العالمية والصحف الوطنية والقومية وفى كل أماكن العبادة.. ويكفى أن ننظر إلى القتلى على أرضنا لنجد من بينهم رجال الدين ورجال الدنيا..

إن الذين يبحثون عن سفينة نوح فوق جبل أرارات قد أخطأوا الطريق تماما، فليس المهم أن نجد سفينته، ولكن المهم أن يظهر نوح، فإذا ظهر كانت له سفينة على كل شاطئ، وفى كل معبد، وفى كل ضمير، فنوح الذى نحتاج إليه أعظم وأروع وأقدر من نوح عليه السلام، إنه نوح المزود بسفن الفضاء المزودة بالطاقة الشمسية، لكى ينقل عشرات من الطيبين من هذه الأرض ليبدأ بهم حياة أفضل على كوكب آخر فى أماكن أخرى من هذا الفضاء السحيق - من يدرى؟!.. فالله فى القرآن الكريم قد حدثنا عن مدن ذهبت ومدن جاءت، وأمم بادت، وأمم ولدت، وأنه قادر على أن يأتى بخلق جديد على هذه الأرض أو على أية أرض أخرى - اللهم آمين.. ■

المهم ..
أن القرار قد صدر!

من السهل أن نسيء الظن بالملك حسين ..

ومن السهل أن نحسن الظن بالرئيس مبارك.

فقرار عودة العلاقات مع مصر، كان مفأجاة للشعب الأردنى، ولكنه لم يكن كذلك لبعض الزعماء العرب. ونحن لا نعرف ماذا قال الزعماء للملك. ولكن المهم أنه قد اتخذ القرار. ثم تولى بعد ذلك شرحه للشعوب العربية..

والرئيس السادات قد فعل ذلك، عندما اتخذ قرار المبادرة بالسلام. فقد يئس الرئيس السادات من أن يفعل العرب شيئا آخر غير الحرب، وإدانة الحرب إن أعقبتها الهزيمة، وإدانة الحرب إن أعقبها النصر، ففى أيام الهزيمة قال الأشقاء: إنهم نصحونا ألا نفعل.. وفى أيام النصر قيل: إنهم نصحونا ألا نقع فى مصيدة إسرائيل، التى تهدف إلى تمزيق العرب. وذلك بأن تجعل دولة تنتصر وتترك الدول الأخرى عاجزة عن الحرب والسلام..

ولكنه اتخذ القرار، وانسحبت اسرائيل من سيناء - وهو الانسحاب الوحيد الذى تحقق منذ سنة ١٩٧٣.. ولكن المهم أن قرارا خطيرا قد اتخذته مصر، وتحملت، فى السلم، أضعاف ما تحملته فى الحرب. ففى الحرب قد كسبت مصر التضامن العربى

نشر هذا الموضوع فى

والبكاء عليه وعلينا. وفى السلم قد كان نصيبها وافيا من الاتهام بالخيانة وتمزيق الصف والتآمر أيضا على القضية الفلسطينية.. إلى آخر ما قيل وما سوف يقال مرة أخرى بعد عودة العلاقات المصرية الأردنية..

وقد سمعت موشى ديان يسأل الرئيس السادات عند لقائه به فى مدينة الاسماعيلية: ولكن لماذا يا سيادة الرئيس قررت الذهاب إلى القدس فى هذا الوقت بالذات؟!.

مع أن موشى ديان هذا قد اشترك فى لقاءات من أجل البحث عن وسيلة للسلام مع السيد حسن التهامى فى المغرب. على مدى امتار من الملك الحسن، وبعلم وموافقة وتشجيع منه..

ومثل هذا السؤال يتجه أيضا إلى الملك حسين: ولماذا يا صاحب الجلالة اتخذت هذا القرار؟

ولأن الملك حسين رجل واقعى. حريص الخطوات. حاد الذكاء والسمع، ولأن يده فى النار، ليس يده فقط.. بل ٦٠٠ كيلو متر هى حدود بلاده مع إسرائيل.. فهو على مدى أصغر مدافعها. وهو الضحية الأولى، وإذا ارتكب المجانين فى إسرائيل أية حماقة دينية عسكرية.. ثم إن الملك حسين يحكم شعبا أغلبه من أبناء فلسطين. وهؤلاء الفلسطينيون أكثرهم قد تكفن فى اليأس، وأقلهم قد استسلم للواقع . أما الواقع فهو أنه لا أمل فى حل، لأنه لا أمل فى الوحدة العربية!..

ولذلك فالأردنيون الذين لقيناهم يقولون: لابد أن لجلالة الملك هدفا، ولابد أن لديه خطة. وقد اعتدنا منه أن يفكر ويقدر ويدبر. فلابد أن هناك أسبابا قوية قد دفعته إلى الخطوة الشجاعة. وليس من السياسة أن يصرح بكل ذلك.

ومعنى هذا أن الناس لا يعرفون، لأن القرار كان مفاجأة. وأن السياسة تحتم على الملك أن يخفى مؤقتا البواعث الحقيقية لهذا القرار. ولكن لابد أن تكون هناك أسباب وجيهة. فهذا أسلوب الملك فى الحكم. ولولا ذلك ما بقى عشرات السنين على العرش الذى تحوطه بهم المدافع والصواريخ الإسرائيلية والقلق الفلسطينى والتفكك العربى والمناورات الدولية. إذن فقد استطاع الملك أن يبقى حيث هو على عرشه،

لقدرته الفريدة على التوازن واليقظة وحساب الصغيرة والكبيرة. وهناك اجتهادات.. من بينها أن القرار الملكى قد جاء بعد تشكيل الحكومة الإسرائيلية برئاسة بيريز الذى يؤكد فى كل مناسبة أن له علاقة قوية بالملك حسين - هو أو حزب العمل. ولا أستبعد أن يكون شئ من ذلك، فأنا أذكر أن رئيس وزراء إسرائيل بيريز، وأنا أعرفه شخصيا وجيدا. كان يفعل ذلك مع الرئيس السادات، رغم أنه لم تكن هناك صعوبة. ورغم أن الرئيس السادات قد دعاه مع أبا إيبان وبارليف إلى القاهرة. وكان لقاء طويل عرفنا فيه ماذا يريدون وماذا نريد منهم ثم توالى بعد ذلك من يجئ باسم بيريز ويتحدث - فهو إذن على صلة بشكل مباشر وغير مباشر. ورأى أن الملك حسين لا مانع عنده من أن يفعل ذلك، مادام لا يستطيع أن يفاوض اليهود مباشرة. ثم إن كل أجهزة المعلومات تفعل نفس الشئ على مدار الساعة يوميا..

وقد نفى الملك أن يكون للقرار علاقة بالحكومة أو الانتخابات الاسرائيلية..

وقيل إن للقرار علاقة بمجئ عدد من الرسميين الأمريكان. وقد نفى الملك أن يكون ذلك سببا. وقيل إن تدهور علاقته مع سوريا، وقيل إن علاقته مع العراق الحليف الصديق - فالعراق ليس فى وضع يسمح له بأن يسارع إلى نجدة الأردن إن اعتدت عليه سوريا. وقيل إن هذا الموقف من مصر، يخفف من حدة الموقف مع إسرائيل. مع أن العلاقات الأردنية الاسرائيلية غير المباشرة على أحسن ما يكون. فالعمال ذاهبون قادمون عبر الضفة الغربية.. والتبادل التجارى بين الضفة والأردن على أشده. بل إن الأردن يستورد ألوف الأطنان من الخضراوات.. وملايين الدولارات.. ثم إن هذه الحدود الطويلة جدا تسمح بأن يتسلل ليلا ونهارا ألوف المواطنين. وإذا كان قد حدث فى يوم الغفران أن تسلل ثلاثة من الفلسطينيين فقتلهم الاسرائيليون، فإن لم يكونوا من الأردن. فقد دفعتهم سوريا لافساد العلاقة بين الأردن واسرائيل على أثر القرار الذى اتخذه بعودة العلاقات مع مصر!

وقد يقال أيضا إن الملك حسين قد اتخذ هذا القرار منذ وقت طويل، ولكنه انتظر حتى تجئ فرصته.. وقال لنا الملك حسين: إنه انتهز فرصة رأس السنة الهجرية. لتكون بداية مباركة.

ويمكن أن يرد على ذلك بأنه قد جاءت قبل ذلك مناسبات مباركة أخرى، هذا

العام والأعوام السابقة، فجاء عيد الأضحى ومن قبله عيد الفطر ومن قبله يوم العاشر من رمضان..

ثم إن يوم رأس السنة الهجرية قد صادف يوم رأس السنة العبرية أيضا.

كما أن يوم السادس من أكتوبر قد صادف يوم الغفران فى إسرائيل!

وفى محاكمات نورمبرج أتذكر أنه عندما سئل فيلسوف النازية الفرد روزنبرج: لماذا اخترت يوم العشرين من أغسطس بالذات لتؤكد للشعب فى بولندا: أنه فى مثل هذا اليوم من العام القادم سوف يتحقق النصر الأبدى للشعوب الآرية على غيرها من الشعوب الأخرى.. وسوف نسحق هؤلاء الساميين اليهود؟!.

وسأله القاضى الأمريكى وكان يهوديا: لماذا يوم العشرين من أغسطس؟ هل لأنه عيد ميلادك.. أو لأنه اليوم الذى طردت فيه أخت هتلر، التى كانت تعمل خادمة عند أسرة يهودية فى فيينا.. أو لأنه اليوم الذى رفض فيه الناشر اليهودى أن ينشر مجموعة من قصائدك الركيكة.. أو لأنه اليوم الذى أمسكت فيه فتاة يهودية هى سالومى اندرياس بحذائها وضربت الفيلسوف النازى نيتشه فى مدينة هيدلبرج؟؟

ولكن الفيلسوف النازى قال: لم يخطر على بالى شئ من كل ذلك.. فقد كان من الممكن أن أقول ذلك يوم ١٨ أغسطس أو ١٨ يوليو من نفس العام أو العام الذى قبله.. لولا أننى كنت مريضا بالتهاب رئوى.. هذا كل ما هناك!

إذن فتوقيت القرار لا يهم. إنما صدور القرار هو الذى يهم.

ولكن لأن الملك حسين رجل حريص جدا.. فلابد أن تكون هناك حسابات وطنية وقومية وعالمية، ولكن الأهم هو أن قرارا حكيما واقعيا قد اتخذه الملك حسين. فاستحق لذلك عظيم الاحترام.

وهو كرجل سياسى لا يختلف كثيرا عن السادات والملك الحسن. فالسادات قد اتخذ قراره الوطنى الشجاع، لأن مصلحة بلاده، ويأسه من العرب، تحتم عليه ذلك.. والملك حسن يوم اتهمته العواصم العربية بالخيانة، عندما استضاف عددا من الاسرائيليين، وعندما التقى باليهودية المغاربة، كان رده واضحا: هذه مسألة داخلية، ولا أسمح لأحد أن يضع أنفه فى شئونى. لأننى لا أفعل ذلك مع الآخرين!

وأشجع العرب فى الرد على هذا القرار المغربى قال: ولكن الملك لم يخطرنا بذلك؟!

ولكن أحدا من الرؤساء المعتدلين لم يتهم الملك بالخيانة. بل إن الرئيس القذافى أكثر العرب تطرفا وتهوسا قد أعلن الوحدة الاندماجية بين المغرب وليبيا. وهذه الوحدة تتضمن موافقة ضمنية على هذا القرار المغربى...

وكتبت أنا يومها أقول: إن العرب ينعون على أنفسهم ان ليست لهم جالية يهودية فى امريكا تتحدث باسمهم وتدافع عنهم.. لكن الملك الحسن له جالية مغربية بعشرات الألوف فى إسرائيل تعرض القضية وتوضحها وتدافع عنها.. ويبعثون إلى المغرب بملايين الجنيهات.. ثم إن لليهود عضوا فى البرلمان المغربى الجديد!.

والملك حسين له هذا الحق وهذا الحق لا يأخذه من رضا العرب أو سخطهم. وإنما هو حقه هو.. وواجب عليه. فليس بين العرب واحد يجلس على عرش من الشوك، وقدماه فى محيط من النار، ويحرك رأسه فى سحب من الشكوك وسوء الظن، مثل الملك حسين، ولكنه استطاع بحنكته السياسية وحكمته القيادية، أن يبقى حيث هو!.

والحديث النبوى يقول: ذكاء المرء محسوب عليه. أو محسود عليه. فهو بسبب هذا الذكاء تلقى نصيبا عاليا من سوء الظن..

ولكن القرار قد اتخذ. والموقف قد اتضح. وإذا كانت مصر تستحق التشجيع فى موقفها، فإن الأردن أيضا يستحق التشجيع وكل الاحترام..

وكما أن الحاخام كاهان المتطرف المجنون قد أعلن - وأنا أصدقه - أن الذى يقوله علنا من ضرورة القضاء على العرب، هو ما يقوله اليهود سرا.

فأنا أرى أيضا أن ما قاله هذا الملك العاقل علنا من ضرورة الوقوف مع مصر، هو ما يقوله سرا زعماء آخرون.

وقد نجحت سياسة الاعتدال، فانسحبت قوات إسرائيل من سيناء، ونجحت سياسة التطرف فى إسرائيل، فأتت بمناحم بيجين إلى الحكم مرتين وأتت أيضا بأمثال الحاخام كاهان.

وانضمام الملك حسين يؤكد نجاح سياسة الاعتدال. ولصالح العرب يجب أن يسارع

المعتدلون فيتحدوا فى مواجهة التطرف العنيف فى إسرائيل. فيكون المعتدلون قوة جديدة لها منطق جديد.. وإذا كنا قد جربنا التطرف فى مواجهة إسرائيل، أيام الجامعة العربية الأولى والثانية، فلم ينجح. فلنجرب الاعتدال القوى المحترم، الذى يجب أن يلقى تأييدا من روسيا وأمريكا والدول الأوروبية. فإن زاد التطرف الإسرائيلى فلا مفر من التطرف العربى. ولا مفر من الحرب. وهى مهلكة. وقد أهلكتنا حروب كثيرة. وهذا قدرنا أن ننهض من أجل حرب، وأن نسقط لننهض بعدها، فهذا مصيرنا، وما حيلتنا أن تنقض علينا دولة عسكرية أبدا، تساندها أعظم وأغنى دولة فى العالم.. وقد حدث ذلك من قبل ولمئات السنين أيام الحروب الصليبية!..

فليس من العدل ولا من الإنسانية أن يظل شعب مشردا بلا وطن.. وأن تجئ شعوب يهودية تستولى على الأرض وتضيف إليها كل يوم جديدا، ويتفرج العالم على هذه المجزرة العسكرية.. ثم إن السلام مع إسرائيل، لم يحقق لها هذه الصداقة ولا حتى الرغبة فيها. إذ كيف نصادق شعوبا ما تزال تذبح وتحرق وتهدم شعوبا عربية أخرى؟!

ومن السهل أن نرى قرارات الرئيس مبارك فى موضعها وفى وقتها المناسب. فالرئيس مبارك ليست له دعاوى كبرى. وإنما هو منذ البداية قد أعلن أنه سوف يمضى فى هدوء، كما جاء إلى السلطة فى هدوء. وأنه لن يطيل لسانه فيشتم الذين يشتمونه ويتوعدونه، بل لقد طالب كل الأقلام أن تفعل نفس الشئ.. فالأمة العربية قد جربت الكلام الكثير والخطب الطويلة والمعارك اللغوية، ولم تتقدم شيئا. لا اتحدت، ولا قويت. ولا حلت مشكلة. ولا أتت بالوطن القومى للشعب الفلسطينى. وإنما هى رأت أن الحرب هى محاربة العرب. وأن الدمار للعرب من العرب. وأن النصر هو على المسلمين من المسلمين، ولكن دولة عربية واحدة لم تحقق شيئا.. أى لم تفعل شيئا يؤدى إلى أن تنسحب إسرائيل من أراضيها المحتلة!.

والتزم الرئيس مبارك بما وعد به، وما قرره فى كل مناسبة قومية، وفى كل لقاء عربى أو أفريقى أو أوروبى. وقد رأى الزعماء العرب فى ذلك سلوكا متميزا.

فالرئيس مبارك مؤمن بأن كل الدول لها ظروف مختلفة. وهى تتخذ قرارها من وحى ظروفها. ولذلك فقرارات الدول مهما كانت صديقة أو شقيقة، متغايرة. فنحن لا نطالب الأردن بأن ترفع الدعم عن الرغيف كما نفعل. ولا تطالبنا بأن نشترى أحجار

البناء من إسرائيل، كما تفعل.. أو الخضراوات والفاكهة.. بل دول الكومنولث لا تتفق معا فى كل سياساتها الداخلية والخارجية، وكذلك كل دول السوق الأوروبية.. وقد رأينا كيف إن الفرنسيين يعترضون على الشاحنات التى تنقل النبيذ الإيطالى إلى فرنسا، فيحرقونها.. لأن وفرة النبيذ الايطالى تؤدى إلى خفض سعر النبيذ الفرنسى.. بل إن «الولايات» الامريكية لا تطبق نفس القوانين.. إذن فليس من الضرورى أن «يتطابق» معنا فى سياستنا الخارجية والداخلية كل من العراق والجزائر واليمن وجيبوتى.. ولا هو ضرورى أن أكون أنا وشقيقى من رأى واحد واسلوب واحد وزى واحد ولا حتى هدف واحد - رغم أنه من دمى ومن أبى وأمى!.

وسوف يكون هذا حالنا مع كل الدول العربية. إذا أعادت علاقتها مع مصر.

والرئيس مبارك قد أوجز سياسته كلها فى كلمتين: الاستمرار والاستقرار.

أو استمرار الاستقرار، أو الاستقرار على استمرار السياسة التى انتهجتها مصر، والتى ارتضاها الشعب وكل مؤسساته الدستورية. حتى أصبح الشعب المصرى اليوم أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بأنه كان على حق. وأن أكثر الدول العربية لم تستوعب القرار المصرى والحل المصرى، والسلام الذى كان من نتيجة الانتصار فى الحرب.. ولم يستوعب الاشقاء أن مصر تستطيع أن تقوم بدور الوسيط بينها وبين إسرائيل فى حل مشاكل الاحتلال والوطن الفلسطينى. ولكنها مع الأردن ودول أخرى بعد ذلك، سوف تستشعر حجمها الحقيقى وقوتها، فتخطو خطوة جديدة مختلفة من أجل أن تفعل شيئا نافعا، بمعونة أمريكا وروسيا ودول أوروبية ودول اشتراكية والعالم الثالث،، والكلام لأنه مكرر فهو ممل. ولأنه ممل فلا أحد يجد شهيته مفتوحة على قراءته. ولكنه قدرنا الذى تتكرر مقدماته ونتائجه.. ولن نسكت، ويجب ألا نسكت، فإسرائيل كانت تردد ألوف السنين ما جاء فى التوراة: العام القادم فى أورشليم. حتى أخذت نصف القدس، ثم استولت على النصف الثانى. ويجب أن نستعيد منها هذا الشعار، وأن نستخدم نفس الاسلوب، ونقول أيضا: العام القادم فى القدس.. عاما بعد عام.. ومائة عام بعد مائة عام.

وليس من الضرورى أن نحصل على هذا الحق بالقضاء على إسرائيل وإلقائها فى البحر. ولكن بالحصول على أرضنا بأى ثمن: بالحرب أو بالسلام. وقد يضيق جيلنا هذا

بالحرب، ولكن أجيالا قادمة لا نعرفها، قد تراها مرة أخري، وألف مرة، هى الوسيلة الوحيدة للخلاص.. وأنا أختلف مع النظرية العربية فى القضاء على إسرائيل بالحرب فقط. فأنا أرى أن الشعوب اليهودية في إسرائيل لن تستطيع أن تتعايش معا.. فهم مختلفون ممزقون، وأن المجتمع الإسرائيلى مجتمع «مفبرك».. مجتمع «سابق التجهيز». فقد تم بناؤه وتركيبه فى أماكن أخرى. وجاء «غريبا فى أرض غريبة» - وهى العبارة التى جاءت على لسان موسى عليه السلام فقد وصف نفسه بذلك عندما رأى أرض فلسطين. ولم يدخلها. مات على بابها.. كأنه قد أشار إلى أن الموت على بابها، أفضل من الحياة فيها - وهى نبوءة عظيمة حكيمة. نبوءة نبي. ولذلك فسوف تقضى الشعوب اليهودية بعضها على بعض فى داخل إسرائيل. وسوف تنقلب حروبهم وحرابهم ضدهم.. فالمجتمع الإسرائيلى طبيعى.. غير متجانس.. مختلف. ألف لون وشكل ولغة ومذهب فى الدين وفى السياسة وفى الحياة.

ولا أزال أرى ما كان يراه المؤرخ البريطانى توينبى من أن اسرائيل دولة ولدت لتموت على أرض فلسطين. فهى ترسانة عسكرية، جاءت بالقوة واستمرت بالقوة، وسوف تقضى على نفسها بنفس القوة - ولكن سوف يحدث ذلك بعد مئات السنين.. ولا أستبعد أن أحدا فى إسرائيل: يعرف ذلك.. ولهذا فهم يؤكدون وجودهم بالقوة. ويحملون السلاح إلى الأبد. لأنهم فى خطر من حولهم، وفى خطر من داخلهم، وقد بدأ العنف، إسرائيل ضد الشعوب اليهودية.. وذلك بقتل العشرات.. وسوف يعقبهم المئات..

وكانت إسرائيل تتباهى بأنه لا يوجد بها قبر للجندي المجهول - لأنهم جميعا يعرفون بعضهم البعض. ولأنهم لا يتركون جثث قتلاهم. وإنما يجمعون أشلاءهم: أصبعا وقدما وخصلة شعر.

ولكن أكتشفنا فى حرب أكتوبر أن ذلك غير صحيح، فقد كنا نبعث إليهم كل يوم جنديا أو نصف جندى.. بعد أن تكون الدولة قد سلمت أهل الفقيد جثة له.. أو صندوقا فارغا به حفنة من التراب.

وكانت إسرائيل أيضا ترى أن جيشها لا يقهر.. فقهرناه..

وكانت إسرائيل ترى أن اليهودى لا يقتل اليهودي.. ولكنهم الآن يقتلون بعضهم

بعض.. وليس بعيدا أن يغتالوا رئيسهم.. وليس بعيدا أن يحدث انقلاب عسكرى.. ليس هذا العام ولا هذا القرن.

ولكن من المؤكد أن إسرائيل، أقصد الشعوب اليهودية، سوف تنقرض.. وأن السيطرة الاعلامية والمالية على أمريكا سوف تنكشف.. ليس هذا العام ولا الأعوام القريبة القادمة.. ولكن لابد..

ولكنى لا أدعو إلى الاستسلام إلى هذه الحقيقة - أو هذا الفرض التاريخى - وإنما يجب أن نجرب الاعتدال.. أو قوة الاعتدال. أى التفكير الهادئ والتحليل العاقل والنظرة الطويلة إلى ما يجب عمله من أجل أن يكون للشعب الفلسطينى وطن. لابد أن يكون له وطن على أرضه. فإذا لم يكن هذا العام أو هذا القرن، فبعد ذلك.

ونحن - فى مصر - لم نفعل أكثر من أننا اتخذنا خطوة واسعة مختلفة من أجل ذلك.. ومازالت مصر مستقرة على رأى واحد هو: الاستمرار فى السلام والدعوة إلى القوة من خلال السلام.

وكان قرار الملك حسين تدعيما للاستمرار والاستقرار. والله ولى التوفيق.. ■

أليس منكم رجل رشيد؟!

أليس منكم رجل رشيد؟!

منذ ٥٧ عاما وجه الملك عبد العزيز آل سعود الدعوة إلى مؤتمر إسلامى فى مكة. وأبرق إلى ملوك مصر واليمن وإيران والعراق وإلى الأمير عبد الكريم الخطابى وباى تونس ورئيس طرابلس الغرب ومسلمى الهند وجاوة ومسلمى روسيا. وجاء فى برقيته سببا لهذه الدعوة: خدمة للإسلام والحرمين الشريفين، وإصلاحا للأمور التى تهم المسلمين جميعا، ووفاء بعهودنا ووعودنا التى قطعناها على أنفسنا، وميلا منا فى تكاتف المسلمين وتعاضدهم وخدمة هذه الديار الطاهرة..

وفى كلمة الافتتاح لمؤتمر مكة المكرمة تليت كلمة الملك عبد العزيز التى جاء فيها «أيها المؤتمرون الكرام، إنكم أحرار اليوم فى مؤتمركم هذا، لا تقيدكم حكومة البلاد بشئ وراء ما يقيدكم به دينكم من التزام أحكامه.. إن المسلمين قد أهلكهم التفرق فى المذاهب والمشارب، فأرجو أن تتفقوا على التآلف بينهم، والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة، وعدم جعل اختلاف المذاهب والأجناس سببا للعداوة بينهم..

ولم تكن المشاكل بين المسلمين على إيام الملك عبد العزيز إلا صغيرة تحبو بين العرب وبين المسلمين..

اما اليوم فإن أولاد الملك عبد العزيز وأحفاده يواجهون مشكلات أصبحت

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/١/٢٥

معضلات، ويواجهون تمزقا عربيا وإسلاميا يحتاج إلى معجزة تنقذ الجميع..

وبمنتهى حسن النية والسماحة وكل آمالنا فى أن ينجح المسلمون فى حل مشاكلهم، انعقد مؤتمر الطائف وانفض. وغدا ينعقد مؤتمر مكة المكرمة. أما الهدف فهو الذى أعلنه الملك عبد العزيز. وأما الحل فهو ما لم يخطر للملك عبد العزيز على بال. وهو ما لن يستطيعه أولاده وأحفاده. لماذا؟..

إن قطع العقدة أسهل من حلها. ولكن المشكلات العربية الإسلامية يستحيل قطعها، ويستحيل حلها أيضا. وإن كنا نتمنى لأشقائنا العرب وإخوتنا المسلمين أن يحدوا ما عجزنا نحن فى مصر عن الاهتداء إليه..

فمن آمال مندوبى ٤٣ دولة فى الطائف أن يجدوا حلا. ولكى يجدوا حلا فلابد أن يهتدوا إلى تشخيص للمرض. فإذا عرفوا التشخيص اتفقوا على العلاج. فما هو الداء الذى يحتاج إلى دواء؟..

الداء هو : أن العرب يأكلون العرب.

فإذا لم يكفهم العرب اتجهوا إلى الفرس فى إيران.

وإذا لم يكفهم الفرس اتجهوا إلى الأفارقة فى تشاد، وغدا فى نيجيريا..

وإذا لم تكف القوات العربية اعتمدوا على المرتزقة الكوبيين والألمان الشرقيين.

تفسير ذلك: أن العراق المسلم اعتدى على إيران المسلمة.. وقبل أن يعتدى العراق على إيران، أيد العراق اعتداء سوريا على لبنان، ووقفت الدول العربية جميعا تتفرج على المذبحة الطائفية وقبل العدوان على لبنان تفرجت الأمة العربية على عدوان الملك حسين على الشعب الفلسطينى فى أيلول الأسود..

إذن لقد أصبح مألوفا ومقبولا عند العرب أن يعتدوا بعضهم على بعض. واقتنع العرب بأن دم المسلم على المسلم حلال. فليس غريبا إذن أن يستمر العدوان العربى الإسلامى..

وإذا كانت مصر قد حاولت أن توقف الحرب بين الهلال ونجمة داود، فإن العرب قد جعلوها حربا هلالية - إسلامية بل إن العراق أعلن أن إسرائيل وإيران معا قد هاجما

المفاعل الذى بالقرب من بغداد..

كما أعلنت سوريا أن قوات ايرانية دخلت معها لبنان للردع - لردع لبنان المسيحى ولبنان المسلم ولردع القوات الفلسطينية. ولردع الاخوان المسلمين فى سوريا..

وحتى إذا اعتدى غير المسلمين على المسلمين وقف المسلمون مع العداة الغزاة. فوقفت سوريا واليمن الشيوعية وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية مع الاتحاد السوفيتى ضد أفغانستان التى بعثت بأبنائها من المتطوعين فى حربى ٥٦ و ٦٧ مساهمة فى الدفاع عن العرب ضد اليهود والانجليز والفرنسيين!..

وقد التقى وزراء الخارجية فى الطائف. واختلفوا على القضايا التى سوف يبحثها الرؤساء فى قمة مكة. فكانت القضية الفلسطينية هى الأولى وبعدها القدس.. وهذا طبيعى.

واختلفوا فى وضع لبنان. ورأوا أن قضية لبنان ليست من قضايا الشرق الأوسط. إنما هى قضية داخلية: سورية داخلية.. أو داخلية لبنانية.. أو سورية اسرائيلية.

وواجهتهم مشكلة العدوان على أفغانستان. إن العرب لم يتفقوا على إدانة السوفيت. إذن فقضية أفغانستان الإسلامية قضية ليس من الممكن الاتفاق عليها. صحيح أنهم مسلمون ضعاف، ولكن المعتدين شيوعيون ملحدون أقوياء. ولذلك اتجهوا إلى تجاهل الضعيف وعدم الإشارة إلى القوى. فوصفوا العدوان على أفغانستان بأنه «غزو مكشوف» - والغزو المكشوف كما ينطبق على السوفيت ينطبق أيضا على الجراد أو على الانفلونزا البرازيلية!..

ومادام العالم كله يعرف من هو الغازى المعتدى، فلا داعى للإشارة إليه، لأن العارف، والشكوى لأهل البصيرة عيب - مثل شعبى مصرى صحيح!..

وقبل مؤتمر وزراء الخارجية أعلن السيد فاروق قدومى: أنه لابد أن يستخدم العرب سلاح البترول لمعاقبة الغزاة - يقصد إسرائيل، ولا يقصد الاتحاد السوفييتى.

ثم إنه لا يملك مثل هذا السلاح الخطير!..

أما الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية الذى يملك سلاح البترول فقد أعلن: أن البترول ليس سلاحا.

أى لا يصح أن يكون سلاحا. لأن العرب قد جربوا هذا السلاح. وجربته إيران. أو عوقبت به إيران عندما حاولت أن تستخدمه ضد امريكا وغيرها..

إذن لقد انحسمت قضية البترول بأنه ليس سلاحا سياسيا!..

ثم ظهر خلاف لغوى بسيط هو : ما الذى يطلقونه على هذا التجمع فى الطائف أو فى مكة: هل هو مؤتمر. الدول الإسلامية.. أو الأمم الإسلامية.. أو الشعوب الإسلامية.. أو أمة الإسلام.. أو هو مؤتمر المسلمين؟ وقد رأوا تفاديا للمشاكل السياسية والعنصرية واللونية والمذهبية أن يسموه مؤتمر الدول الإسلامية..

أما أهداف هذا المؤتمر فقيل إنها سبعة وقيل عشرة. ومن أهم المطالب: أن يكون الإسلام مصدرا للتشريع. ونعم الرأى. وأن تكون اللغة العربية لغة أساسية فقد نزل بها القرآن الكريم، ونعم الرأى.

وأن تكون محكمة عدل إسلامية، لفض النزاعات بين المسلمين بعيدا عن محكمة العدل الدولية والأمم المتحدة وجامعات الدول العربية..

وبمناسبة جامعة الدول العربية، فقد رأى الوزراء أيضا أن مشاكل عربية كثيرة يجب أن تحال إلى جامعة الدول العربية، أما المشاكل التى يجب أن ينظر فيها مؤتمر القمة فى مكة المكرمة، فهى فلسطين والقدس..

وقال الأمير سعود الفيصل إن المؤتمر سوف يتخذ كل «الوسائل المتوافرة» لإعادة الأرض الفلسطينية إلى أهلها، وكذلك الأرض العربية المحتلة والقدس..

أما الوسائل المتوافرة فليست سرا فهى:

إما الحرب مع إسرائيل..

وإما التفاوض معها تحت المظلة الأمريكية وهى الشريك الكامل وإما تحت المظلة الأوروبية.

وإما أن يعتمد العرب على تضامنهم القومى ماليا واقتصاديا وسياسيا.

وإما قوة الشعوب الإسلامية فى العالم كله - ٨٠٠ مليون مسلم.. ومن الكلام المكرر الممل أن أعود إلى شرح العبارة الطويلة السابقة. فنحن نعرف المعنى. وأن كل هذه البدائل غير ممكنة. ولذلك لم يجد العرب والمسلمون إلا أن يلتقوا فى مكة المكرمة، وأن يطوفوا حولها يقسمون على حفظ كتاب الله - وإن فعلوا فهم صادقون. وعلى أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضا. وهم صادقون فى ذلك. وبإنتهاء الطواف حول الكعبة تبدأ المشاكل كلها، لأنهم تركوها مع ملابسهم العادية. فهى فى انتظارهم، لأن أحدا لم يتقدم لها بعلاج، فلم يقم أحد بتشخيص لداء الأمة العربية الذى صدرته إلى العالم الإسلامى كله!..

لقد قامت السعودية - مشكورة - ببناء مؤسسات شاهقة فاخرة تكلفت ألفى مليون دولار.. ولم تتقدم السعودية بواحد على ألف من ذلك لمجاهدى أفغانستان. كما فعل الصيادون المصريون الفقراء ففى أسوان رأيت شيخا من الصيادين يتقدم للرئيس السادات بورقة صغيرة، ظننت أنها شكوى. فكانت تبرعا كبيرا جدا - عشرة آلاف جنيه - إذا ما قورن بما يملكه هو وغيره من الصيادين.. وتقدم صياد آخر بشيك بألف جنيه.. إن المعنى أعظم وأروع جدا من هذا المبلغ.. إنهم صيادون بسطاء.. أحسوا بعذاب مسلمين آخرين يصيدون الملحدين السوفيت فى جبالهم وصحاريهم، دفاعا عن أرضهم وشرفهم وديتهم الذى هو دين كل العرب الأثرياء فى دول الخليج والفقراء فى اليمن وبنجلاديش وتشاد والصومال.

فهل ياترى سيخرج علينا مؤتمر مكة بمعنى للحرب بين العراق وإيران؟.. إن شاعرا عراقيا وقف فى الاسبوع الماضى أمام الرئيس صدام حسين، يقول كاذبا:

يا أيها القائد الميمون طالعه
ومن أعاد إلى بغداده الشمما
أقسمت بالله أن المجد حالفها
إذ ليس غيرك فيها حقق الحلما

فأين المجد وأين الحلم الذى تحقق من حرب انتحارية بين العراق وإيران.. بين الأقلية السنية الحاكمة فى العراق، وبين الأغلبية الشيعية فى إيران؟..

هل ياترى سيجد المؤتمر التمهيدى ومؤتمر القمة تفسيرا مقنعا للحرب الأهلية الإسلامية فى سوريا؟ إن الرئيس الأسد قد أعلن أنهم جماعة الإخوان المسلمين الذين هددوا أمن البلاد. ونحن نعلم وهو أيضا، أنه لا توجد جماعة للإخوان المسلمين فى سوريا. إنما يوجد مسلمون وهم كل الشعب السورى يحارب ضد الأقلية العلوية التى سحبت جيوشها لتقتل بقية المسلمين فى لبنان، ولنقضى على الفلسطينيين فى لبنان وتغرى بهم إسرائيل لتجهز على البقية الباقية. وبذلك يكون الرئيس الأسد قد ساعد على حل القضية الفلسطينية بالقضاء على الشعب الفلسيطنى - هدية غالية جدا لأية حكومة إسرائيلية وللملك حسين أيضا!..

هل سيجد الوزراء والرؤساء، مدلولا عربيا إسلاميا لاحتلال ليبيا وقواتها المرتزقة لتشاد الإسلامية؟.. وهل سوف يبدى أعضاء المؤتمر تخوفهم من عدوان آخر على نيجيريا الإسلامية، وبعد ذلك على السودان الإسلامى الذى نراه عدوانا مباشرا على مصر؟..

إذا كان الهدف من هذا المؤتمر هو توحيد الدعوات والدمعات والصلوات والابتهالات من أجل الشعب الفلسطينى، فلا خلاف بين أحد على ذلك - ما عدا المنظمات الفلسطينية التى لم تتفق على قضيتها. فهل يستطيع المؤتمر أن يواجه السيد ياسر عرفات بمواقفه المترددة، وحيرته المؤكدة، وعجزه عن اتخاذ قرار واحد؟ سؤال واحد نتمنى أن يقال للسيد عرفات هو : كيف تستنكر حركة التحرير الأفغانية وأنت على رأس حركة التحرير الفلسطينية؟..

فهل يستطيع المؤتمر أن يدين السيد عرفات دون وقوع فى صراع مع سوريا وليبيا والأردن واليمن الجنوبية وبقية دول الخليج؟.

إذن - مع كل تمنياتنا المخلصة بالتوفيق - فما هو الذى يمكن عمله فى هذا المؤتمر، أو بعد هذا المؤتمر، من أجل تحرير ما تبقى من سيناء، وهى أرض عربية، قبل موعدها المتفق عليه فى ٢ أبريل سنة ١٩٨٢، والجولان والضفة الغربية والقدس وتشاد ولبنان وأفغانستان؟..

إذا كان هذا المؤتمر سوف ينتهى إلى توصيات وإلى تمنيات فهو لم يسفر عن شئ جديد.

.. إذن لقد كان الملك عبد العزيز آل سعود أبلغ فى التعبير عن ماضى السعودية ومستقبلها عندما قال فى جلسة الافتتاح يوم الأثنين ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٤٤ هـ : «أيها الإخوان.. إنكم تشاهدون بأعينكم وتسمعون بآذانك: أن الأمن فى هذه البلاد بدرجة الكمال التى لم يعرف مثلها ولا ما يقرب منها منذ قرون كثيرة، بل لا يوجد ما يفوقها فى أرقى ممالك الدنيا: نظاما وقوة، والله الفضل والمنة. ففى بحبوحة هذا الأمن الذى لا يتقيد إلا بأحكام الشرع أدعوكم إلى الائتمار والتشاور فى كل ما ترون من مصالح يطمئن بها العالم الإسلامى بإقامة شرع الله والتزام أحكامه وآداب دينه».

وإذا كنا لا نعرف بالضبط ما الذى سوف يجئ فى بيان مكة، فإننا نعرف بالضبط ما الذى تنتهى إليه مؤتمرات القمم الهزيلة الهزلية.. وهى لا تسفر عادة عن شئ. لماذا؟ لأن أعضاء المؤتمر يدخلون ممزقين، ويخرجون أكثر تمزقا. ولأن العناد قد ركب رءوسهم، فهم يرون الحل ويرون الطريق ويرون النموذج، ولكنهم بدلا من أن يجدوا حلا، يلعنون كل الحلول الأخرى.. ومن بينها وفى مقدمتها: الحل المصرى للقضية الفلسطينية. الذى هو فى عبارة واحدة: بعد أن جربنا الحرب فلماذا لا نجرب السلام؟..

هل كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقع ما سوف يحدث فى الطائف، عندما خرج منها والكفار يضربونه بالحجارة ويدقون أصابع قدميه حتى ينزف منها الدم، فقال ووجهه الكريم إلى السماء:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين»!..

صدق رسول الله..

لقد هان العرب على الغرب، وهان الغرب على المسلمين، وهان المسلمون على العالم كله..

أليس بينكم يا عرب رجل رشيد؟.. ■

ما الذى حدث فى ٦٧ و ٧٣ ؟
نظرية نصف كوب الماء وأبقار الرئيس جونسون !

فى الحروب : أخطاء الكبار يدفعها الصغار. ولذلك كانت اعترافات الكبار نوعا من الندم على ما فات، وليست طلبا لعفو الضحايا الذين سكتوا إلى الأبد.

وفى أعقاب الحروب تكثر الاعترافات - أى مذكرات قواد الحرب. وكل قائد يحاول أن يغسل يديه من دماء الأبرياء، قائلا: إذا كنت غلطانا فلست وحدى.. أو إذا كان أحد غلطانا فنحن جميعا..

ولأسباب كثيرة يخطئ الكبار.

ومن بين هذه الأخطاء المعلومات التى يتلقونها من أجهزة المخابرات المتعددة - أى أجهزة الأمن القومى العسكرية والمدنية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية..

ومن أهم نتائج الحروب والصراعات فى العالم الآن «تطوير» أجهزة المخابرات. وأوضح صورة لذلك ما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية. فقد وجهت إليها اتهامات عديدة فى أعقاب الكوارث الدولية، ومن بين الكوارث الدولية أن يقوم بعض العاملين فى المخابرات فينشروا فضائحها وأسرارها.

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٠/٤/٦

فالمعلومات التى تجمعها أجهزة المخابرات هى أهم سلاح تعتمد عليه أية دولة فى اتخاذ قرارها، وليس صحيحا ما قاله الرئيس ديجول من أن الأرض تدور حول محور هو «السيف»، أى أن الأسلحة هى محور الصراع بيننا.. إلا إذا كانت المعلومات واحدا من هذه الأسلحة، أو أخطر هذه الأسلحة..

وقد ظهرت كتب كثيرة عن أجهزة جمع المعلومات وشرائها والاستيلاء عليها. وأهم هذه الدراسات هى التى تحرص على تطوير وتطهير أجهزة جمع المعلومات.. وأهم أشكال تطوير هذه هذه الأجهزة هو «تبصير» المواطنين العاديين.

والذين يجمعون المعلومات ليسوا هم أخطر العاملين فى أجهزة المخابرات، إنما أخطرهم جميعا الذين يتلقون المعلومات، ويحللونها، ويبعثون بهذه التحليلات إلى الذين يصنعون القرار.

وهناك فارق كبير بين الإنسان الذى يجمع المعلومات، والعقل الالكترونى الذى يستوعب معلومات أضعاف ما يقدر عليه الإنسان العادى، الفارق هو: العامل النفسى عند الذى يجمع المعلومات، وعند الذى يحللها.

وأحسن مثل على ذلك: نظرية الكوب التى امتلأت ماء إلى منتصفها.

فالمتشائم يقول: الكوب فارغة حتى منتصفها.. والمتفائل يقول: الكوب مليئة حتى منتصفها..

وبسبب هذا الاختلاف فى وجهة نظر الذى يجمع المعلومات، تكون أهمية المعلومات وخطورتها..

وبعد ذلك تنتقل هذه المعلومات إلى أناس تخصصوا فى تحليل وتقدير هذه المعلومات. قبل تصعيدها إلى صانعى القرار العسكرى أو السياسى..

وهنا تكمن خطورة القرار، وهنا فقط تكون الأخطاء فادحة..

وإذا لم تكن نظرية الكوب والماء واضحة، فهناك نظرية الذين يجمعون أوراق الشاى، والذين يجمعون القطن.. فالذين يجمعون أوراق الشاى يجب أن يختاروا الأوراق الصغيرة الفاتحة الاخضرار، التى تنبت فى قمة أشجار الشاى، وكلما كانت الأوراق

الصغيرة الفاتحة الاخضرار، التى تنبت فى قمة أشجار الشاى. وكلما كانت الأوراق خضراء فاتحة، وكلما كانت صغيرة ناعمة، كان ذلك أفضل، ليكون الشاى نوعية ممتازة.

ولكن ماذا يحدث لو كان العامل مصابا بعمى الألوان؟ سوف يجمع الأخضر الفاتح والأخضر الغامق. وهذا يحط من «رتبة» الشاى. وماذا يحدث لو كانت أصابع العامل أقل حساسية. فأخذت تجمع الورق الناعم والخشن أيضا؟ إن هذا النقص فى كفاءة الحساسية سيؤدى حتما إلى إنزال فى رتبة الشاى..

وكذلك عند من يجمع القطن والبن والأرز والكاكاو والمطاط وخيوط الحرير..

وفى ربيع سنة ١٩٤٠ كان ونستون تشرشل ينقل فى مبنى وزارة الحربية البريطانية. ويهز رأسه فى حيرة، ثم يرتمى على السرير. ويقول لمن حوله: ماذا نفعل الآن؟ وكانت مشكلة تشرشل أن لجنة الدفاع التابعة لوزارة الحربية لا تعرف كيف تتخذ قرارا سريعا، فالمعلومات التى لديها متضاربة، والمعلومات تصب من مرافق وقنوات متنوعة، ولذلك قال تشرشل: إننى كالذى يلعب الكوتشينة وقد نقصت منها أوراق كثيرة، فهذه الأوراق فى حاجة إلى قواعد جديدة لا أعرفها، وليس عندى متسع من الوقت!.

وعندما إلتقى الرئيس جونسون برجال المخابرات الامريكية، كان هجومه عنيفا، وألقى بالمسئولية كلها على المعلومات الكثيرة المتناقضة التى تفسد كل قرار سياسى، وضرب لهم مثلا شهيرا، قال: إننى واحد من رعاة البقر، ومن صانعى القرار السياسى. فأنا كالذى يحلب بقرة حلوبا، فأنا أضغط على أثدائها، وأرى اللبن يتدفق فى الإناء. وكلما نزل اللبن ضغطت على أثدائها أكثر، حتى يمتلئ الإناء. وفجأة تهز البقرة ذيلها، وفى ضربة واحدة يسقط كل الإناء على الأرض. وهذا بالضبط ما تفعله المخابرات، إنها تفسد القرار السياسى!.

ومعنى الذى يقوله الرئيس جونسون، أن القرارات العسكرية ليست وحدها المسئولة عن الأخطاء التى تقع، إنما المعلومات التى تأتى بها أجهزة المخابرات، هى التى تؤدى إلى الأخطاء الفادحة التى تقع فيها الدولة. ومعنى ذلك أن الخطأ الفادح عمل مشترك، وليس هو وحده المخطئ فى ذلك.. إنما غلطته تجئ نتيجة لأخطاء أخرى

سابقة عليه.. ولذلك يسارع رجال السياسة والحرب فى أعقاب الكوارث الكبرى، بسلسلة من «الاعترافات» التى يتبرأ فيها كل إنسان مما حدث أى أنه لا يلوم إلا غيره!

ومن الممكن أن تؤدى الاعترافات الكثيرة إلى حجب الحقيقة.. تماما كالسكوت عن الاعتراف..

والإسراف فى الاعترافات يحدث فى امريكا. والسكوت عن الاعترافات من معالم السياسة السوفيتية، فرغم كثرة المعلومات الأمريكية، فأنت لا تعرف أين وجه الحقيقة. وبسبب الصمت السوفيتى الشديد، لا أحد يعرف ماذا حدث ولا كيف حدث..

وما حدث بعد حرب ١٩٦٧ هو نفس الذى حدث بعد حرب سنة ١٩٧٣.. الكثير جدا كتبه قادة إسرائيل. والقليل جدا، أو «لا شئ» كتبه قادة أو ساسة مصر أو العرب.

فإسرائيل قد سبقتنا إلى «تأريخ» ما حدث من وجهة النظر الأخرى. بل لا يمكن أن يوصف ما فعله قادة إسرائيل بأنه وجهة النظر «الأخرى» لأن أحدا منا لم يقل شيئا فلا توجد وجهتا نظر، إنما نظرة واحدة، هى الإسرائيلية التى ترجمت إلى كل اللغات، وأصبحت هى الحقيقة التاريخية التى لا تقابلها حقيقة أخرى أو اجتهاد آخر.. أو حوار أو اعتراض..

فنحن حتى الآن لم نعرف بالضبط ماذا حدث فى سنة ١٩٦٧ - إلا ما كتبه قادة ومؤرخو وباحثو إسرائيل.

وربما كانت لذلك فائدة واحدة غير مقصودة. هذه الفائدة هى أن إسرائيل قد انتهت إلى حقيقة واحدة: أن مصر مضطربة. وأنها فى غيبوبة.. وهى لا تعرف لها رأسا من رجلين ولذلك قالت جولدا مائير: إن مصر جثة هامدة، وسوف تبقى كذلك خمسين عاما. وقال أبا إيبان قبل حرب أكتوبر بأيام: إننا نعيش فى عصر ما بعد المرحومة مصر.. وموشى ديان وجد صورة أبشع من ذلك عندما قال : إنه يجلس إلى جوار التليفون فى انتظار من يقول له: تفضل، على حصان أبيض، وادخل بخيولك الأزهر، كما فعل نابليون؟.

وكانت هذه المعانى هى أكبر ستار تغطى به أنور السادات، وهو يعد لحرب أكتوبر..

بل إن أنور السادات نفسه كان الستار الأخير الذى توارت وراءه القوات المصرية. فهو زعيم سياسى مصرى، لم تجربه إسرائيل ولم يمتحنه أحد فى المواقف السياسية الصعبة. ولم يتنبه أحد إلى قدراته فى السياسة أو فى المناورة. فثورة ١٥ مايو دلت على ذكائه وجرأته.. وطرده للخبراء السوفيت كان تكملة لإسقاط مراكز القوى. فقد كانت مراكز القوى قد تشجعت، لأنها هى أيضا لم تجرب أنور السادات سياسيا.. وكانت تعتمد على الوجود السوفيتى فى مصر..

ولذلك لم تصدق إسرائيل ولا أمريكا ولا الغرب أن أنور السادات يستطيع أن يستعد لحرب ضد إسرائيل.. ولذلك فعندما كان يتحدث عن الاستعداد للحرب كان التعليق عليه: أنه زعيم مصرى آخر. وطبيعى أن يخطب، وأن يقول كلاما كثيرا فالكلام صناعة العرب، وكما أن إسرائيل قد ولدت لتنتصر، فالعرب قد ولدوا لينهزموا إلى الأبد.. وقد تأكد هذا المعنى عند الذين يتخذون القرار السياسى، فى إسرائيل وفى أمريكا، وعند الذين يحللون المعلومات التى تتدفق عليهم من مصر ومن الدول العربية، إذن فهناك شعور مؤكد بأن مصر لن تحارب، فالذى جمع المعلومات على يقين من ذلك، والذى يتلقف المعلومات ويزنها، أشد يقينا. ولذلك فالذين اتخذوا القرار فى تل أبيب وواشنطون على وفاق تام. إذن فلا معنى لما يقوله أنور السادات. ولا أمل فى أن يحقق آماله..

وقبل ذلك جاءت المعلومات من تل أبيب فى يونيو سنة ١٩٦٧ تقول: إن الإسرائيليين يتدفقون على الشواطئ يستحمون، فلا حرب.

والجنود المصريون فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى اجازات عادية، ويؤدون العمرة فى مكة بصورة متزايدة، فلا يوجد أى استعداد للحرب فى مصر.

حتى المناورات الكبرى التى نفذتها مصر فيما بين ٧١ و ١٩٧٣. قد أساءت إسرائيل تفسيرها. فقد تكررت المناورات المصرية بالذخيرة الحية، ولن تؤد إلى أية حرب. وقد ردت عليها إسرائيل بمناورات مضادة. ووجه اللوم إلى وزير الدفاع الإسرائيلى لأنه أنفق أموالا بلا مبرر.

وقبل سفر الرئيس السادات إلى القدس حدث تصعيد على الجبهة المصرية. واستعدت إسرائيل للحرب. وأعلن الجنرال جور أن زيارة السادات للقدس خدعة تخفى استعداد مصر لشن حرب خاطفة. وأجهزة المخابرات الإسرائيلية تجمعت لديها معلومات أن مصر سوف تبعث بعدد من قوات الصاعقة لاغتيال زعماء إسرائيل الذين ينتظرون الرئيس السادات فى مطار بن جوريون، ولذلك وقف القناصة فوق مطار بن جوريون لينقضوا على طائرة الرئيس فى لحظة واحدة. إذا ظهر أى جندى من جنود الصاعقة المصرية!..

وفى مطار بن جوريون عاتب الرئيس السادات قادة إسرائيل قائلا: لقد أسأتم فهم كل شئ، وكادت الحرب تشتعل بيننا!.

وجاءت حرب أكتوبر خاطفة صاعقة.

ومن قبلها كان غزو اليابان لميناء بيرل هاربور فى جزر هاواى.. وكان غزو كوريا الشمالية والتدخل الصينى سنة ١٩٥٠..

وقبل ذلك كان الهجوم الألمانى على روسيا..

كل ذلك كان ضربات خاطفة لم يتوقعها أحد. ربما كانت فى حساب المخابرات، ولذلك فقد استعدت لها.. ولكن المفاجأة كانت فى اختيار الوقت، وفى حجم الهجوم! والغلطة هنا، لم تكن غلطة الذين جمعوا المعلومات، ولكن غلطة الذين تكدست لديهم وأخطأوا فى قراءتها. أو قرأوها وأساءوا فهمها. أو فهموها ولكن رفضوها بسبب مزاجهم الخاص، أو بسبب سيطرة فكرة عامة عليهم جميعا - مثل فكرة أن مصر لن تحارب أبدا، وإذا حاربت فسوف تغرق فى قناة السويس، كما غرق فرعون وجنوده منذ ٣٣ قرنا!.

ولذلك فنحن نحمد الله أن أحدا لم يصدق الرئيس السادات قبل ١٩٧٣. ولو صدقته أجهزة المخابرات ما انتصرنا فى حرب أكتوبر.. حتى عدم التصديق هذا قد صاحب الرئيس السادات منذ مبادرته الأولى بالسلام فى سنة ١٩٧١.

ولا صدقه أحد حتى بعد أن أعلن استعداده لإلقاء خطاب فى الكنيست..

وأكبر دليل على ذلك أن الرئيس السادات قد سئل هذا السؤال: كيف قررت

زيارتك للقدس؟ وكيف تبلور هذا العمل الخطير فى رأسك؟.

وعلى الرغم من أن الرئيس السادات قد أجاب عن هذا السؤال أكثر من مائة مرة. فإن اثنين من الصحفيين الاسرائيليين قد سألاه. الواحد وراء الآخر. هذا الاسبوع. واحد قال له: كل شئ انتهى الآن. وتمت المبادرة، واهتزت الدنيا. ولكن كيف قررت هذه الزيارة؟..

والثانى سأله: إن هذه الزيارة فريدة فى نوعها. فهى ليست فى حاجة إلى جرأة فقط، إنما إلى قوة خيال.. كما أنها دليل على فهم نفسية المجتمع الإسرائيلى.. لأنها قد زلزلت الجميع.. فكيف اتخذت مثل هذا القرار الذى ليس له مثيل فى التاريخ القديم والحديث؟.

ولابد أن يكون المعنى الذى تأكد لديهم واحدا: هو أن مصر غير قادرة على اتخاذ قرار فى الحرب أو فى السياسة. ولذلك فكل قرار يسبقه عدم تصديق عام، وتتبعه دهشة مذهلة.. وتكون هذه الدهشة ستارا مانعا لرؤية أى قرار آخر، أو تصديقه حتى بعد أن يقع!.

حتى قرار دعوة الشاه إلى الإقامة فى مصر، فقد دعاه الرئيس السادات قبل ذلك فى يناير من العام الماضى.. وظلت الدعوة قائمة.. فلما جاء إلى مصر للعلاج ثم للإقامة، كان هذا القرار مذهلا. كأن الرئيس السادات لم يقرر ذلك من قبل، ولنفس الأسباب، وهى الاعتراف بالجميل لمن ساعدنا فى محنتنا، فكيف لا نفعل نفس الشىء؟.. إنه مريض لا يجد مكانا يموت فيه!.

وغدا أو بعد غد تكون مفاجأة كبرى، فهل يصدق العالم ذلك؟.. سوف تدور الرءوس دهشة وعجبا، كأن الرئيس السادات لم يتخذ من القرارات ما هو أعجب من ذلك؟!

ولا أظن أنه «التكاسل» عند إصدار كشف حساب عن حرب ١٩٦٧ هو الذى منعنا من ذلك، ولكن لأننا حريصون على إخفاء ما حدث لأنه عار قومى.

وحتى لو كان عارا قوميا فلابد أن نعرفه حتى لا يقع مرة أخرى.. وإذا كنا بالسكوت عن حرب سنة ١٩٦٧ نريد أن نخفى وجوهنا من هذه الفضيحة، فإن الأمر

ليس كذلك بالنسبة لحرب أكتوبر، فهى نصر عسكرى ونفسى من الدرجة الأولى، فهل نحن نخفى وجوهنا إذا انكسرنا وإذا انتصرنا؟ فإذا كان هذا حالنا، فمتى نكشف عن وجوهنا؟ ومتى تعرف يدنا اليسرى ما فعلته اليد اليمنى؟ وما الذى فعله الكبار حتى يعاقب عليه الصغار؟ ألا يكون هذا «الإهمال» جريمة فى تاريخ النصر والهزيمة، وغلطة فادحة سوف نعاقب عليها فيما بعد؟ - ونحن الآن فى فترة توصف بأنها فيما بعد الحرب. وفيما بعد الاتفاق على السلام..

إلا إذا كان رأينا أن أحسن الكتب هو الذى تحدث عن أناس قد أصبحوا ترابا. وعلى ذلك فسوف نصدر كتبا عن هزيمة سنة ١٩٦٧ وانتصار ١٩٧٣ فى نهاية القرن القادم. أى أن قراء هذه الكتب لم يولدوا بعد! فهناك - ولاشك - حرج من الكتابة عن الأحياء هناك خوف منهم أو خوف عليهم. وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون هذه الكتب قد قالت كل الحق، ولاشئ إلا الحق..

مع أن «الحق» الكامل ليس ممكنا لا الآن ولا بعد الآن - فكل كاتب يروى التاريخ من وجهة نظره، وليس من كل وجهات النظر، ففى كتابه تكمن كل صفاته.. أى كل عيوبه وكل مزاياه. ومن عيوبه أنه لا يقول الحق، ومن مزاياه أنه يقول الحق كما يشعر به.. أى بعض الحق..

وكان أستاذنا العقاد يقول: إن المؤرخ مثل الشاهد فى المحكمة، فهو يقسم بالله العظيم : أن يقول الحق، ولا شئ إلا الحق، وكل الحق.. وهذا الشاهد صادق فى قسمه إلا عندما يقول «وكل الحق» فلا أحد يعرف كل الحق. إنما الذى يعرف كل الحق هو الله سبحانه وتعالى!

وكان الشاعر الألمانى هينه يقول : عظيم أن ينام الإنسان. عظيم جدا أن يموت. أعظم من ذلك ألا يولد!.

ولكنه ما دام قد ولد، فلابد أن ينام وأن يموت.. وقبل أن يموت لابد أن يحدث الأجيال من بعده كيف كان ذلك. وكيف يكون كل شئ أفضل: فيما بين النوم المؤقت والنوم الأبدى!.

وهناك رأى فلسفى ولكنه لا يفيد. كأن نقول مثلا: إن هذه الحروب ما كان

ينبغى لها أن تقع!.

نعم. ولكنها وقعت. فلابد أن نعرف كيف ولماذا وأين. حتى لا تقع بعد ذلك.. أو حتى نباعد فترات وقوعها!.

وهناك لعبة تقليدية قد أدمنها الكبار من الساسة ومن العسكريين. عندما يكتبون مذكراتهم: وهى أن يغسلوا أيديهم من دماء الآخرين.

ومعنى ذلك أنهم يريدون أن يقولوا: إذا كانت هناك جريمة، فليسوا هم المجرمين.. إنما هم أيضا ضحايا.. أى أنهم صغار.. وأن الفاعل الحقيقى هم أناس أكبر من ذلك..

والتاريخ مثل الأدب والفن، نوع من الاعترافات. ولا توجد اعترافات بلا خطيئة، ولا توجد خطيئة لا يصحبها ندم.

فليكن ذلك.. فلا أحد برئ فى الحرب والسلام. وإذا كانت القرارات الخاطئة خطيئة فادحة، فليس يقل عنها: أن نعرف الحق ونسكت عليه! ■

وخرج الرجل الأسود
فأظلم البيت الأبيض!

مادام كل سؤال له أكثر من جواب. فإن هناك أكثر من طريقة لحل مشاكل الشرق الأوسط.

جربنا الحرب وسيلة عنيفة لحل أزماتنا.

وبعد الحرب لجأنا إلى السياسة. والسياسة فى يد أمريكا وروسيا. فبغيرهما لا حل ولا عقد فى كل العالم. وفشلت تجاربنا مع روسيا. وأعلنت مصر أن أوراق اللعبة كلها فى يد أمريكا. وعن طريق امريكا انسحبت القوات الاسرائيلية من سيناء والجولان.

ومضت مصر تستثمر حرب أكتوبر. حتى كدنا نصل مرة أخرى إلى حالة من الركود - لا هى حرب ولا هى سلم - لولا مبادرة السلام واتفاقيات كامب دافيد ومفاوضات الحكم الذاتى.

واتهمتنا الدول العربية بإننا وضعنا أيدينا فى يدى أمريكا وإسرائيل وأخذنا بالاحضان نيكسون وفورد وكيسنجر وكارتر. ورأت الدول العربية أن هذه قمة الخيانة والاستسلام للامبريالية والاستعمار القديم كله!

نشر هذا الموضوع فى ١٩٧٩/٨/٢٦

ومضينا نحقق السلام لأنفسنا ونرسم طريقا لغيرنا معنا ومن بعدنا.

واتفقت الدول العربية فى مؤتمر الرفض الأول والأخير فى بغداد. ثم عادت الدول العربية وتفرقت وتباعدت، ثم تمزقت من داخلها. وبعد أن كانت تخيف بعضها البعض. أصبحت كل واحدة تخاف من نفسها.: العراق. وسوريا، وإيران، وليبيا، والأردن. والمغرب!

وإذا ذهبت إلى أية عاصمة عربية قالوا لك: بعد سقوط بغداد سوف تجئ دمشق.. أو بعد سقوط طهران سوف تجئ طرابلس. ولا خوف على تونس لأنها الدولة الوحيدة التى كسبت أكثر من مليارين من الدولارات. أما المغرب فقد تقاضت ٤٢٥ مليون دولار لإصلاح مدينة فاس لكى تكون لائقة باستقبال المؤتمر الإسلامى، ومليار دولار لأغراض أخرى مثل ضرب موريتانيا العربية الإسلامية الشقيقة وجبهة تحرير الصحراء الغربية.

ولو عاش خروتشيف الزعيم السوفيتى لوجد وصفا دقيقا لخريطة العالم العربى. فعندما ذهب خروتشيف لمشاهدة معرض للفن الحديث لم يفهم اللوحات السريالية والتكعيبية والدادية. وراح يهز رأسه يمينا وشمالا. واهتدى إلى التفسير الوحيد الذى اقنعه وأغضب الجميع. قال : لابد أن حمارا قد غمس ديله فى وعاء به ألوان ثم حركه على هذه اللوحات!

لأن خروتشيف لم يفهم هذه الفوضى اللونية.

وعلى الرغم من الفوضى اللونية والدينية والسياسية فى الشرق الأوسط. فلابد أن يكون لها معنى وهذا المعنى نستنكره ولكننا لا نرفضه. فرفض المشاكل لا يحلها ورفض المعانى لا يبطلها.

وفجأة فضحت الدول العربية نفسها. وكان خروج اندرويونج (٤٧ سنة) من البيت الأبيض خسارة فادحة لكارتر: فقد خسر السود واليهود معا. وخسرت منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية جولة جديدة للتقارب بين العرب وامريكا.

وبكاء الدول العربية على خروج يونج هو بكاء على الأمل فى أن يتحقق الاتصال مع أمريكا من أجل حل القضية الفلسطينية - وهى نفس امريكا التى نتصل

بها ونتفق معها ونشركها فى حل مشكلة الشرق الأوسط.

ولكن إذا اتصلت بها مصر فهى الخيانة. وإذا اتصلت بها الكويت وسوريا والمنظمة أصبحت امريكا: راعية الحريات وحامية الأقليات ومنقذة اللاجئين الفلسطينيين.

إن اندرويونج هو أول زنجى يرقى إلى مستوى الوزارة فى امريكا. فقد كان مندوبا لامريكا فى الأمم المتحدة. وهو الابن الروحى للقسيس مارتن لوثر كنج. والصديق الشخصى للرئيس كارتر. وقد ولد اندرويونج فى قلب الزنوج الذين يطالبون بمزيد من الحريات. وكان القس اندرويونج يطالب بمساواة الزنوج بالبيض، ولما أصبح رجلا مسئولا كان أمله أن يصلح ما بين أمريكا والعالم الثالث.

وبفضل يونج أمكن اصلاح ما بين امريكا والدول الافريقية وقد استطاع يونج عبر ١٨ دولة شيوعية فى امريكا أن يحقق مزيدا من التفاهم والسلام، واستطاع أيضا أن يصلح ما بين امريكا ونيجيريا وتنزانيا. حتى أصبحت لرؤساء الدول الثلاث علاقات شخصية متينة.

وذهبت يونج إلى جنوب افريقيا. وبمنتهى حسن النية تصور أنه يستطيع أن يقنع البيض بالعدول عن السلطة: ولم يفلح.

وعندما ذهب إلى تنزانيا تحدث عن التفرقة العنصرية. واتهمها بأنها «صناعة بريطانية» وطالب بمعاملة الأقلية الزنجية فى روديسيا كما يعامل الزنوج فى أمريكا. وأغضب كل الزنوج - وبمنتهى حسن النية.

وفى جزيرة مالطة فى العام الماضى التقى بمنظمات التحرير الافريقية. وكان أول رسمى أمريكى على هذا المستوى الرفيع يجلس ويسمع ويناقش، وغضبت بريطانيا واحتجت على ذلك.

وكان الرئيس كارتر يحمى يونج. فقد تكفل بحمايته فى ثلاثين شهرا عشر مرات. ودافع عن اخلاصه وصدقه.

إلا هذه المرة!

ففى ٢٦ يوليو الماضى ذهب اندرويونج وفى يده ابنه الصغير «بو» وعمره ٦

سنوات ، إلى بيت مندوب الكويت فى الأمم المتحدة عبد الله بشارة حيث وجد مندوب سوريا حمود الشوقى. واستغرق الاجتماع ربع الساعة، وكان الغرض من هذا اللقاء أن يحاولوا جميعا اقناع مندوب منظمة التحرير الفلسطينية زهدى الطرزى بتأجيل عرض قضية الشرق الأوسط على مجلس الأمن.

ومما قال مندوب المنظمة: أن التأجيل لا معنى له بعد أن اغتالت اسرائيل منذ ساعات زهير محسن فى مدينة «كان».

ولم يشأ أن يعلن اندرويونج عن هذا اللقاء. وكان هدفه - بحسن نية أيضا - أنه يريد أن يحقق لحكومته ما تريد دون ان يجعلها مسئولة عن شئ مما يفعله.

ورأى اندرويونج أن يخطر المندوب الاسرائيلى فى الأمم المتحدة يهودا بلوم بتفاصيل ما حدث. وأخبره السفير الإسرائيلى أن حكومته سوف تغضب لذلك، وسوف ترد بسرعة!..

وبعد يومين من هذا اللقاء اتصل سوندرز المسئول عن الشرق الأوسط فى الخارجية الامريكية بمندوب الكويت. محاولا اقناعه بضرورة التأجيل ولم يعرف اندرويونج ذلك. ولا عرف سوندرز أن يونج قد ألتقى بالمندوب الكويتى.

وفى يوم ١٣ أغسطس نشرت الصحف الامريكية التفاصيل الحرفية لما دار بين مندوبى الكويت وسوريا وأمريكا والمنظمة وكانت المعلومات دقيقة جدا فلم يعد هناك شك فى أن المخابرات قد سجلت هذا اللقاء. وأعلن يونج أنها المخابرات الأمريكية والإسرائيلية معا وأنه شخصيا يعلم أن كل حركاته واحاديثه تسجلها المخابرات الأمريكية منذ ١٣ عاما.. أى كل فترة كفاحه من أجل تحرير السود فى أمريكا!..

وهنا وقعت الكارثة الامريكية..

فاندرويونج يعلم أن سياسة أمريكا هى ألا يتم اتصال مع المنظمة مادامت لم تعلن موافقتها على القرار ٢٤٢. ولم تغير ميثاقها الذى يطالب بالكفاح المستمر من أجل أن تقوم دولة فلسطين بحدودها كما كانت أيام الانتداب البريطانى. وهو يعلم أن د. كيسنجر فى سنة ١٩٧٥ قد تعهد بذلك لإسرائيل. وأن فانس ومونديل قد عاودا تأكيد هذا الموقف المبدئى.

كما أن الرئيس كارتر عندما أعلن فى مؤتمره الصحفى فى بولندا فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٧٧. أنه يحبذ أن يكون للفلسطينيين «وطن» أضاف بعد هذه الكلمة عبارة أخرى مسحتها من الوجود فقال... أو أى كيان.. ولكنه لا يحبذ أن تكون لها دولة مستقلة. وقد أكد هذا المعنى لكل رؤساء الدول العربية.

وكان رد الفعل الأمريكى على اتصال يونج بمندوب المنظمة عنيفا جدا. لا لأن الاتصال لم يحدث بين أمريكا والمنظمة من قبل. ولكن لأن الظروف السياسية الداخلية والدولية ليست فى صالح حكومة كارتر فهذا اللقاء قد تم بعد أن عدل كارتر حكومته وقلب أوضاع البيت الأبيض. وبعد أن هبطت نسبة تأييد الشعب الأمريكى له. بسبب مشاكل التضخم والغلاء ونقص الطاقة. وضعف أمريكا عالميا وفى الشرق الأوسط.. فكارتر فى حاجة شديدة إلى انجازات تدعيم موقفه وهو مقبل على المعركة الانتخابية.. ومثل هذا الموقف الذى أتخذه يونج يضعف حكومة كارتر التى هاجمتها المنظمات اليهودية بشدة وهاجمتها حكومة إسرائيل وهدد ديان بأن أى مساس بالقرار ٢٤٢ يبطل اتفاقية كامب دافيد..

وعلى الرغم من أن الحكومة الاسرائيلية قد رفضت اقتراحا بوقف الانسحاب من سيناء، فإنها قد وجهت مذكرة إلى كارتر تقول فيها: إن تعديل القرار ٢٤٢ يجعل اتفاقية كامب دافيد خالية من أى معنى!..

ثم عاد بيجين فى حديثه الأخير مع «واشنطون بوست» يضغط على هذه المعانى وحاول كارتر أن يتدارك الموقف. فوضع على لسان يونج تصريحا يقول فيه إنه فى هذا اللقاء لم تناقش أية قضايا سياسية.

وفى تصريح آخر مهين تماما قال: إن مجئ مندوب المنظمة كان صدفة!.. والتسجيل الحرفى لهذه المناقشات يؤكد أنه قد تم الاتفاق على كل شئ! كما طلب كارتر إلى مندوبه المستقيل اندرو يونج أن يهدئ من ثورة الجمعيات والمنظمات الزنجية التى أعطت ٩٠٪ من أصواتها لكارتر. فالتقى يونج بزعماء السود من رجال الدين والأعمال والتجارة. وأكد لهم أن تأييده للفلسطينيين لا يعنى عداءه لليهود.. ولكن كلماته ذهبت دون أن يقتنع بها أحد!.

وطلب الرئيس كارتر إلى سفير إسرائيل افرايم عفرون أن يتناول معه الغداء وجلسا تسعين دقيقة!.

ثم أرسل كارتر برقية لمناحم بيجن يهنئه بعيد ميلاده السادس والستين.. وفى نفس الوقت أعلن الحاخام الأكبر يوسف اشترنشتين: إما أن يذهب هذا الرجل يونج إلى غير رجعة. وإما أن تذهب ثقتنا فى قدرة كارتر على فعل شئ فى الشرق الأوسط!.

وخرج يونج ليفقد البيت الأبيض تأييد السود واليهود فى لحظة واحدة! لقد خرج الرجل الأسود. ليظلم البيت الأبيض!.

وعلى الحكومة الأمريكية أن تضاعف جهودها فى مواجهة السود واليهود والعرب.. فتضئ لهم الطريق إلى فهم فلسفة كارتر الغامضة..

ولم يكن هذا هو الاتصال الوحيد بمنظمة التحرير الفلسطينية..

١ - فقد كان أول اتصال فى القاهرة سنة ١٩٧٢، عندما أمر الرئيس نيكسون السكرتير الأول بالسفارة بأن يتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية. وتم الاتصال وارسل السكرتير تقريرا يقول: ان لهجة مندوب المنظمة معتدلة ومعقولة. ولكن الأمر ليس فى يده عادة.

٢ - أما اللقاء الثانى فكان بعلم من الرئيس السادات والملك الحسن الثانى. وكان فى مدينة طنجة سنة ١٩٧٤. وجاء فى التقرير عن هذا اللقاء بين الامريكان والمنظمة.. أن لهجة المندوب الفلسطينى فيها كثير من التردد وسوء الظن. وأن القرار ٢٤٢ إهانة مستمرة للشعب الفلسطينى.

٣ - وفى سنة ١٩٧٥ كانت الاتصالات مكثفة فى بيروت وقد نفت أمريكا والمنظمة أن شيئا قد حدث. أما سبب ذلك فإن الذين ألتقى بهم الأمريكان كانوا ينتسبون إلى جهات مختلفة. ولم تفلح امريكا فى أن تجد تصورا واحدا لما يريدون جميعا.

٤ - وفى سنة ١٩٧٧ التقى وليام سكرانتون سفير أمريكا فى بريطانيا بالمليونير الفلسطينى حسيب الصباغ على عشاء ثم على غداء. ولم يكن هذا اللقاء

مجرد صدفة. إنما بعث سكرانتون يقول: إن الرجل الفلسطينى من الممكن أن يكون رسولا متفاهما بيننا وبينهم.

٥ - وفى سنة ١٩٧٧ ألتقى اندرويونج بمنظمة التحرير فى حفلة عشاء فى سفارة سوريا ونصحه أحد الرسميين بوزارة الخارجية الا يقدم تقريرا بذلك.. لأنه يعلم موقف الحكومة الامريكية ونفت وزارة الخارجية أن هذا اللقاء قد تم. ونفت أيضا أن يونج قد كتب تقريرا عن شئ من ذلك. ولكن اللقاء صحيح.

٦ - وفى سنة ١٩٧٨ كان يونج رئيسا لدورة مجلس الأمن الذى اصدر قرارا بإرسال قوات عاجلة إلى جنوب لبنان، واتصل يونج بمنظمة التحرير الفلسطينية. وبحكم منصبه اتصل بعدد من السفراء العرب وصارحهم بأشياء كثيرة ادهشتهم. فقد كان نصرا للقضية الفلسطينية.

٧ - وفى يوليو الماضى التقى ميلتون فولف سفير أمريكا فى النمسا بمنطقة التحرير الفلسطينية ثلاث مرات والتقى بمندوب المنظمة عصام سرطاوى مرتين. وبعث لحكومته بما تم فى هذا اللقاء فهل كان ذلك بتعليمات من وزارة الخارجية. أو كان ذلك بمبادرة منه هو؟.

نحن جميعا نعرف أن السفير. أيا كان. لا يستطيع أن يقوم بمبادرة.. إنما هو فقط يفعل ما يأمرونه به.. ولكن وزارة الخارجية لم تعترض على مقابلات سفيرها فى النمسا. لأن أحدا لم يعرف عنها شيئا أو لعل سفيرها لم يتعهد بشئ.. أو لعل السفير لا يشغل المكان الخطر الذى يشغله اندرو يونج فى الأمم المتحدة. وفى هذه الأيام بالذات.

٨ - وقد أعلن روبرت اشتراوس مبعوث الرئيس الامريكى فى الشرق الأوسط. إنه اتصل بكثير من العرب. وعندما إلتقى بالسفراء العرب أخيرا أعلن ذلك تلميحا وقد بعث د. أشرف غربال سفير مصر فى أمريكا تقريرا يؤكد فيه أن روبرت اشتراوس قد اتصل ببعض ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية..

ولست فى حاجة إلى ذكر الاتصالات المستمرة بين الأردن واسرائيل ولا بين المنظمة واسرائيل.

ورغم هذه الاتصالات كلها والحرص عليها. فإنهم يتهمون مصر بأنها خانت الأمانة وانفصلت عن الأمة العربية. لأنها جعلت أمريكا طرفا فى حل مشاكل الشرق الأوسط؟!

ومصر هى التى أقامت دولة «عموم فلسطين» ومصر هى التى أحيت «الكيان الفلسطينى» فى مؤتمر القمة فى سنة ١٩٦٤.

ومصر استنكرت ضم الضفة الغربية للمملكة الهاشمية. وطالبت بحكومة فى المنفى. وأدخلت منظمة التحرير فى الأمم المتحدة وفى دول عدم الانحياز..

وأنها الآن تطالب بالحكم الذاتى وقيام الدولة. وتطالب بأن تبدأ بنموذج لكل ذلك فى مدينة غزة التى تربطها بمصر علاقة خاصة قديمة - ولكن لا مطمع لنا فى سنتيمتر من أية أرض عربية شرقا أو غربا.

فما هو المطلوب من المنظمة؟!

مطلوب منها أن تحذف من ميثاقها إلقاء إسرائيل فى البحر . والمنظمة على استعداد لأن تعلن ذلك إذا عدل القرار ٢٤٢ الذى صدر قبل عشر سنوات من مبادرة السلام. وبعد خمسين عاما من وعد بلفور. ولا يذكر كلمة فلسطين. إنما يذكر أن أحدا لا يستولى على أرض الغير بالحرب، ويوصى بحل مشكلة اللاجئين - أى الفلسطينيين. وهذا القرار ينظر إلى مشكلة فلسطين نظرة عطف وإنسانية. وهذا مرفوض منا جميعا لأن المشكلة سياسية، ولأن الشعب الفلسطينى له نفس حقوق الشعب اليهودى فى أن تكون له دولة مستقلة، نحن نراها مستقلة، وترى أمريكا وإسرائيل ألا تكون كذلك. إنما فقط أن تكون تابعة للأردن أو داخلة فيها أو متحدة معها. ولا يزال هذا موقفنا.

ولكن اتفاقيات كامب دافيد ذهبت إلى أبعد من العطف على اللاجئين الفلسطينيين. وقررت لهم حقوقا على مراحل.

وعلى الرغم من أن ياسر عرفات قد أعلن فى لقائه بالمستشار كرايسكى: أن الذى بين الأردن والمنظمة أسوأ مما بينها وبين إسرائيل، وأن مصر هى الدولة العربية الوحيدة التى ساندت قضية فلسطين وآزرت شعب فلسطين. فإن ياسر عرفات لا يجرؤ على أن يعلن ذلك تماما ككثير من رؤساء الدول العربية الذين يؤيدون السلام وخطوات

مصر. ولكن ليس لدى واحد منهم الشجاعة على أن يجهر بهذا الرأى!.

فما الذى تراه الآن فى خريطة الشرق العربى؟

من المؤلم حقا أن تظل هكذا تتغير، ومن المؤلم أكثر ألا تتغير مطلقا.

إن العرب قد اختلفوا حول خطوات السلام. وإن كانوا عاجزين عن فعل شئ مما فعلته مصر.

والعالم العربى قد اهتز بثورة خمينى فهى ثورة دينية.. ظاهرها الدين.. وباطنها قلب نظام الحكم المنحل فى إيران.

وليس شاه إيران هو الفريد فى نوعه من حكام المنطقة العربية. كما أن ثورة الشيعة قد حركت الشيعة فى العراق وفى امارات الخليج وحركت الدولة الإسلامية فى أفغانستان. وأشعلت النار فى الاقليات الكردية السنية.

والبترول تحت أقدام الجميع.

وأمريكا وروسيا وأوروبا ترقب من بعيد. ويحاول أن تكسب الموقف لصالحها بسرعة وكما قال شلزنجر وزير الطاقة الامريكى فى حفلة وداعه: إن حياة امريكا الآن بين يدى الله - يقصد دول البترول الإسلامية.

وروسيا تحاول أن تدخل إلى المنطقة على أكتاف الكوبيين والليبيين والأثيوبيين واليمنيين والألمان الشرقيين وروسيا تعلم - والعالم كله - أنها وكل الدول الاشتراكية سوف تعانى قحطا بتروليا ابتداء من العام القادم. ولذلك يجب أن تفعل شيئا قبل أن تسترد أمريكا المنطقة. ولكى تستردها امريكا يجب أن توازن بين إسرائيل من ناحية ودول الرفض العربية العاجزة عن فعل شئ والتى تحاول فى نفس الوقت أن تستخدم أمريكا للضغط على إسرائيل وهذا بالضبط ما نجحت فيه مصر ولا تزال!!.

أما موقف الدول العربية فيتسم بالخرافة - أى بالامعان فى الوهم والخيال. فلايزالوان يرون أن الحقوق يجب أن نستردها مرة واحدة، مع أن ألف باء السياسة هى أن نحصل على شئ وتتفاوض من أجل شئ آخر. وهكذا، وأمامنا نموذج معروف هو أن اليهود عندما حصلوا على وعد بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ جاء فى الوعد أن يكون

لهم «وطن فى فلسطين» أما كيف استغلوا هذه الكلمة حتى قامت لهم دولة، فأمر معروف.

ولو قلنا للأخوة العرب يجب أن نكسب شيئا ما، طريقا إلى شئ ثان وثالث، فإنهم يرون أن هذا استسلام وتخريب للقضية العربية بإسم «الواقعية الضيقة» وعلى العرب أن يروا بأنفسهم الآن وأين ذهبت بهم خيالاتهم «الجبارة العملاقة؟؟» التى تعتمد على ملايين البراميل البترولية يوميا. وعلى الخوف من بعضهم البعض وعلى الحقد على مصر؟

إنها لم تذهب إلى أبعد من الاتصال بمسئول أمريكى تمهيدا لحل القضية الفلسطينية؟! ■

لثالث مرة
لم يحدث شئ فى طرابلس !

من بين الأخطاء التى يقع فيها الكاتب السياسى، محاولته التبسيط لكى يكون قادرا على الفهم، وبعد ذلك يكون قادرا على الاقناع. فالتبسيط يدفعه إلى تهوين المشاكل وتصغيرها. فيرفضها.. أو يحلها بنفس السهولة. ولذلك يجب أن نتقدم إلى المشاكل، وننظر إليها بعناية. ونقبل عليها بجدية ولا نرفضها مهما كانت صغيرة أو غامضة.. فليس أسهل من أن ينزل الإنسان الملعب. «ويشوت» كل كرة إلى خارج الملعب دون أن يحاور اللاعبين، ويفلت من بين أقدامهم ليرمى بالكرة فى الشبكة.

وليس من أسهل من أن نضع مثل هذه العبارة على قرارات وتوصيات مؤتمر دول الرفض: إنها كلام فارغ.. أو عبث.. أو صرخة فى واد مهجور.. ولكن الإلحاح على عقد مؤتمرات لتجديد رفضها لتحرير أرضنا العربية، ابتداء بسيناء وانتهاء بالضفة الغربية وغزة: موقف مستمر لابد من فهمه. أى لابد من تحليله وتشخيصه ومعالجته..

وإذا واجهتنا هذه المؤتمرات فى بغداد ودمشق وطرابلس، ومؤتمرات فرعية أخرى فى الرياض والرباط وتونس. وانتهت إلى نفس النتائج. ولم نخرج إلا ببعض التعبيرات البلاغية الجديدة، مثل: التصدى والتحدى.. الطبيعى والطليعى.. الشقيقة روسيا.. والشقيقة مالطة.. فلابد أن المجتمعين يعانون من نوع من العقم العسكرى والعجز

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٠/٤/٢٠.

العقلى والإفلاس السياسى.

وهذا مرض أو هذه ظاهرة يجب أن نلتفت إليها. ونحن ماضون فى العمل السياسى من أجل السلام الشامل للذين لا يريدون السلام، لأنهم يتاجرون بالبكاء عليه.

ولابد أن نعيد تحديد المعانى القديمة لمفهوم «اللغة».. فهناك رأى يقول: إن الإنسان قد اخترع اللغة ليخفى بها مشاعره فاللغة كالملابس. تخفى الجسم، وتبرزه أيضا، فما الذى أخفاه مؤتمر طرابلس الثالث. وما الذى أبرزه.. ليعود فيخفيه مرة رابعة؟..

فقبل انعقاد مؤتمر طرابلس الثالث أو الرابع من ليبيا وسوريا والجزائر واليمن الشيوعية. كان التهليل عظيما لمقدمات ونتائج هذا المؤتمر. ولابد أن تكون هذه النتائج موجهة ضد مصر وإسرائيل وأمريكا - أى الدول الثلاث التى تعمل بالتفاوض من أجل تحرير الأرض العربية: سيناء والجولان والضفة وغزة.

ولابد أن المؤتمرين قد اهتدوا إلى حل عسكرى سياسى اقتصادى اعلامى. أفضل وأسرع من الذى اهتدت إليه مصر. فإذا حدث ذلك كان أعظم التحديات التى تواجه مصر. وكان من العدل أن تسلم مصر راية السلام إلى هذه الدول، معترفة بأنها قد اكتشفت ما هو أفضل، ولا يعيب مصر أن تسلم زمامها وقيادتها للحكماء العرب اللذين هداهم الحس السياسى والصدق القومى إلى السلام عن طريق آخر..

وقبل أن ينعقد هذا المؤتمر كانت دولة عربية تباركه، مثل: السعودية ودول الخليج. ودول عربية تلعنه. مثل: العراق وتونس، ودول عربية ترقبه وتنتظر مثل: المغرب والسودان.

وقد كان للفلسطينيين نوع من «الحضور» فى طرابلس. فقد اشترك ياسر عرفات وجورج حبش ونايف حواتمة واحمد جبريل - وليس بين هؤلاء القادة اتفاق على شئ واحد. وأول شئ يختلفون عليه هو أن منظمة التحرير ليست هى الهيئة الوحيدة للتعبير عن الأمانى الفلسطينية، وعلى ذلك فلا فرق بينهم وبين ياسر عرفات، ولابد أن الرئيس القذافى قد استدعاهم جميعا، حتى يضربهم معا. وحتى لا يلتزم بقرار

واحد أمام الجميع، وهو لم يلتزم بقرار أو رأى أو معونة ثابتة لهؤلاء الفلسطينيين الذين ألقاهم فى السجون. وطردهم من طرابلس..

وقبيل المؤتمر أعلن نايف حواتمه أن أول قرار سوف يتخذونه هو مطالبة ليبيا بالا تبيع بترولها لامريكا واوروبا. وأن تفعل الجزائر نفس الشئ. فلا تضخ غازها إلى أمريكا.. وأن ما لدى الدولتين من مال فى البنوك الاوروبية والامريكية اليهودية يكفى لمساعدة سوريا ضد اسرائيل. واليمن الجنوبية ضد السعودية وسلطنة عمان، وتشاد فى حربها الأهلية. وقوات البوليساريو ضد الجزائر واثيوبيا ضد الصومال.

ولم يكن بين قرارات المؤتمر أى شئ يدل على قطع البترول أو الغاز عن أمريكا وأوروبا!..

فكان أول قرار للمؤتمر هو: الرجوع عن استخدام البترول ومشتقاته سلاحا ضد العرب!..

ويوم استخدمت الدول العربية سلاح البترول فى ١٩٧٣، كانت ليبيا هى الدولة الوحيدة التى باعت البترول بسعر أعلى!!.

ولنبدأ من البداية، ففى الدقائق الأولى لمؤتمر طرابلس الذى حضرته أربع دول وأربع منظمات فلسطينية متصارعة، أعلن الرئيس القذافى فى عبارة شبيهة بما قاله نابليون أمام أبى الهول فى مصر: أن العالم كله ينظر إليكم وينتظر قراركم. فعلى هذا القرار تتوقف حياة ألوف الملايين فى العالم!!.

ثم قال فى لهجة تشبه لهجة الحجاج الثقفى عندما قال: إننى أرى رءوسا قد اينعت وحان لى قطافها.. وإننى سوف أطيح بها جميعا. فأنا وحدى القادر على ذلك.. فقال القذافى: إن الشرق الأوسط بأنظمته الفاسدة المنحلة الرجعية يدعوكم إلى أن تفعلوا ما هو مناسب لكل ذلك.. ونحن قادرون على كل شئ من أجل القومية العربية!..

واتخذ المؤتمرون تسعة قرارات هامة..

أولها: أن هناك مؤامرة على الشعب الفلسطينى..

والمقصود - طبعا - موقف مصر التى تعمل على تحرير الأرض العربية. وأن

يكون للشعب الفلسطينى الحق فى أن يحكم ذاته تمهيدا لتقرير مصيره؟!..

والقرار الثانى : إدانة تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل..

أى الاعتراض على قبول مصر لإسرائيل والتفاهم معها على حل مشاكلنا بالحوار والعقل بعد أن جربنا الحروب التى أدت إلى نكسات مصرية وعربية فى كل مجال..
والقرار الثالث: مساندة سوريا فى كفاحها ضد إسرائيل..

ولم يشر هذا القرار إلى كفاح سوريا ضد الشعب اللبنانى، وكفاحها ضد الشعب الفلسطينى. وكفاح حزب البعث السورى الشيعى ضد الأغلبية السورية السنية!..

ولم يشر القرار أيضا إلى كفاح الصومال العربى المسلم ضد أثيوبيا الماركسية التى تساعدها ليبيا وروسيا وألمانيا الشرقية وكوبا.. ولم يشر القرار إلى كفاح اليمن الشمالية ضد الكوبيين والليبيين. ولا كفاح اليمن الجنوبية من أجل السيطرة على اليمن الشمالية. تمهيدا لإثارة الفتن فى سلطنة عمان وفى السعودية وتشاد..

وأدان المؤتمر محاولة الدول العربية أن تقف فى وجه الغزو السوفيتى. مستعينة بالسلاح الأمريكى أو الغربى، أو فى تيسيرها للأمريكان أن يدفعوا عنها..

ولم يدن القرار دولا عربية استسلمت تماما للسوفيت مثل اليمن وليبيا وسوريا أى أن المؤتمر يرى أن التحالف يجب أن يكون مع «الشقيقة روسيا»..

وكانت «الشقيقة روسيا» هى قاعدة الإلحاد والزندقة والعداء للإسلام والمسلمين - كما وصفها القذافى. وكان رد برجنيف على مثل هذه العبارات الجارحة: أن القذافى مجنون.

وبرجنيف هو أول من اكتشف فى الرئيس الليبى هذه الفضيلة العقلية!..

وأدان المؤتمر موقف الدول الأوروبية - فرنسا مثلا - ومن القضية الفلسطينية. على أساس أنه لا فرق كبيرا بين أوروبا وأمريكا. فكلها دول استعمارية رجعية صهيونية. ومعنى ذلك أن الدولة الوحيدة التى توافرت لها كل المزايا هى «الشقيقة روسيا» التى حلت القضية الفلسطينية. وردت للدول العربية أرضها. والتى لم تحتل بلادا اسلامية من مثل اليمن وأفغانستان وليبيا.

ومن آمال المؤتمر أيضا إعطاء الشعب المصرى «دفعة توعية» - أى ايقاظ الشعب

المصرى ليأخذ دوره «الطبيعى والطليعى» فى الأمة العربية.

ولم يشأ المؤتمر أن يبصرنا نحن المصريين بما يجب أن تعمله من أجل تحرير أرضنا. وفى نفس الوقت من أجل أن نهتدى إلى القوة الحسنة التى تمثلت لنا فى قرارات مؤتمرات الرفض واحدا بعد واحد.

ومن المواقف المضحكة أن المؤتمرين استعرضوا انجازاتهم منذ انعقاد مؤتمر الرفض الأول فى طرابلس سنة ١٩٧٧. ولم يشاءوا أن يذكروا لنا ما الذى حققوه. لأنهم لم يفعلوا أكثر من أن ينقضوا كلاما. وينفضوا كلاما.

وأهم ما قرره المؤتمر هو: تطوير القيادات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاعلامية للدول المشتركة. لكى تكون أكثر فاعلية وابداعا وتفوقا على مصر. فى حل العقد القومية والمشاكل بين العرب واسرائيل وامريكا واوروبا الغربية. أما «روسيا الشقيقة» فلا توجد هناك أية مشاكل ولا أى خلافات!..

وان تكون القيادة السياسية لسوريا - نظرا لنجاحها الساحق فى الداخل والخارج!!.

وأعلن الرئيس القذافى بعد ذلك، فى لهجة آية الله روح الله مرجع الإسلام الخمينى: يجب أن نستمر التصدى والتحدى، وإعادة النظر فى علاقاتنا بأمريكا التى أودعنا لديها كل أموالنا التى تستثمر فى إسرائيل..

ولذلك فلابد من تشكيل مؤسسات قادرة على التوجيه والتبصير عسكريا واقتصاديا وسياسيا، مع خضوع وسائل الاعلام لسيادة كل دولة.

أى أن هناك اتفاقا فى كل شئ، وخلافا على وسائل الاعلام. فلا ترقى دولة فى إعلامها إلى ما بلغته ليبيا. فليبيا لا تريد أن تنسق إعلامها مع أية دولة من الدول الأعضاء!..

ومن أهم القرارات التى أضافتها سوريا: ضرورة تدعيم الجبهة السورية، جبهة المواجهة الأولى ضد إسرائيل، لكى يتحقق نوع من توازن القوى فى هذه المنطقة..

وأخطر من ذلك كله هو السماح للقوات الفلسطينية أن تحارب إسرائيل من كل الحدود: أى من لبنان وسوريا والأردن. أى إعلان الحرب على إسرائيل - إلا قليلا!.

وأعضاء المؤتمر يعرفون ما الذى فعلته سوريا بالشعب الفلسطينى. ويعرفون أيلول الأسود فى الأردن. ويعلمون ما الذى أصاب لبنان، ولا يزال يصيبها. بسبب نشاط المقاومة من أراضيها. مما دفع إسرائيل إلى احتلال جنوب لبنان بقوات عميلة!..

ومن القرارات الهزلية لهذا المؤتمر: وحدة لبنان وعروبة لبنان واستقلال لبنان واحترام معاهدة لبنان مع منظمة التحرير الفلسطينية. ومبادئ الوفاق الوطنى.

وهذا القرار مضحك لأنه لم يدن سوريا التى حطمت لبنان على رأس أهله.. وأهلكت المسيحيين دفاعا عنهم.. وشتتت المسلمين دفاعا عن الفلسطينيين. وأبادت الفلسطينيين دفاعا عن وحدة لبنان!..

وأخذ المؤتمر بالقرار الجزائرى فى الاعتراف بجبهة البوليساريو حكومة شرعية على الصحراء المغربية..

ومادام المؤتمر يرى أن روسيا هى الدولة الوحيدة التى استطاعت أن تحقق التضامن العربى، وأن تحمى المسلمين فى أفغانستان. فلابد من تدعيم العلاقات الودية مع «الشقيقة روسيا». وأن يوفد الرئيس القذافى. أقرب المقربين إليها. ليقدم لها الولاء فروضا. والطاعة كرامة. والذل عزة. والهوان شرفا..

ورأى المؤتمر تأييد هؤلاء الأفغان الأحرار الذين يدافعون عن وحدتهم الوطنية - وترك لنا المؤتمر أن نتعرف نحن بأنفسنا على نوعية هؤلاء الأفغان..

هل هم الذين يقتلهم السوفيت، أو الذين أتى بهم السوفيت؟.. فهم جميعا محاربون دفاعا عن الوطن..

وأيد المؤتمر إيران فى ثورتها ضد الشاه الذى خرج ولم ولن يعود.

ولا نعرف الآن إن كان هذا التأييد سيستمر إذا دخلت القوات السوفيتية شمال إيران واستولت على أذربيجان، كما حدث فى الحرب العالمية الثانية، واستولت روسيا على شعب أذربيجان وأرضه رهينة إلى أن تجاب مطالبها فى الحصول على قدر معلوم من بترول الخليج؟!

وأيد المؤتمر حكومة تشاد العميلة لليبيا. وخاصة السيد جوكونى عديتى الذى أقطعه القذافى القسم الشمالى من تشاد، واعطاه السلاح السوفيتى، لتظل الحرب

الأهلية دائرة حتى تسقط تشاد قاعدة سوفيتية جديدة على حدود السودان شمالا وغربا. كما أن أثيوبيا قاعدة سوفيتية على حدود السودان شرقا..

ويقال إن أحدا لم يضحك عندما وقف الرئيس القذافى يعلن شخصيا: أنه نظرا لحيوية الأمن فى البحر الأبيض المتوسط. فلابد من دعم جمهورية «مالطة الشقيقة» التى أعلنت حيادها بطرد القوات الاستعمارية من أراضيها!..

ويقال فى تعبيراتنا العربية عن الشئ الذى لا معنى له ولا نتيجة له: إنه مثل الأذان فى مالطة.. أى الأذان فى مكان بعيد.. أو الأذان بين أناس ليسوا مسلمين..

ولا أعرف إن كان الأذان فى مالطة هو كل قرارات المؤتمر أو بعضها. أو هو القرار الخاص بمالطة؟.. وليس أسهل من الكلام البليغ عندنا نحن العرب فى سوريا وليبيا ولكن ما أبعد المسافة بين الأقوال والأفعال!..

ولا أعتقد أن أحدا يأتى بجديد إذا استعرض مواقف الرئيس القذافى التى هى تراجع مستمر عن كل القرارات التى اتخذها مع روسيا وضدها. ومع سوريا وضدها، ومع العراق وضده. وضد السعودية ومعها.. وليس بعيدا ما فعله بالفلسطينيين فى طرابلس. ولا رد الفلسطينيين على ما فعله القذافى، والرئيس القذافى ينسى لأنه يريد ذلك، ولكن أحدا من الذين اجتمعوا به لم ينس.. وسوف يتكرر غدا ما فعله القذافى بالأمس!..

ولابد أن تكون رحلة القذافى إلى موسكو نوعا من العمرة والحج لمباركة هذا المؤتمر.. وليبدو هو الرجل الأكثر حكمة من الزعماء العرب.

ولكن ليس خافيا على أحد أن القذافى يريد ضمانا لأمنه وسلامته من عدوان مصرى تأديبى غدا أو بعد غد.. وسوف يكون القذافى نكتة تاريخية فيما بعد.. يكفى أنه طلب من السوفيت أن يقيموا له حدودا عالية بينه وبين مصر: حائط الصين العظيم.. أو خطوط ماجينو وسيجفريد وبارليف..

ومعروف تاريخيا. قديما وحديثا. ما الذى أصاب هذه الحوائط وهذه الموانع فى عصر الصواريخ..

ولكن «روسيا الشقيقة» قد اقنعته بعجز المصريين عن اختراق وعبور حائط القذافى العظيم!..

ولا أحد يلوم القذافى كثيرا. ولكن اللوم يقع على السعودية التى هى أكثر وعيا وفهما.. وإن كانت أكثر خوفا. فالسعودية قد شجعت القذافى وغفرت له..

ومصر قد حذرت السعودية كثيرا من السير فى مواكب الصغار - والقذافى هو أصغر هؤلاء الصغار..

والآن ماذا حدث؟.. أو ما هو المطلوب أن يحدث؟..

المطلوب هو ربط السعودية والخليج وبقية الدول العربية «بالشقيقة روسيا».

ومهما قالت السعودية أو دول الخليج فى روسيا أو فى أمريكا. فلن تتولى الدفاع عنها إلا أمريكا.. بناء على رغبة الجميع وبالاتفاق معهم. حتى إذا لم يعلن ذلك أحد! لأنه لا يجرؤ عليه. فإن أمريكا هى التى سوف تحمى الخليج. لا من السوفيت إنما من إيران والعراق واليمن الجنوبية أيضا!..

وكما أن مؤتمر طرابلس الرباعى الثالث قد أسفر عن كلام ضد كلام وتحقيقا لكلام آخر. فقد استنكرت الدول العربية هذا المؤتمر كلاما أيضا.

الملك الحسن رفض قرار الاعتراف بجبهة البوليساريو..

وتونس التى تآمر عليها القذافى قد رفضت مؤتمر الرفض..

والفلسطينيون طالبوا بقطع العلاقات مع السودان وسلطنة عمان..

والعراق ضاعف احتقاره للقذافى. الذى وصف ميثاق بغداد بأنه «ميثاق الشقاق»!..

وسوف ينسف هذا المؤتمر نفسه، جريا على سنة المؤتمرات السابقة الثلاثة أو الأربعة.. فالشئ المؤكد فى كل هذه المؤتمرات. أن أعضاءها يتناقصون فى كل مرة.. والذين يقرأون الطالع والفنجان ويضربون الودع. لا يستبعدون أن ينعقد فى المرة الرابعة من ثلاثة أعضاء فى جزيرة مالطة. فلا يذهب أحد. ويعتذر القذافى فى آخر لحظة. وينفرد السيد دون منتوف رئيس مالطة بأن يكون الرئيس والأعضاء والمستمعين فى وقت واحد.. ويصعد فوق مسجد «التضامن العربى» ويؤذن فى مالطة.. وتبدد الرياح والأمواج صوت سيادته.. ولن تصلى وراءه إلا «الشقيقة روسيا»! ■

في برج بابل الجديدة:
قمة عربية لبناء الأصنام وأشياء أخرى أكثر انهيارا!

انعقد مؤتمر القمة الحادى عشر فى عمان وإذا كان الانعقاد حلا، فهو حل جزئى. لأن دولا عربية قد رفضته.. وهى دول أخرى غير التى رفضت المؤتمرين السابقين. وهكذا نرى أن العرب يتناوبون الرفض. وهذا هو التنوع الوحيد الذى أصبح ممكنا..

ولهذا المؤتمر - مثل المؤتمرات السابقة - أهداف واضحة. أول هذه الأهداف: أن هناك فراغا تركته مصر يجب أن تسارع الدول العربية بالأسف عليه. ولكن الأسف الدفين لن يكون أسفا ظاهرا. إنما الظاهر هو إتهام مصر بالخروج وبالخيانة. وهذا ما حدث وسوف يحدث..

والفراغ الذى تركته مصر هو أنه قد عرى الأمة العربية من «غطائها الذهبى» فى بورصة المعاملات السياسية والعسكرية.. فوجدت الأمة العربية نفسها أمام مشاكلها الكبرى. وفى مقدمة هذه المشاكل: إسرائيل..

أما العرب فيرون أن محاربة إسرائيل ممكنة. ومصر ترى أن هذه الحرب بغيرها مستحيلة. وعلى الدول العربية أن تثبت أن مصر قد أخطأت. ولم تثبت الدول العربية ذلك، فلا تزال مصر - إذن على حق..

ولكى يفضح العرب مصر يجب أن يقفوا معا، ليحاربوا اسرائيل ويطردوها بسرعة

نشر هذا الموضوع فى ٢٣/١١/١٩٨٠.

من ثلث سيناء وكل الجولان والضفة الغربية والقطاع والقدس، أو يقضوا على النزاع فى ضربة واحدة بإجلاء إسرائيل من إسرائيل، ثم يلقوا بها فى البحر! فكما جاءت إسرائيل من العدم يجب أن تعود إليه!..

أو ربما أحس أعضاء المؤتمر أن الهجوم على مصر واتهامها وإدانتها لم يعد لحنا تصفق له الجماهير. ولذلك يجب أن يغيروا لهجة الاتهام فيكون الهدف هو حشد كل القوى العربية والعالمية ضد إسرائيل. والعرب يملكون الرجال والمال. فرجال العرب يحاربون فى إيران ويحاربون ضد لبنان ويحاربون ضد تشاد وضد اليمن وضد عمان.. كما أن العرب بأموالهم يستطيعون أن يشتروا السلاح الأمريكى الأوروبى المتطور الذى يحمى الخليج ويقف عند مضيق هرمز، وكذلك السلاح السوفيتى الذى تستخدمه العراق وسوريا.. كما أن العرب بأموالهم استطاعوا شراء القوات المرتزقة من كوبا وألمانيا الشرقية.. وكذلك شراء الارهابيين خاطفى الطائرات، ناسفى السفارات، قاتلى الأطفال الأبرياء..

وفى استطاعة العرب أيضا أن يوقفوا ضخ البترول فتجمد عروق اوروبا فى هذا الشتاء وفى استطاعتهم أن يرفعوا سعر الذهب، ويخفضوا سعر الدولار.. ويرفعوا سعر الأراضى والعمارات.. وأن يفتحوا كازينوهات القمار وينشطوا تجارة الرقيق الأبيض.. إذن، فلابد أن يكون هدف هذا المؤتمر هو الاستعداد لمحاربة إسرائيل.. لأن الشعب الفلسطينى لم يحصل على حقوقه بعد.. وأن إسرائيل لا تحترم قرارات الأمم المتحدة وإسرائيل رغم غضب العالم كله، ما تزال تحتل الضفة والقطاع، ثم قررت ضم القدس وغدا تضم الجولان..

وعلى العرب أن يوقفوا إطلاق النار بعضهم على بعض، العرب على العرب، والعرب على الفرس، ولكن يبدو أن العرب لم يتفقوا على ذلك.. فلا العرب السوريون خرجوا من لبنان، ولا العرب المسلمون قد أدانوا الغزو السوفيتى لأفغانستان الإسلامية، ولا الغزو الشيوعى الأثيوبى للصومال العربية الإسلامية..

إذن فما الذى اتفق عليه العرب؟..

لم يتفقوا على وقف نزيف الدماء الإسلامية ولم يتفقوا على سفح الدماء

العربية إذن فالعرب عاجزون عن حل مشاكلهم معا، فكيف يحلون مشاكلهم مع غيرهم: إسرائيل مثلا؟..

إن هذه الخلافات بين العرب وبين المسلمين لن تكون السطر الأول فى جدول أعمال المؤتمر حتى لا يغضب الغائبون من الحاضرين.. وحتى لا ينسحب الحاضرون تحت ضغط الغائبين..

فإذا كان هذا هو مؤتمر القمة الحادى عشر، فهل هو الحادى عشر لأنه العاشر مكرراً؟ هل هو مؤتمر القمة، لأن القمم عادة متباعدة.. ولأن القمم صامته.. ولأن الحكام العرب مطالبون من شعوبهم بأن يفعلوا شيئاً. ولأنه ليس فى استطاعتهم إلا أن يجتمعوا فمن الضرورى أن يفعلوا شيئا. ولأن الملوك والرؤساء يناقشون قضية خطيرة جدا، فلابد أن تكون الجلسات سرية. وأن يتواصوا بألا يعلنوا للناس شيئا؟.

فهل صحيح أنهم يتسترون على أمور خطيرة، أو أنهم يتسترون على جريمة خطيرة هى: أنهم لم يقولوا شيئا، ولن يقولوا.. ولذلك لم يفعلوا ولن يفعلوا؟!..

فإذا لم يكن هذا مؤتمر قمة، فهل هو - مثلا - مؤتمر أمراض الأمة العربية، والملوك والرؤساء هم الأطباء؟ فليكن، فما هو الداء الذى تشكو منه الأمة العربية وما هى الوقاية وما عو العلاج؟..

وإن لم يكن هؤلاء الملوك والرؤساء أطباء، فهل هم مهندسو العلاقات الاجتماعية والسياسية القومية والدولية؟ فليكن. إذن فما هى الخطة التى وضعوها وما هى الطرق التى رصفوها، وما هى الأنفاق التى أنفذوها من جانب إلى جانب؟..

وإن لم يكن هؤلاء المؤتمرون مهندسين، فهل هم خطباء وشعراء المحنة العربية؟ فليكن ولذلك فسوف نسمع الخطب القديمة وقد أعيدت صياغتها، وقد يلقى أحد الزعماء قصيدة ويهتز لها الحاضرون طربا - فتلك عادة عربية قديمة، وسوف تضيع أصداء هذه الكلمات البليغة الفصيحة، كما ضاعت قبلها مجلدات من الشعر الذى تحرر من القافية ولم يتحرر من المعنى الواحد.. مما أدى إلى هذا التناقض: شعر حر، ولكن عموده الملل. فهو «حر عمودى» أيضا!..

فإذا لم يكن الحكام والملوك شعراء فهل هم دراويش، يواجهون المصائب بالانشغال

فى الدعوات والأذكار وإطلاق البخور وانتظار العفاريت والجن أن تحل لنا مشاكلنا؟ فليكن. فقد حدثنا مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتى أننا قاومنا الانجليز فى بلبيس بهذه الدروشة أيضا. وانهزمنا. وكانت الهزيمة عقابا نستحقه على جريمة الغيبوبة فى حضور الكوارث!..

وعلى الرغم من أن الملك حسين هو الذى سوف يرأس المؤتمر - لأنه صاحب الدعوة. فإنه أقل استحقاقا لهذه الصدارة. فهو على علاقة طيبة جدا بإسرائيل. وهو موضوع الرهان فى الانتخابات الاسرائيلية القادمة.

فالحكومة الاسرائيلية ترى أن الملك حسين فى جيبها، والمعارضة قد أثبتت أن الملك حسين هو «البديل» ولذلك فالمعارضة الاسرائيلية تصف الملك حسين: بأنه «البديل الأردنى» أو «الاختيار الأردنى». وإن المعارضة على يقين من أن الملك حسين هو وحده الذى يستطيع كل شئ. والذى يستطيعه الملك حسين هو إقامة دولة أردنية أكبر وأوسع تضم الضفة الغربية - كلها أو أكثرها. وأن المعارضة تريد أن «تنفرد» بالملك حسين فى مرحلة تالية. وعلى الملك حسين أن يخلق الجو المناسب لذلك. أما هذا الجو فجاهز فى إسرائيل حكومة ومعارضة.. ولكن المطلوب منه الآن هو «تجهيز» السعودية والعراق والشعب الفلسطينى لهذا «البديل الأردنى». أما المكافأة التى وعدوه بها فهى الضفة الغربية، فهل الشعب الفلسطينى الذى ذبحه الملك حسين والذى بعث بالسيد عرفات نائبا عنه فى مؤتمر القمة يعلم ذلك؟ أن السيد ياسر عرفات يخاف من سوريا التى تخاف من العراق التى تخاف من إيران التى تخاف من السوفيت..

فهل صحيح - إذن - أن الملك حسين هو الذى يرأس مؤتمر الملوك والرؤساء؟ ليس صحيحا. إن الذى يرأس المؤتمر هو : الخوف.. ربما كان الخوف أستاذا للحكمة وحسن التقدير، ولكن الخوف أيضا هو استاذ العجز والشلل.. وفى نفس الوقت هو أبو الثورات كلها.. فإذا لم يسفر الخوف فى داخل المؤتمر عن شئ بين هؤلاء الجالسين معا.. فلا يوجد خوف آخر من الشعوب - أى خوف الملوك والرؤساء من شعوبهم؟!

وكما يحدث قبل وأثناء انعقاد مؤتمرات القمة، يحدث قبل انعقادها أيضا: مساومات مادية..

فسوريا طلبت من المملكة السعودية والكويت معا ١٣ مليار دولار.. وقد تلقت سوريا - سبعة مليارات!..

وطلبت سوريا من ليبيا عشرة مليارات من الدولارات، ولم يصلها دولار واحد ولن يصل!..

والأردن حصلت على ثلاثة مليارات من السعودية والكويت..

والجزائر طلبت من السعودية أن تبنى لها مدينة «الأصنام». وقد وافقت على ذلك.. ثم عادت الجزائر فطلبت من الكويت أن تبنى «الأصنام». فوافقت على ذلك، لم تكتشف السعودية والكويت معها أنهما دفعتا الثمن مرتين إلا يوم الخميس الماضى، عندما أعلن ذلك أحد البنوك السويسرية؟!..

حتى العراق طالبت كل دول الخليج بأن تساهم فى بناء المدن والأنابيب والمحطات التى هدمها الايرانيون، فقد كان العراق يدافع عن العرب ضد الفرس. ووافقت كل دول الخليج، وفى مقدمتها السعودية!..

وإذا كان اجتماع مؤتمر القمة قد تم بصعوبة وببطء، فسوف ينفض بسهولة وبسرعة والنتيجة واحدة: عجز عربى عن فعل شئ يخدم العرب أو يهدم إسرائيل.. ويوسفنا - طبعا - أن يعجز العرب عن إنجاز شئ. فهى فضيحة عربية. وهذه الفضيحة سوف تجعل العرب يتخذون مواقف ملتوية. وسوف يبحثون عن ضحية أو فاعل حقيقى لكل ما أصاب الأمة العربية. وهذا الفاعل الوحيد هو: مصر..

ومع أن هذه النتيجة معروفة مقدما، ومع أن هذه الحقيقة هى التحدى الأكيد لقدرات العرب المادية والأدبية، فهى أيضا العبء المستمر على مصر. فسيظل العرب فى عنادهم لا يتراجعون، وسوف يبحثون عن وسيلة محترمة لارجاعهم إلى مصر، وسوف تكون هناك أطراف كثيرة تحاول التوفيق بين الأشقياء أو توسيع الثقة بين الأشقاء..

وهذا يدل مرة أخرى على أن الزعامات العربية تنقصها الشجاعة: مواجهة الواقع بالعقل، والاتجاه إلى الهدف باخلاص. لقد كانت مبادرة السادات بالسلام، قمة هذا الاسلوب السياسى الذى يفلح العرب فى شراء بديل عنه.

وإذا كانت العلوم الفلكية والحيوانية والنفسية قد عرفت رجالا افذاذ أدانتهم شعوبهم بعض الوقت، لتكفر عن ذلك فيما بعد، ففى السياسة أيضا، فالعالم الفلكى الإيطالى برونو، أدانوه وحاكموه لأنه كشف عن حقيقة كان فيها سابقا لعصره وأوانه. وهى: أن الأرض ليست إلا ذرة رمل فى هذا الكون. وأنه ليس صحيحا أن الإنسان هو مركز الكون..

وعالم الحيوان داروين قد أعلن تقارب السلالات الحيوانية. والتشابه بين الإنسان والقرود، ولم يستبعد أن تكون من أصل واحد.. غير أن الإنسان تقدم لأنه استطاع أن يطور نفسه. فاتهموا داروين وأهانوه وكفروه!..

وعالم النفس فرويد استعان على تفسير ألغاز النفس البشرية بالمناهج العلمية الأخرى.. ولم يجد حرجا فى أن يملأ لا شعور الإنسان بالحيوانات ومخاوف الكهوف.. واتهموه بأنه هو نفسه الحيوان الذى تنكر للإنسانية. وأنه بلا قلب وأنه حطم رومانسية الحالمين فى طول التاريخ وعرضه..

وغير هؤلاء كثيرون فى كل علم من العلوم وجريمته: أنهم استطاعوا أن يروا ما لا تراه شعوبهم، وأنهم سبقوهم إلى المستقبل الذى يلمسونه بيقين وإيمان..

ومن المؤكد أن مؤتمر القمة سوف يضيف فشلا جديدا لفشل قديم، لسبب بسيط جدا هو أن هذا المؤتمر ليس إلا «خيمة للمصالحة» يتقدم كل رئيس ويعانق الرئيس الآخر ويقبله ثلاث مرات: مرتين على الخدين والثالثة على الجبهة. وهذا هو الصفاء العربى، والنقاء السياسى، وبناء الجسور العاطفية بين العواصم العربية. وإذا كانت المعانقة والمقابلة - من القبلات - «وعفا الله عما سلف» «والدم لا يكون ماء».. إلى آخر هذه التعبيرات فلا سلام فى الأمة العربية، ولا وطن للشعب الفلسطينى!..

ولو كان الأمرّ بيدى لوزعت على الرؤساء والملوك كتابا ممتعا للمؤرخ الأمريكى: جون برونسون عنوانه: «كان الفشل مؤكدا»، والكتاب يروى قصة فشل ثلاثة من القادة العسكريين. وقد أدى هذا الفشل الذريع إلى خروجهم من معارك الدمار. بالعار الأبدى. الأول هو الجنرال الإنجليزى بولر (١٨٣٩ - ١٩٠٨) كان رئيس الأركان فى جنوب أ فريقيا واشترك فى الحرب ضد البوير. وواجه البوير بهجوم على جبهة عريضة

جدا. فانهزم تماما. وسحبه الإنجليز من المعركة بينما القتال لا يزال مستمرا.

والقائد الثانى هو الجنرال الروسى كوروياتكين (١٨٤٨ - ١٩٢١) كان ضابطا لامعا متحدثا ظريفا وخطيبا فصيحا. واشترك فى الحرب ضد اليابان فى منشوريا، واستطاعت القوات اليابانية أن تقتل قواته ليلا، وكاد هو يسقط فى أيديهم. فأعفوه من جميع مناصبه سنة ١٩٠٥..

أما الثالث فهو الجنرال الألمانى فون مولتكه (١٨٤٨ - ١٩١٦). لم تكن له تجارب حربية كبرى. إنما هو فقط حفيد القائد الكبير فون مولتكه (١٨٠٠ - ١٨٩١) هذا القائد الحفيد انهزم أمام الفرنسيين فى معركة المارن فى الحرب العالمية الأولى. وأصيب بانهيار عصبى، وأدخلوه مستشفى الأمراض العقلية..

أما ما الذى فعله المؤرخ الأمريكى مع هؤلاء المنهزمين، فقد جمعهم معا فى مؤتمر قمة من خياله. وأدار الحوار بينهم. وتركهم ليقفوا على شئ واحد: ما هو الدرس الذى يجب أن يتعلمه جنود المستقبل من فشلهم التاريخى الشنيع؟..

يقول المؤلف: ورجعت، ووقف أمام الباب. وكان الصمت تاما. وفتحت الباب فوجدتهم قتلى. لقد نجحوا أخيرا: فقد انتصروا على أنفسهم!..

ولا أقترح على مؤتمر القمة العربى شيئا من ذلك. فلن يفلح الملوك والرؤساء فى أن يوجهوا أنفسهم. ولن ينتصروا على خوفهم.. ولذلك فسوف يتكرر مؤتمر القمة، ولنفس الأهداف، فى عواصم مختلفة. ويبقى كل شئ على ما هو عليه: فى انتظار الانتخابات الأمريكية. والرئيس الأمريكى الجديد، والرئيس الفرنسى الجديد ومن سيجئ بعد الخومينى وصدام حسين وحافظ الأسد والقذافى!..

وإذا كان الحاضر قاسيا على الملوك والرؤساء، فإن المستقبل سوف يكون أقسى. فالتاريخ مثل «زوجة الأب» لا يرحم. فنحن نصنع التاريخ، وليس هو الذى يصنعنا. وعجلة التاريخ فى حاجة إلى طاقة دافعة، هذه الطاقة هى شجاعة الزعماء.. وبلا شجاعة يتوقف المجتمع، وبلا بصيرة الزعماء يكون الطريق بلا هدف..

وقد حدث كثيرا فى التاريخ، أن حاكمت الشعوب رجالها الذين انفتحت لهم «طاقة القدر» ولم يفتحوا أفواههم بقرار..

وفى التاريخ أيضا أن أحد الأباطرة الرومانى قد حاكم البابا فورموزو بعد وفاته فى القرن التاسع الميلادى. أخرجه من قبره وأجلسه فى المحكمة. وحاكمه وأدانه، ثم جرده من مسوح البابوية، وألقى به فى نهير التيبرا..

ربما لا يهتم بعض الملوك والرؤساء بالتاريخ، فهو لا يعنيهم. فهم قد جاءوا إلى مقاعدهم بلا تاريخ، إلا شهادة الميلاد.. ولذلك فليس لهم ماض ولا مستقبل! ولكن علمنا التاريخ، إلا شهادة الميلاد. ولذلك فليس لهم ماض ولا مستقبل! ولكن علمنا التاريخ أن الذين بلا ماض ولا مستقبل، كان لهم حاضر أليم. ونحن نرى بوادر الحاضر الأليم..

ومن بين هذا الحاضر الأليم هذه المؤتمرات.. التى هى تجديد لمؤسسات قديمة: برج بابل.. الذى أقيم عندما كان الشعب البابلى واحد الكلمة واللسان. فلما التقى الشعب فى داخل البرج اختلفت لغاتهم ولهجاتهم فسقط بهم البرج!..

هل أقاموه على الكلام، فأسقطه الكلام؟..

هل لأنهم أقاموه للتطاول على الله - منتهى السذاجة - فهدمه الله عليهم.

فإن لم يكن هذا برج بابل القائم، فهل هو «برج بيزا» المائل؟..

وإذا لم يكن شيئا من ذلك فما هو؟..

ليس الغرض من هذا المؤتمر هو بناء الأصنام أو مدينة الأصنام، إنما هو بناء أشياء أخرى أكثر انهيارا!

فإن كان يعنيك المزيد من الوضوح وإن كان لديك متسع فى الوقت والصدر. فارجع إلى أول المقال - فقد حاولت إزالة الضباب السياسى الممتد من الخليج إلى المحيط، فإذا فعلت، فواجبى أن أشكرك! ■

اليوم وليس غدا :
يا منظمة التحرير الفلسطينية !

أهم حوادث سنة ١٩٨٠ هي نفسها أهم حوادث السبعين قرنا الماضية: الحروب والحروب المضادة وضحاياها من القتلى والجرحى واللاجئين.. ثم علاج ما بعد الحروب بالانقلابات الداخلية تعديلا لأخطاء سابقة.

فكما أن الحرب نوع من التصحيح العنيف، فإن علاج آثار الحرب لا يكون إلا بتصحيح أعنف.

وإذا كانت الحرب تشتعل لتقضى على فساد قديم، فإن الحرب نفسها تخلق فسادا جديدا.

وبذلك تؤدى الحروب إلى مضاعفة ويلات الإنسانية الأخرى التى تولدت من الفقر والمرض وليس حدثا كبيرا أن تكون هناك زلازل، فضحاياها أقل كثيرا من الزلازل السياسية والاقتصادية والعسكرية..

ولذلك فأهم حوادث العام الماضى هى العدوان الروسى على أفغانستان وحركة التحرير الأفغانية، وعدوان العراق العربى الإسلامى، على إيران الفارسية الإسلامية.

وإذا كان فى العالم ٤٠٠ مليون من المعوقين والعاجزين عن الحياة، فإن نصف

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/١/٤

هذا العدد من اللاجئين الفارين من اثيوبيا والصومال وفيتنام وكمبوديا وكوبا وتشاد وباكستان وافغانستان وعشرات من دول أمريكا اللاتينية.. واللاجئين الفلسطينيين الذين أرغموا على ترك أرضهم وعاشوا فى الدول العربية. لقد هربوا من الأرض وحملوا على أكتافهم قضية العودة إليها. وتولت الدول العربية دور المحامى عن الشعب الفلسطينى ٣٧ عاما. وتحملت منظمة التحرير هذا العبء ١٦ عاما. وانتهت القضية الفلسطينية بأن أصبحت مصر وحدها التى تدافع عنها..

ولم يشهد العام الماضى موقفا عربيا موحدا من أجل فلسطين.. ولذلك فأهم أحداث سنة ١٩٨٠ أن شيئا لم يحدث للقضية الفلسطينية. فهل غاب العرب؟ هل غابت منظمة التحرير الفلسطينية؟ هل يمكن أن يقال إن قضية فلسطين هى الشئ الوحيد الذى يتكرر فى كل سنة.. حتى اعتاد العرب عليه، ولذلك يسقطونه من حسابهم؟!

هل ضاق العرب بفلسطين؟ أو هل ضاق الفلسطينيون بالعرب؟!

من المؤكد أن الفلسطينيين قد ضاقوا بالعرب وبأنفسهم أيضا !

أما «العرب» فكلمة غير دقيقة. لأن الدول العربية إذا كانت قد اشتركت فى صفة العروبة، فإنها لم تشترك فى شئ آخر: لا الرأى ولا القرار ولا صدق النية فى حل القضية الفلسطينية..

والآن نستعير أسلوب شهر زاد فى ألف ليلة وليلة، عندما يدركها الصباح فتسكت عن الكلام المباح وغير المباح.. ولكن لكى نستأنف هذا الكلام كل يوم وكل سنة فأين القضية الفلسطينية؟.لقد أجاب عن هذا السؤال الرئيس صدام حسين فى حواره العنيف مع السيد فاروق قدومى فى عمان. أما تفاصيل الحوار فعندنا. ولكن ليس من مصلحة أحد أن ننشر ذلك.

قال الرئيس صدام حسين: الآن عندنا جميعا مشكلة: إما عرب وإما فرس.. وكما وقف العرب جميعا ضد الصهيونية، فإن صهيونية جديدة قد برزت، لأبعد الشاه ولكن قبل ذلك فنحن أمام الغزو الفارسى لكل دول الخليج. وسوف تكون الضربة الأولى للعراق سيدة الخليج.. ونحن قادرون على ضد هذا العدوان.. ولكن العراق يجب ألا

يكون وحده أمام إيران.. فلسنا وحدنا عربا. بل أنتم جميعا.. هذه هى القضية..

أى أن القضية لم تعد فلسطين العربية. أى لا يصح الآن أن يتضامن العرب ضد إسرائيل. إنما يجب أن يتضامنوا ضد إيران..

وقال الرئيس صدام حسين أيضا: إن كل القضايا يمكن تأجيلها الآن. فواجبنا أن نفرغ بسرعة من قضية ماتت من مئات السنين. غير أن أطماع الفرس التى أذكاها الشاه وأضاف إليها الخومينى عمقا دينيا هى القضية.. ولذلك يجب أن يسفر كل إنسان عن وجهه الحقيقى. هذا ما أريده الآن!

والتفت إلى السيد فاروق قدومى أحد فلاسفة منظمة التحرير الفلسطينية. ويقال - ولست على يقين من ذلك - إن السيد فاروق قدومى قد رفع صوته ويده فى وجه الرئيس صدام قائلا: بل هى القضية الفلسطينية. وإذا كان العرب لم يفلحوا فى أن يقفوا معا دفاعا عنها، فكيف تطالبهم بنفس الموقف دفاعا عن العراق ضد إيران.. إن ضعف العرب هو الذى أغرى إيران بالتربص والاستعداد لغزو العرب من داخلهم..

ويقال إن السيد فاروق قدومى قد ذهب إلى أبعد من ذلك قائلا: أليس من الرجوع إلى الحق أن نقول إن مصر هى الدولة الوحيدة الى تدافع عن فلسطين؟!

ولابد هنا أن يدرك شهر زاد الصباح - سواء كان نور الصباح قد ظهر أو لم يظهر، إذ من الضرورى أن نستدعى الشمس لكى تظهر فورا. حتى لا يطيل السيد فاروق قدومى فى مثل هذا التطاول على الرئيس صدام حسين - فليس معقولا أن يقول ذلك. ولكن قيل لنا إنه قال.

وسيان أن يكون ذلك قد حدث أو لم يحدث. لأن الذى يجب أن يعنينا اليوم وغدا هو: أننا نريد أن نعرف، وهذا حقنا، ما الذى قالوه فى عمان!

شئ واضح تماما هو: أن منظمة التحرير الفلسطينية لا تعرف لها «رأسا» فى سوريا ولا «رجلين» فى عمان ولا «جيبا» فى السعودية ولا «قلبا» فى روسيا ولا «أصبعا» فى ليبيا ولا «لسانا» فى مصر..

هكذا تمزق الشعب الفلسطينى فى كل أرض عربية، وأهين فى كل أرض عربية، إلا فى مصر. وليس فى نية مصر أن تفعل ذلك.. ولما نشرنا أن عدد أصحاب الملايين

الفلسطينيين فى مصر تجاوزا الخمسين غضب بعض المصريين من ذلك. ورأوا أن ما نشرناه يتنافى مع السماحة المصرية. ووجدنا الحق معهم واعتذرنا عن ذلك. أما فى بقية الدول العربية فالقضية تختلف تماما، فالفلسطينيون يرهبون أهل الكويت، ويخيفون السعودية، ومطرودون من ليبيا، ومذبوحون فى الأردن، ومشردون فى لبنان، ومستعبدون فى سوريا، ومعتقلون فى إسرائيل.

أما المشكلة الحقيقية للشعب الفلسطينى فهى أن له جسما واحدا مسجى فى الشرق الأوسط، وله ألف رأس، وكل رأس قد ألقيت فيه أفكار الدول العربية الأخرى.. ولكن دولة واحدة استطاعت أن تتسلط لى القيادة الفلسطينية.. إنها سوريا، لماذا؟ لم يدلنا أحد على سحر البعث العلوى وقدرته النهائية فى إذلال منظمة التحرير.

فيم طلب السيد ياسر عرفات من الرئيس السادات أن يسعى لدى الملك فيصل للمصالحة بين السيد ياسر عرفات والملك حسين، تردد الرئيس السادات، وعنده حيثيات كثيرة لذلك. فالسيد ياسر عرفات من أبرز صفاته أنه يتلون كثيرا ثم يعتذر لأنه يخطئ كثيرا. ولكن السيد ياسر عرفات أصر. وكان ذلك فى القطار بين مصر والاسكندرية وطلب الرئيس السادات من الملك فيصل أن يصالح ياسر عرفات على الملك حسين. وتردد الملك السعودى فهو أيضا يعرف تقلبات السيد عرفات. ولكنه قال: أفعل ذلك مع مصر!..

وكانت المصالحة. ولكن الملك حسين الذى يعرف السيد ياسر أكثر من الجميع، ضرب مدينتى جرش وعجلون دون أن تتنبه القوات العراقية المرابطة بالقرب منهما. وحتى يفلت الملك حسين من مسئوليته عن هذا العمل العنيف، سافر إلى الخارج وترك هذه المهمة لأخيه ولى العهد .

وفى مواجهة هذه الإهانة الأردنية لمصر والسعودية، وردا عليها وعلى ادعاء السيدة جولدا مائير بأنه لا توجد كلمة اسمها فلسطين: طلب الرئيس السادات من المجلس الفلسطينى المنعقد فى القاهرة إعلان «حكومة فلسطينية مؤقتة» تعترف بها مصر فورا.. تماما كما أعلنت حكومة جزائرية مؤقتة فى مصر، تسلمت الحكم بعد ذلك فى الجزائر.. وكما عاد فأعلن الرئيس ذلك منذ أيام عندما طلب إلى المجاهدين الأفغان أن يقيموا حكومتهم المؤقته فى القاهرة..

ولم تلق هذه الدعوة ما تستحقه من تقدير من السيد عرفات. بل سارع الرئيسان الأسد والقذافى واستنكرا الموقف المصرى من المصالحة بين ياسر والملك حسين، والدعوة إلى حكومة مؤقتة..

وكما شارك السيد عرفات فى الهجوم على فك الاشتباك الأول لأن الروس أقنعوه بأن هناك اتفاقا سريا واتفاقا معلنا، فإنه قد اعتذر فى التليفزيون المصرى لهذا الموقف المتعجل منه. أما السبب الحقيقى فانه قد فوجئ بأن سوريا قد وافقت على فك الاشتباك هى الأخرى.

فوقف السيد عرفات حائرا بين إدانة مصر وتأييد سوريا، فاعتذر لمصر ولسوريا أيضا. ولكنه لم يرض الدولتين!.

مرة واحدة فقط قبل حرب أكتوبر وافقت منظمة التحرير على أن تتلقى السلاح السوفيتى فى مصر. وبعدها لم تحاول مصر أن تأتى لها بسلاح سوفيتى، لأن منظمة التحرير لم تكن حريصة على ذلك، واختارت، أو اختير لها، أن يكون سلاحها من سوريا. تحصل عليه وتموت به أيضا فى لبنان.

وحصلت المنظمة على السلاح السوفيتى بأيدى البعث السورى. أما الثمن الذى دفعه السيد عرفات فهو أن يؤيد الغزو السوفيتى لأفغانستان.. أى أن منظمة التحرير الفلسطينية قد وافقت على إدانة حركة التحرير الأفغانية الإسلامية.. فكأن منظمة التحرير دفعت ثمنا مضاعفا: أعطت قيادتها لسوريا، وسلمت شرفها للسوفييت - أليس هذا هتكا لعرض الشعب الفلسطينى؟

وإذا كان الشعب الفلسطينى واحدا، فإن قياداته تجعله كثيرا، وربما كان الرئيس القذافى هو أنجح من استغل هذا الضعف فأطلق المنظمات بعضها على بعض. دفع لصغارها مالا ليضربوا كبارها. وبذلك تنفض المنظمات بعيدا عنه فلا تطالب بدولار واحد، وقد اتفقت المنظمات جميعا على شئ واحد: أن الرئيس القذافى لم يعطها شيئا مما وعدها به، ولكنه استخدمها فى الاعتداءات على السفارتين الأمريكية والفرنسية وغيرهما، وكأنه بذلك جرد المنظمات من صفتها الشرعية وهى أنها حركات تحررية وجعلها منظمات إرهابية.. فهو بذلك قد ساعد إسرائيل فى إقناع العالم كله بأن منظمة

التحرير الفلسطينية وغيرها ليست إلا منظمات إرهابية، وأن لها هدفا واحدا معلنا هو القضاء على إسرائيل، ومادام هذا هدفها فلا حل للقضية ولا سلام فى المنطقة لأن السيد عرفات يريد أن يبقى كما هو ملكا غير متوج على شعب ممزق وأرض محتلة، وعندما قتل أحد زعماء المقاومة ووجدوا رصيده مائة مليون دولار، أحست إسرائيل أن هذا دليل جديد على أن زعماء المقاومة أمراء وملوك وأنهم مترفون، وأن حل القضية هو إسقاط لهم من فوق العروش المحمولة على أعناق الأمة العربية؟!.

فهل حقا أن هناك رأيا واحدا لكل المنظمات الفلسطينية؟ الجواب: لا.. إذ كيف يكون زعماؤها كثيرين، ولها رأى واحد. بل ان المنظمة الواحدة لا يوجهها رأى واحد؟ إذن فالآراء مختلفة باختلاف الأشخاص، ولذلك فالخلافات شخصية، وإذا كانت المنظمة فى السادسة عشرة من عمرها، فإن قياداتها بدأت تترهل. ولم تعد لها عضلات قوية ولا أنياب بارزة. ولذلك لم يعد السيد ياسر عرفات هو أحق الناس بموقعه. فقد ضعف وهزل. ويسيطر عليه خوفه القديم.. وليس عناده إلا نوعا من إخفاء عجزه عن القرار.

ولابد أن ما حدث للسيد ياسر عرفات فى سنة ١٩٦٥، هو الذى يسيطر على سلوكه العام والخاص، وإلا فما هو تفسير فزعه المرضى من البعث العلوى فى سوريا؟ ففى ذلك العام كان الرئيس حافظ الأسد وزيرا للدفاع وفوجئ بأن منظمة التحرير الفلسطينية قد نشطت على الجبهة السورية، دون إذن منه، فاعتقل السيد ياسر عرفات وألقى به فى السجن.. فى البئر - ووصفوا ذلك بأن السيد عرفات قد لقى ما لقيه النبى يوسف عليه السلام، وخرج السيد عرفات بعد وساطات مهينة.

ولكن خروج السيد عرفات قد أدخل فى السجن شيئا أخطر من ذلك.

فإذا كان الوزير حافظ الأسد قد أفرج عن ياسر عرفات، فإن الرئيس حافظ الأسد قد اعتقل القضية الفلسطينية!

فالقضية الفلسطينية والوحدة اللبنانية والشعب السورى: رهائن البعث العلوى فى دمشق!

وبسبب هذا «الشتات» العربى، لم يكن غريبا أن يقول السيد مناحم بيجين: إن الصراع العربى الإسرائيلى ليس هو القضية التى تستحق اهتمام العالم وإدانة إسرائيل

دائما، إنما هناك الصراع بين العرب، والصراع بين المذاهب الإسلامية.. وهى جميعا تهدد موارد الطاقة التى يحتاج إليها العالم كله!.

وليس صحيحا تماما ما استنتجه السيد بيجين، ولكن الصحيح هو أن القضية الفلسطينية قد انتقلت إلى الظل، ومن الظل إلى الرف، ومن الرف إلى الغياب تماما.. فهل بعد ذلك تنتقل إلى النسيان؟.

أما الدول العربية فتتمنى ذلك..

ولكن مصر هى وحدها التى تدافع عن القضية، وليست خلافاتها مع إسرائيل من أجل الجلاء التام عن سيناء. فالجلاء مؤكد وموعده مسجل يوم ٢ أبريل سنة ١٩٨٢، إنما بسبب التلكؤ فى تقرير المصير للشعب الفلسطينى هو السبب! فالذى تحرص عليه مصر هو حل القضية الفلسطينية وتمهيد الطريق للملك حسين أن يساهم فى الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى. والملك حسين يستطيع ذلك لأن أكثر شعبه من الفلسطينيين ولأنه على علاقة مستمرة وطيدة مع الأحزاب الإسرائيلية. وهذه العلاقة هى التى جعلت أحزاب المعارضة تؤكد أنها قادرة على إيجاد حل - فهى تعرف الملك حسين أكثر من الأحزاب الإسرائيلية الأخرى ومن العرب أيضا.

ولذلك فهى عندما تتحدث عن «الاختيار» الأردنى.. أو «البديل» الأردنى.. فهى لا تقصد البديل عن اتفاقية كامب دافيد - فلا بديل عنها.. إنما تقصد إنه البديل عن الاتصال المباشر بالمنظمات الفلسطينية..

وإذا كنا نطالب بأن يعرف العرب ماذا دار فى عمان بين العرب الرافضين بعضهم لبعض والذين اتفقوا على كل شئ إلا وحدة القضية الفلسطينية. فإن من الواجب أن يعرف العرب أيضا ما الذى يقوم به الملك حسين فى أوروبا وأمريكا وفى إسرائيل أيضا.

فإذا كنا على يقين من الذى لم يحدث فى سنة ١٩٨٠، فإننا على يقين أكثر مما سوف يحدث فى سنة ١٩٨١.. أو فى النصف الأول من هذا العام: فسوف يتوقف القتال بين العراق وإيران.

أما الرئيس السادات فقد صدقت نبوءاته فى المنطقة - فى الشرق العربى والشرق

الأوسط والمد الشيوعى، ووصف ما سوف يحدث بأنه «المخاض» العنيف الذى يجئ مقدمة لولادة صعبة: ولادة أشكال جديدة للحكم، علاجا لأساليب العنف والبطش حولنا - أى حول مصر المستقرة وحدها فى الشرق الأوسط جميعا.

وسوف تقوم الدولة المسيحية فى لبنان، أما بقية لبنان فسوف يقتسمه سعد حداد والفلسطينيون والسوريون والمسلمون اللبنانيون!

أما دول الخليج فلن تعرف الأمن الذى نامت فيه طويلا، فقد أيقظتها من سباتها العميق انفجارات كثيرة، زلزلت العروش وزلزلت المقدسات أيضا - ولم يكن ذلك من قوات خارجية، إنما كان من غضب داخلى، وهو أخطر أنواع الخطر!.

وبعض العرب لم يستنكروا ما حدث فى أفغانستان، لأنهم لم يستنكروا قبل ذلك ما حدث فى لبنان.. وإذا مضى العرب فى ذلك فمعناه أننا مستعدون لأن نتخذ نفس الموقف إذا تكرر العدوان على شعب إسلامى أو عربى.. ولا يمكن تبرئة الدول العربية والإسلامية من سلبيتها من العدوان السورى على المسلمين والمسيحيين والفلسطينيين فى لبنان، ثم على الشعب السورى نفسه..

إنها نفس السلبية: عجز عن فعل شئ، ويأس من أى حل. وخوف على أمنها الداخلى..

وإذا حاولت منظمة التحرير الفلسطينية أن تستعيد ثقة مصر، وهى الوحيدة التى جندت العالم كله من أجلها فإنه طريق شاق، وأهم معالم هذا الطريق سوء الظن والتردد - سواء الظن بكل ما تقوم به مصر والتردد فى الاعتراف بالخطأ..

وإذا كان العالم كله اليوم يؤيد حق الشعب الفلسطينى، فإن قادة الشعب الفلسطينى لا يؤيدون هذا الحق، فما الذى يريدونه لأنفسهم ولشعبهم؟ أما الذى يريدونه لأنفسهم فمعروف مع الأسف، أما الذى يريدونه لشعبهم فليس معروفا. ولذلك كان أسفنا أعظم..

ولم تكن ظروف منظمة التحرير الفلسطينية أفضل مما هى الآن: فبعد تصفية المعارك والصراعات فى الشرق العربى فى أوائل هذا العام، وبعد انفتاح المعارضة

الإسرائيلية والملك حسين والإدارة الأمريكية الجديدة، والدول الأوروبية، لحل القضية الفلسطينية سياسيا وإنسانيا، ووضوح موقف مصر وحدها فى العالم العربى، فعلى القيادات الفلسطينية أن تنتقل من الظل إلى النور، ومن التمزق إلى التضامن، ومن الإرهاب إلى التحرير، وإلا خسرنا العالم كله، كما خسرنا أنفسنا قبل ذلك. ■

الرغيف:
البداية الصحيحة والضرورية أيضا !

الصعب هو: أن نقول للناس يجب أن نعدل عن تناول الرغيف. ففى الدنيا شعوب لا تأكل الخبز، إنما تفضل عليه البطاطس صباحا ومساء. وشعوب أخرى آسيوية تأكل الأرز. وشعوب افريقيه تأكل اللحم.

الأصعب أن نقول للناس: بل يجب أن تكون عندنا إرادة من حديد: فلا خبز ولا أرز ولا بطاطس.. تماما كأننا فى حالة حرب. ونحن بالفعل نحارب الفقر والمرض والجهل ونزيل آثار العدوان علينا - خمس حروب هدمت البيوت وحطمت النفوس، وسدت الطريق إلى أى أمل فى النجاة!..

والسهل أن نقول: فلتكن ثلاثة أرغفة بدلا من ستة، ورغيف واحد بدلا من ثلاثة. وليكن رغيفا نصفه من القمح والنصف الثانى من الأرز والبطاطا.. ونخلطه بكثير من «الردة» فهى مليئة بالفيتامينات وهى فى نفس الوقت أحدث ما اهتدى إليه علماء الجهاز الهضمى.. فالردة كلها من قشر القمح - أى من السيلولوز الذى يساعد على الهضم وعلى الليونة.. ولذلك فالذين اختاروا الرغيف الأبيض اختاروا معه الإمساك ونقص فيتامينات! و ب و ج و د!

ولكن لماذا؟

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٤/٩/٣.

لأننا نستهلك دقيقا كثيرا. ولأن هذا الدقيق يكلف الدولة مئات الملايين من الجنيهات من أجل أن يكون الرغيف رخيصا وكبيرا. ولأنه رخيص فنحن نشترى منه الكثير ، ولأنه كثير فنحن نلقى بأكثره فى الزبالة ونعطيه للبهائم.. ولأن الطوابير طويلة قلقة أمام المخابز فإن الرغيف يكون عجينا يتعفن بسهولة فنلقى به للكلاب - وهى كما ترى عملية سهلة جدا - أقصد شراءه والتخلص منه، ولكن كم من الوقت والمال والجهد والسياسة الدبلوماسية نحتاج لكى نحصل على قرض من البنك الدولى لتدعيم الدقيق والرغيف الأبيض والجاتوه والفطائر التى يشتريها من لا يحتاج إلى مساعدة الدولة. فكأن الدولة تساعد الذى يلقى الرغيف للكلاب والجواميس، وتساعد الذى يستطيع أن يعيش ويموت دون مساعدة من الدولة!.

والممكن هو أن نقول للناس: إن عاداتنا فى الطعام عموما خاطئة. فنحن نطبخ ونشترى ونقدم لأنفسنا من الطعام أكثر مما نحتاج، فإذا زارنا ضيف واحد، قدمنا له من الطعام ما يكفى لعشرة. وإذا جاء شهر رمضان المعظم، شهر الصيام، استهلكنا من الدقيق والسكر والسمن والزيت والكهرباء والبوتاجاز أضعاف ما نستهلكه فى أى شهر آخر والاسم شهر الصيام.

وقد مررنا بأزمات مالية. ولا نزال، ولم نتوقف عن استيراد قمر الدين والدقيق الاسترالى والجوز واللوز والبندق - لماذا؟.

لأن لدى الحكومات احساسا بأننا أخطأنا وأجرمنا. ولذلك يجب أن تعتذر الحكومات للشعب.. يجب أن ترضيه.. أن تسترضيه أن تبوس رأسه وتقول له: حقك علينا.

وهذه المستوردات الفاخرة الكمالية دليل على ذلك!

وهكذا يتأكد لدينا معنى المثل الذى يقول: اطعم الفم، تستح العين.. مع أنه لا داعى لأن تستحى العين: فالعين يجب أن ترى ما نعانيه! فإن كنا قد انهزمنا فى الحروب، فقد انهزمت دول أعظم وأغنى.. والحرب كالرياضة: هدف هنا وهدف هناك.. ومن يخسر الدورى قد يكسب الكأس ومن يخسرها فليتدرب للعام القادم.. وإذا كنا أخطأنا فى الحرب وفى إدارة الحرب فى ٤٨ و ٥٦ و ٦٧ و ٦٩ و ٧٠ فلنناقش ذلك..

ونحن عندما ناقشنا ذلك أنتصرنا فى ٧٣. ومن نتائج انتصار ٧٣ انسحاب إسرائيل من الأرض المصرية، وهو ما لم تفعله إسرائيل فى أية جبهة أخرى، فلا انسحبت إسرائيل من القدس ولا الجولان ولا الضفة ولا القطاع ولا جنوب لبنان..

ولكن اعتدنا أن نلف وندور ونغالط ولا نواجه أنفسنا. إنما أن نكذب عليها ونتفنن فى ذلك. ومن مظاهر الكذب: أن نبدو أغنياء ونحن فقراء.. أن نمسك أعصابنا وهى محترقة.. وأن نشترى الكعك ونحن لا نجد الرغيف. وأن نشترى «المكسرات» ونحن نفتقر إلى الملح.. لقد كتبت أنا وغيرى نطالب بمنع هذه الكماليات منذ سنة ١٩٦٧. ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يجعل من صرخاتنا هذه قرارا، فهل معقول أن مصر وهى دولة فقيرة تقوم بتدعيم السجائر! مع أن جميع دول العالم إذا أرادت أن تملأ خزانتها بالمال فرضت مزيدا من الضرائب على السجائر والكحول والبنزين والكهرباء والخدمات - كل الدول تفعل ذلك.

فهل نحن غارقون فى السياسة الخارجية، والقضايا الخارجية ومشاكل العالم كله، لكى نخفى عن عيوننا مشاكلنا الداخلية.. يبدو أن ذلك صحيح. ويكفى أن تقرأ الصحف وتسمع نشرات الأخبار لتجد: أن سيارة بها أربعون شخصا وقعت فى بلباو؟! وقد أصيب السائق بجراح فى وجهه وفى أذنه اليسرى ونقل الباقون إلى المستشفى بجراح متفاوتة الخطورة وتوفى اثنان.

أين هى بلباو هذه ومن يعرفها؟ هل لنا جالية مصرية هناك؟. هل هذه السيارة تضم الحاصلين على جائزة نوبل فى كل العلوم اجتمعوا ليحلوا مشكلة الطاقة والرغيف؟ هل هذا حادث يهم أحدا فى مصر؟ وماذا لو ماتوا ابتعلت الأرض مدينة بلباو.. والمنطقة كلها؟ إيه يعنى!.

ولكن ما نزال مستمرين فى عرض كل ما هو خارجى بحفاوة شديدة.. لأن المعنى الهام هو أن نشغل الناس عن مشاكلهم.. وأن نقول له: من شاف بلاوى الغير، هانت عليه بلوته - شاف يشوف عربية صحيحة.

ولكن لابد أن أرى بلوتى وبعد ذلك أقارن بينها وبين بلاوى الغير!. ومع ذلك فإن بلاوى الغير لا تهون بلوتى. فلو قيل لى مثلا إن الأمطار قد أغرقت مائة ألف هندى وماتوا جميعا. وأنا أقف أمام الحنفية فلا ينزل الماء.. وأنا عطشان. فإن موت

الناس غرقا فى الماء، لا يخفف من شعورى بالعطش.. فأنا عطشان وأريد أن أشرب. ولا أفهم كيف أن بيتى يقع على النيل ثم إننى لا أجد كوبا من الماء.. ولا أفهم كيف أننى أرى النيل بعينى، فإذا أردت أن أشرب ماء اشتريت زجاجة من المياه «المعدنية» المستوردة من لبنان، ذلك البلد الذى يحارب من عشر سنوات.. يحارب ويموت ويحارب من أجل أن يقدم ماء معدنيا لشعب وادى النيل؟! وهكذا لا تكون مصر هبة النيل، وإنما هبة الكلب - والكلب أحد أنهار لبنان!.

فما هو المطلوب من الشعب المصرى؟ مطلوب منه أن يقدر الموقف. وأن يعرف أننا ننفق الكثير جدا على الكماليات. وأن الضروريات يجب أن نجعلها ضرورية. فالرغيف ضرورى. فقط الرغيف. وليس الكعك والغريبة والجاتوه.. وأن الدولة إذا اقترضت فلكى يتمكن الناس من الحصول على ما هو ضرورى فإذا كان لدى أحد وفرة أو فضل من مال، فليشتر ما يعجبه من مصر أو من خارجها. ولكن توفير الضرورى هذا واجب الدولة وحق الأغلبية الفقيرة..

فالبنك الدولى الذى يعطينا القروض والذى هو منعقد هذه الأيام، يرى أن دول العالم الثالث تسئ استخدام القروض - أى أنها جاهلة. أو أنها تنافق شعوبها.. ولذلك يجب أن تعرف كيف تنفق هذه القروض.. وأن تمسك يدها عن دعم كل ما ليس ضروريا.. وإلا ارتبك اقتصادها وأدى إلى ارتباك سياستها، وإلى رفض البنوك العالمية أن تقدم لها أية مساعدة.. والباقى يسهل التنبؤ به..

فكيف ذلك؟..

يجب أن ننبه الشعب إلى ما نحن فيه. وإلى أن أسعار السلع فى مصر ترتفع بصورة مطردة وفى العالم كله .. وإلى أننا فى حاجة إلى أن نعمل، فإذا عملنا استطعنا أن نواجه حاجاتنا.. وإلى أن نعمل أكثر لكى نصدر ما فاض عنا. وهذا الفائض نحصل به على عملات، هذه للعملات نستورد بها سلعا ضرورية.. ومن هذا التوازن المستمر بين الذى نبيعه وبين الذى نشتريه تنخفض الأسعار أو لا ترتفع.. أو يكون ارتفاعها ضئيلا.. وكل ذلك يحتاج إلى وقت طويل. ولكن يجب أن نقول وأن نشرح وأن نصر على ذلك وأن نمسك الكرباج نلهب به ظهور المتفرجين والمتسكعين فى الدواوين وفى المصانع والحقول.. وإلا فلا أمل فى علاج شئ.. وإذا كان «التدليل»

سياسة الحكومات المصرية المتوالية، فيجب ألا نعتب على أحد أن يرقص ويغنى ويحشش ويقول وهو فى الرحل: أنا مبسوط كده!.

لقد عايشت تجربة صغيرة فى دول عظمى هى بريطانيا. منذ سنوات قررت الحكومة رفع سعر السكر ورفع سعر البيرة! ولكنها سوف تعرض الأمر على مجلس العموم طبعا.. ثم تركت هذا القرار لكى يناقشه الناس فى كل وسائل الاعلام، وظهر على الشاشة وزراء سابقون وحاليون ورؤساء شركات وربات بيوت. وكلهم يتساءلون: لماذا رفع الأسعار؟ ما هى وجهة النظر الدولة؟ ولماذا تفعل ذلك الحكومات السابقة؟..

ولأن هذه القضية كانت تناقش ليلا ونهارا، فقد ظننا أن البلد يغلى.. وأن الزحام فى الشوارع ليس إلا مظاهرات صامته ضد الحكومة. وأن الناس فى المطاعم والمقاهى سوف يخطفون قوالب السكر من فوق الترابيزات ويضعونها فى جيوبهم، وسوف يتزاحمون على السوبر ماركت لشراء السكر وتخزينه.

حدث ذلك الفزع وأخفى الناس السكر فى جيوبهم وتزاحموا على السوبر ماركت - إنهم المصريون فقط وبحكم العادة، أما الإنجليز فلم يفعلوا شيئا من ذلك فالسكر سوف يكون موجودا دائما.. وكل ما هناك: هو أن ربات البيوت سوف يراجعن ميزانية البيت ويقتصدن فى استهلاك السكر والبيرة!.

وانعقد مجلس العموم ووافق على رفع سعر السكر. لأن الوارد من السكر قليل. وهو قليل لأن الحروب فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية قد أهلكت حقول قصب السكر. ولأن نزول الصقيع فى ذلك العام فى اوروبا قد أفسد الكثير من حقول البنجر والشعير. انتهى!.

وفى اليابان لاحظت الحكومة أن الشعب يسرف فى شرب البيرة. وأن العامل يبدو عليه بعض الخمول فى الصباح. ولم تستطع الحكومة أن تمنع شرب الخمور. ولن تفعل. وكل ما فعلته: قرار بإغلاق الحانات والبارات أبوابها فى الساعة الحادية عشرة مساء بدلا من الثانية عشرة. وكذلك حركة المترو ليلا.. وهكذا يجد المواطن نفسه مضطرا إلى أن يترك البار مبكرا ليلحق بالمترو وينام ست ساعات قبل أن يذهب إلى المصنع. ولكن هذا القرار - أيضا - لم يسقط على الناس من السماء. إنما أعلنته الحكومة وناقشته الصحف والتليفزيون ونقابات العمال ثم عرضوه على البرلمان، وكان

على أعناق الجميع سيف اسمه: التفوق المستمر فى المنافسة العالمية..!

وفى ألمانيا فى العام الماضى حضرت المناقشات الحادة من أجل توفير الأيدى العاملة - الأجنبية بصفة خاصة، السبب؟.. هو أن الضغط اليابانى على الأسواق الألمانية عنيف جدا. فالسلع اليابانية أصغر وأرخص وأوفر. وهذا ما لم تستطعه المصانع الألمانية. ولذلك لم يشتر الألمان منتجاتهم المحلية.

وكان لابد للمصانع الألمانية أن تقلل ساعات العمل توفيرا للنفقات. ولذلك فلابد من أن تطرد مئات الألوف من العمال. ولم تستطع أن تفعل ذلك مع الألمان. أما الضحية فهم الأجانب وهم العمود الأساسى لكل الصناعات اليدوية فى السوق الأوروبية المشتركة. وفى مقدمتهم الأتراك فى ألمانيا والمغاربة! فى فرنسا والسود والصفر فى بريطانيا!..

ومادامت هذه القرارات لا تسقط على الناس كالصاعقة، دون أن يهيأوا لها، ومادام الناس يناقشونها ويعرفون خطورة الأزمات الاقتصادية التى من الممكن أن تحرم الناس من كل الأبهة التى يعيشون فيها، فلا خوف.. إنما سوف يتقبل الناس أشد القيود بعقول قد تنورت ونفوس قد استراحت..

وتجربة «الرغيف» أخيرا فى مصر قد سبقتها مناقشات مستفيضة عن أعباء الدعم على مصر، واعتراضات البنوك الدولية على أسلوب مصر فى إنفاق الدعم، وكذلك كل دول العالم الثالث.

ولذلك فعندما ارتفع سعر الرغيف وتغير شكله ووزنه كان معظم الناس قد استعد لذلك. وتوقعه أيضا. ولابد أن تكون عند الناس مخاوف أن ترتفع ضروريات أخرى. وهذا طبيعى. ويحتم علينا أن نمضى فى «تنوير» الناس..

مثلا: الحملة التى أثارها التليفزيون على تعاطى المخدرات بين تلامذة المدارس والجامعات واستياء الناس وأسفهم على ذلك، هى أحسن مقدمة لأن تقوم وزارة الصحة بإصدار قرار بمنع بيع المهدئات والمسكنات والمضادات الحيوية إلا بروشتة طبيب - كل دول العالم فعل ذلك.

وأذكر أننى كنت فى أمريكا فى حاجة إلى زجاجة قطرة. ولم أستطع شراءها،

ولم يشفع عند البائعة أننا جئنا نوقع اتفاقية السلام مع إسرائيل، وأن هذا الحدث قد هز العالم كله. هى قالت ذلك أيضا. ولكن القانون يجب ألا يهتز. وطلبت من د.محمد عطية طبيب الرئيس أن يساعدنى، فذهب معى وقدم جواز سفره ورجونا البائعة. وترددت ثم أعطتنى زجاجة قطرة واحدة!.

وفى الدول الاسكندنافية لا يبيعون الاسبرين إلا بروشتة طبيب!.

ولذلك يجب أن نمضى فى الشرح والعرض والمناقشة وإقناع الشعب بخطورة الحالة الاقتصادية فى مصر.. وأننا نعانى من قلة الإنتاج ومن الإسراف فى الاستهلاك ومن «سفاهة» الدعم. وأنه قد جاء الوقت لكى نفيق من هذه الغيبوبة.. وإلا انهارت مصر فوقنا وتحتنا!..

وقد استقبل الناس ارتفاع سعر الرغيف والتغيير فى ملامحه، بشئ من الرضا. ليس كل الرضا. لا بأس. ويجب أن نحيى الناس. وأن نرى فى ذلك دليلا على حسن التقدير والفهم والمشاركة فى حمل المسئولية الخطيرة.. فالدولة عندها ضروريات وأولويات كثيرة: فى بناء المصانع وإصلاح الأرض وبناء المساكن وتنقية المياه وصرف المجارى وفى التعليم وفى توفير بقية الضروريات و «الكماليات» للشعب حتى لا تتصدع «التركيبة» الاجتماعية فى مصر.. وحتى لا يهجر الفلاح الحقل إلى التسكع فى المدن المصرية أو المدن العربية.

وإذا نظرنا إلى زرائب الفلاحين ووجدنا فيها تليفزيونا ملونا، فالعيب ليس فى الإنتاج المتفوق لصناعة التليفزيون فى اليابان، ولا فى برامج التليفزيون المصرى، ولا فى قدرة الفلاح على أن يشتريه ويتفرج عليه حتى ساعة متأخرة من الليل. ويصحو فى ساعة متأخرة من الصباح، إنما العيب هو أن أهم القضايا التى نناقشها فى الصحف والمجلات هى قضايا تليفزيونية.. فنحن أيضا جالسون قابعون نائمون حالمون أمام التليفزيون. فإذا صحونا كتبنا نقول: لقد رأينا أمس فيما يرى النائم أنهم فى أمريكا يستعدون لإقامة بيوت تحت سطح القمر.. وأنهم فى روسيا سوف يسبقونهم إلى إقامة مزارع.. وهم فى اليابان قد اخترعوا تليفزيونا فى حجم الساعة وثلاجة فى حجم الكف.. وأنهم وأنهم وأننا.

فمن الطبيعى أن يصدقنا الناس، ويسارعوا ليروا ما نرى، وليستمتعوا مباشرة

بما نستمتع.. فإذا كان لوم، فعلينا وليس عليهم، ثم إن «الجو» العام فى مصر يسوده هذا التراخى والاعتماد التام على الدولة وعلى براعتها وجرأتها فى طلب القروض وتبديدها - ارضاء للشعب!.

ويوم خرجت الجماهير فى الشوارع تحطم وتحرق وتهتف.. ويوم وقف رجال الأمن مع الجماهير أيضا، كانوا على حق. وكانت الدولة على خطأ. ولم يكن خطأ الدولة أنها رفعت الأسعار، فذلك حق.. ولكن خطأ الدولة أنها لم تهيئ الناس لذلك.. أنها لم تشرح.. لم ترشد، لم تقدم الأعذار المقبولة للناس. فقد ظهر عدد من الخبراء الاقتصاديين يتحدثون لغة غير مفهومة، وهى لغة صحيحة.. ولكن أحدا من الملايين لم يفهم. فكانت اللغة تعاليا على الناس، وكان القرار إهانة للناس.. تماما كما يلتف الأطباء حول المريض ويتكلمون بالإنجليزية مستخدمين مصطلحات لاتينية ويونانية.. ويخرجون دون أن يشرحوا لأهل المريض شيئا، لأنهم لا يرون ذلك ضروريا.. فأهل المريض لا يفهمون فى الطب. فإذا أمسك أهل المريض هؤلاء الأطباء ضربوهم، فهم معذورون فى ذلك..

لأن من حق أهل المريض أن يعرفوا، وهم من أتوا بالأطباء من أجل ذلك. ولكن أن يجئ الأطباء ويتجاهلوا المريض وأهله، بأن يتناقشوا معا وبلغة غير مفهومة، ولا يجدون من الضرورى أن يقولوا شيئا لأحد، فهذا هو الاستخفاف والتعالى والسخف أيضا.

ولذلك يجب أن نمضى فى تجربة رفع سعر الرغيف والسجائر وغيرها مما يخفف عن الدولة أعباء الدعم، ومما يشرك الشعب فى تحمل هذه الجبال المالية التى تخنق أنفاس الخطط التى وضعتها الدولة لمستقبل مصر..

فليكن أى قرار، ولكن يجب أن يسبقه التفسير والشرح والأعذار وتجارب الشعوب الأخرى. وسوف نجد أننا على الطريق الصحيح. وإن كنا قد تأخرنا كثيرا جدا فى الاتجاه إليه..

والرغيف هو البداية الضرورية والصحيحة أيضا!!. ■

فك الاشتباك
على الجبهة اللبنانية !

هل اتفقت سوريا وإسرائيل على تصعيد العمليات الحربية، تمهيدا لهدوئها المؤقت؟

كأنما أرادت الدولتان أن تؤكدا: أنه لا تفاوض عن خوف، ولا خوف من التفاوض، وقد تفاوضتا أولا عن طريق هولندا، ثم تفاوضتا مع المبعوث الأمريكى السيد فيليب حبيب. وإذا كانت مهمة السيد حبيب منذ سنوات قد فشلت، فإنه هذه المرة يتفادى ذلك قدر استطاعته. فهو لم يزعم لنفسه أنه كيسنجر صاحب عصا موسى، التى ضرب بها بحر الدم والدموع، فانفتح له طريق بين العواصم العربية. إنما السيد حبيب أمريكى عربى الأصل جاء يستمع ويتأمل. فليست لديه أفكار «سابقة التجهيز». إنما «مشروع» من الفسيفساء، يضع الفكرة إلى جوار الأخرى، لعله يهتدى فى النهاية إلى شئ ترتضيه الأطراف. وقد ارتضت الأطراف وقف إطلاق النار..

ثم تقدم السيد حبيب بطلب «فك الاشتباك» على الجبهة اللبنانية، أى على الجبهة الضحية. فتنسحب القوات السورية من زحلة، وكذلك الكتائب المسيحية. على أن يتقدم الجيش اللبنانى، وهو القوة الشرعية - التى لم تكن لها قوة وإن كانت لها شرعية. فإذا حدث ذلك توقف القتال بين السوريين والمسيحيين اللبنانيين. ولم يعد

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٥/٢٤

هناك مبرر لأن ترتاد طائرات الاستطلاع الإسرائيلية سماء لبنان. فإذا حدث ذلك أيضا تراجعت قواعد الصواريخ من وادى البقاع اللبنانى إلى داخل حدودها - انتهى ما يمكن تسميته بالمشروع الأمريكى. وإن كان السيد حبيب لم يشأ أن يعلق على ما تنشره الصحف، أو تذيعه الميكروفونات . فقد تفادى الموقف الملتهب بابتسامة فاترة مع هذا التفسير: أحرك شفتى ولا أقول شيئا، إننى أعيد لكم عهد السينما الصامتة!.

وإذا كانت الأصوات العربية قد تعالت فى كل مكان تؤيد أو تعارض، أو تدعو إلى جمع «الشمل» و «التضامن» و «القمة» و«الصف» العربى فليس فى ذلك جديد يلفت العين أو الأذن. وعلينا منذ هذه اللحظة أن نستمع إلى ما يقال فى داخل لبنان نفسها. وما أكثر هذه الضوضاء الوطنية فى قرى ودروب وكهوف وحانات وأسواق وبنوك لبنان.

وبينما نجد السيد وليد جنبلاط رئيس الحركة الوطنية يطلب بقاء قوات الردع السورية، حتى يصبح الجيش اللبنانى قادرا على التمركز وعلى الفعالية، فإننا نجد من يطالب ببقاء القوات الإسرائيلية، حماية للأقلية المسيحية التى هى أقرب ما تكون إلى الأقلية اليهودية فى العالم كله.. ونجد أيضا جماعة «الأمل» فى احتفالها بمولد على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قرية «الحسينية» تنادى ببقاء القوات السورية ضمانا للأمان والإيمان.

ونجد أيضا بعض هواة السياسة دعاة الموت يطالبون: بالفناء تعذيبا للضمير العالمى كله؟!.. إن هؤلاء قد تجاوزوا بهذه السلبية ما كان يفعله رهبان فيتنام عندما أحرقوا أنفسهم احتجاجا على الحرب، أو ما كان يفعله الأمريكان من تعاطى المخدرات وإهدار طاقاتهم البشرية، حتى لا يذهبوا إلى فيتنام، أو ما يفعله الانفصاليون فى ايرلندا بإضرابهم عن الطعام حتى الموت.. إن هؤلاء اللبنانيين يريدون للشعب أن يموت لعل ضمير العالم أن يتحرك - إنهم لا يفهمون الكثير عن شعبهم الذى هو صلابة أشجار الأرز، ولا يعرفون شيئا عن ضمير العالم الذى اعتاد أن يتوجع حتى فقد الإحساس بذلك!.

ولكن يجب أن نلتفت إلى الشعب اللبنانى والجيش اللبنانى.. والرئيس اللبنانى الذى اختار الحياد أسلوبا فى تشخيص وعلاج أزمة بلاده - فهو لا يقول: لا، ولا

يقول: نعم!

وإذا كان السيد مناحم بيجين قد كسب بعض الأرقام فى استفتاءات الرأى العام بسبب إسقاطه لطائرتين سوريتين، فإن الذى كسبه قد خسره عندما اسقط السوريون طائرة استطلاع إسرائيلية.. وقد تظاهر الشعب الإسرائيلى ضد السيد بيجين خوفا من أن تكون حرب جديدة وخوفا من أن يكون قد قرر ذلك لكى يكسب الانتخابات القادمة.. ولما أعلن السيد بيجين أنه كان قد قرر ضرب قواعد الصواريخ السورية فى نهاية الشهر الماضى. فزع العالم كله مما سوف يحدث بعد ذلك. وتسابقت الرسائل الشخصية إلى بيجين أن يرفع يده عن الزناد، وأن يكف عن مساعدة المسيحيين على الانفصال وعلى القتال. وسارع الأمريكان يطلبون إليه أن يمسك أعصابه.

وتلقى السيد بيجين رسالة من الرئيس السادات حملها السفير سعد مرتضى. الرسالة من ثلاث صفحات. يطلب فيها الرئيس السادات إليه أن يتوقف عن تصعيد العمليات الحربية. فالتصعيد لن يفيد أحدا. ولا يساعد على تحقيق السلام فى الشرق الأوسط. وإن لم يكن ذلك إفسادا للجو النفسى فى العالم العربى الآن. فسوف يؤدى إلى ذلك.

وفى رسالة الرئيس السادات إشارات إلى أن حديثا طويلا قد دار فى مؤتمر كامب دافيد.

وقد أبدى الرئيس السادات رأيه بصراحة فى زعماء لبنان وفى كميل شمعون، ذلك العميل لكل القوى والذى لن يدخل مصر مطلقا.. فليس شخصا واحدا. وإنما هو طراز من الخونة لبلادهم.. وأعلن الرئيس السادات أيضا رأيه فى الرائد سعد حداد عميل إسرائيل. وأنه لا يوافق مطلقا على قيام الدولة المسيحية التى اقتطعتها إسرائيل من لبنان. ولا يوافق مطلقا لا على الوجود الإسرائيلى فى لبنان ولا على الوجود السورى..

وفى نفس الوقت تمنينا أن يكون للسعودية دور إيجابى.. فكأن قرارها بوقف الدعم عن قوات الردع السورية، لعل ذلك يؤدى إلى وقف اطلاق النار. ولكن قبل أن يصل السيد فيليب حبيب إلى الرياض أصدرت السعودية بيانا تعلن فيه وقوفها إلى جانب سوريا ولبنان ضد إسرائيل. وأنها تساند القوة الشرعية اللبنانية وقوات الردع

التى هى «تحت إمرة السلطة الشرعية ومسئوليتها فى أدائها للدور القومى ووحدة أراضى لبنان والوقوف ضد الصهيونية».

أما أن السعودية تؤيد سوريا ولبنان ضد إسرائيل فطبيعى ومنطقى. أما تأييدها للقوة الشرعية التى تحرك قوات الردع ضد إسرائيل، فلا هو معقول ولا هو منطقى. فقد غابت الحكومة فى لبنان منذ وقت طويل. وتعددت الحكومات والرياسات بتعدد القبائل اللبنانية التى زادت قبيلتين فى هذا الأسبوع، فأصبحت ٣٧ قبيلة حاكمة أو متحكمة فيما تبقى من لبنان!.

وفى واشنطون التقى الرئيس الأمريكى ريجان بالأمير السعودى فيصل التركى وحضر المقابلة ريتشرد ألن مستشار الأمن القومى. وقد أحس بذلك السيد بيجين. فأعلن تقديره للدور السعودى فى تبصير سوريا بخطورة الموقف على الحدود اللبنانية الإسرائيلية؟!

وبالقرب من شواطئ لبنان تقاربت سفن الاسطولين السوفيتى والأمريكى. فجاءت حاملة الجنود السوفيتية «موسكو».. وكذلك حاملة الجنود الأمريكية «فورستال».. والبارجة «الاستقلال» جاءت عبر قناة السويس.. لماذا؟ لنفس السبب الذى أعلنه الرئيس جونسون للسوفيت: إن تذهبوا إلى هناك. ذهبنا، وإن تذهبوا عن هناك، ذهبنا أيضا!.

وفى نفس الوقت إرتفعت نبرة الهجوم على السوفيت فى الخطاب الذى وجهه الرئيس ريجان إلى طلبة الجامعات، فلم تشهد أمريكا مثل هذا العنف منذ أيام السناتور ماكارثى أعدى أعداء الشيوعية فى أمريكا.

ولكن يقلل من خطورة ما قاله الرئيس ريجان إن الإدارة الأمريكية لا تضع مشكلة الشرق الأوسط بين أولويات القضايا الدولية الملتهبة ولا حتى قضية التسلل الشيوعى إلى إفريقيا والشرق الأوسط..

وهذا ما قصده د. هنرى كيسنجر أول أمس فى حديثه إلى النادى الديبلوماسى فى جنيف. قال: إن روسيا تعانى من شيخوخة القيادة، بينما أمريكا تعانى من طيش القيادة. ولذلك فروسيا لا تعرف كيف تتخلص من قادتها الشيوخ أصحاب النظريات

التقليدية فى مواجهة العالم الغربى، كما أن قادة أمريكا لا يشعرون بخطورة السوفيت. وهذا واضح من جهلهم بما حدث تماما فى انجولا سنة ١٩٧٠. فالروس قد اعتادوا ألا يحاربوا خارج بلادهم، ولكنهم فى السنوات القادمة سوف يفعلون، ولابد أن يفعلوا ذلك بسبب تناقص الطاقة. وليس غريبا أن يضعوا أنوفهم فى الخليج. وإذا كان الألف ميل يبدأ بخطوة. فإن الاحتلال يبدأ بإدخال الأنف، وبعده بقية الجسم.. فإذا دخل الجسم كله أحس الأمريكان أن جسما غريبا قد دخل فى أنجولا وفى أفغانستان إلخ..

فمتى تنطلق الصواريخ مرة أخرى من وإلى سوريا؟ إن السوفيت وراء سوريا، كما أن الأمريكان وراء إسرائيل.

ويوم اتفق الأمريكان مع السوريين على «الخط الأحمر» كان معنى هذا الاتفاق أن تظل قبضة سوريا حول عنق المنظمات الفلسطينية، فلا تضرب إسرائيل لا من سوريا ولا من لبنان.. وقد استطاعت سوريا أن تفى بهذا الوعد. بل أضافت إليه أيضا ضرب الفلسطينيين!.

أما السوفيت فسوف يؤيدون بقاء الرئيس الأسد، أى بقاءهم فى سوريا وفى لبنان وعلى حدود إسرائيل وفى قلب العالم العربى.. طرفا قويا - طرفا فى حرب اليوم، وسلام الغد..

وعلى الرغم من التغيرات فى الخطوط القتالية والسياسية والديبلوماسية وتعدد الوجوه، فإن شيئا واحدا ثابتا تماما. هو أسلوب التفاوض السورى مع إسرائيل.. إنه هو هو. لم يتغير منذ اتفاقية الهدنة فى جزيرة رودس سنة ١٩٤٩. فقد كان سكرتير الأمم المتحدة رالف بانش يقفز على السلالم طالعا نازلا ينقل وجهات النظر بين مصر وإسرائيل.

واستنكرت سوريا هذه الهدنة والاتفاق عليها. وبعد ذلك قفزت سوريا لا فوق السلالم، إنما فوق رالف بانش، واتفقت مع إسرائيل مباشرة! وحدث ذلك مرة أخرى فى لقاءات جنيف سنة ١٩٧٣. ورفضت سوريا أن تجلس فى اللجنة العسكرية مع إسرائيل. وجاءت إلى اللجنة المصرية لتتفق مع إسرائيل - أى حتى لا يقال إن هناك لجنة عسكرية سورية!.

ولو كان الرئيس الأسد قد أعلن استنكاره لخطوة الرئيس السادات من القاهرة إلى القدس، ووافقه على السلام، أو لو كان استنكر الطريقة ووافق على الطريق، لتغير وجه الشرق الأوسط.. ففى مباحثات كامب دافيد أعلن الرئيس الأمريكى كارتر استعداده التام لبحث الجولان وسيناء فى ورقة واحدة. بل إن الرئيس السادات رأى أن قضية الجولان كانت أسهل من قضية سيناء. ولكن الجولان واحدة من أعجب وأغرب ألغاز السياسة السورية - وبطل هذا اللغز اللواء حافظ الأسد وزير الدفاع سنة ١٩٦٧، ورئيس الجمهورية سنة ١٩٧٣ وما بعدها..

فهل تغير سوريا هذا الأسلوب: تتعامل مع إسرائيل سرا وتستنكر ذلك علنا؟ إنها هذه المرة قد تفاوضت مع إسرائيل كثيرا، وانكرت ذلك أيضا.

فهل تنسحب الصواريخ السورية، ويتوقف الاستطلاع الإسرائيلى، ويظهر الجيش اللبنانى فى شوارع وسفوح لبنان؟ إن الشعب اللبنانى قد استقبل قوة لبنانية «٢٥ . جنديا» بالطبل والزمر.. والتقطوا لهم صورا بالألوان. فقد اختفى هذا الجيش فى سحب حرب السنوات السبع، ونحن لا نعرف كم من الوقت يمضى قبل أن يخلع هؤلاء الجنود ملابسهم الرسمية ويظهروا فى جلاليب القبضايات ويرقصوا الدبكة السورية ويقولوا مع الشاعر القديم: اليوم خمر وغدا أمر - ولم تكن نكبة لبنان إلا لأنهم لا يفرقون كثيرا بين الأمر الذى هو خمر. وبين الخمر التى هى أمر!.

أما وادى البقاع الأخضر العشب، الباسق الأشجار. الغزير العناقيد، اللامع الكئوس والصواريخ، فسوف يختلط فيه الكباء والغناء، والأدمان والدخان، والصواريخ والزغاريد.. ولا نعرف من الذى يبكى على من، أو يشمت فى من، أو سعيد بمن..

إن القائد الروسى بليخر عندما ذهب إلى لندن سنة ١٨١٤ أطلق عبارة غريبة، دلت عليه أكثر مما دلت على العاصمة البريطانية، قال : ما أروع أن «تسرق» هذه المدنية!.

وما أروع أن «تحرق» البقاع - أى أنه شئ رائع للأعداء، مروع للأبرياء!.

وليست أزمة الصواريخ السورية مثل أزمة الصواريخ الكوبية فقد كانت صواريخ كوبا موجهة إلى أمريكا. وكان على رأس جون كنيدى شابا قويا. فعندما نفخ فى

الصواريخ سقط الرفيق خروتشيف من عرش الكرملين.. وليس «العدوان الثنائى». على لبنان، السورى والإسرائيلى، مثل العدوان الثلاثى على مصر. لقد كان على رأس أمريكا بطل الحرب ايزنهاور. فنفخ فى قوات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل فانسحبت فورا!.

وليس الرئيس ريجان فى شباب كنيدى ولا بطولة ايزنهاور. ولذلك فلا يزال الموقف على الحدود اللبنانية مؤقت الهدوء.. أى أن المدافع تبتلع ريقها فقط، لتقذف اللهب بعد ذلك..

فلا يبقى إلا ما نعرفه جميعا، ويفعله السوريون سرا، ويرفضونه علنا: أن يتفاوضوا مع إسرائيل. وهى عبارة قصيرة جربنا كيف نرفضها ثلاثين عاما. وكان رفضنا عسكريا دمويا.. والآن تعلمنا كيف نرفض وكيف نقبل، وكيف نتفق ونختلف ثم نتفق، وهو ما سوف تفعله سوريا - ولكن بعد فوات الأوان!. ■

لبنان : الذى كان..!

[١]

قال أمير الشعراء أحمد شوقى يتغنى بجمال لبنان :

السحر من سود العيون لقيته
والبابلى بلحظهن سقيته
الفاترات وما فترن رماية
بمسدد بين الضلوع مبيته
الناعسات الموقظاتى للهوى
المغريات به وكنت سليته
الشارعات الهدب أمثال القنا
يحيى الطعين بنظرة ويميته
الناسجات على سواء سطوره
سقما على منوالهن كسيته
السلسبيل من الجداول ورده
والآس من خضر الخمائل قوته

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٦/٢.

بلـغ السهـا بشموســه وبـدوره
لبنـان وانتظـم المشـارق صيتـه
مـن كـل عالى القدر من أعلامه
تتهلـل الفصحـى إذا سميتـه
حامى الحقيقـة، لا القديـم يئوده
حفظا، ولا طلـب الجديـد يفوتـه
لبنـان والخلـد، اختـراع الله لـم
يوسم بأزيـن منهمـا ملكوتـه
هـو ذروة فـى الحسـن غيـر مرومة
وذرا البراعـة والحجـا بيـروتـه
وكـأن أيـام الشبـاب ربوعـه
وكأن أحـلام الكعـاب بيوتـه
وكـأن أثـداء النواهـد تينـه
وكـأن أقـراط الولائـد توتـه

وما أروع ما قاله أهل لبنان فى بلادهم الجميلة. وما أكثر ما غنوا ورقصوا. وأسعدوا الأمة العربية. فقد كان لبنان متعة العين، وراحة الأذن، وجنة القلب، وسعادة العقل.. وكان لبنان لؤلؤة التاج العربى، وكان مصدر التجديد فى الفن والأدب. ومن لبنان جاءوا إلى مصر بالصحيفة والمطبعة والمسرح والسينما والقواميس.

ويوم أعلن د. طه حسين أن مركز الإشعاع الفكرى قد انتقل من القاهرة إلى بيروت، أحزننا على أنفسنا.

ولكن بقى الإشعاع عربيا.

[٢]

وعاش لبنان أكثر من مائة عام لا يعرف الدماء التى عرفها سنة ١٩٥٨ عندما

نزلت القوات الأمريكية تلبية لاستغاثة رئيس الجمهورية كميل شمعون.

صحيح أن لبنان قد عرف الخلافات بعد استقلاله مباشرة. ولكن الميثاق الوطنى أرسى عددا من القواعد: أدت إلى تثبيت الأوضاع. منعا للدماء.

واستمرارا فى الحياة الهانئة للشعب بكل فئاته وطبقاته وأحزابه ومذاهبه. فقد اتفقوا على أن يكون رئيس الجمهورية مارونيا، ورئيس الوزراء مسلما سنيا، ورئيس مجلس النواب مسلما شيعيا. وأن يكون مجلس النواب قسمة بين المسيحيين والمسلمين. ويكون المسيحيون بنسبة ٦ إلى ٥ مع أن المسلمين قد زاد عددهم على المسيحيين.

ولم يكن ذلك استقرارا وإنما كان إقرارا رسميا لخلافات حادة.. ورغم هذا الإقرار الرسمى بالخلافات، فقد استطاع الشعب اللبنانى أن يتعايش معها. ولكنها كانت مثل خلافات النغمات فى اللحن الواحد.. ولأن لبنان بلد صغير، ولأنه مفتوح الأبواب والنوافذ، ولأنه مائدة الطعام، وترابيزة القمار، وحمام السباحة، وسفينة تهريب المخدرات، فهو سريع التأثير بما يحدث حوله، وليس من الضرورى أن يكون حادثا جليلا لكى تتصدع جوانب لبنان، إنما يكفى قرار فى أى بلد عربى. أو عبارة لأى حاكم أو تهديد أو وعيد.. وإذا كان لبنان قد استقر على خلافاته، فإن أية منازعات حوله من الممكن أن تسد طرقاته، وتفسد حياته، وتوقف الفستق الأخضر فى كل فم ومشروب العراق فى كل يد..

ففى لبنان يلتقى كل شئ.. كل الألوان: السياسة الوطنية والإقليمية والعالمية. تماما كما تتسع الفنادق لكل أنواع السياح، وتتسع الخزائن لكل أنواع العملات.

فقد أصبحت بيروت كباريه السياسة العربية والدولية!

وقد شجع الرئيس شمعون على كثير من الخلافات عندما أعلن عددا من الإصلاحات التى تؤلب الشعب بعضه على بعضه. وعندما أعلن أنه سوف يغير الدستور ليمد فى رياسته سبع سنوات أخرى .. ولما عمت الفتنة الجبال والوديان. ووقف ضده حتى الزعماء المسيحيون ورجال الدين، طلب إلى الرئيس أيزنهاور أن يتدخل لإنقاذ لبنان. وكان أيزنهاور قد أعلن مبدأه المعروف بمساعدة أية دولة ضد الشيوعية.. وطلب أيزنهاور من شمعون أن يتظلم إلى الأمم المتحدة، وبعث بشكواه. ونزلت القوات الأمريكية فى يوليو ١٩٥٨. تطبيقا للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وبلغت القوات الأمريكية ١٤ ألف جندى وكان ذلك أول تدخل عسكرى أمريكى فى الشرق

الأوسط. بينما لم تتدخل أمريكا فى سنتى ٧٥ و ١٩٧٦ عندما نشبت الحرب الأهلية فى لبنان. أما الأسباب التى دفعت أمريكا إلى التدخل، فهى المد السوفيتى فى المنطقة. فقد أصبح جمال عبد الناصر بطل الأمة العربية، خاصة بعد انحسار قوات العدوان الثلاثى عن مصر، ثم إن وحدة قد تمت بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨، بناء على طلب سوريا، وفى ذلك الوقت صرخ بن جوريون من أن جمال عبد الناصر يحاصر إسرائيل: فالناصرية والشيوعية تسيران معا. خاصة أن جمال عبد الناصر قد قرر فى سنة ١٩٥٥ أن يشترى السلاح من الكتلة الشرقية. وأن أمريكا قد تخلت عنه. وفى مواجهة كل ذلك كان لبنان هو الدولة «الأوروبية» الوحيدة فى العالم العربى. التى يتزعم فيها المسيحيون الدعوة إلى الغرب والحضارة الأمريكية. بينما المسلمون يقفون ضد الغرب. وضد النفوذ الأمريكى. ويستجيبون لكل نداءات عبد الناصر الذى يقودهم إلى الشرق - هذا ما تصورته المخابرات الأمريكية. ولذلك كان لابد من مساندة لبنان فى مواجهة المد الشيوعى..

وقد عجل نزول القوات الأمريكية إلى لبنان بقيام ثورة العراق. وجاء بعد كميل شمعون الجنرال شهاب رئيسا للدولة مقبولا من الجميع وانسحبت القوات الأمريكية.

ولكن الذى أصبح واضحا فى لبنان هو التمزق السياسى والدينى والطائفى وأحس الشعب اللبنانى أنه لن يعرف الهدوء القديم والسلام الطويل. لقد فتح شمعون بطن لبنان، وفضح أسرار الفتنة الطائفية، والصراعات السياسية. وأبرز الخلافات العصبية والعائلية.. ولم يعد هناك لبنان واحد بل عشرات.. كلها تتربص استعدادا للمعركة.. ولم تكن المعركة ضد أحد. إنما كانت معركة البيت الواحد والأسرة الواحدة والدمار المشترك والخراب العام..

[٣]

وظهرت حقيقة كانت خافية على العيون، وهى أن وجود قوات احتلال فى أى بلد لا يمنعه من أن يفعل ما يشاء مادام الشعب قويا. فوجود قوات الاحتلال البريطانية فى مصر والعراق. والقوات الأمريكية فى لبنان. لم يمنع عبد الناصر.، ولا منع عبد الكريم قاسم، ولا منع القذافى. ثم إن الأساطيل الأمريكية والسوفيتية فى البحر المتوسط لم تمنع الحركات الشعبية المعادية للجميع..

وقد اشتدت الصراعات من كل لون وحجم فى لبنان سنة ١٩٧٥ وأحست سوريا بخطورة هذه التيارات المعادية لها. فتدخلت بقواتها. وكان تدخلها حلا لمشاكل داخلية فى سوريا، وتشجيعا للقوات الفلسطينية لكى تستأنف معاركها النضالية ضد إسرائيل. فالفلسطينيون قد طردتهم إسرائيل من أرضهم عندما انسحبت قوات الانتداب البريطانية سنة ١٩٤٧. واستقر الفلسطينيون فى الأردن. واحتلت إسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن سنة ١٩٦٧، واستقر ما بقى من الفلسطينيين فى الأردن نفسها. واستأنفوا الكفاح ضد الاحتلال الإسرائيلى، ولما أصبحوا دولة فى داخل الدولة. كانت مذبحة «أيلول الأسود» التى أبيد فيها الشعب الفلسطينى..

وظل الفلسطينيون متناثرين فى غابات وكهوف وجبال لبنان، حتى أعطتهم القوات السورية التى تحتل لبنان، مجالا أوسع للحركة والاستمرار فى القتال، واتخذت القوات السورية اسم «قوات الردع العربية» وكانت عربية أول الأمر. ثم أصبحت سورية تماما قوامها ثلاثون ألف جندى، وعرف لبنان الخراب والدمار والحروب الأهلية من كل لون وحجم. وكانت الجيوش التى تحارب فى لبنان أكثر من عشرين - أكثر هذه الجيوش لبنانية. إذن فلقد تعاونت سوريا والمنظمات الفلسطينية مع الجيوش اللبنانية على خراب لبنان وغابت الحكومة والإدارة. ولم تعد لبنان دولة، إنما هى رئيس بلا دولة. لها جيش يحمى بيت الرئيس، ولها بوليس يحمى الجيش. أما البلاد فليس لها أحد يحميها. والذين يحمونها يسرقون أقواتها ويتاجرون فى السلاح الذى يهدمها. وتساقط كل شئ إلا «الليرة» اللبنانية فهى تنتقل من ارتفاع إلى ارتفاع، وذلك دليل على الأموال الأجنبية الكثيرة التى تدخل البلاد ولا تخرج، وجف كل شئ فى لبنان إلا الحبر: فقد صدرت فى لبنان صحف ومجلات أنيقة كلها تهاجم مصر بأموال عربية. واختارت الأقلام اللبنانية هدفا واحدا. هو تحقيق المساواة بين مصر ولبنان: فى الهدم والدمار. ولهم العذر فى ذلك. فليس أقسى على النفس من أن يجد الإنسان نفسه بلا وطن ولا أهل ولا سكن ولا أمن - بينما أشقاء آخرون ينعمون بكل ذلك.

ولا أحد يعرف لماذا دخلت القوات السورية؟ ولماذا بقيت؟ هل تقسيم لبنان هدف؟ هل تحطيم المقاومة الفلسطينية هدف؟ هل القضاء على المسلمين من أهل السنة فى سوريا ولبنان هدف؟ أو أن تخويف بعض العرب وابتزاز أموالهم هو الهدف؟ ومات الألوف. وهاجر عشرات الألوف. وتمنى بقية أهل لبنان لو يستطيعون ترك بلادهم. فلم تعد بلادهم.

ولابد أن يتناول التاريخ فيما بعد، ما معنى أن تسكت الشعوب العربية على مذابح لبنان، على أن يقتل العربى عربيا ست سنوات - أى أن العرب أقروا مبدأ القتل. فهم لا يستنكرون القتل، إنما يستنكرون فقط أن يقتل الأجنبى عربيا. أما قتل العربى للعربى فحلال! وأوضح صورة لذلك ما فعلته سوريا فى لبنان، تحت ستار الخوف من النزعات المعادية لها. والحقيقة أن لها مطامع قديمة فى لبنان.

فما الذى بقى من لبنان الآن؟..

لم يبق شئ. فالبلاد محتلة بقوات أجنبية ووطنية. وكلها تترصد كلها. ولكن القوة المطلقة لسوريا، وهى التى تعطى للقوات الأخرى حق البقاء.. وهى التى تساعد القوات الفلسطينية التى تهاجم المستوطنات اليهودية. وتنطلق الصواريخ فى كل ومن كل الاتجاهات. والضحية : شعب لبنان..

ولم يسكت شعب لبنان على هذا الهوان والدمار. فتحول أكثره إلى فلاسفة يحلمون بمستقبل مثل ماضيهم، ولذلك تمزق لبنان مرة أخرى أحزابا وطوائف يطالبون بالوفاق الوطنى.. بالخلاص الوطنى يجمع الكلمة والصف من أجل تحرير لبنان من سوريا .من أجل أن يكون لهم حق البقاء على أرضهم. وضاق لبنان بكل ما هو عربى. وكل ما هو تضامن عربى. وتصايح الزعماء بالإنغلاق عن العرب والعروبة، والانفتاح على الغرب. فقد كفروا بالعروبة التى أباحت واستباحت كل مقدسات لبنان بغير سبب معقول..

[٤]

ولأسباب كثيرة قامت إسرائيل بغزو لبنان. وقبل ذلك كانت قد اقتطعت «حزام أمن» من جنوب لبنان. وأعطته للرائد اللبنانى سعد حداد. ولكن قوات التحرير الفلسطينية واصلت هجماتها على القرى الإسرائيلية وبمساعدة القوات السورية وموافقتها. وواصلت أيضا الإرهاب العالمى لإسرائيل فى كل العواصم العالمية. وحدث يوم ٥ يونيو أن تقدمت القوات الإسرائيلية برا وبحرا وجوا تبيد القوات الفلسطينية وحدها وقتلت الألوف وشردت مئات الألوف من الشعب الفلسطينى واللبنانى. ووقفت قواتها إلى أبعد من أربعين كيلو مترا من حدودها - أى أبعد من مدى كل الصواريخ والمدافع..

وأعلنت شروطها للانسحاب هى وغيرها من لبنان..

واتفقت مشاعر العرب حزنا على ما أصاب الشعب الفلسطينى الذى تشرد فى الأرض العربية.. تفرقت دماؤه. وتقطعت سبله، وغاب هدفه - فلا حول ولا قوة إلا بالله..

واتفق العرب على أنهم عاجزون عن فعل شئ.. وإن كانوا أكثر شعوب العالم قدرة على الكلام، وأقدر المتكلمين على مغالطة النفس وقلب الحقائق ثم تصديقها فى النهاية..

وفى مواجهة ما يحدث فى لبنان هناك أربعة فروض.. أو أربعة احتمالات ليست هى الحل، ولكن وجهات نظر قد تساعد على الحل.. أو إنها أربع أوراق على مائدة القمار السياسى فى لبنان..

أولا: أن يبقى الوضع فى لبنان على ما هو عليه. ولا أحد فى لبنان أو خارجها يوافق على هذا الرأى. ولكنه احتمال، بل هى حقيقة قائمة منذ سبع سنوات. ومن الممكن أن تبقى كذلك، بعد إضافة العنصر الإسرائيلى القوى، سنوات أخرى طويلة، فالشعب اللبنانى أضعف من أية مقاومة.. والدول العربية كذلك. والدول الأوروبية لا يعنيها ما يحدث فى لبنان فى المقام الأول. فليس لبنان إلا دولة صغيرة. وإذا كانت موت هذه الدولة الصغيرة يحل بعض المشاكل الإقليمية فيمكن التضحية بها. وإذا كان قتات لبنان يشبع بعض الأفواه الجشعة. فقد حدث ذلك كثيرا فى أماكن عديدة.. ولكن هناك خوفا من أن تنتقل عدوى لبنان إلى بلاد عربية أخرى. وبذلك يكون لبنان بؤرة فساد سياسى، وميكروب عدوى لدول تهيأت تماما لمثل هذه القلاقل..

ولذلك فليس من مصلحة أحد أن يبقى الوضع اللبنانى على ما هو عليه. فترة أطول..

ثانيا : تقسيم لبنان إلى دولة مسيحية ودولة إسلامية. ولا أحد فى لبنان أو خارجها يؤيد هذا التقسيم..

والدولة الإسلامية هى التى استقرت بها القوات الفلسطينية. ولو تحقق التقسيم فى لبنان، لأدى ذلك إلى اضطهاد المسيحيين فى البلاد العربية الأخرى.. وربما إلى طردهم فيعودون إلى لبنان أو يهاجرون.. ثم إن الدولة الإسلامية لها ميول يسارية، ومعنى ذلك أن تقوم دولة شيوعية على حدود إسرائيل. وتكون هذه الدويلة هى العربة التى يجرها حصانان قويان: أمريكا وروسيا.. يجرانها إلى الهاوية..

وأخطر من هذا كله أن يكون الدين أساسا لقيام الدولة. فلو حدث ذلك لانقلبت أوضاع كثيرة. فسوريا بها أقلية علوية تريد أن تستقل بدولتها، والشيعة أغلبية فى العراق يريدون دولتهم. والأكراد السنيون يريدون دولتهم التى يتحد فيها أكراد العراق مع أكراد سوريا.. وتنتقل العدوى إلى الأقليات فى بلاد المنطقة.

ثالثا: تمزيق لبنان.. وذلك بأن تقتطع سوريا جانبا من لبنان تعويضا لها عن هضبة الجولان التى ضمتها إسرائيل نهائيا، وتقتطع إسرائيل جنوب لبنان. وتقتطع المقاومة جنوب بيروت. ولا أحد فى داخل لبنان أو خارجها يرى هذا الرأى، أو يستريح إليه. ولكنه حقيقة قائمة تعقبها حقيقة أخرى أشد إيلاما هى أن القوات الإسرائيلية تريد القضاء نهائيا على المقاومة الفلسطينية.. فلا يكون لها نشاط فى لبنان، ولا يكون لها نشاط فى سوريا، ولم يعد لها نشاط فى الأردن. فهل هى التصفية الأخيرة لقضية الشعب الفلسطينى؟ نعم. فهذا ما تريده إسرائيل. وهذا ما سوف تعلنه الحكومة اللبنانية الجديدة.. وإلا فلن تخرج إسرائيل أو سوريا من لبنان.. وإذا وقف الشعب اللبنانى وراء حكومته الجديدة. وساعدته أمريكا وروسيا والدول العربية، من أجل أن يكون سلام فى لبنان، فلابد من أن يوافق على شروط انسحاب القوات الأجنبية من بلاده: إسرائيل وسوريا والمنظمات الفلسطينية.

فكم من الوقت يستغرق الاتفاق على هذه الشروط؟ أى كم تستغرق المفاوضات المباشرة مع إسرائيل؟..

وإذا وافق لبنان وسوريا وإسرائيل على وقف العمليات العسكرية ضد إسرائيل من أرض لبنان، فما هو مصير الجيش الفلسطينى؟ أين يذهب؟ من أين يستأنف مقاومته؟..

أو هل هو «البديل الأردنى»؟.. أى هل يستقر الشعب الفلسطينى فى الأردن، حيث هو أغلبية مطلقة، ويكون الأردن هو الوطن القومى للشعب الفلسطينى؟ وبذلك تنتهى القضية.. فلا مفاوضات للحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة.. وسوف يقبل الفلسطينيون فى إسرائيل أى وضع وأى قرار، فلم يعد هناك خوف من منظمات التحرير..

وهكذا ينتهى كل الصراع العربى، وهكذا يجد العرب أنفسهم وقد أصبحوا بلا مبرر للخلاف والنزاع..

ألا يؤدى ذلك إلى حروب عربية يتهمون فيها أنفسهم بالتخلى عن القضية.. بالتآمر على الشعب الفلسطينى، خصما من حساب الشعب اللبنانى؟ ألا يجد العرب منطلقا جديدا لخيانة كل العرب لكل العرب؟.

إن تمزيق لبنان، على هذا النحو، هو بداية لصراعات دموية فى لبنان وسوريا والأردن والعراق وإسرائيل. وهو دعوة صريحة لتدخل أمريكا وروسيا لاقتسام جديد لمناطق النزاع فى الشرق الأوسط وفى العالم كله..

إن الذى حدث أخيرا يدل على أن أمريكا هى التى كسبت فى النهاية.. فهى التى ساندت إسرائيل فى غزوها للبنان. وهى وحدها القادرة على تجنب الحرب، وهى وحدها القادرة على تصفية النزاعات السياسية بالقتال.. وهى فى نفس الوقت قادرة على حماية هذا العدوان الدموى على الشعب الفلسطينى والشعب اللبنانى أيضا. بينما روسيا لم تستطع أن تفعل شيئا. لا عجزا من روسيا القوية، ولكن لديها حسابات أخرى فى أماكن عديدة. لابد من تسويتها مع أمريكا على مهل..

رابعا: إن الخلافات السياسية فى لبنان أصبحت كثيرة. ولكن الشعب اللبنانى إذا منح الأمان والاستقرار، فإنه قادر على أن يبنى كل ما انهدم. ويكفى أن ترى ما يحدث فى بيروت كل يوم لتعرف حقيقة الصلابة اللبنانية، فأثناء الغارات الجوية يغلقون محلاتهم، وبسرعة يهربون إلى المخابئ. ولكن عند نهاية الغارات تتوزع البضائع المستوردة بين الحارات وفى الشوارع وتتفتح المحلات. والذين يترددون على بيروت يؤكدون أن لديهم أحدث ما أخرجته المصانع العالمية.. والذى يطالع صفحات المجتمع فى المجلات اللبنانية يرى الحياة الأنيقة الهادئة.. إنهم قادرون على ذلك رغم كل أنواع الدمار، إن أحد زعماء لبنان قد أعلن منذ شهرين قائلا: إننى أومن بنظرية أرشميدس.. أعطونى مكانا خارج الأرض وأنا أحرك لكم هذه الأرض..

وأكثر اللبنانيين الذين هاجروا من بلادهم فعلوا ذلك. ولكنهم يريدون أن يحققوا معجزة البناء والرفاهية.. وهم قادرون. ولو ساعدتهم الدول العربية لفعلوا ذلك. ولكى يفعلوا، يجب أن تخرج قوات الغزو والاحتلال.. وحتى إذا بقيت قوات الاحتلال فسوف يحققون ما استطاعته ألمانيا واليابان رغم الاحتلال العسكرى للدولتين..

وفى لبنان لهجة عرفتها مصر بعد نكسة ١٩٦٧: إنهم يريدون لبنان لأبنائها. فلا عرب ولا عروبة..

وهم معذورون فى ذلك، فالذى ذاقوه على أيدى العرب وباسم العروبة.. هو الموت نفسه..

فما الذى يخبئه العرب للبنان؟ وما الذى تخبئه إسرائيل للعرب؟ وما الذى تعده الدول الكبرى والعظمى لهذه المنطقة؟ كل شئ هذه المرة يبدأ من لبنان ويجب أن ينتهى فى لبنان.. بشرط أن نعطى للشعب دولارات كثيرة وأمانا أكثر!.

[٥]

أهذه هى نهاية «وعد بلفور» بقيام دولة إسرائيل واختفاء دولة فلسطين؟.أهو «الهولوكست» - أى الحريق الشامل لكل آمال وأحلام وقواميس ودواوين ومواثيق الأمة العربية؟..

أهى «التعرية الكاملة» لنا جميعا. فنحن اليوم بلا مجد ولا شرف؟..

أهذا هو سحب «للغطاء الذهبى» عن كل عملاتنا ومعاملاتنا.. فعملاتنا اليوم ورق بلا ثمن، ومعاملاتنا هباء بلا معنى؟.

أهى حالة إنعدام الوزن. فنحن جميعا بلا حجم ولا شكل؟.

أهى الأرقام كلها أصبحت صفرا؟..

أهى القيامة قامت وانتهى كل شئ إلى لا شئ..

أهو تجريد للأمة العربية من ضميرها ووخز ضميرها. فهى اليوم حرة من قيد الكلمة الشريفة. والوعد الحق، والمثل الأعلى؟.

فمن هو بلفور الجديد الذى يعد الشعب الفلسطينى بأرض على أرضه، وشعب بين شعبه.. وتاريخ هو مجده، ومستقبل هو تكرار لماضيه الحزين؟..

والآن قد حان موعد الشعر..

فليس الشعر إلا دموعا لها وزن وقافية.. وما الشعر إلا موسيقى اليأس.. وما أبياته إلا مأوى الأحلام المستحيلة.. به بدأت كلمتى وبه أنتهى.

قال شاعرنا على محمود طه عندما لجأ إلى مصر فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٤٦ الحاج أمين الحسينى هاربا من الإنجليز واليهود. قال شاعرنا يصف وعد بلفور:

محـا الله وعـدا خطـه الظلم لم يكن

سـوى حلـم من عالم الوهم قتـــال

حمتـه القنا كيمـا يكـــون حقيقـة

فكـان نـذيرا من خطــوب وأهـــوال

وفتــح بيـــن القــوم أبــواب فتنـة

تطـل بأحــداث وتومـــى بأرجــــال

أراد ليمحـــو آيـــة اللــه مثلمـــا

أراد ليمحو الليل نور الضحى العالى

ويا أرض شقى من أديمك وارجعـــى

كما كنت قبل الرسل فى ليلك الخالى

ضلالا رأوا أن يسلبوا الشرق مجـده

وما هو بالغا فى. وما هو بالـسالى

❐

ألا أيها الشادى الذى أطرب الـــورى

بحلو حديـث عــن حقـوق وآمـــال

وقـال لنا : فى عالم الغد جنـــة

غزيـرة أنهـــار وريفـــة أظـــلال

سمعنـا، خدعنـا وانتبهنا، فحسبنا

لقد ملت الأسماع قيثارك البالى

ويا أيهـا الغرب المواعـد لاتـــزد

كفى الشرق زادا مـن وعود وأقوال

شبعنا وجعنـا من خيـال منمــق

ومنـه اكتسينـــا ، ثـم عدنا. بأسمال!

فلا تندب الضعفى وتنهب حقوقـهم.

فتلك إذن كانت، شريعــة أدغــال !

أنها كذلك، فهل نعود مرة أخرى لنكون الضحية المقدسة لشريعة ليست مقدسة؟! ■

من لبنان :
من الذى خرج ومن الذى لم يخرج ؟!

متى تكون الحرب القادمة مع إسرائيل ؟

إن لم يكن أحد قد خطر له هذا السؤال، فمعنى ذلك أن الحرب ما تزال مشتعلة. وأن خروج الفلسطينيين من لبنان ليس نهايتها إنما هو الانتقال بها إلى أماكن أخرى وأشكال أخرى. لأن الدولة الفلسطينية لم تقم بعد. وقيام الدولة الفلسطينية هو حق فلسطينى وهدف عربى وأمل عالمى. وعلى ذلك فالحرب لا يمكن أن تنتهى والصراع بين إسرائيل وبقية العرب قائم. ولا أحد يعرف الآن كيف يكون الصراع. فهناك مدارس فلسطينية كثيرة لا بد أن تحصل على حقها بطريقتها. ولا بد - قبل كل ذلك - أن تثأر من إسرائيل.

وقد حاولت إسرائيل أن تقضى على المقاومة فى لبنان. وأن تبيد القيادات العسكرية والسياسية. وأن تجعل خروجها من لبنان ذليلا. ويكون هذا الذل هزيمة نفسية كاملة، وعسكرية إلا قليلا. ولم يتحقق لإسرائيل شئ من ذلك. فقد هدمت البيوت على الأبرياء من المدنيين اللبنانيين مسيحيين ومسلمين، وعلى اللاجئين الفلسطينيين وعدد قليل من المقاتلين. وكانت خسارة إسرائيل فادحة : فهى أطول حرب تكبدتها إسرائيل. وأكبر عار لحق بالشعوب اليهودية. وإذا كان اضطهاد المسيحيين لليهود قد ولد الصهيونية - أى الوطنية اليهودية. وإذا كانت النازية قد عجلت بقيام الدولة

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٨/٢٢

اليهودية، فإن ما فعلته إسرائيل بالشعب الفلسطينى هذه المرة قد جدد الوطنية الفلسطينية. وجعل الحرب من أجلها حتمية تاريخية. وإذا كان العرب قد وقفوا عاجزين أمام ضم الجولان والقدس فإن إسرائيل لن تستطيع ضم الضفة الغربية وقطاع غزة، مهما أقامت من المستوطنات، أى أن إسرائيل مهما غيرت «جغرافية» فلسطين، فإن «تاريخية» فلسطين العربية لن تتغير. ولا يهم كثيرا ما يقوله السيد بيجين والسيد شارون وغيرهما. فالطريق طويل. والحرب هى الوسيلة الوحيدة - مع الأسف.. والأسف سببه أننا كنا نحلم مع الرئيس السادات بأن حرب أكتوبر هى آخر الحروب. وكان ذلك أروع أحلام القرن العشرين. وفى هذا الحلم التقى الدين والرومانسية.

وقد رأيت شخصية يهودية مخلصة تقول للرئيس السادات : لو قبلت قدميك الآن فسوف يكون ذلك أعمق صلاة.. فقد أنقذت شعبى من الدمار. ولم يكن هذا الرجل كاذبا ولا منافقا ولا صاحب مصلحة. ولكنه رجل آمن بأن السلام هو الحياة لشعوب لم تعرف إلا الخوف من أن يبيدها المسيحيون والمسلمون..

وفى كل الأحاديث التى أدلى بها الرئيس حسنى مبارك بعد رحيل سلفه العظيم كان يجدد هذا المعنى. إيمانا منه هو أيضا بأن السلام طريق وهدف. وحلم وحقيقة.

ولكن إذا كان أحد قد خطر له هذا السؤال فمعنى ذلك أن هذه الحرب المباشرة مع الجيش الفلسطينى قد انتهت. وأنه لا بد من حرب أخرى.. مع سوريا ؟ لا يجوز. مع الأردن ؟ محتمل . مع العراق ؟ ليس بعيدا.. ولا خلاف الآن بين الحكومة الإسرائيلية والمعارضة فى إيمان الجميع : بأنه لا وطن للشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع. ولذلك فسوف نتوقع أن تعلن إسرائيل ضم الضفة والقطاع أثناء الانتخابات الأمريكية. أو بعد ذلك بعام واحد «تفتعل» مشاكل مع الأردن وسوريا.. وتدفع بالفلسطينيين إلى الأردن. وتؤلب الأغلبية الفلسطينية على الأسرة المالكة. وهذا هو «الخيار الأردنى» - أى أن حل قضية فلسطين سوف يكون عن طريق الأردن.. أى ألا تكون هناك أردن.. فإذا قامت الدولة الفلسطينية على أنقاض الأردن. انتقلت إسرائيل إلى جعلها دولة منزوعة السلاح. وليس بعيدا أن تحتل منابع الأنهار والآبار فى لبنان وفى الأردن وفى سوريا. وإذا لم تؤيدها أمريكا فى هذا الاستعمار، فسوف تجد ألف وسيلة لكى تؤيدها دول أخرى مع أمريكا أو ضدها..

وقد تلجأ إسرائيل إلى أسلوب آخر باحتلال جنوب لبنان. وتشجيع الجنوب على

أن ينفصل عن الشمال وبدلا من أن تقوم دولة لبنانية تقوم دولتان مستقلتان. إحداهما صديقة لإسرائيل والأخرى صديقة لكل الشعوب الأخرى بما فيها إسرائيل - فالضعيف لا يملك الاختيار لأن الاختيار. قدرة على الرفض. والرفض شرف يتوهمه الفقراء والضعفاء وهكذا يضيع حلم الدولة اللبنانية الموحدة ويضيع الحلم فى أن تكون لبنان دولة على الحياد. أى يلتقى فيها الفلسطينى والإسرائيلى فى سوق واحدة . وتكون لهما نفس الحقوق بينما نحن نعيش فى عصر يرفض الحياد. فإذا كانت النمسا دولة على الحياد. فقد فرض عليها الحلفاء هذا الحياد. حتى لا تكون مطمعا لألمانيا فى أى وقت حتى سويسرا التى هى المثل الأعلى للحياد. أصبحت تشعر بالخجل من هذا الحياد إذ كيف تكون محايدة لا صوت لها فى الأمم المتحدة أمام قضايا الظلم والقهر والحرية ؟ كيف تقبل أن تكون مجرد بنك لفلوس الشعوب دون أن يكون لها دور فى مساندة هذه الشعوب ؟ إن الكاتب العظيم ديرنمات قال لى مرة : لا أعرف حين أقول إننى سويسرى مدى ما يثيره هذا المعنى من امتعاض عند الناس. فمعناه : أننى شبح . أننى لا أؤيدك ولا أعارضك. لا أنفعك ولا أضرك. أننى نوعية شاذة من البشر !..

ورغم أن إسرائيل هى «كارثة» الأمة العربية منذ أواخر القرن الماضى. ورغم طول هذا الوقت، فإننا لم نهتد بعد إلى «حكمة» وجودها بيننا لقد وجدت وانتهى الأمر. ولكن الذى لم ينته هو هذا القلق والفزع والدمار الذى تنشره بيننا وسوف تنشره. ولم يهتد أحد إلى حل هذا اللغز : كيف يرضى الشعب الأمريكى أن يكدس أمواله فى إسرائيل لكى تقضى على مصادر أمواله فى البلاد العربية ؟ أى كيف تحرص أمريكا دائما على القضاء على أمريكا فى الشرق الأوسط ؟

أى إذا وضعت إسرائيل فى كفة وكل الشرق الأوسط فى كفة أخرى. رجحت كفة إسرائيل. وهذه حقيقة دائمة ما دامت أمريكا دولة عظمى. وعلى ذلك فلكى نواجه إسرائيل. لا بد أن نواجهها واقفين وراء أمريكا التى تقف أمامها إسرائيل. أى لا بد أن نعتمد تماما على محامى الخصم. ليفصل لنا فى قضايانا مع إسرائيل هذه حقيقة . فإذا ارتضينا هذه الحقيقة. وقد فعلنا ذلك، كان المعنى أنه لا وسيلة إلا بمحاربة إسرائيل، ومفاوضة إسرائيل ولكى تكون حروبنا مع إسرائيل أوقع وأوجع، فلا بد أن نتحد معا ضدها. لأنها هى التى فرضت الحرب علينا. وفى أعقاب الحروب تجئ المفاوضات. وفى هذا الجيل خسرنا أرضا سورية ولبنانية، واستعدنا أرضا مصرية. وفى الجيل القادم سوف نتبادل المواقع. ونحن أكثر عددا وأطول عمرا.

أو إننا واهمون فى كل حساباتنا - وهى حقيقة.. لأن أمريكا تعرف مصالحها. ومصالحها مع إسرائيل. وليست مع العرب ولذلك تساندها ظالما ومظلومة. وروسيا لا تساند العرب. وهكذا نجد أن روسيا التى سابقت أمريكا فى الاعتراف بإسرائيل، لم تتوقف عن السباق فى تدعيم إسرائيل. فإسرائيل هى الصديق العاقل لأمريكا وروسيا - أما العرب فعداوتهم لا تخيف وصداقتهم لا تنفع !

وهكذا خاب أمل العرب فى أمريكا وروسيا.. ولم يكن لهم حق فى هذا الأمل. لأنهم يقومون بدور الصديق الجاهل فى هذه المنطقة..

وفى الحروب مع إسرائيل توجد كل العناصر التى أدت إلى الحروب فى كل التاريخ : الدين والاقتصاد والسياسية والعنصر والطاقة والأرض والهجرة..

وعلى الرغم من أن هذه المنطقة من العالم قد قدمت للإنسانية أديانا سماوية ثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام، وديانات أخرى مثل البوذية والهندوكية والزرادشتية والمانوية والكونفوشيوسية والبهائية. فإن هذه المنطقة أقل مناطق العالم اتباعا لتعاليم هذه الأديان. ولم تكن الحروب الدينية فى هذه المنطقة أو فى غيرها من أجل نشر رسالات السماء دائما. إنما كانت لأسباب استعمارية واقتصادية. فالحروب الصليبية التى استغرقت مئات السنين. كانت تهدف إلى تأمين طرق التجارة بين الشرق والغرب. وقد أدى فشل الحروب الصليبية إلى البحث عن طرق أخرى، فكان اكتشاف أمريكا : عالما جديدا، وطريقا إلى الهند.. تماما كما أن الثورة الفرنسية لم تشتعل بسبب الصفحات الجميلة التى كتبها فولتير وروسو. إنما كان سببها أن الطبقة الوسطى فى فرنسا قد أصبحت أكثر اقتدارا وثراء. وتبحث عن أوضاع «شرعية» فى مجتمع الملوك والأمراء والنبلاء.. وكانت الثورة الفرنسية فى بدايتها ملحدة، ولكن روبسبير أحد زعماء الثورة قد وجد إلها سماه «الكائن الأسمى» . ولم يطل بقاء هذا الكائن الأسمى، فقد شنقوه هو أيضا مثل زعماء الثورة الفرنسية..

وإذا راجعنا أنفسنا ونحن نقلب هذا السؤال عن الحرب القادمة مع إسرائيل. فلأن الحرب هى القاعدة فى التاريخ. والسلام ضيف غريب أو حلم سعيد..

فقد أعلن مؤرخ الحضارة العظيم ديورانت أنه حدث فى الأربعين قرنا الماضية أن عرفت الإنسانية ٢٨٦ عاما من السلام فقط. أما بقية الأعوام فحروب ووقف إطلاق نار وحروب وهكذا. وقد يتفلسف بعض الناس فيرى أن الحرب بين الشعوب كالحرب بين

الأفراد. أساسها : المنافسة على الحرية والرغيف والجنس والسلطة. وكما يتناحر الأفراد لهذه الأسباب، تتقاتل الشعوب أيضا وما دامت طبيعة الإنسان واحدة. فكذلك الشعوب. أما الذين ينادون بالمحبة وحسن الجوار والسلام الأبدى وأن تكون هذه الحروب هى آخر الحروب، فهم الأنبياء بلا شرف - أى رسل الشعوب الذين تغتالهم الشعوب لأنهم يكلفونها أكثر مما تطيق. أما الذى تطيقه الشعوب فهو الحرب. والذى لا تقدر عليه فهو السلام..

ونحن حين نواسى الأصدقاء عندما يفقدون عزيزا عليهم تقول لهم : إن شاء الله آخر الأحزان - أى أن العزيز الغالى الذى فقدتموه سوف يكون آخر من تحزنون عليه. ونحن نعلم أن هذا مستحيل. فلا بد أن يموت الناس. وأن نفقد بعضنا البعض. فلا نهاية للأحزان. لأنه لا نهاية للموت.. وكذلك لا آخر للحروب. لأنه لا آخر للطمع والجشع والتعطش للقوة. وعلى ذلك وفى ظل القوة وبسببها تكون الحروب. ففى ظل القوة يكون السلام فالحرب هى أن نوجه السلاح إلى العدو. والسلام هو أن نضع السلاح إلى جوارنا وفى الحرب نمسك السلاح باليدين. وفى السلام نمسكه بيد واحدة. ويطول السلام كلما كنا أقدر على حمايته. فإذا تعلقت الخلافات التى بيننا كان ذلك تأجيلا للسلام. واستئنافا للحرب..

وقد تتلاقى الشعوب المتقاتلة، وتظل الحرب مستمرة. ففى القرن السادس عشر كانت الحرب بين فرنسا وبريطانيا مشتعلة، بينما سفن التجارة تقف فى موانئ البلدين. وكانت فرنسا تحارب ألمانيا، وكان الشعب الفرنسى معجبا بالإمبراطور الألمانى فريدريش الأكبر.

أما الحروب فى القرنين الـ ١٧ والـ ١٨. فكانت بين الطبقات الحاكمة بين النبلاء والأغنياء.

أما فى القرن العشرين فقد أصبحت الحروب «شعبية».. لأن وسائل المواصلات الحديثة ووسائل الإعلام السريعة قد أدت إلى تقريب الشعوب وتغيير أفكارها وحشدها معا لتحارب معا - عسكريين ومدنيين. مؤمنين وملحدين. فقراء وأغنياء.

ومنطقتنا العربية زاخرة بكل نوعيات المذاهب والطبقات والعناصر والتعصبات السياسية والدينية. وأهم من ذلك بالمشاكل التى انحلت إلا قليلا - أى بالمشاكل المؤجلة أو المعلقة. ونحن نعلق المشاكل انتظارا لوقت أفضل. ونحن نخطئ مرتين : حين

نعلق المشاكل وحين نتوقع ما هو أفضل وكل ما نعانيه الآن فى الشرق العربى هو بسبب أننا أرجأنا مشاكل كثيرة : على الحدود وبين المذاهب وفى الدساتير وفى الطبقات. ونخطئ حين نستسلم لأوهام كاذبة بأن غدا أفضل من اليوم. مع أن العقل يقول : اليوم وإلا فلا و«لو» - مليون لو - عدنا إلى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى وراجعنا أنفسنا. لوجدنا أننا ضيعنا الكثير من الفرص فى الحرب والسلام. وأن هذه الفرص قد تكدست وتعقدت وهزمتنا قبل أن نحارب إسرائيل فالخلافات بين الدول العربية والصراعات فى داخل الوطن الواحد وغياب الزعامة القوية. أو ظهور الزعامة القصيرة العمر، والجهل وضيق الأفق، كل ذلك جعل الطريق طويلا وسوف يزداد طولا.. وسوف ينادى بعضنا البعض فلا يسمعه.. فالمسافات بيننا طويلة جدا.. والاهتمام بما نقول قليل جدا.

وعندما أعلن الرئيس حسنى مبارك فى عبارة موجزة مكثفة. أن العرب يجب أن يتناسوا بسرعة خلافاتهم، لأن الموقف أخطر مما يتصورون. لم يشأ أن يجعل من نفسه واعظا أو خطيبا أو عالما بما لا يعلمون.. إنما أراد أن يسجل لنفسه وعليهم. أنه حذرهم وأنه نبههم قبل أن تقع الكارثة.. أو الكوارث. من الخارج وفى الداخل.

ولولا أن الأشقاء العرب يضيقون بمثل هذه النصائح التى تجئ من مصر - عادة - لشرحت وأفضت وضربت أمثلة عديدة. ولكن يكفى التنبيه إلى ذلك. وعندما تقع الواقعة - ولا بد أن يحدث ذلك - فسوف نسارع جميعا لنقول فى نفس واحد : ألم نقل ذلك ؟! وما أكثر ما قلنا وما سوف نقول ، وما أسرع ما نسينا وسوف ننسى . وما أعمق ما ندمنا وسوف نندم. وهكذا يكون لتاريخ الكفاح العربى هذا المذاق الأخلاقى : من ندم إلى ندم !

وإذا كان الذى يحكم الدول. مؤمنة أو ملحدة، نامية أو متطورة. محايدة أو منحازة.. هو مصالحها، فلا بد أن يكون ذلك هو التفسير الوحيد لموقفها من غزو إسرائيل للبنان. تستوى فى ذلك دول المواجهة والدول العربية الأخرى والأوروبية والاتحاد السوفيتى. ولا بد أن اللوم الكثير ينهال على روسيا فقد توقع الفلسطينيون أن تذهب روسيا إلى أبعد من إعطائهم السلاح.

ولكن من الذى يقرر لروسيا أن التدخل - بشكل ما - فى مصلحتها، وأنها لو فعلت مثل أمريكا لكان أفضل ؟ ثم من الذى يقرر لروسيا ما هو الأفضل وما هو

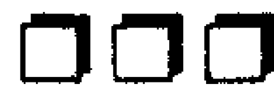
الأنفع ؟ إن أحدا لا يستطيع ذلك سوى السوفيت أنفسهم فهم أكثر دراية بمصالحهم فى الشرق الأوسط وفى بقية الكرة الأرضية والفضاء الخارجى. وإذا كان الروس لا يناقشون سياستهم علنا. كما يفعل الأمريكان فليس معنى ذلك أنهم لا يحسبونها جيدا. إنهم يقدرون ويضربون ويطرحون. ولكننا لا نعرف وما داموا قد اتخذوا هذا الموقف. الذى يبدو لنا كأنه «إنعدام موقف» فهو القرار الذى انتهو إليه. ولهم فى ذلك العذر. فقد جربوا ماذا حدث فى حرب سنة ١٩٦٧ للسلاح السوفيتى. وجربوا ماذا حدث لهم قبل حرب ١٩٧٣. ثم العقوق الرسمى لما قدموه لمصر. فتاريخ الروس فى هذه المنطقة فيه الكثير من المرارة وسوء الظن. بينما إسرائيل أحسنت استخدام السلاح الأمريكى وأحسنت التقدير. وتفوقت على العرب فى كل حساباتها السياسية والعسكرية . وكان ذلك هو الثمن أو المكافأة التى فازت بها أمريكا بسبب المساندة الخاصة لإسرائيل.. فإسرائيل هى الحليف العاقل. وليس بين العرب حليف عاقل للاتحاد السوفيتى.

ولم نفلح إلا شهورا قليلة فى أن نوقف الحروب بيننا - نحن العرب - لكى نواجه إسرائيل معا. فكأننا نخضع لنفس القاعدة التاريخية العالمية : وهى أن الحرب قاعدة والسلام استثناء. أو أن الحرب ألف ساعة والسلام ساعة. وفى ساعات الحرب مع إسرائيل ننسى مشاكلنا الداخلية. كما تذيب إسرائيل خلافاتها الدينية والعنصرية، ولكن لأن إسرائيل فى حالة حرب دائمة فخلافاتها العنصرية والمذهبية والسياسية والدينية نائمة.. أو أن هذه الخلافات هى أولى ضحايا الحرب. أما نحن فخلافاتنا منتعشة.. فهناك الحروب على الحدود. وخلافات الشيعة والسنة. وخلافات العرب والفرس. وخلافات الذين يملكون البترول والذين لا يملكون.. وخلافات الزعامة وخلافات القمة - أى فى الطريق إليها وفى داخلها وبعدها. وخلافات الدول المنحازة ودول عدم الانحياز. والزعامات الصغيرة فى الشرق والغرب. وفى ليبيا شيوعيون وفى سوريا وفى اليمن وفى أثيوبيا.

وقضايا داخلية كثيرة، لا داعى للإشارة إليها. لأننا نحاول أن نخفيها وأن نجعل حجمها أصغر ونبالغ فى ذلك. وتكون المبالغة تسترا على جريمة لنوهم أنفسنا بأن كل شئ تمام : فى الأمن العام وفى الغذاء وفى السلام الاجتماعى وفى الحرية.. ولكن المتاعب الداخلية تشبه الجبال الجليدية، أقلها على السطح وأكثرها فى الأعماق.. فإذا اصطدمنا بها خرجت من تحت الماء - وفى مثل هذا اليوم من سبعين عاما غرقت أعظم باخرة بناها الإنسان. لأن أحدا فى ذلك الوقت لم يكن يعرف أن الجبال الجليدية تخفى

قوتها الجبارة تحت الماء. فعندما اصطدمت الباخرة «تيتانيك» بأحد هذه الجبال أغرقها الجزء الغارق من جبل الجليد !

فهل معنى هذا كله : أننا لكى نكون قادرين على الحرب، لا بد أن نحقق السلام الداخلى ؟ هل معنى ذلك أن الحرب والاستغراق فيها وتعبئة الرأى العام كله هى الوسيلة الوحيدة لإذابة الخلافات لتكون المواجهة أقوى والذراع أطول وخسائر العدو أفدح، والحل أقرب؟



والآن.. من الذى خرج من لبنان ؟ إن العين تقول : إنهم بضعة آلاف من المحاربين الفلسطينيين ذهبوا إلى بلاد عربية أخرى..

ولكن فى لبنان نصف مليون فلسطينى وفى بقية البلاد العربية أربعة ملايين.. فلم يخرج الفلسطينيون لا من لبنان ولا من بيروت، ولا آثار الحرب والدماء والدمار قد اختفت من البيوت ومن النفوس ومن التاريخ.. ولن تختفى من بقية القلوب العربية.. فقد خرج الفلسطينيون من أرض لبنان، ولكنهم باقون فى تاريخها.. فى وجدانها. فى كرامة كل عربى حاول ولم ينجح.. وقاتل ولم يندحر. وحارب ولم ينهزم.. وانسحب ولم يتراجع..

ولكن إسرائيل لم تخرج. لأنها لم تدخل. إنها تدخلت. ووجودها مرفوض فعلى الرغم من أنها هناك فهى ليست هناك. أنما هى دخيلة.. تعيش فى أمان «زائف»..

فقد أحاطت نفسها بالألغام على حدود مصر وسوريا والإردن ولبنان، فهى فى سجن كبير، وإنها اليوم وغدا أكبر «حارة لليهود» فى العالم، وعلى رأس دولة إسرائيل ملك هو بيجين : وهو أعدى أعداء السامية، أعدى أعداء الشعوب اليهودية. وإذا كان الهرجنشر قد اعتذر لإسرائيل لأن أحد أعضاء حزبه قد طالب بمحاكمة بيجين مثل مجرمى الحرب الذين أدانهم الحلفاء فى محكمة نورمبرج، فإن هذا الاعتذار سياسة، ولكن رأى الرجل فى بيجين قائم. هو قال. وزعيمه قد اعتذر. ولكن التهمة صادقة والجريمة حقيقة !. وسوف تندم الشعوب اليهودية فى إسرائيل على أنها اختارت السيد بيجين ذلك الرجل الذى فتح باب السلام سنة ١٩٧٧ وأغلقه سنة ١٩٨٢، حتى هذه السنوات الخمس لم تكن سلاما إنما كانت محاولة صادقة من كثيرين.. إلا هذا الرجل وإلا قائده شارون. ولكن ما دامت الشعوب اليهودية قد اختارتهما مرتين. فهذا

الاختيار مشيئة شعبية. وجنون وطنى ويأس جماهيرى. وفى حالة اليأس العام يختار الناس كل من يدعى القدرة على إنقاذهم. وفى التاريخ اليهودى ظهر «المسيخ الدجال» كثيرا.. ولكنه لم يقتل ولم يذبح. إنما ادعى أنه قادر على أن يجد حلا لكراهية اليهود - إلا هذا المسيخ بيجين؛ فهو الذى اهتدى حقا وصدقا إلى الضياع اليهودى فى الشرق الأوسط.

فهل عندنا نحن العرب، ولو مرة واحدة، بعض الوقت لكى نفكر ونفهم وندفع حكامنا إلى أن يقرروا بمنتهى التواضع والتصميم طريقا واحدا إلى الخلاص من هذا الهوان؟

المتفائل فقط هو الذى يجيب عن هذا السؤال نفيا أو إيجابا !.. .



والسؤال الذى بدأت به هذا المقال يكون مقبولا إذا قررنا أن الحرب مع إسرائيل لم تنته بعد. وأن غزوها للبنان هو الحرب الخامسة، وكانت الرابعة قبل ذلك بتسع سنوات، والثالثة قبلها بست سنوات، والثانية قبل عشر سنوات ، والأولى قبل ذلك بثمانى سنوات.. أى بمعدل حرب كل سبع سنوات !

وإذا كان لا بد من هذه الحرب القادمة، فلا مفر من السلاح الذى تبيعه أمريكا وروسيا وغيرهما !

وهكذا مكتوب على شعوب المنطقة أن تعيش فى ظل الدبابات والمدافع، وأن تفضل الموت حربا ، على الموت جوعا ، وأن يكون البترول هو الثمن الذى يدفعه العرب لشراء السلاح الروسى والأمريكى. فالعرب يبتزون بعضهم البعض، والروس والأمريكان يبتزون الجميع ! فهل هذه حقيقة ما سوف يحدث غدا ؟.. إن الفراعنة أجدادنا قد بددوا أموال الشعب فى بناء الأهرامات. وبددت الصين أموال الشعب فى بناء الحائط العظيم، وبددت أمريكا وروسيا أموال الشعب فى بناء سفن الفضاء والمحطات المدارية، فكذلك تبدد الشعوب العربية أموالها على هذه الجيوش فى حربها مع إسرائيل ومع بعضها البعض..

وبذلك تصاب الشعوب العربية بكارثتين :

الإفلاس والتمزق.

فهل نحن حقا نسعى إلى الإفلاس والإنهيار لا شعوريا.. أى أننا فى حالة انتحار قومى. وأن هذا الذى نعانيه من اليأس واللامبالاة والقرف من أعراض إنحلال الحضارة العربية ؟. أهى الحضارة العربية تحتضر وإننا شهود على موتها وموتاها ؟ وإذا لم يكن هذا هو تفسير حالنا، فما الذى تجده تعليلا لهذا المرض العام.. لهذه الشيخوخة التى أصابت الأطفال والشباب أيضا ؟.. كيف نفسر أن نرى أجسادنا مريضة فلا يحاول أحد لها علاجا؟..

ويوم سمع جمال عبد الناصر أن ثورة فى العراق قد اشتعلت نزل إلى دمشق وراح يقول للأمة العربية : من كان منكم يعرف عبد الكريم قاسم ؟ وهو زعيم الإنقلاب العسكرى فى ذلك الوقت. وكان جمال عبد الناصر يريد أن يقول : إن فى بطن الأمة العربية مواليد كثيرة.. وإنها كما ولدت جمال عبد الناصر سوف تلد غيره من الزعماء. وإن الأمة العربية قادرة على أن تلد كل يوم زعيما جديدا، ويوم قامت ثورة الخومينى فى إيران سمعت الرئيس السادات ونقلت عنه أنها مثل الثورة الفرنسية، والروسية. وأن قيامها مفاجأة كبرى . فلم يكن أحد يتصور أن الإسلام بهذ الشباب والحيوية، وأن العالم العربى، بعد هذه الثورة، سوف يكون مختلفا عما كان عليه قبل ذلك.

واغتيل عبد الكريم قاسم واغتيل أنور السادات وأعدم الألوف فى إيران أعداء الثورة الإسلامية، وقتل عشرات الألوف من الشباب الصغار دفاعا عنها.

فهل هذا الذى نراه فى العالم العربى، مع أصداء المدافع الإسرائيلية وفى ظل دخانها الأسود، وعلى مرأى من دماء الأبرياء المسلمين، هو الصمت على البلوى أو هو الحزن العاجز.. أو هو التحفز للثأر؟

المتشائم يقول : بل هو التسليم بالقضاء والقدر. والقضاء هو إسرائيل والقدر هو أمريكا !

والمتفائل يقول : إننا نجفف الدموع والدماء. ولا بد من حرب سادسة، فهذه هى القاعدة فى الشرق الأوسط وفى التاريخ العالمى.. ■

لبنان الذى كان !

(هذا فصل من كتاب لم أكمله من ثلاثين عاما عن ذلك اللبنان الساحر الفاتن.. فى الذكريات الحزينة لكل من عشقوا جبال لبنان وليالى بيروت وأفراح بعلبك وهمسات زحلة، ويا جارة الوادى طربت.. وأوف أوف يا باى..

لم أجد شيئا غير عادى فى مطار بيروت.. إنه مثل أماكن كثيرة فى العالم.. أرضه ووجوه الناس.. الأرض كلها تتحرك.. حقائب المسافرين والشيالين.. والحقائب جديدة تعلقت فيها علامات.. تماما كما سوف تتعلق أعمالنا وكتبنا يوم القيامة.. والوجوه عليها مسحة من القلق.. قلق المسافرين، وقلق المنتظرين، وقلق العائدين.. ولم ألحظ أن جميلات بيروت قد ظهرن بعد.. ولم أجد أحدا قد ارتدى المايوه فى المطار.. ولا تلك المعالم الفينيقية لبنات الجبل.. الرأس الكبير والأنف الآسيوى والشعر الأسود والعينان الواسعتان والشفاه الغليظة والصدور النافرة.. وقلت فى نفسى : ليس هنا.. وليس الآن..

وجدت سيدة لها ملامح أمى، فضحكت، وتمنيت على سبيل الدعابة أن آخذها بالحضن وأقول لها : حمدا لله على السلامة يا ماما..

ولو كنت فى بلد آخر لفعلت ذلك. ولكن ليس فى بيروت حيث القبضايات والشوارب المفتولة والبنادق.. وشكرت نفسى على العقل والاتزان، فلم تكن فى سن

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٣/٩/٢٥

أمى.. وإنما فى سن وملامح أخت لى ماتت شابة يرحمها الله..

وكان الذى يدور فى رأسى قد أحس به آخرون. فالتفت ورائى أبحث عن الذراع التى لمست عنقى: آه.. أهلا.. وحشتنى.. وكان صديق الشاعر صلاح الأسير..

قال صلاح : تبحث عن ليلى ؟

قلت : أى ليلى ؟

قال : طبعا أية ليلى !

قلت : بل حقيبتى .

قال : اتركها هنا أجمل.. وأسعد المسافرين من كان بلا حقيبة..

وقلت : وبلا فلوس ؟

قال : والله وبلا فلوس.. فكل الناس هنا أصدقاؤك.. وأنت ضيف على أى واحد.. انتظرنى دقيقة !

ولم انتظره.. فقد كان لقاؤنا صدفة.. وخرجت إلى الشارع.. الهواء بارد.. ونحن فى عز الصيف.. البحر عالى الموجات.. لا أحد فى البحر.. «ما فى حدا» كما تقول فيروز.. السيارات كثيرة سريعة.. ما فى حدا.. قال لى سائق التاكسى: جنة ماهيك؟ ومعناها بيروت جنة ما هكذا ؟ ولم أرد عليه عملا بقوله تعالى وهو يصف الجنة «لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما» فرددت عليه : يا سلام.

فقال : نعم ؟

قلت : يا سلام على هذا الجمال..

واختلفنا، فهو يريد أن يتكلم وأنا لا أريد.. هو يريد أن يقدم خدماته. وأنا أرى الخدمات قد غمرتنى بالهواء والماء والوجه الحسن.. والوجوه الحسنة عندما اقتربنا من مدينة بيروت.. والعمارات الضخمة الجميلة الكثيرة.. فهم فى لبنان إذا تجمعت لديهم أموال اشتروا بها الأرض.. وبنى كل واحد ما يعجبه.. فلا يوجد تخطيط رسمى لبناء المدن، ولا لبناء العشش - أو البيوت التى تشبه الخرابات.. فعند مدخل بيروت مثل مدخل القاهرة، أسوأ ما فى مصر وأسوا ما فى لبنان.. ورأيت السيقان العارية للأطفال الجياع والمشردين واللاجئين.. الهاربين من الجبال والقرى والمدن البعيدة. بسبب الصراعات بين الطوائف والقبائل.. وإذا كانت كل جنة لها إبليس، ففى جنة لبنان هذه

مئات الألوف من الأبالسة. والجوع إبليس والفقر أيضا!

وتمنيت من يكسر عنقى ويلفه إلى الناحية الأخرى، فلا استغرق فى الفقر الذى أعرفه، والقرف الذى هربت منه، ووجع القلب الذى جئت أغرفه فى طرقات ودروب لبنان.

وامتدت يد السائق تفتح النافذة فصفعنى الهواء على خدى الأيمن فأدرت له الأيسر، وكان الجمال الذى تمنيته.. كل النساء قد خرجن من الصناديق والفتارين ومحلات أزياء باريس.

وقلت للسائق : هنا يا أسطى !

وكان الأفضل أن أقول : هنا يا عمى !

واستنكر السائق أن أقول له : يا أسطى .. فكررها ثلاثا متعجبا من قلة ذوق الأجانب أو المصريين..

وسألنى وين هنا ؟

وأشرت إلى أحد المقاهى ..

فقال : هون .. ما فى فندق.. هون كافيه (هنا لا يوجد فندق.. هنا مقهى).

وقلت : هذا بالضبط ما أريد..

ولا هو احترمنى. ولا أنا. ولا كان سعيدا بى، ولا أنا، واتخذت من المقهى مكانا بعيدا لأرى الناس أوضح. فهذه أول مرة أجيء إلى لبنان.. وجاء الجرسون بسرعة. وسألنى ماذا أريد ؟ فقلت : أى مشروب وطنى..

فقال : عرق ؟

قلت : لا أشرب..

قال : هذا هو الشراب الوطنى.. كوكا ؟

قلت : نعم.

قال : فقط ؟..

قلت : أملأ هذه المنضدة بالمأكولات اللبنانية.. كل ما لديك.. فإننى أريد أن تصبح بيروت فى دمى منذ هذه الليلة.. إنها أجمل وأروع من مدن أوروبية كثيرة..

أجمل من بورتوفينو الإيطالية ومن كان الفرنسية..

ولم أجد الجرسون. فقد تركنى وأنا أقول له : أملا هذه المنضدة..

والناس حولى كثيرون.. الملابس كلها ألوان.. ألوان التصقت على الأجساد العارية للرجال والنساء ولم تتخذ لها شكل الملابس.. فالعجوز معها شاب مرهق، لا بد أن يكون كذلك.. والشيخ معه فتاة جميلة صغيرة هى الأخرى مرهقة.. طبيعى أن تكون كذلك.. أما الشبان الصغار فهم يتقلبون على الرمال كأنهم كائنات بحرية تحاول أن تكون بشرا.. أو كأنهم بشر يشربون ماء البحر لعلهم يصيرون أسماكا.. أما رائحة الينسون فى كل مكان فمصدرها «العرق» الذى لا لون له، فإذا وضعوا عليه القليل من الماء صار أبيض.. ولم اتبين بوضوح ما هذا الذى يأكله الناس.. عشرات الأطباق الصغيرة.. ولما حاولت أن أمد ساقى إلى الأمام متراخيا إلى الوراء اصطدمت ساقى بحقيبتى.. وتنبهت إلى أننى لم أحجز مكانا فى أى فندق. ولكن لم انزعج فقد فعلت ذلك فى جزيرة كابرى.. وصلت إلى كابرى فى العام الماضى وأعجبنى الليل فظللت جالسا فى المقهى حتى الصباح.. ولما رأتنى صاحبه المقهى قالت : طالب ؟

فأجبت بسرعة : نعم

- تبحث عن عمل ؟

- نعم.

- إذن فابدأ عملك وهات الأكواب والأطباق.. وأغسل.. وضع هذه الفوطة.. ثم أدخل حقيبتك فى غرفتى !

وجاء الجرسون ووضع أمامى أطباقا صغيرة كثيرة ومعها زجاجة الكوكا.. ولم أتصور أنه سوف يأتى بهذه السرعة ولا بهذه الكثرة.. ولم يعد أمامى إلا أن أمد يدى وأن أدخل لبنان فى معدتى لتكون فى دمى.. فلو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا سائحا مفتوح الشهية فى لبنان.. وأمام دهشتى وحيرتى والمفاجأة.. راح الجرسون يحدثنى عن محتويات الأطعمة : فستق.. بابا غنوج.. طحينة.. حمص.. مهروسة.. موسن.. تبولة.. شماردن.. باروست.. وكلمات أخرى لها هذ الشكل والوزن. وإن كنت لا أذكرها تماما.. فقد لاحظت أننى بدأت أتلمس جيبى كثيرا.. بحثا عن المال وخوفا عليه.. وتساؤلا صامتا : كما أدفع من المال لكى أحصل على بعض الذى أراه من غرف العمارات الجميلة؟.. ومن هذه الجلسات الممتعة. وأن أدعو واحدة جميلة إلى

غداء أو عشاء.. لكى تحدثنى عن لبنان. ولم أكن صادقا تماما عندما ادعيت أننى أريد أحدا أن يحدثنى عن لبنان.. فأنا أعرف كيف أفك الخط.. خط الجمال والدلال والأناقة والفخامة والبحر والرمل والموج والموسيقى والغناء..

وفى يدى حقيبتى التى اكتشفت أنه ما كان يصح أن أخرج بها من مصر.. فهى أكبر مما يجب. وليس فى داخلها شئ من الملابس أو من الكتب.. ثم إن لونها ليس واضحا، ولا بد أنها من ذلك النوع الذى يرمونه من السفن طعاما للسمك.. وفكرت فى أن أضع ملابسى فى كيس من الورق، أو فى شنطة صغيرة واتخلص من هذه الكبيرة.. وتذكرت أنها صناعة مصرية، ورفضت أن أبدأ رحلتى بإهانة مصر فى لبنان..

ورأيت فتاة تمشى وحدها وقلت لها : من فضلك أين الروشة ؟

وألقت بقشرة الفستق إلى يمينها .. أى ناحية البحر.. بما معناه: إن هذه هى الروشة!

وكنت حريصا على أن أجعل لهجتى مصرية واضحة.. أى أننى أجنبى لا أعرف أين هى.. ونظرت إلى فتاة فوجدت جسمها ممتلئا. ولونها لا هو أسمر ولا هو أحمر.. إنما هو خليط من القهوة باللبن والنبيذ.. برميل النبيذ!

ووجدت فتاة أخرى وقلت : من فضلك يا مدموازيل أين هى الروشة؟

واستدارت بكل جسمها المشوق وتركت للهواء أن يلقى بشعرها على كتفيها لتقول، وقد رفعت ساقا كما تفعل الخيل وقالت : هدى.

أى هذه. وفى إصبعها بدا خاتم ذهبى، إنها زوجة شابة.. إذن فكلمة «مدموازيل» ليست تحية لا تستحقها، فهى ما تزال صغيرة..

وثالثة سألتها : والله من فضلك تقولين لى أين هى الروشة ؟.. هل هى بعيدة من هنا؟

قالت السيدة : الراوشى ؟ شو العمى بعويناتك.. هيدى.. قدامك.. ما أنت شايفه يا أزعر ؟

والمعنى واضح.. أننى تجاوزت حدود الذوق أو أننى لا أعرف أهم معالم بيروت.. وأنه كان فى استطاعتى أن أعرف ذلك من تلقاء نفسى.. فعلا تجاوزت حدود الأدب فقد كانت تمشى إلى جوار زوجها واثنتين من بناتها وثلاثة من أولادها.. وأعدت النظر

إلى هذه الأسرة الصغيرة ووجدت أن زوجها له شارب طويل.. وأن الرجل ضخم أعرج وأعور.. ولا بد أننى توهمت أن هذه السيدة بلا حماية من رجل، وأننى نسيت كم تبلغ هى من السن وأننى فى سن أولادها.. وأننى..

أما الروشة فهى من الكلمة الفرنسية «لاروش» بمعنى الصخرة. وهى صخرة ضخمة فى مدخل بيروت، وكثير من الشبان فى ساعات الضيق ينتحرون عندها.. يموت الناس وتبقى هذه الروشة لقمة جامدة فى حلق بيروت.. أو هى دمعة تدحرجت من عين أم حزينة على ولدها.. وصدها البحر لكى تبقى على الشاطئ دليلا على احتقار البحر لأبناء الشاطئ، الذين يرون الجمال والسحر، ثم يهربون منه.. ويلقون بأنفسهم لأسماك لا تريدهم.. !

وكان فندق «سان جورج» على البحر. المدخل أنيق.. والمقاعد ليست إلا أحضانا من الحرير كل شئ فاتن هادئ إلا حقيبتى.. إنها إهانة لمن يراها ولمن يحملها.. ولكنها حقيبتى.. ولم يكد يراها الشاب الصغير وأنا أدخل الفندق حتى سألنى إن كان من الممكن أن يحملها.. وأحسست فى ذلك بإهانة وضربة تحت الحزام.. ومعنى ذلك أن مثل هذه الحقيبة لا تستحق شيالا.. وأنه يجب أن يستأذن فى حملها.. مع أن العادة أن الشيال لا يكاد يرى حقيبة حتى يبادر بحملها.. إلا هذه الحقيبة. وأعطيتها له، بدون أن يكون مستعدا لذلك، وطلبت إليه أن ينتظر حتى اشترى الصحف. ولم أكن قد فكرت فى شراء الصحف. إنما أردت أن أعذبه بها.. وأن أؤكد للحقيبة اعتزازى وحرصى عليها، حرصى على ملابسى المصرية ولهجتى وبلدى.. ثم ما شأن الشيال بالحقيبة؟ واجبه أن يحملها.. وسوف أدفع له.. وكل شئ هنا له ثمن بما فى ذلك من يحمل الحقيبة، ومن يقيم لها حفل تكريم ويصلى حولها.. ولو أقمت لهذه الحقيبة ضريحا لوجدت فى لبنان عشرين مذهبا دينيا وسياسيا لتقديس الحقيبة.. إنهم يقدسون فى لبنان ما دون ذلك بشرط أن تدفع! وقد دفعت.. وانحنى الشيال الصغير لى.. ولكى يكون هذا الانحناء لى وللحقيبة معا، فقد وضعتها على كتفى. فلما انحنى الشيال الصغير كان لى وللحقيبة معا.. بفلوسى !

ورأيت من يضحك لى، وأنا لا أعرفه، فضحكت.. واقترب الرجل.. وظننت لأول وهلة أنه مصرى.. فبادرنى بقوله : سهرة حلوة؟

وكانت مفاجأة.. فقال: أحلى سهرات بيروت.. كازينو.. بيت خاص.. بنات صغار.. رقص.. كيف ما بدك..

وضحكت دون كلام. كأننى أعرف كل ذلك.. وأننى لست فى حاجة إلى من يدلني على شئ من هذا.. وابتعد الرجل ليقترب من غيرى.. ويبدو أن حوارا ونقاشا قد بدأ بالفعل، ولا بد أن الخلاف كان على الثمن.. وتوقفت عند الأسانسير.. ووجدت الرجل يحدث فتاة صغيرة.. وبسرعة هوت على خده بيدها.. وكان لذلك صوت مات بين السجاجيد والمقاعد وهمس الداخلين والخارجين.

ومن البلكونة رأيت بيروت. وعدت إلى داخل الغرفة لأجد سلة من التفاح اللبنانى.. وكوما من الفستق الأخضر.. ودق جرس التليفون:

- الخواجة منصور ؟

قلت : نعم.

وكان المتحدث صديق الشاعر صلاح الأسير.. لقد تابعنى بسيارته ليرى ما الذى سوف افعله..

وركبت سيارته إلى زحلة..

وعلى الرغم من أن هذه العبارة قصيرة فإن الطريق كان طويلا جميلا.. السيارة كبيرة.. السائق لا يكف عن النظر إلى الجبال والأشجار والوديان يريد أن يقول شيئا ولكن انشغالنا عنه منعه من الكلام. ومن عادة السائق اللبنانى أن يتحدث فى كل شئ كأنه غير راض عن مهنته، ويريد أن يكون مرشدا سياحيا، أو هو مثل كل أبناء لبنان لا يشبعون من حفلات التكريم التى يقيمونها لبلادهم على حساب الآخرين.

قلت للسائق : جنة !

قال : ولو.. والله جنة يا خواجة .. شئ يجنن.. أبدع ما خلق الله.. يا عمى إننى أرى هيدى المناظر من أربعين سنة.. كل يوم أشوفها جديدة.. شئ يجنن !

قلت : قل لى يا صلاح ..

تكلم صلاح وقال : لا أمل فى هذه البلاد.. كل اثنين يختلفان لثلاثة أسباب.. وكل ثلاثة يختلفون لأربعة أسباب.. يا أخى فى الفلسفة الإغريقية كان هناك فيلسوف يقول إن أصغر شئ فى الدنيا هو الذرة.. أى الشئ الذى لا يقبل القسمة بعد ذلك.. نحن هنا فى لبنان قد حطمنا الذرة.. لم يبق من لبنان شئ لم يتحطم.. إن الله قد أعطانا الجنة ثم أسكناها العفاريت..

قلت : بل لا تزال جنة حتى لو اختلف أبناء آدم إلى ما لا نهاية.. جنة يا أخي.. إبليس فقط هو الفقر الذى قال عنه على بن أبى طالب : لو كان الفقر رجلا لقتلته. ولكن الفقر ليس رجلا واحدا إنه مئات الملايين فى هذه الدنيا. ولذلك لم يفلح أحد فى قتله!

ولم تكن شهيته ولا شهيتى مفتوحة للسياسة. وأنا لا أحب السياسة.. ولا كنت سياسيا. ولا أريد.. ولا أظن أننى استطيع. فأنا رجل كثير التنقل بين الآراء والمذاهب.. إننى سائح فكرى.. اتنقل وأستمتع. واحتفظ بالذى يعجبنى، وأقذف بالذى لا يعجبنى، الأفكار فستق أحبه، أمضغه، والذى لا أحبه فهو مثل قشر الفستق ألقى به فى الروشة !

ثم إن السياسة معناها أن يكون لك مذهب.. عقيدة.. قيد حديد فكرى لا أخرج عنه.. وشخص واحد أدين له بالزعامة والولاء.. وهذا ما لا أطيق.. فأنا لا أحب أن «أسلسل» أفكارى.. أى أضعها فى سلاسل السجناء والكلاب والقرود.. والببغاوات.. ولا أحب أن أعيش فى حظيرة، مهما كانت أنيقة.. إننى أفضل أن أجلس أمام البيت، وليس فى داخله.. وأحب أن أتردد على البيوت، كما يتردد الناس على المتاحف.. فأنا أفضل عليها الخيام.. خيام مشايخ العرب.. خيام عمال التراحيل.. خيام الغجر.. والبدو الرحل.. ولو كان الأمر بيدى، لخرجت من الأرض كالنبات الشيطانى، ومن الجبال كالأبقار الوحشية.. لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت.. ولا وطن ولا أهل.. هكذا.. لا أعرف كيف كان من الممكن أن يتحقق ذلك.. ولكن تمنيت.. ولو أنكسرت هذه السيارة لأى سبب سوف أكون سعيدا أن أترك نفسى أتدحرج على هذه الدروب حتى أصل إلى قرب الروشة أقرر اعتذارى للفتاة الجميلة التى دعتنى إلى أن أجلس إليها.. ولكن عندما نظرت إلى وجهها وعينيها الخضراوين الجامدتين تذكرت جدتى الفرنسية المغربية.. التى طالما ضربتنى صغيرا وهربت من بيتها ومن المدرسة وغرقت فى النيل.. أو ألقيت بنفسى فى النيل.. فهذه الفتاة لم تعرف لماذا كان ردى هكذا جافا!

وجاء صمت طويل، كلانا غارق فى نفسه، أنا فى الذى حولى.. وهو فى الذى فى أعماقه.. فالذى حوله ليس جديدا عليه.. والذى حولى كله جديد.. فقد رأيت مثل هذه الجبال فى إيطاليا والنمسا وألمانيا وسويسرا وفرنسا.. ورأيتها فى شمال

جزيرة سيلان وفى شمال كيوتو باليابان.. فكل الجبال متشابهة..

وتوقفت السيارة.. نزلت.. اتجهت إلى أول مقهى جلست. وأشار صديقى إلى مكان آخر. وهناك وجدت مائدة طويلة ممدودة... وقد امتلأت بالأطباق الصغيرة. والزجاجات المستديرة والمفلطحة.. وتراصت أنواع من الشيش.. ثم كانت أكبر مفاجأة.. عشرون من الأصدقاء الأدباء والشعراء.. بالأحضان والقبلات.. وجاء من يغنى بسرعة : يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك.. إلى آخر قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى التى نظمها فى هذا المكان.. ويقال نظمها فى مدينة أخرى.. وكل من تلقاه يؤكد لك أن شوقى جلس على هذه المائدة.. وفى هذا المكان.. وكل من تلقاها من الفتيات تؤكد لك أن شوقى عندما قال :

ودخلت فى ليلين : فرعك والدجى

ولثمت كالصبح المنور : فاك

إنما كان يقصد والدتها أو اختها الكبرى أو جدتها.. ولكى تشرح لك ذلك فإنها تدير وجهها لكى ترى شعرها الأسود ومن ورائها الليل الأسود فى لون الصخور وأشجار الأرز ودخان الشيشة..

وتكرر العناق والقبلات بين الأصدقاء والذكريات.. وتعالت الضحكات.. كأننا لسنا على الأرض، إنما فى كوكب آخر غير هذه الأرض.. وطال الليل وانهد حيلنا من الأكل والكلام والضحك والتصفيق.. وتكسرت ضلوعى من الأحضان وأصابعى من السلامات والتحيات.. ولم أعد أسمع ما يقال.. فقد انحشرت الكلمات فى أذنى.. حتى انسدت. وكنت أهز رأسى للذى لا أسمعه ولا أفهمه.. أو لمجرد أن أرى أحدا يتجه ناحيتى ويحرك شفتيه. فلم يكن مطلوبا ولا مرغوبا أن أتكلم، إنما يكفى أن أؤكد الاهتمام والمتابعة..

ولما انقضى الليل، كان قد قضى علينا جميعا.. وفى السيارة أحسست أنها تابوت.. وأننى ميت من التعب.. أما التعب فهو اللذة والمتعة والاستغراق فى كل شئ إلا فيما هو جاد.. فلا أذكر أننى سمعت أحدا يقول شيئا يستحق التفكير.. إنما نحن نتهيأ للضحك دائما.. فلا شئ إلا بالضحك.. ولا أحد إلا لكى تعانقه.. ولا شئ إلا لكى تأكله.. ولا سيدة إلا لكى تقول لها : والله وما أجملك.. ما أروعك..

ولم تكن السيدات يقلن شيئا.. إما لأنهن قد صدقن ذلك.. وإما لأنهن لا

يصدقن ذلك، فقد سمعنه من أناس يأكلون كثيرا ويشربون أكثر، فليس الذى يسمعنه كلاما إنما هو «قشور» كلام.. قشور فستق.. وأعقاب سجائر.. وبذر زيتون !

وكنت قد سألت جارتى : من بيروت حضرتك ؟

قالت : نعم

- وأنت ؟

- من القاهرة..

- زيارة لأقاربك ؟..

- ليس لى أقارب.. زيارة لبلادكم الجميلة.. إنها أجمل مما كنت أتصور..

- أول مرة ؟

- ليست أول مرة.. فقد رأيت مثل هذا الجمال فى بلاد أوروبية كثيرة.. فكأننى رأيت لبنان قبل أن أزورها.. ولكن أول مرة أرى جمالا أوروبيا يتكلم العربية.. ويحسن النطق والأداء ويتذوق الشعر ويقول الشعر أيضا..

- شكرا.. والله أنا أحب السياسة أكثر.. فأسرتى نصفها من الوزراء.. و... و...

ووجدتنى قد سرحت بعيدا عنها، لقد ألقت بى من أعلى جبال لبنان.. دون مظلة. لكى أسقط بلا رحمة على رأسى. وقلت لها : خسارة.

قالت : ما هى الخسارة ؟

قلت : أنت !

قالت : لا أفهم ..

- خسارتك فى السياسة ..

- لا أفهم..

ولم أحاول كثيرا أن أوضح لها وجهة نظرى. فليس من همى إصلاح المسار السياسى والاجتماعى والنسائى فى لبنان.. ولا بد أن رجال السياسة والتجارة فى لبنان قد أعطاهم الله الدنيا والآخرة.. إذن فهم أحق بها من الأدباء والشعراء ولمست بيدها يدى : أية موسيقى هذه ؟

قلت : ماذا تقصدين ؟

قالت : أنت تحرك رأسك ويديك كأنك تسمع موسيقى خاصة..

وضحكت وقلت : فعلا.. إنها قديمة كالجبال.. إنها أبيات مثل قطع الصخور.. جامدة.. ولكنها معا جميلة.. لا أعرف من صاحبها.. هل تسمعينها ؟ واقتربت منى أكثر وقلت متجها إليها محاولا أن أعلو بصوتى على الضوضاء : لزمت السفار. وجبت القفار، وعفت النفار، لأجنى الفرح.

وخضت السيول، ورضت الخيول، لجر ذيول الصبا والمرح..

وأحلى الغرام، إذا المستهام، أزال اكتتام الهوى فافتضح.

وشاد يشيد، بصوت تميد، جبال الحديد، له إن صدح... إلى اخر هذه الأبيات.

ووجدتها بسرعة قد حفظت البيتين : الأول والثانى.. فقلت لها: خسارة مرة أخرى..

ولم أقل لها : خسارة ألا نكون معا وحدنا هذه الليلة أقول لك وتقولين..

وسألت عنها : من هى ؟!

قيل : أبوها رئيس الوزراء !

وفى مطعم «يلدزلار» فى بيروت جلست إلى إحدى أديبات لبنان : قرأت لها. وكان بيننا حوار طويل فى القاهرة. تلقيت منها أطول خطاب رأيته فى حياتى.. تسعين صفحة. وأدخلت عليه بعض التعديلات واقترحت عليها أن تنشره.. فوافقت بشرط أن تكتب مقدمة تحكى فيها كيف كتبته، وما هى التعديلات التى أدخلتها. ورجوتها ألا تفعل. فكل الأفكار التى اقترحتها، كانت فى رأسى. وكنت مشغولا بها أريد أن أجعلها كتبا وقصصا. فالحديث بيننا شخصى.

قلت لها وقد خلعت الجاكت والمنظار الأسود ولملمت شعرها وركزت عينيها تماما على شفتى تسحب الكلمات من فِى بشعاعات من عينيها : إننى لا أعرف بالضبط ما الذى بهرنى منذ جئت إلى بلادكم. إننى فى حالة تشبه «الوحم» عند السيدات.. فأنا أشعر بشئ ما.. فى داخلى.. وأحلم.. وأفكر فى «اسم» هذا الشئ.. إننى منذ وقت طويل لم أنظم بيتا واحدا من الشعر.. ولكنى نظمت فيك..

- قل كلاما آخر.. فلا أظن أننى لى صفات نادرة.. فمثلى فى هذه البلاد

كثيرات عيناى واسعتان..

- ذكيتان ..

- وشعرى أسود..

- كأنه جناحان..

- ووجهى أسمر مستدير..

- ولكنه بغير تمرد شفتيك وسهام حاجبيك وصولة رموش عينيك وحرارة صوتك.. ليس شيئا..

- فما الذى قلت إذن ؟

- وقلت لها :..

قالت : ألا ترى أن هذا كثيرا جدا..

قلت : لو كنت رأيتك ما قلت .. إنى لم أرك حتى أقول.. إننى أحسست بك كلك فكان هذا الذى قلت..

قالت : هل تذكر أبيات شوقى ؟ .. أريد أن امتحن ذكاءك.. ما هى الأبيات التى قالها شوقى فى مثل هذه المناسبة .. أو للتعبير عن هذا المعنى ؟.

قلت : قال شوقى :

جاذبتنى ثوبى العصىّ وقالت

أنتم الناس أيها الشعراء

فاتقوا الله فى قلوب العذارى

فالعذارى قلوبهن هواء !

قالت : بل أنت الذى تجاذبنى ثوبى العصىّ.

قلت : وإنما أردت أن أجذبك لكى تحدثينى عن خطيبك أعز أصدقائى.. كيف كانت نهايته.. يرحمه الله..

وأعادت الجاكيت إلى كتفيها.. لكى تتخذ الزى المناسب للتأبين.. ولم يمض وقت طويل حتى فرغنا من عصير الليمون. ونسينا أننا جئنا لكى يكون غداء وحديث

طويل وسهرة عند أديبة أخرى..

وكان صمت طويل.. ثم التفتت لتقول لى. بعد لحظات من الصمت : أنت تغنى؟

- كنت

- وتلحن ؟

- لنفسى .

- فما الذى تقوله الآن ؟

- لا شئ !

- ولكن يديك تدقان المنضدة، وكذلك قدماك ورأسك.. إنك فى حالة «اندماج».. بالله ما الذى يتردد فى أعماقك.. أو على سطحك؟

قلت : معك حق.. سوف تضحكين لو عرفت.. فعندي. ولع غريب بالشعر القديم فى المناسبات الجديدة.. لا أعرف تفسيرا لذلك.. إنما أحس أن القديم الذى فى أعماقى. والذى حفظته منذ الطفولة، هو الذى يطفو على لسانى.. هل لأن الجمال حولى يحرك أعماقى.. غرائزى مخاوفى ؟.. هل لأننى لا أجد ما أقوله الآن، فأستعيد الذى قاله غيرى من الأقدمين؟ هل أنا أرجئ التعبير عن الذى أشعر به الآن إلى ما بعد ؟ .. ثم إنى لا استطيع أن أسكت عن الامتنان لكل هذا الجمال والجلال والذكاء وفيضان الألوان والعطور والعيون والشفاة والشعور وموسيقى الأذرع والسيقان، وهذه الحيوية القلقة فى كل عين وعلى كل صدر.. هذه الرجرجة المثيرة..

ولم أشأ أن أشير إلى واحدة من اللاتى خرجن وقد ارتدين الحد الأدنى من أوراق الورد. الورد هناك والشوك هنا.. هنا.. وهنا أكثر.. ولم أحرك ساكنا إنما كنت أقول لنفسى..

قالت : قل ما الذى تتغنى به من الشعر القديم.. وأنا سوف أقول لك أقدم قصيدة يمكن أن يحفظها إنسان..

وتمنيت لو سمعت منها ذلك.. فصوتها الملئ الدفئ ووجهها الذى هو اوركسترا يرافقها بالصوت والصورة.. بالألوان والظلال.. وهذا الحزن الذى تحاول أن تجاملنى فتخفيه. ولكنه لا يغيب عن عينى وعن نفسى.

قلت : أقول لك.. وحاولى أن تركزى. يقول شاعر قديم وكأنه يصف الذى أراه الآن..

زينت زينب بقد يقد

وتلاه ويلاه نهد يهد

جيدها جندها وظرف وطرف

تاعس ناعس بحد يحد

قدرها قد زها وتاهت وباهت

واعتدت واغتدت بخد يخد

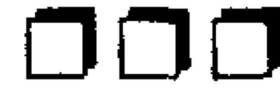
فارقتنى فأرقتنى وشطت

وسطت ثم نم وجد وجد

فدنت فديت وحنت وحيت

مغضبا مُغضيا يود يود !

وعاجلتها بقولى : لا تجهدى رأسك كما أجهدت أنا رأسى.. إنه كلام قديم وموسيقى ولهو ولغو.. إن هذا هو الذى على سطحى وفى أعماقى !



ومن بلكونة الفندق رحت أدور حول نفسى. لكى أرى البحر. ثم الشاطئ.. ثم العمارات ثم الجبل.. ثم صورتى فى المرآة.. إننى لا استطيع أن أفعل ذلك فى الحمام والباب مغلق والنافذة.. فقد وقفت فى البلكونة فى بعض ملابسى.. إنها بيروت.. فكل شئ فى نصف ملابسه.. وكل شئ نصف عريان وربع عريان وعريان تماما.. ولا أحد ينظر إلى أحد.. إلا هؤلاء القادمين من مصر فإنهم يأكلون بعيونهم ما يرون، يلتهمون بآذانهم ما يسمعون وبقلوبهم ما يحبون..

أهى مصحة عقلية لبنان ؟

أهو مستشفى عاطفى ؟

أهى رحلة خارج الأرض وخارج الزمن ؟ أهو انتقال إلى العالم الآخر ؟ أهى عودة إلى الجنة ؟ أهى نموذج مصغر لما بعد الحياة. وهذا النموذج كان يحمله أحد

الملائكة على كتفيه فلما تعب ألقى به فى هذا المكان؟. أكان هذا الملاك فى طريقه إلى أحد المتاحف السماوية ليتفرج عليه أهل الجنة قبل أن يدخلوها.. تماما مثل المنشورات السياحية والكروت بوستال؟ أهى أوردوفر ؟ أهو واحد من عشرات أطبقات المشهيات قبل تناول الطعام؟

إن لبنان كذلك.. إنه يفتح شهيتك إلى الطعام.. بل أنت لا تقاوم فاتحات الشهية، فإذا جاء الطعام كنا قد شبعنا.. وكنا قد وفرنا عليهم اللحم والمكرونة والأرز.. إنهم أذكياء فى لبنان فكل ما لديهم يفتح العين والعقل والجيب.. وأهل لبنان لهم أصابع مثل النسيم تدخل عقلك وقلبك.. وجيبك.. فأنت لا تعرف إن كانت أصابعهم تداعبك أو تدغدغك.. أو تسرقك.. وأنت سعيد وهم أكثر سعادة. ■

الرئيس ريجان وسياسة «النصف حرب» في الشرق الأوسط

أكثر من نصف الشعب الأمريكى اختار ريجان، وأقل من نصف الشعب الإسرائيلى اختار بيجين. ولكن لماذا؟..

أما الأمريكان فقد ضاقوا بالرئيس كارتر لأسباب كثيرة فى الداخل والخارج. ففى الداخل كانت المشاكل الاقتصادية أكبر منه. وفى الخارج تضاءلت أمريكا ونفوذها، وتقلصت ذراعها، وتساقط أصدقاؤها وتخلوا عنها، وأصبحت أمريكا هى الرهينة الواحدة والخمسين - خمسون فى السفارة الأمريكية بطهران، وأمريكا رهينة الخوف من استدراجها إلى فيتنام أخرى فى أى مكان. ووفقا لقواعد الكيمياء الديموقراطية فى أمريكا ظهرت بلورة اسمها ريجان، المحافظ الناجح والنجم السينمائى المتواضع. وهو مختلف تماما عن كارتر المسيحى الهادئ. وهذا الشيخ الكبير الذى أدمن الأمل، فى السبعين ويتحدث لا عن مستقبله إنما عن مستقبل أمريكا الشابة.. ويؤكد أنه وحده القادر على أن يعيد إليها كل الذى فقدته والذين فقدتهم أيضا! ومضت تسعة شهور على تلك الليلة التى اختفت فيها أطباق الفول السودانى من بارات وفنادق واشنطون ابتهاجا بانتخاب ريجان.. أما هذا الفول السودانى فهو الذى يزرعه ويتاجر فيه الرئيس كارتر!.

ولم يعرف أحد بالضبط ما هو الوجه الجديد لامريكا. إنه وجه الرئيس ريجان الذى وعد بالقوة والعزة والمستقبل.. وإن كانت من أهم ملامح هذا الوجه: تلك الخلافات

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٧/٢٦

التقليدية بين مستشارى الرئيس الجديد. من محترفى الحرب والسياسة.. وهذا طبيعى. فعندما يجئ أى رئيس جديد فنحن أمام مؤسستين: الإدارة الرئاسية والحكومة الأمريكية. أما الإدارة فهى «طاقم» المستشارين الذين يجلسون وراء الرئيس أمام عجلة القيادة. أى أقرب الناس إليه، وأكثرهم تأثيرا عند اتخاذ القرار. وكما أنهم قادرون على مساعدته، فهم قادرون أيضا على تعويق قراره. وبلبلة الشعب الأمريكى وحيرة الحلفاء الأوربيين، وتحفز الروس، وفزع الإسرائيليين.

وهذا المنظر تقليدى.. إنه يشبه منظر فرقة العازفين قبل انفتاح الستار، فالمتفرجون يسمعون عزفا متعددا. ويسمعون شوشرة موسيقية وهمسا بسبب تبادل المقاعد واقترابها وابتعادها عن الميكرفون وبسبب شد الأوتار.. فإذا انفتح الستار التزم العازفون الصمت حتى تجئ إشارة قائد الأوركسترا - إشارة البدء. ومن هيئة العازفين وتوزيعهم حول الميكروفون، يدرك المشاهدون والمحترفون مدى اقتداد المايسترو، وذوقه الفنى. وكما يختلف العازفون وراء الستار ويتوافقون أمامه، فكذلك مساعدو الرئيس ومستشاروه.

ولكن إذا اختلف العازفون علنا. ولم يتدخل الرئيس، أو بقى الاختلاف رغم تدخله، هنا فقط يتساءل الناس: وأين الرئيس. وأين وجهه الذى هو وجه أمريكا؟..

لقد كانت مشكلة الرئيس كارتر أنه ظل «غائبا» عن كثير من الأحداث - أى مساعدوه جعلوه غائبا، أو هو الذى اختار الغياب عن المناطق الشديدة الالتهاب فى العالم: أفغانستان وإيران، وقد اعترف الرجل بذلك. وكان اعترافه إدانة له واتهاما بسوء نية كل الذين حوله.. خاصة المخابرات المركزية. التى أرسلت رجلها فى طهران، ليأخذ بيد الشاه إلى خارج إيران، بينما كان الرئيس كارتر يأخذ بيد الامبراطورة ليرقص فى رأس السنة!..

ولكن الرئيس كارتر قد أثبت شجاعة وصبرا فى تحقيق السلام بين مصر وإسرائيل. وفى تسليح الدولتين والسعودية وغيرها. ورشحه الرئيس السادات لينال جائزة نوبل للسلام، واقترح بيجين أن يغير اسم اتفاقية كامب دافيد إلى اتفاقية جيمى كارتر..

وجمعت أمريكا كل سحب التلوث النفسى والسياسى والعسكرى، ونسجت منها كفنا لرئيسها جيمى كارتر. وألقت برجلها فى غياهب الفشل، انتقاما عنيفا لمصائب لم تكن كلها من صنعه. واختارت نجمها الجديد رونالد ريجان. وكان نجاحه أعظم فيلم من إخراج وإنتاج الشعب الأمريكى. والفضل فى ذلك يرجع إلى جيمى كارتر. فلولا المصاعب الهائلة التى واجهته والتى وضع الأسس لحلها، ما نجح ريجان.

ولكن الشعب الأمريكى لم ير الملامح المشرقة لرئيسه الجديد. فهناك تخبط

واضطراب فى السياسة الخارجية الأمريكية. ومن الطبيعى أن يكون المساعدون الجدد متشددين. فقد كان أسلافهم مترددين. وكان من المنطقى أن يحتجوا على أوروبا التى تخلت عنهم، ومن الضرورى أن يهدئوا دول الخليج الخائفة من العراق ومن إيران ومن السوفيت، ومن متاعبها الداخلية، وأن يؤكدوا لإسرائيل فى نفس الوقت أن حمايتها وصيانتها تقليدية، لا تتغير مهما تغيرت وجوه أمريكا وعقولها وقلوبها.

وكانت لهجة التحدى والقوة فى صوت وزير الخارجية الكسندر هيج شيئا جديدا، وأحب الناس أن تكون أمريكا أشد وأعنف فى مواجهة التغلغل السوفيتى. واستراح الأوروبيون إلى ذلك، ولكن هذه النبرة لا ترضى الدول الأوروبية الحليفة لروسيا - أو التى اتجهت إلى روسيا، لأنها لا تحب أن تكون ذيلا لأمريكا التى أهدرت كرامتها فى الشرق والغرب..

ولكن الخناقات حول الرئيس عند اتخاذ القرار قد أفزعت الأمريكان والأوروبيين، وأحس العالم كله أن الرئيس كارتر بضعفه كان أكثر حسما من ريجان بقوته. وإن كان عذر الرئيس الجديد: أنه لم يرتب البيت بعد. وأنه لا يريد أن يندفع لمجرد أن سلفه كان مترددا. وأكبر امتحان لأمريكا هو السلام فى الشرق الأوسط. ولابد من أن يدرس وأن يلتقى بأطراف الحرب والسلام فى المنطقة. وكان لابد أن ينتظر الانتخابات الإسرائيلية. وبعدها يلتقى بالرئيس السادات ثم بالسيد مناحم بيجين وبالزعماء العرب، وأن يستمع منهم إلى وصف تفصيلى لسباق الحمائم والصقور فى الشرق الأوسط.. وإلى كيف يتحول اتفاق كامب دافيد إلى وعد بلفور جديد لإقامة الدولة الفلسطينية. ولم تشأ أمريكا أن تضيع الوقت فى انتظار نتائج الانتخابات. فالنتائج لا تهم لسببين: السبب الأول أن أمريكا سوف تساند إسرائيل فى جميع الأحوال. والسبب الثانى أن الحكومة الإسرائيلية الجديدة أيا كانت رياستها لبيجين أو لبيريز، لن تختلف كثيرا فى موقفها من الضفة الغربية والقدس ومنظمة التحرير الفلسطينية..

وتدخلت أمريكا بمبعوثها يحاور ويداور ويتنقل بين القدس ودمشق والرياض أو بين الرياض والقدس، فقد أرادت أمريكا إحياء الدور السعودى. وإنعاش وساطة الملك خالد وهو القادر بنفوذه على أن يبقى القوات السورية فى لبنان أو يعيدها إلى دمشق ويعوضها عن كل خسائرها ؟!

وإتخذ السيد بيجين أسلوبا عنيفا. فضرب المفاعل النووى، ولم يصبه إصابة مباشرة. وكان ضرب المفاعل بلا مبرر. فلا توجد به قنبلة نووية. ولكنه «مرض الخوف»

التقليدى عند إسرائيل هو الذى دفع السيد بيجين أمس واليوم وغدا ليبادر بالضرب والعدوان وإراقة الدماء. ثم عاد إلى ضرب بيروت. كما فعلت إسرائيل فى سنة ١٩٧٤.

واختلف فلاسفة وزراتى الخارجية والدفاع، وضاق زعماء أوروبا من هذه الوحشية الإسرائيلية التى تستفز أمريكا وتستهين بالجهود الأوروبية من أجل البحث عن مبادرة أخرى للسلام. والتى تطيح بكل المواقف المعتدلة.

وكانت مصر أول من أدان ضرب المفاعل العراقى. وأول من أدان الغارات الوحشية على لبنان وبيروت..

ولم يكن غريبا أن يتساءل الأوروبيون والأمريكان: وأين الرئيس ريجان؟.. أين الإدارة الجديدة؟..

قال لى رئيس تحرير إحدى الصحف البريطانية: سنظل هكذا فى الضباب إلى أن يذهب الرئيس السادات ويكتشف لنا من هو الساكن الحقيقى للبيت الأبيض!.

وإن كان المستشار الألمانى شميت قد وصف لنا الرئيس ريجان عندما قال: أما الرجل فإنى أحبه. أما الزعامة الأمريكية، فإننى لا أجدها، فالزعامة معناها التوجيه. ولا أجد شيئا من ذلك!..

أما الموقف الأمريكى من إرسال الطائرات ف ١٦ إلى إسرائيل فهو نموذج للسياسة الأمريكية الجديدة، ففى أول الأمر أعلنت أمريكا أن الطائرات فى طريقها إلى إسرائيل، تنفيذا للعقود المبرمة، ولما ضربت إسرائيل المفاعل العراقى، أدانت أمريكا الحكومة الإسرائيلية، واختلف وزير خارجية أمريكا مع سفيرة أمريكا فى الأمم المتحدة حول قرار الإدانة، وأعلنت أمريكا أنها أوقفت شحن الطائرات، ثم عادت تعلن أنه لا علاقة بين ضرب المفاعل ووقف إرسال الطائرات، ثم أعلنت أن إسرائيل هى الحليف المشاكس الذى يريد أن يفسد ما بين أمريكا والعرب. ثم أوقفت إرسال الطائرات. ولما ضربت إسرائيل لبنان وبيروت، أعادت أمريكا توزيع هذه الطائرات على قواعدها. وأعلنت أنه لا توجد علاقة بين هذا القرار وبين العدوان الإسرائيلى الذى تستنكره أمريكا، وأنها لا تستخدم قرار المنع للضغط على حكومة إسرائيل.

فما معنى ذلك كله؟

معناه أن فلاسفة وزارة الخارجية وفقهاء وزارة الدفاع لم يتفقوا على شئ. وأن الحقيقة ضاعت بينهم. ولذلك تعذرت الرؤية، فتعثر القرار. وكأنهم فى الخارجية والدفاع مثل فلاسفة «رحلات جليفر» تلك الرواية الشهيرة. ففى هذه الرحلات وصل الكابتن جليفر

إلى مملكة لابوتا. هذه المملكة يحكمها الفلاسفة. ولذلك انهدمت على رءوسهم فالترزى مثلا لا يصنع للمواطنين البدلة المناسبة للحر والبرد. إنما يمسك القلم والمسطرة والبرجل والمثلث والبوصلة ويرسم على الورق البدل الهندسية التى يراها دون أن ينظر إلى الواقع واحتياجات الناس.. فكانت الملابس مضحكة.. والبيوت تتساقط فوق المواطنين. لأن الفلاسفة قد رسموها جميلة الأشكال ولكن على غير أساس معمارى. فانهارت أناقتها على رؤس السكان.

وأمريكا تفعل الآن نفس الشئ. ومنذ وقت طويل.. فهى ترسم سياستها الدفاعية العالمية على أسس من النظريات الفلسفية. فمثلا عندما تناقش قضية الدفاع عن السعودية سنة ١٩٩٠، فإنها تنشغل بعدد الطائرات والدبابات وطائرات الإنذار المبكر وكم عدد الرجال وكم عدد القواعد. ولكنها لا تفكر فى كيفية منع وقوع هذه الحرب أو تأجيلها..

أى أن فلاسفة الخارجية والبنتاجون والبيت الأبيض قد قرروا أن يغمضوا عيونهم ليروا الواقع أوضح!..

وليست سياسة الدفاع بعيدة عن السياسة الخارجية. فنحن نبنى الجيوش دفاعا عن سياستنا الخارجية. وسياستنا الخارجية هى دفاع عن مصالحنا. فالجيش هو استمرار للسياسة ولكن بأسلحة أخرى..

ففى الخمسينات أقامت أمريكا دفاعها على أساس نظرية اعتنقتها. وهى «سياسة الحربين ونصف» فقد اعتقدت أمريكا فى ذلك الوقت أنها لابد أن تحارب روسيا أولا والصين ثانيا، ثم تشترك فى نصف حرب مع الدول الأخرى الصغيرة.. ولكن فى الستينات اعتنقت أمريكا نظرية «سياسة الحرب ونصف» فقد اكتشفت أن الصين من الممكن أن تحارب روسيا. وأن أمريكا سوف تحارب المنتصر بعد ذلك، أما نصف الحرب فهى مع الشعوب الأخرى..

وفى السبعينات وأوائل الثمانينات اتخذت أمريكا «سياسة النصف حرب» أى أنها لن تحارب السوفيت فى أى موقع. ولذلك اخترعت أمريكا «قوات الانتشار السريع» حتى لا تقع حرب صغيرة تؤدى إلى مواجهة كبرى مع السوفيت..

ولابد أن تختلف النظرة إلى الإدارة الأمريكية الجديدة فحسب الموقع الذى نقف فيه. فإن كنا فى أوروبا فلابد أن نرى الرئيس ريجان أضعف من سلفه، وأن إدارته أكثر تمزقا من إدارة كارتر. وإن كنا نقف فى الشرق الأوسط فلابد أن نعطيه بعض العذر، فهو لم

يدرس بدرجة كافية. ولابد أن ينتظر المعلومات من الدرجة الأولى من الرئيس السادات ومن السيد بيجين ومن بعض الزعماء العرب.

ولكن رغم هذا الانتظار الضرورى. فمن العدل أن نسجل للرئيس الأمريكى أنه قد بعث سفيرا خاصا. ثم عاد وأرسل مندوبا آخر.

ثم أدان العدوان على المفاعل العراقى.

وأوقف إرسال الطائرات ف ١٦..

ثم أوقف إطلاق النار على لبنان..

وفى نفس الوقت، وبلا ضوضاء، سلم إسرائيل المطارين الجديدين بدلا من المطارين على أرض سيناء، وسوف تسلمهما إسرائيل لمصر كاملين. وهذا ما أكده السيد بيجين للرئيس السادات فى شرم الشيخ..

وقبل أن يسافر الرئيس السادات إلى أمريكا فقد التقى بوزير الخارجية ألكسندر هيج.. وكانت وجهات النظر متطابقة تماما، تحقيقا للسلام فى الشرق الأوسط..

وقد حضرت لقاء الرئيس السادات بالسناتور بيكر زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ الأمريكى. وعندما أحضر الرئيس السادات خريطة الشرق الأوسط.. وتحدث عن التسهيلات العسكرية الممنوحة لأمريكا والتى يمكن إعطاؤها للدول الأوروبية أيضا، دفاعا عن العروبة والإسلام، أعلن السناتور بيكر والوفد المرافق إعجابهم بالاستراتيجية المصرية، وشكروا الرئيس على «الرؤية الواضحة» لأعماق مشكلة الشرق الأوسط والدور الأمريكى الذى يجب أن يكون أكثر نشاطا وإيجابية..

وفى إسرائيل الآن من يندم على انتخاب السيد مناحم بيجين. فقد أدت أعماله العنيفة إلى أن اتفق العالم كله، بما فى ذلك أمريكا، على نغمة واحدة هى استنكار العنف والدم وقتلى المدنيين بقنابل إسرائيل. حتى يهود أمريكا يستنكرون الموجة الجديدة للعداء للسامية بسبب عنف السيد بيجين، ويتساءل الناس إن كان هذا الضرب العنيف هو الدقات التقليدية لمسرحية دموية جديدة.. أو هو الطبول التى تسبق نعش الفقيد فى الجنازات العسكرية، فلا شئ يفزع إسرائيل أكثر من تحول السياسة الأمريكية عنها، وكذلك الرأى العام العالمى. فالعالم كله يعطى لليهود عذرا فى «خوفهم المرضى» من الإبادة، ولكن العالم كله ليس مستعدا لأن يظل يدفع تكاليف العلاج إلى غير نهاية!..

ولعل السيد بيجين بهذه الإبادة للعرب فى لبنان، يريد أن يبيد أيضا كل مبادرات السلام الأوروبية، وأن ينسف كل المواقف المعتدلة، وأن يحطم كل الجسور من أجل إقامة

الدولة الفلسطينية. أو لعله أراد أن يشغل مواطنيه عن العناء الاقتصادى، أو أن يجعل الحرب هى السبب الوحيد للمتاعب الاقتصادية وتأجيل حلها. فكأنه يريد الحرب تأجيلا لحل المشاكل الاقتصادية، وابتزازا لمزيد من الأموال الأمريكية، لعله يسكت عن مواصلة الحرب..

فهل إذا ظلت مشاكل الشرق الأوسط هكذا، بلا حل سلمى كما يريد بيجين، وبلا حل عسكرى كما يتمنى الرئيس السادات، وبلا نهاية كما يحرص السوفيت، وبلا قرار واضح كما يفعل الأمريكان، فهل تعدل أمريكا عن سياسة «النصف حرب» إلى سياسة «الحرب الكاملة» دفاعا عن السلام: الذى هو مرور السلع وتدفق البترول عبر القنوات والأنابيب إلى أوروبا واليابان وأمريكا؟.

قبل أن يعود الرئيس من رحلته إلى أوروبا وأمريكا، فمن الصعب أن نحكم إن كانت أمريكا هى دولة أيزنهاور أو هى «لابوتا» الأسطورية الفلسفية!!.. ■

هؤلاء الفقراء يفضلون القنبلة على الرغيف !

«الدول العظمى تعيش على مصدرين: على تجارة السلاح. وعلى تجارة السلام أيضا..

فهى تبيع السلاح للشعوب التى تريد أن تحقق السلام. أى أنها تبيع العضلات الجبارة لشعوب تريد أن تعيش بأعصاب هادئة».

وفى العالم ٩٥ دولة نامية تشترى السلاح. ٩٥٪ من هذا السلاح تشتريه الدول الفقيرة التى تزداد فقرا لأن الفقير يحتاج إلى الرغيف وإلى القنبلة وحين يختار يفضل القنبلة لكنه يختار الكبرياء مع الجوع.. ولا يختار الشبع مع الهوان. وهذه الشعوب الفقيرة التى تتمسك - عادة - بالأخلاق الكريمة التى أساسها: حسن الجوار. أى الجيرة الحسنة. والجار الصديق فى حرب دائمة مع الجار. فأقرب الناس أعداهم ولذلك استعانت الدول الصغيرة بالتاجر القوى الغنى الذى يعطى بحساب. والحساب هو شروط البيع والشراء. وقد يكون من الشروط أن يتدخل لفض النزاع. فيشعل النار أكثر ليظل صديقا للطرفين وبائعا للزبونين.

وقد جربت الدول العظمى سياسة التدخل فكانت خطوة. ولذلك فهى تحرك النيران عن بعد. وفى التاريخ الحديث أدلة كثيرة تدين الدول الكبرى. والأمل لدى شعوب العالم - الضعيفة خصوصا - أن ترعى الدول الكبرى ضميرها، وأن وقف بيع السلاح. سوق

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٨/١٥

السلاح، أى أن تقفل مصانعها وتسرح عمالها وتخرب خزانتها من أجل مثل هذه المبادئ الساذجة الى تقوم على الحب والسلام والخير.. إلى آخر ما اعتاد الفقراء والضعفاء أن يرددوه ويصدقوه فى مثل هذه المناسبات التاريخية!..

ولذلك فكل لقاءات بين الدول العظمى من أجل السلام. لقاءات خرافية. أى لقاءات تنتهى كما بدأت بأكذوبة. فلا أحدا منهما صادق فيما يقول. فهذه المؤتمرات أساسها أن أحدا من الدول العظمى لا يريد أن يتفوق على الآخر. ولذلك يتفق الأثنان على أن يكشف كل منهما أوراقه السرية ومشاريعه التوسعية. وأجهزته التجسسية وشبكاته الاستعمارية أمام الآخر. وأن يتفق الأثنان على أن يقوم كل منهما برحلات استكشافية على أرض الغير ليتأكد من صدق نيته. وأقرب إلى تصوير ذلك ما نقوله فى الأمثلة الشعبية.. تمدد واستغرق فى النوم حتى أقتلك دون أن تشعر بألم!..

ويكون الرد على ذلك خرافيا: بل تمدد أنت لكى اقتلك أنا أولا.. ويكفى أن نحصى عدد الشركات الكبرى فى أمريكا وأوروبا، التى تقوم بإنتاج الأسلحة وأجهزتها المتطورة. ونحصى ألوف الملايين التى تكسبها، لندرك أنه لا شئ فى هذه الدنيا يكسب مثل الدمار والخراب. وأنه لا توجد تجارة تشحذ العبقرية الإنسانية مثل تجارة الموت بأحدث الأجهزة المتطورة. فالشركات تكسب. والشركات تدفع للمفكرين والمخترعين أموالا طائلة.. وهكذا تتسع الشركات وتستوعب ألوف العقول اللامعة النابهة فى العالم.

والخلاصة: كما أن الحياة غريزة. فالموت غريزة أيضا. والحياة لا تكلفك إلا قليلا. ولكن الموت يكلفك كثيرا.. خاصة إذا كان الذى تريده أن يموت هو عدوك!.

ويتوقع الخبراء أن تبلغ مبيعات السلاح لهذا العام حوالى عشرة آلاف مليون.. دولار - أى ما تدفعه الدول النامية للدول الكبرى وفى مقدمة الدول الكبرى روسيا فهى تبيع السلاح فى جميع الاتجاهات.

ولكى تعرف حال أية دولة فتساءل: ماذا تأكلون؟ وبماذا تتسلحون؟ وإذا كان لابد أن تختاروا بين الطعام والسلاح فما الذى تختارون؟..

والمستشار الألمانى بسمارك هو الذى قال: المدافع قبل الزبدة - أى السلاح قبل الطعام. لأن استخدام السلاح هو من أجل الدفاع عن الطعام وهى اكذوبة طبعا فالحرب تنتهى بموت ألوف الناس وتخريب الحقول والموارد الطبيعية وتعطيل الحياة العامة. مما يدفع الشعوب بعد ذلك إلى أن تستدين لتشترى طعاما وسلاحا. ثم تتوقف عن مضغ الطعام لتشترى سلاحا.. فالحرب نتيجة لخراب. ومقدمة لخراب جديد وهكذا..

ومازالت الشعوب الفقيرة تختار الذى يجعلها أكثر فقرا. وأكثر مرارة. وأكثر كفرا بمبادئ الدول العظمى وبإستحالة التعايش بين القوى والضعيف. والغنى والفقير. وأن الامكانية الوحيدة المباحة هى : أن ننشد السلام فى ظل المدافع. وأن نحلم بالسلام أثناء وقف اطلاق النار. وأن الذى نسميه سلاما. ليس إلا هدنة طويلة. وأمامك كل تاريخ الشعوب فى كل العصور!

وكما أن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كانت نقطة تحول فى الحروب الحديثة فكذلك حرب لبنان. وحرب جزر فوكلاند. ففى حرب أكتوبر استخدمت مصر وسوريا أحدث ما اخترعه الروس فى الطيران والصواريخ والمدفعية أى أحدث الأجهزة الالكترونية. ونجحت القوات المصرية والسورية فى استخدام هذه الأجهزة الشديدة التطور والتعقيد. ولم يكن لدى إسرائيل شئ من ذلك ولكن قامت أمريكا بتعويض إسرائيل عن كل الذى حرمت منه فى هذه الحرب ونشطت إسرائيل فى إدخال تعديلات على هذه الأسلحة تناسب ميادين القتال الضيقة. وتناسب السرعة التى يجب أن تبدأ بها المعارك وتنتهى أيضا وليس معروفا الآن. ما هى الأسلحة التى استخدمتها إسرائيل فى ضرب صواريخ سام ٧ وسام ٩ التى وضعتها سوريا فى وادى البقاع. ولا ما هى الأجهزة الأخرى التى استخدمتها فى «انتحار» الصواريخ السوفيتية - أى فى جعل هذه الصواريخ تقتل نفسها!.

ولكن الذى يهمنى الآن شئ آخر هو أن كل الأسلحة التى استخدمت فى لبنان وبيروت وجزر فوكلاند قد شاركت فيها جميع الدول فهى مذبحة دولية أى أن هذه الدول الكبرى لم تكتف ببيع السلاح للدول الصغيرة. ولكنها أيضا باعت هذه الأسلحة لتتغلب الدول الصغيرة على الدول الكبيرة.

ففى حرب بريطانيا والأرجنتين فى جزر فوكلاند كان أخطر الأسلحة جميعا صاروخ إكزوست الفرنسى وهو صاروخ أرض - أرض أو سطح - سطح. أى أنه ينطلق من سفينة إلى سفينة. ويكتسب سرعة وقوة ودقة بمروره بالقرب من سطح الماء ومن المستحيل أن يخطئ الهدف. حتى قيل أنه إذا أطلق من مسافة مائة كيلو متر فإنه يصيب عين بقرة بدقة ٩٩٪ أى أن احتمال الخطأ ١٪ فقط!.

وقد ركبت فرنسا هذا الصاروخ على طائرات الأرجنتين وهذه الطائرات اسمها «سوبر انتدابن» وهى فرنسية أيضا وقد كان الخبراء الفرنسيون موجودين فى الأرجنتين أثناء الحرب أيضا!.

وكان لدى الأرجنتين ١٤ طائرة من هذا الطراز وعشرة صواريخ اكزوست من طراز

١م - ٣٩ ومائة صاروخ اكزوست من طراز م م - ٣٨ و م - ٤٠.

وقد أغرقت الأرجنتين ثلاث سفن بريطانية بخمسة صواريخ أطلقتها حاملة الطائرات الأرجنتينية المسماة «٢٥ مايو».

وأثناء المعارك لم تمنع ألمانيا تصدير دباباتها من طراز «تام» إلى الارجنتين عن طريق البرازيل ولم توقف ايطاليا إرسال الذخائر أما هولندا فكانت تبعث بالأجهزة الألكترونية إلى ألمانيا لتزود بها الغواصات الست التى تبنيها للأرجنتين! وأرسلت إسرائيل ذخيرة إلى الأرجنتين.

ومعنى ذلك أن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا قد شاركت فى الحرب ضد بريطانيا. حليفتها فى السوق الأوروبية وفى حلف الاطلنطى والشريكة الكبرى فى مد أنابيب الغاز الطبيعى من روسيا إلى أوروبا - فى تحد قوى وسافر ضد الولايات المتحدة الأمريكية التى قاطعت الأرجنتين اقتصاديا وعسكريا وفى نفس الوقت كانت أمريكا ترسل المعلومات والخرائط التى تنقلها سفن الفضاء إلى بريطانيا. وكانت روسيا تنقل تحركات الأسطول البريطانى بحرا وجوا إلى الأرجنتين. عن طريق أقمار التجسس والغواصات. على الرغم من أن النظام العسكرى فى الأرجنتين يمينى متطرف.

ويوم طلبت أمريكا من حلفائها فى أمريكا اللاتينية أن يقفوا معها يقاطعون روسيا بسبب غزوها لأفغانستان، رفضت الأرجنتين. وباعت للسوفيت ما يحتاجون إليه من القمح وكان من المفروض أن تمضى أمريكا فى منع القمح عن روسيا بسبب موقفها فى بولندا. ولكن الفلاحين الأمريكان ضغطوا على الرئيس ريجان. فعاد وباع القمح لروسيا!.

والمعنى واضح: وهو أن كل دولة تسعى وراء مصالحها.. ومصالحها: بيع وشراء. حتى المبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية. كلها أيضا: بيع وشراء..

أو بعبارة أخرى: إن الذى يبيعك السلام هو الذى يبيعك السلاح. أى الذى يقدم لك الحياة هو الذى يدفعك إلى الموت. وهو فى الحالتين قد كسب. فهو قد أحياك لتعيش على رغيف رخيص. وتموت على صاروخ فادح الثمن!.

ولا داعى لأن نشغل أنفسنا كثيرا بأسماء الشركات التى تنتج أحدث أدوات الدمار. فهذه الشركات لها أسماء لا تلفت الأذان أو العين. ثم ليس فى نية أحد أن يقاطعها أو يفرض عليها حظرا. فهذه الشركات لا تتعامل مع الأفراد إنما تتعامل مع الدول، ولا خلاف بينها. وسوف أذكر لك أسماء أهمها: إى.. بى. م. وأر - سى - إيه وايتون. وجى. تى. وهى كما ترى أسماء ليست لها شعبية، ولكن هذه الشركات قد

تخصصت فى كل وسائل التشويش والتدمير والتجسس.

ومن المؤكد أن أمريكا قد أعطت إسرائيل أنواعا متطورة جدا من الأسلحة ا استخدمتها فى لبنان. وليس معروفا بوضوح كيف استخدمت هذه الأسلحة ولكن صور الدمار التى نراها تؤكد أنها كانت عالية الكفاءة. ولدى إسرائيل أربع طائرات من طراز «جرومان» للاستطلاع. وهى قادرة على رصد ٢٥٠ هدفا فى وقت واحد. وقادرة على تمييز الطائرات الصديقة والمعادية.. وقادرة على تحديد ما الذى يمكن عمله مع نقل هذه المعلومات للطائرات المقاتلة. وكيف تدخل فى المعركة. وفى هذه الطائرات أجهزة رادارية للتشويش. أى حتى لا تظهر على شاشة الرادار.. وفى نفس الوقت تستطيع أن تكشف الذبذبات الرادارية على الأرض وفى الجو دون أن يعرف أحد طول موجاتها الرادارية!..

وأمريكا قد أعطت إسرائيل كل هذه الأسلحة المتطورة والأسلحة الممنوعة. بسبب اتفاق المصالح بينهما، وبسبب الصداقة التقليدية وحرصها على أن تظل إسرائيل الجيش الثالث فى العالم كله..

وكما يفعل الجزار حين يخفى أحسن اللحوم لأحب الزبائن إليه. فكذلك تفعل روسيا وأمريكا فهما تعطيان أفضل الأسلحة لأفضل العملاء والأصدقاء..

فأمريكا أعطت باكستان طائرات متطورة جدا، لأن باكستان تقع على حدود الهند وعلى حدود روسيا. ولأن هذه الطائرات نوع من الرشوة. فقد تؤدى إلى تعطيل إنتاج القنبلة الذرية فى باكستان. ومن الممكن أن تعطى أمريكا للهند أسلحة متطورة أيضا.. إذا هى يئست من باكستان وسوف تعطى أمريكا أسلحة إلى الصين الشعبية. أعدى أعداء السوفييت. وهكذا إلى غير نهاية للعداوة والصداقة. والسلام والسلاح.

وكان يقال قديما: إن الحرب ميدان للشجاعة الفردية.. حين يبقى الفارس أمام الفارس ينازله، هذا النوع من الحروب قد انتهى. ولم نعد نراه إلا فى الملاعب الرياضية: فى الملاكمة والمصارعة ولعبة الشيش. وهى صورة حديثة «متسامية» لما كان عليه المقاتلون فى عصور غابرة.. أما الآن فالمحارب لا يرى من الذى يحاربه.. فالذى أطلق القنبلة الذرية على هيروشيما شخص واحد.. رماها وهرب. ولم يكلفه ذلك سوى أن يضغط على زرار. والزرار يطلق القنبلة التى تنفجر قبل وصولها إلى الأرض ويموت بسببها مئات الألوف فى لحظة واحدة.

أما حروب المستقبل فسوف تسغنى عن الإنسان. حين تنطلق الطائرات والصواريخ وسفن الفضاء يقضى بعضها على بعض..

وتنتهى المعارك فى السماء. ويستسلم الذين على الأرض.. ومعنى ذلك أن الإنسان لم يعد عنصرا هاما.. أى ليس ضحية ذات شأن.. وكما يحدث فى كرة القدم أن يلعب الفريق القومى لدولة مع الفريق القومى لدولة أخرى. ويكون نصر الفريق انتصارا للشعب كله. مع أن الشعب كله لم يلاعب شعبا بأكمله. وإنما مندوبون عن شعب لاعبوا مندوبين آخرين. وانتهت المباراة بإقرار النصر هنا.. والهزيمة هناك. وسوف تحدث فى الفضاء القريب من الأرض والفضاء الخارجى.. معارك الكترونية تنتهى بالاستسلام وليس بالسلام.. وبعدها تتحفز الشعوب لجولة أخرى.. وقبل هذه الجولة تكون الشعوب المهزومة أو الشعوب الطامعة فى مزيد من النصر قد ألقت الرغيف من فمهما، لتشترى العقول الألكترونية. وتستأنف الموت فى أعلى المستويات.

وسوف نشهد نوعا جديدا من الموت والجنازات. فالنعش يدور حول الأرض.. أى يدور حول أهل الفقيد.. الميت فوق والجنازة تحت والميت هو الذى يمشى والجنازة واقفة.

ومهما تغيرت أشكال الموت وارتفع مستواه عن الأرض. لينحط مستوى الإنسان، فإن الدول الكبرى هى التى سوف تكسب فى النهاية. ويتغلب بعضها على بعض.. وتتحول من دول تتاجر فى موت الشعوب الأخرى، إلى دول تتاجر فى الانتحار أى فى موتها هى - آمين!. ■

من لا رؤية له فلا رأى له !

من لا رؤية له فلا رأى له !

عندما طلبوا إلى السفير الأمريكى فى لبنان أن يعلق على الموقف أو انعدام المواقف الواضحة فى لبنان، قال: يحسن أن نقرأ قصص لافونتين. ولما سئل أن يختار من بين هذه القصص واحدة للدلالة على المعنى الذى يريده، اختار قصة معناها: أنه عندما تهب العواصف، فإن الأعشاب لا تتحطم، بينما الأشجار تتكسر..

والمعنى الذى أراده هو أن النباتات التى تميل مع الهواء تعيش، والتى تشد حيلها فى وجه العواصف تتكسر.. فهو يطلب الميل مع الهوى، وعدم الوقوف ضد الهواء. أى أن: المرونة مطلوبة!.

ولا أعتقد أن السفير الأمريكى قد قال شيئا. فاللبنانيون لم يفعلوا أكثر من أنهم مالوا مع الهوى - كل هوى وكل هواء! وقصة شعرة معاوية بن أبى سفيان أكثر دلالة من أساطير لافونتين. فمعاوية السياسى العتيد قال: لو كانت بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها..

ولكن لأن الذى بيننا وبين الناس أكثر من شعرة، مليون شعرة فلا يهم كثيرا أن تنقطع مئات الألوف وتبقى مئات الألوف من الشعرات.. فما المعنى مرة أخرى؟..

والمعنى أنهم فى لبنان، وفى كل الوطن العربى: يتخبطون. لا طريق واضحا، ولا هدف أيضا.

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٥/٣١

وعلى الرغم من أن عدد أطباء السياسة فى الوطن العربى كثيرون. وكلهم قد وضع يده على قلب المريض وأمسك ورقة وقلما وكتب روشتة.. وكل الروشتات سليمة، لولا أنها لمريض آخر غير الذى أمامنا!.

ويوم أعلنت السعودية والكويت أنهما قد اتخذتا موقفا ايجابيا من الأزمة اللبنانية، صفقنا لهما. فهذا فهم صحيح جاء متأخرا، ولكنه جاء. فإذا توقف سيل الذهب من السعودية إلى سوريا، توقف سيل الدم على أرض لبنان.

ثم قيل إن وقف دعم قوات الردع ليس صحيحا، ثم قيل بل صحيح حتى هذا التردد فى اتخاذ القرار باركناه. لأنه إن لم يكن قرارا قاطعا، فهو تلويح بإتخاذ قرار.

وجاء الدبلوماسى اللبنانى الأمريكى فيليب حبيب مبعوثا للرئيس الأمريكى، ليصلح ما أفسده السوريون وعرب البترول. وتحرك الرجل بين دمشق والقدس والرياض. ولن يتوقف إلا قليلا فى بيروت. كأن لبنان ليس طرفا. وهو بالفعل ليس طرفا، إنما هو مسرح لتنازع الأطراف!.

وقيل اتفقت سوريا وإسرائيل عبر أمريكا. وتحقق الهدف الأول من أن يكون هناك حوار بين سوريا وإسرائيل. وأن يكون اتفاق. فأعلن الرئيس الأسد أنه لا يريد الحرب، وأعلن السيد بيجين أنه على يقين من ذلك. وتساقطت الطائرات السورية والطائرات الإسرائيلية. وتوقف إطلاق النار أملا فى فك اشتباك على الجبهة السورية الإسرائيلية، وعلى كل الجبهات الداخلية فى لبنان.

أما الذى اتفق عليه الرئيس ريجان مع الأمير السعودى تركى فى لقائهما السرى فى البيت الأبيض فى الأسبوع الماضى وأمس الأول. فهو أن تغادر السعودية دعمها لسوريا، حتى لا تسقط نهائيا تحت قدمى السوفيت وحتى لا تنعزل نهائيا عن بقية العرب. وحتى لا يسقط الرئيس الأسد وهو يواجه الغضب العنيف فى بلاده، وحتى لا يقوى العراق الذى استنزفه حرب لا ضرورة لها مع إيران..

وقد كتبت أمس وليام كوانت الخبير الأمريكى للشئون العربية: أننا يجب ألا نبالغ فى دور السعودية ليست إلا «الوجه المالى» للدبلوماسية.

ثم جاءت مقررات وزراء الخارجية فى تونس مساعدة سوريا ومساعدة لبنان ومساعدة المنظمات الفلسطينية أى مساعدة سوريا فى ضرب الشعب السورى والفئات اللبنانية والطوائف والمذاهب وفلول الجيش اللبنانى. ونقل المعركة بين سوريا وإسرائيل إلى داخل لبنان فالصواريخ السورية ليست فى حاجة إلى أن تكون فى داخل لبنان لأنها

تستطيع أن تكون نافذة المفعول لو بقيت فى داخل سوريا وكذلك مساعدة لبنان بكل عائلاته على أن يبقى كما هو فى حالة حرب مع سوريا. وفى حالة حرب إلى جانب إسرائيل ضد سوريا وضد لبنان وأخيرا مساعدة الفلسطينيين على أن يحاربوا إسرائيل وأن يقاوموا سوريا وأن يردوا على الكتائب اللبنانية.

أى أن قرارات وزراء الخارجية معناها. بقاء الحال فى لبنان أسوأ مما كان.

فبدلا من أن توقف الدول البترولية دعم قوات الردع، فإنها قررت دعم كل القوات، استنزافا لكل القوات. وحلا للقضية بالقضاء على جميع أطرافها. وهى خدمة جليلة يؤدونها لإسرائيل التى سوف تحتفظ بجنوب لبنان..

أما الأردن فهى منحازة تماما لإسرائيل.

وتقرير الأمم المتحدة - الذى صدر فى العام الماضى - به سبعون اختراقا جويا إسرائيليا ضد سوريا. الغريب فى التقرير أن هذا الاعتداء الجوى كان عبر الأراضى الأردنية!

ويدور المبعوث الأمريكى فيليب حبيب وحده، بلا أبهة كيسنجر الذى يحشد معه ووراءه وأمامه كل أجهزة الإعلام والأصدقاء والمعجبين. ولكن السيد حبيب قد تدرب على المفاوضات الصعبة فى فيتنام. ولأنه عربى الأصل فهو يعرف ما الذى يقال ويكال للعرب ذهابا وإيابا، وقد سمع كثيرا، وذهب ليقول للرئيس الأمريكى ما سمع، ليعود إلى المنطقة ليقال له ويقول..

ولكن فى هذه الأثناء ذهبت الرسائل إلى دمشق ومنها.. وإلى القدس ومنها أيضا.. تدعيما للجهود الدبلوماسية التى يقوم بها السيد فيليب حبيب.

وإذا كان أكثر الناس يفقدون الطريق والهدف، فإنهم لا يفقدون الأمل.. وأمامهم مثل واضح لما كان مستحيلا وأصبح ممكنا: السلام بين مصر وإسرائيل.

ولكن هل صحيح أن هذا المثل الباهر للسلام العادل والشامل بين مصر وإسرائيل، واضح أمام العرب؟. أى هل هذه التجربة الجريئة البارزة التى هى من علامات العصر. بهذا القدر العظيم والوزن الكبير عند العرب؟ هل هى درس فى التاريخ معناه: كيف تحول عدوك إلى صديقك دون قطرة دم واحدة؟..

إننا نشك كثيرا فى أن يرى أشقاؤنا العرب ما نراه ويراه العالم، ويضعنا بسببه فى أرفع مكان فى التاريخ الحديث.. ولكن لماذا؟

نحن لا نعرف تماما. ولكن الذى نعرفه بوضوح هو أنه لا وضوح فى الرؤية العربية،

لا وضوح فى القرار العربى لحل المشكلة. هناك اضطراب فى الرؤية وتخبط فى القرار. ربما كان السبب هو أن اشقاءنا العرب قد أغناهم الله بالمال عن التفكير فيه والبحث عنه؟ فالتفكير ترف. وليس ضرورة حيوية. وكما أنهم يستوردون كل شئ جاهزا، فهم يستوردون الآراء الجاهزة والحلول الجاهزة. ولذلك فمن أهم معالم المجتمع الخليجى والجلوس على المقاعد الوثيرة: فى القصر وفى البنك وفى المتجر وفى السيارة. هم يجلسون والدنيا تجئ إليهم بالرأى والقرار والحل.. وعلى الدول الأخرى أن تكافح من أجلهم، وأن تحارب من أجلهم، وأن تموت من أجلهم، وأن تحل لهم القضية الفلسطينية على طريقتهم وعلى هواهم. فإذا نحن - لا قدر الله - فكرنا فى أن نموت على طريقتنا نحن، أو نعيش على طريقتنا، كان ذلك انحرافا وخيانة وخروجا عن الخط العربى، والخط العربى هو أن يجلس كل واحد على راحته، ويمدد رجليه ويغمض عينيه، لنقول له نحن: شبيك لبيك.. أنا مصرى بين يديك!.

فكيف نقبل نحن هذا الوضع الظالم المهين، ثم نطلب لغيرنا العدل والاحترام العظيم؟

ولذلك كانت الاندفاعات العربية. والقرارات الطائشة. مثلا: هل عندك سبب واحد يقنعى بمعنى زيارة خارجية الكويت إلى الاتحاد السوفيتى؟ إنه حر. ومن حقه أن يذهب إلى أى مكان: للنزهة.. للاستشفاء. ولكن ما الذى يستطيع أن يقوله فى موسكو؟.. هل يقول مثلا: إنه شيوعى. وإنه يريد قلبا لنظام الحكم فى الكويت تخليصا للشعب من حكم العائلة الواحدة؟.. هل يريد أن يساعده السوفيت فى حل قضاياه؟.. ما هى قضاياه: المشكلة الفلسطينية والخوف من العراق؟.. وإذا طلب ذلك، فما هو الثمن الذى يستطيعه؟..

فإن لم يكن هذا الذى فعله وزير خارجية الكويت خطأ، فهو خطر لأنه يلعب بالنار فى بلد الآبار. ومن المؤكد أنه لا يريد شيئا من السوفيت، ولكنه، والسوفيت، لا يمانعان فى اتخاذ موقف «استعراضى مشترك».. هو ذهب إلى موسكو بلا خوف، أو بلا تظاهر بذلك وموسكو رحبت به، دون تظاهر بالاستخفاف به!..

ثم أن يذهب الملك حسين إلى موسكو. ونحن وهو وموسكو والعرب يعلمون أنه يتلقى مساعدات أمريكية، وأنه عندما هاجمته سوريا، بعثت له أمريكا بالأسلحة عبر المطارات المصرية! وأنه يتلقى مساعدات أكثر من السعودية، وأنه الحليف الخفى لإسرائيل. هل الملك حسين جاد؟ ليس جادا. إنما هذا تهريج سياسى. ولكن هذا التهريج خطر على

القضية العربية وعلى السلام الشامل فى المنطقة. فالاتحاد السوفيتى قد اتخذ موقفا عدائيا من كل عمليات السلام. إنه يستخدم حق الرفض ضد كل محاولة للاستقرار فى المنطقة. وقد شهد الرئيس برجنيف مأدبة العشاء للملك حسين، وأعلن ما نعرفه جميعا من ضرورة عقد مؤتمر لأمن الخليج وللسلام فى الشرق. والرجل الذى أعلن ذلك هو الذى احتل افغانستان، وسحق المقاومة الشعبية، وهو الذى يتربص ببولندا، ويمسكها من عنقها، حتى لا تتكلم. وإن كان قد سمح لها بحق الصراخ فى الكنائس!.

ويصدق على الملك حسين دائما أنه الرجل القادر على اتخاذ القرار الخطأ فى الوقت الخطأ: فى سنة ١٩٦٧ نصحوه ألا يدخل الحرب فدخلها وخسر الضفة الغربية والقدس، وفى سنة ١٩٧٣ نصحوه أن يدخل المعركة ولم يدخل. فانتصرنا ولم يكسب شيئا!.

ومن الممكن أن يقال: لأننا دول صغيرة، فلابد أن تحصل على السلاح من الدول الكبرى أو من الدولتين العظميين. وهو رأى سليم. ولكن هذا الرأى إذا سلمنا به الآن، فسوف تواجهنا تجربة مصرية ومصيرية أيضا - وهذا ما يرفض العرب أن يفكروا فيه. فقد جربنا السلاح السوفيتى. وعرفنا أن السوفيت إذا أعطوا السلاح فعلى هذه القاعدة: السلاح فى أيدينا والقرار فى أيديهم!..

ورفضنا ذلك. وأخرجنا السوفيت من مصر. وألغينا المعاهدة معهم. هذه هى التجربة الكبرى التى عرفتها من بعدنا دول افريقية أخرى.

وأمامنا تجربة أخرى: هى أن السوفيت يعطون السلاح أيضا لكل من يشتريه، وليبيا أوضح دليل على ذلك، فما الذى فعله الرئيس القذافى بالسلاح السوفيتى؟ إنه يثير القلق ويهدد السلام فى إفريقيا ضد الأشقاء العرب والمسلمين والسلام العالمى أيضا. فالروس يعطون السلاح لمن يدفع بالقلق وعدم الاستقرار إلى درجات أعلى حرارة. وفى هذه الحرارة التى تتعاظم، يدخل السوفيت ينادون بالسلام!.

وتجربتنا المصرية مع الولايات المتحدة الأمريكية، هى الأخرى درس فى التاريخ الحديث. اشترينا السلاح الأمريكى. وكانت القاعدة هى: السلاح فى أيدينا، والقرار أيضا! ولكن لم نصل إلى هذه النتيجة المختلفة إلا من مقدمات مختلفة تماما فقد تحقق ذلك بعد حرب أكتوبر. ففكرة الحرب الحديثة الأجهزة والتخطيط والتمويه اكسبتنا احترام العالم كله - واحترام أمريكا. وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت علاقتنا بها ندا لند. ودخلت أمريكا شريكا كاملا فى عمليات السلام مع إسرائيل. وهذا موقف مختلف عن مواقفها السابقة التى كانت تنحاز فيها نهائيا لاسرائيل. ومختلف تماما عما تقتضيه سياساتها القديمة أيام

وزير خارجيتها دالاس ورئيسها ايزنهاور وجونسون.. ففى ذلك الوقت كانت أمريكا مثل روسيا الآن دولة استعمارية توسعية تضع قدميها حيث تضع سلاحها أيضا. ولكن بعد الذى أصابها فى فيتنام، تغير كل شئ. فحرب فيتنام قد عقدت أمريكا سياسيا، وفككتها اجتماعيا، فانقسم الشعب الأمريكى على حكوماته: لا يريدون حربا مرة أخرى خارج بلادهم. ويرون أن السوفيت هم المثل الأعلى لذلك، فهم لا يحاربون مباشرة.. إنما يدفعون قوات أخرى حليفة أو مأجورة. أما فى فيتنام فقد اتخذت أمريكا: جيشا وسلاحا وسياسة وفلسفة.. وتعالت الأصوات تطالب بالعودة إلى «مبدأ مونرو» الذى ينص على أن تبقى أمريكا داخل حدودها، دون أن تغرق نفسها فى المشاكل الأوروبية والصراعات الآسيوية والمواجهات الشيوعية.. فبعد حرب فيتنام اتخذت أمريكا سياسة عدم التدخل فى شئون الغير، وبعد حرب أكتوبر دخلت أمريكا طرفا فى السلام، ولولاها ما كان سلام. ولن يكون سلام على الأرض العربية.

ومن الأدلة على ذلك أيضا أن تركيا وهى عضو فى حلف الاطلنطى. أغلقت أكثر من عشرين قاعدة أمريكية، فلم يؤد ذلك إلى احتلال الأمريكان لتركيا.. وهذا مالا تستطيعه دولة واحدة من حلف وارسو. ويوم طلبت السعودية من أمريكا أن تدافع عنها، اشترطت السعودية إلا تكون للأمريكان قواعد على أرضها، أى تدافع عنها من بعيد لبعيد. ووافقوا على الشرط السعودى، ورابطت سفنهم فى المحيط الهندى. وشاءت مصر أن تيسر على السعودية، وعلى أية دولة عربية أو إسلامية. فأعطت للأمريكان تسهيلات جوية وبحرية، وليست قواعد، فقد انتهى زمن القواعد. فمصر مستقلة ولا خوف عليها من هذه التسهيلات، كما أنه لا خوف على سيادة بريطانيا وفرنسا وكندا واسبانيا وألمانيا الغربية من التسهيلات العسكرية التى تعطيها لأمريكا. مشاركة فى الدفاع عنها ضد السوفيت..

وفى حديث مع الرئيس السادات لهذه المجلة أعلن الرئيس السادات أنه لا يخاف من الانضمام إلى حلف الاطلنطى، وقد طاشت التعليقات على هذه العبارة، مع أن المعنى الذى أراده الرئيس السادات هو أنه «لا خوف من أن تكون هناك علاقات أو اتفاقيات مع الدول الكبرى. فقد انتهى العصر الذى تؤدى فيه الاتفاقيات إلى السيطرة على الدول الصغيرة، لأن هناك فارقا كبيرا بين تحالف دولة كبرى مع حكومة عميلة، كما حدث بين أمريكا ورئيس فيتنام، وبين التحالف مع الشعوب التى لها شرعية اتخاذ القرار المستقل».

ولما كان الموقف متفجرا فى الشرق الأوسط، أنشأت أمريكا قوة للانتشار السريع

لإنقاذ دول الخليج. فجعلت مقر هذه القوات ألمانيا الغربية. مع أن هذه القوات لا تختلف فى هدفها عن القوات التى يمكن استخدامها لخطط الدفاع عن البلاد العربية والإسلامية، ولذلك أعلن الرئيس السادات استعداده لتسهيل مهمتها أيضا.

وهذا ما تتمناه الدول العربية، ولكنها لا تجرؤ على أن تجاهر به. ونحن نعرف ذلك، وبدلا من أن تتخذ الدول العربية قرارا واضحا، فإنها تضاعف بلبلة الرأى العام فى بلادها، والتمزق الداخلى، والفوضى السياسية وتفاقم الأوضاع فى سوريا ولبنان، وتعقيد القضية الفلسطينية المتعددة الأطراف.

ولقد وصف تشرشل السوفيت: بأنهم لغز فى داخل فزورة فى داخل أسطورة، وهذا الوصف يصدق تماما على الموقف العربى، أو انعدام الموقف العربى.

فإلى جانب تخبط العرب، فإنهم أيضا لا يتحركون. فقد استقر عندهم أن السوفيت والأمريكان استعماريون توسعيون، فليكن ذلك.. ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل كثيرة دفاعا أو هجوما على أحد. يكفى أن ننظر إلى ما حدث فى افغانستان، وأن ننتظر ما سوف يحدث فى بولندا. وإن فاتنا أن ننظر إلى ما حدث فى اليمن الجنوبية، فلننظر ما سوف يحدث فى سوريا!.

لقد تغيرت السياسة الأمريكية، وبقيت السياسة السوفيتية على ما هى عليه..

إن خلاصة الموقف العربى الآن: الجمود على موقف واحد والتخبط بين الآراء والقرارات، والجهل بالتاريخ الحديث والتجارب الناضجة فى الحرب والسلام..

وإذا كان هذا هو «الرأى» العربى، فكيف تكون الرؤية العربية؟ إن من لا رؤية له، لا رأى له.. ولذلك فسوف يبقى كل شئ على ما هو عليه وأسوأ فى الخليج وفى لبنان. ونمضى نحن الذين لنا رؤية ورأى نحو سلامنا، والسلام العربى أيضا!.. ■

بعيدا عن أمريكا : ما الذى تستطيعه الدول الأوربية؟!

إذا كانت أمريكا شريكا كاملا فى النزاع العربى الإسرائيلى، فلابد أن تعتمد عليها الدول الأوروبية مرة أخرى للحل الشامل. وأن يشتركوا جميعا فى ضمانات جديدة للسلام..

لسنا فى حاجة إلى أن نفتعل مناسبة لكى نعجب بأنفسنا وذلك بسبب ما حققناه لمصر وللعالم. يكفينا أن نسرد فقط ما حدث حتى أصبح السلام ممكنا.

ولأن السلام صعب فإن تحقيقه لم يتم فى ليلة. فقد احتجنا إلى ثلاثين عاما من النزاع وأربع حروب لكى نجلس مع عدونا لعلنا نصفى معه حسابات قديمة، ونفتح دفاتر جديدة. ثم يكون أسلوبنا فى مفاوضة السلام نموذجا لغيرنا من العرب. أو لغيرنا من غير العرب.

وليس أسهل من الحرب، إعلانها والاستمرار فيها. فالحرب الحديثة لم يعد يحتاج فيها الإنسان إلى أن يرى أو يعرف عدوه. إنما هو يحمل سلاحه ويطلقه فى كل اتجاه حيث لا يرى أمامه شيئا أو أحدا. ولكن السلام فى حاجة إلى أن تعرف عدوك قبل أن تراه، وأن تراه قبل أن تجلس إليه.. وإذا جلست إليه أن تراه مرة أخرى. وفى كل مرة نختلف لنتفق، ثم نتفق.. ولكن لأننا اتفقنا على أن نحسم الخلافات وننهى العداوات، فإن الكثير من المشاكل تهون وتزول. وكما يحدث فى قصص الغيرة العنيفة، أن يكون الشك سيد

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٢/٨

الموقف.. فلا أحد يثق فى أحد.. وكل صوت يسمعه أحد الطرفين يخيل إليه أن شخصا ثالثا قد اختفى تحت السرير أو فوق الدولاب - أى أن هناك رائحة الخيانة. أو نية الخيانة. وأن السلام ليس إلا ستارا.. وقد حدث أن استعدت إسرائيل للحرب تماما يوم أعلن الرئيس السادات موافقته على الذهاب إلى القدس. فاحتشدت القناصة فوق مطار بن جوريون لتطلق عشرة آلاف رصاصة على أول ضابط صاعقة يخرج من باب الطائرة ليغتال زعماء إسرائيل الذين وقفوا فى الصف الأول بالمطار - فلم يصدق أحد أنه سوف يسافر إلى القدس!..

ولا نقول إن الشكوك قد ذهبت، فليس ذلك سهلا. ولا نقول إن سوء الظن وسوء الفهم والخوف من خطر يؤدى إلى الخلاف. وخلاف يؤدى إلى تجميد العلاقات، والعودة إلى القتال.. لا.. فكل ذلك لايزال قائما.. ولكنه، كما فى قصص العشق والغرام، يحتاج كل عاشق إلى أن يسمع ليلا ونهارا ما يهدئ مخاوفه ويبدد وساوسه. ولأن الحب يتم سرا بين قلبين، فإن مخاوف المحبين تتضاعف وتتجدد كل لحظة.. أما فى السياسة فلأن «الحب» بين أطراف كثيرة، وبسبب مصالح متعددة فإن أقل الكلمات شعبية هى كلمة «الحب».. وإذا استخدمت فهى أقلها تصديقا، وأما أكثرها احتراما فهى كلمة «المصلحة» المشتركة بين جميع الأطراف..

ويوم بادر الرئيس السادات بالسلام، فإنه قد هز قلوب الأمهات، وجيوب الاباء، وامتدت الأيدى الأوربية والأمريكية والأسرائيلية عبر القارات الخمس تشرب فى صحة السلام الذى يؤدى إلى الاستقرار الذى يؤدى إلى الرخاء.. وإذا كان الرئيس السادات قد جعل للسلام طعما دينيا، فلأنه أراد أن يكسب رجال الدين إلى جانب رجال السياسة. وبذلك تكون إرادة الشعوب هى مشيئة الله..

ونجحنا فى ذلك. ونحاول أن يتم السلام نعمته علينا، حين يتحقق الحل الشامل للقضية الفلسطينية..

ونحن الذين نقول إننا نجحنا. ولكن اخواننا العرب لا يرون ذلك. ولم يتفقوا على هذا الرأى، إنما اتفقوا على أن «يرفضوا» مصر، ثم يرفض بعضهم البعض، كما نعرف. وليس هناك ما تمكن إضافته الآن إلى ذلك - رغم أن هناك محاولات عربية للاتصال بمصر لتوضيح مواقف جديدة، أو من الممكن أن تكون جديدة..

وليس جديدا أن يقال إن الأشقاء العرب لم يهتدوا إلى حل واحد، أو إلى طريق نموذجى للقضية الفلسطينية ولكن الأشقاء العرب انتقلوا من الاختلاف السياسى إلى

النزاع الدموى، وإلى أن جعلوا للخلاف قصورا فخمة أى أنهم ارتفعوا بمستوى «الخلاف العادى» فجعلوه صاحب الفخامة الخلاف، وصاحب السمو النزاع، وصاحب الجلالة الخوف!..

وليس هذا جديدا.. ولكن لماذا يريد الإخوة العرب أن يفعلوا شيئا جديدا؟ لأنهم يرون أن اتفاقيات كامب دافيد قد تجمدت وأن جمودها قد وقف عند الحدود بين مصر وإسرائيل. أى بالجلاء عن سيناء. وبعد ذلك لم تتفق مصر وأمريكا وإسرائيل على الحكم الذاتى الفلسطينى، ومعنى ذلك أن مصر حلت قضيتها منفردة، ثم وضعت كل العرب أمام القضية الفلسطينية، وطلبت إليهم أن يحلوها مادامت مصر قد عجزت عن ذلك؟!.

ورغم ما تفعله مصر وتؤكده كثيرا جدا، فإن العرب يرون أن الحل المصرى منفرد. وأن مصر قد جردت العرب من سلاحهم القوى: الجيش المصرى، وأنها تركتهم دون جيش، ثم طلبت إليهم أن يقفوا فى وجه إسرائيل!.. فأعلنوا اقتدارهم على استخدام البترول سلاحا، والدولار رصيدا، والإسلام درعا، وأوروبا وروسيا ضد أمريكا ومصر وإسرائيل!..

وكان علينا أن ننتظر لنرى ما سوف يفعلون..

فاتجهوا سرا وعلنا إلى أوروبا.. إلى المبادرة الأوروبية..

إذن فما هو الدور الأوروبية..

لم يبعد كثيرا ما أعلنته الدول الأوروبية عن الذى تنادى به مصر وأمريكا وإسرائيل. مع خلاف واحد. هو أن الدول الأوروبية ترى أن منظمة التحرير الفلسطينية يجب أن يكون لها دور وأن يكون لها رأى بشرط: أن تعترف المنظمة بإسرائيل. ولكى تعترف بإسرائيل يجب أن تغير قانونها الأساسى.

وليس هذا ممكنا. هكذا أعلنت المنظمات الفلسطينية وبعض الدول العربية والاتحاد السوفيتى..

إذن فلا دور لها فى أية مفاوضات مع إسرائيل. ولكن لا يمكن أن تكون الدول الأوروبية والاشتراكية الدولية قد اختارت أن تقوم بدور مرفوض منذ البداية. إنما هى سوف تحاول مع منظمة التحرير وغيرها من المنظمات ومع إسرائيل أيضا. ولابد أن هناك أبوابا مفتوحة، وأن هناك همسا وراء وأمام وخلال هذه الأبواب.. وإلا ما غامرت الدول الأوروبية بدور يكشف عجزها. ويضعها أمام التسليم بشئ تنكره وهو: أنه لا حل إلا عن طريق أمريكا وحدها. وهذا ما أفلحت فيه مصر، مما ترفضه الدول العربية والدول الأوروبية أيضا..

إذن فلابد أن نعود إلى «المصالحة» القائمة على «المصلحة». فهذه هى الواقعية

التى تتناسب مع النضج السياسى الأوروبى والعربى. فليس من أجل سواد عيون أحد من الناس يجرى الرؤساء الأوروبيون إلى دول الخليج. ويطلق رؤساء العرب إلى أوروبا وأمريكا.. والهدف معروف: البحث عن قاعدة ثابتة آمنة لتجرى الدولارات من الخليج إلى أوروبا، والبضائع والذخائر من أوروبا وأمريكا وروسيا إلى الخليج، ومن أجل السلام الشامل!!..

واتجه العرب إلى «البديل» الأوروبى أو «الخيار» الأوروبى- أى بديل عن اتفاقية كامب دافيد، أو هو اختيار آخر غير اتفاقية السلام.. فهل هو بديل حقا؟..

إن ما حققته اتفاقية كامب دافيد إنجاز حقيقى لا يمكن تغييره، وإذا كان لابد من تغيير هذه الاتفاقية فالأمر متروك للذين وقعوها وطبقوها والذين أيقنوا منذ البداية أنه بغير الولايات المتحدة فإن الحل مستحيل، لماذا؟ لأن الولايات المتحدة هى التى تطعم إسرائيل وتدافع عنها، ثم هى التى حاربتنا بسلاحها ورجالها صيانة لها. وحتى لو حاولت الدول الأوروبية أن يكون لها دور، فمن المستحيل أن يكون هذا الدور بعيدا عن أمريكا. لأن الدول الأوروبية إذا أرادت حلا، فهى فى حاجة إلى وسيلة للضغط على إسرائيل، ولن نجد غير أمريكا. إذن فلابد أن تلجأ إلى أمريكا لكى تضغط على إسرائيل، تماما كما فعلت مصر. ولأن أمريكا استطاعت أن تحقق الكثير، ولا تزال قادرة..

ومع ذلك فمصر لا تعترض على الدور الأوروبى. بل تؤيده وتؤكده، مادام هذا الدور لا يستدرجنا بعيدا عن أمريكا، ومادام لا يمس أتفاقية السلام، ثم لا يلغى القرار ٢٤٢، الذى على أساس منه تحقق السلام..

ولابد أن الدول العربية حريصة على أن يكون لأوروبا دور، وأوروبا أشد حرصا. والدول العربية تريد طريقا آخر، واسلوبا آخر. والدول الأوروبية تريد أن يكون لها دور مستقل، وأن يكون أهم ما يحققه هذا الدور هو تقريب المسافة بين العرب وأمريكا، وبين العرب ومصر، وبين إسرائيل والدول العربية والعالم كله. من أجل «الصالح العام» ورخاء الإنسانية..

ويجب ألا نتصور لحظة واحدة، أن مصالح أمريكا وأوروبا متعارضة. وأن الموقف الأمريكى الآن يختلف عن الموقف الأوروبى فالمصالح مشتركة ومتداخلة تماما، ومن السذاجة السياسية أن نتوهم أن فى استطاعتنا أن نوقع بين أمريكا وبين أوروبا، لصالح العرب أو لصالح السوفيت.. إن أحدا جادا لا يمكنه أن يمضى فى هذه الهلوسة: يقولها ويكررها حتى يتمناها ثم يصدقها فى النهاية؟!..

إننا نطلب من الدول الأوروبية أشياء كثيرة، أهمها أن تتقدم بضمانات للسلام. أى على الدول الأوروبية أن تضمن ما يتحقق فى الشرق الأوسط.. أيا كانت هذه الضمانات: سياسية أو اقتصادية أو عسكرية. وبذلك تستقر الحدود وتهدأ النفوس. وننتقل بعد ذلك إلى خطوات أخرى إيجابية من أجل الحل الشامل. بل إن الحل الشامل لا يمكن أن نمضى فيه مع الدول الأوروبية، دون أن تتعهد بضمانات لحياة هذه المنطقة..

ولكننا هذه المرة نريد ضمانات أقوى مما تعهدت به أمريكا وانجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٥١.. وما آلت إليه الضمانات فى سنة ١٩٥٦ عندما اشتركت بريطانيا وفرنسا فى عدوان إسرائيل على مصر!..

إن البرلمان الأوروبى يواجه تحديدات عديدة فى أوروبا، وفى العدوان السوفيتى على أفغانستان، وفى الضربة التأديبية القادمة لبولندا التى تمردت على روسيا. والتسلل الشيوعى إلى الجزيرة العربية والقرن الأفريقى وأواسط أفريقيا.. ومن أصعب هذه التحديات التى تواجه أوروبا أن تعمل مستقلة عن الولايات المتحدة، وقد حاولت ذلك منذ أيام الرئيس ديجول، ولا تزال تتحد لتقف فى وجه الامبراطورية الأمريكية والامبراطورية السوفيتية أيضا. أما هذه التحديات الأخيرة فتستطيع الدول الأوروبية أن تتوافق معها. وقد استطاعت، وليس يعنينا كثيرا نحن العرب. فتلك توازنات شديدة التعقيد، وليس من الإنصاف لأنفسنا أن نعلق على هذه التوازنات الدولية آمالا كبيرة..

وفى مقدمة هذه التحديات جميعا: الموقف العربى الإسرائيلى، حيث يوجد الأمريكان والسوفيت وجها لوجه، وحيث أدى إلى فشل الإدارة الأمريكية السابقة. ولكن فشل كارتر لن يحمله ريجان. تماما كما جاء فى التوراة: وهل أنا حارس لأخى؟ لا.. ليس حارسا، ولكن العالم كله يريد أن يعرف من جديد.. إذا كان ريجان لا يحرس أخاه، فهل من المعقول أن يحرس شخصا آخر ليس أخاه؟.. هل يستطيع ريجان أن يصلح ما أفسده كارتر وهو الذى لم يحرس شاه إيران أصدق أصدقاء أمريكا والغرب ولم يتدخل ليمنعه من السقوط؟!..

حتى هذه المبادرات الأوروبية لم ترض العرب جميعا.. فأعلن كثيرون أنها ليست إلا محاولة أمريكية لإبعاد الاتحاد السوفيتى - أى أن الدول الأوروبية قد قدمت «لفافة» كامب دافيد باسم آخر، إما لأنه لا يوجد غيرها، وإما لكى ترضى العرب بتغيير اسم كامب دافيد ووضع أى اسم آخر..

وإسرائيل هى الأخرى لا ترضى عن المبادرة الأوروبية، لأنها تريد إدخال المنظمة

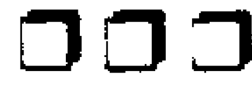
طرفا فى المفاوضة دون أن تغير المنظمة موقفها..

وأخيرا نقل السفير الإسرائيلى د. بن أليسار تخوف حكومته إلى الرئيس السادات، فحكومته تخشى أن يؤدى التقارب المصرى الأوروبى إلى التباعد المصرى الإسرائيلى. ولكن الرئيس السادات لايزال عند رأيه الذى أعلنه كثيرا جدا من أن الوقت لم يحن بعد لاستدعاء ممثلى الشعب الفلسطينى أو الملك حسين..

ومنذ أيام أعلن السيد شمعون بيريز رئيس الحكومة الإسرائيلية المنتظر أنه لابد من «الحل الأردنى» - أى ضرورة استدعاء الملك حسين فورا ليتحدث باسم الشعب الفلسطينى فى القضية الغربية. لأن الفلسطينيين فى الضفة هم أحق الناس بالتفاوض فى مستقبل الضفة، ثم إنهم بعيدون عن التيارات المتطرفة للمنظمات الفلسطينية.

وقد أعلن الرئيس السادات للسيد بيريز أيضا: أن الخيار الأردنى سابق لأوانه..

وأبدى السيد بيريز هو الآخر تخوفه من أن تنزلق الاشتراكية الدولية فى تأييد منظمة التحرير الفلسطينية، بينما يلاحظ أن نفوذ السيد عرفات ينحدر ضعفا وعجزا عن القرار.



وإذا كان لابد من عبارات لها طعم العسل وآثار السم أيضا. فلنذكر ما قاله الفيلسوف - الانجليزى المثالى الحالم: توماس مور.. يوم تخيل مخلصا أن من الممكن أن يتحقق العدل والسلام والرفاهية على الأرض. فاختار جزيرة نائية..

وبعد أن وضع حدودها وقواعدها وكتب لها شهادة ميلادها فإنه بمنتهى المرارة قد طوى شهادة الميلاد مع شهادة دفن هذا الوليد الفلسفى: فقال: إن ما نراه فى دنيانا ليس إلا استغلالا «حقيرا» يقوم به الأغنياء ضد الفقراء، تحت شعار اسمه الرخاء الإنسانى، والأخوة الرحيمة حتى تكون الأرض صورة للسماء حيث كل من فيها ملائكة يلتفون حول عرش الله؟!..

وتصبح هذه العبارة معقولة اليوم، إذا استبعدنا صفة «الحقارة».. وبعد ذلك يكون كل شئ مقبولا من الجميع: بيع وشراء، عرض وطلب.

أما بقية الأخلاقيات فهى آداب التجارة والسياسة.. ولا عيب فى ذلك. ثم ماذا يضيرنى أو يضيرك إذا كنت تكسب وأنا أيضا.. وأن نقف معا دفاعا عن أنفسنا: عن البائع والمشترى؟..

وإذا ضايقك أن تكون هذه هى حقيقة العلاقات بين الناس والدول فلا تؤاخذنى ولا

غيرى، إذا اتهموك بالسذاجة الفكرية والمراهقة السياسية، وأن ميلادك قد جاء متأخرا عشرات القرون!.. ■

في البيت الأبيض
من الذى فعلها؟!

في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٥ بعث ونستون تشرشل برقية إلى الرئيس الأمريكي هاري ترومان يقول: ماذا يحدث فى روسيا؟ لا أحد يعرف ، لقد أنزلوا ستارا حديديا على حدودهم، ولا أحد يدرى ما الذى يفعلونه وراءها.

أى أنه بمقارنة ما تفعله الدول الديمقراطية الغربية، فإن ما يحدث فى روسيا شئ غامض، ففى الدول الغربية تدور مناقشات ووجهات نظر فى كل أجهزة الإعلام، ثم تنتقل إلى البرلمان، وتستأنف المناقشات التى تنشرها الصحف، وبعد ذلك يكون القرار، فكل شئ يتم علنا، أو يعلن حتى قبل أن يتم، ولا شئ من ذلك فى روسيا.

ولانهاية للأمثلة على ذلك فى كل ما يحدث بين أمريكا وروسيا، أو بين روسيا وكل العالم الغربى. فهل من عيوب النظام الشيوعى ألا يعرف الأعداء ماذا يفكرون فيه؟ هل من مزايا النظام الرأسمالى أن الناس يعرفون كل شئ، وأنه لا توجد أسرار؟ بل إننا نعيش فى عصر «تجارة الأسرار»، فكل رجال المخابرات الغربية يبيعون كل أسرار الدول التى قد احتفظت بها لديهم.. فهم يفضحون شعوبهم بأغلى الأسعار!..

وهل صحيح أن الدول الغربية بكل ما فيها من وسائل الوضوح والفضيحة، غير قادرة على أن تخفى أسرارها؟.. أو أنها تستخدم الوضوح طريقا إلى إخفاء معالم القرار؟.. أليس نشر المعلومات الكثيرة المتضاربة المثيرة، ستارا ضوئيا وصوتيا تتستر

نشر هذا الموضوع فى ١٦/٣/١٩٨٠

وراء الحكومات، عند اتخاذ القرار الذى تريده؟..

فليس صحيحا - إذن - أن «الستار الحديدى» هو الوسيلة الوحيدة للتخفى أو التعمية.. بل إن «الستار الحريرى» أو «الدخان الضوئى» من الممكن أن يضلل الرأى العام، ويعميه تماما عن معرفة الحقيقة - أى حقيقة القرار الذى تتخذه الدولة! تماما كما تسلط الضوء على عين إنسان فلا يرى.. فقد عطلت عينيه عن الرؤية - رغم أن هناك ضوءا كثيرا!..

ومنذ أيام اشتعلت النار بين أمريكا وإسرائيل، وبين أمريكا والعرب، وبين أمريكا والعالم الغربى كله، والضحية: الاحترام الذى يحتفظ به العالم لأمريكا القوية أو لرئيسها المؤمن!..

فقد رفع المندوب الأمريكى ما كهنرى يده معلنا موافقته على القرار ١٣٨٢٧، الذى يدين بناء إسرائيل للمستوطنات على الأرض العربية التى احتلتها سنة ١٩٦٧.. وأعلن رئيس مجلس الأمن مندوب جامايكا: ١٥ صوتا لصالح القرار، ولم يعترض أحد، ولم يمتنع أحد!.

ونظر المندبون جميعا وقالوا: لقد فعلتها أمريكا، أخيرا وجدت الجرأة على أن تشترك مع العالم كله فى إدانة إسرائيل.. لأول مرة!.. وكان القرار قد ذكر مدينة القدس سبع مرات، وأدان بناء المستوطنات، وطالب بفك المستوطنات التى بنيت وعددها مائة مستوطنة، وطلب من العالم كله ألا يساعد إسرائيل على بناء أية مستوطنة.

أما القدس فهى جزء من الضفة الغربية المحتلة!.

وبنفس الحماسة الى غضبت بها إسرائيل ويهود العالم، استراح العرب إلى أن كارتر أكد من جديد موقفه من عدم شرعية بناء مستوطنات على أرض الغير، وقال اليهود: لعنة الله عليك يا كارتر، وقال العرب: بل رحمة الله عليك - يقصدون أن يرحمه الله من الرأى اليهودى الأمريكى والعالمى!..

ومن أقصى جنوب أمريكا.. أتصل المبعوث السابق روبرت اشتراوس بالبيت الأبيض يقول: ما هذه المصيبة؟!.

وهو يقصد ضياع أصوات الناخبين اليهود فى نيويورك وكاليفورنيا والينوى وفلوريدا.. وهذا الرجل هو الذى يتولى الحملة الانتخابية لإطالة عمر كارتر.

ومن أوروبا اتصل المبعوث شاءول لينوفيتس يستوضح كيف يواجه هذه الكارثة الى سوف تعرقل مفاوضات الحكم الذاتى بين إسرائيل ومصر.

ومن إسرائيل أعلن مناحم بيجين: أن هذا القرار لعين ولا مبرر له!.. وأعلن زعيم المعارضة شمعون بيريز: لا أفهم غضب الحكومة الإسرائيلية.. إن أغلبية الوزراء يرفضون بناء المستوطنات، ثم إن الحكومة هى التى تفضح نفسها بنشر مناقشات مجلس الوزراء، ثم تغضب إذا أخذ الرأى العام فى أمريكا أو فى العالم بوجهة نظر أكثر الوزراء..

وعيزر فايتسمان يخشى على إسرائيل وعلى يهود العالم من «العداء للسامية» - أى من أن يؤدى تشدد بيجين إلى كراهية العالم لإسرائيل واليهود. لأن فى الدنيا هموما ومشاكل أخرى غير إسرائيل!.

وفى مصر يعلن الرئيس السادات أن القرار الأمريكى شجاع ويتفق مع روح كامب دافيد..



وبعد ساعات صدر بيان من البيت الأبيض يعتذر عن التصويت لصالح القرار.

فيغضب العرب، ولا يرضى اليهود..

ويشعر الغربيون بالأسف الشديد لهذا «التلعثم» الأمريكى فى نطق القرار، ويتساءلون: من الذى نصدقه؟ هل نصدق البيت الأبيض؟ هل نصدق وزارة الخارجية؟ هل نصدق البيت الأبيض؟ هل نصدق وزارة الخارجية؟ هل نصدق الأمم المتحدة؟ هل نصدق الصحافة؟

وعلى طريقة المسلسلات البوليسية الأمريكية نتساءل: من الذى فعلها؟ أى من الذى أرتكب هذه الجريمة؟. أما الذى حدث فهو أن وزارة الخارجية الأمريكية والبيت الأبيض وعددا من المستشارين قد أمضوا شهرا كاملا فى صياغة قرار إدانة بناء المستوطنات الإسرائيلية. ولابد أنهم راجعوا كل كلمة. وبعد هذه الصياغة بعثوا بها إلى المندوب الأمريكى الزنجى ما كهنرى، للتصويت عليها. وطلبوا إليه بعض التعديلات، من بين هذه التعديلات أن يحذف «معظم» الإشارة إلى مدينة القدس، لأن اتفاقية كامب دافيد نصت على أن مناقشة القدس تدخل ضمن مناقشات الحكم الذاتى. ولاتزال هذه المناقشات مستمرة. وأن إبداء الرأى الأمريكى فى هذه القضية نوع من الضغط على إسرائيل. وأن هذا الضغط ليس لصالح إسرائيل، وليس لصالح أمريكا فى هذه السنة التى يستعد فيها كارتر ليكون رئيسا لفترة جديدة.

وبعث المندوب الأمريكى بالصيغة النهائية إلى سيروس فانس وزير الخارجية. ليعرضها على الرئيس الأمريكى لإقرارها. واتصل فانس بالرئيس الأمريكى فى استراحة

كامب دافيد. وكان الرئيس لم يقرأ القرار. ونسى أن يحضره معه، ودار بينهما حديث بشأن «جميع» المواضع أو «معظم» المواضع التى وردت فيها كلمة القدس. واتصل وزير الخارجية بالمندوب الأمريكى، وأبلغه التعليمات النهائية وهى أن يمتنع عن التصويت إلا إذا حذفت الفقرة التى تطالب إسرائيل بمراعاة حرية أداء الشعائر فى القدس لكل الأديان. وأنه لا مانع من إدانة بناء المستوطنات. على أن يشرح بعد التصويت. وجهة النظر الأمريكية؟!

وصدر القرار بالإجماع. وانقلبت الدنيا على رأس الرئيس الأمريكى كارتر. ونودى سيروس فانس. واعترف بمسئوليته الكاملة عن هذا القرار.

وكان أساس الخلاف أن كارتر طلب حذف كلمة القدس من «جميع» المواضع، وفانس فهم أنه يقصد «معظم» المواضع!.

وجاء بيان البيت الأبيض أربع فقرات، فى العاشرة مساء، يقول إن هناك «فجوة اتصال» بين البيت الأبيض فى واشنطون وبين المندوب الأسود فى نيويورك، ولم يعرف أحد حتى الآن ما هو المقصود بفجوة الاتصال هذه.

هل هى فجوة فى الفهم أو هى خطأ فى البرقيات الشفرية التى بين الرئيس ووزير الخارجية، أو بينهما وبين المندوب فى مجلس الأمن؟..

أحد الأمريكان الرسميين: أن يحدث هذا من أمريكا فهو شئ غيرمعروف ولو حدث ذلك من جزر المالديف أو دولة أفريقية، لكان سببا معقولا، ولكن من أكبر دولة، وأكبر جهاز معلومات فى العالم؟!.

فهل الذى نشر فى الصحف هو ما حدث فعلا؟ هل هو خطأ فى القرار الأمريكى؟ هل هى صعوبة «توصيل» القرار من الرئيس إلى الوزير إلى المندوب؟ أو أن هذا الموقف هو من معالم السياسة الأمريكية فى عهد كارتر؟.

وبذلك تراكمت المعلومات الكثيرة حتى صارت حائطا منيعا كالستار الحديدى، يحجب الحقيقة..

وفى العام الماضى أطاح البيت الأبيض بالمندوب الأمريكى الزنجى أندرويونج، لأنه التقى بالمندوب الفلسطينى دون إذن من الحكومة التى لا تعترف بمنظمة التحرير، لأنها لا تعترف بإسرائيل.

هل هذا القرار خطير لأنه يشبه قزما يقف على كتفى عملاق من القرارات الخاطئة؟.

أما القرارات التى لها طعم الكارثة فى أمريكا نفسها، فهى: فشلت كل القرارات لتخفيف التضخم النقدى.. وقرار تجنيد المرأة ثم موت هذا القرار.

لقد جاء كارتر إلى الحكم بعد أن أعلن أنه سوف يخفض القوات الأمريكية فى كوريا الجنوبية، وعدل عن ذلك.

وأعلن عن حماية حقوق الإنسان فى العالم، وعدل عن مناقشة انتهاك حقوق الإنسان فى بلاد كثيرة!.

ثم إن كارتر جعل سفراءه شهورا فى أوروبا، يقنعون حكوماتها بضرورة إنتاج قنبلة النيوترون، ثم ألغى قرار إنتاجها!..

وفى ليلة رأس سنة ١٩٧٧ كان كارتر فى طهران يراقص الامبراطورة، ومع انطفاء أضواء رأس السنة همس فى أذنها يقول: إن إيران جزيرة من الأمان! وبعد عام واحد كان يطلب إلى الشاه أن يغادر إيران - وكانت صدمة لكل الملوك والأمراء فى الخليج، وكل حلفاء أمريكا، فقد تخلى قبل ذلك عن فيتنام وعن فرموزا.

وبعد طرد الشاه، بعث بإحدى قطع الأسطول الأمريكى إلى الخليج، ثم عاد فسحبها إلى موانى الفلبين!.

وعندما اهتدت طائرة التجسس الأمريكية إلى وجود لواء مسلح سوفيتى فى كوبا، أعلن كارتر: أن هذا وضع غير مقبول إطلاقا، وأعلن السوفيت أن هذا اللواء موجود منذ عشر سنوات، ورد كارتر على ذلك بقوله: إن هذا اللواء لا يساوى أن نبدأ حربا باردة مع السوفيت!..

وموقف كارتر من الرهائن الأمريكان فى طهران، قد جمع وراءه العالم كله، والرأى العام الأمريكى قد أعطاه كل تأييد عاطفى ومادى.. واستطاع أن يستخرج قرارات من الكونجرس بتحريك الأساطيل واتخاذ القواعد البحرية، ورصد بلايين الدولارات فى ميزانية التسلح ولم يستطع أن يفعل شيئا.

وعندما دخل السوفيت إلى أفغانستان، وأطاحوا بها، وأراقوا دماءها، لم يفلح كارتر فى اقناع باكستان بقبول المساعدة الأمريكية. وهدد كارتر بفرض الحصار الاقتصادى على السوفيت، ولم تطاوعه دول غربية كثيرة، بل إنه اكتشف أن روسيا كانت قد تعاقدت مع الشركات الأمريكية على ١٧ مليون طن قمح.. وأنه يستحيل الرجوع فى هذه الصفقة، وإلا اضطربت البنوك الأمريكية.

وأعلنت الأرجنتين أنها على استعداد لأن تبيع للسوفيت ما يحتاجون إليه من مخزون القمح، ورفضت الأرجنتين أى تدخل من أمريكا فى سياستها الاقتصادية!..

ووقعت أمريكا فى مشكلة مع كل الدول الأوربية.. فقد أصدرت أمريكا تعليماتها

إلى البنوك الأمريكية بتجميد أموال إيران، ووجدت أمريكا لذلك سببا هو: صيانة الأمن القومى.. ولكن الدول الأوربية تقدمت بهذا التساؤل: هل البنوك الأمريكية فى أية دولة لا تخضع لقوانين الدولة، أو أنها دولة فى داخل الدولة؟!

ولم تفلح أمريكا فى أن تنفذ ما قررته على بنوكها فى العالم كله..

وعندما طلبت أمريكا إلى حلفائها ألا يشتروا البترول الإيرانى، كانت اليابان أول من تقدم لشراء البترول بسعر السوق الحاضرة فى روتردام!..

ولما أعلن كارتر ضرورة مقاطعة الدورة الأولمبية فى موسكو، ترددت دول كثيرة فى السير وراء أمريكا أو إلى جوارها، بل إن العالم الرياضى رأى فى هذا القرار إقحاما للسياسة فى الرياضة، مع أن الرياضة هى وسيلة نبيلة لتذويب الفوارق بين الناس، سياسيا واقتصاديا وعنصريا!.

وإذا كانت أمريكا فى الثلاثين عاما الماضية قد أقامت سياستها: على التهديد بالقوة دون استخدامها، وقد تأكد ذلك فى ٢١٤ حادثة تاريخية معروفة، فإنها فى هذه المرة قد استخدمت سياسة الخطوة خطوة - خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، أو خطوة فى الظلام وأخرى فى النور.. أو إنها اتخذت سياسة: الوزير يغلط، والرئيس يعتذر!..

ولم يحدث أن أهينت أمريكا فى عصر من العصور، كما أهينت هذه الأيام. والسبب هو: ضعف القرار الأمريكى، أو عجز أمريكا عن اتخاذ القرار.

ولكن هذه النتيجة تعتبر ظالمة إذا ما نحن راجعنا موقف أمريكا من اتفاقية كامب دافيد، فقد كانت أمريكا طرفا، ولاتزال، ثم إن أمريكا ساعدت الطرفين، وزودت مصر بالسلاح لتواجه الموقف الجديد فى الشرق الأوسط، بعد الزحف السوفيتى على أفغانستان واليمن وأثيوبيا وليبيا.. وغدا على سوريا!..

وأعلنت أمريكا استعدادها للدفاع عن دول الخليج - أى عن آبار الخليج. ولكن هذه الخطوات المترددة الأمريكية قد أفقدت العالم الثقة فى كارتر. ولذلك تردد كثيرا أن سكوت أمريكا على الوجود السوفيتى فى أفغانستان، قد أعطاها فرصة لوجودها البحرى والجوى فى الخليج وفى الصومال وفى المحيط الهندى - أى أن هناك اتفاقا بين دولتى الوفاق!..

ورغم خوف إيران من السوفيت، ورغم موقف العراق من الشيوعيين والبعث السورى، ورغم الانهيار الملكى فى السعودية، فإن أحدا لم يساعد أمريكا فى موقفها الصعب فى المنطقة!.

هل أمريكا تنتقل من عقدة إلى عقدة؟..

كانت عقدتها الأولى: الانعزال عن أوروبا.. ثم دخلت أوروبا فى الحرب العالمية الثانية، ولم تخرج ولن تخرج، وكانت عقدتها الثانية: فيتنام، دخلت فيتنام ولم تخرج إلا بهزيمة عسكرية وفضيحة سياسية وعار قومى وعالمى، وخرجت أمريكا من فيتنام، ولكن فيتنام لم تخرج من دم أمريكا وكرامتها..

وكانت عقدتها الثالثة أنها تبنت إسرائيل بفهم أو بغير فهم. فى الحق والباطل، ولكن استطاع كارتر أن يتجاوز كل المخاوف، فأصبح طرفا ثالثا، ومعارضا لإسرائيل من أجل التخلص من عقدة أن إسرائيل هى التى تحكم أمريكا، وحتى لا يخسر العرب الذين يكسبهم السوفيت!.

فهل يكتفى العالم كله الآن بالاقتناع بالموقف الأخلاقى الساذج للرئيس كارتر الذى «شتم» السوفيت لأنهم خيبوا أمله بعدوانهم على أفغانستان؟..

فقد كان الرئيس كارتر يعتقد: أن الروس لا يحاربون خارج بلادهم، إذا حاربوا. وكان ذلك أملا للرئيس الأمريكى يتمنى أن يتحقق!.

ولكن الأمل كان وهما، أو كان فهما خاطئا للسوفيت، وعلى الأمريكان وغيرهم أن ينتهزوا هذه الفرصة، ليحرقوا كتب السياسة القديمة التى تقول إن الروس يشعلون النار بأيدى الآخرين فى أرض الآخرين، أما أغصان الزيتون فهى غرس أيديهم وقمة صادراتهم!..

وإذا استطعنا أن نزيل من أمام عيوننا هذه الستائر الحديدية أو الحريرية من المعلومات المتضاربة، فيمكننا أن نتساءل:

هل قرار مجلس الأمن الذى ثار عليه اليهود والعرب معا، بهذه الضخامة والخطورة؟..

إن قراءة أخرى للقرار تعطينا هذه المعانى: أن أمريكا تدين بناء المستوطنات على الأرض العربية المحتلة، وهذا رأى أمريكى قديم، ثم أنها تطالب بهدم أو فك المستوطنات التى أقيمت، وهذا القرار يصعب تنفيذه، إن إسرائيل نفسها لم تفلح فى ذلك إلا مرة واحدة!.

أما القدس.. فأمريكا رأيها معروف فى أتفاقية كامب دافيد، ورأينا نحن أيضا معروف، والذى جاء فى القرار إضافة جديدة للموقف الأمريكى، وهذا هو الذى يهم، أما الاعتذار عن ذلك فلا غير من القرار، ولا يغير من أن جانبا كبيرا من الإدارة الأمريكية

قد ضاق بالتعنت الإسرائيلى فى إقامة مستوطنات فى مدينة الخليل العربية.

ولابد أن إسرائيل، بسبب العناء الاقتصادى وبسبب الضيق العام من حكومة بيجين وهبوط شعبيته وارتفاع شعبية المعارضة، تريد أن تكسب أرضا جديدة..

وربما كان ذلك كله تبسيطا شديدا للأمور، ولذلك فهو تبسيط مضلل فالرأى العام الأمريكى تتحكم فيه أجهزة الإعلام، التى تتحكم فى العالم أيضا، وهذه الشوشرة الإعلامية قد أفلحت فى تعميق الحيرة وإخفاء الحقيقة.. حقيقة الصراع فى البيت الأبيض بين فانس وبرزنسكى، أو بينهما وبين شا ءول لينوفتس، أو بينهم وبين روبرت اشتراوس أو بينهم جميعا وبين المنظمات اليهودية، أو بين أمريكا والعالم العربى الذى تهدده الشيوعية!..



وكنا ولا نزال نقول للذين يدرسون الصحافة، هذه المبادئ الموجزة:

إن الذى تراه : خبر

والذى تعرفه : تاريخ

والذى تحسه : رأى

ولكن هذه «التعريفات» إذا وجدتها فى قاموس الصحافة، فلن تجدها فى قاموس السياسة، وإذا عثرت عليها فى البيت الأبيض فلن تجدها فى وزارة الخارجية أو فى الكرملين أو الكنيست أو مجلس الشعب!..

ولكن هذه هى قواعد «اللعبة» - لعبة السياسة، التى تشبه الإنهار التى تتعرج بين الشاطئين، وتدور حول الجنادل والعوائق الصخرية، وتتسرب تحت الأرض لتظهر فى مكان آخر.. وتتبخر لتصبح سحابا يهبط على الجبال مطرا تمتلئ به الأنهار من جديد..

وتشرشل هو الذى قال عن الروس أيضا: إن سياستهم فزورة فى داخل لغز فى قلب طلسم.. ولابد أن لهذه السياسة مفتاحا، هذا المفتاح هو المصلحة القومية!..

ولا أظن أن روسيا وحدها هى التى تنفرد بإخفاء شئ فى شئ من أجل شئ آخر..

ومع ذلك فالقرار الأمريكى، رغم الاعتذار بسبب صعوبة «المواصلات» بين واشنطون ونيويورك، موقف إيجابى لأمريكا فى سنتها الانتخابية الجنونية!.. ■

ثم أصبحت الدول العربية خائفة ..

ليس كل عنف إرهابا سياسيا، ولكن كل إرهاب سياسى هو عنف.

ونحن فى عصر تستعير فيه العصابات صلاحيات الحكومات، وتستعير فيه الحكومات أسلوب العصابات. والنتيجة: دماء الأبرياء. وهى ظاهرة عالمية، فما الذى يحدث فى الشرق الأوسط مثلا؟..

كانت مبادرة السلام مثل الصواعق الرعدية - التقاء شحنات كهربية سالبة وموجبة أدى إلى هذا الدوى الهائل والضوء الباهر. وفى هذه الصاعقة الخاطفة وبسببها رأينا أنفسنا بسرعة. وفكرنا وقررنا ما الذى يجب أن نفعله بعد ذلك. فقد أدت المبادرة إلى أن يكون هناك «قبل ذلك» و «بعد ذلك».

أما إسرائيل فقد فوجئت بما حدث فلم تكن مستعدة للسلام، إنما قامت وأقامت كل مؤسساتها على أن هناك حربا دائمة. وعندها مبررات تاريخية قديمة فى العالم كله، ومبررات حديثة فى الشرق الأوسط. ولم تفلح إسرائيل فى أن تتغلب على الخوف وعدم الشعور بالأمان والعزلة، والغربة والشذوذ - فإذا كانت الحرب أو الخوف منها - قد جمعت شتات اليهود فى داخل إسرائيل. فإن السلام قد أدى إلى الاختلاف والتفكك والخوف من ذلك.

ولكن إسرائيل ليست هى المقصودة هنا، فهى قادرة على أن تواجه مشاكلها بنفس

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٠/٣/٩

حماستها للحرب، ولكن ما الذى فعلناه نحن العرب؟..

هناك تشابه بين الموقف العربى والموقف الإسرائيلى، بعد مبادرة السادات. فإسرائيل فوجئت بأنها سوف تحارب العرب بغير مصر.

والعرب فوجئوا بأنهم سوف يحاربون إسرائيل بغير مصر. فهل مصر جردت العرب من سلاحهم وهو الجيش المصرى. وأعطت هذا السلاح لإسرائيل؟.

إن مصر لم تجرد العرب من جيشهم المصرى. فلا تزال مصر تحارب إسرائيل ولكن بأسلوب آخر وبفهم جديد وباحترام عالمى. فأرضنا تتحرر. والقضية الفلسطينية تنحل أيضا. أو فى طريقها إلى ذلك. وكل الطرق السياسية. عبر الكلمات والحروف فى القواميس المختلفة. شاقة ومعقدة..

واتفق العرب على أن يختلفوا مع مصر. واتخذ الخلاف اسما غامضا: هو الرفض. أى رفض الموقف المصرى. دون الاهتداء إلى موقف إيجابى واحد . وبعد أن رفض العرب الحل المصرى عادوا فرفضوا أنفسهم واحدا واحدا، أى انهم لم يكتفوا برفض مصر. بل ذهبوا إلى رفض العروبة.. ورفض التضامن فى مواجهة إسرائيل وحدها. وإسرائيل ومصر وأمريكا معا ثم العالم كله الذى يحرص على السلام.

وإذا كان لابد من تجسيم معنى الرفض فهو كلمة: لا.. فقد أقامت الدول العربية تمثالا عاليا من الرخام اللامع الجامد البارد لكلمة «لا» فى كل العواصم. ودارت الحكومات العربية - دراويش الرفض - تقدم القرابين للصنم الجديد!.

أو بعبارة أخرى: أدارت الدول العربية ظهرها. بعضها لبعض. ثم للمشكلة كلها. وعندما فعلت ذلك لم يعد أحد يرى الآخر، ولا يرى القضية. وتمشيا مع المغالطات العربية: فإن الشئ الذى لا يرونه. ليس موجودا!.

وهكذا اعدموا التضامن بين العرب، ونسفوا العروبة وفلسطين. لأنه ليست هناك مشكلة يرونها!.

لو بعبارة أخرى: إن العرب مثل مجموعة من البيض الهش. قد وضعت فى سلة من نسيج العنكبوت. فهم يخافون أن يضغط أحدهم على الآخر. وفى نفس الوقت أن يضغطوا كلهم على هذا النسيج الواهى الذى يجمع وحدتهم..

فالخوف من مواجهة إسرائيل بغير مصر قد جعلهم يهربون من المواجهة. وبذلك استحقوا تعبيرا جديدا يدل عليهم هو «التضامن الهربى».

وكما هى العادة فى النظر إلى الموقف العربى كله: فلابد أن نختبره فى أضواء

جديدة.. أو بمناسبات مفاجئة..

لابد أن تكون السعودية هي بداية كل الخيوط التي تمسك العواصم العربية..

فالخوف يسود العلاقات العامة والخاصة في السعودية. منذ وقت بعيد، أي منذ اغتيال الملك فيصل. فقد اغتاله أحد الأمراء. وكما دفن الملك فيصل في التراب بمنتهى التواضع، دفنت معه التفسيرات المختلفة لهذه الجريمة. وقيل: إنه ثأر قديم بين أمير وعمه الملك.

وسكتت الدول العربية كلها. وكانت مؤامرة للصمت على ما يجرى. أو سوف يجرى في السعودية، لأنها الدولة التي يحتفظ لها المسلمون والعرب وأوروبا وأمريكا بعظيم الاحترام. ثم إن هناك اتفاقا غير مكتوب بيننا جميعا: ألا نجعلها طرفا في أي نزاع. هي تريد. ونحن ذلك..

ولكن مؤامرة الصمت هذه لم تعش طويلا، فقد أدت ثورة آية الله الخميني إلى إشعال الثأر القبلي والمذهبي والاجتماعي تحت رماد الصمت والتخفي والتستر على وجود أكثر من «شاهنشاه» في المملكة وإمارات الخليج المربوطة في ذيل السعودية وفي ظلها.

وسارعت السعودية إلى العراق، خوفا من العراق وخوفا من إيران ومن الفلسطينيين..

وقبل ذلك لم تستطع السعودية أن تلوم سوريا على ما فعلته في لبنان، بل إن هناك أدلة رسمية لدينا في مصر، تؤكد أن السعودية تدفع أكثر إذا أوغلت سوريا في لبنان، واختصرت عدد الفلسطينيين والموارنة أيضا ؟!.

وفي مؤتمر بغداد هدد صدام حسين السعودية باغتيال أمرائها في غرفهم الخاصة.. وامتدت يد حافظ الأسد بقائمة طويلة من الأمراء الذين سوف تذبحهم بعض المنظمات الفلسطينية المتطرفة - لولا تدخل سوريا ؟! فأجزلت السعودية العطاء لحافظ الأسد وأخيه رفعت الأسد..

وإلى ليبيا سارع الملك خالد خوفا من القذافي، الذي تدرب لديه الأمير الذي اغتال الملك فيصل..

وفي ليبيا تدرب الإرهابي كارلوس الذي خطف كل أعضاء الأوبك في فيينا في ديسمبر سنة ١٩٧٥. وكارلوس إرهابي من فنزويلا وأقام في موسكو، وكان على صلة بمخابرات كوبا في باريس، وقبض مليون دولار من القذافي!.

ولم تستطع السعودية أن تفعل شيئا عندما اغتال رئيس يمني رئيسا يمنيا آخر.

ولا عندما تسلل قوات يمنية إلى السعودية. ولا عندما انتقلت الأسلحة من اليمن إلى مكة. تمهيدا للاعتداء على حرمات المسلمين: المسجد الحرام فى الشهر الحرام. فتزلزلت حرمات الأسرة المالكة السعودية: بالمنشورات والكاستات والميكروفونات.

وبذلك انتقل الخوف إلى قلب السعودية. فهى خائفة من الذين حولها. وخائفة من الذين فى داخلها..

وكما خافت من سوريا وشجعتها أيضا، خافت من ليبيا التى اعتدت على تونس ولم يستطع أحد أن يشير بإصبع اتهام واحدة إلى القذافى، بل إنهم أعدوا له فى اجتماعهم الأخير فى تونس إناء غسل فيه يديه من دم التونسيين الأبرياء.. وكان الذى يصب عليه الماء ممثلو الدول العربية الأخرى!..

وفى أوائل مارس سنة ١٩٨٠ جاءت شخصية إلى القاهرة، كانت فى لقاء مع الحبيب بورقيبة. وروت أن الحبيب بورقيبة فى حالة فزع، وأنه كان ينهض متشنجا ويتساءل: لماذا يترك السادات هذا الولد المجنون؟ لماذا لا تهجم القوات المصرية على ليبيا؟ إن أحدا لم يفلح فى إرهاب القذافى مثل السادات، لماذا لا يضرب ليبيا بعد أن أصبح آمنا من أى عدوان إسرائيلى؟..

وفى إحدى الحفلات بالقاهرة فى الأسبوع الماضى تساءل مسئول تونسى، وكان حريصا على أن يسمع الحاضرون ما يقول: ما الذى ستفعله مصر إذا فوجئت بالحبيب بورقيبة فى مطار القاهرة..

لعله أراد أن يختبر رد الفعل الرسمى لهذه الشائعة. أو لعله أراد أن يخيف بها القذافى.

وجاء مسئول أردنى إلى القاهرة بشائعة جديدة: أن القذافى قد استخدم الفريق الشاذلى ليقود قواته إلى داخل مصر، فالقذافى ليس خائفا!.

ونحن نعرف أن الفريق الشاذلى قد تنقل بين العراق والجزائر وليبيا، وحصل على الجنسية الليبية وكثير من الدولارات أغرقته فى بحار من الخمر. فلم يعد يعرف إن كانت مصر تقع إلى الغرب أم إلى الشرق من ليبيا!..



وقد وصف المؤرخون العسكريون هزيمة نابليون وهتلر فى الأراضى الروسية بأن الذى انتصر عليهم هو الجنرال شتاء - يقصدون أن فصل الشتاء بجليده وعواصفه وأوحاله هو الذى أرهق القوات الفرنسية والألمانية التى غزت روسيا..

أما جنرال الذى هزم العرب الآن فاسمه: الخوف.. الجنرال خوف.. أو المشير خوف!.

وكان للخوف عند العرب مظهران:

المظهر الأول أنهم اضطروا إلى أن يكونوا معا بغير مصر.. والمظهر الثانى أنهم خائفون إن اقتربوا من بعضهم البعض فهم يتقاربون ولكن لا يتعانقون.. فهو نوع من الاقتراب الخائف، أو التقارب المخيف. ولذلك يجب أن تكون بينهم مسافات. هذه المسافات تملؤها كلمة: لا.. لا.. وألف لا. إنهم مثل حيوانات القنفذ ذات الأشواك الحادة. إنها تتقارب إلى حد ما. ولكن لا تتعانق. وإلا كان العناق شائكا قاتلا!..

فما هى المشكلة الآن؟..

المشكلة. أننا لا نحلل ظاهرة الخوف هذه.. ولا نبحث عن أسبابها تمهيدا لعلاجها، كما أن تجاهلنا لهذه الظاهرة هو ابقاء عليها. واستسلام لها. وبذلك يكون الخوف طبيعيا.

وبسبب هذا التجاهل فإننا نذهب إلى البحث عن أسباب أخرى للشلل العربى أو «التضامن الهربى»، ومعنى ذلك أننا نضيف الجهل إلى الإهمال فى تفسيرنا للواقع الجديد بعد مبادرة السلام وبعد التفكك العربى. والانقلابات الداخلية فى إيران والسعودية وسوريا وليبيا وافغانستان، وغدا فى المغرب وتونس..

بينما نجد أن إسرائيل أسبق إلى معالجة هذه الظاهرة فى داخلها وخارجها - أى فى مصر مثلا، فقد جاء إلى القاهرة بعد المبادرة علماء كثيرون من إسرائيل يتحسسون نبض الشارع المصرى. فالسلام بين الشعوب وليس بين الحكومات فقط والتطبيع ليس على المستوى الرسمى، إنما الأمل هو أن يكون بين شوارع القاهرة وتل أبيب، بين محمد وكوهين: فهل نحن نريد السلام حقا؟ وهل إذا أردناه مضينا فيه؟ وهل إذا مضينا فيه كنا شعوبا؟..

وليست هذه قضايا سياسية إنما هى قضايا إنسانية، لأن السياسة معناها: مشاركة الشعب فى الحكم وتوجيهه وتحديد أهدافه. ولكن قبل ذلك: يجب أن نعرف الشعب نفسه. أى الجانب الإنسانى من عملية السلام السياسى بين مصر وإسرائيل. وهذه ميزة للأوروبيين الإسرائيليين علينا نحن الشرقيين. فهم أسرع إلى التشخيص والعلاج.

وربما كان نشاطهم هذا منزلقا نقع فيه. فنحن لم ندرس ولم نحلل بعد. وهذا سوف يوقعنا تحت إغراء ما أصدروا من أبحاث ومن كتب. فنرى مشاكلنا بعيونهم، ونشم آثار الأحداث بأنوفهم. وقد تضيق بذلك. وقد نرفض - تماما مثل كل العرب. ولا نذهب إلى أبعد من الرفض والاستنكار!.

وقد بادرت بعض الهيئات الأمريكية بدعوة عدد من الأطباء وعلماء النفس والاجتماع والتاريخ من مصر وإسرائيل. والتقوا جميعا «سرا» فى فندق ووترجيت فى واشنطون. وكان موضوع الحوار بينهم: الحوار أولا.. ثم القضايا الخلافية بين العرب واليهود. وبين القبارصة والأتراك.. ثم «تطبيع» العلاقات. وكان اللقاء «سرا» لأنهم لا يريدون أن يكونوا هدفا لأجهزة الإعلام العالمية. تطاردهم وتسحب ألسنتهم ليقولوا أى شئ. ولكنهم مجموعة من العلماء والباحثين يريدون أن يفكروا على مهل، ليكون رأيهم فى النهاية علميا مفيدا للجميع..

وقد وعدت ألا أنشر شيئا عن كل أبحاثهم التى بين يدى، احتراما لرغبة علماء جادين مهمومين بالقضايا النفسية بين الشعوب. ولكن إذا كان من الضرورى أن يقال شئ عن هذا الاجتماع، فهو من أجل التفسير النفسى للأوضاع السياسية فى الشرق الأوسط. أو هو محاولة لبلورة التفسير السياسى النفسى لأزمات الشرق الأوسط.

فهل هى مصادفة أن يكون اللقاء فى فندق ووترجيت الذى التصقت باسمه أكبر فضيحة سياسية نفسية فى القرن العشرين؟.. هل هؤلاء العلماء قد استشعروا طعم الفضيحة السياسية النفسية فى الشرق الأوسط أيضا، ولذلك قرروا إنقاذنا منها.. أما الفضيحة فهى: أن لدينا مشاكل نفسية، نتضامن جميعا على إخفائها حتى لا نتحمل عبء مواجهة أنفسنا وشعوبنا التى تصرخ فينا أن نجد لها حلا؟!..

وأحسن نموذج للخائف المخيف هو الرئيس معمر القذافى، فهو يشارك فى كل أعمال العنف. ابتداء من أيرلندا حيث الصراع بين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، إلى جزيرة مندناو بين المسلمين والمسيحيين، إلى أثيوبيا والصومال بين الشيوعيين والمسلمين. إلى المغرب والجزائر والبوليساريو، ويعمل على اسقاط تونس.. ثم إنه خائف من الشعب الليبى، فاستعان بقوات كوبية وألمانية شرقية وسوفيتية لحمايته..

ثم إنه ، أولا وقبل كل شئ خائف من مصر.. وعلماء النفس يرون أن أحد أسباب العدوان هو الخوف.. ويلاحظون ذلك فى عالم الحيوان فالحيوانات لا تعتدى إلا من أجل الحصول على الطعام. ولكنها حين تشبع فإنها لا تعتدى. إلا إذا أخافها احد. ولذلك فمن الممكن أن نجد صقرا يهاجم فيلا.

وعندما هاجم المغول آسيا كلها فى القرن الثالث عشر، كانت لهم أغنية.. هذه الأغنية هى نشيد الدم. تقول: إذا لم نجد الرجل، خطفنا أولاده. وإذا لم نعثر على أولاده أسرنا زوجته، وإذا لم تكن هناك زوجة، طاردناه حتى نجده. فإذا لم نجده. أشعنا أننا فعلنا

ذلك.

وهذا بالضبط ما تفعله ليبيا الخائفة المخيفة. فهى خطفت الإمام الصدر. وهى تدعى أنها خطفت غيره، وأنها قادرة على ذلك.. لكى تؤكد لمصر وغيرها أنها ليست خائفة، إنما هى قادرة على التخويف.

وفى تفسير علم النفس السياسى: أن هذا سلوك يؤكد أن صاحبه خائف. وأن هذا العدوان ليس جرأة، إنما بسبب الخوف.. وبسبب أنه يريد أن ينفى عن نفسه أنه ضعيف !.

وعندما تنبأ الكاتب الكبير تولستوى بالإرهاب فى المستقبل قال: غدا سوف يكون فى يد كل جنكيز خان تليفون ينشر به الفزع!.

وكان تولستوى الذى توفى منذ سبعين عاما، يرى أن التليفون هو آخر تطورات العصر. ولكن ظهرت أسلحة أخرى أكثر فتكا من التليفون فى أيدى رؤساء الدول الذين اختاروا أن يكونوا زعماء لعصابات دموية !.

فمن الذى يرعى هذه الأغنام العربية الضالة ؟.

إنه الخوف. وعند الإغريق كان إله الرعاة اسمه «بان» - ومن هذه الكلمة اشتقت كل كلمات الخوف. هذا الإله كان له رأس إنسان وجسم ماعز وقرنا كبش. وهو الذى اخترع الناى. وهو الذى كان يفاجئ المسافرين بظهوره أمامهم. وكذلك كان يفاجى الرعاة فكان يفزغهم، ولذلك أطلقوا عليه اسم الراعى. المخيف.

ولو اكتفى الراعى بتخويف الذئاب. لكانت فى ذلك سلامة الأغنام. ولكن هذا الراعى «بان» يفترس الرعاة والأغنام معا.

ومن بين رعاة الأغنام : زعماؤها السياسيون والدينيون والمفكرون.

ولذلك فالخوف قد أهدر دماء : كمال جنبلاط وأخيه، وسليم اللوزى وأخيه. وحردان التكريتى والرئيس اليمنى والإمام الصدر.



ومصر ترى أن السعودية مسئولة عن مقتل سليم اللوزى، رغم أنها هى التى اشترت له المطابع وأعطته عشرات الملايين من الدولارات.. ولكن السعودية بسبب خوفها واستسلامها لسوريا واستعدادها للدفاع عنها. قد شاركت فى أعمالها الوحشية..

ومصر ترى أن السعودية مسئولة أيضا عن العدوان الليبى على قفصة، لنفس السبب.

وتسابق رعاة أغنام الأمة العربية إلى مباركة الرئيس صدام حسين وتهنئته على

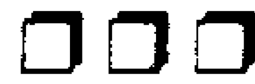
الصيغة السحرية التى سوف تحل تناقضات الدول العربية كلها : بما فى ذلك التناقضات داخل العراق السنى والشيعى والكردى والعربى والبعثى والشيوعى والإسلامى.

ولم أقرأ إلا عن كاتب واحد قد أيد هذه «البوليصة الذهبية» للتأمين على حياة الأمة العربية كلها. هذا الكاتب هو الشاعر نزار قبانى، ليس فقط لأن زوجته عراقية، وليس فقط لأنه هارب من البعث السورى، ولكن لأن العراق أكثر سخاء معه..

وحتى لا يقال إن أحدا لم يمش وراء الرئيس العراقى..

ولا بد أن ترد على الذهن قصة الفيلم الإيطالى «دون كاميلو» من تأليف الكاتب الإيطالى جوارسكى. والفيلم يهاجم الفاتيكان والديانة الكاثوليكية. ولذلك اعتقل المؤلف وصودر الفيلم وحرمته الكنيسة. وقد شاهدت الفيلم فى القاهرة. بين عدد من الرهبان الغارقين فى الضحك بسبب السخرية منهم. ومن بين مشاهد الفيلم أن البطل دون كاميلو قد حمل السيد المسيح حيا على كتفه ليشهد احتفالا بدفن أحد المسيحيين فى قرية شيوعية. فلم يمش وراء دون كاميلو أحد من الناس، وفجأة وجد وراءه كلبا. فالتفت إليه يطرده.

وهنا قال له السيد المسيح : اتركه.. أتريدهم أن يقولوا إن أحدا لم يتبع المسيح. ذلك «الراعى الصالح» ؟!.



أما مصر فلن تقبل مصر مطلقا أية محاولة من أجل إعادة جامعة الدول العربية بأية صورة وبأى شكل. انتهت جامعة الدول العربية ولا بد أن تقام فى موقعها من نفوسنا ووجداننا جامعة الشعوب الإسلامية والعربية.

وقد أحال الرئيس السادات ميثاق هذه الجامعة الجديدة إلى مجلس الشعب. ليبدى رأيه فيه فى الصيف القادم.

فقد أصبح واضحا لنا أن «الأغنام» العربية التى اشتهرت فى التاريخ باسم «الإمارات» ليس لها شكل الدول ولا وزنها. إنما هى «كيانات» أو تكوينات هندسية أنيقة حول آبار البترول. وأصبح الذهب الذى تتغطى به مثل جلد القنفذ... فإذا أرادت أن تتضامن معا، خافت أن تتقارب حتى تموت فى أكفانها الذهبية!

وسوف يبقى كل شئ كما هو عليه. فلا أحد يفكر فى هذا الذى أصاب العرب. لأن أحدا لا يريد أن يعرف، فإذا عرف كان عليه أن يفعل شيئا. ولكن الجميع يفضلون الانتظار الأبدى لما سوف تفعله مصر من أجل القضية العربية ؟!.. ■

ما الذى تخافه أمريكا إذا اتصلت بمنظمة التحرير دفاعا عن مصالح الجميع

أكثر الكلمات ترددا فى أفواه العرب هى كلمة: فلسطين.. أى أنهم يرددونها كثيرا..

وأنهم مترددون فى استخدامها وتحديد معناها.. ولذلك فهم يرددون كلمة مترددة.. فكأنهم لا يتكلمون إنما يتلعثمون..

والفلسطينيون أنفسهم. إنهم لم يتفقوا على معنى أو طريق.. إنهم أيضا يتحدثون فى ميكرفونات مستعارة. ولذلك كانت لأصواتهم لهجة سوريا وروسيا..

ولم يعد يهمنا جميعا كثيرا. من الذى يقول أكثر، أو من الذى يرفع صوته أعلى.

وكان أستاذنا العظيم سقراط إذا وجد واحدا من طلبته لا يتكلم يقول له تكلم حتى أراك! أى أننى لن أراك ولن أعرفك إلا إذا سمعتك تفكر. ولسنا فى حاجة إلى أن نرى بعضنا البعض. فكلنا يعرف كلنا، وكلنا معروفة حدودنا.

أما موقف مصر فمعروف. ولا مبرر لأن أعيد وأزيد. ولكن المواقف الأخرى هى التى فى حاجة إلى إعادة..

فنحن الآن على مدى أسبوعين من مؤتمر تونس. ففى هذا المؤتمر سوف يلتقى الرؤساء العرب أو من ينوبون عنهم. والموضوع: فلسطين.. أو هو الوجود الفلسطينى فى لبنان..

نشر هذا الموضوع فى ١٩٧٩/١١/٤

وهذا الموضوع قد سقط عمدا فى مؤتمر بغداد. فلا أحد تحدث عن الاحتلال السورى للبنان ولا العدوان الاسرائيلى على لبنان ولا الإبادة الشاملة للشعب الفلسطينى.

وسوف يستأنف الرؤساء العرب «حسم» هذه المشكلة. فهل هم قادرون على الحسم؟..

الاجتهادات كثيرة، لأن الأطراف كثيرة، والمعنيون فى المقام الأول هم اللبنانيون: انهدمت بلادهم وخربت. وتشرد شعبهم وتمزق، والعرب يتفرجون - جميع العرب.

والدول الأوروبية ذات العلاقات الخاصة بلبنان تحاول. ولكن لم تتوقف النيران وأمريكا تحاول. والليرة اللبنانية يرتفع سعرها. والانفصاليون اللبنانيون تساندهم إسرائيل. والفلسطينيون يطلقون النار فى كل اتجاه إلا فى اتجاه سوريا - مفهوم. وهم معذورون ومعهم الحق، وليس على الأمة العربية كلها إلا أن تسكت؟!

وأخيرا ذهب إلى لبنان أمريكى لبنانى الأصل: فليب حبيب قابل جميع الأطراف من أجل أن يصل إلى حل واكتشف اللبنانيون أن ابنهم البار ليس إلا أمريكيا آخر قد جاء يسمع ويبارك ولا يخرج من جيبه ورقة واحدة محددة. أى خطة أمريكية لحل الموقف.

وكان اللبنانيون أكثر إيجابية وأكثر حيوية. فوضعوا الخطة التى اختلف عليها رئيس الوزراء سليم الحص ووزير الخارجية فؤاد بطرس. رئيس الوزراء يريد حلا عربيا إسلاميا. ووزير الخارجية يريد حلا أوروبيا أمريكيا.. الأول يطالب «بتعريب» المشكلة والثانى يطالب «بتدويل» الحل.

ولكن هناك قدرا معقولا من الاتفاق بينهما على ضرورة أن يوقف الفلسطينيون إطلاق النار على إسرائيل عبر الأراضى والشعب اللبنانى. وأن يوقفوا أيضا التسلل إلى مواقع الأمم المتحدة. وإسكات أعمال الإرهاب فى إسرائيل والأراضى المحتلة. أو عدم تشجيعها أو الاعتراف بها.

ويتمنى اللبنانيون - بمنتهى الصدق والإخلاص وحسن النية - أن يتبنى مؤتمر القمة فى تونس خروج الفلسطينيين من لبنان؟!.

ومن المؤكد أن المؤتمر لن يوافق على ذلك. أو لن يجرؤ على مجرد مناقشة هذا الموضوع. وعلى ذلك فلن يستطيع مؤتمر القمة أن يصدر قرارا واحدا لصالح لبنان. ،لهذا فلن يذهب بعض الرؤساء. لأنهم يعلمون مقدما استحالة هذا القرار واستحالة تطبيقه. وعلى ذلك فسوف يفشل مؤتمر تونس. وسوف تبقى إسرائيل وعملاؤها من الانفصاليين فى مواقعهم بقيادة الرائد سعد حداد..

فهل هناك حلول أخرى؟.

لا توجد حلول.

هل هناك صيغ أخرى؟ من الممكن أن تكون. ولكن الهدف فى جميع الأحوال واحد: أن يوقف تخريب وتدمير لبنان بخروج القوات السورية ووقف العمليات الفلسطينية لتحرير أرضهم المحتلة؟!.

أما فى أمريكا فيوجد نوع من «اللف الدوران» حول منظمة التحرير الفلسطينية. فهناك رأى عام أمريكى يرى أن ظلما عنيفا واقع على الشعب الفلسطينى. فمن حقه أن يعيش على أرضه. وأن فى العالم لاجئين سياسيين كثيرين. وأن أى نداء لصيانة حقوق الأنسان. إدعاء كاذب ما لم تحل المشكلة الفلسطينية.

والغرب كله قد فضح نفسه عندما ثار من أجل اضطهاد خمسة أو ستة من الأدباء والفنانين فى روسيا أو أوروبا الشرقية. ورأى فى ذلك إهدارا لقيم الأديان وكرامة الإنسان إنه لشئ مضحك حقا أن تثور مئات الملايين من أجل مئات الأفراد. ولا يثوروا بنفس الدرجة من أجل ملايين الفلسطينيين.. إلا إذا كانت العدالة الإنسانية قد رفعت الغطاء من فوق عينيها.. فراحت تميز بين المضطهد الأوروبى والمضطهد الآسيوى الفلسطينى - والأرجح أنها كذلك!..

ولم يحدث أن استطاع رئيس أمريكى أن يفعل ما فعله الرئيس كارتر فى موقفه من الشعب الفلسطينى. ولا أحد تردد مثل ما فعل هو أيضا. وكان عذر كارتر والرؤساء الثلاثة قبله. أن الجالية اليهودية فى أمريكا قوية - وإن لم تكن قوتها مطلقة. ولكن تصبح هذه القوة مطلقة فى سنوات الضعف الرياسى أى فى سنوات الحملة الانتخابية.

فأمريكا قد التزمت أخلاقيا بمساعدة إسرائيل. ولكن فى سنة ١٩٧٥ تعهد د. كسينجر أن أمريكا لن تفاوض منظمة التحرير الفلسطينية. وكان هذا الموقف الأمريكى ضروريا لتيسير مهمة فك الاشتباك على الجبهات العربية والإسرائيلية. ولا تزال أمريكا ملتزمة بهذا التعهد.

ولكن أمام الضغط العالمى والعربى أيضا فإن أمريكا تحاول أن تدور حول الفلسطينيين كأفراد. دون أن تتصل بهم كمنظمة، وهى تحاول أن تتسلل بينهم.. إلا أنها محاولة يائسة لم تنجح فى شئ..

بل أن سفير أمريكا لدى الأمم المتحدة أندرو يونج قد دفع منصبه ثمنا للاتصال بممثل المنظمة فى الأمم المتحدة. وقد أدت استقالته إلى توسيع الهوة بين السود واليهود

فى أمريكا.. وحاول القس جيس جاكسون مرة أخرى، ووقف إلى جانب الشعب الفلسطينى. وقلبت أجهزة اليهود الدنيا على رأسه ورءوس الذين بعثوا به إلى الشرق الأوسط..

وقد جاء أعضاء الكونجرس إلى الشرق الأوسط وتحدثوا إلى الفلسطينيين. وقد اقتنعوا بالظلم الواقع عليهم..

والرأى العام الأمريكى يساند الشعب الفلسطينى ضد التعنت الإسرائيلى. ولكن أمريكا لم تذهب إلى أبعد من ذلك. غير أن رجالا عقلاء أمريكيين يعيبون على أمريكا هذا الموقف الضعيف. ويرون أن أمريكا قد تورطت فى التزامها الأخلاقى لإسرائيل. وأن هذا التورط سوف يضيع مصالح أمريكا فى الشرق الأوسط.

وقد ظهرت بوادر ذلك فى تفتيت الجبهة الوطنية بين اليهود والسود فى أمريكا. وبين اليهود أنفسهم الذين يؤيدون بيجين. وبين الذين يؤيدون الشعب الفلسطينى.

وقد تحدث كثير من الخبراء الأمريكان فى المؤتمر الثالث والثلاثين لشئون الشرق الأوسط فى الأسبوع الأول من أكتوبر فى واشنطون.

وكان أبرزهم جورج بول وكيل الخارجية السابق. وأكثرهم علما وتجربة. وقد أشار بول إلى أن مركز القلق فى العالم كله الآن هو الخليج وما حوله.. وقد اضطرب الموقف فى الخليج بسبب سقوط شاه إيران. وقيام حكومة جديدة. وليس نظاما جديدا هذه الحكومة استبدادية دينية متطرفة.

ويرى جورج بول أنه مع الشعب الفلسطينى وحقه الكامل فى أن يقرر مصيره وأن يختار من أشكال الحكم ما يريد. وإن كان فى نفس الوقت يستنكر الإرهاب. سواء كان ذلك بإلقاء قنبلة فى القدس أو بنسف بيجين لفندق الملك داود. ولكنه فى نفس الوقت ينبه إلى أنه قبل أن ندين الإرهاب يجب أن نقضى على أسبابه.

فالارهاب رد فعل - أو رد على فعل. والفعل هو الاحتلال العسكرى. ولذلك يجب أن نقضى على أسباب الارهاب. وإذا طال الاحتلال اشتدت المقاومة.

ويجب أن يعرف الأمريكان - هذا رأى جورج بول - أن إسرائيل تحارب العرب بفلوس أمريكية وأسلحة أمريكية. ولذلك فمسئولية أمريكا فى الدرجة الأولى. ويجب ألا تهتز أمريكا كثيرا إذا ما نصحت إسرائيل بالتعقل والحكمة. فكان رد إسرائيل: إنكم تضغطون علينا!.

ولماذا لا تضغط أمريكا على إسرائيل مادامت إسرائيل تضر بالمصالح الأمريكية فى

العالم العربى؟.. وإنه لخطأ جسيم أن تقامر أمريكا بمصالحها ومكانتها الدولية فى مساندة سياسة ضارة بالمصالح القومية..

وإذا كانت مصر بصلحها مع إسرائيل قد أدت إلى خلل التوازن العسكرى فى مواجهة إسرائيل. فإن موقف دول البترول من أمريكا قد أدى إلى خلل سياسى أيضا. والنتيجة أن أمريكا قد أضيرت تماما. والسبب فى ذلك: أن التزامها الأدبى لإسرائيل قد جاوز حدود الالتزام وحدود الأدب أيضا!.

ولا أحد يعرف ماذا يكون موقف أية دولة أخرى أوروبية لو شتمها رجل مثل عيزر فايتسمان أو موشى ديان.. فقد أعلن وزير الدفاع الإسرائيلى فايتسمان فى واشنطون أن أمريكا إذا لم تأخذ بوجهة النظر الإسرائيلية فهى الخاسرة وسوف تكون هى الأضعف؟!.

يقول جورج بول: لعل فايتسمان يتحدث عن خسارة أمريكا فى أن تنال شرف مساعدتها لإسرائيل!.

هذا النوع من الإهانات قد اعتاد عليه دافع الضرائب الأمريكى. وتساءل بول: إلى متى!.

إنها عقدة إسرائيل. فهى تعتمد تماما على أمريكا. بسبب هذا الاعتماد فإن إسرائيل تشعر دائما أن النصيحة معناها تدخل. وأن الضغط تهديد بمنع المعونات المادية والعسكرية عنها.

إن موقف أمريكا يجب أن يتغير. وأن تتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية رسميا وعلنا.. فأمريكا مسئولة تماما عن كل ما جرى فى الشرق الأوسط. إما بالتباطؤ فى التدخل وإما بأنها تدخلت ودخلت شريكا كاملا.

وعلى أمريكا أن تبلغ منظمة التحرير الفلسطينية بوجهة نظرها كاملة. وأن تقول نفس الشىء لإسرائيل. لأنه لا معنى لأى كلام أو حوار بعيدا عن الفلسطينيين. مادام من الضرورى أن يكونوا طرفا. فكيف نحل قضيتهم بشرط أن يكونوا طرفا. وفى نفس الوقت تحاول أمريكا حلها مع استبعادهم؟..

إن موقف أمريكا صعب. ولكن هذه الصعوبة جاءت من حدثين وقعا فى العام الماضى: الأول سقوط الشاه. الصديق الحليف لأمريكا الذى تركته يسقط واتصلت بآية الله خمينى، ورفضت اللجوء السياسى للشاه واستأذنت خمينى فى دخوله المستشفى للعلاج ستة شهور.

والحدث الثانى : هو عقد معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل وإنهاء حروب

الاستنزاف بين البلاد العربية.. أو بين مصر وإسرائيل. مصر كانت أفدح البلاد العربية خسارة فى كل هذه الحروب.

والحدثان ليست لهما صلة مباشرة أحدهما بالآخر. ولكن الاثنين معا يجب أن تتولى أمريكا ربطهما وعلاجها فى قرار واحد: الاتصال المباشر بمنظمة التحرير الفلسطينية. طريقا إلى استعادة الاستقرار فى الاستقرار فى الشرق وفى أمريكا نفسها. فكان على أمريكا أن ترفض بشدة بناء المستوطنات على أرض الغير. وخاصة بعد أن أعلنت رسميا أن بناء المستوطنات عمل غير قانونى. ثم اكتفت بهذا الاستنكار.

إن المحكمة العليا فى إسرائيل كانت أشجع الجميع عندما أصدرت حكمها بهدم مستعمرة «إيلون موريه» التى أقيمت بالقرب من مدينة نابلس. وكان ١٧ فلسطينيا قد تقدموا بدعواهم أمام هذه المحكمة. فحكمت لهم.. وفتحت الباب لعشرات المتظلمين من العرب. وقد استندت المحكمة إلى أن هذه المستوطنة قد أقيمت لاعتبارات سياسة.. وقد اعترف الذين أقاموا المستعمرة بأن التعليمات قد صدرت إليهم بذلك. كما أعلن وزير الدفاع الإسرائيلى أن هذه المستوطنات ليست لها ضرورة عسكرية.

فقالت المحكمة: إذن فكيف تقام مستعمرة بصفة دائمة من أجل وضع عسكرى أو سياسى دائما ؟..

وكان بيجين عندما فاز فى الانتخابات فى مايو سنة ١٩٧٧ قد أعلن: بل سوف تقام عشرات المستعمرات مثل أيلون موريه!.

وكان على الحكومة أن تستنكر كل ذلك بشدة. وأن تستنكر أيضا قرار إسرائيل برفع الحظر عن شراء الأراضى العربية - أى استدراج العرب بالأموال الهائلة لبيع أراضيهم!..

وإذا لم تكن إسرائيل وأمريكا أيضا قد تعلمتا درسا واحدا من حروب الثلاثين عاما بين العرب وإسرائيل. وهو أن الأرض لا تعطى الأمن. فما الذى تعلمناه جميعا!.

إن الثورة الفرنسية قد جعلت أحد شعاراتها: الحدود الطبيعية لفرنسا.. وجاء نابليون مستخدما هذا الشعار وغزا أوروبا كلها. وانهزم فيها جميعا!

فالأرض والتمسك بها والتوسع فيها لا تعطى نفس المساحة من الأمان..

ومن بديهيات السياسة أنه لا توجد حدود آمنة بين دولتين متعاديتين - لن تحدث ولم يحدث قط. فلا أمان بين الدول إلا بالسلام.

إن جورج بول قد طالب الألف خبير أمريكى فى هذا المؤتمر السنوى: بأن ترعى

أمريكا مصالحها فى الشرق الأوسط. وأن تحرص على سلامها الاجتماعى. وكل ذلك سوف يعود بالفائدة على إسرائيل أيضا!.

أما مرشح الرياسة جون كوناللى فقد ذهب إلى أبعد من ذلك هل لأن هذه وجهة نظر الشعب الأمريكى. ولذلك فقد اختارها للحملة الانتخابية - أى وسيلته إلى منافسة الرئيس كارتر والتغلب عليه. أو أنه يحاول أن يهز الشعب الأمريكى ليصحو من سلبيته لينقذ مصالحه فى العالم كله؟..

لقد جعل جون كوناللى كلمته أمام نادى الصحفيين فى واشنطن عن الشرق الأوسط لخطورة هذه القضية على أمريكا وعلى العالم كله. ففى الشرق تواجه أمريكا الاتحاد السوفيتى الذى خاف من أن يختنق فى الخليج، فانطلق إلى إيران وأفغانستان واليمن والقرن الأفريقى وسوريا وليبيا.

وإن كان السوفيت - وبعض الفلسطينيين - يرون أن أحسن حال هو أن يبقى الحال على ما هو عليه من القلق والتوتر والاحتياج المستمر إلى السوفيت درعا ضد الأمريكان.

ويتقدم كوناللى بإطار جديد لحل المشكلة الفلسطينية يردد فيه كل ما هو معروف من الاعتراف المتبادل بين إسرائيل والمنظمة.

ولكن كوناللى يتشدد مع دول البترول. ويؤكد أن الإدارة الأمريكية ضعيفة فى مواجهة دول البترول فمن الواجب عليها أن تحذر دول البترول من استخدام البترول سلاحا سياسيا ضد أمريكا لعلها تضغط على إسرائيل.

فالبئر - كما يقول - الموجودة فى الشرق الأوسط ويشرب منها العالم كله. يجب ألا تكون مسمومة. أى يجب ألا تهدد الدول العربية بوضع السم فيها لأمريكا وللعالم.. أو تهدد بإغلاقها أو إحراقها أو السماح للسوفيت بأن يقتربوا منها. خاصة أن السوفيت سوف يعانون من أزمة نقص الطاقة فى العام القادم..

أما الأخطر من هذا فهو أن المرشح المنافس للرئيس كارتر يرى أن أمريكا يجب أن يكون لها وجود عسكرى فى إحدى الجزر التابعة لعمان. وأن يتشكل أسطول خامس من الأسطولين السادس فى البحر الأبيض والسابع فى المحيط الهادى. وأن يكون هناك حلف عسكرى بين حلف الأطلسى والدول العربية وإسرائيل واليابان لمواجهة الاتحاد السوفيتى ولفرض الاستقرار فى هذه المنطقة بالقوة!!..

وهذا ما فعلته أمريكا فى أوروبا حتى لا تقع حرب ثالثة..

والوضع الآن فى الشرق الأوسط يشبه دول البلقان قبل الحرب العالمية الأولى: خلافات وتمزقات عنصرية ودينية وسياسية..

ولعل جون كونللى قد فرح كثيرا عندما سمع أن كلمة «شالوم» العبرية قريبة من كلمة «سلام» العربية.. ولذلك قال: ومادام العرب واليهود يستخدمون مثل هاتين الكلمتين منذ وقت طويل، فلماذا لا يجربون معنى هاتين الكلمتين بعد أن تعودوا على استخدامهما - بهذه البساطة؟!

وقد استخدم كونللى تعبيرا قديما هو أن النشاط والاضطراب والحساسيات فى الشرق الأوسط ليست إلا صوت ساعة تدق فى قنبلة زمنية! وهو قديم لأن الرئيس السادات قد استخدم هذا المعنى، فقال: إنه لم يحقق السلام الكامل إنما نزع فتيل قنبلة الحرب. لأن السلام عمل طويل شاق!.

ولا أحد يدعى أن اتفاقيات كامب دافيد ولا حتى معاهدة الصلح مع إسرائيل وثائق لا تقبل التعبير والتبديل.. وأنها قد احتوت على كل شاردة وواردة ليس هذا صحيحا. لا اليوم ولا غدا ولا أمس. لأى نوع من الانفاق على وقف إطلاق النار أو الهدنة أو الهدنة المسلحة أو الصلح أو السلام الدائم. إنما هى «إطارات» عمل. إنما هى «مناهج بحث» أو «ورقة عمل سلام» وليست سلاما. ولذلك فمن المنطقى أن تكون هناك خلافات على قضايا ودقائق لم تظهر بوضوح عند التوقيع. ولكن ظهرت عند التطبيق.. ثم إن هناك متغيرات بيننا وفى العالم يجب أن تدخل طرفا مستمرا.. فالسلام لم يتحقق بعد فأرضنا محتلة والجيوش على الجانبين فى حالة استعداد واستنفار. والمؤتمرات تلتقى وتنفض والوجوه تارة مقطبة وتارة منفرجة. لتنقبض من جديد. والأمل ضيف خفيف. واليأس ضيف ثقيل على كل الموائد المشتركة.. ولكننا دائما نحقق شيئا. وهذا هو المهم.

وكان السفير الأمريكى السابق هيرمان ايلتس واحدا من الذين تحدثوا فى هذا المؤتمر السنوى. وقد ختم كلمته الطويلة التى أشاد فيها بجهود مصر الشجاعة الصادقة المتصلة بقوله:

إن السنة القادمة سوف تكون صعبة جدا على أمريكا، فهى سنة الانتخابات، وفى نفس الوقت سنة الاتفاق على تنفيذ الحكم الذاتى.

وقال: إننا يجب ألا نتقيد كثيرا بتواريخ الاتفاق. سواء كان ذلك فى مايو القادم أو الشهر الذى يليه.. فقد علمتنا اتفاقيات الشرق الأوسط كلها أنه من الصعب أن يجئ كل شئ فى موعده.. ولكن ذلك لم يمنع الأطراف من أن تحقق شيئا.. وعلى ذلك يجب على

أمريكا أن تبدأ فورا بالاتصال بالمنظمة علنا ورسميا، ثم لا ننشغل كثيرا بمتى وكيف يتم الاتفاق على خطوات السلام عن هذا الطريق؟.. إن كل الأطراف تريد السلام.. والذين يتحدثون عن السلام لا يحلمون وهم ينظرون إلى القمر، إنما يحلمون وهم على الأرض: عين على السماء وعين على مصالحهم.

ونحن جميعا هذا الرجل!.

وليس المقياس بيننا هو: كم مرة إرتفعت حناجرنا بكلمة فلسطين؟ فكلنا يصرخ. ولكن ما الذى فعلناه. ما الذى حققناه حتى لا نخجل من أنفسنا؟!..

إن رجلا فى الريف ذهب إلى «ندابة» لتحيى له مأتما لعزيز عليه. فسألته: هل تريد المنديل جافا أو مبللا؟

فقال الرجل: لا أفهم.

فقالت له: هل تريد أن أبكى على الميت أو أكتفى بتعديد فضائله؟.

وقال الرجل: وما هو الفرق؟.

قالت: جنيهان!

فليس الفرق جنيهن أو عشرة فى سعر برميل البترول. ولا هو عدد الدموع فى المحافل الدولية. ولكن ما الذى فعلناه حقا وصدقا من أجل الشعب الفلسطينى؟

إن الدعوة مفتوحة للجميع.. لأن هذه هى «دعوى» الجميع بأنهم يريدون أن تكون للشعب الفلسطينى دولة مستقلة. وأن تكون مقدسات القدس فى حماية كل الأديان.

وإذا كان مؤتمر بغداد قد فشل فى أن يكون مؤتمرا. فنرجو لمؤتمر تونس ألا يكون كذلك - وإن كنا نستبعد كثيرا جدا!.. ■

ريجان : الأمريكى القبيح الوجه ؟!

من ٢٥ عاما صدر كتابان لمؤلف أمريكى واحد هما : «الأمريكى القبيح الوجه».. و «شعب من الأغنام». ومعنى الكتابين أن أمريكا وراء كل مصائب الكرة الأرضية، فهى مصدر الحقد والحروب والانقلابات. حتى أصبح العالم كله يكره أمريكا وأى أمريكى. فهو ملعون فى أى مكان مهما فعل، ومهما كان حسن النية.. ثم أن الشعب الأمريكى لا يعرف من الذى يسوقه إلى الحرب وإلى السلام.. فصاحب القرار هو الرئيس الأمريكى. وهذا الرئيس نفسه لا يعرف كيف يقرر. وإذا قرر فالشعب لا يدرى. فإذا أراد الرئيس الأمريكى أن يتخذ قرارا فى موضوع، وليكن إشعال النار فى سفارة أمريكا فى جزيرة فى المحيط الهادى، فسوف تنهال عليه التقارير : من الخارجية والحربية والمخابرات العامة والمخابرات الحربية ومن وزارة الاقتصاد ومن الدول الحليفة. وكلها تتجمع على مكتبه ومعها هذه العبارة : فى انتظار أوامركم. وقد تتضارب التقارير وتتخبط الاقتراحات المقدمة للرئيس برد فعل عنيف أو معتدل أو بفرض عقوبات رادعة وبسرعة، أو العفو عن هذه الدولة الصغيرة.

ورغم كثرة التقارير وتضاربها وضيق وقت الرئيس وكثرة المشاكل العالمية المعروضة أمامه، فإنه يتخذ القرار. وهو وحده الذى يفعل ذلك. ويكون مفاجئا للجميع. ولكن أحدا لا يعلق على ذلك. لأنه يفترض أن الرئيس الأمريكى قد درس وبحث وفحص ومحص ونام

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٦/١٢/٧

وقام واستخار الله. مع أنه من الممكن أن يدخل غرفة مكتبه وهى مظلمة تماما. ثم يمدد رجليه على المكتب فيسقط واحد من هذه التقارير ويمد يده مرهقا، ويقرأ الصفحة الأخيرة من التقرير ويأخذ بما جاء فيها من اقتراحات - وتكون أضعف وأسوء الاقتراحات. ولذلك فالشعب الأمريكى من الأغنام التى لا تعرف كيف يدير مستقبلها رجل واحد !

وفى البيت الأبيض غرفة سوداء.. يدخلها الرئيس كل يوم. وفيها يرى على الشاشة أحداث الكرة الأرضية بالألوان ولمدة نصف ساعة هكذا : حرب العراق وإيران مستمرة. وفى الصورة بعض المواقع والضحايا.. وفى لبنان وعلى حدودها مناوشات وفى لندن محاكمات.. وفى نيكاراجوا: اشتباكات.. وفى إفريقيا : مجاعات.. وفى أمريكا : استفتاءات على شعبية الرئيس.. وفى البورصة مضاربات وسرقات بمئات الملايين. انتهت أخبار الدنيا من أولها لآخرها.

ولذلك فأى إنسان يستطيع أن يكون رئيسا لأمريكا - أى واحد! فرائد الفضاء السناتور جلين، من الممكن أن يفوز فى المرة القادمة بالرياسة.

وأرمسترونج الذى نزل على القمر.

وذلك الشاب الوسيم الذى نظم الدورة الأوليمبية فى لوس انجليس - يكفى أنه اثار اعجاب الناس - وما دام قد استطاع أن ينظم دورة دولية، فكيف لا ينجح فى إدارة أمريكا والكرة الأرضية والكواكب الأخرى ؟

وكان الرئيس كيندى يقول : عندما ذهبت إلى البيت الأبيض، رأيت الدنيا أسوأ مما كنت أراها قبل ذلك. والرئيس لنكولن هو الذى قال أيضا : قالوا لى إنك ذاهب إلى جهنم، ولم أكن أتصور أن جهنم قريبة هكذا وإن لها قبة بيضاء !

واتذكر أن الشاعر الروسى يفتشنكو قال لى هنا فى القاهرة : إنه دعى ذات يوم للعشاء فى بيت واحد من آل كيندى. وقدموا له الشمبانيا. فسأله الشاعر الروسى : هل أشرب الشمبانيا على طريقتكم أو على طريقتنا ؟

فسأله كيندى : وما هى طريقتكم ؟

أجاب : بعد أن أفرغ من الكأس فأنتى أحطمها فى الأرض !

فصرخ كيندى : لحظة واحدة حتى أسأل زوجتى أن كان هذا ممكنا؟

قال لى يفتشنكو : إن رجلا لا يستطيع أن يقرر بمفرده، إن كان من الممكن تحطيم كأس، لا يصلح أن يكون رئيسا لأمريكا !

وقد أخطأ يفتشنكو، بل يصلح، ولهذ السبب بالذات، فهو لا يستبد برأيه. وهو

من أجل إرضاء زوجته، يمكن أن يضحى بأمريكا كلها - فالرئيس كيندي من أجل إرضاء مارلين مونرو أطلعها على خطة المخابرات فى اغتيال كاسترو.. فلما نقلت هى هذا النبأ إلى إحدى صديقاتها، اغتالتها المخابرات.. واغتالته هو أيضا!

وعندما جاء الرئيس ريجان إلى الحكم التفت إلى «المخابرات المركزية» واختار منها نائبه : جورج بوش.. ثم اختار لها رئيسا وليام كيسى الذى كان ضابطا للمخابرات فى الحرب العالمية الثانية. وكان مركزه لندن. ومهمته التسلل إلى أعماق الجيش الألمانى ونقل المعلومات وإشاعة الأكاذيب بين جنوده.. ووليام كيسى محام بارع ورئيس أحد البنوك ومؤلف وأحد رجال الحملة الانتخابية للرئيس ريجان.

وكانت المخابرات الأمريكية قد مرت بظروف عصيبة عنيفة فى الستينات والسبعينات، فقد كان من واجبها معرفة العناصر الأجنبية التى أثارت الشعب الأمريكى وجعلته يتظاهر ضد الحرب فى فيتنام. وقد تربصت بالمخابرات لجان الكونجرس تضيق عليها فى الميزانية وتعيد النظر فى كوادرها فى الخارج والداخل وتطالب بعرض خططها السرية على لجان الكونجرس!!

وتعرض وليام كيسى نفسه إلى محنة كبرى كاد يفقد بها منصبه فى سنة ١٩٨١.

أما البرنامج الذى وضعه الرئيس ريجان للمخابرات المركزية فهو: تدعيم الدور الأمريكى، والعلاقات مع الحلفاء لاحتواء النفوذ السوفيتى فى العالم والتسلل إلى الدول التابعة لروسيا مثل بولندا وألمانيا الشرقية وكوبا.

وأهم من كل ذلك إزالة روح الهزيمة والاستسلام التى أغرقت الشعب الأمريكى فى عهد الرئيس كارتر.. ثم مد الجسور إلى كل الدول المعادية والمحايدة والصديقة.. لفتح كل الأبواب والنوافذ!

والأزمة الإيرانية الأخيرة نموذج لكل ذلك. فأمريكا على علاقة قوية بالحكومة الإيرانية منذ ست سنوات. لم تنقطع الصلة ولا الحوار. ولا البترول ولا الدولار. ولا تسليم الكشوف الخاصة بجواسيس روسيا فى داخل إيران، وخارجها فى فرنسا وأمريكا.. وأمريكا هى المسئولة عن إعدام الخومينى لعدد كبير من خصومه.

وأمريكا هى التى قدمت لإيران سلاحا، انقاذا للرهائن.. هذه هى الأزمة. أى أن أمريكا تساعد إيران على أن تظل فى حالة حرب مع العراق. حتى تظل الحرب استنزافا مستمرا لأموال دول الخليج، لعل هذا الاستنزاف يؤدى إلى تمزيق دول الخليج وإشاعة الفوضى فى داخلها والثورة عليها.. أو حتى لا يختفى الخطر الفارسى على العرب.. أو

حتى لا يكون فى الخليج دولة أكبر أو أقوى.. وهكذا تسقط كل الكيانات العربية ضحية لهذا الصراع الذى شجعته أمريكا والدول الكبرى - وهو مزيد من التفتيت للدولة العربية.. وهو عقاب لكل دول البترول - أى الدول التى تلعب بالبترول وتهدد به الدول العظمى والكبرى.

فما الذى أغضب الشعب الأمريكى على الرئيس أو على مؤسسة الرياسة، أو على طاقم الحكام الذين أتى بهم الرئيس ريجان؟!

إنه موضوع أثارته المعارضة القوية ضد الرئيس وحزبه الحاكم. ثم إن الرئيس لم يبلغ أحدا بقراره. بل أن أعوانه قد تخبطوا جميعا.. بين الاعتراف بالحقيقة أو التستر على الرئيس.. فرئيس المخابرات قال: إنه لا يعرف كل شئ، ثم عاد فقال إنه لم يشارك فى كل شئ.. وإذا بالرئيس يقول فى خطابه إلى الأمة : بل يعرف كل شئ.

ولم يعلق مدير المخابرات على ذلك ..

وقال وزير الخارجية شولتز : إنه لا يقبل أن يكون طرطورا وأن يجرى كل شئ من تحت أنفه ومن وراء ظهره. ثم لم يستقل وقال إنه سوف يقف إلى جوار الرئيس مادام الرئيس يرى ذلك ضروريا. واعلن الرئيس أن هذا ضرورى.

واعترف مستشار الأمن القومى بأنه المسئول . ولكن الرئيس اعلن أنه وحده المسئول عن هذا القرار وعن أى خطأ. وكان الرئيس بذلك يحمل نفسه أكثر مما يجب.. فقد كذبوا عليه وقالوا أنهم اطلعوا كل المؤسسات على الاتصال بإيران. واكتشف الرئيس انهم لم يطلعوا أحدا.

ولم يختلف موقف الرئيس ريجان عن موقف الرئيس عبد الناصر عندما دار هذا الحوار بينه وبين المشير عامر قبل حرب سنة ١٩٦٧.

فعبد الناصر سأل المشير عامر :

أين إسرائيل يا عبد الحكيم ؟

قال : فى جيبى يا ريس !

- وإن دخلوا مصر يا عبد الحكيم ؟

- على رقبتى يا ريس !

- نحارب يا عبد الحكيم ؟

- تمام يا ريس !

ولم يكن عبد الناصر فى حاجة إلى رأى عبد الحكيم أو قائد آخر. فهو قد قرر أن

يحارب. ولأنه قائد ملهم، فلم يكن فى حاجة إلى رأس أو رقبة عبد الحكيم عامر. فقد مرت القوات المصرية إلى الجبهة أمام سفارات أمريكا وبريطانيا وإيطاليا وباكستان والهند وفندق مينا هاوس وفى الصحراء عارية أمام كل طائرات التجسس من كل لون ونوع وحجم.

مع فارق واحد هو أنه ليس من الضرورى للرئيس الأمريكى أن يدفع مساعديه إلى الانتحار.. فهو لا يدخل فى التفاصيل.. الخطوط العريضة فقط. ولأنه يصدق كل مساعديه، فهو لا يراجعهم فى كل ما يقولون. وكذبوا عليه. وكان لا بد أن يخرجوا من البيت الأبيض، أما هو فباق لأنه وافق على القرار بشرط أن يطلعوا عليه بعض المؤسسات.

وقالوا له : اطلعناهم وباركوه.

وهو ما لم يحدث.

أى أن الرئيس ريجان قد اخفى هذا القرار عن بعض المؤسسات.

وأخطر من ذلك أنه أعطى لإيران سلاحا لكى تطلق سراح الرهائن من بيروت وأربعين يهوديا إيرانيا كل يوم مساندون إلى إسرائيل عن طريق تركيا والنمسا..

وهذا ما أكده رئيس وزراء إسرائيل - أى أنه اشترى هؤلاء الرهائن . أى دفع لهم فدية. وهو بذلك قد شجع الإرهاب. بينما هو يعلن أنه سوف يقضى عليه. فلا تهاون ولا هوادة. وهو من أجل ذلك ضرب ليبيا لأنها معقل الإرهاب الرسمى !

إذن فموقف الرئيس ريجان هو تشجيع رسمى للإرهاب - تماما مثل ليبيا وسوريا.. فإذا كان هو يفعل مثل القذافى فلماذا ضربه.. ولماذا قاطع سوريا، ويدعو الدول الأخرى إلى أن تفعل مثله؟

فالرئيس الأمريكى قد أساء إلى أمريكا.. وأعاد إلى الأذهان : حكاية الأمريكى قبيح الوجه.. وهو شخصيا ذلك الأمريكى !

***

وبعد ذلك نشرت الصحف الأمريكية أن البيت الأبيض والمخابرات تطلق الأكاذيب فى كل مكان ضد القذافى. تعجيلا لسقوطه.. وأن الرئيس ريجان قد عين رجلا لإطلاق الأكاذيب المدروسة ضد القذافى.

وفضحت الصحف ذلك..

وكان دفاع ريجان : أن هذا ما تفعله روسيا دائما !

وقال وزير خارجية أمريكا : أما أننا نعمل على سقوط القذافى، فلا شك فى ذلك.

وأما أننا نستخدم الأكاذيب والأكاذيب المضادة، فليس معنى ذلك أننا نكذب على الشعب.. وإنما فقط نلجأ إلى حيل تقليدية، تعرفها كل أجهزة المخابرات !

واتهم الأمريكان رئيسهم بأنه يكذب.. وأن أحدا، بعد ذلك، لن يصدق الحكومة الأمريكية ولا كل ما يصدر عن البيت الأبيض !

والصدق ليس فضيلة سياسية. وإنما الصدق زى موسمى ترديه الأكاذيب. فالقوة هى الفضيلة. وإذا كان الكذب يضعف روسيا، فهو فضيلة الفضائل. ولذلك لم يتوقف الشعب الأمريكى كثيرا عند معنى واحد للصدق .. فليكذب الرئيس كما يشاء، وكل مساعديه، ما دام الهدف هو ضرب العدو !

وعاب الشعب الأمريكى على رئيسه أنه لم يطلعهم على نيته فى أن يكذب لأنه اعتراض على الكذب، وإنما الاعتراض على تجاهله لهم !

ولكن كاتبا ساخرا اسمه (صداع واشنطون) طلب من البيت الأبيض أن يفعل ما فعله الشعب الألمانى فى أعقاب الحرب فيجعل من يوم ٢٠ يوليو يوما للاعتراف - فلا يكذب أحد فى هذا اليوم - وان ينتهز الشعب الأمريكى مثل هذا اليوم ويطلب من قادته أن تكون لديهم شجاعة روميل وغيره من قادة الحرب الألمان.

أما تفسير هذه السخرية القاتلة وهذه المستحيلات السياسية والعسكرية فهى أن الألمان فى ٢٠ يوليو سنة ١٩٤٤ تآمروا على زعيمهم هتلر وحاولوا قتله فى برلين. وفشلت المؤامرة. ولكن هتلر أعدم المئات منهم. وانتحر عشرات..

ولم يبق من كل القادة العباقرة إلا فيلد ماريشال روميل. أستدعوه من الجبهة الفرنسية فكان معصوب العين اليسرى جريحا كسيرا. وعكف يكتب تاريخ معاركه فى شمال فرنسا وشمال إفريقيا.

وعلل سبب هزيمته بأن هتلر وموسولينى كليهما لم يقدما له المدد الكافى من الرجال والذخيرة والسلاح. وبعث بتقريره إلى هتلر. فاستدعاه. فرفض. وجاء ضابطان يطلبان أن ينفردا به خارج البيت. وبعد دقائق عاد روميل إلى ابنه مانفرد - عمدة مدينة اشتتجارت الآن - قال له : لا بد أن أخبر والدتك أننى سأموت بعد نصف ساعة. هذا أمر. وبسبب انتصاراتى فى شمال إفريقيا فقد أمر هتلر أن أموت مسموما بيدى، وقد أحضر الضابطان السم. وإذا وافقت على الانتحار، فلن تصاب أنت وأمك بأذى!

ثم استدعى روميل مساعده وقال له : بعد نصف ساعة سنتلقى مكالمة تليفونية من المستشفى تقول إننى أصبت بانفجار فى المخ أثناء الجلوس مع هتلر واننى نقلت إلى

المستشفى .. وأننى مت. وسوف تقام لى جنازة رسمية. ولن يصيبك أنت أيضا أى أذى !

وبعد نصاف ساعة جاءت المكالمة وجاءت برقية من هتلر لأرملة روميل تقول : أرجو قبول عزائى فى مصابك الجلل. وسوف يذكر التاريخ اسم الفيلد مارشال روميل على أنه اعظم من حارب وانتصر فى الصحراء.

وتلقت أرملة روميل خطابا من رئيس لجنة دفن الموتى يقول : أمرنى الزعيم هتلر أن أقيم نصبا تذكاريا للفيلد مارشال روميل. وعلى الفور كلفت عددا من الفنانين بعمل نماذج صغيرة أبعثها لك. وقد اختاروا روميل على شكل أسد يبكى.. وأسد يسقط.. وأسد يقفز.. وأنا أفضل النموذج الأخير، فأن اخترت أنت النموذج الأول فالأمر لك!

***

ولكن ريجان ليس هو هتلر، ولا أحد من الرجال حوله قد تآمر عليه. ولا داعى لتضخيم هذه الغلطة وتغليظ العقوبة بأنها الخيانة العظمى فيكون عقابها الإعدام أو الانتحار.. أنها غلطة والسلام غلطة الرئيس الذى اسلم نفسه مغمض العينين إلى مساعديه، كما استسلم الشعب بلا عينين إلى رئيسه .. أما ان ينتحر مساعدو الرئيس، فذلك تكرار لما ارتكبه الألمان فى نهاية الحرب، وهو إحياء لخرافة البطولة الجرمانية، بعد أن انتهى عصر عبادة البطل والبطولة.

وإذا كان الرئيس الأمريكى بدأ بذبح خراف الرياسة فداء له، فسوف يوافقه الشعب ويصفق لبراعته فى نجاته من السقوط.. كما نجا قبل ذلك من الموت ومن السرطان !

وسوف تمضى أمريكا فى مساعدة إيران وربما العراق أيضا، ولكن بأساليب أخرى. ولن يكشف الشعب الأمريكى ذلك ، إلا فى عهد الرئيس الجديد ! ■

وكان تصفيق أوروبا أقوى من اعتراض العضو الشيوعى ومن برقية السفير الإسرائيلى!

طالب الرئيس السادات برلمان أوروبا بأن يضمن السلام فى الشرق الأوسط، وأن يكون ذلك هو الدور الرئيسى الذى تقوم به أوروبا، فإذا فعلت ذلك لم يكن هذا الدور أو هذه المبادرة أو هذه البادرة بديلا عن الدور الأمريكى أو بديلا عن اتفاقية كامب دافيد التى لم يشأ الرئيس السادات أن يذكرها فى خطابه، فنحن لا نتمسك بهذا الإسم، ولكن الذى نتمسك به هو ما حققته مبادرة السلام التى أثمرت كامب دافيد، وأنه لابديل عن السلام، ولا تغيير فى اتفاقية السلام إلا بموافقة الأطراف الثلاثة: مصر وإسرائيل وأمريكا.

وكما أشرت فى الأسبوع الماضى إلى أنه من غير أمريكا فمن الصعب أن تحقق أوروبا شيئا، ولذلك طلب إليها الرئيس السادات أن تضغط على الطرفين، أن تضغط على الطرف الإسرائيلى كما تفعل أمريكا، وأن تضغط على الطرف الفلسطينى ليتم الاعتراف بين الاثنين فى وقت واحد، ولم يشأ أن يذكر كيف يكون الضغط على منظمة التحرير الفلسطينية، هل يكون الضغط مباشرة أو يكون الضغط عن طريق السعودية التى تستطيع أن تضغط على المنظمة؟ ولا يهمنا كثيرا كيف يتحقق ذلك، المهم أن يكون لأوروبا دور، وأن يكون القصد من هذا الدور أن تتحرك أوروبا إيجابية بدلا من أن تتفرج على الشرق الأوسط ولا تقوم بإطفاء الحرائق، إنما تبيع السلاح مع بقية المنتجات للشعب الفلسطينى دور، وبعد ذلك أن يكون له وطن، ونحن نؤيد المبادرة الأوربية، فليس مثل

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/١٢/١٥

أوروبا شعوب عرفت هوان الحرب وانهيار الحضارة الإنسانية فوق صانعيها، وليس أصدق من أوروبا فى الدعوة إلى السلام فى كل مكان، وأوروبا ليست بعيدة عنا، فنحن فى جنوب البحر الأبيض، وأوروبا فى شماله، وعندما توقف ضخ البترول تجمدت أوروبا فى البرد والظلام، وإذا احترق البترول احترقت الحضارة الأوروبية أيضا، فلماذا لا يكون السلام هدفنا مادامت الحياة هدفا، ومادامت الحضارة تطويرا لأساليب الحياة..

ومادام الإسلام دين التسامح بين كل الأديان.. فإننا ندعو إلى أن تكون القدس مفتوحة لكل الأديان، ومشكلة القدس أهون كثيرا جدا من مشكلة الضفة الغربية والحكم الذاتى والحل الأردنى..

ولم يكن الحل الأردنى واضحا تماما عند الدول الأوروبية. فهو قد تردد كثيرا على ألسنة زعماء اوروبا وعلى ألسنة رجال الإدارة الأمريكية الجديدة..

ولكن مصر هى التى طالبت بالحل الأردنى - ووجهة نظر مصر أن يكون للأردن دور فى مرحلة تالية. وعندما تجئ هذه المرحلة، أى بعد أن يتقرر الحكم الذاتى فى هذا العام، فسوف تصدر مصر وإسرائيل وأمريكا دعوة رسمية إلى الملك حسين أن يأخذ دوره، وسوف تدعو ممثلى الشعب الفلسطينى أيضا أن يكون لهم دور كذلك..

وقد حدث عندما جاء السيد اسحاق رابين لإجراء حديث فى الاسكندرية مع الرئيس السادات ، ليكون ضمن كتابه الجديد عن لقاءاته مع زعماء العالم، أن تحدث السيد رابين عن «الاختيار الأردنى» وكان يدعو إلى ذلك فى إسرائيل، ولكن الرئيس السادات رفض الاختيار الأردنى، وقد لاحظت وأنا أستمع إلى الرئيس السادات أن السيد رابين قد صدمه هذا الرفض المباشر، ونشرت صحف إسرائيل عن خيبة أمل إسحاق رابين فى ذلك الوقت..

ولما جاء السيد شمعون بيريز إلى مصر، وتحدث عن الاختيار الأردنى مع الرئيس السادات أيضا، رفضه الرئيس السادات، ورفض أن يكون للأردن هذا الدور «الآن» خوفا من أن يؤدى ذلك إلى إفساد المفاوضات أو تعويقها، وكانت صدمة أخرى للسيد بيريز أيضا..

ولكن عندما عاد بيريز إلى إسرائيل قال: إنه لم يختلف مع الرئيس السادات فى أن يكون للأردن دور، إنما فى أن يكون هذا الدور الآن، وسافر السيد بيريز إلى أوروبا يتحدث عن البديل الأردنى أو الاختيار الأردنى أو الحل الأردنى، ويقنع به رؤساء الدول الأوروبية..

وأخيرا دعا السيد رابين إلى التخلى نهائيا عن الاختيار الأردنى لأن حكومة

السيد بيجين ترفضه، وكذلك الرئيس السادات، أى أنه هو شخصيا تخلى عنه، ويطلب إلى زميله زعيم حزب العمل شمعون بيريز أن يتخلى عنه نهائيا.. وأثناء إلقاء الرئيس السادات لخطابه فى البرلمان الأوروبى وقف النائب الأيطالى الشيوعى ماريو كابانا (٣٦ سنة) ممثل الحزب الشيوعى الديمقراطى، ورفع لافتة كتب عليها: لا كامب دافيد!.

خرج الرئيس السادات عن خطابه وقال: لم آت هنا لأبيع كامب دافيد. وصفق أعضاء البرلمان، فعاد العضو الشيوعى الإيطالى الذى ليس عضوا فى البرلمانى الإيطالى، ورفع علم فلسطين، فخرج الرئيس السادات عن الخطاب المكتوب وقال: إننا رفعنا هذا العلم على فندق ميناهاوس قبل ذلك.. ولم تحضر منظمة التحرير الفلسطينية. وصفق أعضاء البرلمان الأوروبى، وفى هذه الأثناء وأثناء الهمهمة والحركة غير العادية فى البرلمان الأوروبى، طلب السيد كمال حسن على رئيس الوزراء ووزير الخارجية خريطة للبرلمان الأوروبى ليعرف مكان هذا العضو، فقد سمع أنه كثير المناوشات فى داخل المجلس، وأنها ليست المرة الأولى التى اتخذ فيها مثل هذا التصرف الغريب، ومن الصدف أنه فى نفس الوقت رفع العلم الفلسطينى فى الكنيست الإسرائيلى لأول مرة منذ إنشائه، رفع هذا العلم عضو الكنيست الصحفى المعروف أوروى افنيرى، وذلك بمناسبة توديعه للكنيست وتخليه عن مكانه لزميله فى الحزب وليد الحاج يحيى، وقد أعلن أوروى افنيرى فى ذلك الوقت أن أحلامه كلها سوف تتحقق عندما يقف العلمان التوأمان جنبا إلى جنب: العلم الفلسطينى والعلم الإسرائيلى، وراح يهتف بصوت مرتفع مكررا العبارة الشهيرة التى قالها الزعيم الصهيونى هيرتزل: إذا كانت لك إرادة فلا يمكن أن يكون هذا حلما. مادمت تريد فلم يعد ذلك حلما. فالإرادة حقيقة.

أما الشيوعيون الفرنسيون فقد امتنعوا عن حضور البرلمان الأوروبى. لأنهم يرون أنه ليس من حق البرلمان الأوروبى أن يوجه مثل هذه الدعوة للرئيس السادات، وسبق أن انسحب الشيوعيون الإسرائيليون من الكنيست عندما زاره الوفد البرلمان المصرى فى الشهر الماضى، وهذا يؤكد أنه ليس هناك تنسيق واضح بين الأحزاب الشيوعية فى أوروبا، وإن كان هناك تنسيق بين الحزب الشيوعى الفرنسى والحزب الشيوعى الإسرائيلى..

وقد منع بوليس لوكسمبورج سيدة عضوا فى البرلمان البريطانى من دخول القاعة. ونشرت كل الصحف البريطانية ذلك. ولكن صحيفة إنجليزية واحدة هى ديلى تلجراف قالت إن البوليس المصرى هو الذى منع السيدة عضو البرلمانى عن حزب العمل الإنجليزى من الدخول، مع أنه لم يكن هناك بوليس مصرى، وأننا لم نعرف بهذا النبأ إلا من الصحف. ولما

سألت أنا هذه السيدة عما حدث لها أكدت أن حارس لوكسمبورج لم يفهم مقصدها عندما اندفعت إلى القاعة قائلة: ما الذى يريد أن يقوله السادات هذه المرة.. ذلك الرجل الجرئ القادم إلينا من الجنوب؟..

فظن الحارس أنها تهدد الرئيس السادات، ولذلك منعها. اعترضها ثم سمح لها بعد ذلك. ولكنها لم تشأ أن تدخل احتجاجا على رجال أمن لوكسمبورج. وفى ذلك الوقت اعتصم عشرة من الطلبة الليبيين فى الجامعة العربية احتجاجا على زيارة الرئيس السادات لفرنسا..

وقبل أن يسافر الرئيس السادات إلى لوكسمبورج ذهب إليه السفير الإسرائيلى بن اليسار، وتحدث إليه طويلا فى مشاكل رآها ضرورية، من بينها ما حدث فى معرض الكتاب الدولى فى القاهرة. فذكر للرئيس السادات أن كل الكتب المعروضة فى هذا الجناح قد اشتراها المصريون المتخصصون فى الأدب العبرى. وأعرب السفير الإسرائيلى عن دهشته لذلك، وروى أن الصحف الإسرائيلية قد نشرت مثل هذه الأنباء فى دهشه وعجب.

ونقل السفير الإسرائيلى إلى الرئيس السادات: إن حكومتى تخشى أن يؤدى التقارب بين مصر وأوروبا إلى التباعد بين مصر وإسرائيل، خاصة أن أوروبا تنادى باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية فى المفاوضات.. وقد أشرت إلى هذا المعنى فى الأسبوع الماضى..

وأكد له الرئيس السادات أنه لا يعترض على اشتراك الفلسطينيين فى مرحلة لاحقة، وأنه يؤيد المبادرة الأوروبية والمشاركة الكاملة فى تحقيق السلام..

وبعث السفير الإسرائيلى إلى حكومته فى نفس اليوم بنص الحوار الذى دار بينه وبين الرئيس السادات، وكان ذلك منذ حوالى اثنى عشر يوما..

وفى الساعة السابعة من مساء الأحد الماضى.. اذاع المحلل السياسى شمعون شيبر فى إذاعة صوت إسرائيل النص الكامل للبرقيات التى أرسلها السفير الإسرائيلى. والتى أعلن فيها أن الرئيس السادات لا يوافق مطلقا على المبادرة الأوروبية، وروى أيضا أن الرئيس السادات سوف يقيم كيبوتس أو أكثر من كيبوتس فى الصحراء الغربية، كما أذاع راديو إسرائيل نص البرقية التى بعث بها مدير الخارجية داوود كمشه إلى السفير الإسرائيلى يطلب منه مزيدا من الايضاح لموقف الرئيس السادات من استئناف مفاوضات الحكم الذاتى..

وتفاصيل أخرى كثيرة غريبة.. وحاولت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن تفسر وتبرر.

فقالت إن هذه البرقيات التى بعث بها السفير الإسرائيلى تذهب نسخ منها إلى مكتب رئيس الوزراء ومكتب وزير الخارجية وإلى مكتب وزير الدفاع وإلى المخابرات الحربية والمخابرات العامة، فليس بعيدا أن تتسرب منها نسخة بين هذه المكاتب المتعددة..

أما السفير الإسرائيلى فقد بعث ببرقية نشرت فى كل الصحف الإسرائيلية، ووصف هذا العمل، أى «تسريب» مثل هذه البرقيات إلى الصحف أو إلى الإذاعة، بأنه خيانة وطنية. وكذلك رددت هذا المعنى كل الصحف الإسرائيلية..

ووعد وزير الخارجية إسحاق شامير فى جلسة الكنيست أمس... بضرورة تقديم المسئول عن فضح هذه البرقيات.. إلى القضاء فى أسرع وقت..

وكذلك أعلن السيد مناحم بيجين إدانته لهذه الحادثة التخريبية، وانتهز هذه الفرصة وجدد الدعوة إلى الرئيس السادات لزيارة إسرائيل، وأعلن أنه كان قد سبق له توجيه مثل هذه الدعوة إلى الرئيس السادات عندما التقى به فى أسوان، وأعلن أن الرئيس السادات حر فى أن يختار الوقت الذى يراه مناسبا لزيارة إسرائيل. أما المعنى فهو محاولة الحكومة الإسرائيلية ألا يؤدى هذا الحادث إلى إفساد العلاقة بين الدولتين..

إذن فلم تفلح هذه الحادثة أو «هذه الحيلة» فى إفساد رحلة الرئيس السادات إلى اوروبا، وخطابه إلى البرلمان الأوروبى، ودعوته لأن يكون لاوروبا دور فى بناء السلام وقيام الدولة الفلسطينية..

ولم يشعر ٣٧٠ مليونا من الأوروبيين، ولا بقية العالم، بما فعله عضو واحد شيوعى، واعتصام هؤلاء الطلبة الصغار فى الجامعة العربية بباريس.. ولا أحس أحد بفضيحة برقية السفير الإسرائيلى فى القاهرة التى نشرت كلمات منها بعض الصحف العالمية، لأن القضية أكبر وأخطر، وأن اوروبا القوية المتحضرة قد تحدد أن يكون لها دور، أو من الواجب أن يكون لها دور، بعد أن ظلت مترددة بعض الوقت، وقد جاءت هذه المبادرة المصرية الجديدة سندا لدول اوروبا أن تفعل شيئا إضافيا، وفى استطاعتها أن تفعل ذلك. ولا يهمنا ما اسم هذا الدور، ولا يهمنا حتى اسم كامب دافيد، المهم أن تقوم بهذه المبادرة تحت أى اسم وفى أى وقت.

وقد تبدو حماسة البرلمان الأوروبى عادية للمتفرج العربى، ولكن أعضاء البرلمانى الأوروبى قد أكدوا لنا أن ما حدث كان خروجا عن المألوف، فليس من عاداتهم أن يصفقوا، ولا أن يصفقوا واقفين، ولقد أبدت السيدة سيمون فيل دهشتها لما حدث فى جلسة البرلمان العلنية التى حضرها الرئيس السادات، فقد حدثت مناقشات كثيرة، فقد اعتاد

أعضاء هذا البرلمان أن يشهدوا فى المناقشات الكبيرة أو الموسعة مظهرا من مظاهر الاستحسان كان يصفق ثلاثة أو أربعة، أو يدق أحد الحاضرين المنصة بيده فقط ولا يزيد على ذلك.

أما الذى رأيناه فهو التصفيق العام والتصفيق الحاد جلوسا ووقوفا، ودق المنصة بأيديهم، ولم يكن ذلك مألوفا حتى إلقاء الرئيس السادات لخطابه البليغ الشامل، حتى العضو الشيوعى ماريو كابانا قد صفق فى النهاية للرئيس السادات، وقال لى: إننى اعترضت أول الأمر، ولكن الرئيس السادات أقنعنى ويجب أن أعترف بذلك، وقد أصدر سكرتير المجموعة الشيوعية الإيطالية السنيور سرجيو سرجه بيانا موجزا، وسلمنى هذا البيان، قال فيه: لقد تابعنا خطاب الرئيس السادات الذى يؤكد على أن يكون للبرلمان الأوروبى دور نشيط، وأن يكون هذا الدور فورا من أجل الحل الشامل تحقيقا للسلام فى الشرق الأوسط، وقد دعا الرئيس السادات فى خطابه إلى أن يكون للفلسطينيين دور إيجابى، وعلينا أن نؤيده فى ذلك حتى تقوم الدولة الفلسطينية، ونحن لا يسعنا إلا أن نحيى فى الرئيس السادات شجاعته وصدقه فى هذا الموقف التاريخى..

وقد نشرت صحيفة إيطالية تقول تعليقا على موقف العضو الشيوعى المتطرف ماريو كابانا: لابد أن يخجل العضو الإيطالى لموقفه غير المتحضر.. كأن الرئيس السادات لم يكتف بأن أكد سلبية الدول الأوروبية، فأراد دون قصد منه أن يفضحنا أمام أنفسنا. فكان سلوكه مهذبا متحضرا، بينما أكد له أحد الإيطاليين أننا لسنا كذلك. وقد جاء خطاب الرئيس السادات متضمنا خطة عمل اوروبا كلها. أما إيطاليا فقد خصها بهذا الدرس الأخلاقى.. شكرا يا سيادة الرئيس.

ومن نتائج هذا الحديث لاوروبا أن أصبح لقاء الرئيس السادات مع الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان نقطة تحول هامة فى العلاقة التى كانت فاترة بين البلدين، وقد بدأت هذه العلاقة تتحسن قليلا بعد زيارة السيد حسنى مبارك لفرنسا، ثم بعد زيارة السيدة حرم الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان لمصر..

وفى أسوان عندما التقى الرئيس السادات بالسفير الفرنسى أفضى إليه برغبته فى لقاء الرئيس ديستان بعد أن يلقى خطابه فى لوكسمبورج، فكان هذا اللقاء السادس بين الرئيسين، وعلى غير العادة فى الزيارات الخاصة ذهب الرئيس الفرنسى إلى المطار ووقف عند سلم الطائرة، وعندما زاره الرئيس السادات فى قصر الإليزيه رافقه الرئيس الفرنسى حتى باب السيارة، وظل واقفا حتى اختفت سيارة السادات، ونشرت الصحف الفرنسية أن

حفاوة الرئيس الفرنسى غير تقليدية..

وكانت هناك مشاكل معلقة، وكان لابد من توضيح الكثير من سياسة فرنسا فى الشرق الأوسط وفى أفريقيا.. وفى العراق بصفة خاصة..

فعندما طلب العراق أن يشترى سلاحا وذخيرة وقطع غيار من مصر اعتذرت مصر فورا، ولكن قبلت مصر أن تشترى فرنسا هذه الأسلحة والذخيرة وتسلمها للعراق، وتلاقت وجهات نظر مصر وفرنسا فى قضية تشاد التى اعتدت عليها ليبيا، وسوف تساهم فرنسا فى مشروعات صناعية كبيرة، وفى مشروعات علمية متطورة مثل بناء المفاعلات النووية وغيرها..

وكانت الصحف الفرنسية قد هاجمت الموقف السلبى لفرنسا من اتفاقية كامب دافيد، والموقف المتوازن الذى يجعل لفرنسا صورة الدولة الانتهازية فى الشرق الأوسط، وقالت صحف فرنسا إنه قد حان الوقت لكى تسفر فرنسا عن وجهها تماما، وإن الفرصة قد واتتها أخيرا بزيارة الرئيس السادات ومبادرته الجديدة من أجل السلام..

ومع زيارة المستشار النمساوى برونو كرايسكى للقاهرة، فسوف ينتعش التفكير فى المشاركة الفلسطينية: شكلها وحجمها وتوقيتها، وهذا تأييد للموقف المصرى الذى تحمست له الدول الأوروبية..

وأثناء زيارة هانز ديتريش جنشر وزير خارجية ألمانيا كبرى الدول الأوروبية وأغناها وأقواها أثرا. فسوف تتجدد مناقشة تزويد ألمانيا للسعودية بالدبابات وهو ما يعترض عليه الحزب الحاكم فى ألمانيا، وحكومة إسرائيل، بينما تؤيده المعارضة الألمانية..

وإذا لم تكن لدى الدول الأوروبية التزامات أخلاقية فى التعامل فى الشرق العربى، فإن الاعتبارات الاقتصادية البحتة تحتم على اوروبا أن تحمى زبائنها فى الشرق الأوسط وفى العالم الثالث. وقد حدث أخيرا فى التاريخ أن اتخذ تصدير فائض الطعام والشراب إلى الجنوب شكل الرحمة والمحبة الإنسانية، بينما حقيقته هى الرواج والنشاط التجارى، ولكن هذه التسمية لا تهم، والذى يهم الجياع أصحاب موارد الطاقة وخامات المصانع ومناجم الماس واليورانيوم أن تكون هناك حياة كريمة قادرة على أن تجدد نفسها وأن تستمر، ويكون تجديدها حضارة واستمرارها سلاما..

وأتذكر الآن مشهدا حزينا فى مسرحية للكاتب الألمانى فاسبندر حين يقف أحد العمال الجياع يشترى رغيفا حصل على ثمنه بصعوبة، فيسأل البائع: ما اسم هذا فى بلادكم؟..

يقول له البائع: نسميه الرغيف. ويسأله العامل: الرغيف.. ولا تقولون إنه الذهب أو الماس؟.. فيرد عليه البائع: فقط رغيف. قالها بصوت مرتفع ظنا منه أن العامل أصم. فعاد العامل يسأله: ألم يسمه أحد قبل ذلك سمو الأمير أو صاحب الجلالة؟ فقال البائع: أبدا . قال العامل: وهل يضايقك أن نسميه صاحب القداسة؟..

هز البائع رأسه عجبا واستخفافا وقال: افعل ماشئت. قال له العامل: حتى لو قلت إنى أسمى هذا الرغيف: الله سبحانه وتعالى؟.. قال البائع: هذا لا يهمنى إنما الذى يهمنى هو أن تدفع ثمن الرغيف وأن تمضى لحالك، وهنا وضع العامل هذا الرغيف الذى اشتراه فوق رأسه ومضى ليأكله بعيدا.. هل أنا فى حاجة إلى شرح هذا المعنى الذى جاء فى نهاية فصل من فصول مسرحية الكتاب الألمانى المعاصر الساخر؟ إن كان هناك من معنى فهو أنه لا يهمهم كثيرا فى الشمال أن ننصب الرغيف ملكا أو نجعله صنما، المهم أن ندفع الثمن..

ولكن يهمهم أيضا أن نشترى وأن نقدس الذى نشتريه، ولكن لكى نظل قادرين على الدفع فلابد أن نعمل، ولكى نعمل فلابد أن نعيش، ولكى تستمر الحياة فلابد من السلام الذى هو ضرورى للجميع: للبائع من الشمال الأوروبى، والمشترى فى الجنوب الأفريقى والآسيوى..

السلام هو الحياة، والحياة هى السلام، وبين البائع والشارى رغيف يوزن بالعرق، الذى هو الذهب الأصفر أو الذهب الأسود.. ■

لقد وعدنا السوفييت كثيرا
فهل يصدقون هذه المرة ؟

هل الاتحاد السوفيتى هو رجل المطافئ الذى جاء متأخرا ليخمد ما تبقى من حريق الشرق الأوسط ؟.. هل جاء يلقى طوق النجاة إنقاذا للقضية التى بلغت مراحلها الحاسمة ؟

ربما كان من السابق لأوانه أن نعلق على خطاب الرئيس برجنيف فى المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعى الذى انعقد فى موسكو يوم الجمعة الأسبق. فالخطاب طويل وليس متناسبا فى عرض القضايا الدولية. وإذا نحن جردناه من العبارات التقليدية فى الهجوم على الاستعمار الأمريكى وحلف الأطلنطى والدول الأخرى، وإذا جردناه أيضا من التمجيد لصاحبة الجلالة الشيوعية وصاحب الفخامة الاتحاد السوفيتى، واستبعدنا إلقاء الوحل على الصين أعدى أعداء الاتحاد السوفيتى، التى كانت ثورتها الثقافية «فاشية مجرمة إقطاعية»، فإن الذى سوف يتبقى بعد ذلك شئ قليل. ولكن هذا القليل يحتاج إلى الكثير من الدراسة والمراجعة. فالرئيس السوفيتى قد ألقى صفحة واحدة، وترك بقية الخطاب يلقيه آخرون، ثم عاد فألقى السطور الأخيرة من الخطاب. وقد حضر هذا المؤتمر خمسة آلاف مندوب روسى عن ١٧ مليون من أعضاء الحزب الشيوعى، وحضر المؤتمر ١٢٣ وفدا يمثلون ١٠٩ دول أجنبية - من بينها ١٣ حزبا شيوعيا عربيا..

فخطاب الرئيس برجنيف هو «خطاب العرش» الإمبراطورى لكل الدول الشيوعية، وهو برنامج العمل المخيف لأمريكا ودول الغرب.. وربما كان «خطبة الوداع» للرئيس

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٣/١

السوفيتى برجنيف (٧٤ سنة) الذى ضعفت أذنه وخطوته، وتباعدت المسافة بين لسانه وذاكرته.

والخطاب رغم العبارات التقليدية العنيفة قد خلا من الكلمات الجارحة، أو من العبارات المتحدية للأمريكان والغرب واليابان والصين..

ولذلك كان أساس هذا الخطاب أنه يدعو إلى العودة لمجلس الأمن، ويدعو لعقد مؤتمر لأمن «الخليج الفارسى» ولا يسميه الخليج العربى أو الخليج.. ويرى أن من الممكن أن يكون هناك مؤتمر لضمان أمن الخليج وأمن الملاحة البحرية فى الخليج الفارسى وإليه، وأمن أفغانستان أيضا.

واشترط فى حالة بحث قضية أفغانستان أن يتعلق ذلك بأمنها الخارجى. وليس من شأن أحد أن يناقش أمنها الداخلى. لأنها دولة مستقلة ذات سيادة وغير منحازة(؟!) وقد أدى تهديد ثورتها إلى اقتراب الخطر من الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى. وإذا قرر السوفيت أن يسحبوا قواتهم من أفغانستان فلن يكون ذلك إلا بعد القضاء على المتسللين إليها.

ولا يرى الرئيس برجنيف أن الزحف السوفيتى على أفغانستان وإبادة المسلمين مدنيين وعسكريين، عمل عدوانى على دولة مستقلة ذات سيادة. ويرى الاتحاد السوفيتى أيضا أن عجز أمريكا والغرب والعرب والمسلمين أمام الغزو السوفيتى موقف ضعيف ومتوقع، ولذلك كان الغزو السوفيتى مغامرة محسوبة وامتحانا علنيا لقدرة الغرب على الفرجة خوفا من المواجهة النووية!

أما إيران فيرى الرئيس برجنيف أن ثورتها كانت معادية للاستعمار. وإن كانت هناك محاولات فى الداخل والخارج لتشويه وجه الثورة الإيرانية - أى الثورة الإسلامية التى تعارض الإلحاد السوفيتى والتى قد تشجع المسلمين السوفيت على حدودها. ولكن الرئيس برجنيف يرى أن ثورة الخومينى، أيا كان برنامجها أو العلم الذى ترفعه، فهى ضد الشاه الذى كان حليفا لأمريكا وضحية لها أيضا!

أما الشرق الأوسط فقد جاء فى ١٧٠ كلمة. وقد طالب الرئيس السوفيتى «بعمل جماعى مخلص لتسوية واقعية شاملة». وأن يكون ذلك فى «إطار» مؤتمر دولى، وإنه على استعداد لأن يساهم فى ذلك بروح بناءة وثية خالصة متعاونا مع كل الأطراف الأخرى العرب ومنظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل وأمريكا. وإنه على استعداد أيضا للتعاون مع الدول الأوروبية وكل من يريد حلا عادلا شاملا فى الشرق الأوسط.

ويقول أيضا : بما أن العالم كله يتأثر بموقف السوفيت والأمريكان، فلا بد من عقد مؤتمر قمة لكى يتجنب العالم كله ويلات التهديد بالخطر أو بالحرب..

وهو يهاجم أمريكا لأنها افتعلت «التهديد السوفيتى» أو اخترعت «الخطر السوفيتى» لكى تتخذ لها مواقع وقواعد، ولكى تعلن أن لها مناطق حيوية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج. وذلك بسبب احتياجها إلى البترول واليورانيوم وغيره من المعادن.

والرئيس برجنيف لا يثير اهتمام أحد من سامعيه عندما يتحدث عن «التهديد بالخطر» لأنه يعلم أن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تعالج بها الدول العظمى مشاكل الدول الصغرى. فأمام هذا الخطر تتجه الدول الصغرى إلى أن تنحاز. فإذا انحازت احتاجت إلى السلاح دفاعا عن موقفها الجديد. وسوف تعطيها الدول العظمى سلاحا مكافأة لها على ذلك. فإذا جاء السلاح احتاج إلى الخبراء للتدريب والصيانة. ويكون الخبراء مقدمة لقوات أخرى. وتجئ القوات تدخلا عسكريا وانحيازا تاما، وعداوة صريحة للدولة العظمى الأخرى. وهذه هى بداية توزيع مناطق النفوذ استنادا إلى التخويف بالحرب وتهديد الأمن الداخلى والسلامة الخارجية. ولذلك كان خوف الدول الصغرى من شراء السلاح من الدول العظمى.

ولم تلعب الدول العظمى والدول الكبرى لعبة «التهديد» والحرب والحتلال، مثلما فعلت فى الشرق الأوسط. إلا دفاعا واحتكارا للقنوات المائية وآبار البترول. فعرفنا الاحتلال العثمانى والبريطانى والفرنسى.. وعرفت مصر محاصرة قصر الملك بالدبابات سنة ١٩٤٤. ليفرضوا حكومة على الملك وعلى الشعب.. وعرفت العدوان البريطانى الفرنسى الإسرائيلى سنة ١٩٥٦ للقضاء على الثورة المصرية.. وعرفت النفوذ السوفيتى بخبرائه العشرين ألفا وعقيدته العسكرية والسياسية أيضا، ومحاولة السوفيت أن يفضوا على الجيش المصرى فى حرب ٦٧ وحرب ٧٣..

وعرفت الأردن والعراق ودول الخليج الاحتلال البريطانى.

أما الاحتلال الفرنسى فقد عرفته سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب وجيبوتى وتشاد..

والاحتلال الإيطالى عرفته ليبيا واثيوبيا والصومال..

ولذلك تشترك دول الشرق الأوسط التى تقع على البحرين الأبيض والأحمر والخليج، فى تحريك رأسها يمينا وشمالا : تنظر حولها وخلفها وأمامها. وحساسيتها شديدة

لكل أشكال التدخل الأجنبى الذى عانت منه كثيرا وطويلا..

ولكن الخوف الداخلى هو الذى دفع سوريا وليبيا إلى استدعاء السوفيت، فسوريا تخاف من شعبها فاحتاجت إلى عقد معاهدة مع السوفيت بعد أن أعلنت اندماجها فى ليبيا. وفشلت الوحدة الاندماجية، كما فشلت كل وحدة مع ليبيا : وحدة مصر وسوريا، والوحدة بالإكراه مع تونس. والإكراه على الوحدة مع تشاد. والوحدة الخرافية مع مالطة..

وانشغلت سوريا بحماية أمنها الداخلى حتى لا يسقط الرئيس الأسد من مقعده الذى يهتز منذ عشر سنوات. وقد ازداد اهتزازا بعد فشل التدخل السورى فى لبنان.. ولذلك فهو يشغل قواته فى معارك داخلية ضد الإخوان المسلمين - وهم فى الحقيقة الأغلبية الساحقة للشعب السورى. وفى حشد قواته على حدود الأردن حتى لا تتفاوض مع إسرائيل، ثم سحب قواته ووزعها على كل الحدود. وإذا التفت هذه القوات لأى سبب، فلكى تفضى على أحد كبار الضباط، واختلفت سوريا مع العراق وابتعدت عن الأردن التى اقتربت من السعودية، وإذا كان الأمريكان حريصين على استقرار الملك حسين، فإن السوفيت أكثر حرصا على أمن الرئيس الأسد.

وإذا كان الرئيس السوفيتى يعيب على الغرب أن يتوهم أن هناك تهديدا سوفيتيا بالحرب. فالحق معه، لأن السوفيت لا يهددون باستخدام القوة، إنهم يستخدمونها دون تهديد كما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وفى افغانستان واليمن الجنوبية واثيوبيا وليبيا. وهذا الأسلوب السوفيتى يختلف بوضوح تام عن الأسلوب الأمريكى فى الثلاثين عاما الماضية، لأن الأمريكان يهددون باستخدام القوة ولا يستخدمونها فى آسيا وإفريقيا وفى أوروبا أيضا. ولذلك فالدولتان العظميان تلعبان «على المكشوف». فكل واحدة تعرف أسلوب الأخرى. ويمنعهما «الرعب النووى» من المواجهة العسكرية دفاعا عن أية دولة صغيرة. فأسهل من ذلك أن تقتسما الأرض ومن وما عليها. وتلك حسابات معقدة جدا، اتخذت اسما رقيقا رومانسيا هو : الوفاق.. أو توفيق رأسين فى الحلال، وليس على الشعوب كلها إلا أن تشرب نخب هذه الزواج السعيد !

هل كانت أمريكا تتوقع هذا الزحف السياسى السوفيتى ؟ ممكن. ولذلك كانت المبادرة الأوروبية لحل مشكلة الشرق الأوسط نوعا من تأييد الموقف الأمريكى المصرى الإسرائيلى. وإبعادا للتدخل السوفيتى. ولذلك فعندما ظهر السيد هيج وزير خارجية أمريكا مع السيد بونسيه وزير خارجية فرنسا فى التليفزيون منذ أيام، كان واضحا أن أمريكا هى الأكثر حرصا على تبنى وجهات النظر الأوروبية، وليس العكس..

وجاء خطاب الرئيس برجنيف يمشى فى هذا الطريق أيضا. فيبدى استعداده للتعاون مع أوروبا ومع جميع الأطراف التى تعنيها التسوية الشاملة لكل النزاع بين العرب وإسرائيل.

وليس من الحكمة أن نقفز إلى النتائج بعد قراءة سريعة لخطاب جاد خطير يلقيه الرئيس برجنيف. ولذلك فلا بد أن يمضى وقت طويل لتحليل كل ما جاء فيه. ولكن «الانطباع» السريع لما جاء فى هذا الخطاب أنه كان هادئ النبرة. تقليدى النقد. فليست فيه مثل عبارة ستالين الشهيرة وهو يتحدث عن الماريشال تيتو. بحركة من أصبعى هكذا، بعدها يسقط إلى الأبد.

وليست فيه عبارة خروتشيف الشهيرة وهو يتحدث إلى عدد من الدبلوماسيين الأمريكان : التاريخ معنا وسوف ندفنكم جميعا !

ولا عبارة لينين الرومانسية عندما قال فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩١٧. لقد أشرقت شمس الثورة الاشتراكية على العالم.

ولو شاء الدقة لقال : لقد «أحرقت» شمس الثورة الاشتراكية الكثير من بلاد وشعوب العالم. ولا تزال !

وليس كلاما متكررا أن نقول ما جاء على لسان الرئيس برجنيف فى هذا الخطاب وهو يتحدث عن الدور السوفيتى فى المؤتمرات الدولية فقال : لا بد من هذه المؤتمرات. ومن المعروف أن لنا تجارب فى ذلك.

ونحن لنا تجارب أيضا مع السوفيت فى مصر وحول مصر أيضا. ولذلك يجب أن نتحفظ تماما فى توقعاتنا لما سوف يحدث، أو للخطوة التالية للسوفيت، ولا أن نعيد فنؤكد مواقفنا وما استطعنا أن نحققه بالسلام. وإذا نحن تشككنا فى كل ما قاله الرئيس برجنيف أو فى أكثره، فعذرنا لدينا. وتاريخنا القريب جدا يسعفنا بكثير من الأدلة التى يمكن أن نحشدها ضد السوفيت. ولكن ليس من الحكمة أن نتصلب على موقف واحد. والدنيا قد امتلأت بالمتغيرات - ومصر إحدى هذه المتغيرات.

فإذا استطاع الاتحاد السوفيتى، منفردا أو مع أطراف النزاع والسوق الأوروبية وأمريكا، أن يجد حلا أو يضيف جديدا، فلا بد أن ننحنى تعظيما لدولة عظمى وعدت كثيرا فصدقت لأول مرة.. وبعد ذلك فمن حق السوفيت علينا أن نعيد حساباتنا معهم وأن نمحو من تاريخنا نقطا سوداء كثيرة وعفا السلام عما حدث بالحرب.

ولا بد أن نتساءل عن الدول التى سوف توافق على «الدخول» السوفيتى فى الشرق

الأوسط.. إن الاتحاد السوفيتى ليس بعيدا. فقد أدخلته مصر إلى هذه المنطقة فى أوائل الستينات، ثم طردته فى أوائل السبعينات، ليعود إلى هذه المنطقة بأشكال وأسماء مختلفة..

إن الدول العربية التى تخشى النفوذ السوفيتى لن توافق على الحل الشيوعى.. وأمريكا ومصر وإسرائيل لن توافق أيضا إذا كان «الدخول» الجديد محاولة لإلغاء ما تحقق باتفاقيات السلام..

وقد ترى الدول الأوروبية أنه لا بد أن يكون للسوفيت دور، حرصا على السوفيت وعلى التوازن بين الدولتين العظميين، وإرضاء للأحزاب الشيوعية وبعض الدول العربية..

ولذلك فسوف يحتاج السوفيت إلى توضيح موقفهم، وتأكيد قدراتهم على أن يفعلوا شيئا بدلا من تشجيع الدول العربية على رفض بعضها البعض و«تسخين» الشرق الأوسط وإحراق الكبارى بينها ليتمكن السوفيت من خلق محاور متنافرة ونقط للوثوب على دول جديدة فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية..

فهل الاتحاد السوفيتى أراد أن يسجل موقفا فى مواجهة الحكومة الأمريكية التى كشفت عن عضلاتها عندما اختارت قائدا عسكريا وزيرا لخارجيتها، وعندما أصبح على رأسها رجل فى السبعين أكثر شبابا من رئيس سابق لم يبلغ الستين ؟ - أهى الحياة والحيوية الدولية تبدأ بعد السبعين فى موسكو وواشنطون ؟.

هل تورط الاتحاد السوفيتى فى هذه «المبادرة» فتعرى أمام العالم كرجل مطافئ جاء متأخرا يخمد ما تبقى من حريق ؟ هل جاء الاتحاد السوفيتى يرمى بطوق النجاة للقضية الفلسطينية بعد أن اقتربت من مراحلها الحاسمة ؟ هل الاتحاد السوفيتى تعلم من الدرس الأمريكى فى الشرط الأوسط.. عندما تخلت أمريكا عن صديقها الشاه. فخاب أمل كل حلفائها فى الخليج وفي أوروبا، ثم عجزت عن إنقاذ رهائنها، ولذلك تقدم السوفيت يحاولون إثبات حسن النية السياسية، بعد أن أكدوا وجودهم عسكريا ؟

إن خطاب الرئيس برجنيف يحتاج إلى قراءة أخرى.. وإذا كان أكثر من زعيم قد ألقى خطاب الرئيس السوفيتي بسبب مرضه، فربما كانت هذه إشارة إلى أن من الضرورى أن يقرأه كثيرون. ويحللوه أيضا.

وكما دعونا للدول الأوروبية بالتوفيق فى مساهمتها من أجل السلام، وصفق العالم لذلك. فإننا نتمنى للقضية العربية التوفيق حتى لو كان الذى يدافع عنها هو المحامى الكبير الرئيس برجنيف الذى يتربص بمصر والسودان واليمن والسعودية وليبيا سوريا

والصومال وعمان.

فلن تكون الحروب مع إسرائيل هى آخر التضحيات التى يجب أن تبذلها الشعوب العربية من أجل السلام ! ■

إن كان مسرحا جادا
فهو بغير لب وبلا حشيش

ذهبت أنتظر مجئ مدير الأوبرا الفنان الكبير الصديق السليط سليمان نجيب. لم يكد يرانى حتى قال : يافتاح يا عليم : قلت : أريد أن أرى الأوبرا الليلة.. وعلى طريقته التى لا تعرف إن كان سعيدا بك أو يريد أن تنشق الأرض وتبلعك وحدك. قال: «اتنيل» تعال ليلا قبل رفع الستار !

وهذا هو أكثر أساليبه تأدبا وتهذبا ودليلا على حب سليمان نجيب لك. وهو يتحدث عادة بصوت مرتفع. أما إذا تخانق معك فأنت لا تعرف بالضبط ماذا يقول. إنه ينفجر بأصوات غريبة.. هى كل درجات السلم الموسيقى..

وفى الليل ذهبت وقد ارتديت البدلة والكرافتة.. وواضح جدا لمن يرانى أننى لا أرتدى بدلة، وإنما أنا أعلقها على كتفى فقط. فلا أنا مستريح ولا البدلة ولا رقبتى. وكل حركاتى العصبية تدل على أننى أتمنى أن أخرج منها.. فلم يكد يرانى سليمان نجيب والشاعر عبد الرحمن صدقى وكيل الأوبرا وصلاح ذهنى سكرتير الأوبرا حتى صاحوا فى نفس واحد : بره !

أى أخرج. أو أننى لن أتمكن من الفرجة هذه الليلة، فالبدلة فاتحة اللون، والليلة افتتاح أوبرا «كارمن».. وجلالة الملك فاروق سوف يحضر.. ومعه كل رجال وسيدات الأسرة المالكة وأغنى أغنياء مصر والسلك الدبلوماسى والأجانب. فالليلة هى الليلة. ولا بد أن

نشر هذا الموضوع فى ٨٤/٩/٢

تكون ملابسى قاتمة سوداء..

ولم يكن فى استطاعتى فى سنة ١٩٥٠ أن أقول رأيى فى أوبرا «كارمن» وغرامى الشخصى بقصتها وإعجابى لكارمن الغجرية وحياة الغجر. فقد كنت فى أول عهدى بالصحافة شابا صغيرا لا يعرفنى إلا القليلون من القراء والكثيرون من الأدباء الذين يترددون على «صالون العقاد». هل نزلت الدموع من عينى. يقال إن واحدة أو اثنتين. ولكن لست على يقين من ذلك، فأشار سليمان نجيب مديرا الأوبرا بيده إلى أحد السعاة أن يأخذنى ما وراء الكواليس. ودخلت فى غرفة الملابس. وانتقى لى بدلة «سموكنج» وقميصا أبيضا وكرافتة سوداء. ودفعنى إلى الصالة قبل ارتفاع الستار. واتخذت مكانا متقدما وجلست. ومع الموسيقى الرائعة وحركة عصا المايسترو بدأت البراغيث تلسعنى وتكوينى.. فالبدلة جاءت من المخازن. وهى ملقاة هناك منذ وقت طويل.

ولا أعرف كيف مر الفصل الأول من الأوبرا وأنا أتوجع وأتقلب. ولا أستطيع أن أخرج ولا كنت قادرا على النظر إلى ما أعرفه من الصور : الملك والملكة وأميرات وجميلات الأسرة المالكة. ولا أدعى أننى لمست الفراء وشممت العطور وتدحرجت بعينى من النحور إلى الصدور.. فقد احترق جلدى تحت البدلة.. ولم استطع أن أتخطى الطابور الطويل البطئ الذى يتهادى من مقاعد الصالة إلى البوفيه. وإنما كان لا بد أن يجئ دورى لكى أهرب بجلدى - إن كان قد بقى لى جلد !

إذن فلا بد من البدلة السوداء. ولا بدمن الحضور قبل رفع لاستار. وأن أبقى فى مكانى لا أتحرك.. احتراما للمسرح وللناس.. ولنفسى !



ولا أعرف بالضبط متى بدأت دار الأوبرا تتحول إلى قهوة بلدى - . يدخلها أصحاب الجلاليب والطواقى والشباشب. ويقتحم المقاعد باعة اللب والسودانى. فاختفت بذلك مظاهر الحضارة من فوق المسرح ومن مقاعد المتفرجين.. لماذا ؟ لأن الجمهور الردئ بطرد الفنون الجيدة !

مرة واحدة تجرأ ممثل كبير هو حمدى غيث فهدد بالتوقف عن التمثيل إذا لم يكف الناس عن قزقزة اللب. ولم يقف إلى جانبه قلم واحد فى مصر. ولا هو توقف، ولا الجالسون فى الصالة..

المصريين الذين ذهبوا إلى حفلاتها بالقميص والبنطلون.. والذين أسرفوا فى الشراب وراحوا يتساقطون على الأرض.. هؤلاء السكارى يتصورون أن حب الماركسية هو

أن يصبحوا دراويش يقبلون كل أرض روسية .؟ فالسفارة ترى أن الماركسى إنسان متطور.. يحترم التقاليد ويبدو محترما !

ولم يرد على ذلك بكلمة واحدة.

ومضى المتفرجون يأكلون ويقشرون اللب ويطرقعون زجاجات الكوكا.. والممثلون يفعلون ذلك.. وتعاون الجميع على إسقاط الهيبة والواجبة للفن الجميل!

هل احترقت الأوبرا سنة ١٩٧١ لأنها تجاوزت عمرها الافتراضى ؟ هل احترقت لأنه كان من الواجب أن تختفى فلم يعد لها معنى فى مصر ؟

أعتقد ذلك. وليس غريبا إذن أن نكون نحن أيضا الذين أحرقنا مكتبة الأسكندرية التاريخية.. فقد أحرقنا الكتب الجامعية أيام العدوان الثلاثى على مصر.. ومازلنا نحرق الأرشيف فى مواسم الجرد السنوى.. فالنار هى المنقذ لنا من الأوبرا ومن القراءة وحتى لا يدخل اللصوص السجون!

وبدأ ومضى التزييف باسم الشعب - أى بالمفهوم الخاطئ المضلل للشعب. بينما الدول العظمى التى تقدس الشعب والشعوب وكل ما هو شعبى تجلس أمام الأوبرا والباليه والسيمفونية كما يجلس المؤمنون فى الكنائس والمساجد !

ومضت ثورة يوليو تؤكد أن صاحب الجلالة هو الشعب.. الشعب الذى لا يقرأ ولا يكتب ولا يتذوق، ولا تريده أن يتذوق.

وللرئيس جمال عبد الناصر قائد الثورة بعض النوادر الأدبية.. التى لها أعمق الأثر فى كل حياتنا الثقافية والأثرية والتاريخية : أليس زعيما ملهما ؟!

ففى يوم إطلاق الرصاص عليه فى الإسكندرية صرخ يقول : أنا الذى علمتكم الكرامة.. أنا الذى علمتكم العزة.

وجاءت هذه العبارة بعد ١٣ قرنا من نزول القرآن الكريم وبعد ١٩ قرنا من ظهور الأناجيل.. وبعد ثلاثين قرنا من نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام.. وكل الديانات السماوية وكل الثورات وكل المفكرين والحكماء والمصلحين الذين أشعلوا عقول وقلوب الشعوب دفاعا عن حرية الإنسان وكرامته.

ولم يعترض أحد على هذه الإهانة البالغة التى قالها الزعيم جمال عبد الناصر. وهو يتوجه إلى الشعب الذى هو قائد الثورة من أجل الكرامة ؟!

وعندما أصدر الرئيس جمال عبد الناصر كتاب «فلسفة الثورة» جاءت فى الكتاب غلطة أدبية صغيرة. وهى غلطة لا شك فى ذلك. وهى صغيرة لأنه يمكن إصلاحها بعد سنة

أو سنتين. أو عشر سنوات. ولكن لا هو فعل ولا أحد نبهه إلى ذلك. رغم أن الغلطات الصغيرة للكبار : كبيرة.. بل كبائر ! الغلطة أنه عندما تحدث عن حيرته ودوخته وخيبة أمله وصف نفسه بأنه كان هو وزملاؤه مثل «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» وهى مسرحية مشهورة للأديب الإيطالى بيراندللو.. ولم يذكر فى كتابه أنها مسرحية إنما قال «قصة». والفارق كبير بين القصة والمسرحية !. وبقيت هذه الغلطة الصغيرة التى يعاقب عليها أى طالب أن يعطيه الأستاذ صفرا ! نفس الغلطة وقع فيها ولنفس الأسباب الزعيم الأندونيسى سوكارنو فقد تحدث عن مراحل الثورة والإصلاح فى أندونيسيا فقال إنها مثل «الكوميديا المقدسة» للشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى.. تبدأ بأن يدخل الإنسان «الجحيم» ليكفر عن خطاياه. وبعد ذلك يدخل «المطهر» ليستشفى سنوات من النقاهة.. وأخيرا يدخل «الفردوس» لينعم بالسعادة والرفاهية. وجاء فى كتاب الرئيس سوكارنو. أن هذا قد جاء فى «قصة» الشاعر دانتى وهى أيضا لم تكن قصة. إنما هى ملحمة شعرية رفيعة. وهى غلطة صغيرة. ولكن أحدا هناك لم يجرؤ على أن يصحح للسيد الزعيم هذه الغلطة مالها ومن ضميرها ومن كرامتها. ولا يزال الأمريكان يحتلون ألمانيا.

فدفعت ألمانيا ولا تزال. وهذا الذى دفعته قد ساعد إسرائيل على أن تقوم وتنهض وتقوى بسرعة. وإذا وضع اليهود فى كفة والرئيس عبد الناصر وكل الشعوب العربية فى كفة، فإ ن كفة الصهيونية العالمية التى تساندها أمريكا وكل الدول الغربية، هى التى ترجح طبعا.

وفى ذلك الوقت أيضا قد أفلح العلماء والمهندسون الألمان فى نقل معبد كلبشة من موقعه إلى موقع آخر، يبعد عنه ألوف الأمتار. ويرى العالم كله أن هذا الذى قام به الألمان يعتبر من أعظم الانجازات العلمية فى التاريخ. فقد حولوا المعبد إلى قطع صغيرة.. إلى عشرين ألف قطعة. وسجلوا عليها أرقاما. ثم نقلوها وركبوها على موقع يطابق الموقع السابق.. تماما كما حدث فى معبد أبو سمبل الذى يعتبر من أعظم الانجازات الهندسية والأثرية فى كل العصور.. إبعادا لهما عن مياه السد العالى. فما كان من السيد الرئيس إلا أن قال العبارة السابقة. وفى ذلك إهدار للثقافة والحضارة وكرامة العلم والعلماء.. ودليل على مستقبل الثقافة والفن فى مصر.

وعندما عاد الرئيس عبد الناصر من الاتحاد السوفيتى وجد فى مصر خناقة حول «حمار».

فتساءل : حمار من ؟

قيل له : حمار الحكيم.

فقد أدعى بعض النقاد أن «حمار الحكيم» مسروق من أديب إسبانى اسمه خانتنو بنافنته، فللأديب الإسبانى كتاب اسمه «بلاتيرو وأنا» وبلاتيرو هذا هو اسم الحمار. فالحكيم إذن قد سرق فكرة أن يتحدث إلى حماره والحمار يرد عليه، من الأدب الإسبانى. !

وأوقف الرئيس عبد الناصر هذه الخناقة فورا قائلا إنهم فى روسيا ينسبون كل شئ إليهم فيقولون إنهم هم الذين اخترعوا الراديو، ونحن نعرف أن الذى اخترعه ماركولى.. ويقولون إنهم الذين اخترعوا التليفون، ونحن نعرف أن الذى اخترعه جراهام بل.. ويقولون إنهم أول من أطلق الصواريخ، ونحن نعرف أنه الأمريكى جوادرد والألمانى فون براون. فإذا كانوا فى روسيا يسرقون كل شئ وينسبونه إلى أنفسهم.. فكيف إذا سرقنا حمارا استكثرنا ذلك على أنفسنا ؟!

ولم يكن ذلك دفاعا عن الحمير فى مصر إنما هو رفض لمناقشة أدبية.. تؤدى إلى إنعاش الفكر.. وقد تؤدى إلى إنصاف الحكيم.. أو الإعتذار له. وأنه إذا كان سرق عنوانا فهو لم يسرق كلاما. وإذا كان هو قد اختار الحمار المصرى ولم يختر الحمار الإسبانى فهو يمارس حقه فى التعبير.. وهى قضية أدبية نسفها الرئيس بإشارة من يده!



ومثل هذه المواقف - على مستويات أدنى من ذلك - كثيرة جدا. والنتيجة احتقار الثقافة والفكر والمسرح الجاد.. وبقية الفنون الحضارية العظيمة.

ويكفى أن نتذكر ما الذى كان يجرى على مسرح الأوبرا قبل الثورة وبعدها بقليل - أى إلى أن تعلمنا الدرس الأول فى العزة والكرامة فى الإسكندرية.

فعلى مسرح الأوبرا كان الباليه الروسى : بولشوى .. وكان المسرح الإنجليزى : أولد فيك والمسرح الفرنسى : الكوميدى فرانسيز وموريس إسكاند والأوبرا الإيطالية.. والفيلهورمونيك أوركسترا الألمانى بقيادة فورتفنجلر والنمساوى بقيادة كراوس..

وكان المدرب مويسييف يقوم بإعداد فريق للباليه المصرى.

وكانت السفارات لها مسارح صغيرة أيضا..

كل ذلك كان ياما كان..

وانتقلت الشوارع إلى المسارح.. فلم نعد نفرق بين المسرح والرصيف. وإذا نقلت مكانك على المسرح واتجهت إلى الجمهور فهو أيضا يمثل ويضحك. فأنت فى المسرح الكوميدى الحديث بين رصيفين : واحد فوق وواحد تحت. أو بين فرقتين : كبيرة على

الأرض وصغيرة على المسرح. وإذا كانت مهمة الأديب أو المؤلف المسرحى أن ينظر من ثقب الباب على الحياة الخاصة للناس فيرى ويفهم ويحلل وينقل إلينا ذلك. فإن ثقف الباب الآن قد اتسع جدا بل لم نعد فى حاجة إلى أبواب فالكل عريان : الألفاظ مكشوفة.. المناظر ملط.. والحشيش هواء أزرق يشمه الجميع، ولم يعد أحد يعرف بالضبط من الذى فعلها. هل هو المسرح الذى اختار هذا الجمهور الردئ، أو هى فلوس الجمهور الردئ هى التى وظفت المؤلف والممثل والمخرج ؟. من المؤكد أنهم يلتقون جميعا عند فك زراير الحياء وإلقاء الذوق جثة هامدة فى النيل.. وبذلك يساعد المسرح على إضافة شئ جديد إلى التلوث الشامل فى : الماء والهواء والطعام والذوق العام !

فإن كان المسرح الكوميدى معناه أننا نعرض عيوبنا علينا لكى نضحك منها ومن أنفسنا. وفى ذلك خطوة إلى العلاج. فلا أظن أن التهريج وزغزغة القارئ، والعبث بأصابع النكت فى جسمه قد أدت إلى علاج شئ.. إنما هى استدرجته إلى «الغرز» الفنية.. وجعلته يدمن اللامبالاة والهرب من المواقف والغيبوبة فى مواجهة الأزمات..

والفن الجميل هو الذى يدخل العين والأذن بسهولة، ويخرج من الذاكرة بصعوبة !

وبعيدا عن رأى الزعيم وذوقه الشخصى، فقد حاول وزراء كثيرون أن يفعلوا ما يرونه أفضل. وعلى مسئوليتهم.

حاول د. عبد القادر حاتم ونجح فى إنعاش المسرح، وجعله استديوهات لخدمة التليفزيون..

وحاول د. ثروت عكاشة أن ينقل المعاهد والمتاحف والمعارض والهيئات الأوربية إلى مصر. وكان حرصه على ذلك عظيما . ودوره جادا..

وحاول يوسف السباعى الذى أنشأ المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون أن ينشط الأدباء والفنانين والسينمائيين أيضا.

ولكن الذى حققه السيد عبد الحميد رضوان شئ آخر. فقد قام لأول مرة بغسل وجه مصر الأثرى. فرمم الآثار الإسلامية والقبطية والرومانية.. وسوف يتجه إلى المسارح وإلى إنشاء دار للأوبرا و«مجمع» لكل الفنون.. وقد استعان بألوف الشبان. وهى بداية تستحق المتابعة والملاحقة والاستمرار - وقضية القضايا فى مصر هى أننا لا قدرة لنا على الاستمرار... فكل شئ يبدأ عندنا، لينتهى بسرعة. كأننا قد أخطأنا عندما بدأنا، ولذلك يجب أن نمحو هذا الخطأ بالقضاء على البداية !

وفى مصر الآن «الباليه الفرنسى» - والله زمان ! وقال لى سفيرنا الجديد فى

موسكو صلاح بسيونى إنه سوف يستهل نشاطه بدعوة الفرق الفنية الروسية إلى مصر.. فيجئ الباليه.. والفرق الموسيقية..

إذن فقد بدأنا . أو رجعنا .. أو تراجعنا.. أو استدركنا الذى فات.. والذى فات كثير جدا..



فهل جاء الآن دور المسرح ؟.

ليس هذا السؤال بسيطا ولا عابرا... إنما هو سؤال خطير جدا : فأنا أقصد هل جاء الآن دور المسرح ليقوم بإصلاح الحال فى مصر ؟. هل جاء دور الفن الرفيع لينقذ مصر من مستنقعات التفاهة.. من ثقافة اللب والأرصفة؟... هل جاء المسرح ليؤكد أن الدول التى احترمت شعوبها قدمت لها فنونا رائعة رفيعة - أى فنونا رفيعة القيمة، ورافعة للناس من الأرض إلى السماء ؟. هل جاء الوقت لكى نعترف ونندم أيضا على أننا خدعنا الشعب عندما قلنا له : أنت القائد.. أنت الزعيم.. أنت الموتور الذى فى مقدمة السيارة.. وأنت السائق أيضا.. وأنت وحدك الذى تجرجرنا وراءك إلى الرفاهية؟!.

هل جاء الوقت لنصحح تزييف كلمة «شعب» و«شعبى» فنقول إن الشعب هو كل الناس : الجاهل والمتعلم.. الفقير والغنى.. وإن «الشعبى» هو الذى يهم أكثر الناس.. أو يحبه أغلب الناس.. وإن ترقية الناس ورفع مستواهم هو واجب شعبى.. وأجبنا أمام الشعب..

فى يوم من الأيام تفاءلنا كثيرا جدا عندما وجدنا إقبال شعبيا - أى كل الناس - على مسرح سيد درويش نستمع إلى الموسيقى العربية القديمة بأداء شاب وتوزيع جديد.. ووجدنا فى هذا الإقبال دليلا على تذوق الفن القديم.. وكان إقبال الشباب على ذلك دليلا على أنه ليس صحيحا أن الشباب لا يحبون إلا الرقص وإلا الموسيقى الغربية.. وليس صحيحا أن الذين يستمعون إلى حفلات أم كلثوم الطويلة جدا كلهم من الحشاشين الذين لا يشعرون بمرور الوقت لأنهم غائبون عن الوعى. فقد وجدنا شبانا كثيرين يستمعون إلى سيدة الغناء. وكان ذلك دليلا على أن ذوقهم العربى الغنائى الموسيقى سليم. وأنهم يحبون كل ما هو جيد الغناء والأداء والتلحين والتوزيع الموسيقى !.

وفى يوم وجدنا المطرب محمد نوح يغنى ألحانه الوطنية فى الأفراح والليالى الملاح. وكان ذلك دليلا على أن الذوق العام يقبل اللحن القوى والأداء الرجولى فى أى وقت.. ولم يكن محمد نوح مطربا. إنما هو رجل يؤدى مثل أكثر المطربين والمطربات. وهؤلاء جميعا

يغنون، كما يكتب كثير من الصحفيين.. فهم يكتبون.. أى أنهم يعبرون. وتعبيرهم نوع من الأداء السليم، ولكنه ليس أدبا كما أن هذا الغناء ليس طربا !.

ولكن كما هى العادة فى مصر، فنحن لا نقدر على الاستمرار فى طريق واحد، أو على طعام واحد، فقد اختفى محمد نوح وانحسر التدفق على مسرح سيد درويش !

فهل عودة الفنون الأوروبية الرفيعة بداية لنهضة جديدة؟. ■

من يصحح غلطة بيجين ؟!

إذا كان المقصود من ضرب المفاعل النووى فى العراق هو أن يختم السيد مناحم بيجين حياته السياسية كما بدأها ، فقد نجح فى ذلك تماما، ومن حق أستاذه جابوتنسكى أن يكف عن التقلب فى مقبرته. فقد حقق له تلميذه كل ما يريد، بل إن السيد بيجين قد أحيا التقاليد العريقة التى وردت فى التوارة، وذلك بأن يهدم شمشون المعبد على نفسه وعلى أعدائه - المهم هو أن يموت أعداؤه ولو أدى ذلك إلى موته!..

ولماذا فعل السيد بيجين ذلك؟ هل لأنه قد جرب هو وإخوته وأجداده كيف إن العالم كله يستطيع أن يتفرج على عذاب الشعب اليهودى دون أن يتحرك أحد. وأن العالم مستعد مرة أخرى أن يشاهد إسرائيل تهدم على رءوس مواطنيها، دون أن يهتز لذلك؟.. هل العالم قد اعتاد على أن يأكل بعضه بعضا، أو أن العالم لا يحترم إلا الواقع القائم على القوة؟ وهل السيد بيجين فى حاجة إلى أن يدلنا على ذلك؟.

إننا نرى العالم يتفرج على سوريا التى تبيد لبنان، ويتفرج على روسيا التى تبيد أفغانستان.. وسوف يتفرج على كل قوى يأكل ضعيفا. وعلى ذلك فليس أمام السيد بيجين وغيره إلا استخدام القوة ضد الآخرين، وليس أمام الآخرين إلا فرض الأمر الواقع على إسرائيل بالقوة. وعلى ذلك فالدعوة قائمة منذ وقت طويل: أن يحطم العرب المفاعل النووى الإسرائيلى. لأن إسرائيل قد أعدته لضرب العرب. كما أعد العراق مفاعله النووى

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٦/١٤

لضرب إسرائيل. وإذا كان العرب قد نسوا المفاعل النووى فى إسرائيل. فإن السيد بيجين قد جدد الدعوة لضربه وملاحقة العاملين به فى كل مكان. تماما كما لاحقت إسرائيل العالم المصرى المشد الذى يعمل فى العراق، وكما قتلت العلماء الألمان الذين كانوا يعملون فى قاعدة الصواريخ المصرية. إن وليمة الدم ضخمة فخمة، والدعوة مفتوحة. ولا بكاء على الماضى. فالمستقبل أروع؟!..

وهكذا بضربة واحدة نعود إلى ما جريناه قبل مبادرة السلام.. إلى الانتقام.. إلى الحرب.. ومن الحرب إلى حرب..

إنها غلطة فادحة من السيد بيجين الذى تعجل نهاية حياته السياسية، وجعلها بهذه الصورة التى لا تنسى - لبشاعتها وعنفها..

وكانت مصر قد تعبت كثيرا فى إقناع العالم بأن إسرائيل لها رأى، وأنها صادقة فى دعواها للسلام. وأن إسرائيل إذا وعدت نفذت، وإذا تعهدت وفت. وأنه إذا كانت هناك صعوبات، فلأننا لا نفهم بعضنا البعض، وإذا تولدت صعوبات أخرى، فلأن الحاجز النفسى كثيف. ولأننا نخفى وراءنا سلاحنا. وليس سلاحنا إلا التربص القائم على سوء الظن القائم على الخوف!..

ولأن مصر هى رائدة السلام ورائدة التحدى بالتعايش السلمى بين الأعداء.. فقد كانت مبادرتها أعظم تحدياتها، وكانت إنجازاتها أروع ما حققت بغير قتال.. ولا تزال ترى أن أبريل القادم هو قمة النصر، وفى نفس الوقت نهاية السلبية والإيجابية - سلبية العرب وإيجابية مصر. وفى ذلك اليوم من شهر إبريل يمكننا أن نقول: هذا ما وصلنا إليه بغير حرب، وهذا ما وصل إليه العرب بغير مصر!..

وإذا كان السيد مناحم بيجين قد زعزع الثقة فيه، فلم يزعزعها فى إسرائيل كلها، ففى إسرائيل أغلبية تريد السلام. وهناك من يختلف معه فى عنف هذه الضربة. ففى مجلس الوزراء الإسرائيلى تحداه خمسة، ورأوا أن هذه الضربة لا ضرورة لها ولا معنى. وإن كان رئيس الوزراء يرى أن معناها انتخابى. وأنه يجب أن يجئ إلى الحكم على شظايا مفاعل نووى..

وقد تأكد السيد شيمون بيريز زعيم المعارضة من أن المخابرات الإسرائيلية لم تقدم لرئيس الوزراء ما يدل على أن المفاعل العراقى قادر على إنتاج القنبلة الذرية، أو أن العراق قد حدد يوم ٣٠ يونيو الحالى لضرب إسرائيل - صبيحة الانتخابات!..

وتعرضت إسرائيل فى هذا الأسبوع إلى نقد عالمى عنيف. أكثر النقد لاعتبارات

قانونية، فإسرائيل قد اعتدت على القانون الدولى عندما هاجمت دولة مستقلة ذات سيادة، ثم اخترقت المجال الجوى للسعودية والأردن.

وكان رد إسرائيل أنها سوف تفعل ذلك مرة أخرى إذا أقام العراق مفاعلا جديدا. أو اقامته ليبيا.

وكأن العالم بهذا الموقف اللغوى العاجز يطلب من إسرائيل إذا أرادت أن تضرب المفاعل العراقى أن تستأذن السعودية والأردن، ثم تستأذن العراق.. فإذا رفضت إسرائيل أن تستأذن العراق حتى لا تفشى سر الهجوم عليها، فلا أقل من استئذان السعودية والأردن فإذا أرادت ألا تكشف خطتها للدول العربية الشقيقة، فلتضرب المفاعل من داخل العراق - ومن حق أى إنسان أن يضحك على فقهاء القانون الدولى وأنصار القتل الشرعى!..

ولكن السيد بيجين فعلها، وترك العالم كله ينشغل بالتكييف القانونى لهذا العدوان الطائش الذى أساء إلى إسرائيل وإلى السلام أكثر وأعمق مما يتصور.

وجعل شركاء إسرائيل ومؤيديها فى عملية السلام يواجهون عقبة ضخمة. ولكن يبدو أن السيد بيجين قد وجد نجاحه وسقوط إسرائيل متعادلين - بل إن نجاحه فى الانتخابات أهم وأخطر!..

وعندما التقى الرئيس الأمريكى ريجان بسفراء خمس دول عربية (السعودية والسودان والكويت والبحرين والمغرب) استنكر ما فعلته إسرائيل. ولكنه فى نفس الوقت وجد أن هذا العمل العدوانى منطقى تماما مع روح العدواة فى الشرق الأوسط. ثم إنه طالب العرب أن يكونوا فى سلام مع أنفسهم، قبل أن يطالبوا غيرهم بالسلام. أو أن يبدأوا بأنفسهم، وبعد ذلك بغيرهم. وكان ذلك توجيها مباشرا لحل المشكلة اللبنانية عن طريق سوريا.. فإذا انسحبت سوريا. أو كانت جادة فى دعواها للسلام، فإن من السهل عليه كشريك فى السلام. أن يكمل الباقى بالاستعانة بمصر وإسرائيل.

وقد شكر السفراء العرب للرئيس الأمريكى أنه أوقف شحن بعض الطائرات إلى إسرائيل، وهو إجراء تتخذه أمريكا لأول مرة. فعندما اعتدت إسرائيل على لبنان سنة ١٩٧٨ طالب كثيرون بوقف إمداد إسرائيل بالسلاح. ولكن الرئيس كارتر تردد - كعادته - فى ذلك.. ثم اعتدت إسرائيل على لبنان سنة ١٩٧٩. ولم يستطع الرئيس الأمريكى أن يتخذ مثل هذا القرار، حتى عندما اتخذ الرئيس ريجان قراره هذا، نبه إلى أن العلاقات الودية التقليدية بين أمريكا وإسرائيل كما هى. وأن هذا موقف من الصديق، وليس موقفا

من صديق سوف يكون عدوا، فأمريكا تستنكر الموقف الإسرائيلى. وإنها توافق مصر تماما على إدانتها لهذا العمل العدوانى الذى يسئ للسلام ويشوه النموذج الناجح لكيفية التعايش بلا حرب بين أعداء الأمس. جيران اليوم. أصدقاء ما بعد الغد!..

وقد التقى الرئيس ريجان بالدكتور كيسنجر. وظهر د. كيسنجر على التليفزيون يعترض على موقف الحكومة الأمريكية من وقف إرسال الطائرات إلى إسرائيل. واستعدى الشعب ويهود أمريكا على الرئيس ريجان. فقال: إن هذه أكبر أزمة دبلوماسية تواجهها الإدارة الجديدة..

وقال كيسنجر أيضا: إن إسرائيل معذورة. فالعراق هو أعدى أعداء إسرائيل. والعراق وليبيا يعملان على إفساد عملية السلام وليس من المنطقى أن يتحقق السلام بغير حرب، بينما دول عربية أخرى لا تكتفى برفض السلام واستنكار خطواته، إنما تستعد لإبادة إسرائيل..

وفى لندن التقى إيان جيلمور وزير الخارجية بسفراء الإمارات والأردن والكويت والعراق ولبنان والجزائر. واستنكر لهم العدوان على العراق..

وقد سئل الرئيس السادات هذا الأسبوع: لو كان السيد بيجين قد أطلعك على هذه الخطة فماذا كنت تقول؟ أجاب الرئيس: لا أظنه كان يفعل ذلك. فهو يعلم مقدما أننى سوف أرفض وأستنكر تماما..

وسئل الرئيس السادات: نفترض أنه كان قد سألك.. فأجاب: لقلت له كصديق وكشريك فى عملية السلام: احذر .. احترس.. سوف تفسد بهذه العملية كل ما تعبنا فى بنائه.. وسوف تخسر إسرائيل ما كسبته فى العالم كله.. وربما فى إسرائيل نفسها.. إن الشعب الإسرائيلى يريد السلام حقا. تماما كما أن الشعب المصرى يريد السلام عن إيمان عميق..

وقد كان رد الفعل المصرى أسرع وأحكم. فقد كان الخبر الأول فى كل الإذاعات. وكان الدافع والقوة لكل الدول التى أدانت العدوان الإسرائيلى. بل إن السيد إيجال يادين قد طلب من السفير سعد مرتضى أن يهنئ الرئيس السادات على شجاعته وحكمته فى إدانة الغارة الإسرائيلية!..

وفى الرسالة التى بعث بها السيد شيمون بيريز إلى الرئيس السادات، وفى مكالمته التليفونية أيضا، أكد له موافقته تماما على موقف مصر. واعتذر عن عدم الحضور بأنه لا يريد أن يجعل الرئيس السادات موضوعا للمساومة فى الانتخابات - أى كما فعل السيد

بيجين بلقاء شرم الشيخ!..

فالسيد بيريز لا يريد أن يتاجر بالسلام، وإنما فى إسرائيل مشاكل حيوية تحتاج إلى مواجهة وإلى حل. وليس من الحكمة أن توضع كل القضايا التى فى طريقها إلى الحل والقضايا التى تزداد تعقيدا فى سلة واحدة، ثم تشعل فيها نيران المعركة. وإن السيد بيجين عندما أشعل النار فى العراق، فلكى يشغل العيون والأذهان بعيدا عن الأوضاع الداخلية فى إسرائيل!..

أما الحلول العربية المقترحة لمواجهة العدوان الإسرائيلى فكثيرة ومتنوعة هذه المرة. ومن أبرزها اقتراح الرئيس القذافى بأن يتنحى الملك خالد والملك حسين عن العرش، بعد أن انتهك السيد بيجين السيادة الإقليمية للدولتين..

بينما ترى أمريكا أن تعجل بإرسال طائرات التجسس إلى السعودية لحمايتها من مثل هذا العدوان عليها..

وفى العالم العربى دعوات للجهاد. ومن حق الشعوب التى اعتدت عليها إسرائيل أن تستعد لقتالها مادام السلام بعيدا عن الجميع. ومن حقها أن تدعو إلى مساعدة العراق فى حربة ضد إيران التى تتلقى السلاح وقطع الغيار من إسرائيل. ومن حق الشعوب العربية. وشعوب العالم أن تطالب إسرائيل بدفع ألف مليون دولار تعويضا للعراق عن خسائرها. وسوف تطلب العراق نفس المبلغ من دول البترول لمساعدتها على محاربة الصهيونية، ومحاربة الفرس أعداء الإسلام والعروبة.

ومن أسف أن بيان وزراء الخارجية العرب، جاء عملا أدبيا بليغا ؟!

إن صحيفة «جويش كرونكل» الناطقة باسم يهود بريطانيا قد هاجمت السيد بيجين الذى أحرج مصر التى أعطته السلام، وإنه سوف يجعل المعتدلين العرب أكثر تشددا ضد إسرائيل، لقد أضاع على إسرائيل الكثير!.

فمن الذى كسب من سقوط المعبد على رأس السيدين مناحم بيجين وصدام حسين؟.

إن إسرائيل لم تكسب، إنما الذى كسب هو السيد بيجين شخصيا. وإذا كان الشعب الإسرائيلى قد كسب سخط العالم، ففى وسع الشعب الإسرائيلى أن يعتذر عن هذا الخطأ. وأن يصححه فى الانتخابات القادمة. فإذا كان الناخب الإسرائيلى مترددا فى حسم الكثير من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية، فإن قضية «المفاعل النووى» هى أوضح القضايا وأكثرها بريقا ولهيبا وإثارة للسخط على إسرائيل، وأشدها إحياء للعداء للسامية فى العالم كله.. وقد غطت عملية المفاعل هذه على عملية أخرى سابقة،

وهى هجوم السيد بيجين على المستشار الألمانى شميت والرئيس الفرنسى ديستان والمستشار النمساوى اليهودى كرايسكى. وكلما حاول أى يهودى فى أى مكان من العالم أن يعلق على ما يقوله السيد بيجين، يكون رده: ليس من حق أى يهودى أن يتدخل فى شئوننا، إذا أراد فليأت إلى هنا ويحصل على الجنسية وليخاطبنى بعد ذلك!..

ولكن هذه اللهجة الجارحة فى مخاطبة رؤساء الدول الغربية، لم تلق الاحترام الكافى عند الناخبين فى إسرائيل. ثم إن الذى يقوله السيد بيجين، ويعيده ويزيده، قد ضاق به العالم كله. صحيح أنه لا يستطيع أن ينسى ما أصابه هو وبنى إسرائيل فى معسكرات الاعتقال، ولكن العالم يريد أن ينسى. وليس كل من يختلف معه فى الرأى هو سفاحا نازيا، أو هو يريد أن يلقى بإسرائيل فى البحر. ففى الدنيا هموم كثيرة ومصائب أفدح من مصائب إسرائيل، بل إن إسرائيل نفسها هى إحدى مشاكل الغرب أهداها إلى الشرق!..

فهل الناخب الإسرائيلى فى الأسبوعين القادمين. يستطيع أن يعتذر عن هذا الذى فعله السيد بيجين بإسرائيل وشعب إسرائيل وإيمانه بالسلام؟..

لقد كتبت فى الأسبوع الماضى أن بيجين إذا نجح فى الانتخابات، فسوف يكون رغم ضعف الأحزاب المتحالفة معه. وأن السيد بيريز إذا نجح فى الانتخابات فسوف يكون رغم ضعفه هو.. فهل لا يزال السيد بيجين هو الأقوى؟.. هل قوته هذه المرة فى أنه أقدر الزعماء على تبديد رصيد إسرائيل فى بنوك السلام؟ - والغريب أنه هو الذى قد أودع بإسمها هذا الرصيد الهائل.. فهل ما فعله السيد بيجين أخيرا هو فتح لاعتماد جديد لإسرائيل فى بنك الحرب؟ ممكن. ولكن الشعب الإسرائيلى الذى يعرف رقم الحسابين هنا وهناك. هو وحده القادر على أن يحسبها: كم كسب وكم خسر.. وإذا كان السيد بيجين هو الذى كسب شخصيا أفلا يكون ذلك خصما من حساب الشعب كله؟!..

ألا تكون الإدانة العالمية للعدوان الإسرائيلى، وكذلك تحالف أحزاب المعارضة، هى التصحيح السريع للغلطة الشنيعة التى اقترفها السيد بيجهن؟.. هل اليهود الشرقيون فى إسرائيل سوف يصوتون للسيد بيجين لأن الذين قاموا بالعملية من العراقيين الذين يكنون عظيم الاحتقار للعراق؟ هل يواجه الناخب الإسرائيلى التحديات العالمية بتحديات أخرى وإصرار على انتخاب الرجل الذى أنعش العداء لإسرائيل فى العالم كله؟.. هل يشعر الناخب الإسرائيلى بأن السيد بيجين قد أرهق المواطن الإسرائيلى نفسيا؟.. وذلك بالقرارات التى لها وقع الزلازل فى حياته.. فعندما كان إرهابيا أحرق دير ياسين، وعندما كان رئيس الوزراء وقع اتفاقية السلام مع مصر، وعندما كان وزيرا للدفاع هدم المفاعل

العراقى، فهل يقوى الشعب الإسرائيلى على احتماله مرة أخرى؟.. هل التحدى العالمى لإسرائيل يؤدى إلى عناد قومى فى إسرائيل نفسها، فتقف وراء رجلها السيد بيجين بطل السلام والحرب؟ هل تستطيع المعارضة فى إسرائيل أن تستفيد من كل هذه الملامح القاسية العنيفة فى صورة رئيس الحكومة.. فى المعركة الانتخابية؟ هل تتعادل قوى التأييد والرفض فتجئ حكومة بأغلبية ضعيفة فى الكنيست لتواجه المشاكل الصعبة المعقدة فى إسرائيل وفى المنطقة وفى العالم أيضا ؟!..

هل يؤدى القلق والغضب والرغبة فى الثأر إلى مزيد من الاضرابات فى الشرق الأوسط لفتح النوافذ للاتحاد السوفيتى فيدخل أعمق؟.. هل توسيع الخلافات بين فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإسرائيل والعالم العربى كله، سيدفع السوفيت إلى دخول بولندا وإلى تسخين الحدود بين باكستان وأفغانستان؟..

إن الأحداث تتشابك وتتعقد وتسرع حولنا وبيننا. وليست الانتخابات فى إسرائيل إلا مظهرا لما ليس نعرف الآن. وحتى إذا عرفنا، فسوف يكون تحديا جديدا لعملية السلام. وإذا كنا نحن قد استطعنا أن نتغلب على رفض العرب ورفض الرفض، وعلى رفض السلام فى إسرائيل نفسها. فإن التحدى لايزال متجددا، وهو يغرينا بأن نقاوم أشجاره الشائكة فى حديقة السلام، وأن ندافع عن الذى كسبناه أملا فى المزيد لنا ولأشقائنا العرب. ولا يزال الطريق أمامنا طويلا، يضيق بنا، ونضيق به. ولكن لابد أن نمضى حتى النهاية!.. ■

اتفقوا على أن تظل الحدود ملتهبة !

اتفق الرئيس حافظ الأسد والسيد مناحم بيجين على ألا تكون حرب بينهما. ولكن لم يجرؤ أحدهما على أن يتخيل أن من الممكن أن يكون سلام بينهما. ولو أعلن أحدهما ذلك لأدى إلى اضطراب سياسى وفزع قومى له شكل الحرب، وإن لم يؤد إليها..

ولكن الذى لم يصرح به الزعيمان السورى والإسرائيلى والمبعوث الأمريكى فيليب حبيب، هو أن تظل الخطوط بين الجميع ساخنة، ولا مانع من أن تكون ملتهبة. بشرط واحد ألا يؤدى ذلك إلى مواجهة عسكرية مكشوفة. فالرئيس الأسد لا يستطيع أن يحارب، والسيد بيجين لا يستطيع فى العشرين يوما السابقة على الانتخابات أن يتخذ مثل هذا القرار الذى يحتم بقاءه فى الحكم سنة دون انتخابات، لكى يدير هذه المعركة أو يخلق رأيا قوميا وأمريكيا وعالميا يسانده فى حرب جديدة فى الشرق الأوسط.

فكل الأطراف تستفيد من هذه النيران المشتعلة على كل الحدود. فالرئيس الأسد قد أحس بعزلة هائلة بدخوله لبنان، وعجزه عن الخروج منه. ولكن تصعيد العمليات العسكرية بينه وبين إسرائيل قد أكد أن الرئيس الأسد يقف وحده فى مواجهة إسرائيل.

ولذلك تحيرت الدول العربية : هل تقاطعه وبذلك تقترب من مصر ومن إسرائيل، وفى ذلك رفض لموقفها الرافض. أو تقترب منه وتسانده، وبذلك يتمكن الرئيس الأسد من التصدى للعدوان الإسرائيلى والصمود للحرب الأهلية الداخلية ؟.. فهددته السعودية بقطع

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٦/٧

المعونة - أى بقطع شريان الحياة والحبل السرى الذى يربط الجيش السورى فى لبنان بالأم سوريا، ولم تكن السعودية قادرة على اتخاذ مثل هذا القرار. إنما كان القرار أقرب إلى التهديد. ولم يكن من الصعب على سوريا أن تدرك الموقف السعودى الذى لن يذهب إلى أبعد من هذا.

وقد اتضح ذلك من تصريحات الرئيس الأسد الذى أعلن أنه لن يمضى وقت طويل، حتى تسحب السعودية هذا القرار الشفوى وهى تبتلع ريقها خوفا من سوريا ومن الفلسطينيين.. ومن التدخل الأمريكى . ولذلك عادت السعودية فأنكرت مجرد التفكير فى سحب المعونة لقوات الردع العربية أو السورية فى لبنان. وجاء ذلك على أثر لقاءات سرية رسمية بين السعودية والإدارة الأمريكية الجديدة... وأعلن الأمير فهد ذلك صراحة للسيد فيليب حبيب. وذهبت السعودية والدول العربية الأخرى إلى أبعد من التهديد بوقف الدعم. إلى مضاعفة الدعم ؟!. فقرر وزراء الخارجية دعم كل القوى المتنافرة والمتصارعة فى لبنان : سوريا والفلسطينيين واللبنانيين.

وإن لم يكن هذا القرار العربى تدعيما للموقف السورى. فهو إشعال لمزيد من النيران على كل الجبهات. ولكن الرئيس الأسد هو الذى فاز بنصيب الأسد. لأنه تأييد لموقفه الثابت منذ ست سنوات : الاعتداء على شعب لبنان وعلى المقاومة الفلسطينية والتحفز لإسرائيل..

وبذلك لم تعد سوريا فى عزلة : فقد ذهب إليها مبعوث سوفيتى على درجة عالية، والمبعوث الأمريكى الذى نقل إليها وجهة نظر أمريكا وحليفيها : السعودية وإسرائيل.

وأصبح واضحا لسوريا أن أمريكا لا تريد حربا مع إسرائيل، وقد وصلت أمريكا إلى هذه النتيجة دون تدخل من السوفيت.

وموافقة سوريا على ذلك معناها أيضا : أنه على الرغم من العلاقات السوفيتية العميقة، فإنها تقبل الخطوط المفتوحة مع إسرائيل ومع أمريكا ومع السعودية، وكان إعلان أمريكا عن استمرار المساعدة المالية لسوريا دليلا على ذلك وتشجعيا على الاستمرار فى الحوار..

وكانت المساعدات السعودية لقوات الردع وللحكومة السورية تأكيدا لحرص السعودية على بقاء الرئيس الأسد فى الحكم وعلى الاستقرار الداخلى رغم الصراع الداخلى بينه وبين أخيه رفعت الأسد. وبينهما وبين رئيس الأركان حكمت الشهابى.

أما الوضع فى لبنان فإن السعودية ترى أن تتولاه أمريكا. وهى تبارك كل

خطواتها ما دامت لا تؤدى إلى حرب مع إسرائيل، ولا تؤدى إلى سلام أيضا !

واستفاد السيد مناحم بيجين من تسخين العمليات العسكرية. ومن خلق الظروف العصبية التى تذكرنا بأزمة الصواريخ الكوبية فى عهد الرئيس كنيدى.. والتى كانت تهديدا سوفيتيا مباشرا. وقد أدى هذا التصعيد إلى تخويف الشعب الإسرائيلى، وإلى تشجيع سوريا على مزيد من التخويف أيضا. فدعت قوات الاحتياطى. ودفعت بقوات جديدة إلى لبنان، واستدرجت قوات وأسلحة ليبية، وكذلك قوات يمنية..

ولذلك أدخل الرئيس الأسد عناصر جديدة فى لبنان، وتزايدت الصفوف التى تقف وراء السيد بيجين، ورفعت رصيده فى قياس الرأى العام.

وحرصا من السيد بيجين على الاستفادة من الموقف الجديد إلى أقصى درجة، وجه دعوة إلى الرئيس السادات ليلتقى به فى شرم الشيخ، وهى الدعوة التى حملها وزير الزراعة أريك شارون فى لقائه بالرئيس السادات. ولم يقدم السيد شارون هذه الدعوة إلا فى نهاية حديثه مع الرئيس السادات، وإلا عندما أكد له الرئيس السادات : أنه لا معنى لمخاوف الإسرائيليين، من أن مصر بعد أن تسترد أرضها تماما ستتخذ موقفا متشددا محرجا لإسرائيل فى مفاوضات الحكم الذاتى وقطاع غزة والقدس.

وقال الرئيس السادات : فى زيارتك السابقة قلت لى هذا المعنى .. بل إن هذا المعنى قد انتقل إلى قبل مجيئك. وقد سمعته من كثير من كبار اليهود، ومن بعض الرسميين الأمريكان. وإذا كان هذا هو المعنى الذى استقر عندكم، فإن هذا يدل على سوء فهم لفلسفتى فى الحياة وفى السياسة. ومن حقى أن أقول إنه بعد زيارة القدس وبعد كل المفاوضات معكم، لا بد أن يكون قد ثبت لديكم بصورة نهائية : أننى صريح تماما. وكما أننى رفضت فى الكنيست أن يكون السلام هو وقفا لإطلاق النار، أو يكون حلا منفردا معكم، فلا يزال هذا رأيى ورأى من يأتى بعدى.. لأننى لم أتخذ قرارا بلا تأييد شعبى مطلق..

وبعد أن استراح السيد شارون إلى ذلك، تقدم بدعوة للرئيس للقاء مع السيد بيجين فى شرم الشيخ. ووافق الرئيس. وكانت مفاجأة لأمريكا، التى سارعت تسأل الرئيس السادات كيف تقرر ذلك ؟ .. وما هو الهدف ؟ وإن كان هذا اللقاء سيهدد الاتفاق على عدم التصعيد بين سوريا وإسرائيل.

وكانت المفاجأة دليلا على أن مصر تتخذ قراراتها وحدها دون إطلاع أحد على ذلك تماما..

ولم يكن غريبا أن تصدر الصحف الإسرائيلية تقول إن الرئيس السادات بقبوله هذا اللقاء قد أدلى بصوته فى الانتخابات الإسرائيلية لصالح تحالف السيد بيجين. وتساءلوا : لماذا وافق الرئيس السادات ؟ ولماذا فى هذا الوقت بالذات ؟ ألم يقل الرئيس السادات إنه لن يتدخل فى سير المعارك الانتخابية ؟. فما الذى دفعه إلى ذلك ؟ وما الذى يمكن أن يتفق عليه مع السيد بيجين من أجل مساعدته انتخابيا ؟..

وبعث السيد شمعون بيريز زعيم المعارضة، للرئيس السادات يعلن عن قلقه الشديد بسبب هذا اللقاء. مما دعا الرئيس السادات إلى أن يجدد دعوته لزعيم المعارضة الإسرائيلى. وسوف يكون اللقاء بعد أسبوع. وفى إسرائيل هاجموا زعيم المعارضة لأنه وقع فى المصيدة التى نصبها السيد بيجين. فقد استدرجه إلى لقاء صديقه الرئيس السادات. وقد نشرت الصحف الإسرائيلية أمس أنه فى كل مرة يقول فيها الرئيس السادات «صديقى مناحم بيجين» يكسب بيجين مقعدا فى الكنيست !.

وكان الرد على تساؤلات الصحف الإسرائيلية سهلا. فقد التقى الرئيس السادات بزعماء حزب العمل وبالسيد موشى ديان، والتقى بأريك شارون. وليس عجبا أن يلتقى بزعيم سياسى هو السيد بيجين، ولا يهم إن كان لايزال فى السلطة. لأنه زعيم سياسى. والسيد بيجين له دلالة خاصة : فهو الرجل الذى بدأ عملية السلام و لايزال يكملها.. وعن طريق السيد بيجين كانت معرفة مصر بالمفاوض الإسرائيلى، أو بالسياسة الإسرائيلية عموما. فالسيد بيجين زعيم سياسى يجب أن نعمل له حسابا، سواء بقى فى الحكم أو رجع إلى المعارضة !..

ولقد جاءت قرارات تدعيم سوريا فى نفس الوقت مع التفاوض على صفقة طائرات التجسس الأمريكية. وقاومت إسرائيل بيع هذه الطائرات للسعودية التى اتخذت موقفا صريحا فى مساندة سوريا فى لبنان وفى مواجهة إسرائيل. وإن كانت إسرائيل تعلم تماما أن السعودية هى التى تحاول أن تذيب التشدد السورى على الحدود.

ومن الرسائل المتبادلة بين الرئيس السادات والسيد بيجين، تأكدت إسرائيل من أن مصر لن تقف وراء سوريا فى افتعالها حربا مع إسرائيل. لأن مصر تدين التدخل السورى فى لبنان، ولأنها تعرف أن الموقف السورى هو «ابتزاز» لدولارات البترول.

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى اتفق عليه الرئيس السادات والسيد بيجين. ولا أحد يعرف تماما ما الذى سوف يعلنه السيد بيجين فى الأيام القادمة أثناء لقاء زعيم المعارضة مع الرئيس السادات. ولا ما الذى سوف يعلنه السيد بيريز عند عودته، ولا ما

الذى سيقوله رئيس وزراء إسرائيل ولا يزال الإسرائيليون يقولون : إن حزب العمل أقوى من السيد بيريز، والسيد بيجين أقوى من حزبه حيروت. أى أن بيجين إذا كسب فسوف يكون ذلك على الرغم من ضعف الأحزاب المتحالفة معه، وأن بيريز إذا كسب فعلى الرغم من ضعفه هو.

ولا شك أن اللعبة الانتخابية القادمة هى : الخيار المصرى أو الخيار الأمريكى أو الخيار السعودى - ففى الأحزاب السياسية مشاعل كثيرة تضئ ولا تحترق .. تضئ صناديق الانتخابات أمام المواطن الإسرائيلى المشدود الأعصاب !..

وإذا كانت استطلاعات الرأى فى إسرائيل تؤكد تفوق رئيس الوزراء، فإن هذه الأرقام ليست نتيجة نهائية.. ولكن ضيق الوقت وعنف المنافسة والسلطات التى فى يدى رئيس الوزراء وشرعية الاتصال بجميع الأطراف وإدارة السياسة والقتال، تمكنه من أن يكون فى وضع أحسن لرؤية صورة أوضح..

وروسيا وأمريكا متفقتان على ألا تكون حرب، وعلى ألا يسقط الرئيس الأسد، ولكن أمريكا ترفض أى مؤتمر تدعو إليه روسيا، أو تشارك فيه، حلا لأزمة الشرق الأوسط. ولذلك فهى تفضل استمرار الحوار مع الحكومة السورية، على مسمع من روسيا وإن كان بعيدا عن متناولها.. والسعودية وكل دول الخليج والأردن ومصر والسودان وإسرائيل والمغرب ترى ذلك أيضا !..

وسوف يؤدى الاتفاق بين سوريا وأمريكا إلى وقف عمليات قوات التحرير الفلسطينية فى مهاجمة إسرائيل. وكان ذلك هو الهدف الأساسى من دخول سوريا إلى لبنان. ثم اشترطت إسرائيل ذلك حتى لا تذهب فى غاراتها الجوية إلى أبعد من الحدود اللبنانية، وحتى لا تضرب بطاريات الصواريخ سام ٦. ووافقت سوريا على هذا الشرط. ولم يبق أمام سوريا وإسرائيل إلا اتخاذ موقف الإنسحاب الكريم - أى العودة إلى الوضع السابق على أزمة الصواريخ، وهذه هى بالضبط مهمة المبعوث الأمريكى، وقد أعلن المبعوث الأمريكى للرئيس الأسد أن الحكومة الإسرائيلية الآن ليست قادرة على اتخاذ موقف على هذه الدرجة من الخطورة. لأنها حكومة مؤقتة. وعلى ذلك فليس من الممكن اتخاذ قرار بعيد المدى، قبل الانتخابات الإسرائيلية وقبل لقاءات القمة بين الرؤساء العرب والرئيس ريجان، وبينه وبين رئيس وزراء إسرائيل فى أغسطس القادم.

ومهما حاولت سوريا أن تخفى أوراقها أثناء اللعب السياسى. فليس من الصعب أن نستدل على ذلك حين أعلن الرئيس الأسد أنه لو كان الأمر يخص سوريا وحدها، فإنها لن

تحارب إسرائيل. ورد عليه السيد بيجين قائلا : نعم. صدقت !..

وورقة أخرى انكشفت، وهى أن الطيران الإسرائيلى ظل فى سماء المعركة تسعين دقيقة.. ولم تتعرض له طائرة سورية، ولا انطلق عليه صاروخ واحد - وكان ذلك امتحانا للنيات الطيبة. وقد تأكد لإسرائيل أن سوريا قد وافقت على الشرط : تحوم طائرات الاستطلاع الإسرائيلية للتأكد من أن سوريا لا تعزز قواتها حول زحلة وفوق جبل صنين.. وأن إسرائيل إذا أرادت أن تتحقق من ذلك بطياراتها، فلن يتعرض لها أحد !..

وقد اجتهد بعض المعلقين العسكريين فقال : إن إسرائيل قد اهتدت إلى طول الموجة التى تطلق الصواريخ سام ٦. وعلى ذلك ففى استطاعة إسرائيل أن تشوشر عليها!..

وتفسير ذلك أن الصاروخ عندما ينطلق فإن القاعدة توجهه بذبذبة محددة، وقد اكتشفت إسرائيل هذه الذبذبة بأن أطلقت طائرات بلا طيارين.. وفى نفس الوقت أطلقت طائرات تجسس. والتقطت طائرات التجسس «التردد الموجى» الذى يهدى الصواريخ إلى أهدافها.

وكانت لنا تجربة فى حرب ٧٣. فقد كانت لدى إسرائيل صواريخ تستطيع أن تنطلق نحو البطاريات المصرية، وذلك عن طريق معرفة طول موجاتها.. ولكن اكتشفت مصر أن هذه الصواريخ ليس لها عقل الكترونى. فإذا أوقفنا إرسال التردد بعض الوقت، فإن هذه الصواريخ تضل أهدافها.. ولكن عندما استخدمت إسرائيل الصواريخ ذات العقل الألكترونى، فإن هذا الصاروخ يحتفظ بطول الموجة، ويتجه إلى الهدف سواء أصدر ذبذبة أو سكت عن ذلك.

إذن فإسرائيل قد عرفت طول موجة صواريخ سام ٦ - وربما كان هذا اجتهادا علميا صحيحا. ولكن الأهم من ذلك هو أن اتفاقا مع السيد فيليب حبيب قد تم، اتفاقا بين سوريا وإسرائيل غير أن سوريا. كما هى العادة، لم تعلن عن ذلك. وإذا نشرته الصحف العالمية. فالسيد فيليب حبيب يعلم مقدما أن الرئيس الأسد سوف يكذبه. وفى نفس الوقت سيعتبر هذا الاتفاق بين الأطراف الثلاثة باطلا، ثم أعلنت إسرائيل فقط، لأسباب انتخابية، أن طائراتها تتحرك بحرية تامة فى سماء المعركة - وعلى الناخب الإسرائيلى أن يجتهد فى تفسير ذلك. ولكن أقرب التفسيرات إليه : أنه لسبب ما. استطاعت إسرائيل أن تسكت صواريخ سوريا !..

وإذا كان الرئيس الأسد قد نجح فى شئ فهو أن يلفت نظر أمريكا إليه.. وكذلك

نجحت إسرائيل فى أن تؤكد أن الشرق الأوسط لايزال فى حالة حرب.. أو التهديد بذلك. وقد نجح الرئيس السادات فى أن يؤكد ما سبق أن أعلنه من أن الشرق الأوسط كله يتهدده الخطر السوفيتى. وإنه إذا لم يكن سلام. أو إذا لم يكن لأمريكا دور أكبر، فسوف نجد أفغانستان أخرى.. أو سوف تكون هناك يمن جنوبية أخرى أو ليبيا جديدة. وسوف يتأكد كل ذلك فى لقاء القمة مع الرئيس الأمريكى. وبذلك تتصدر مشاكل الشرق الأوسط والسلام العالمى وسلامة الملاحة الدولية وآبار الطاقة وبلايين الودائع العربية ووفرة الاستثمارات فى كل دول السوق الأوروبية، كلها تجئ فى قائمة «الأولويات الأمريكية».

ولذلك فسوف تتغير خريطة الشرق الأوسط.. مع بداية العام الجديد.. عندما يبلغ التحدى المصرى قمته، بإنسحاب إسرائيل تماما من أرض سيناء، ويومها نستطيع أن نتساءل، وعلى الأشقاء العرب أن يجيبوا : من الذى كان على صواب ومن الذى كان على خطأ عندما قال إنه لا وسيلة لنيل حقوقنا إلا بالحرب ؟!

ولم يكسب «لبنان الحكومة» من كل هذه المحاورات والمشاورات. فلا رئيس الدولة اللبنانية كان له رأى، وهو بلا رأى لأنه اختار أن يكون بلا وجود.. وأن يظل الشبح الذى يسكن هذا الخراب اللبنانى. فهو شاهد على أن لبنان كان آهلا بالسكان، ثم ماتوا فلم يبق إلى الرئيس سركيس رمزا لذلك.. أما لبنان الشعب، فهناك أكثر من شعب ممزق بين الوطن الذى لا يدرى ما هى حدوده، وبين قوات الاحتلال السورية والفلسطينية والإسرائيلية والدولية والليبية واليمنية والمرتزقة..

أما الفلسطينيون فقد كسبوا مالا وخسروا قضية. فقد اتفق الرئيس الأسد مع أمريكا منذ دخوله لبنان على أن يضع قيدا على النشاط الفلسطينى.. ثم عاد فاتفق مرة أخرى مع إسرائيل والمبعوث الأمريكى والسعودية. فكما أن الأردن قد طرد الفلسطينيين، فإن الرئيس الأسد قد فعل ذلك أيضا.. وإن لم يكن قد طردهم من لبنان، فإنه قد انفرد بهم لبيعهم لإسرائيل مرة، وبيعهم لأمريكا مرات!..

وسوف يجئ المبعوث الأمريكى ليجد الأصوات قد تغيرت نبرتها. والأعصاب قد هدأت. والسماء قد صفت من الطائرات، والصواريخ قد بردت، والجيوب قد امتلأت. وساعات الحائط قد تحركت عقاربها إلى الوراء، أملا فى أن تقف عندما كانت عليه قبل أزمة الصواريخ.. وسوف نرى!. ■

الكفاح من خيمة إلى خيمة ؟!

في كل مرة يحدث خلاف بيننا وبين إسرائيل تظهر حقيقتان: يقول العرب فشلنا، وتقول مصر: سوف أمضى..

وفى كل مرة يؤكد العرب فشلنا تبدو حقيقتان: أننا سوف نمضى، وأن العرب سوف يتضامنون ضد مصر، وليس ضد إسرائيل..

وفى كل مرة يعلن الأشقاء العرب تضامنهم تتأكد حقيقتان: أننا سوف نمضى فى تحقيق السلام، وأن العرب سوف يختلفون فيما بينهم..

وفى كل مرة نحقق انتصارا فى الطريق إلى السلام، يكرر العرب حقيقتين: أننا أضعفنا الأمة العربية بخروجنا عن الصف، وأننا اشترينا سيناء المصرية بالجولان السورية والضفة الغربية الفلسطينية - كأن الضفة وغزة والقدس فى يدنا، وأعطيناها لإسرائيل من أجل استرداد الأرض المصرية!..

فإذا عدنا واختلفنا مع إسرائيل قال العرب: تمثيل.. وقالت مصر: بل هذا هو الحل..

ولا يكاد العرب يسمعون عبارة «الحل المصرى» حتى يقولوا: ولماذا المصرى؟ لماذا لا يكون السورى والأردنى والسعودى.. أو الحل العراقى.. أو البديل الأوروبى أو السوفيتى؟. ويكون رد مصر: أننا نقبل أى إسم مادام يؤدى إلى السلام، بغير مصر.

ولكن مهما كانت أسماء الحلول فلابد أن تكون إسرائيل طرفا.. وتجربتنا مع إسرائيل

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٦/٢١

أن التفاهم معها صعب وشاق، ولكنه رغم ذلك هو الحل الوحيد.. والدليل على صحة ما نقول أننا نسترد أرضنا.. وأننا سوف نستعيد بقية الأرض العربية، بشرط أن تشترك بقية الأطراف المحتلة، وإذا كنا اخترنا الولايات المتحدة طرفا شريكا فى السلام، فلأننا نعرف السوفيت، ونعرف أنهم لن يشتركوا ولن يساعدوا على الحل. وأن الاضطرابات والقلاقل والفوضى وارتفاع درجة الحرارة وانخفاض درجة الرؤية هى الجو المناسب للتسلل الشيوعى فى المنطقة. فالسوفيت يفضلون المياه العكرة الساخنة.. والسماء الملبدة بغيوم الخوف والشك، أما الخوف فإسرائيل قادرة على إشاعته، وأما الشك فالتردد العربى والعجز العربى هما المرادف للشك فى كل النيات العربية والأجنبية..

ولذلك فنحن على يقين من شيئين: أن العرب عاجزون، وأن السوفيت حريصون على ذلك..ولهذا كان لابد أن نبعد السوفيت عن مصر، وعن المنطقة.. وهذا هو السبب فى حرص السوفيت على العودة إلى المنطقة: إلى سوريا وليبيا واليمن.. وكما هى العادة دخل السوفيت وراء أسلحتهم وبسببها. وقد شجع على دخول السوفيت عجز الأمريكان أيضا وترددهم الشديد. والسوفيت أكثر الناس استغلالا للقلاقل، والأمريكان أكثر الناس خوفا من ذلك، فتقدموا وتردد الأمريكان. ولما كانت منطقة الشرق الأوسط احدى المشاكل على خريطة الأمن القومى والدولى الأمريكى، وهى فى نفس الوقت أهم ما فى خريطة حياتنا، كان لابد أن أن تكون أمريكا وأوروبا أكثر وعيا وأكثر يقظة وأسرع إلى الفعل ورد الفعل - إلا العرب الذين أعطاهم الأمان الاقتصادى أمانا سياسيا زائفا. فقد ظنوا أن الفلوس تحميهم من أنفسهم ومن غيرهم. وأنهم قادرون على شراء السلاح واستخدامه. ولكن بريق الذهب كما يخطف العين يغرى الآخرين بخطفه من أيديهم، وخطف أيديهم وانتزاع قلوبهم.. وبذلك كانوا أكثر الناس مالا وأسوأهم حالا!..

وإذا اتجه العرب إلى أوروبا، فلابد من أمريكا. فالمصالح الأوربية والأمريكية واحدة. يختلفون ولكن خلافاتهم لها حل. فهم أعمق تحضرا وأشد واقعية. وإذا قرر العرب - ولن يفعلوا ذلك - أن يستعينوا بالسوفيت، فلابد من الأمريكان أيضا. فالمصالح المشتركة بين أمريكا والسوفيت لا حدود لها. وهما يقتسمان الأرض والكواكب الأخرى.. وليس أسهل عليهما من الاتفاق علينا - فعلت ذلك بريطانيا وفرنسا فى القرن التاسع عشر. وتفعله الدولتان العظيمان الآن..

وتبلغ السذاجه العربية أقسى درجاتها عندما يهددون أمريكا بأنهم سوف يميلون إلى السوفيت.. وهم يكذبون على أنفسهم، كيف تميل نظم رأسمالية عائلية غنية جدا،

إلى دولة شيوعية تنادى بتوزيع هذه الثروات على بقية أفراد الشعب وتتجدى لى استبدال الكر بمكة المكرمة الشريفة هل هم يلعبون؟ هل يلعبون بالنار؟ وماذا يكسبون؟ يكسبون ما كسبته مصر عندما كان لدينا عشرون ألف خبير سوفيتى، وعندما كان فى الصومال عشرة آلاف.. وعندما كان فى أفغانستان مائة ألف. وعندما كان حول تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا مئات الألوف!..

وإذا نحن طالبنا بأن يدخل السوفيت طرفا فى المفاوضات القادمة، فسوف يقولون إن مصر تريد أن تشطر الأمة العربية نصفين: المعسكر الأمريكى، والمعسكر السوفيتى. وليس هذا صحيحا. فالأمة العربية منقسمة أكثر من قسمين، وتحارب فى أكثر من جبهتين، ولها أكثر من قبلتين، وأكثر من هدفين. فقد رفض العرب السلام المصرى. ولذلك كان هناك معسكر الموافقين.. ويضم مصر، ومعسكر الرافضين.. ويضم بقية العرب، ولكن بسرعة أنقسم معسكر الرافضين إلى أربعة: الرافضون.. والرافضون للرافضين.. والرافضون لمصر.. والانتهازيون..

وفى كل مرة تظهر هذه المأساة بوضوح، تبدو لنا حقيقتان: أن العرب سوف يكونون مثل الذرة ينقسمون، وينقسمون دون أن يكون لذلك دوى نووى، وأن مصر سوف تمضى من مشكلة إلى حل، ومن حل إلى نصر. وسوف يكون انتصارنا فى النهاية نموذجا لنجاح سياسة جديدة تقوم على السلام الذى هو نهاية لنزيف الدم وحريق الأعصاب وتبديد الأعصاب وتبديد الطاقة وإفلاس البلاد!..

ولم تتولد الواقعية المصرية إلا من الخرافات العربية. فقد آمن العرب بكثير من الخرافات.. من بين هذه الخرافات أن الوحدة العربية سوف تقضى على إسرائيل - ولم يتحد العرب. وأن المائة مليون عربى سوف يطردون الثلاثة ملايين يهودى.. ولم يكن العرب مائة فى أى وقت، إنهم بضعة آحاد من الملايين متفرقة فى مساحة واسعة بين أفريقيا وآسيا.. فالمائة المفككة أضعف كثيرا من الثلاثة الملايين المترابطة والمتماسكة والمسلحة تسليحا فائقا.. إن اليهود ليسوا أغنى من العرب، ولكنهم أقدر على استخدام المال سلاحا سياسيا. واليهود ليسوا أطول ألسنة من العرب، ولكنهم يملكون وسائل الإعلام والسينما والدعاية فى العالم.. والعرب يرون أن الخلافات الشديدة والتمزق العنصرى والدينى والطائفى والسياسى فى إسرائيل سوف يقضى عليها من داخلها، وعلى الرغم من أن هذه حقيقة، فإن اليهود أقدر على الاتحاد فى مواجهة العدو. وتاريخ الحروب العربية الإسرائيلية ليس بعيدا. فما الذى فعله اليهود عندما كانوا عصابات بعد نهاية الانتداب

البريطانى على فلسطين؟.. وما الذى فعلوه بجيوش الأمة العربية كلها؟ الجواب معروف.. ثم ما الذى فعلوه بعد ذلك حتى كانت حرب ١٩٧٣ التى انتصرت فيها مصر، وانتصرت فيها للأمة العربية كلها؟..

وليست بين الدول العربية واحدة قد أصابها ما أصاب مصر بسبب هذه الحروب. وليست بينها دولة واحدة أحوج إلى السلام من مصر.. وفى سنة ١٩٦٧ عندما انهزمت الدول العربية، قالوا: بل مصر وحدها ولذلك تبرأوا من دم مصر..

ولم يحدث أن أصيبت إسرائيل بخسائر فادحة نفسيا وعسكريا وسياسيا، كما أصيبت فى حرب ١٩٧٣، والسبب مصر. ولما أحس العرب أن مصر هى التى انتصرت تبرأوا من نصر مصر. وقالو: إنها اتفقت مع إسرائيل! اتفقت معها على أن يموت عشرات ألوف من اليهود، وعلى أن تنهار مثلهم العليا، وتتبدد خرافاتهم التى تشبه الخرافات العربية، فقد آمن اليهود بأنهم ولدوا لينتصروا، وأن الهزيمة كلمة عربية. وأن العرب يتكلمون كثيرا ولا يفعلون. وأنهم ينسحبون ولا يعبرون..

ومعنى ذلك أن العرب لا يستطيعون أن يحاربوا. وأن مصر أيضا لا تحارب، فإذا حاربت وانهزمت، فهى وحدها التى انهزمت، وإذا انتصرت فهى قد اتفقت مع إسرائيل وخانت العرب - أى أن مصر، وكل العرب، لا يحاربون، فإذا انهزموا فهذا طبيعى!..

وإذا حاربوا وانتصروا فقد خانتهم مصر؟!..

ومن هذه الخرافات والهلوسات ولدت الواقعية المصرية.. كما تتولد الصحة من عفن البنسلين، وكما يتولد الحى من الميت.. والواقعية المصرية لها شكل المعادلات الكيماوية: إذا لم نفعل شيئا، فلن يساعدنا أحد على الحل. وإذا لم نهتد إلى الطريق إلى الحل، فلن يتطوع أحد لهدايتنا. وإذا لم نعرف بوضوح ما نريد، فليست لأحد مصلحة فى أن يرشدنا إلى ذلك. ونحن نريد حل القضية بالحرب. وقد جربنا الحرب. وانتصرنا، ولن تمكننا أمريكا من أن نمضى من نصر إلى نصر، إذن فلابد من أن نهتدى إلى أسلوب آخر ليس اختراعا فى العلاقات الإنسانية الشائكة الدامية.. كان لابد أن نبحث عن السلام. ولكن الخطوة تحتاج إلى شجاعة نادرة. فكانت مبادرة السلام. أكبر مفاجأة فى تاريخ العرب واليهود معا. وأكبر دليل على واقعية مصر - وعلى كذب كل الادعاءات الإسرائيلية من أن العرب خرافيون دمويون لا يريدون السلام..

فكيف نسالم من ظللنا نحاربه أكثر من ثلاثين عاما؟ كيف نسالم الذين دمروا بلادنا وقتلوا عشرات الألوف من أبنائنا، وحرمونا الطعام والشراب والأمان؟..

ولكن كيف نمضى فى هذه الحروب إلى غير نهاية؟.. لقد جربنا الحرب مرات ولم تؤد الحرب إلى نتيجة فهل نمضى نجرب ذلك إلى غير نهاية؟..

وإذا كانت الحرب صعبة فإن السلام صعب أيضا.. صحيح أن السلام ليست له مصائب الحرب، ولكن السلام الضعيف من الممكن أن يؤدى إلى قتال عنيف. ثم يجب أن نحرص على السلام حرصنا على الحياة. وأن نرى الخلافات والعقبات التى نتعثر فيها شيئا طبيعيا، فنحن لا نعرف الإسرائيليين. ولم نجلس إليهم، ولم نعرف كيف يفكرون ولا هم أيضا. لقد كنا أهدافا لصواريخهم وطائراتهم، وكانوا أيضا. نحن ندمر ما لا نرى ونقتل من لا نعرف، وهم كذلك. والآن يجب أن نعرف حتى لا نقاتل، ونرى حتى لا نهدم. فذلك هو السلام..

هل هو شئ هين ما تحقق لمصر، ، وما تحقق للعرب أيضا؟ ليس شيئا هينا..

ولكن ما الذى نريده نحن من العرب؟..

لا نريد إلا أن يقرأوا ما الذى أدى إلى السلام مع إسرائيل. نريدهم أن ينظروا إلى مصر على أنها صاحبة تجربة كريمة. ومعاناة صعبة. وأن يفعلوا شيئا إيجابيا..

ولكن الأشقاء العرب قد اتخذوا أسلوبا مكررا عاجزا: هو لقاء القمم. يلتقون ويحرصون على ذلك. ثم يخطبون ويغضبون ويعودون إلى بيوتهم، إيمانا منهم بأن الغضب الموضعى والقمة الصاخبة والمؤتمرات الصارخة، تكفى وحدها لإفزاع اليهود وانسحابهم من الأرض العربية. وجربوا ذلك ولم يحدث شئ. بل تأكد لدى إسرائيل والعالم أن العرب من أهل «الكلام فى كلام». وما أبعد الكلام عن السلام، وما أبعد السلام عن الأرض العربية!..

ويوم التقى بعض الأمراء فى خيمة فى الصحراء، فقد اختاروا مكانا هادئا بعيدا وهدفا واحدا محددا: ما الذى نفعل بأنور السادات؟..

أى ما الذى يمكن عمله بصورة عملية قاطعة لإعادته إلى الصف العربى - أقصد «الصلف» العربى؟..

ولا نعرف بالضبط ما الذى قرروه. ولكن السنوات التالية قد كشفت لنا عن كل شئ: لا شئ!..

وأغرب من ذلك أن هذه الخيمة البعيدة عن الكاميرات والميكروفونات، لم تكن هكذا بعيدة. فقد أعلنوا للصحف الأمريكية كل ما قرروه وكل ما صمموا عليه.. فلا كانت الخيمة خافية، ولا كان الحوار سريا، ولا كان القرار عمليا.

فالخيمة فى الصحراء هى نموذج لكل التضامن العربى من أجل مواجهة مصر، وليس مواجهة إسرائيل!.

فكل المؤتمرات العربية هى مخيمات فى الفراغ، لا صدى لها.. لأنها لا صوت لها!..

وتمضى مصر نحو حدودها الدولية، ترفع أعلامها على أرض سوف تزداد اخضرارا، وعلى شباب يريد الحياة.. إن شاب مصر لا يريد الحياة.. «والسلام»، إنما يريد الحياة والسلام!..

ومن أوهام العرب: أنهم يهددون أمريكا بالاتجاه إلى روسيا - أى يقفزون من الإناء الذى يغلى، إلى النار التى تحته. وهى لعبة خطرة، لأنهم لا يقدرون على ذلك. وليسوا مؤهلين لها سياسيا واقتصاديا وعسكريا، ومصر تعرف ذلك. ولهذا فقد يسرت للعرب اتخاذ مواقف واقعية. فعندما وعدت مصر بإعطاء تسهيلات عسكرية لأمريكا، لتدافع بها عن العرب والمسلمين، كان ذلك أيضا سببا وجيها ليعرف العرب من هو العدو ومن هو الصديق.. وإن لم يكن الصديق فهو صاحب المصلحة المشتركة فى مواجهة السوفيت..

ونحن نعلم أن أمريكا تساعد إسرائيل، وهذا موقف تقليدى لن ترجع عنه لأى سبب. ولكنها سوف تساعد الدول المعادية للشيوعية، أى الدول التى تقف بالقرب من الخندق الأمريكى: مصر وإسرائيل والسعودية وكل إمارات الخليج والمغرب العربى. ونعلم أيضا أن الطائرات والصواريخ الأمريكية هى التى استخدمتها إسرائيل فى ضرب لبنان، وضرب العراق أخيرا، وضرب مصر وكل الدول العربية قبل ذلك. ولكننا طالبنا أمريكا بالاعتدال والعدل فيما بيننا. فأعطت أسلحة لكل الدول العربية، وسوف تعطى..

وإذا كانت إسرائيل قد استخدمت الأسلحة الأمريكية فى احتلال لبنان وضربها وضرب الفلسطينيين، ثم ضرب المفاعل العراقى الفرنسى الإيطالى البرازيلى، فإنها قبل ذلك ضربت مدرسة بحر البقر وقناطر قنا وكل مدن القناة...

وعلى الرغم من كل ذلك، وحتى لا يحدث ما هو أبشع من ذلك من حروب متوالية، فقد اتجهنا إلى السلام، ولن نحيد عنه ففى إسرائيل من يريدون أن يتوقفوا بعد كل خطوة خوفا من أن تنقلب مصر عليهم. وخوفا من أن يعود العرب فيتحدوا مع مصر.

● وفى البلاد العربية من يؤيد إسرائيل فى العدول عن السلام.. ولكن لسبب آخر: فالعرب لا يريدون أن ينجح السلام المصرى، فيكون نجاحا فاضحا لضعف العرب الذين لم يفلحوا فى عمل شئ بدون مصر.. فإسرائيل تريد أن تعزل مصر أكثر عن العرب.. والعرب يريدون أن يعزلوا مصر أكثر عن إسرائيل وعن العرب وعن العالم. وهذا ممكن تماما إذا

استغرقنا القضايا الجانبية، وانشغلنا بها عن قضية السلام. فكل الخلافات بين مصر وإسرائيل قضايا جانبية. حتى ضرب المفاعل العراقى قضية خطيرة، وتصبح خطيرة جدا إذا أدت إلى وقف عمليات السلام. ولكن يجب أن يكون لها حجمها الطبيعى.. فإسرائيل قد ارتكبت عملا أحمق مجنونا. ولكنه أقل خطورة من الحروب التى كانت بيننا، والتى لم تمنعنا من الحل السلمى..

وسوف يتفرج العالم على الوحشية الشرقية، ويسجلها فى أحد الأفلام ويتجه إلى قصة أخرى مسلية - كذلك فعل فى فيتنام وفى الحرب العالمية الثانية التى أكلت عشرين مليون أوروبى!..

ومن الخرافات العربية ما نشر أخيرا من أن السيد بيجين سوف يموت بقلبه.. فقد أصيب بأزمة قلبية.. وحتى عندما كان فى شرم الشيخ فقد أخذته نوبة قلبية.. ولكن الأعمار بيد الله. وقد كان ثلاثة أطباء يعالجون السيد بيجين. مات منهم أثنان بالقلب، أما الثالث فيرقد فى إحدى غرف الإنعاش. ولو مات السيد بيجين، فسوف يكون هناك من هو أكبر أو أصغر. ولكن الخط الإسرائيلى الأمنى والقومى واحد..

وليس فى استطاعة إسرائيل أو العرب جميعا أن يعزلوا مصر عن عروبتها، فهى دولة عربية اختلفت مع دول عربية.

وهى عندما حاربت فلمصر وللعرب، وعندما انهزمت فالعرب انهزموا، وعندما انتصرت فالعرب انتصروا. وسلامها عربى، وفى ساعات الضيق الوطنى، واليأس القومى، تتعالى صيحات مصرية تقول: إننا فراعنة.. والمصريون معذورون فى ذلك. ولكنهم ليسوا على حق تماما. فمن حقهم أن يغضبوا. وقد يدفعهم الغضب إلى الكفر القومى.. ولكننا عندما اخترنا السلام فقد ارتضينا ضبط النفس والنظر إلى بعيد.. أى سلام الأمة العربية، وذلك بحل القضية الفلسطينية، وعندما تحل هذه القضية فلن نجد أحدا فى حاجة إلى قنابل نووية يخفيها، ثم يظهرها عند اليأس العظيم!..

وإذا لم يكن الأشقاء العرب قد تعلموا من التجربة المصرية شيئا نافعا، فلا أمل فى أن يحققوا لأنفسهم أو لأمتهم شيئا.. وما دامت المخيمات السرية فى الصحراء، هى أسلوب العمل الوطنى، فالزعماء العرب صورة جديدة من «يوحنا المعمدان» الذى وصفه الكتاب المقدس بأنه الصارخ فى البرية.. أى الصارخ فى الصحراء الموحشة بلا جدوى!..

فليست فلسفة الكفاح عن طريق «المخيمات» إلا نوعا من العزلة المكيفة، والسرية الكاذبة، والعجز الأنيق!.. ■

الجولة الإنتخابية الأولى :
بيجين : ملكا على إسرائيل !

مثل الانفجارات النووية : هذه الانتخابات فى إسرائيل. فهى مفاجأة مدوية، ويمكن وصفها من الخارج، ومن الصعب أن نعرف معناها، وأن نحلل عناصرها، وأن نتنبأ بنتائجها.

والانتخابات فى إسرائيل هى أسوأ ما فى الديمقراطية. ففى استطاعة أى إنسان أن يدخل الانتخابات بشخصه أو برأيه. وأن يقول وأن يجد أناسا تقف وراءه وتعطف عليه وتقاتل من أجله ولذلك كان عدد الأحزاب ٣١ حزبا، وفى هذه الأحزاب، كما فى الناس، الصغير والكبير والطويل والقصير، والذى كان مجهولا فأصبح معروفا، والذى كان بطلا مثل موشى ديان ولم يفز إلا بمقعد واحد.. كأن الكنيست لم يعد يحتمل واحدا مثله.. أو كأنه قد أعطاه هذا المقعد لماضيه وليس لمستقبله.

وكانت الانتخابات فى إسرائيل عنيفة وحادة. إنهم يريدون الديمقراطية بعنف، وأكثرهم يريدون السلام وأقلهم يخافونه بنفس العنف، وقد تركز العنف على رجلين، أو بين رجلين: السيد مناحم بيجين زعيم «تكتل» الليكود، وهو أعظم خطيب فى إسرائيل وآخر الخطباء أيضا، والسيد شمعون بيريز زعيم «تجمع» المعراخ.. وكان السيد بيجين هو الذى يهاجم عادة. والسيد بيريز هو الذى يدافع ويستنكر ويندهش، وقد أفلح الرجلان فى أن يقسما الشعب الإسرائيلى إلى نصفين متساويين تماما : اليهود الشرقيين.. وأكثرهم

وراء بيجين.. واليهود الغربيين.. ومعظمهم وراء بيريز، ولذلك فمن يستمع إلى بيجين ويرى جمهوره يخيل إليه أنهم شعب مختلف عن الذين يستمعون إلى بيريز.

وهنا يختلف علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأجناس ومدرسة فرويد فى التحليل الجنسى للتاريخ، وكذلك علماء الغدد الصماء - وخاصة الغدة الكظرية، أى التى فوق الكلية. ويرون أن هذه الغدة هى المسئولة عن حماسة السيد بيجين مريض القلب. فنشاط هذه الغدة هو الذى يعطيه الحيوية والقوة. فيخطب بالساعتين دون أن يلهث.. دون أن يسعل.. دون أن يتمايل إلا طربا واختيالا. ففى آخر خطاب له فى تل أبيب وقف يخطب ويحرك أعصاب جماهيره ويضحكهم ويثيرهم ويغضبهم ويهزهم، ويقوم هو بدور العواصف. والناس أمامه أمواج تعلو وتهبط بالهتاف والتصفيق له.. ويتساقط الشبان الصغار على الأرض بسبب شدة الحرارة والإعياء، ويظل بيجين يخطب ويسخر من خصومه واحدا واحد. ويهز الأطباء رءوسهم ويقولون : إن هذا الرجل المريض هو معجزة طبية.. أنها الغدة الكظرية التى تمده بهذه الصحة والقوة. فنجاحه هو انتصار للغدد الصماء.

وعلماء النفس يقولون : إنه استطاع أن يحرك أعماق الناس. إن الناس فى حالة ضيق اقتصادى. وفى حالة قهر عنصرى، وخاصة الفقراء من اليهود الشرقيين إنهم هم الذين أعطوه أصواتهم سنة ١٩٧٧. فقد قضى منهم فى المعارضة ٣٠ عاما. يقاوم امبراطورية حزب العمل التى حكمت البلاد منذ قيام الدولة، لقد التقى به الناس رافضا ومعترضا وصاخبا ومزلزلا حزب العمل. فأعطوه أصواتهم. وهذه المرة أيضا فهم فقراء، والسبب حزب العمل. وحزب العمل يقف وراءه العمال والنقابيون من اليهود الغربيين.. ثم إن السيد بيريز قد شتمهم. إنها كلمة واحدة ربما هى التى أفقدته مقعدين أو ثلاثة.. فقد وصفهم بأنهم «شخشم» وهى كلمة تصف طريقة المغاربة فى الكلام عندما يسرفون فى استخدام حرفى الشين والخاء. والتقطها بيجين وقال : إنه يسميكم شخشم.. أنتم الذين تبنون الدولة فتصرخ الجماهير وتصفق.

وعلماء النفس يرون أن العدوان من مظاهر الخوف. فالخائف يهاجم. والخائف يصرخ ويعتدى وعدم الشعور بالأمان هو الذى جعل جماهير الناخبين يصرخون ويحطمون الأبواب والسيارات ويشعلون الحرائق ويمزقون اللافتات.. إن بيجين قد فجر الألغام النفسية أو قنابل الأعماق.. وأطلق الشعب يحرر نفسه من الكبت والضغط.. ويعلق علماء النفس على ذلك بأنهم لاحظوا أن الكلاب تعض فى حالة الاعتداء عليها - بمعدل ٧٨٪.

وعلماء التحليل النفسى يقولون : إن هناك خطأ فى مفهوم الرجولة وهو أن الرجل القوى هو الذى يعتدى. وأن المرأة تحب ذلك. وأن هذا العنف ليس إلا صورة لما تحبه المرأة فى الرجل !!

وكثير من الناس قد استنكر هذا العنف فى المظاهرات والحملات الانتخابية، وقالوا : مبالغ فيه..

وقالوا : إن بيجين هو المسئول عن تغيير وجه المجتمع الإسرائيلى من أجل أن يفوز فى الانتخابات..

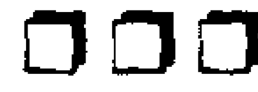
وقالوا : إن بيريز هو المسئول عن الناس الذين ذهبوا ليعطوا أصواتهم لبيجين.. وقال الروائى الكبير عاموس عوز، وهو من حزب العمل : إذا كان بيريز هو الجريمة. فإن بيجن هو العقاب !

وقالوا لو كان شمعون بيريز أقوى وأشد صلابة وأكثر حسما. ولكنه لم يكن كذلك. إنه متردد . بينما بيجين هو الرجل القادر على اتخاذ القرار. وهو الرجل الذى يرضى غرور الناس وكبرياءهم. فالناس العاديون لا يملكون القرار. ولا يقدرون على المعجزة. وبيجين هو الرجل الذى يحلم به الناس. فهو قوى. وهو شجاع، وهو باهر. وهو الرجل الذى دعا إلى السلام مع مصر، وهو الذى يمضى فى تحقيق السلام - أعظم قرار فى حياة الشعب الإسرائيلى . وهو رجل الحرب. فهو الذى ضرب المفاعل النووى - مدعيا أن ذلك دفاع عن الشعب وهى غلطة أكسبت تجمع العمل مزيدا من المقاعد ! وبيجن لكى يبرر هذا العمل فلا بد أن يخيف الشعب وأن يفزعه وأن يجعله يصرخ ويطلب النجدة، فيكون هو النبى الذى جاء يحمل رسالة السماء وينقذ شعب بنى إسرائيل. ولذلك فهو يرى نفسه المسيح صاحب الرسالة. والشعب يهتف له : بيجين ملك إسرائيل.

أما بيريز فليس كذلك.. فهو فى حرب مع زميله إسحاق رابين. وقد كان النقاش بينهما شخصيا فاضحا جارحا. وقد أشعل بيجين هذا الخلاف، فراح ينقل عبارات من كتاب رابين ضد بيريز. ويعرض على الشعب ما الذى يفعله حزب العمل بأقطابه : بيريز رئيس الوزراء القادم ورابين رئيس الوزراء السابق..

وعندما حاول حزب العمل أن ينقل عبارات من كتاب فايتسمان ضد بيجين، رفض فايتسمان تماما.. بينما لم يرفض رابين الهجوم على زميله فى حزب العمل وكان بيريز قد أعلن أنه من المستحيل أن يتفق مع رابين. واتفقا. ثم إنه قام بتنحية زميله بارليف.. وخلافات أخرى كثيرة انفجرت وطفت على السطح، وظهرت أعماق الخلافات، وطفت

الكلمات النابية. واستغلها بيجين. وصفق الناس، وانتهت الانتخابات.



وكما فى الحروب النووية أيضا : لا غالب ولا مغلوب، وهم جميعا قد انتصروا، وهم جميعا قد انكسروا.

حزب تجمع العمل زاد عدد مقاعده فى الكنيست. ولن يشكل الحكومة..

وتكتل بيجين لم يحصل على الأغلبية المطلقة. وسوف يشكل الحكومة بتحالفه مع الأحزاب الدينية الصغيرة. والأحزاب الدينية ليست على وفاق فيما بينها. فالحزب الدينى بزعامة وزير الداخلية د. يوسف بورج لا يريد الحزب الدينى بزعامة هارون أبو حصيرة الذى سوف يقدمونه للمحاكمة ويخسر مقعده فى الكنيست ويدخل السجن. وعلى ذلك يكون بيجين قد كسب، وبيريز قد كسب، والحزب الدينى قد كسب - أما الشعب الإسرائيلى فهو الذى خسر. لأن الحكومة ناجحة والمعارضة قوية. واذا كانت المعارضة قوية والحكومة ضعيفة. كان الحذر والخوف هو سياسة الحكومة الجديدة. وكان التهديد بإسقاطها وسحب الثقة منها.. هو أسلوب المعارضة. ولذلك فسوف تكون الحكومة عاجزة عن اتخاذ قرارات مصيرية. ويكفى أن تنخفض درجة الحرارة فيصاب عضوان أو ثلاثة بالأنفلونزا، فلا يحضرا إلى الكنيست لتستغل المعارضة الفرصة لإسقاط الحكومة.

وقد تكون الانتخابات الجديدة عند نهاية هذا العام.

وسوف تكون أمام الشعب الإسرائيلى فرصة أن يتخلص من الأحزاب الصغيرة ويكتفى بثلاثة أحزاب : الأحزاب الدينية هى اليمين المتطرف، وحزب العمل هو اليسار، والليكود هو الوسط.. أو يكون هناك تحالفان كبيران : تحالف العمل، وتحالف حيروت.. ويضم أجنحة متطرفة هى الأحزاب الدينية. وقد يبدو هذا أمرا سهلا أو بسيطا، ولكنه ليس كذلك فى إسرائيل. بل سوف تظهر أحزاب أخرى، كثيرة ما دامت لا توجد هناك شخصية قوية كاسحة قادرة على جذب الشعب والالتفاف حولها - وربما كان بيجين هو أقوى هذه الشخصيات وآخرها أيضا !

ولذلك فالحزب الدينى هو وحده القادر على أن يداور ويناور. ولكن ليس فى الإمكان أن ينضم إلى تجمع العمل، ويمكّنه من تشكيل الحكومة، لأن الخلاف المذهبى كبير. ولذلك فسوف ينضم إلى السيد بيجين ويساومه على عدد المقاعد ويساومه أيضا إن كان يقبل دخول حزب أبو حصيرة الذى يلتف حوله المغاربة.. أو لا يقبل. ولا بد أن يقبل، وبذلك يكون د. يوسف بورج هو أقدم وزير فى العالم. فقد بقى فى مقعده هذا

أكثر من ٣٠ عاما !.

وفى إسرائيل نكت كثيرة حول ذلك، من بينها أن ثلاثة من الأطباء قد اخترعوا دواء لإحياء الموتى. فذهبوا إلى مقبرة توت عنخ آمون. وحقنوا توت عنخ آمون، فنهض واقفا وسألهم : من أنت ؟ فقال واحد : أنا من لندن. قال الملك توت : لا يوجد مكان اسمه لندن. وقال الثانى : أنا من باريس. وقال الملك توت : ولا مكان اسمه باريس، وقال الثالث : أما أنا يا جلالة الملك فمن مدينة القدس.. وهنا وضع الملك توت يده على رأسه وقال : القدس.. آه القدس.. أهو البلد الذى يوجد به وزير داخلية اسمه يوسف بورج ؟!.

وقالوا : إن بيجين هو الرجل الغربى الذى جعل إسرائيل دولة شرقية - استمعوا إلى الكلمات النابية والصرخات العاوية وقلة الأدب والاعتداء على الناس !

وإذا كانت هذه إهانة للشرقيين فهى أيضا إهانة للشرق الأوسط كله ! وقالوا عن حزب العمل : ما هذا العدد من الرؤساء والوزراء السابقين والوزراء والجنرالات المتقاعدين؟.. ما هذه الواجهة التى تصلح إعلانا عن بيت للمسنين والمعوقين ؟!..

أما الحزب الدينى فقد أعلن عن نفسه فى التليفزيون بطفل أشقر أزرق العينين يقول :

بسبب حزب العمل. فإننى أعيش الآن. إنه الحزب الذى رفض الإجهاض ! ويظهر ممثل معروف فى التليفزيون يقول: آخر نكتة.. لقد عاد رابين إلى بيريز - وضحكة طويلة.. وينتهى الإعلان !

والسيدة جيئولا كوهين ممثلة حزب البعث الإسرائيلى تقول : أعطنى صوتا وأنا أسترد لك شبرا من أرض سيناء!..

انتهت الانتخابات. امتلأت الصناديق ثم أفرغت وفرزت. ولكن آثارها لم تنته بعد بين البيوت وبين الندوات. فالكل قد كسبوا، والكل قد خسروا، والساسة إذا كانوا قد كسبوا فإن الشعب قد خسر راحته. وليس عنده طاقة تكفى لأن يجدد الأمل فى أى شئ!..

العمل يقول : هنيئا لبيجين هذه الحكومة. فهو الذى سينهى مراحل السلام مع مصر. وهو الذى سوف يعطيها سيناء والمستوطنات. وهو الذى سوف يحل المشاكل الاقتصادية. وهو الذى سوف يدفع تكاليف المعركة الانتخابية، وهو الذى سوف يضطر إلى إجراء انتخابات تأتى بحزب العمل !

قال عيزر فايتسمان وزير الدفاع السابق، والذى كان مسئولا عن قيادة الحملة

الانتخابية السابقة لبيجين : مشكلة المشاكل أمام بيجين الآن : سوف يترك لشارون حل المشاكل الزراعية .. ويترك ليوسف بورج حل الحكم الذاتى، ويعطى لأزيدور حل المشاكل الاقتصادية، وسوف يترك لشامير إنهاء عزلة إسرائيل فى العالم.. وسوف نتفرج على هذه المعجزات كلها كيف تتحقق !

قال لى آبا إيبان : لقد تعثرنا عند مدخل البيت.. وسوف نرى ما الذى يفعله الذين سبقونا ودخلوا البيت.

قال لى الروائى عاموس عوز : إننا فى حاجة إلى حرب أهلية فى الثقافة لكى نواصل مسيرة السلام فى ظل حكومة قوية - وليست هذه الحكومة!

قال لى حاييم بارليف : نحن سعداء بما وصلنا إليه، ونريد أن نرى ما سوف يفعله تكتل الليكود، فقد وعدوا بالكثير جدا وعليهم أن يفوا بهذه الوعود. والشعب كله ينتظر !

قال لى الكاتب الكبير أورى أفنيرى : إننى أعرف بيجين جيدا. إنه لا شئ يعطيه القوة مثل خطبة ناجحة فى الكنيست أو خارجه. وعند مواجهة الناس يكون فى غاية اللباقة. وبعد الخطبة يكون هادئا سعيدا. لا يريد من أى أحد أن يناقشه. ولكن إلى متى يستنفد نفسه وطاقته ؟.. من المؤكد أنه لن يقوى على ذلك كثيرا. فإذا مات بيجين فسوف ينحل الليكود كله. فليس بعده أحد يرقى إلى قوته. بل إنه أكبر زعيم فى إسرائيل كلها !

وفى المواجهة التليفزيونية التى أجريت بين الزعيمين بيجين وبيريز مساء يوم ٢٥ يونيو الماضى واستغرقت أربعين دقيقة. أجاب كل منهما عن سبعة أسئلة وجهها المحلل العسكرى الذى يحظى باحترام الجميع : زئيف شيف. قال بيجين : إنه فى السنوات الأربع الماضية كان نجاحه ساحقا وحاسما فى تاريخ إسرائيل. فقد أبرمت اتفاقية السلام مع مصر ولولاها لاحتاجت إسرائيل إلى أسابيع عديدة لتعبئة الاحتياطى للحفاظ على السلام والدفاع عن الجنوب، لأن إسرائيل لن تسمح بحرب أخرى مثل حرب أكتوبر. ثم قرار الحكومة بنسف المفاعل النووى العراقى. وأنت متفق معى تماما فى أن المفاعل النووى كان خطرا على حياة إسرائيل.

أما بيريز فأجاب : إن مسيرة السلام قد بدأت أثناء حكم حزب العمل سنة ١٩٧٤، وذلك باتفاقية الفصل بين القوات التى عارضها بيجين. وفى عهد حكومة العمل توصلنا فى سنة ١٩٧٥ إلى اتفاق مرحلى مع مصر عارضه بيجين. أما المرحلة الثالثة فهى تتعلق

بالسلام. غير أن السلام يواجه اختبارا صعبا. وبسبب هذه الانتخابات وجه بيجين دعوة للرئيس السادات للقائه فى شرم الشيخ. وذلك قبل نسف المفاعل العراقى بثلاثة أيام. الذى لا ضرورة لضربه وإحراج الرئيس السادات وعزل إسرائيل عن العالم كله.. لقد كانت السنوات الأربع الماضية أتعس سنوات فى حياة إسرائيل الاقتصادية، فارتفع التضخم إلى ٢٠٠٪، وتوقفت التنمية والهجرة، وتبددت الأموال على المعركة الانتخابية.

ويقول زعماء العمل فى المعركة الانتخابية : إن الرئيس السادات قد ساعد على نجاح بيجين. وذلك بأنه أعلن أكثر من مرة أنه يحب أن يتعامل مع الأقوياء: بن جوريون وجولدا مائير ومناحم بيجين !

ثم إنه قبل الدعوة إلى شرم الشيخ، واستغلها بيجين استغلالا تاما..

ولذلك فسوف يبادر شمعون بيريز بلقاء الرئيس السادات والاتفاق معه على خطوط ومشاكل المرحلة السابقة على الانتخابات الإسرائيلية القادمة. وقبل أن يلتقى به بيجين فى الإسكندرية قبل سفر الرئيس السادات إلى أمريكا..



انتهت الانتخابات وبدأت معركة الحكومة مع أحزاب الائتلاف، ومع المعارضة القوية.

ولكن على أى شئ تختلف الحكومة والمعارضة ؟..

أما الأوضاع الاقتصادية الصعبة، فذلك أمر يطول شرحه، ويصعب حله. وهى مشكلة داخلية تماما. وقد استعدت لها الدولة بكل قدراتها..

وأما «الاختراع» الذى أعلن عنه السيد موريدور وهو وجود مادة جديدة تغنى عن استخدام البترول، فهو «حلم» من أحلام العلماء. مثل «حجر الفلاسفة» : أى الحجر الذى تمكن معالجته بسهولة فيصبح ذهبا. فإذا أمكن تحويل أى نوع من الحجارة إلى ذهب بهذه السهولة، اختفت قيمة الذهب.. وأصبح فى سعر التراب. فهو اختراع يقضى على نفسه، وكذلك هذه المادة السرية التى أعلن عنها الليكود، ولم يشأ أن يكشف عن سرها، فهى تقضى على شركات البترول التى تملك ألوف الملايين. والتى سوف تعمل كل ما تستطيع من أجل القضاء على الاختراع وصاحبه - دفاعا عن ثرائها الفاحش.

وقد قال لى د. مايكل سيلا مدير معهد فايتسمان ساخرا : لم نسمع عن شئ من ذلك. ولا عرفنا ما هى المادة، ولا من هم العلماء الذين عملوا سرا، والذين أعطوه هذا السر ليستخدمه فى المعركة الانتخابية ! إنها كذوبة !

أما السلام، فقد التزمت به هذه الحكومة والمعارضة أيضا ولا خلاف عليه، ولا عودة فيه، أما المشاكل الأخرى مثل الحكم الذاتى فلا بد من المضى فيها أيضا، لأن السلام مع مصر إنجاز عظيم، ولكن السلام مع مصر وحدها، ليس هو السلام الشامل، فإذا لم يكن سلام فى الشرق الأوسط يحل القضية الفلسطينية فلا سلام لإسرائيل بل لا أمان ولا حياة.

إن مصر قد ضربت المثل، وتحملت ويلات السلام، ولابد أن تمضى فى ذلك، وسوف تتسابق الحكومة والمعارضة فى البداية الجديدة للسلام بعد الجلاء الشامل عن سيناء. وسوف يكون شعارها : غزة أولا.. أو فلنبدأ بغزة.. وسوف تطبق على غزة ما تريد أن تطبقه على الضفة الغربية.. وسوف تكون صراعات بين الحكومة والمعارضة والأحزاب. وهذا طبيعى، فالصورة التى يراها المواطن الإسرائيلى المتطرف من الأحزاب الدينية وحزب البعث هى أن القوات الإسرائيلية تتراجع والعلم الإسرائيلى ينزل ويرتفع العلم المصرى. هذا المشهد يخيفه ويفزعه، لأنه يحس أن الأرض تضيق أمامه وتحت قدميه، وأنه يتراجع إلى حدوده لأول مرة - أى لأول مرة يتراجع ولأول مرة سوف تكون له حدود، وهو يخاف أن يتراجع على كل الحدود. وأن يكون التراجع انسحابا وإضعافا له وتدعيما للدول العربية. وكما أن الإنسحاب الإسرائيلى قد يغرى الدول العربية بالهجوم والانقضاض عليها فإن الانكماش والتضاغط الوطنى قد يؤدى إلى الانتحار الإسرائيلى وإلى الحرب.. وإلى أن تصبح إسرائيل، كما بدأت، حارة لليهود كبيرة فى الشرق الأوسط.. أو جزيرة فى بحر من العدوان، إلى آخر المشاعر الحية الدامية التى لم تمت ولم تختف فى إسرائيل، والتى من السهل إثارتها كما فعل السيد بيجين، تبريرا لضرب المفاعل العراقى وكسبا للمعركة الانتخابية.

قال لى الروائى عاموس عوز عندما التقينا فى مستوطنة «الخلد» : إننى أعلن ذلك بلا حرج ولا خوف ولا مجاملة أن عبقرية السادات ليست فى أنه حاربنا فى أكتوبر، ولكن عبقريته أنه هو الوحيد الذى استطاع أن يعرف الداء الإسرائيلى العميق وأنه عالجه. إن مشكلتنا معكم ليست الأرض. وليست الحرب وليست التجارة. إنها مشكلة نفسية. وإن الذى قام به السادات هو إبراز هذه المشكلة التى تسترنا عليها ثم إنه عاملنا وعالجنا بهذا الفهم. إنها مشكلة نفسية يجب أن نفهمها جميعا وأن نتعامل على هذا الأساس، ولا سلام لنا ومعنا إذا لم نفهم ذلك. وربما كانت هذه هى الصعوبة، ولكنها صعوبة معروفة ومفهومة !

وفى الساعة الأولى من صبيحة الأربعاء الماضى رأينا الزعماء سعداء يتعانقون

والورود من ورائهم.. وانتهزت الفنادق هذه الفرحة وقدمت لضيوفها الشمبانيا مجانا. أما معنى هذه الشمبانية فقد تركته لكل واحد. ما دام أتباع بيريز سعداء بانتصارهم، وأتباع بيجين أيضا. فالكل سعيد.

وعندما صرخت إحدى حفيدات بيجين وهى تتفرج على التليفزيون وقالت : إن حزب العمل قد كسب. نهض بيجين ليقول : بل نحن يا ابنتى !

وذهب إلى التليفزيون فى الساعة الرابعة صباحا يعلن أنه هو الذى سوف يؤلف الحكومة وأنه اتفق مع الأحزاب الأخرى. ولما قيل له : إن بيريز قد أعلن أنه هو الذى سوف يؤلف الحكومة، قال بيجين : أعتقد أنه قد تعجل مرة أخرى فى مثل هذه العبارة!

قال لى وزير الشئون الدينية هارون أبو حصيرة : إنه هو الذى سوف يكون نقطة التحول فى التشكيل الوزارى الجديد..

قال لى العالم النفسى إيلى أدونا : إن هذه الراحة التى يشعر بها الجميع سببها أن الانتخابات قد انتهت، وأن نتيجة ما، قد أعلنت. وأن الناس قد ناموا بعمق.. أما سعادة الجميع فسببها أن النتيجة كانت مثل القبلات : فأنت تأخذ وتعطى فى نفس الوقت. وبعد ذلك عندما يفكر الإنسان فيما حدث فسوف يدرك أنه كان فى استطاعته أن يأخذ أكثر من القبلات، ولذلك يلوم نفسه على أشياء كثيرة!.

إن أمام الحكومة ٢١ يوما وتمكن إضافة ٢١ يوما أخرى لها لكى يتمكن رئيس الوزراء من تشكيل حكومة جديدة. هذا هو نص الدستور. ولكن لا أعتقد أن السيد بيجين أو السيد بيريز سوف يحتاج إلى كل هذا الوقت. إنما هو يعجل بقيام الحكومة الجديدة مع تغيرات طفيفة، وإذا كانت الانتخابات ونتائجها قد بددت الكثير من الضباب، فإنها سوف تعجل بكثير من السحب فى سماء السياسة والاقتصاد. وسوف تتجمع كلها فوق غزة والضفة الغربية وفى داخل الكنيست. وليس ذلك شيئا غريبا فى الحياة البرلمانية. وسوف تدور المعارك بين الحكومة والبرلمان. وليس ذلك إلا إحياء وتكرارا لمعنى قديم هو أن السياسة هى محاولة الوصول إلى الحل الوسط دائما، وذلك بإرضاء جميع الأطراف. أما السياسى الناجح فهو الذى يجتذب كل الأحزاب إلى جانبه، أما السياسى العظيم فهو الذى يقضى على كل الأطراف بأن يكون هو اليد التى توقع القرار واليد التى تصفق له - وذلك عندما تكون الحكومة يده اليمنى والبرلمان يده اليسرى.. وهذا ما أعلنه بيجين وبيريز فى الانتخابات الماضية، وسوف يؤكدانه ويجددانه إذا جاءت انتخابات أخرى بعد عام أو نصف عام.

وإذا كان لنا أن نخرج بمعنى واحد من كل هذه الضوضاء الكلامية والمظاهرات

السياسية والدينية، ومن تعثر المفاوضات، فهو أننا ارتضينا السلام أسلوبا وحياة، وأنه لا حياة بغير سلام ولا سلام بغير حياة. ■

ومن الذى يسترد الجولان ؟

تساءل العالم كله عن فائدة ضم الجولان لإسرائيل. إن إسرائيل تحتلها منذ سنة ١٩٦٧، وقد أسكنت فيها سبعة آلاف إسرائيلى فى ٣١ مستوطنة. وتفصل بينها وبين سوريا مساحة من الأرض تقيم بها قوات الطوارئ الدولية. ولكن هذا القرار يكشف طبيعة الشعب الإسرائيلى: القلق دائما.. الخوف دائما. ثم طبيعة السيد مناحم بيجين الرجل المريض. الذى يؤكد دائما أنه أقوى من الأقوياء، ورغم أنه يتحرك على عجل فإنه أسرع من كل الذين يمشون على أقدامهم.. ثم إنه قادر على توريط أمريكا وتأكيد عجزها عن اتخاذ أى قرار ضده - هذه المرة وعشرات المرات قبل ذلك. وقد نجح بيجين فى إنهاء كل شئ بإخراج مسرحى وحبكة بوليسية. حين استدعى المؤيدين له من مجلس الوزراء وحصل على تأييدهم بسرعة. ثم جمع المجلس كله، ثم اتجه إلى البرلمان أثناء غياب زعيمى المعارضة بيريز ورابين، وحصل على التأييد كاملا فى ليلة واحدة..

وكان بيجين قد رفض ضم الجولان هذه فى ديسمبر الماضى. واستطاع أن يهزم هذا المشروع فى إحدى لجان البرلمان بأغلبية ١٥ صوتا ضد صوتين. لأنه قد وضع مشروع ضم الجولان فى برنامجه الانتخابى. وكسب به الكثير من الأصوات. ولم يكن الاعتراض على ضمها، إنما كان الاعتراض على «موعد» ضمها!..

وتحير الناس فى العالم لهذا القرار المفاجئ.. ولم يخف الكثيرون دهشتهم وإعجابهم

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/١٢/٢٧

وغضبهم أيضا - إعجابهم به وغضبهم على العرب.. أو غضبهم عليه أيضا؛ لأنه هو المسئول عن إثارة العداء لليهود فى العالم كله وفى أمريكا بصفة خاصة!..

ومنذ يومين فى برنامج «نهاية الأسبوع» فى التليفزيون البريطانى، ظهرت تمثيلية فكاهية بطلاها بيجين وأحد مستشاريه. يظهر بيجين على مقعده ذى العجلات وأمامه المستشار الذى جمع عددا من برقيات الاحتجاج على قرار ضم هضبة الجولان. يقول بيجين: كل هذه البرقيات تقول ماذا؟..

- تحتج عليك..

- ما الذى استطيع أن أفعله؟.. إن العالم يعادينا وسوريا لا تريد الاعتراف بنا!..

- وإلى جانب البرقيات هناك عشرات الألوف من المكالمات التليفونية.

- وبأى شئ ترد عليها؟..

- أبدا.. إننى أقول.. النمرة غلط.. هنا المطعم الصينى..

- ولكن لا يوجد هنا مطعم صينى! يجب أن يعترفوا بنا!..

- إن العالم معذور يا سيدى لأننا كل يوم نغير حجمنا.. يجب أن نستقر على مساحة واحدة من الأرض يعرفها العالم ليعترف بها..

- كيف تقول ذلك؟ إنهم يطالبوننا بأن نقترب من العرب.. الآن اقتربنا من سوريا أكثر.. وعندما تنسحب قوات الأمم المتحدة نحتل نحن هذه المنطقة، وبذلك نقترب أكثر وأكثر.. ثم إننى أتحرك حسب الجو.. حسب الظروف الدولية.. لا تخش شيئا..

- وأين نلتقى فى العام القادم؟..

- فى العام القادم نلتقى فى جنوب فرنسا.. هذه هى أرض المعاد حقا!..

- أرجو ألا يكون ذلك عن طريق بولندا!..

ومعنى هذه النكتة الطويلة أن أحدا لم يفهم سبب هذا القرار.. ولا الأسباب التى تختلقها الحكومة الإسرائيلية لانتهاك القوانين الدولية والمعاهدات المعترف بها..

ولكن السيد مناحم بيجين عنده أسباب وجيهة لذلك - أو عنده استغلال أفضل للظروف الدولية: الأوروبية والأمريكية والعربية، فهو ليس على حق، ولكنه على قدر من البراعة السياسية والجرأة العسكرية.. فبعد ساعات من الأحكام العسكرية فى بولندا أفلح فى الحصول على هذا القرار وحجته أن العالم كله، وأمريكا خاصة سوف تكون غارقة فى الاحتجاج على التدخل السوفيتى فى بولندا. وفى نفس الوقت سوف تعيد حساباتها بسرعة. ولما كانت السرعة ليست من خصائص الإدارة الأمريكية الحالية، أو هى من

خصائصها المضطربة، فسوف يختلف مستشارو الرئيس الأمريكى يوما أو اسبوعا. ولكن هذه الخلافات المألوفة فى مكتب الرئيس الأمريكى ستجعل قضية الجولان فى الظل..ثم إن أمريكا لم تتخذ قرارا واحدا عنيفا ضد إسرائيل. فعندما ضربت إسرائيل المفاعل العراقى، منعت أمريكا تسليم طائرات ف ١٦ إلى إسرائيل. مع أن ضرب المفاعل العراقى كان استنادا إلى معلومات دقيقة قدمتها المخابرات الأمريكية لإسرائيل. ولولا هذه المعلومات ما أقدمت إسرائيل على ضربه هذا العام - هذا ما قاله السيد مناحم بيجين للرئيس السادات فى الإسكندرية! وفى نفس الوقت اعترض الرئيس السادات على ما أشيع من أن هناك مشروعا إسرائيليا لضرب المفاعل الليبى!..

وعندما ضربت إسرائيل المعسكرات الفلسطينية فى لبنان تدخلت أمريكا وبعثت بالسيد فيليب حبيب فى المنطقة. وتدخلت السعودية ونجحت فى وقف إطلاق النار منذ سبعة شهور. ولم تتقدم أمريكا أو السعودية خطوة واحدة إلى أبعد من ذلك.. فلاتزال الصواريخ السورية سام ٦ فى منطقة البقاع موجهة إلى طائرات الاستكشاف الإسرائلية..

وعندما أعلنت إسرائيل ضم الجولان هددت أمريكا بوضع العلاقات الإسرائيلية الأمريكية فى وزنها وحجمها الطبيعى - ومعنى ذلك أن هذه العلاقات ليست فى حجمها ولا فى وزنها، إنما هى أكبر وأعظم بكثير جدا، مما يضايق الشعب الأمريكى الذى تورطه إسرائيل مع كل حلفاء أمريكا فى العالم العربى..

وكل ما استطاعته أمريكا هو أن تضم صوتها إلى صوت العالم فى إدانة إسرائيل فى مجلس الأمن. أى أن أمريكا لم تخرج عن سياستها التى التزمت بها ٣٥ عاما - التهديد بالقوة دون استخدامها. أى التهديد بالعقاب دون المشاركة فى فرضه يوم ٥ يناير القادم. إنها لا تستطيع أن تفرضه، لأنها لا تعرف كيف تنفذه. وفى ذلك تأكيد لعجزها وضعفها أمام العالم كله. وقد ظهر ذلك بوضوح يوم طالبت أمريكا العالم الغربى الحر بإتخاذ موقف موحد ضد السوفيت واحتلال أفغانستان. وكانت الفرصة السانحة هى مقاطعة الدورة الأوليمبية. وضاق العالم بإدخال السياسة فى الرياضة. واشترت روسيا كل احتياجاتها من القمح من دول أمريكا اللاتينية. فلم تستطع هذه الدول أن تخرب اقتصادها القومى مجاملة لعجز أمريكا عن معاقبة روسيا التى ليست عدوا حقيقا لأمريكا - فما أكثر المشاريع المشتركة بينها فى الزراعة والصناعة ورحلات الفضاء!..

وقد حدث ما توقعته إسرائيل، فلم يكن رد الفعل الأمريكى مخيفا. فأعلن السيد هيج وزير الخارجية من طائرته: أن القرار الإسرائيلى يعد غدرا به شخصيا!.. لأن أحد لم

يبلغه بذلك..

ومن الطائرات طلب من وزارة الخارجية إصدار بيان قوى، وليس عنيفا. وصدر البيان القوى.. وجاء فيه أن هناك علاقات تقليدية بين الدولتين لا مساس بها، وأن هذا خلاف بين أصدقاء..

وغضب البرلمان الأمريكى لأن إسرائيل لا ترعى إلا مصالحها، ولا تلتفت كثيرا إلى المصالح الأمريكية فى العالم العربى..

وترد إسرائيل: ولكن أمريكا عندما قررت إعطاء السعودية طائرات الإنذارالمبكر. لم ترع مصالح إسرائيل!..

أما مسيو شيسون وزير خارجية فرنسا فقد فوجئ بالقرار وقال: إنه مخالفة صريحة لاتفاقية لاهاى سنة ١٩٠٧ التى تنص على أنه ليس من حق إسرائيل، أى الدولة المحتلة، أن تغير قوانين الأراضى التى تحتلها!..

ولكنه قال أيضا: إن المحادثات فى إسرائيل لم تكن بين أناس أصيبوا بالصمم، إنما بين أناس ذوى سمع ثقيل فقط!..

أى أنه كان متفهما لكل شئ، ولكنه كان يريد أحدا أن يصرخ فى أذنه. واتصل الرئيس ميتران بالشاذلى القليبى رئيس جامعة تونس العربية، وأبلغه بأنه لن يزور إسرائيل فى فبراير القادم..

ولما أعلن وزير الدفاع الأمريكى وقف العمل بالاتفاقية الاستراتيجية التى أبرمت أخيرا بين إسرائيل وأمريكا، أعلن بيجين إلغاءها قائلا: إن الشعب اليهودى عاش على الأرض ألوف السنين، بغير هذه الاتفاقية، ويستطيع أن يعيش ألوفا أخرى.. ثم ألغت أمريكا صفقة السلاح التى كانت ستشتريها من إسرائيل بمائتى مليون دولارا..

وذهب الغضب ببيجين إلى استدعاء السفير الأمريكى فى إسرائيل، وقال له: لا تضعوا على عنقى سيف ديموقالس!.

أى ذلك السيف الذى يجده الحاكم معلقا فوق رأسه من خيط رفيع - أى من الممكن أن يسقط على رقبته فى أى وقت!..

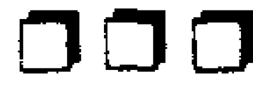
وكان رد المستشار النمساوى برونو كرايسكى: أن الذى فعله بيجين كان سيفعله فى أى وقت ودون حاجة إلى مبررات.. لأنه هو وإسرائيل، يريدون التوسع. وأنهم ليسوا جادين فى ايجاد حل للقضية الفلسطينية..

وتوقع السيد بيجين أن تكون قضية الجولان فى الظل بسبب كارثة بولندا.. تماما

كما أن قضية السلفادور فى الظل أيضا.. فهناك حشود من كوبا ونيكاراجوا والخبراء السوفيت سوف تستولى على السلفادور، وأمريكا لا تستطيع أن تفعل شيئا..

ثم إن أمريكا تعانى من فوضى فى سياستها الاقتصادية، إلى جانب الصراع على السلطة أو على المقعد الثانى إلى جانب الرئيس الأمريكى. ففى البيت الأبيض أزمة قرار. أى من الذى يصدر القرار، وقبل إصداره من الذى يصنعه..

ثم إن إسرائيل هى التى قدمت الوثائق الثابتة لمؤامرة ليبية لاغتيال الرئيس ريجان ومساعديه. وإسرائيل هى التى قدمت للرئيس الأمريكى تفاصيل ضرب طائرته بصاروخ أرض جو.. وغير ذلك من الخطط لاغتياله. وأعلن الرئيس الأمريكى أنه على يقين من صحة هذه المعلومات. ونجحت إسرائيل فى إشاعة الفوضى والهوان فى أمريكا. وفى نفس الوقت لابد أن تطالبه بالثمن. وأفلحت إسرائيل فى توسيع المسافة بين ليبيا وأمريكا - ليبيا الحليف الأوحد لسوريا الحليف الأوحد لروسيا. كما أنها أثارت الرأى العام ضد ليبيا وضد فرقة الإرهاب التى اختفت فى أمريكا - هذه الفرقة هى من رجال الإرهاب العالمى الذين دربهم وخطط لهم رجال من المخابرات المركزية الأمريكية!..



أما فى العالم العربى فالضعف أوضح..

لقد فشل مؤتمر القمة فى فاس. وهدد الأمير فهد بسحب مشروع النقاط الثمانى قائلا: إذا كان هذا المشروع الذى قدمته بمبادرة منى ودون استشارة أحد فى الحكومة السعودية، سيؤدى إلى تمزيق جديد للعرب، فسوف أسحبه فورا..

ورأى بعض الزعماء العرب، أن المشروع لم يعد سعوديا. إنه مشروع عربى. وكان الخلاف على الفقرة السابعة التى تقول باعتراف كل دول المنطقة بالحياة فى سلام - أى الاعتراف بإسرائيل..

وحاول الملك الحسن الثانى إنقاذ المؤتمر من الفشل المؤكد، فالتفت إلى بعض رؤساء الوفود، ولاحظ أنهم «بغير أهلية دستورية» أى ليس لهم الحق فى أن يقرروا إعلان حرب - فهذا قرار يملكه الرؤساء والملوك فقط. وكان يقصد بعبارته هذه السيد عبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا. وكذلك مندوب موريتانيا.. وفشلت قمة فاس!..

وتأكد الفشل العربى فى اتخاذ أى قرار..

ثم إن سوريا نفسها لا تستطيع أن تفعل شيئا، فلديها من المشاكل الدينية والسياسية والعنصرية ما يجعلها مشلولة فى مواجهتها بالجيش أو بالبوليس. ثم إن

متاعبها فى لبنان أعجزتها عن سحب قواتها لمواجهة الجبهة الداخلية. ثم إنها لا تريد حلا لذلك كله، حتى لا يتوقف الدعم المالى الهائل الذى تبتزه من السعودية. كما أن السوفيت لا يريدون حلا للموقف الآن، فليبق على ما هو عليه، حتى يساوم السوفيت على الوجود فى سوريا وفى ليبيا أيضا. ومن المؤكد أن إسرائيل هى المسئولة عن إدخال السوفيت فى المنطقة. فقد اضطرت مصر إلى ذلك عسكريا، واضطرت سوريا إلى ذلك سياسيا، واضطرت ليبيا إلى ذلك عسكريا وسياسيا، واحتاجت إسرائيل إلى الوجود السوفيتى، لابتزاز الأموال الأمريكية ولإرهاب البيت الأبيض، ثم إرضاء السوفيت أملا فى تهجير مئات الألوف من اليهود الروس سنويا!..

ثم تضاعف التمزق العربى بسبب الخلافات الداخلية السياسية والعنصرية والقومية.. وإذا كان هناك اتفاق بين اثنين من العرب على شئ واحد فهو: كراهيتهم للروس واستياؤهم للخوف من فعل شئ!..

وقد أدى العجز الأمريكى فى إيران، إلى نجاح الروس فى أفغانستان.. وإلى تشجيع للحركات المتطرفة فى السعودية وسوريا ودول الخليج وفى مصر أيضا.. وإذا كانت نهاية شاه إيران دليلا على فشل الاعتماد على أمريكا، فإن نجاح ثورة خومينى دليل على أن فراغا سياسيا وعسكريا هائلا من الممكن أن يملاه أصحاب الحناجر القوية والكتاب الواحد والأيدى «المنزوعة» السلاح. وإذا كانت إيران قد بدأت تنشط من جديد خارج حدودها، فلأن دول الخليج مستعدة لذلك تماما - دينيا وعنصريا واجتماعيا..

ولأن حربها مع العراق قد أكدت عجز العرب عن فعل شئ.

لقد أصبح العجز عن اتحاد وجهة، ثم صناعة قرار: أهم معالم السياسة العربية التى رفضت «الحل المصرى» لانهاء الاحتلال الإسرائيلى تمهيدا «للحكم الذاتى الفلسطينى»..

أما الموقف المصرى فواضح تماما.. فقد استنكر الرئيس حسنى مبارك قرار ضم الجولان. لأنه يعتبر خرقا للقرار ٢٤٢ ولاتفاقية كامب دافيد أيضا.. وأن هذا القرار يعرقل السلام فى المنطقة، فلا سلام بغير حل للقضية الفلسطينية. ومصر تعلم يقينا أن فى إسرائيل من لا يريدون الانسحاب النهائى من سيناء.. ومن لا يريدون فى العالم العربى أيضا.. لأن الانسحاب الشامل معناه: نجاح مصر بغير العرب، وفشل العرب بغير مصر!..

والسيد مناحم بيجين أخذ يسوق أعذارا تافهة لهذا القرار المعروف مقدما، فمثلا قال: إن الأسد أعلن أنه لن يعترف بإسرائيل ولو بعد مائة سنة.. وإن عبد الحليم خدام

أعلن: أنه حتى إذا مات، فسوف يكتب بأظافره على الأرض: لا اعتراف بإسرائيل!..

ثم اعتذر المندوب السورى فى الأمم المتحدة عن مثل هذه التصريحات، التى أساء فهمها السيد بيجين. وأعلن أن بلاده على استعداد للاعتراف بإسرائيل، بشرط أن تكون جادة فى حل القضية الفلسطينية..

ونحن نعلم أن بيانات السياسيين صارخة، وكثيراً ما تراجعوا عنها - بيجين نفسه فعل ذلك كثيرا. حتى لقد أصبح إنسانا آخر - إنها المرونة السياسية!..

وفى سنة ١٩٧٤ أعلن كيسنجر أن حافظ الأسد قال له بصراحة: إنى أرفض توقيع اتفاقية فك الاشتباك لأن فيها اعترافا بالوجود الإسرائيلى!..

ثم وقع الاتفاقية..

والرئيس السادات أعلن أنه لن يضع يده فى يد إسرائيلى مادام على أرضنا جندى واحد. ثم وقع السلام والصلح.

ولكن إسرائيل لم تعلن ضم سيناء إليها!..

أما الذى فعله السيد بيجين فيشبه ما فعله بسمارك، فقد أعلن بسمارك فى الصحف أن الإمبراطور لم يشأ أن يستقبل السفير الفرنسى فور مجيئه.. إنما استبقاه ساعة حتى يكمل إرتداء ملابسه.. وغضبت فرنسا وأعلنت الحرب على بروسيا سنة ١٨٧٠! فلم يكن ذلك هو السبب الحقيقى للحرب، ولكنه أحد الأعذار الواهية لذلك!..

وهضبة الجولان (٤٤٤ كيلو مترا مربعا يسكنها ١٩ ألفا من بينهم ستة آلاف إسرائيلى، ومرتفعة عن البحر سبعة آلاف قدم) وهى تشبه شرفة تطل على وادى الجليل. ومن هذه الشرفة كان السوريون يطلقون نيرانهم على اليهود.. وترى إسرائيل أنها ضرورة حياة.

وليس صحيحا ما تدعيه اسرائيل! فلو أعيدت هذه الهضبة إلى سوريا فسوف تظل منزوعة السلاح تماما. فلا خوف منها. ولا أهمية لها مادامت إسرائيل لا تريد حربا ولا تتوقعها. ولكنه استفزاز عالمى، وإحراج لأمريكا ومصر، وتغطية على مشاكل اقتصادية واجتماعية عنيفة فى إسرائيل.

فهل تستطيع أمريكا عمل شئ؟ وهل يستطيع العرب؟.. إن ما حدث سنة ١٩٥٦ قد أعيد مرة أخرى.. فعندما داخ العالم بسبب دخول القوات السوفيتية المجر، وقع الاعتداء الثلاثى على مصر: إسرائيل وبريطانيا وفرنسا..

ولم تستشر هذه الدول أمريكا قبل هذا القرار الفاشل. واستطاعت أمريكا أن

تضغط على هذه الدول فتنسحب من مصر..

وقد صدر قرار ضم الجولان بعد ٣٦ ساعة من الحكم العسكرى لبولندا، وإسرائيل لم تستشر أمريكا أيضا.. فهل تستطيع أمريكا شيئا؟..

فما الذى يستطيعه العرب الذين عرفوا أمريكا وجربوا روسيا.، ولم يجربوا قوتهم ووحدتهم؟ هل يمضى العرب فى سياسة الانتقال من مؤتمر قمة إلى مؤتمر وزراء خارجية إلى اتهام مصر بالتواطؤ وأمريكا بالخيانة وروسيا بالتعاطف.. ثم إصدار البيانات العنيفة علنا، والاعتذار عنها سرا؟.. إن فى العالم العربى حقيقة مؤلمة: وهى أننا جميعا نعرف ما تريده إسرائيل، ولا نعرف ما نريده!..

وشئ غريب حدث أخيرا، ولا أعرف لماذا جاء فى ذكرى ميلاد الزعيم الراحل بطل الحرب والسلام مع إسرائيل : أنور السادات.. لقد كشفت إسرائيل عن وثائق سرية تقول إن الملك فاروق هو أول من أراد عقد صلح مع إسرائيل، وإن كان من رأيه أن يكون الصلح منفردا، ثم أن مشروع اتفاقية الصلح كان من ١٤ نقطة، وإن هذا المشروع قد قدمه السيد الياهو ساسون والد سفير إسرائيل الحالى: إلى السيد حسن يوسف من رجال الديوان الملكى، فى باريس سنة ١٩٤٨. وقد وافق الملك فاروق على المشرع، واشترط على إسرائيل ألا تكون لها صلة بالدول الشيوعية.. وإن إسرائيل قد وعدت بأن تكون عضوا فى جامعة الدول العربية. بشرط أن يتغير أسمها إلى «جامعة الدول الشرقية» إلخ..

فلأى سبب إذيعت هذه الوثائق ؟

إنهم فى إسرائيل يتهمون السيد مناحم بيجين بإنه يدير الدولة على مزاجه، ولكنه الرجل صاحب الأغلبية الشعبية..

فهل هو بإذاعته لهذه الوثائق يعكس المزاج العام الذى يشكك فى الأصدقاء قبل أن يضرب الأعداء ؟..

ثم بعد ذلك يشكو الشعب الإسرائيلى والشعوب اليهودية من أن العالم لا يحبهم.. أو قد تعب من مشاكلهم وويلاتهم التاريخية التى ليس لها حل إلا بضرب الأصدقاء فى الأصدقاء، والبكاء بعد ذلك لأن العالم لا يريد لهم الحياة!.

إلا إذا كان لإذاعة هذ الوثائق معنى آخر لا نعرفه ؟! ■

الشعب الفلسطينى وحده
مع العدو وحده !

رأيت صورة لوزير الدفاع الإسرائيلى أريل شارون يركب حصانا أبيض كأنه موسولينى يستعد لدخول مصر من ليبيا... والصورة له فى المزرعة التى تملكها والدته. وهى سيدة تجاوزت الثمانين. وقد دعانى لزيارتها لكى نرى اليهود القدماء كيف يفكرون. وكيف حولوا المستنقعات إلى أرض مزروعة. أى كيف تعبوا فى بناء الدولة الإسرائيلية - ولم يقل فى بناء الدولة على أرض مغتصبة. ولكن ماداموا قد زرعوا الأرض فقد أصبحت لهم. وركوب هذا الحصان ليس إلا غزوا لأرض ليست له!..

ثم عاد السيد شارون مرة أخرى يروى لى مع السيد كمال حسن على ود. بطرس غالى كيف إنه تحدث إلى والدته تليفونيا من فندق شيراتون الإسكندرية. فنصحته أمه بألا يطمئن للمصريين. وأن يضع المدفع تحت المخدة. فلا أمان مع العرب. وقد قصد من هذه القصة أن يبين لنا أن السلام شئ غريب على اليهود القدامى. وأنه كان مفاجأة، وأن أحدا لا يصدق ما حدث. وأننا محتاجون إلى وقت طويل لإقناع المستوطنين الرواد بأن السلام ممكن مع مصر ومع غيرها من الدول.. ولذلك فحرص إسرائيل على «تطبيع» العلاقات هو الدليل المادى المستمر على أن السلام ممكن. فرؤية اليهود للمصريين فى إسرائيل فى المطاعم والفنادق وتداول السلع هى وحدها التى تجعل السلام عضويا. كأن نأكل البيض والفراخ والموز الإسرائيلى، وأن يأكلوا هم الملوخية والفول والمانجو والجوافة. فيكون دليلا

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٧/١٨

على أن السلام أصبح معويا. فتجرى دماؤهم فى دمائنا، وتسرى دماؤنا فى دمائهم. وهذا هو السلام!!.

ولكن عندما عدت إلى التفكير فى هذه القصة التى رواها السيد شارون فى أحد مطاعم أبى قير وهو يأكل السمك والجمبرى بيديه، لم تكن قصة للتسلية. إنما هى حقيقة. فالسلاح لايزال فى يده وتحت المخدة أيضا، والسلاح قد انطلق على السلام فعلا. وأصابه فى لبنان. وانتقل دويه إلى العالم ودخانه إلى مصر. وتحول غضب المدافع إلى رعد وبرق وسحب تلف الأقلام والعقول. وتضطرب الرؤية والرؤى وتطيش الأحكام على الشعب الفلسطينى وعلى أنفسنا وعلى حلفائنا التقليديين وعلى أصدقائنا السياسيين والتجاريين. وفى غزوة واحدة للبنان وهجمة واحدة على الجيش الفلسطينى. كان السلام أول الضحايا. وكان التعايش أول الجرحى، وكان اليأس أول البلاغات الرسمية. وكانت صلاة الغائب على كل أمل فى تطبيع العلاقات بين إسرائيل وغيرها من الدول العربية!..

أما الهدف الإسرائيلى من الغزو فهو تصفية الجيش الفلسطينى. وإثارة الشفقة على الشعب اللبنانى الضحية. مع أن الشعب اللبنانى كان ضحية الغزاة وليس ضحية الفلسطينيين الذين يدافعون عنه وعن أنفسهم. ولم يكد العالم يفيق من كابوس الحصار البريطانى على جزر فوكلاند ونهاية هذه الحرب باستعادة بريطانيا لهذه الجزر التى كانت لها، حتى فوجئ بغزو إسرائيل للبنان التى ليست لها. وبغزو إيران للعراق وأثيوبيا للصومال.. والبقية سوف تأتى حالا..

وقد غضب فى إسرائيل كثيرون دعاة للسلام أو خائفون على أن توصف إسرائيل بالوحشية، وأن تتبدد أكذوبة الدولة الأقلية المحاصرة بالأعداء من كل مكان والتى لا حياة لها إذا لم تساعدها أمريكا بالمال والسلاح وقد ساعدتها فأسرفت فى ذلك. لا لكى تعيش.. وإنما لتعيش ويموت غيرها كل ثمانى سنوات. وفى نفس الوقت قامت مظاهرات فى إسرائيل تؤيد القتل الجماعى للشعب الفلسطينى: بل إن الأحزاب المتحالفة مع الحكومة رأت أن الذى حدث فى لبنان قد طال أكثر مما ينبغى، ولذلك يطالبون بأن يجئ السيد شارون رئيسا للوزراء. فينهى هذه الحرب الطويلة. ويضع العالم كله أمام أمر واقع: القضاء على القوات الفلسطينية وعشرات الألوف من اللبنانيين وتمزيق لبنان إلى عاصمتين ودولتين وعقيدتين... دولة إسلامية يساعدها العرب ودولة مسيحية تساعدها إسرائيل وأمريكا، وفتنة فى الأردن تؤدى إلى القضاء على الملك حسين لتكون الأردن هى فلسطين، ثم إكراه الفلسطينيين فى الضفة والقطاع على الهروب إلى الأردن.. وهكذا

تؤدى العسكرية الإسرائيلية إلى انهيار السلام فى الشرق الأوسط.

وفى العالم كله غضب على إسرائيل، واليهود غاضبون. لأنهم قد عاشوا عشرات السنين يبيعون دموعهم بالذهب. ويفرضون عذابهم وويلاتهم واضطهادهم على السينما والمسرح والأدب، ويعصرون قلوب أغنياء العالم من اليهود والمسيحيين لكى يساعدوهم على أن يكون لهم وطن. فكان الوطن. وفجأة تحول إلى قلعة عسكرية موجهة ضد كل الشعوب العربية، بأسلحة أمريكية وأموال أمريكية..

فى العالم كله غضب على إسرائيل وعلى أمريكا التى ساعدتها وتساعدها. وكان غضب على مصر لأنها سالمت إسرائيل فحولت إسرائيل جيوشها من الحدود المصرية إلى داخل لبنان. فكأن السلام مع مصر قد سهل مهمة إسرائيل. مع أن هذه ليست حقيقة. فقد اشتبكت إسرائيل فى حروب مع كل البلاد العربية من ٣٤ عاما.

وكانت النتيجة التى نعرفها، ثم عادت إسرائيل إلى الحرب ثلاث مرات أخرى. وفى كل مرة كانت تزداد قوة - أرادتها أمريكا أن تكون ثالثة قوة فى العالم كله. لأن لها دورا «تأديبيا» فى الشرق الأوسط. ولأنها عميل، ولأنها عصا غليظة. ومع ذلك فقد آمنا بأن السلام مع إسرائيل، رغم صعوباته وعقده. خطوة إلى الأمام، فإن المشكلة التى تواجهنا ليست هى السلام، ولكنها الدولة التى أرغمناها على السلام. فهى لم تعرف السلام، ولا تقوى عليه. فهى لا تستطيع أن تسرح قواتها التى تحمل سلاحين فى وقت واحد: المدافع والرغبة فى الانتقام. وكانت مصر أسبق إلى استخدام كل الطرق السلامية الممكنة فى الاتصال بمراكز القوى العالمية، تخفيفا لويلات الحرب على الشعب الفلسطينى، وعودة إلى العقل لفهم المشكلة التى لا تحلها الحرب. ولن تحلها ولم يحدث أن حلتها. فخروج القوى الفلسطينية من لبنان برا أو بحرا أو جوا ليس هو الحل. إنما هو «ترحيل» للمشكلة وتأجيل لها ونقلها من موقع إلى ألف موقع. ولا أحد بعد اليوم يضمن ما الذى يمكن أن يحدث فى العالم كله. فلا رجوع عن وطن للشعب الفلسطينى، حتى إذا لم يبق فى لبنان فلسطينى واحد يشهد أن لا إله إلا الله، وإذا جردوه من السلاح فسوف يحارب بيده وبلسانه.. ولن يكون هذا قرارا فلسطينيا، إنما هو ارادة عربية ومشيئة إنسانية.. وأن إسرائيل وأمريكا معا قد أخطأتا الحساب وأن إحداهما لابد أن تدفع تكاليف الدمار المادى والمعنوى - أما الدمار المادى فأمره سهل. وأما المعنوى فطويل الأجل..

وتحت القنابل والمدافع تضاربت المواقف الفلسطينية أيضا: بين المقاومة حتى آخر كائن حى فلسطينى والخروج بأى شكل لا يهين كرامة أحد. واستئناف القتال بأشكال أخرى

فى أماكن أخرى وفى نفس الوقت. كما نعرف. تجرى مساومات عربية على استضافة الشعب الفلسطينى.. ولا خلاف بين كل المنظمات الفلسطينية على أن هذه ليست النهاية فلم يتنبأ مؤرخ واحد بأن الشعب الفلسطينى سوف يختفى من الأرض العربية ولكن المؤرخين. وفى مقدمتهم عميد المؤرخين توينبى. قد تنبأ بأن الشعب الإسرائيلى هو الذى لن يبقى طويلا فى هذه المنطقة من العالم لأنه «غريب فى أرض غريبة» وهى العبارة التى قالها موسى عليه السلام وهو ينظر إلى أرض المعاد ولم يدخلها. فهل هو لم يدخلها خوفا مما سوف يحدث أو هو لم يدخلها، لأنه ما كان ينبغى لأحد أن يدخلها.. أو هو لم يفعل ذلك. لكى يكمل شعبه من بعده الطريق إلى أرض المعاد. ليخرج منها كما دخلها؟ - هذا ما سوف تكشفه السنوات القادمة!! إن الكثير من حقائق الأمور ليست معروفة الآن وليس من السهل أن نعرفها وإذا كان بعض الجنود الإسرائيليين قد كفروا بالحرب. فهذه حقيقة صغيرة تكشف ضيقا عاما وإذا كان بعض الأسرى الفلسطينيين يذيعون فى راديو إسرائيل كيف إنهم كفروا بوعود المنظمات الفلسطينية. فهى أيضا حقيقة صغيرة. تدلنا على يأس عام..

ولكن الحقيقة الأولى التى تأكدت للعالم كله هى أن القوى الفلسطينية المؤمنة استطاعت أن تقاوم جيشا وأن تأسر جنودا وضباطا وأن تحطم دبابات وتسقط طائرات وأن تقتل أفرادا بالمئات وأن تصيب عشرات الألوف. ولا أحد يعيب على الفلسطينيين إن استخدموا السلاح السوفيتى، كما استخدام الغزاة سلاحا أمريكيا. فالفلسطينيون فى حرب تحرير. وإذا اختفت الأسلحة الروسية من أيديهم فسوف تظهر أسلحة أمريكية وأوربية، فالدول العظمى تبيع السلاح لكل من يدفع. ولا أحد يطلب بطاقة المشترى ولا يسأله إن كان يستخدم السلاح فى قتل البشر أو صيد الحيوانات..

وهذه الحرب عنصر جديد سوف يدخل تغييرا عنيفا على أوضاع الشرق الأوسط، ولا أحد يعرف كيف سيوقف القتال فى بيروت، ولكن بعد أن يتوقف إطلاق النار بالقوة أو اليأس أو السياسة، فلابد أن تتوحد القيادات الفلسطينية فتضم المقاتلين والمفكرين.. وأن تتحرك بسرعة بين العواصم العربية لعلها تفعل شيئا واحدا ضد إسرائيل، وليس تراجعا أن تفاوض إسرائيل وأن تعترف بها من أجل الوطن الفلسطينى. إنما هى الضرورة البغيضة التى تجئ بعد ضرورة أبغض هى الحرب..

ولقد حاورت عددا من قادة منظمة التحرير الفلسطينية وكان من رأيى أن المعركة بدأت مع إسرائيل بشكل مختلف. وأن القضية الفلسطينية هذه المرة أكثر من أية مرة

أخرى. فى حاجة إلى «نظرية سياسية» وهذه النظرية السياسية ليست دعوة إلى إلقاء السلاح، فإسرائيل نفسها لم تلق السلاح ولن تلقيه، ولكن لابد من حرب دبلوماسية سياسية ولو أدى ذلك فيما بعد هذه الحرب إلى تعديل القيادات العسكرية، وليس ذلك نكرانا لفضل أحد من القادة إنما هو تعديل فى طاقم الطائرة المتجهة إلى مطارات أخرى لاستئناف الكفاح.. فهذا قدرنا ألا نعرف السلام - لا هذا الجيل الذى عانى حروبا خمسا ولا الأجيال القادمة حتى نهاية القرن..

فإذا كانت فى الدنيا بلاد لا تهدأ فيها البراكين. أى قوى الطبيعة.. فنحن فى بلاد لا تسكن فيها الزلازل. وهى القوى العظمى!..

أما الحقيقة الثانية: فهى أن الشعب الفلسطينى وقف وحده ضد إسرائيل التى ليست وحدها. وهذا الوقوف قد أكسبه عطف العالم وتقديره. عطفه على ستة آلاف مقاتل يواجهون ربع مليون جندى - فلا طاقة لهذه القلة المؤمنة على مواجهة هذه الأغلبية المتهوسة!.. ثم إن العالم يقدر هذه الشجاعة، فالشعب الفلسطينى هو الآن جبهة الصمود والتصدى والتحدى.. ولأول مرة يعرف بالضبط من الذى يقتله..

أما الحقيقة الثالثة فهى أن الدول العربية قد ارتبكت، فهى تلوم نفسها تارة وغيرها تارة والمنظمات الفلسطينية فى جميع الأحوال. وارتفعت درجة اللوم على المنظمات التى تضاربت فيما بينها. لأنها وجدت نفسها مضطرة قبل حرب لبنان إلى الأخذ بوجهة نظر الدول التى استضافتها - فهل كان من الممكن مثلا أن يقف الفلسطينيون فى ليبيا مع الفلسطينيين فى مصر، أو الفلسطينيون فى الأردن مع الفلسطينيين فى إسرائيل؟!

الحقيقة الرابعة: أن إسرائيل أرادت بضرب الجيش الفلسطينى أن ترفع الخوف عن الفلسطينيين فى إسرائيل، فقد كان الفلسطينيون فى الضفة والقطاع يخافون من المنظمات، ومادام هذا الخوف قد أبيد نهائيا، فإن هؤلاء الفلسطينيين سوف يستسلمون لأى وضع فى إسرائيل..

أو إن إسرائيل نفسها سوف تفرض عليهم أوضاعا يقبلونها.. ولا يملكون إلا قبولها مثل الحكم الذاتى - الزائف - بأن يكون لسكان الضفة حق إدارة المدرسة التى لا يملكونها، وكنس الأرض التى ضمتها إسرائيل نهائيا.. وفى مذكرات السيد بيجين المعروفة باسم «الليالى البيضاء» يتحدث عن مفهوم «الحكم الذاتى» فيقول إنهم قد عرفوا هذا المعنى فى السجون الروسية. فكل سجين من حقه أن يغسل ملابسه وينظف زنزانته - وهو يفعل ذلك بكامل حريته. وهذه هى الفلسفة التى تنفذها إسرائيل الآن منذ عشرين

شهرا فى الضفة الغربية..

وشئ عجيب آخر فعلته إسرائيل فى الضفة الغربية، فهى تبعث بالفلسطينيين ليكملوا تعليمهم فى الدول الشيوعية، فإذا عادوا حظرت نشاطهم لأنهم أصبحوا شيوعيين عملاء يريدون إقامة دولة سوفيتية فى الضفة الغربية على حدود إسرائيل!!..

ورغم كل ذلك فهناك مظاهرات شعبية ضد الاحتلال الإسرائيلى، ولا يهم كثيرا ما الذى يستخدمه المتظاهرون - إنهم يستخدمون الطوب. ولكنهم يتظاهرون، أى يرفضون بألسنتهم وأجسادهم هذا الظلم المؤيد بأحدث الأسلحة. وإذا قطعت إسرائيل سيقان عمد الضفة الغربية، فلن تقطع السنتهم، وإذا قطعت ألسنتهم، فإن ملايين القلوب الفلسطينية والعربية سوف تلعن البطش والإرهاب.

أما الحقيقة المؤلمة التى خرجنا بها من هذا الموقف كله فهى: كم هو العالم كذاب منافق.. كم هى الدول العظمى والكبرى تاجرة فاجرة داعرة.. أين قصائد الرحمة والسلام؟.. أين ملاحم حقوق الإنسان؟.. أين قداسة الأمم المتحدة؟.. أين الشعوب المحبة للسلام..

قالوا: إن القوى الفلسطينية قد أمسكت الشعب اللبنانى رهينة.. أى أنها صدرته للجيوش الإسرائيلية الزاحفة وأنها تحتمى وراءه.. حتى هذا لم يشفع لإسرائيل أن تبيد الشعب اللبنانى أيضا.. فكأنها لكى تقتل فلسطينيا واحدا. قتلت مائة لبنانى.. ولكن تبيد فلسطينيا يطل من نافذة بيت ، هدمت البيت كله على رأس ساكنيه من الأبرياء..

والواقع غير ذلك فالشعب الفلسطينى فى معركته الباسلة فى بيروت قد أمسك قلب العالم رهينة. فكل رصاصة تطلقها إسرائيل هى وخزة فى ضمير ووجع فى قلب.. ومسمار فى نعش السلام فى الشرق الأوسط، وإذا كانت إسرائيل ترى أن الأردن لأن بها أغلبية فلسطينية فهى وطن الشعب الفلسطينى، فمعنى ذلك أن نيويورك ولاية إسرائيلية لأن بها أغلبية يهودية ولا أستبعد أن تطالب بها إسرائيل.. وقد حدث أثناء مفاوضات كامب دافيد أن بعث أستاذ جامعى أمريكى إلى السيد مناحم بيجين يؤكد له بالأدلة التاريخية أن اليهود قد وصلوا إلى الضفة الغربية من نهر المسيسبى. وأن من الواجب عليه أن يطالب بالضفة الغربية لهذا النهر.. ثم ضمها لإسرائيل!..

وعندما جاء بيجين إلى مصر ورأى الأهرامات قال إنها من صنع اليهود أى من الضرورى أن يطالب بأهرامات الجيزة - وغدا يطالب بالكعبة المشرفة، لأن أباهم وأبانا إبراهيم عليه السلام قد وضع أحجارها، لولا أن العالم الأثرى إيجال يادين نائب رئيس

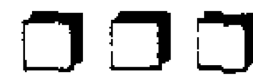
الوزراء قد صده عن ذلك بآيات من التوارة تؤكد أن اليهود لم يعرفوا البيوت المبنية من الحجارة.. فاليهود منذ أقدام العصور يستخدمون الطين سكنا، كما يستخدمونه اليوم طريقا للسلام!!..

وأذكر إننى داعبت الرئيس السادات قائلا: لو عرف بيجين أن عدد أحجار الهرم هى فى مثل عدد شعب إسرائيل لطلب منك حجرا واحدا لكى يطالب اليهود ببقية الأحجار بعد ذلك!!.

وكان السيد بن جوريون يؤمن بأن كل أرض يدوسها جندى إسرائيلى هى ملك له، ولكن حدث تعديل بسيط فى هذه النظرية: وهى أن كل شئ تقع عليه عين أى إسرائيلى هو ملك له..

ولذلك رأى السيد بيجين الأهرامات يهودية؟!.

وعندما ذهب السيد بيجين إلى فندق أوبروى فى أسوان، وجد بين العلماء والباحثين من يؤكد له أن اليهود سبقوه إلى هذه الجزيرة، وبعملية حسابية بسيطة يكون أكثر العالم ملكا لهم، أو ينبغى أن يكون كذلك، لأنهم قد تبعثروا فى كل أرض.. وتركوا وصمات وبصمات فى كل مكان ورغم ذلك أقاموا دولة، ورفضوا هذا الحق لشعب فلسطين!..



وهذا ما يضع العالم كله معنا فى مواجهة نوع من التفكير الشاذ، انفردنا بمعاناته فى الشرق الأوسط.. وفى نفس الوقت لابد أن نعايشه حتى نستخلص الوطن الفلسطينى، ومادامت إسرائيل تقف على كتفى عملاق الكرة الأرضية: أمريكا، ومادام الشعب الأمريكى ليس واعيا للأموال التى يدفعها لإسرائيل، ومادام أى رئيس أمريكى رجلا تأتى به الانتخابات من المجهول، ولا يتسع وقته لكى يعرف ويفهم ويحكم فيعدل، فإن المعركة طويلة..

وحساسيتنا نحن العرب والفلسطينيين أمس واليوم وغدا وبعد غد شديدة. وليست معركة التحرير هى ضد إسرائيل وحدها إنما ضد أنفسنا أيضا.. فنحن جميعا نظلم بحسن نية، ونلعن عن غضب، ونثور عن يأس، وتختلط الموازين والمكاييل فى أيدينا، وتضطرب الأشكال والألوان فى أعيننا.. وتزوغ منا الحقيقة..

ولكن مهما حدث فهناك حقيقة واحدة يهون من أجلها أى شئ وكل أحد وهى: لابد للشعب الفلسطينى من وطن على أرضه.. وإلا فلا سلام - وليس هذا اكتشافا سياسيا،

إنما هى حقيقة مقررة فى اتفاقيات كامب دافيد، وكانت قبل ذلك نقطة انطلاق النار فى كل حرب مع إسرائيل!.. ■

«الأفوكادو» وسلع إسرائيلية أخرى في الأسواق العربية !

في نوفمبر سنة ١٩٤٣ وفي مدينة طهران التفت تشرشل إلى ستالين وقال : في زمن الحرب تكون الحقائق غالية علينا جدا لدرجة أنه من الواجب أن نحميها بجيش قوى من الأكاذيب..

أي أن المعلومات التي تتجمع لدينا أثناء الحرب يجب أن نحرص عليها وأن نحرسها بجيش من المعلومات المضادة. المهم أن نحصل عليها، وبعد ذلك نخدع العدو بمعلومات أخرى!..

وقبل ذلك بألوف السنين بعث موسى عليه، السلام إلى أرض كنعان بعشرة من رجاله يجمعون له المعلومات عن أرض كنعان أي الأرض المنخفضة - أرض فلسطين. فعادوا بمعلومات مختلفة. ولكن اثنين منهم قالا له : إنها أرض اللبن والعسل. ثم حملا إليه عناقيد كبيرة من العنب.

ولا يزال عنقود العنب الذي يحمله رجلان رمزا لوزارة السياحة الإسرائيلية. أي أن كل سائح جاسوس. لأنه يجمع المعلومات عن البلاد التي يزورها. ويعود بهذه المعلومات إلى بلاده. ولذلك فاليهود - بتكوينهم - عالميون. ومعلوماتهم كثيرة عن كل الدنيا. ولأنهم أقلية متماسكة فالمعلومات سريعة التداول بينهم. ولا يوجد عدد من اليهود في بلد من البلاد حتى تجدهم يعرفون الكثير جدا عنها وفي وقت قصير. ولايكادون يجتمعون

نشر هذا الموضوع في ١٩٨٣/١/٩

حتى يفرغ كل واحد ما عنده لدى الآخرين. وفى القاهرة - أيام تزاحم الصحفيين والسياح اليهود - كنا نرى ونسمع العجب فالذى يحدث لأى واحد منهم، يعرفه الآخرون بعد ذلك بلحظات..

وفى قصة «قارة أطلانطس الجديدة» للفليسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون نجده يبعث باثنى عشر رجلا إلى أركان الدنيا يجمعون الكتب سرا وينقلونها إلى هذه الدولة المثالية الخرافية أيضا..

وبلغة المخابرات الحديثة : ليس مهما جمع الكتب بقدر كيفية جمعها ثم كيفية خداع الآخرين بعد ذلك..

وشعار المخابرات الأمريكية المركزية هو هذه الآية من التوارة : أنت سوف تعرف، أنت سوف ترى النور..

وأهم من ذلك استخدام النور باهرا لكى يعمى الأبصار فلا ترى ما الذى جمعناه وما الذى حصلنا عليه وكيف ومتى..

وبعد، فإننا لا نعرف شيئا عن إسرائيل. ولا بد أن نعرف الكثير.

أيا كان رأيك فى إسرائيل. هل هى عدو الأمس صديق اليوم. أو هل هى عدو الأمس جار اليوم عدو الغد. أو هل هى عدو إلى الأبد أو صديق إلى الأبد ؟. لا بد أن نعرف إسرائيل ! ورسولنا عليه السلام يقول ما معناه : من علم لغة قوم أمن شرهم وكيدهم.. أى لغتهم وأسلوبهم فى الفكر والحياة والتجارة والسياسة والحرب والسلام. وقد حدث أيام المظاهرات المصرية ضد الاحتلال البريطانى أن أحرقنا كتبهم. وكان ذلك رمزا، تماما كما نحرق أعلامهم. ولكن لم نتوقف عن دراسة اللغة الإنجليزية.. ويجب ألا نتوقف عن دراسة اللغة العبرية. وهم فى إسرائيل قد جعلوا اللغة العربية إجبارية. لأنهم يعيشون فى قلب العالم العربى. ولا بد أن يعرفوا ولا بد أن تكون المعرفة سلاحا يحميهم من العرب..

وفى سنة ١٩٦٧ كان اليهود يعرفون عن مصر كل شئ. فهزمونا. وعندما عرفنا عنهم كل شئ فى سنة ١٩٧٣ هزمناهم. إن العلم والمعلومات قوة. سلاح غزو. سلاح دفاع. إنها درع فى كل الظروف. ومن لا علم له لا سلاح له. والذين يتفوقون علميا، هم الأقوى عسكريا واقتصاديا. والدولتان العظميان هما كذلك لأنهما الأقوى علميا..

وكل هذه بديهيات. ولأنها بديهيات فهى ليست كذلك عندنا. لأننا لم نستفد بعد من معارك العلم والمعلومات فى حروب الشعوب أو فى سلامها أو حسن جوارها أو

التعامل معها - منتهى الجهل أيضا!..

مثلا : قبل أن يسافر الرئيس السادات إلى حيفا بحرا، نشرت الصحف فى إسرائيل أن السيدة أوفيرا نافون حرم رئيس دولة إسرائيل سوف تعد قائمة الطعام بنفسها للرئيس وكانت وقتها مريضة. ولكنها أرادت أن يكون لها دور. ونشرت الصحف أن السيدة أوفيرا نافون قد حذفت من طعام الرئيس السادات ثمرة «الأفوكادو». ولم أكن أعرف هذه الثمرة التى نزرعها فى مصر. ولكنى سألت الرئيس السادات. وكان هو الآخر لا يعرف ذلك. وكنا نتريض سيرا على الأقدام أمام استراحة المعمورة. فنادى الرئيس السيدة جيهان السادات. وسألها واندهشت كيف إنه لا يعرف ذلك، مع أنها كثيرا ما وضعت له ذلك فى الصلطة. ولكنه لم يلحظ ذلك!..

فالأفوكادو ثمرة خضراء لها قشرة سميكة تخفى تحتها لحم الثمرة الناعم الذى له قوام الزبدة. وتحته بذرة كبيرة. وهو نبات ينمو فى المناطق الاستوائية من أمريكا اللاتينية. وهو أنواع كثيرة ربما أربعون نوعا، وينمو على الأرض الرملية وعلى الأرض السوداء. والثمرة الخضراء لها شكل الكمثرى وإن كانت أضعاف حجمها ووزنها. وقد تفوقت إسرائيل فى زراعته وتصديره إلى الخارج.. ولما وصلنا إلى حيفا بعثت من يسأل السيدة أوفيرا نافون عن السبب فى حذف هذه الثمرة من طعام الرئيس السادات. وجاء الرد بأنه لوحظ أن هذه الثمرة عندما قدمت له فى عشاء أقامه المستشار الألمانى هليموت شميت، أخرج هو هذه الثمرة من الطبق ـ أى أنه لا يحبها!..

فانتقلت هذه المعلومة الصغيرة إلى إسرائيل - إلى مخابرات إسرائيل إلى زوجة رئيس الدولة!..

ومثل ذلك عندما ذهبنا إلى بير سبع. استضافنا عمدة المدينة وهو عراقى الأصل. وبعد أن حدثنا عن المدينة وعن أثر هذه الزيارة وعن الشعور العام فى إسرائيل، فتح لنا بابا إلى غرفة كبيرة ملحقة بمكتبه وقال : تفضلوا طعام الإفطار. ثم قال ضاحكا : أعذرونى أنا لا أعرف ما الذى يأكله المصريون. ولكن سألت المخابرات فقالوا : إن هذا إفطاركم..

وكان فولا بالزبدة وبالزيت وبالزبادى وبالبيض، وكان الباذنجان المقلى والمخلل!.. ثم قال : أرجو أن نعرف منكم إن كانت معلومات المخابرات الإسرائيلية صحيحة!..

مثلا : ذهبنا مع المهندس سيد مرعى إلى أوسلو عاصمة النرويج لنشهد الاحتفال بجائزة نوبل للسلام التى منحت مناصفة للرئيس السادات والسيد مناحم بيجين. وفى

صباح ذلك اليوم تلقيت مكالمة تليفونية من السيدة ليلى نجار مذيعة التليفزيون الإسرائيلى، وهى مصرية الأصل وزوجها عراقى هو السيد يعقوب خزمة الذى كان رئيسا لتحرير جريدة «الأنباء» والمعلق السياسى المعروف. وسألتنى فى السابعة صباحا إن كان الرئيس السادات سيصل فجأة إلى أوسلو فقلت : لا أعتقد ذلك. بل أنا على يقين من أنه لن يجئ.

وكان ردها : ولكن صحيفة «الأهرام» قد نشرت شيئا بهذا المعنى. فقلت : أنا متأكد من أنه لن يجئ، ولكن سوف أسأل الأستاذ على حمدى الجمال..

وسألت المرحوم على الجمال. فاندهش جدا. وقال : أنا معك هنا، ولا أعرف ما الذى تنشره الأهرام هناك..

ثم اتصلت بى السيدة ليلى نجار تسأل عن صحة الخبر. فقلت لها إن رئيس تحرير «الأهرام» لا علم له بما نشر فى القاهرة اليوم..

وسألتها : من أين أتت بهذه المعلومات ؟ فقالت : إنها شخصيا لم تكن تعرف.. ولكن تلقت مكالمة من نيويورك لتسألها عن صحة الخبر!..

أى أن «أحدا» فى نيويورك لكى يريد أن يتحقق من خبر من «الوفد المصرى» الموجود فى النرويج، يعلم من فى إسرائيل يمكنه أن يقوم بهذا الاتصال. أى أن العلاقة بين هؤلاء المصريين فى النرويج وبين الصحفيين أو الإذاعيين الإسرائيليين معروفة بوضوح تام فى إسرائيل وفى غيرها من البلاد !..

وليست هذه إلا نماذج متواضعة لكمية المعلومات التى جمعتها إسرائيل عن مصر منذ سنة ١٩٧٧ حتى الآن. سواء عن طريق الجواسيس أو السياح الذين هم جواسيس أيضا أو الصحفيين وهم «كلاب صيد» المدربة تدريبا جيدا على «شم» المعلومات واقتنائها ووزنها ونقلها وإخفائها.. أو عن طريق «اليهود» الأجانب من كل شعوب الأرض.. أو رجال الدين أو أساتذة الجامعات..

مثلا : طلبت جامعة بن جوريون فى بير سبع إجراء حوار مع أى عدد من طلبة جامعات مصر. ولكن أحدا لم يرد على هذه الجامعة وجاء أستاذ جامعى اسمه د. حاييم جوردون وهو قد تخصص فى فلسفة «مارتن بوبر» أحد الفلاسفة الوجوديين. وكنت قد قمت بتدريسه لطلبة الجامعة فى الخمسينات. وكتبت عنه أيضا. ومارتن بوبر رجل متدين ويعتنق المذهب «الحاسدى» فى الديانة اليهودية. وجاء د. جوردون إلى القاهرة. وقابل عددا من أساتذة الفلسفة فى الجامعات المصرية وعددا من علماء النفس فى جامعة الأزهر

وعاد مرة ثانية وثالثة. فى هدوء ودون أن يدرى به أحد. وفى كل مرة يزيد عدد الطلبة المرافقين له. وفى إحدى المرات جاء إلى القاهرة ومعه أكثر من مائة طالب من جامعة بن جوريون. وأنزلهم جميعا فندق الكونتننتال. كيف؟ إن أحدا لا يعترض على أن يجئ أى عدد من الطلبة أو السياح من إسرائيل. وفى قاعات الفندق أجريت ندوات بحث علمى «تلقائى» - بمعنى أن تتكون الندوة من طلبة يهود وفلسطينيين ومصريين. وتدور مناقشة حول أى موضوع. ويحتدم النقاش دون أن يتدخل أحد. وعن طريق اصطدام الآراء والأفكار والأشخاص، يمكن رصد أعماق الشباب فى مصر دينيا وسياسيا واجتماعيا وأخلاقيا.

فما دامت مصر لا تريد أن يذهب أحد إلى إسرائيل، فلتأت إسرائيل إلى مصر!..

ومثل هذه الندوات لا تنتهى عند هذه المناقشات والمحاورات وإنما تبقى على شكل أفكار جديدة وعلاقات وصداقات وركائز للمعلومات على مستوى الطلبة والأساتذة فى كل مجالات الحياة الفكرية والجامعية. ويقال إن الطلبة المصريين الذين شاركوا فى هذه الأبحاث قد أعطيت لهم مكافآت رمزية أيضا!..

وقد حدث أن جاءت سيدة من أستراليا. هذه السيدة تقول إنها غنية جدا. ولقد امتلأ جيبها بالمال، بقدر خلو قلبها من الذى يشغله من الرجال. ولذلك؛ فقد فتحت قلبها لكل طفل من كل لون وفى كل قارة فى العالم. وأسكنت قلبها مفروشا لأطفال العالم. جاءت إلى مصر تريد أن تلتقى بالأطفال فى المدارس. وأن تعرف منهم كيف يتصورون «السلام مع إسرائيل». ولم يصدقها أحد أول الأمر. ثم رفضوا أن تتصل بالأطفال فى أية مدرسة. ولكنها اهتدت إلى حل مأمون مضمون. وهو أن يدخلوها أى فصل فى أية مدرسة. ولن تفتح فمها بكلمة واحدة : ثم توزع على الأطفال ورقا أبيض وأقلاما. وليقل أى أحد لهؤلاء الأطفال : كيف يتخيلون السلام بين السادات وبيجين؟..

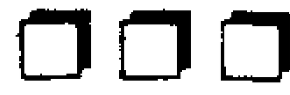
ثم إنها راضية بالنتيجة بعد ذلك. ووزعت الأوراق وأمسك الأطفال الأقلام وراحوا يرسمون «أى» شئ.. وجمعت السيدة الأسترالية مائة ورقة وأقامت معرضا للسلام عند الطفل فى مدينة كانبرا عاصمة أستراليا.

ولا يمكن إحصاء عدد الأدباء والشعراء والرسامين والنحاتين والفنانين الذين جاءوا وذهبوا..

وفى إسرائيل نفسها حدث الذى لا نعرفة ولا نفهمه ولا نقدره. ولكن السلام مسألة حياة أو موت. والحياة ليست قضية مسلما بها فى إسرائيل. فلا يوجد أحد على يقين من

أنه سوف يعيش غدا. إنهم قد جاءوا من بلاد كثيرة. وحياتهم فى إسرائيل لا تزال مهددة. فهم لا يعرفون الأمان. ولا عرفوه. فهم نباتات برية شائكة اقتلعت من كل أرض وغرست بالقوة فى فلسطين. والخوف من اقتلاعهم هو كابوسهم الأبدى.. ولكننا نحن هنا. لم نكن فى غير هذا المكان من ألوف السنين. نحن لم نعرف إلا الأمان.. حتى فى ظروف الحرب، لم نأخذ الحرب مأخذا جادا. ولا أنها خطر يهددنا. إنما واجهنا الحرب كما نواجه رياح الخماسين برمالها الصفراء وهوائها الساخن الذى يكوى العيون ويسد الأنوف.. فقد هبت قبل ذلك. وكم جاءت ذهبت ! وكذلك الجيوش الغازية، هى «خماسين» أيضا.. وكل هذه الرياح تحاول أن تدفن شعب مصر. ولكن مصر مقبرة الغزاة من الجيوش والعواصف!..

ولم نفعل شيئا من مثل ذلك. فإن أحدا لم يذهب إلى إسرائيل، يبحث عن المعلومات والتجارب ويجمعها لنحللها، ونتخذ قرارا بشأن هذه العلاقة بين الشعبين أو الدولتين. أى أن هذه المعلومات ضرورة حيوية لكل من يتخذ قرارا فى السياسة والاقتصاد والحرب والسلام. وإلا فعلى أى أساس يكون القرار المصرى ؟..



نوع آخر من المعلومات الخطيرة، حصلت عليها إسرائيل. ولم تكتف بذلك، إنما قامت «بتسريبها» إلى الصحف. وكان المعنى هو: أن إسرائيل قد أصبحت ذراعها طويلة..

فقد نشرت الصحف الإسرائيلية صورة لخطاب بعث به د. بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية إلى السفراء يطلب فيه السير على مهل فى تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل - وكان هذا الخطاب «سريا جدا» ولكن الهدف المقصود هو كشف الخارجية المصرية التى تعلن كلاما وتفعل شيئا آخر. وفى نفس الوقت إرهاب الدبلوماسية المصرية، أو كان المعنى : أن إسرائيل تعرف كل ما يجرى وراء ماكتب الوزراء، مهما حاولنا إخفاء ذلك..

ومرة أخرى فى لقاء السيد كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ود. بطرس غالى مع السيدين إريل شارون وزير الدفاع وإسحاق شامير وزير الخارجية. أخرج شارون نص محضر مجلس مدينة بنى سويف الذى يطالبون فيه بمقاطعة كل السلع الإسرائيلية! أى أن هذه وثيقة جاءت من الصعيد تكذب ما يقوله الرسميون المصريون عن السلام والتطبيع وعلاقة حسن الجوار!!..

وفى يوم فوجئنا بأن مطربة إسرائيلية اسمها هدبة عمران نزلت فى فندق «ميرديان». هذه المطربة جاءت إلى القاهرة يوما واحدا. وذهبت إلى مبنى الإذاعة وسجلت أغنية. ثم

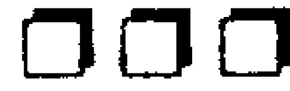
عادت إلى بلادها؟!

وأذكر أننى أتصلت بالفريق محمد سعيد الماحى رئيس جهاز المخابرات أسأله عن كيف تم ذلك. وعرفت منه من هى ومع من جاءت. ومن الذى يجلس معها الآن يلحن لها..

أما الباقى فقد تمكنت من معرفته. وهو أنها عن طريق إحدى موظفات شركات السياحة المصرية التقت بها فى باريس واتفقت معها على كلمات الأغنية العربية - مع أنها لا تعرف كلمة عربية واحدة واتفقت معها على الملحن الشاب المجهول شاكر شعيشع. وأعطت الكلمات لها وللملحن المصرى. وحفظت هى الكلمات. ثم جاءت تتدرب على اللحن. وتم التسجيل فى مبنى الإذاعة دون أن يدرى أحد بذلك. وعادت إلى أمريكا. ولم نسمع أن هذا اللحن قد أذيع فى أى مكان!..

وعرف شارع الهرم أكثر من راقصة جاءت من إسرائيل..

وحوادث أخرى..



وكان الموقف المصرى من إسرائيل تجاهلا لأسلحة هامة يجب أن تكون فى حوزتنا. يجب أن نجمع المعلومات. والدول كلها فى حروب مستمرة من أجل المعلومات عن الأسلحة والعقول الألكترونية وسفن الفضاء. ولذلك فكل أجهزة المخابرات تضم أكبر عدد ممكن من العلماء يعملون لحساب الدولة فى الداخل والخارج..

وقد أفلحت الدول الكبرى فى استخدام عباقرة العلوم فى التجسس لحسابها. وعباقرة علماء الذرة جواسيس مدربون لأن الهدف هو : القوة. والقوة هى العلم. ولا علم بلا معلومات. ولا معلومات دون أن يسعى أحد إليها ويقتنيها ويخفيها.

وإسرائيل قد نسفت أحد العلماء الألمان المتخصصين فى صناعة الصواريخ المصرية. لأنه قوة. وإسرائيل سرقت إحدى محطات الرادار المصرية من شاطئ البحر الأحمر. وهى الآن تساوم أمريكا على «المعلومات» التى حصلت عليها من حربها ضد سوريا - أى ضد الأسلحة السوفيتية المتطورة. فأمريكا لم تستخدم أسلحتها إلا فى المناورات. أى استخدمت أسلحتها ضد أسلحتها، ولم تستخدمها ضد الأسلحة السوفيتية.. ولذلك فليست لديها معلومات عن مدى فعاليتها وعن عيوبها وعن قدراتها. وهذا قد توافر لإسرائيل. كما أن لدى إسرائيل كميات هائلة من الأسلحة السوفيتية لا بد أن تستفيد منها فى تطوير أسلحتها وفى بيعها لأمريكا..

ولكننا لم نفعل شيئا. ويبدو أننا سنبقى كذلك. فعدد المصريين الذين ذهبوا إلى

إسرائيل يعادل واحدا على ٥٠٠ من الإسرائيليين الذين جاءوا إلى مصر. وواحدا على ألف من اليهود الذين زاروا مصر. فالصحفيون الذين ذهبوا إلى إسرائيل قليلون وكذلك المهندسون الزراعيون والتجار.. إذن فكيف يمكن أن نعرف «العدو الإسرائيلى» أو «الصديق الإسرائيلى».. كيف نحكم على إسرائيل حكما غيابيا.. كيف نكون جادين فى الصداقة أو العداوة فى الحرب أو السلام، إذا كنا جميعا نتحدث عن إسرائيل وكأننا نعرفها تماما، مع أن أكثرنا لم يقرأ ولم ير ولم يذهب ؟ كيف يكون القرار صحيحا إذا كانت المعلومات قليلة أو خاطئة.. كيف يكون الحكم مضبوطا إذا كانت الحيثيات وهمية ؟ كيف نخدم مصر عندما نجلس على مقاعد الفتوى فى الصراع العربى الإسرائيلى، ونحن لا نعرف عن الجانب العربى إلا القليل، ولا نعرف عن الجانب الإسرائيلى إلا أقل القليل ؟ إن المجتمع الإسرائيلى معقد جدا. ولذلك فليس من السهل فهم هذا المجتمع. إنما ذلك يحتاج إلى وقت طويل وصبر عميق ومتابعة للأحداث وللمقالات والأبحاث الهائلة التى تصدر فى إسرائيل وعنها - هذا إذا كنا جادين فى العداوة والصداقة!.

ولذلك فأكثر المحللين السياسيين للأوضاع المعقدة بين البلدين يغلب عليهم الطابع الفلسفى الغيبى - أى بالمعنى القديم للفلسفة، فقد قيل إن الفلسفة هى : أن يبحث إنسان فى غرفة مظلمة عن قطة سوداء!.. فهو يسمعها ولا يراها. ولذلك فهو يكتب كلاما فى مثل ظلام الغرفة والقطة. مع أن النور متاح للجميع. والنور هو المعلومات. وكما أن هناك نورا فهناك نور مضاد أيضا. وأنت تستطيع أن تلاحظ ذلك وأنت فى الطريق الصحراوى ليلا عندما تضئ النور الباهر، فتقابلك العربات المواجهة لك بالنور الباهر.. فتظلم الدنيا أمام عينيك من شدة النور ! تماما كما تفتح عينيك فى قرص الشمس فكل شئ يصبح أبيض.. أى تنعدم كل الألوان فلا ترى شيئا !..

ويقال إن العالم الرياضى الكبير أينشتين سئل فى إحدى المرات عن تفسير «سريع» لنظرية النسبية الشديدة التعقيد. وقد ضايقه السؤال بهذه الصورة. فهى صعبة وليس فى وسعه أن يأتى بإجابة سريعة. ثم إن صعوبة هذه النظرية لا يدل على غموضها، أو على عجزه عن توضيحها، فقال : إن رجلا أعمى قدموا له كوبا من اللبن والعسل فتساءل الأعمى : ما هو اللبن ؟.

فقيل له : إنه سائل أبيض.

قال : أنا أعرف السائل ولكن لا أعرف معنى أبيض.

فقيل له : الأبيض هو لون ريش أبو قردان.

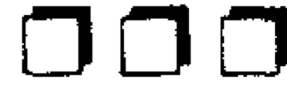
فقال : أنا أعرف الريش ولكن لا أعرف أبا قردان.

قيل له : إنه طائر له عنق طويل مقوس.

قال : أنا أعرف العنق ولكن لا أعرف معنى كلمة مقوس..

قيل له : أنشر ذراعك إلى الأمام.. ذراعك الآن مستقيمة.. أضم ذراعك إلى جسمك.. ذراعك الآن مقوسة..

فقال الأعمى : الآن عرفت معنى كلمة أبيض !..



إننا - إذن - لم نستفد من السلام مع إسرائيل فى أى مجال من مجالات الحياة والعلم، فلا عرفنا كيف حاربنا، لأن أحدا لم يكتب لنا الحروب المصرية الإسرائيلية، ولا عرفنا شيئا عن السلام، فلا أحد قد سجل لنا ماذا حدث وكيف حدث ؟ وما هو المستقبل ؟ ولا عرفنا كيف أقام اليهود مستوطناتهم.. تلك «الكيانات» الشيوعية الصغيرة الكيبوتس أو «الكوميونات» أو التعاونيات التى ظهرت فى القرن الأول الميلاى على شواطئ البحر الميت عند جماعة من اليهود اسمهم «الأطهار»؟

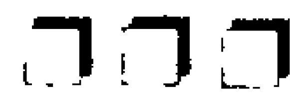
ولا كيف تفوق اليهود فى مجالين : الحرب والزراعة.. فلم يكن لهم جيش، لأنه لم تكن لهم دولة.. ولم يعرفوا إلا التجارة والسمسرة فلم تكن لهم أرض. وكذلك كانوا لا يشترون البيوت فهم لا يستطيعون الهرب بها إنما يشترون الذهب والسفن لسهولة الفرار بها.. ولما كانت لهم الأرض زرعوها، وحرسوها.. ولا نعرف كيف استغلوا الأرض الضيقة وصدروا فائض إنتاجها وهو كثير إلى أوروبا وأفريقيا.. وكيف صدروا إلى مصر البيض والكتاكيت والموز.. وعلى استعداد لأن يفعلوا أكثر.. ولا خوف على أى شئ فى مصر من إسرائيل.. إنهم لن يدخلوا إلا بإذن منا، من الأبواب الشرعية فى التجارة والصناعة. ولكن يجب أن نعرف.. يجب أن نرصد.. إن اليابان تقدمت الدول الصناعية فى الدنيا، لا أحد يخيفها الآن إلى كوريا الجنوبية. فهى لا تخاف أمريكا وفرنسا وألمانيا. فقط كوريا الجنوبية. لأن كوريا الجنوبية قد عرفت سر الصناعة اليابانية والعامل اليابانى.. وهى كذلك تشعر بأن الخطر يأتيها من أقرب الدول إليها، والسبب : المعلومات والعلم.. الرصد المستمر لكل ما هو يابانى فى الصناعة والتسويق والتجارة والعمالة.

أما نحن فلم نفعل شيئا. لا زار كثيرون منا إسرائيل ولا لبنان ولا صابرا وشاتيلا ولا خالدة ولا كريات شمونه.. ولا حتى السد العالى ولا خط بارليف - فقط لنعرف ونفهم!..

وما زالنا نرفض السلام ونرفض الحرب. نرفض الاستفادة من الحرب، ونرفض الاستفادة من السلام. وإذا كانت إحدى الدول العربية قد قررت مقاطعة الفواكه اللبنانية لأن لبنان قد صدر إليها ثمرة «الأفوكادو» الإسرائيلية، فإن الدول العربية ومن بينها مصر، قد امتلأت أسواقها بالسلع الإسرائيلية منذ وقت طويل وهى جميعا لا تدرى ! وبالسلع اليهودية أيضا.. مثلا : محلات ماركس واسبنسر فى لندن، أكثر المحلات الإنجليزية شعبية عند العرب، وأكثرها تعرضا لسرقات العرب، قد ساهمت فى بناء دولة إسرائيل. لأن أصحابها من اليهود المتعصبين للدولة اليهودية..

ومثل هذه المحلات اليهودية كثيرة جدا فى كل العواصم الأوروبية. وقد انتقلت بضائعها إلى كل الأسواق وأجساد الرجال، وإلى وجوه النساء : أحمر للخدود والشفاه، وأسود للعين، وذهبا والماسا..

وليس أسهل من تحريم «الأفوكادو» زراعة وتجارة. ولكن ما الذى استفدناه من ذلك وما الذى استفدناه من غير ذلك من المواقف السلبية الرافضة للعلم والمعرفة ؟!.



وبعد نكسة ١٩٦٧ أقمت معرضا تنقلت به بين العواصم المصرية والعواصم العربية وكان شعار المعرض «أعرف عدوك». وكنت ولا أزال مقتنعا بأننا فى سنة ١٩٦٧ دخلنا حربا لا نعرف فيها عدونا، ودخلها عدونا وهو يعرفنا.. فكان لنا ما نستحقه. وكان له ما يستحقه. دفعنا ثمن الجهل، وفاز هو بثمرة المعرفة. وكان المعرض يضم كل الكتب التى صدرت عن إسرائيل واليهودية وضد الصهيونية ومع القضية الفلسطينية..

والآن تيسرت كتب كثيرة عن هذه القضايا. ولكن الأسف لا ينتهى إذا عرفنا أن كل هذه الكتب امتلأت بها مكتبات الدنيا وبكل لغاتها، بأقلام يهودية؟.. ومعنى ذلك أننا حكمنا على أنفسنا حكمين قاسيين : ألا نعرف إسرائيل. وإذا أردنا أن نعرف كان ذلك بقراءة كتبها وليس برؤية أرضها وناسها!! ■

فما الذى حققه القذافى وآخرون ؟!

نظرية فى علم النفس الجنائى تقول: إن أصابع المجرمين ناعمة وأصواتهم أيضا!..

وإنهم لذلك يقاومون هذه الأنوثة ويتظاهرون بالرجولة.. ويبالغون فيها بالعنف. ويدفعهم العنف إلى القتل..

أصابع الزعيم الألمانى هتلر كانت تحفة أنثوية..

والامبراطور السفاح نيرون كانت له كتفان ناعمتان مستديرتان ولم تنبت على جانبى وجهه شعرة واحدة.. ويوم أحرق روما بكى عليها.

وكان صادقا فى ذلك.. فقد أفزعته النيران وصرخات الأطفال والأمهات.. فلم يتصور أن أوامره لها هذه القوة التدميرية.. ولا أن العذاب له هذا الكورس من الآهات والزفرات..

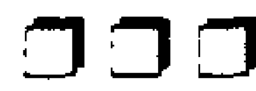
والسفاح الامبراطور كاليجولا كان يجد متعة فى شنق نوعية واحدة من البشر: الشعراء.. وكان يطلب إليهم أن يرتجلوا الشعر وأن يغنوه ويرقصوه.. ثم أن يقفزوا من شرفة عالية: ويعطوه بعض الوقت لكى يبكى عليهم واحدا واحدا. وكانت دموعه حقيقية وحزنه صادقا. فهو يقتل الشعراء ليبكى عليهم. ويبكى عليهم ليتعذب بهم. ولم يكن يكفيه أن يصفع نفسه ليبكى، أو يضرب رأسه فى الحائط، فتلك آلام حسية، وهو لا ينشد إلا الآلام النفسية المبرحة!..

وكل الإرهابيين الذين أوقعهم البوليس عندما حاكمهم اكتشف أنهم فى غاية الرقة. ولكن الظروف قست عليهم: جعلت الملاعق فى أيديهم سكاكين، ثم حولت أفواههم الصغيرة عن صدور أمهاتهم، فقرروا أن يحرموا كل طفل من لبن أمه.. أو يقضوا على الأمهات، فيكون أطفال بلا رضاعة، أطفال يكرهون الطفولة والأمومة!..

وكل الدراسات التى صدرت عن الإرهابى الفنزويلى كارلوس تؤكد أنه شاب رقيق لطيف لم تنبت شعرة واحدة فى وجهه.. ولم يعرف له أحد أية مغامرة نسائية. بل أنه كان ينفر من الجلوس إلى الفتيات، ويقال إنه ذهب إلى طوكيو فجلست إحدى فتيات الكباريه على ساقيه فأخرج مسدسا من جيبه فصرخت وكل الناس.. ثم هرب!.

تقول الكاتبة الإيطالية أوريانا فالاتشى بعد أن قابلت القذافى: أنه ابن الصحراء الذى لم يطلق النار على عصفور أو غزالة.. وإنه لو قدر له أن يختار مهنة أخرى غير الجيش، لكان رساما أو موسيقيا!..

وهو الآخر له أصابع ناعمة!.



فما الذى يريده القذافى؟.

هل يريد أن يلفت الدنيا إليه..

أو يريد أن يخيف الشعب الليبى، وذلك بأن يقتل وينسف ويرهب شعوبا أخرى..

أو صاحب فلسفة يريد أن يفرضها بالقوة على العالم، ولا يهمه أين يطبق هذه الفلسفة فى أيرلندا أو الفلبين أو مصر!..

المهم أن يتحدث عنه العالم كله، ويكون هذا الحديث العالمى، قوة ضاغطة على الشعب الليبى..

أو أنه يعذب نفسه بالخوف.. لأنه كلما أخاف شعبا من الشعوب، تآمر هذا الشعب عليه.. وفى العالم عشرات الشعوب تريد أن تفتك به.

وهذا يضاعف خوفه وقلقه على نفسه وعلى أولاده.. ويجعله يشك فى كل الذين حوله فلا أمان له فى بيته أو فى بلده أو فى أى بلد آخر يذهب إليه.. وعلى الرغم من أنه نصب نفسه شيطانا يهدد العالم كله، فانه بينه وبين نفسه أكثر الناس خوفا وعذابا.. ومادام لا يستطيع أن يهدم الدنيا، فهو يهدم نفسه.. إنه شمشون الذى يهدم أعمدة المعبد فوق رأسه.. ومعبد القذافى هو القذافى نفسه!..

وسوف تكون للقذافى فصول فى كتب النفس والأمراض العقلية والعصبية.. ولكن

أهم الأبواب التى سيدخل منها القذافى التاريخ العالمى: الإرهاب الرسمى أى الإرهاب الذى تتولى الدولة الإنفاق عليه.. والإرهاب قديم.. ولكنه يتخذ صورا مختلفة من عصر إلى عصر، ومن بلد إلى بلد.. فالإرهابى هو البطل المجرم. أى هو الإنسان الذى يتخيل أنه بطل فى قصة من صنعه هو.

أو أنه هو الذى يريد إصلاح الكون بالعنف فهو صاحب الفلسفة وصاحب القنبلة أيضا..

والإرهابى هو هذا الرجل الذى يذهب وحده ليقتل وليموت أيضا.

وبعض الإرهابيين لهم قضايا.. فهو ذلك المثالى الذى يريد أن يحقق العدل بمنتهى الظلم.. وهو الذى يريد أن يفرض الأمان بالقلق..

وفى أوربا جماعات إرهابية من كل نوع: اقتصادية وسياسية ودينية.. أو الإرهابى هو: ذلك الفتى المتعصب لمذهب أو لدين. ويرى أن مذهبه هو الصحيح. وكل المذاهب الأخرى باطلة وأن واجبه أن يفرضه على كل المذاهب بالقوة، والقوة هى السلاح.

وتحت جلد كل متعصب يوجد شخص إرهابى!..

والإرهابيون أنواع:

فالطلبة الصغار الذين يضيقون بالدراسة ويتعبون فى المواصلات والسكن. والذين لا يعرفون ما هو مستقبل الدراسة، أو ما قيمتها، من السهل جدا أن يلقوا بالكتب ويحملوا السكاكين والمسدسات. فعلوا ذلك فى أوروبا وأمريكا.

ومن الممكن أن يكون العامل الذى يشقى ويتعذب ولا يستطيع أن يكسب بعرقه ما يغنيه عن التسول.. وهو لذلك ساخط على عمله وعلى مصنعه وعلى صاحب المصنع وعلى الدولة التى تحتفظ بهذا النمط من العمل والإنتاج.. ومن الممكن أن يكون من بين أبناء الأقلية.. الأقلية الدينية أو الأقلية اللونية.. وإحساسه بأنه من الأقلية معناه أن الأغلبية قد حكمت عليه قبل أن يولد. وأدانته قبل أن يفعل شيئا، ولذلك فقد وضع السخط وكانت حضانته الانتقام. ولذلك فأبناء الأقلية حريصون على أن يبذلوا جهدا مضاعفا لكى يتفوقوا، لأنه مادام من الأقلية فالمجتمع لن يغفر له الخطأ. فهو حريص على ألا يخطئ. ولكن من بين الأقلية من يحرص على أن يكون أقوى ويكون أعنف، وفى ذلك تأكيد لذاته. وتكثيف لأعماقه.

وفى القرن التاسع عشر فى روسيا كانت البنات أبرز الإرهابيين وأعنفهم. وكذلك فى ألمانيا المعاصرة: عصابة بادر ماينهوف.. والفتاة الأمريكية ابنة ملك الصحافة: باتى

هيرسيت.. فالفتيات لديهن الإحساس بأنهن أقليات أو أنهن ملونات - لا دور لهن ولذلك يجاهرن بهذا الدور وبمنتهى العنف..

وفى الجماعات الإرهابية اليهودية: ارجون واشترن وهاجانا.. كان اليهود الشرقيون هم الذين يسيطرون عليها. ويدفعون بها إلى أقصى درجات العنف.. لأن اليهود الشرقيين مضطهدون ومحتقرون من اليهود الغربيين.. وحتى فى حركة التحرير الفلسطينية تجد أن أكثرهم تطرفا وعنفا المسيحيين: جورج حبش ووديع حداد ونايف حواتمة..

وطبيعى أن يكون الفاشلون والعاجزون واليائسون أكثر الناس استعدادا لحمل القنبلة والمسدس وإطلاقهما على الناجحين والأغنياء والآمنين..

وكذلك الساخطون على كل شئ، دون أن تكون لهم قضية. إنهم رافضون لكل الذى حولهم. وإن لم يكن لديهم علاج ذلك.. فهم يائسون من العلاج. ويكون الانتقام من واحد أو اثنين تأكيدا لعجزهم عن قتل كل الناس!..

واللاجئون السياسيون من السهل أن يكونوا كارهين للدولة التى آوتهم.. فعلى الرغم من أن الدولة قد أعطتهم الطعام والشراب والسكن.. فهم يحسدون الآخرين المستقرين فى بلادهم، والذين لم يبذلوا جهدا فى أن يتحقق لهم الأمان والاستقرار والطعام، فهم نموذج لمن يعض اليد التى تطعمه ويهدم البيت الذى يسكنه، فيتآمر على الذين أعطوه.. لأنهم أصحاب فضل عليه. وهو يكره أن يكون مدينا لأحد.. ويكره أن تضطره الظروف إلى أن يشكر كل الناس!..

ويكون إرهابيا من يزهد فى الحياة، ويضيقون بالذين يدوسون الآخرين من أجل أن يتقدموا ويعتصرون العمال والفلاحين لكى يكسبوا.. ويسدون أبواب السماء أمام كل الناس، حتى لا ينظروا إلى الله، إنما إلى مواطئ الأقدام: أقدام الأغنياء والأقوياء..

وكثير من الإرهابيين الذين سرقوا البنوك، وأتيحت لهم فرص التخفى وقتا طويلا، لم يوسعوا على أنفسهم فى المأكل والمشرب. إنما احتفظوا بالفلوس تحت البلاطة.. واتجهوا إلى سرقات أخرى!. إذن فلم يكن هناك هدف شخصى للإرهاب.. إنما هو الانتقام والسخرية من المؤسسات ومن أجهزة الأمن.. وهى دعوة لآخرين كثيرين أن يفعلوا نفس الشئ!..

وفى دراسة لمائة من علماء النفس والمجتمع الأمريكان عن حرب فيتنام وأثرها على الشباب اهتدوا إلى أن العنف ينبع من مصدر واحد هو : الإحباط.. أو الشعور بالفشل!..

أى فشل الإنسان أمام نفسه، وفشله فى عمله، وفشله الاجتماعى. فمن هذا الشعور بالهزيمة والقهر تتولد لديه الرغبة فى الانتقام من نفسه، بالانتحار أو الإدمان، أو دعوة غيره إلى أن يحذف نفسه من المجتمع أيضا.. وكل ما تعانيه المجتمعات الصناعية الكبرى أمريكا واليابان وألمانيا وفرنسا وبريطانيا من اختفاء العلاقات العائلية أو العلاقات الإنسانية، يؤدى فى النهاية إلى شعور الجميع بالإحباط.. أى بالفشل واليأس من أن يكونوا أزواجا ناجحين أو أبناء سعداء.. أو تكون الأسرة الدافئة، نواة لمجتمع إنسانى ودولة آمنة مستقرة..

وهناك سبب آخر وجده العلماء الأمريكان أيضا هو: أن الشعب الأمريكى قد أدمن التفاؤل. فهو عظيم الأمل فى كل شئ. وهو على يقين من أن آماله سوف تتحقق. فأمريكا كانت ملاذ الخائفين والمضطهدين والجائعين، وهى أغنى وأقوى دولة فى العالم، فكما انهزمت أمريكا فى حرب فيتنام ومات فيها مئات الألوف.. ويوم استخدمت القنبلة الذرية فى حرب اليابان كان انتصارها إهانة لها. فهى لم تستطع أن تنتصر على اليابان بالأسلحة التقليدية، فاستخدمت سلاحا وحشيا للانتصار عليها.. فكأن أمريكا انهزمت مرتين: مرة فى حربها مع اليابان ومرة فى حربها فى فيتنام.. ثم إن المواطن الأمريكى، رغم ما يقدمه من مساعدات لأكثر دول العالم، فهو شخص مكروه.. فكأن أمريكا قد انهزمت فى كل الجبهات.. فهى إذن الدولة التى تخفى شعورها بالإحباط القومى.. وهى فى نفس الوقت تستنكر أن يصاب شبابها بالإحباط.. مع أن إحباط الشباب، ليس إلا صدى لإحباط الآباء والأمهات وكل المؤسسات الصناعية والسياسية والعسكرية!..

ولا يزال الإرهاب سلاحا قويا، ولا أحد يعرف كيف نقاومه، لأن أحدا لا يعرف أين يختفى الرجل الإرهابى. ولا كيف دخل البلاد ولا من الذى ساعده بالمعلومات والأموال.. فإذا قرر إنسان - مثلا - بينه وبين نفسه أن يغتال أحدا، فكيف نعرف ذلك.. وكذلك إذا قرر ثلاثة أو أربعة..

أما الحروب فيمكن التنبؤ بها.. بل إن الحروب الاهلية يمكن الإحساس بها وتوقعها.. إلا الإرهاب أو الاغتيال.. فليس من السهل الإحساس المسبق بذلك.. أى استشعاره عن بعد!..

ولذلك فسوف يبقى الإرهاب، لأن الأسباب التى تدعو إليه موجودة فى كل مكان.. فهناك الغضب والسخط والقلق والرغبة فى الانتقام.

ويختفى الإرهاب إذا لم يعد فى الدنيا قلق، ولم يعد فيها فشل - وهو حلم بعيد المنال!..

وعلى الرغم من أن الإرهاب الدولى لم يحقق هدفا، ولم يقنع الأغلبية بأنه الأسلوب الوحيد لفرض قانون الموت، أو ليحقق العدل والحرية، فإنه سوف يبقى ويتطور مع أسلحة الدمار من عصر إلى عصر.. صحيح أنه لو اغتيل نابليون فى مصر ١٧٩٨ أو هتلر فى ميونخ سنة ١٩٢٣ لتغيرت الخريطة الأوربية. ولكن هذا التغيير لا يحدث عادة إلا فى الدول ذات النظم الشمولية. أما الدول الديمقراطية فالبقاء للمؤسسات. فإذا سقط فرد قام فرد آخر.

وأكملت الدولة مسيرتها فى كل المجالات.. والذى يفعله القذافى هو الإرهاب الذى تحميه الدولة وتجاهر بذلك. وهذا الإرهاب ينقل نشاطه من مساندة ثوار أيرلندا إلى مسلمى مندناو فى الفلبين إلى مساعدة أبناء الباسك فى انفصالهم عن إسبانيا، وأبناء كورسيكا تشجيعا لهم لكى ينفصلوا عن فرنسا.. ولكن الرئيس الليبى لم يحقق شيئا واحدا.. اللهم إلا اغتياله لخصومه فى السياسة اللاجئين والهاربين فى كل مكان..

والرئيس القذافى هو نموذج للبطل الفاشل.. فلو اقتصر نشاطه على خدمة بلاده الغنية، لحقق ما عجز عنه الرئيس جمال عبد الناصر، مثله الأعلى.. والله أعلم إن كان عبد الناصر حقا صاحب العبارة التى أصابت القذافى بالجنون. فيروى عن الرئيس عبد الناصر أنه قال: إننى أرى فيه شبابى!..

وحاول الرئيس القذافى أن يكون شباب جمال عبد الناصر، وأن يجلس على مقعده، وأن يحكم مصر أو يقتسم هذا الحكم بوخدة اندماجية بين البلدين.. وأن يشترى هذا المقعد بالبترول. فإذا تمكن من ذلك أعلن نفسه رئيسا على مصر وليبيا.. وعاد الليبيون إلى حكم مصر - فيكون القذافى هو شوشنق الجديد، بعد شوشنق الذى يقال إنه حكم مصر.

أما إذا رفضت مصر ذلك شعبا وحكومة، فالويل للشعب المصرى.. ولكل ما هو مصرى. وقد حاول القذافى بالفلوس، فلم يفلح، وحاول بالاجتهاد الدينى، فكان كتابه الأخضر الذى هو تحريف للدين الإسلامى، لعله يحكم الأمة العربية على مرحلتين: مرة من النيل إلى الفرات، ومرة من الخليج إلى المحيط.. ولما لم تطاوعه الأمة العربية والإسلامية أعلن أنه سيقاوم الإلحاد فى كل مكان. فلما مات رواد الفضاء الروس على الأرض بعث برقية للقيادة السوفيتية يقول فيها: لكى تعلموا أن الله حق!..

وأعلن الرئيس القذافى أنه لن يستريح قبل أن تدخل بلاد الصين دين الله - ألف مليون شيوعى!..

ولم يكشف الرئيس القذافى عن مخططه فى تحويل الصين إلى الإسلام!..

ومن المناسب أن أروى مشهدا أخيرا من مسرحية الكاتب الاسبانى أرابال - إحدى مسرحيات «العبث» أى اللا معنى.. اللا منطق.. اللا فائدة.. اللا مسرح. المسرحية عنوانها : «من الذى يدق أجراس الكنائس فى الشمس؟!».

فى المشهد الأخير للمسرحية يجد «البطل» نفسه وحيدا يتساءل: أين الشعب؟

ويرد على نفسه : لا شعب..

ويتساءل : أين الجمهور؟..

وينظر إلى صالة المسرح ويقول : لا جمهور!

ويضحك ضحكة هستيرية ويرتاد المسرح ذهابا وإيابا ويتمرغ على الأرض ويقول: يريدون ألا أكون بطلا يتحدث إلى شعب أمام جمهور.. يريدون ألا أقاضى الناس جميعا، فلا أصدر عليهم حكما بالإعدام.. ولكنى بطل رغم أنف الجميع.. أنف المؤلف والمخرج والمتفرج والناقد والتاريخ.. انظروا.. انظروا..

ويخلع الجاكته ويكتب عليها بالقلم : الشعب.. ويقلع البنطلون ويكتب: عليه: الجمهور..

ويكتشف أنه عريان تماما. ويقول: هذه هى الحقيقة العارية.. وحتى لا يظن أحد أنى جبان.. ويمسك السيف ويقطع أذنه ويقول: هذه هى الشعب..

ثم يقطع أنفه ويقول: وهذا هو الجمهور.. والدم الذى ينزف من وجهى دليل على هذه «الوحدة العضوية» بين البطل والجمهور والشعب.. وإذا لم يجد أحد من النقاد أننى قد ضحيت من أجل الصدق والاندماج فى الدور، فسوف أقطع لسانه.. هكذا..

.. ثم يقطع لسانه..!..

وينزل الستار على البطل المجنون الذى ينزف دما - بلا قضية ولا معنى ولا هدف..!

لو كنت أعرف وسيلة لإرسال هذا النص المسرحى للرئيس معمر القذافى، لفعلت.. ولكن أعتقد أنه ليس فى حاجة إلى هذا النص، حتى يتأثر به أو يقتبسه. إننى على يقين من أن الرئيس القذافى سوف يقفز كما فعل الشعراء أمام الامبراطور كاليجولا.. سوف يغنى مثل الامبراطور نيرون وليبيا تحترق.

وبعد ذلك لا يبقى أمامه إلا اغتيال أعدى أعدائه: القذافى!.. ■

عندما قرر الرئيس السادات زيارة الرياض.. والقدس للمرة الثانية !

على مائدة العشاء في حيفا جلست مع السيد حسن التهامي والسيد موشى ديان وزوجته، واقترب منى موشى ديان ليسألنى : لا بد أن أسأل الرئيس السادات لماذا قرر أن يزور القدس ؟ إننى فى حيرة من أمر هذا الرجل !

وعندما التقى موشى ديان بالرئيس السادات فى الإسماعيلية سمعته يقول : سيادة الرئيس : أريد أن أعرف منك لماذا وكيف ومتى قررت أن تزور القدس؟!

وكان الرئيس السادات يسعد بهذا السؤال. ومصدر سعادة الرئيس أن ديان يعرف كل مقدمات الزيارة، والكثير من الأسباب التى أدت إلى ذلك. ولكن يبدو أنه لا يجد هذه الأسباب تكفى لأن يقوم الرئيس السادات بهذه المبادرة. ولم يكن ديان يريد أن يقول للرئيس السادات إن هذه الزيارة جاءت هى الأخرى، مثل حرب أكتوبر مفاجأة كاملة للحسابات السياسية. وإنما فقط يريد أن يعرف : ما هى الأسباب المباشرة التى جعلت الرئيس السادات يقرر فورا أن يذهب إلى القدس ؟.

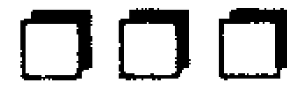
وكان الرئيس السادات يجد متعة أخرى فى أن يقول : لا أعرف بالضبط. ولكن وجدت فى لحظة ما، أنه «الآن وإلا فلا»..

ويعود ديان يسأله : متى قررت ذلك يا سيادة الرئيس؟.. متى بالضبط ؟.. فقد تناقشنا طويلا فى إسرائيل مع رجال السياسة والأحزاب والمخابرات. وأعتقد أن أصدقاءنا

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/١١/٢١

الأمريكان قد فعلوا ذلك.

ثم يضحك ديان ليقول : على كل حال ليس من شأن الذين يصنعون القرارات المصيرية أن يفكروا فى ذلك كثيرا.. أنها مهمة المؤرخون وفلاسفة السياسة.. يكفى أنك قررت ونفذت وغيرت مسار التاريخ فى الشرق الأوسط.



والذى يقال عن مثل هذا القرار. ينطبق على قرارات أخرى مصيرية ولا بد أن يعود المفكر السياسى إلى وسائل ملموسة لتقريب هذه المعانى إلى نفسه وإلى القارئ. ففى مبادئ الطبيعة والكيمياء نعرف أنه من الممكن أن نلقى بنوع من الملح فى سائل، ونظل نلقى بالملح حتى نصل إلى لحظة معينة يتحول السائل فيها إلى كتلة مشبعة بهذا الملح.. متى حدث التشبع ؟ حدث فى لحظة مع إلقاء ذرات من الملح.. ومن الممكن أن نضع إناء به سائل على النار.. وترتفع درجة الحرارة تدريجا. وفجأة يغلى السائل ويتحول إلى بخار. متى حدث ذلك؟ بالارتفاع المستمر فى درجة الحرارة..

أو نذهب إلى أعمق من ذلك - وهذا ضرورى فى مواجهة مثل هذه القرارات الحاسمة فى التاريخ. فالفيلسوف الفرنسى «كارتو» يفسر مثل هذه القرارات بالصدفة الباهرة. ويضرب لذلك مثلا معروفا هو سقوط طوبة على رأس أحد المارة فتقتله. يقول إن الطوبة قد استقرت فى أعلى البيت. والهواء يدفعها كل يوم شيئا فشيئا. وكذلك المطر. وفى لحظة معينة يختل توازنها فتسقط. وفى هذه اللحظة يكون أحد المارة قد وصل إلى ما تحت الطوبة تماما. وعلى رأس هذا الرجل تلتقى سلسلتان من الأحداث تتحركان مستقلتين تماما : الطوبة التى نزلت من فوق، والرجل الذى خرج من بيته إلى عمله.

وهى صدفة. وهى باهرة، لأن النتيجة لا علاقة لها مطلقا بحركة الطوبة وحركة الرجل ولكن الصدفة هى التى جمعت بين الاثنين.

ولكن عيب هذا التفسير أنه ينظر إلى الحوادث التاريخية على أنها طوب يضرب بعضه بعضا.. ولا دخل للإرادة الإنسانية أو الخيال أو الشجاعة. ولذلك فلابد من التسليم بهذه النظرية مع تعديل بسيط يتفق مع طبيعة الإنسان، وليس مع طبيعة الطوب والحجارة والحركة البسيطة فى الشارع. هذا التعديل هو أنه من الممكن أن تلتقى سلاسل الأحداث ويتوقف بعضها إلى جوار بعض كما تتجاوز السيجارة والولاعة دون أن تشتعل السيجارة..

ولذلك فلابد أن تمتد يد وتمسك السيجارة، وتمسك يد أخرى الولاعة، وتنطلق

الشرارة من الولاعة إلى السيجارة. مع فارق واحد أن إشعال السيجارة يحدث عشرات المرات فى اليوم الواحد دون وعى - أما فى صناعة القرارات المصيرية فالعملية وإن كانت قريبة من ذلك، فإنها أعقد وأعمق كثيرا.

ورغم وضوح المقدمات والنتائج لمبادرة السادات فإن عمالقة السياسة والحرب يجدونها صعبة التفسير. ولهذا لم يتوقف أحد عن سؤال الرئيس السادات، ولم تنته متعة الرئيس السادات حين يجيب أو حين لا يجد ما يقوله.

ويبدو أن الرئيس السادات قد فكر مرة أخرى فى أن يقوم بمبادرة مماثلة، وإن لم تكن مبادرة، وإنما لها شكل المبادرة. كأن يذهب فجأة إلى الرياض.

ولما قيل له : أن يذهب إلى طرابلس. وجد فى ذلك تشويها لمبادرة القدس وابتذالا لها!

ولما قيل له مرة أخرى : ولكن الرئيس يفكر فى أن يبادر بزيارة القاهرة ؟!

كان يرد بقوله : إن مطار القاهرة مفتوح له الآن، وقبل ذلك ، وقد جاء إلى القاهرة فماذا كانت النتيجة ؟ لا أظن أن القذافى يفعل ذلك مرة أخرى. فقد كانت زيارته السابقة إلى القاهرة حين عرض وجهات نظره على الشعب المصرى انتحارا سياسيا. وهو أذكى من أن يرتكب هذه الحماقة مرتين !

وعلى الرغم من أن فكرة المبادرة أو المفاجأة الصدمة السياسية كانت تروق للرئيس السادت فإنه لسبب ما، عدل عن زيارة الرياض.

وأذكر أن الرئيس السادات أخبرنى بأن السفير الأمريكى السابق (..) كان فى الرياض، وأنه التقى بالأمير فهد ولى العهد. وأنه سمع من الأمير فهد هجوما شخصيا على السادات. وقال السفير إنه اندهش لذلك. وفجأة دخل بعض الأمراء. فعاد الأمير فهد يردد ما سبق أن قاله. وقال السفير إن بعض الأمراء أضاف إلى كلام ولى العهد صفات أخرى لسلوك الرئيس السادات.

وقال لى الرئيس السادات: جاءتنى معلومات تقول إن الأمير سلمان فى إحدى جلساته قد ردد ما قاله شقيقه الأمير فهد.. ثم راح يروى النكت التى تقال فى مصر عنى.. وأنا لا أغضب من النكت، فأنا مصرى فلاح ابن بلد أعرف كل النكت التى تقال عنى وأرويها أيضا.. وأسمعها من زوجتى ومن أولادى ومن أقاربى.. وأنا أحب النكتة وأضحك.. وآخر نكتة سمعتها تقول إننى فى كل مرة أسافر إلى الخارج أقول لزوجتى : يا جيهان.. هات لى العصا والزبيبة.. هاها.. هاها.. هذه مسألة عادية.. ولكن الذى أسمعه

عن الأمراء السعوديين شئ غريب.. فهم أناس مهذبون جدا.. ولكن إذا كان هذا موقفهم، وفى نفس الوقت أقرأ اللهجة العنيفة الفظيعة فى الصحف السعودية، فهذا يدل على سلوك عام.. أو رأى رسمى.

وجاء السفير الأمريكى (..) مرة أخرى من الرياض.. وقابل الرئيس السادات. ونقل إليه ما يقال فى الرياض فى أعلى المستويات.

وعرفت من الرئيس السادات أن د. أشرف مروان كان ينفى تماما كل ما يتناقله الأمريكان عن الأمراء السعوديين. وكان السادات لا يصدق ما يقوله د. أشرف مروان.

وقابلت صديقى السفير السعودى أسعد أبو النصر. وسألته إن كان صحيحا ما يقال عن الأمير فهد وعن الأمير سلمان. ورويت له بعض الوقائع. وسألنى السفير السعودى: من أين جاءت هذه المعلومات ؟..

فقلت : سمعتها من بعض الصحفيين الأمريكان.

قال : أنا لا أعرف طبعا. ولكن أستبعد تماما. وكل ما لدى من معلومات، وهى صحيحة، أن الأمير فهد يرى أن الرئيس السادات حر تماما فى إدارة سياسة مصر. ولا بد أن الذى قرره هو خير ما يمكن عمله لمصر.. وأنه أدرى من أى أحد بكل ما يفعل وبنتائجه على بلده وعلى البلاد الأخرى. وأن هذا الخلاف فى وجهات النظر السياسية شئ طبيعى. وأن الجميع يدعون له بالتوفيق، ولكننى لم أسمع عن الأمير فهد ولا من الأمير سلمان مثل هذا الهجوم الشخصى على الرئيس السادات وأسرته. ولا أظن أن شيئا قد حدث يغير أسلوب الأمراء فى التحدث عن فخامة الرئيس.

ولما نقلت للرئيس السادات هذا الذى قاله السفير أسعد أبو النصر. لم يسترح إلى ذلك. وقال إن المعلومات التى تتجمع لديه تؤكد صحة هذا الهجوم عليه..

وحاولت مرة وثانية وثالثة.. ولكن الرئيس أصر على صدق مالديه من معلومات.

ثم جاء السناتور الأمريكى (..) لزيارته قبل سفره إلى الرياض. وسأل الرئيس إن كان يحب أن يبعث برسالة شفوية إلى الأمير فهد أو الملك خالد، ولا أعرف ما الذى قاله الرئيس ولكن قابلت السناتور وقلت له : ما هى الرسالة التى تحملها معك إلى القيادة السياسية فى الرياض؟

فقال : لم يطلب الرئيس أكثر من أن يفكر السعوديون بهدوء فى الموقف العربى وأبعاده.. وأن يفهموا الموقف المصرى الصعب. ولا شأن له بقرارهم ولا شأن لهم بقراره.

وعاد السناتور الأمريكى لمقابلة الرئيس السادات بعد عودته من الرياض وطالت

المقابلة. ولما قابلته قلت له : يبدو أنك أغضبت الرئيس !

فأجاب : لست أنا، ولكنهم الأمراء السعوديون !

وسألت الرئيس السادات : إن كان هناك جديد قد نقله السناتور الأمريكى من الرياض.

وروى الرئيس السادات عبارات جارحة نقلها السناتور الأمريكى. وأعجب من ذلك أنه نقل عنهم هذا التهديد : يا أنا يا السادات على هذه الأرض !..

وفى الليل دعانى الرئيس السادات على العشاء مع المهندس عثمان أحمد عثمان وكان ذلك بعد لقائه مع د. أشرف مروان.

وعلى السلم استوقفنى د. أشرف مروان قائلا : لا فائدة. إن الرئيس مصر على أن السعوديين يهاجمونه بعنف. وخصوصا الأمير فهد. ولم أفلح فى إقناعه بعكس ذلك..

وبعد العشاء طلب منى الرئيس السادات أن أعود إليه فى جزيرة الفرسان فى اليوم التالى. وطلب منى أن أبيت، ووعدته، ولكنى اثرت أن أعود إلى القاهرة، وحاولت أن أعثر على الصديق أسعد أبو النصر. خاصة أن اسمه قد جاء ضمن معلومات تلقاها الرئيس، فلم أجده، وقيل إنه طار إلى الرياض.

وقال لى الرئيس السادات ونحن نتعشى فى جزيرة الفرسان: إنهم غلطانون . إنهم لم يفهمونى ! لقد كانت عندى أفكار تؤيد موقفهم تماما.

وتساءلنا عثمان أحمد عثمان وأنا : من هم يا سيادة الرئيس ؟

فروى الرئيس ما سمعه من بعض رجال الأعمال الأمريكان واليهود والنمساويين عن موقف السعودية الرسمى من مصر، ومن السادات بصفة خاصة.

وقال عثمان أحمد عثمان : يا سيادة الرئيس.. إننى اعرف أكثر هؤلاء الأمراء.. أعرفهم جيدا.. وأستبعد أن تصدر عنهم مثل هذه العبارات.. إنهم أناس كما تعرف سيادتك، فى غاية الأدب.

وفى الليل اتصل بى د. أشرف مروان من لندن أو من الرياض، لا أعرف وسألنى إن كان الرئيس ما يزال غاضبا.. ما الذى سوف أكتبه هذا الأسبوع؟

فقلت : موضوعات عامة..

وقابلت الرئيس السادات بعد ذلك، وسلمنى خطابا كان قد تلقاه من أحد المدرسين المصريين. وطلب منى أن احتفظ به ولا أنشره أو أشير إليه الآن.. وقرأت الخطاب. وطلب منى الرئيس أن آخذ صورة للخطاب وأن أرده إليه بعد ذلك. أما الخطاب فينفى تماما ما

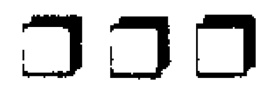
يشاع عن المعاملة السيئة التى يلقاها المصريون فى السعودية. ويقول : إن الخلافات فى الرأى بين المصريين والسعوديين. كالتى تحدث فى أى مكان وفى أى بيت. وإذا كان بعض المصريين هنا يستحقون الشتيمة والإهانة. فمثلهم كثيرون فى مصر. ولنفس الأسباب. كالخروج عن حدود الأدب أو عن القانون. ويقول صاحب الخطاب هذه العبارة التى أسعدت الرئيس السادات جدا : هل من المعقول يا سيادة الرئيس أن تضحك. كما نراك فى الصور وفى التليفزيون، لأنك تجلس إلى جوار بيجين، وأنت تعرف من هو، وهو يعرف من أنت.. ثم لا تجد سعادة أعظم من ذلك إذا جئت إلى الرياض وجلست إلى الملك خالد والأمير فهد ؟.. إن اليهود كاذبون حتى لو عانقوك ألف مرة. والسعوديون صادقون حتى إذا لم يفعلوا ذلك.. إن تل أبيب بعيدة جدا، وإن كانت قريبة منك، والرياض قريبة جدا وإن كانت بعيدة عنك.. أنت شقيق أدار ظهره للسعودية، وأنت عدو أدار وجهه لإسرائيل.. أستحلفك بالله وبالشعب وبمصريتك ووطنيتك أن تفكر فى الأمر قليلا. فإن السعودية. وكل الشقيقات العربيات، لها فى عنقك أمانة عظمى...

وقد علق الرئيس على ذلك بقوله : هذه هى مصر.. هذا هو الشعب المصرى.. هذا هو ضمير مصر.. ومن هذ النبض الصادق أستمد قوتى وعمق بصيرتى..

ثم سكت الرئيس السادات ليقول : والله أتمنى ذلك.. ولكنهم لا يريدون ليسوا مستعدين.. ليسوا متفقين فيما بينهم.. وقد سمعت من أصدقائهم الأمريكان أن هناك خلافات طاحنة.

وروى حوادث ونوادر تجعل لهذه «المبادرة» أثرا سلبيا فاترا.. وأفضل منها ألا يقوم بها، وألا يفكر فى شئ يصلح ما بينه وبين القادة السعوديين !

وعدل نهائيا عن (مبادرة للعاصمة السعودية) !



ثم تلقى الرئيس السادات خطابا من رجل الأعمال النمساوى «...» يلخص فيه ما دار بينه وبين شيمون بيريز. قال رجل الأعمال النمساوى : إن شيمون بيريز يريد أن يلتقى بك ليعرض عليك اجتهادا سياسيا مخالفا لوجهة نظر حكومة السيد مناحم بيجين فى حل القضية الفلسطينية وكان رد الرئيس السادات هو: أريد أن أعرف ذلك، ولكن لا أحب أن أخلق صعوبات لبيريز، وفى نفس الوقت لا أرغب فى أن أثير بيجين ذلك «الوحش السياسى».. فأنا ما أزال أروضه. ويبدو أننى سوف أبقى كذلك طويلا، إلى أن استخلص منه الأرض المصرية وأجد حلا للقضية الفلسطينية.. فلا يزال هو الرجل الأقوى

فى إسرائيل وفى العالم اليهودى كله..

والتقى الرئيس السادات بأستاذ للعلوم السياسية فى إحدى الجامعات الأمريكية. وهو صديق لشيمون بيريز. وقد حضرت هذا اللقاء قال الأستاذ: سيادة الرئيس.. ليس واضحا موقفك الشخصى من القضية الفلسطينية.

واندهش الرئيس جدا.. ولاحظ أن بعض التفسيرات البديهية فى القضية الفلسطينية ليس مفهوما.

ثم التقى الرئيس السادات بالأستاذ شمعون شامير. وهو الآن رئيس المركز الأكاديمى الإسرائيلى بالقاهرة. وأعجب به الرئيس السادات تماما وكان تعليق الرئيس السادات على هذه المقابلة: حتى هذا المفكر السياسى ذو العقلية الممتازة. قد وجدت عنده غموضا فى فهم وجهة النظر المصرية.. وعلى الرغم من أنه يعرض وجهة نظر حزب العمل المعارض، فإن هناك نقطة ليست واضحة. هل هى غامضة عندهم أو عندنا. أو أن لديهم فكرة متسلطة عليهم؟.. فهم يرون أن الأردن وحده هو المخرج الوحيد من كل المشاكل التى تضعها حكومة بيجين فى مفاوضات الحكم الذاتى..

ثم عاد وقال لى: إن مقابلة الأستاذ شامير قد جعلتنى أفكر فى شئ جديد.. يبدو أنه لا مفر هذه المرة. ولكن احتاج إلى بعض الوقت.. سوف أدير هذه الفكرة فى رأسى.. وأنظر إليها من جميع الجوانب.. وعندما تختمر تماما فسوف أعلنها.

ولم تكن هناك أية جدوى من سؤاله عن هذه الفكرة. ولو سألته فلن يقول لأن سؤاله عن هذه الفكرة مثل تعريضها للهواء. وهذا يفقدها درجة حرارتها.. فإذا فقدت هذه الحرارة فهى لن تفقس ولن تفرخ.. ولكنى حاولت من طرف بعيد أن أستوضح الفكرة. فكان هز الرأس ومط الشفتين دليلا على الامتناع التام..

وفى أحد الأيام كان من المحدد لاثنين من الصحفيين الإسرائيليين أن يقابلا الرئيس السادات فى استراحة القناطر. أحدهما مصرى الأصل: سامى جرينشبان المحرر بأكثر الصحف الإسرائيلية انتشارا وهى «يدوعوت أحرونوت - آخر الأخبار» وهى مسائية. ثم الصحفى الكبير: أورى أفنيرى رئيس تحرير وصاحب مجلة «هاعولام هزه - هذا العالم».

وبعد أن أنتهى الحديث باللغة العربية مع سامى جرينشبان قال لى الرئيس: إنها نفس المشكلة.. هناك شئ غريب عند اليهود أريد أن أعرفه.. إن لديهم جميعا فكرة واحدة غير واضحة عن حل القضية الفلسطينية.. ولكنهم جميعا متفقون فى ذلك...مع أننى

أرى حلا منطقيا عمليا يرضى الجميع.. ويريحنا من كل هذه المصائب.. .لكنهم لا يريدون.. شئ عجيب.. إذن فلابد من أقوم بالمحاولة التى أفكر فيها منذ وقت طويل لابد من مبادرة جديدة.. لابد!..

وجاء دور اورى أفنيرى. ولم يكد يجلس حتى قال للرئيس السادات : عندى فكرة مثيرة جدا يا سيادة الرئيس.. إنها لا تقل خطورة عن زيارة القدس.. وسوف يكون لها نفس الدوى ونفس النتائج.. وأعتقد أنه لا يوجد إلا حل واحد للقضية الفلسطينية. هو أن تسافر مرة أخرى إلى القدس. وتعرض أمام الكنيست وجهة نظرك. فالشعب الإسرائيلى مضطرب وحائر بين عشرات الاجتهادات.. وهذه فرصتك..

ولم يكمل عبارته حتى بدت الدهشة على الرئيس السادات : هذا شئ عجيب.. هذا بالضبط ما أفكر فيه هذه الأيام.. أنت تقرأ أفكارى. وطلب منى أورى أفنيرى ألا أشير إلى هذه «القنبلة السياسية». لأنها سوف تهز إسرائيل كلها. وسوف تنزل صاعقة على رأس بيجين.

وبعدها بأيام سافرنا مع الرئيس السادات إلى أمريكا. وفى الطائرة كان كل الزملاء. رؤساء التحرير وسكرتارية الرئيس. ورجال البروتوكول والحراسة. يتساءلون عن الخبر المنشور فى الصفحة الأولى من مجلة «أكتوبر». الخبر يقول: قنبلة سياسية سوف تنفجر فى إحدى الصحف الإسرائيلية بعد أيام.

وكنت أرد على التساؤلات : أسألوا الرئيس. وكان الرئيس يرد هو أيضا بأنه لا يعرف. ويطلب إليهم أن يسألونى. وعدت بأن أكشف عن هذا الخبر إذا وصلنا مطار أندروز بواشنطون. وكان فى حسابى أنه فى ذلك الوقت تكون مجلة «هاعولام هزة» قد صدرت. وأن الخبر قد أصبح معروفا فى العالم كله. وعندما وصلنا مطار أندروز أخبرت الصديق إبراهيم نافع رئيس تحرير «الأهرام» عن القنبلة السياسية. وبعدها انتقل هذا الخبر إلى الصحفيين الأمريكان. ووصل الخبر إلى إسرائيل قبل صدور المجلة - فقد أخطأت أنا فى حساب فرق التوقيت بين أمريكا وإسرائيل!

وفى الليل نقلت للرئيس السادات أن السيد مناحم بيجين قد رد على الخبر بأن هذه الزيارة مستحيلة. فلن يزور الرئيس السادات القدس مرة أخرى. قبل أن يستضاف السيد بيجين فى القاهرة. فقد زار الرئيس إسرائيل ثلاث مرات. بينما هو لم يزور مصر إلا مرتين فقط !

وفى واشنطون قال الرئيس لأحد الزعماء اليهود : حتى هذه الزيارة سوف يساء

فهمها.. وقد سارعت إسرائيل. قبل الفلسطينيين. بتشويه معنى هذه الزيارة.. وقال الزعيم اليهودى : كنت أتحدث مع السيد بيجين فى التليفون. وقال لى : قل لصديقك السادات أن يكف عن هذه القنابل السياسية.. لقد اتفقنا على السلام !..

وضحك الرئيس السادات وهو يقول: ولكن بيجين كان أسرع إلى نزع «الفتيل» وإبطال مفعولها.. إنه عفريت.. ولكن هذه المرة أخطأ فى الحساب. فهو لم يعرف ما الذى كنت سأقوله، ولا ما هى الاقتراحات التى كنت سأتقدم بها. فالرجل مريض كما تعرف. وهو لا يتحمل مثل هذه الزلازل السياسية.. وخصوصا فى الضفة الغربية.

قال الزعيم اليهودى : تقصد فى يهودا والسامرا!.

قال السادات ضاحكا ومقطبا وجهه : نعم أقصد فى الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء العربية المحتلة جميعا ! ليكن هذا واضحا.. وإذا تحدثت إلى صديقنا بيجين فقل له: إن عندى قنبلة أخرى..

قال الزعيم اليهودى : سيادة الرئيس. أنت تريدنى أن أقتل الرجل..

قال الرئيس : أما أنا فلا أريد ذلك.. فلولاه ما كان السلام بين مصر وإسرائيل.. !

ㄱㄱㄱ

وفى القاهرة التقى الرئيس السادات بأحد رجال الأعمال الأمريكان. وكان قادما من دمشق. ونقل إليه أن هناك شائعة فى العاصمة السورية تقول : إن الرئيس السادات سوف يهبط بطائرته فى دمشق.

فكان رد الرئيس : ولكنى ذهبت إلى دمشق أعرض عليهم أن يؤيدونى فى زيارة القدس. ولكن أحدا لم يوافق. ولم يصدقنى أيضا.. أو لم تكن هذه الفكرة مما يروق لهم، لأنها فكرة غير تقليدية. أو أنهم كانوا فى حاجة إلى أن يستأذنوا موسكو.. لا أعرف!

ثم سكت الرئيس ليقول : لقد ضحكوا عليك.. لا تصدقهم.. هل تريد أن تعرف رأيا خبيرا حكيما فى الرئيس حافظ الأسد ؟ أسأل صديقك هنرى كيسنجر.. إنه عبقرى شيطان..

وسألت الرئيس عن الذى قاله كيسنجر. ثم أستأذنته فى نشر ذلك.

قال كيسنجر : إنه حدث وهو يقوم برحلات المكوك بين تل أبيب ودمشق أن غلبه الإرهاق، فنام لحظات وهو يتحدث إلى المسئولين السوريين.. ولما أفاق من إغفائه، لم يعرف يقينا إن كان فى دمشق أو فى تل أبيب.. فأفكارهم واحدة وبنفس الطريقة!..

وفى الرياض قابلت السيد عبد الحليم خدام وزير الخارجية. وطلبت إليه أن يرتب لى

لقاء مع الرئيس حافظ الأسد. فذهب السيد عبد الحليم خدام وعاد ليقول : الرئيس يعتذر. فهو غاضب من رأى كيسنجر الذى نشرته ! ولم أفلح فى إقناع السيد عبدالحليم خدام بأن الذى نشرته لم يكن إلا مداعبة ثقيلة. وإلا نكتة سياسية !.

وضحك السيد عبد الحليم خدام قائلا ومبتعدا : ولأنها صحيحة أيضا ؟!. ■

هل أجلت إسرائيل
إستخدام القنبلة الذرية ؟!

على أنقاض المقاومة العسكرية الفلسطينية سوف تقوم حكومة لبنانية تكنس الشوارع وتبنى العمارات والبنوك وتفتح حدودها للمصطافين اليهود، وسوف تتلقى ملايين الدولارات من كل الدول العربية والأوربية والأمريكية لكى تعود كما كانت لؤلؤة الشرق الأوسط. وسوف تتحد كل القبائل اللبنانية فى الإقبال على الفلوس وتوزيعها واستثمارها والتزاحم على مقاعد الوزارة والبرلمان وتوزع الاتهامات على الجميع، ولكن من المؤكد أن لبنان سوف يرجئ خلافاته الدستورية بعض الوقت.

وسوف يبتلع جميع الكتاب والصحفيين اللبنانيين كل التهم التى وجهوها إلى مصر لأنها صالحت إسرائيل وسالمتها على حساب الشعب اللبنانى - كما كانوا يزعمون!

أما الوجود «العسكرى» الفلسطينى فى لبنان فقد انتهى تماما، وفى كل بلد عربى آخر. وإذا كانت للشعب الفلسطينى قوات عسكرية فى مصر فهى رمزية. إلا فى سوريا فسوف تستخدم الفلسطينيين لإرهاب الشعوب العربية وابتزاز أموالها، وتنفيذ الاتفاق بينها وبين إسرائيل الذى ينص على: اقتل فلسطينيا تحصل على شبر من وادى البقاع!

ولقد حزن الكثيرون منا على الذى أصاب الشعب الفلسطينى - أقصد نحن المصريين، رغم الخلافات العنيفة بينهم وبين مصر، ورغم زجاجات الشربات التى وزعت بين دقات الطبول عند اغتيال الرئيس السادات، وهو أول من ساندهم، وأول من طلب إليهم

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٧/١١

تشكيل حكومة فى المنفى، وأول من رفع لهم علما على فندق مينا هاوس يوم التفاوض مع إسرائيل. وكان ذلك فى ظل القوة الفلسطينية والفزع الإسرائيلى والتأييد العالمى للمشاركة الفلسطينية فى أى حوار مع العدو من أجل استعادة الوطن فى الضفة والقطاع..

والآن، وبالقوة الوحشية الإسرائيلية، تحولت المقاومة العسكرية إلى مقاومة سياسية. وابتداء من الآن سوف تحتاج القوى الفلسطينية إلى مساندة أدبية من كل دول العالم. وسوف تلقى تأييدا عظيما، لأن أحدا فى العالم لا يريد الإرهاب والقتل وخطف الطائرات واغتيال الأبرياء. ولا يزال السيد ياسر عرفات «شمشونا» جبارا كريما على نفسه عندما قال إنه سوف يموت والسلاح فى يده فى بيروت. وكان واقعيا عندما أعلن أنه سوف يخرج مع رجاله بلا سلاح. وعندما أكد للصحفى الإسرائيلى أفنيرى أنه لم يقل بضرورة القضاء على إسرائيل. وعندما تراجع ووافق على ما كان قد رفضه من مشروع الملك فهد ذى النقاط الثمان. خاصة النقطة السابعة، التى ترى ضرورة الاعتراف المتبادل مع إسرائيل.

ألا يدل هذا على أننا نحن العرب نرفض الواقعية لأننا لا نرى الواقع؟..

والواقع هو أنه لا سبيل إلى حل مشاكلنا إلا بالتفاوض مع العدو - حدث ذلك فى طول التاريخ وعرضه، وحدث ذلك فى حروبنا مع إسرائيل، وأعطت مصر أعظم صورة، وسوف تتكرر نفس الصورة بكل تفاصيلها فى لبنان. وسوف توافق لبنان على ألا يكون للشعب الفلسطينى أى نشاط يهدد أمن إسرائيل. وسوف توافق معظم البلاد العربية على هذا الموقف اللبنانى، إنقاذا للبنان، ومساعدة للشعب الفلسطينى أن يحصل على أرضه، واسترخاء للدول العربية فى صراعها «اللا معقول» ضد الصهيونية منذ ٣٤ عاما.

وبذلك تسقط آخر «اللاءات» العربية الشهيرة. عندما تقول لبنان: نعم.. والشعب الفلسطينى أيضا..

وتكون إسرائيل قد اختارت فى نفس الوقت ألا تعرف الأمان فى الشرق الأوسط. فالذى فعلته فى لبنان هو رد الفعل العنيف لفعل آخر لا دخل لنا به.. رد فعل على ما أصاب الشعوب اليهودية فى عهد النازية. فلم يتمكنوا من الانتقام الدموى من ألمانيا، فانتقموا من العرب. صحيح أن ألمانيا قد دفعت ما يعادل عشرة ملايين مارك عن كل قتيل يهودى. وصحيح أن الأمريكان قد مرغوا الشعب الألمانى فى الأرض، وأهانوه بالسينما والمسرح والكتب ومناهج التعليم والاحتلال الذى لايزال قائما. ولكن يبدو أن هذا لم يشف غليل الأحياء الذين نجوا من الهولوكست - الحريق الشامل - النازى. ولذلك

كانت مذابح «دير ياسين» والغزو الإسرائيلى للبنان انتقاما متأخرا. ولن ينسى العرب هذا الذى فعلته إسرائيل بتأييد من أمريكا وروسيا.

ولا يخفف من وقع هذه الدماء، أن أمريكا تحاول التوفيق بين ياسر عرفات وبيجين، وأنها بعثت بقوات وسفن لنقل المقاتلين الفلسطينيين وحمايتهم. وهذا التدخل الأمريكى الإيجابى دليل على أن أمريكا هى وحدها القادرة على أن تجد حلا للصراع، وقادرة على إحياء هذا الصراع وإلقاء النار عليه، والماء أيضا. فهى القوة العظمى التى تصنع القرار، أو تصنع لها إسرائيل القرار. فهل نهنئ الشعب الأمريكى أنه بمناسبة عيد الاستقلال قد أنزل من السماء المكوك الفضائى كولومبيا بعد أن نجح فى تجريب أسلحة للتجسس العسكرى وقياس مناطق الإشعاع النووى على الأرض، ثم أغرق فى البحر «عقدة فيتنام» - أى عقدة الخوف من التدخل العسكرى لحل النزاعات الكبرى فى العالم؟.. وإذا كانت أمريكا قد نجحت فى التخلص من «عقدة فيتنام» فإن روسيا لم تجربها. فهى لم تتدخل لا عسكريا ولا أدبيا. لأنها لا تريد أن ترتكب الأخطاء الأمريكية الفادحة، فروسيا تؤمن بأنه حيث يتدخل الأمريكان تنصب عليهم اللعنات وتتلقى روسيا الدعوات.. والناس يلعنون الموقف الإيجابى لأمريكا والموقف السلبى لروسيا. فالشعوب تلعن الدولتين معا، لأنهما متفقتان بعد ذلك فى اقتسام المصالح دون أن تتورطا فى مواجهة عسكرية..

وقد تولدت عندنا نحن «عقدة لبنان» أى عقدة فرض الحلول بالقوة الهمجية الإسرائيلية فإسرائيل قد احتلت لبنان وحاصرت العاصمة.. وأمريكا هى التى منعتها من هدم بيروت كلها. تماما كما منعتها قبل ذلك من الزحف على دمشق.

وحين تدخلت أمريكا بأسلحتها المتطورة إلى المعركة أعلن الرئيس السادات أنه ما كان يستطيع أن يمضى فى حرب مع إسرائيل، فليست لديه أسلحة كافية. ثم أن الغرض من الحرب قد تحقق بالانتصار النفسى - أى بانتصارنا على مخاوفنا من الهزيمة، وذلك عندما عبرنا قناة السويس وأزلنا خط بارليف واستخدمنا ما لدينا من أسلحة متخلفة بكفاءة متقدمة..

أما ضرب المفاعل العراقى فى بغداد، فليس الهدف منه ضرب بغداد فقط، إنما هو ملاحقة إسرائيل الجنونية لكل مراكز الخطر لأمنها فى المنطقة، وعندما عرض السيد مناحم بيجين على الرئيس السادات أنه سوف يضرب المفاعل الليبى، حذره السادات أن يفعل ذلك، ولكن من المؤكد أن إسرائيل سوف تضرب المفاعل الليبى والباكستانى والعراقى مرة.

وهذا يحتم علينا أن نعيد النظر والحسابات مع إسرائيل لكى نعرف الدور البارز الذى اتخذته فى المنطقة. ولم يكن هذا الدور سرا، ولكنه الآن أصبح أقوى وأوضح.. وإذا كانت هناك أصوات مخلصة فى إسرائيل تعارض الحرب، وأصوات أخرى يهودية فى العالم تعارض الغزو اللبنانى، وأصوات أمريكية تعترض على ذلك، فلأسباب مختلفة. أما اليهود فى إسرائيل وخارجها فهم يخافون من الصورة البشعة التى أصبحت لإسرائيل فى العالم فلم تعد إسرائيل تلك الدولة التى يدعى الدين فيها أنهم أتوا بالتوارة والوصايا العشر إلى العالم لينشروا الخير والرحمة والسلام بين الناس. فأين هذه المعانى؟ فرجال الدين فى إسرائيل أكثر الناس تعصبا للمذابح فى لبنان وفى غيرها. ويهود العالم يخافون أيضا من انتشار العداء للسامية - أى معاداة الشعب اليهودى الذى انحدر من أبناء سام بن نوح عليه السلام. ومن المضحك حقا أن يتهم اليهود كل الذين يعادونهم فى العالم، بأنهم أعداء للساميين - مع أن نصف الشعب اليهودى ليس ساميا، لأنهم من الأوربيين الذين هاجروا إلى إسرائيل. أما الساميون حقا فهم العرب، ولذلك فإسرائيل هى أعدى أعداء الساميين اليوم وغدا!..

والدور الذى يقوم به السيد مناحم بيجين هو دور الحاخام الأكبر لكل الشعوب اليهودية، وهو لذلك يرفض المعارضة والنقد. ويوم تعثرت مفاوضات السلام اعترض عليه اللورد سيف، صاحب محلات ماركس واسبنسر الشهيرة.. فشتمه السيد بيجين بألفاظ نابية.. وقال: لا حق له فى الاعتراض، لأنه ليس إسرائيليا، فإذا أراد أن يعترض فليحصل على الجنسية الإسرائيلية ويحضر إلى إسرائيل ويعارضه..

مع أن هذا اللورد هو أحد مؤسسى الدولة التى يترنح على عرشها السيد مناحم بيجين..

وكان الرئيس السادات يرى أن من حسن حظ مسيرة السلام أن الانتخابات قد أتت بالسيد بيجين. فلو كان بيجين فى المعارضة لرفض زيارته للقدس، ولرفض السلام مع مصر، وقد صدقت فراسة الرئيس السادات مرة أخرى، فالسيد بيجين فى المعارضة الآن، فالعالم كله ضده. والشعب فى إسرائيل ضده، ولأنه فى المعارضه الآن، فهو ضد السلام. وإذا كان السلام مع مصر قد أدخل بيجين أبواب التاريخ الواسعة، فإن إبادة الشعب الفلسطينى سوف تخرجه من أبواب السلام الواسعة، لأن إسرائيل لن تعرف السلام فى المنطقة بعد اليوم.

وكنا نقول، ولا نزال، إنه بغير حل للقضية الفلسطينية فلا سلام. وهذا رأى العرب

ورأى إسرائيل والعالم أيضا. ولكن هناك خلافا بيننا: نحن نرى أن لا سلام إذا لم يكن للشعب الفلسطينى وطن فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وإسرائيل ترى الآن أنه لا داعى للبحث عن وطن. فالأردن بأغلبيتها الفلسطينية هى الوطن، أى على الشعب الفلسطينى أن يستولى على الأردن، كما استولت إسرائيل على فلسطين. ثم إن إسرائيل قد لجأت إلى حل المشكلة الفلسطينية بالقضاء على العسكرية الفلسطينية وإعادة توزيعها على البلاد العربية منزوعة السلاح..

هل من الواجب علينا أن نعيد النظر إلى كل دول المنطقة ونتساءل: هل نحن عندما نتحدث عن الدول العربية المستقلة، نعنى ذلك؟ هل صحيح أننا كذلك. وأننا نملك أمرنا وقرارنا؟..

والإجابة: أن الذى يعتمد على غيره اقتصاديا وعسكريا ليس كذلك. وكل هذه الدول الصغيرة تعتمد على الدول العظمى. وهى لذلك ليست حرة تماما.. حتى إسرائيل لاتزال طفلا رضيعا على صدر أمريكا، تتغذى على الذهب والأسلحة المتطورة. وكذلك الدول التى تعتمد على روسيا، فهاتان الدولتان العظميان ودول أخرى، تلعب بنا، بأقدارنا وأموالنا. وهى لذلك حريصة على أن تبقى هذه المنطقة الغنية بالبترول ساخنة. وأكبر دليل على ذلك أن حروبنا ليست لها نهاية مؤكدة.. فحروبنا مع إسرائيل هى صور مختلفة من وقف إطلاق النار، مع تأجيل الحلول إلى مرحلة تالية. فحرب ١٩٤٨ وقفت نيرانها دون اتفاق على الحدود الآمنة.. وفى حرب ١٩٥٦ أمرت أمريكا بسحب قوات العدوان الثلاثى، ولم نصل إلى حل، وهزيمة سنة ١٩٦٧ أدت إلى احتلال إسرائيل لسيناء والجولان والضفة الغربية والقدس وقطاع غزة.. ولأن مصر لم تعترف بهذه الهزيمة، كانت هزيمة إلا قليلا.. كما كانت نصرا إسرائيليا إلا قليلا أيضا. ولذلك استأنفنا القتال سنة ١٩٧٣ ولم نسترد كل الأراضى المحتلة. أما انتصارنا النفسى فكان نهائيا، وأما انتصارنا العسكرى فكان إلا قليلا.. وكانت هزيمة إسرائيل النفسية نهائية، أما هزيمتها العسكرية فكانت إلا قليلا.

واتخذت قوات الانتشار السريع مواقع لها فى المغرب ومصر والصومال وعمان وسكت السوفيت عن ذلك، لأن أمريكا سكتت عن أفغانستان وبولندا وغيرهما..

وسياسة «إلا قليلا» فى الشرق الأوسط، قد كان من نتائجها تأجيل النزاع، وإرجاء الحل وتنشيط سياسة التدخل وبيع السلاح..

والآن تأجلت القضية الفلسطينية إلا إذا اتفق الفلسطينيون على رأى واتفق العرب أيضا..

ولذلك لم تفلح كل مؤتمرات القمة العربية فى شئ.. لأنها مؤتمرات لمجموعة من الأطباء ينسون أنهم أطباء ولا يذكرون إلا أنهم أقارب المريض.. ولذلك يصرخون ويبكون ويلعنون.. ثم إنهم بعيدون تماما عن المريض، وأهم من ذلك أنهم لا يستخدمون العقاقير الطبية المعروفة فى علاجه. إنما يلجأون إلى التعاويذ والبخور، فلا كانوا أطباء، ولا كان تشخيصهم علاجا. ولذلك بقى المريض مريضا، وبقى الطبيب خطيبا!..

ومنذ قيام الدولة الإسرائيلية وهى أعجوبة فى العالم كله. فعندما استولت إسرائيل على فلسطين، كانت الحركات الوطنية فى آسيا وأفريقيا قد طردت المستعمرين، وفجأة ظهرت إسرائيل تساندها كل الدول الاستعمارية واحتلت أرض فلسطين. فهى آخر عمل استعمارى فى التاريخ!..

وفى الوقت الذى لا تستطيع فيه الدول العظمى أن تجتاح دولة صغيرة، لأى سبب، فإن إسرائيل بمساندة الدول العظمى تفعل ذلك. وفى هذا تجديد لكل السياسات القديمة الاستعمارية، وتأكيد لعجز العرب عن فهم ذلك.

ولم يكن مفروضا الآن فى جميع الحسابات، أن تتدخل مصر وسوريا والأردن والعراق عسكريا لإنقاذ الشعبين الفلسطينى واللبنانى. والأسباب كثيرة ومختلفة. ولو «انفعلوا» فى فوضى لكانت غلطة فادحة. ولاضطرت إسرائيل لاستخدام «القنبلة النووية» ولساعدتها أمريكا على ذلك. لأن أمريكا قد استخدمت هذه القنبلة عندما هاجمت الطائرات اليابانية أسطولها فى جزر هاواى سنة ١٩٤١.. ولكانت حجة إسرائيل: أن العرب تضامنوا لإبادة الشعب الإسرائيلى.!

ولكن لايزال لدى إسرائيل هذا الخيار - أى الخيار النووى لحل نزاعات المستقبل. هذه النزاعات خلقتها إسرائيل بمجرد وجودها، وضاعفتها بهذا العنف الذى تمارسه..

والصورة التى نراها الآن لإسرائيل وما حولها أكبر دليل على ذلك.. فهى مسلحة كلها، ومحاطة بقوات عسكرية على حدودها، ومناطق منزوعة السلاح، وبها قوات أجنبية. أى أنها معزولة تماما عن العالم العربى، وبضمان الدول الأجنبية. والعلاقة الطبية الوحيدة بينها وبين العالم الخارجى هى أمريكا! حتى هذه العلاقة تخضع للمساومات الدعائية فى انتخابات الرياسة - وقد جاءت الحملات الانتخابية مبكرة هذا العام، وأول دليل على ذلك موقف أمريكا من إسرائيل حربا ووقفا لإطلاق النار وترحيلا للشعب الفلسطينى!..

فإذا كانت إسرائيل هكذا فى حالة من الخوف والتخويف، فكيف يكون سلام ومودة وحسن جوار وتعايش سلمى؟!.

- والآن.. هل يستطيع الشعب الفلسطينى أن يكون واقعيا، فيرى بوضوح مصادر القوة والضعف فى بلادنا وحولها؟ هل يبدأ الطريق الطويل إلى وطنه المنشود؟ والطريق طويل جدا لأنه طريق المفاوضات. ولأنه متعدد الأطراف فهو شديد التعقيد. وقد عرفنا مشاكل التفاوض مع إسرائيل، وعرفنا القلق والأرق والهوان، وعرفنا الإدانة بالخيانة والموت من كل الذين سيجلسون غدا للمفاوضة مع إسرائيل؟!..

وقد احتجت الحكومة الإسرائيلية رسميا على ما كتبت فى الأسبوعين الماضيين، رأت فى ذلك استعداء للمصريين والعرب عليها. وقالت إننى أعرف أكثر من غيرى تاريخ الشعوب اليهودية وزعماءها ومفكريها، وإننى شاركت فى كل عمليات السلام فى مصر وفى إسرائيل وفى أمريكا. ثم هاجمتنى الاذاعة الإسرائيلية أيضا وبأقلام عدد من الأصدقاء والمفكرين والأدباء..

ولكنى لأننى عانيت، ومصر كلها، من أجل أن يكون سلام، ولأننا تعذبنا وأهدرت أرواحنا وكبرياؤنا من أجل استعادة سيناء ومن بعدها كل الأرض المحتلة والوطن الفلسطينى، فإننى لا أريد أن يبدد السيد مناحم بيجين كل ذلك.. وفى إسرائيل وفى العالم كله من يمقت هذا العنف ويستنكر هذه الوحشية ويشفق على السلام.. واليهود فى العالم يشفقون على إسرائيل، ويفزعون من عودة «اليهودى القبيح الوجه» الذى لم يعد كذلك منذ زيارة السادات للقدس وعقد معاهدة الصلح.. ومنذ السلام والانسحاب من سيناء. فأنا لا أريد لجهودنا ودمائنا وأموالنا أن تصبح هباء.. فليس من أجل عقد نفسية مرضية لم تفارق السيد بيجين فى سجون روسيا، يموت السلام ودعاة السلام..

- إن كان المقصود من غزو لبنان أن ينتهى الكفاح الفلسطينى، فلن ينتهى! وإن كان الغرض هو إبادة الشعب الفلسطينى، فلن يباد، فهو لايزال بالملايين فى الضفة الغربية والقدس وغزة والأردن والكويت ومصر والسعودية وأمريكا..

- وكل ما فعلته إسرائيل أنها كسبت موقعا فلسطينيا فى لبنان، وخسرت معركة فلسطينية فى كل العالم..

إن الشعب الفلسطينى كما ذكرت هنا فى الأسبوع الماضى، أصبح حرا من كل قيد.. لم يكن حرا فى يوم من الأيام كما هو الآن.. فلا خوف عليه من أحد. ليس فى حاجة إلى أن يستجدى أرض أحد. وليس فى حاجة إلى أن يعيش بالإرهاب، إرهاب العرب واليهود وغيرهم، لأنه بالإرهاب لم يسترد شبرا من أرضه.. إنه لن يعانى الآن من قيود الدول المضيفة. فكل الدول المضيفة تحمل عنه السلاح، لأن حمل السلاح واجب الدولة

نفسها.. إنه حر الآن فى أن يفكر فى جمع خطوطه وتنظير هدفه وكسب صداقات الشعوب جميعا، وكلها وراء مطلبه الشرعى فى أن يكون له وطن، ولن تتردد دولة واحدة، لأسباب سياسية وإنسانية، فى أن تعطيه صوتها. فهل يستطيع الشعب الفلسطينى بكامل حريته أن يغير قياداته العسكرية ويستبدل بها قيادات سياسة فكرية؟.. إن السيد ياسر عرفات - مثلا - ليس تشرشل الذى كسب النصر لبريطانيا فى الحرب العالمية فلم تكسب قيادة السيد عرفات موقعة واحدة، ولم يكن له رأى واضح. ولا موقف محدد. ولا صديق. ثم إنه قد أقلق النظم العربية بعلاقته بالسوفيت وتأييده لإيران..

حتى تشرشل أسقطه الإنجليز فى الانتخابات. لأنه كان رجل حرب. وكسب الحرب. وانتهى دوره. وكان الإنجليز فى حاجة إلى رجل سلام. فهل يختار الفلسطينيون رجل سلام يحظى باحترام فكرى دولى من أجل السير فى الطريق الطويل إلى دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة؟.

نحن عرفنا مرارة الهزيمة والهوان وملايين المهجرين من منطقة القناة فى سنة ١٩٦٧ وكانت هزيمتنا العسكرية مثل «الهولوكست» عند اليهود، ولم نفلح كما لم يفلح اليهود أيضا فى أن يتخلصوا منها.. وفى التاريخ الفلسطينى الحديث أكثر من مذبحة.. وهذه المذبحة الأخيرة هى أبشع ما عرفوا وما عرفنا، ولابد أن نسارع بابتلاع الدموع وتجفيف الدماء، وتأجيل الاتهامات للقيادات الفلسطينية والدول العربية والغربية والعالم كله.. وإلا أدرنا ظهورنا للمستقبل.، وبكينا على الذى فات، وانشغلنا عن الذى هو آت - وهى من أهم معالم الشخصية العربية.

والعالم كله يشفق على الشعب الفلسطينى، ويريد أن يحترم تفكيره، ولن يحترم الإرهاب أسلوبا فى تحقيق الأهداف بالعنف، ولذلك لا يحترم إسرائيل ولكن يحترم الحق القوى والأسلوب الرفيع، ولو كان السوفيت يؤيدون الشعب الفلسطينى، لتغير وجه التاريخ.. ولكن السوفيت يؤيدون إسرائيل أيضا.. وسوف تبقى المشكلة فى الشرق الأوسط حية دامية، وهى: أن إسرائيل تريد السلام، وسوف تشترى السلام بالحرب ثم بوقف إطلاق النار.. ثم بالمفاوضات.. هذا ما حدث مع مصر، وما سوف يحدث مع لبنان وسوريا والأردن. ومن المؤكد أننا لن نعرف السلام حتى نهاية هذا القرن.. ولكن الذى حصلنا عليه هو القدر الذى تسمح به الدول العظمى.

لماذا نجحوا وفشلنا؟..

هذا هو السؤال. والإجابة تحتاج إلى سنوات، وابتداء من اليوم يجب أن نستوعب

«نقطة التحول» الخطيرة جدا فى خريطة الشرق الأوسط.. فهل نفعل؟..

لا أظن أننا سنفعل بسرعة لأننا فى حاجة إلى رأى قوى يكتسح الخمول العربى، ويصوغ خطراته وخطواته وقراراته وإراداته، فهل هو المخاض الذى تحدث عنه الرئيس السادات وتنبأ بأننا سوف نواجهه؟ هل هو المخاض إيذانا بميلاد جديد لفكر جديد وزعامة جديدة؟..

كل شئ فى العالم العربى مهيأ لذلك!..

□□□

وفى القاهرة قابلت عددا من الفلسطينيين الأمريكان والعرب. ولم يكن أحد فى حاجة إلى أن يضع يده على قلب أحد. فأيدينا واحدة والقلب الموجوع واحد..

وفجأة تحولت دقات قلبى إلى طعنات عندما اقترب أحدهم يقول: والآن جاء دور مصر.. إن قدرها أن تقف إلى جانب الشعب الفلسطينى، فهى «الشقيقة الكبرى»..

سمعتها: «الشقية الكبرى»..

ولم أكن فى حاجة إلى أن أقول: إنها سوف تفعل.. لأنها كانت أنشط العرب لا فى «رد القضاء» على الشعب الفلسطينى، ولكن فى «اللطف» فى معاملته خارجا من بيروت ذاهبا إلى اللاذقية والقاهرة..

والبقية سوف تأتى طويلة وطويلا.. ■

استئناف مفاوضات الحكم الذاتي :
في أي وقت !

قال لى شاه إيران منذ أيام، وهو يتحدث عن دور أوروبا الغربية: لا شئ يهم المواطن الغربى سوى أين يقضى إجازته الصيفية أو الشتوية، وكيف يشترى حاجاته بالتقسيط، أما الدولة فكل الذى يشغلها هو كيف تنفق أقل على التسليح!..

ومعنى كلام الشاه أن الدول الغربية لا يهمها كثيرا ما تدعيه من مبادئ رفيعة وقيم سامية، إنما أولا وأخيرا: مصالحها. وعلى أساس المصالح المتبادلة يجب فهم كل شئ..

ولم يشأ الشاه أن يشير إلى نشاط الرئيس الفرنسى ديستان أو كبار المسئولين الإنجليز فى الشرق الأوسط.

ولم يصبح دور الدول الغربية واضحا، إلا بعد أن بدأ يضعف الدور الأمريكى، دوليا وإقليميا، وفى المفاوضات بين مصر وإسرائيل، فدور أمريكا فى أفغانستان لا يقل غموضا عن دورها فى إيران، وما يقوم به سفيرها لينوفتس بين إسرائيل ومصر، أقرب إلى دور الوسيط منه إلى دور الشريك..

وبعض الدول العربية المعتدلة تحاول الآن أن تفعل شيئا بمساعدة الدول الغربية، وربما كان هذا هو السبب فى أن بعض الدول العربية المعتدلة قد أحست أن وقتا طويلا قد مضى دون أن يتحقق شئ، فلماذا لا تحاول أن تضع يدها على كتفى فرنسا والنمسا وبريطانيا، لعل شيئا يتحقق؟..

نشر هذا الموضوع فى ٢٥/٥/ ١٩٨

فهل صحيح أن وقتا طويلا قد ضاع دون أن نصل إلى شئ؟ لسنا فى حاجة إلى أن نعيد ما هو معروف عن معاهدة السلام مع إسرائيل. وقبلها اتفاق كامب دافيد لتحقيق السلام مع كل العرب - وليس مع مصر وحدها - وتحقيق الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى.

وكما تحقق السلام مع إسرائيل بالمفاوضة، فلن يكون الحكم الذاتى ممكنا إلا بالمفاوضة أيضا. والتفاوض مع إسرائيل من أجل الحكم الذاتى صعب علينا، فنحن لا نقوى على أن نعطى تنازلات، أو أن نكون على درجة كبيرة من المرونة.. نحن قادرون على ذلك فيما يخصنا، ولسنا كذلك فيما يخص الآخرين: الشعب الفلسطينى. وفى مفاوضات الحكم الذاتى تواجهنا كلمات جديدة المفهوم. فالأمن كلمة قديمة. ولكن تعريفها والاتفاق عليه هو الشئ الجديد، ومعنى كلمة الأمن يتضمن كل تاريخ الشعب اليهودى. فهى ليست كلمة واحدة، إنما هى قاموس سياسى واجتماعى ودينى وتاريخى وعسكرى وعنصرى..

ثم إن الدول العربية لم تسهل على نفسها المواقف الصعبة. فبدلا من أن تقف معا ضد إسرائيل، فإنها تركت إسرائيل لمصر، وتفرغت وتفرقت لتسوية حسابات قديمة: بين الأردن والشعب الفلسطينى، بين سوريا ولبنان، بين لبنان وطوائفه المختلفة، بين المغرب والجزائر، بين اليمن واليمن، بين الحجاز ونجد..

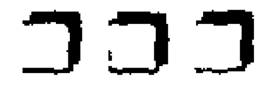
والعرب يتفقون على شئ واحد: أن مصر هى السبب. أى أن مصر هى سبب هذا التمزق العربى. فهى التى كانت تجمع العرب، فلما تخلت عنهم انفرطوا كحبات العقد.. ولكن العرب لا يقولون: إن مصر هى التى جمعتهم، أو هى وحدها القادرة على جمعهم، إنما يقولون فقط: هى التى فرقتهم..

وهو نفس المعنى الذى قالوه على مصر يوم انهزمت سنة ١٩٦٧ ويوم انتصرت سنة ١٩٧٣. فمصر سنة ١٩٦٧ هى التى انهزمت، والعرب فى سنة ١٩٧٣ هم الذين انتصروا. أى: إذا انهزمنا فنحن مصريون، وإذا انتصرنا فنحن عرب؟!..

فليس صحيحا - إذن - أن يقال إنه قد مضى وقت طويل دون أن يتحقق للعرب شئ، فقد انسحبت إسرائيل من معظم سيناء. وهذا إنجاز عظيم للعرب. وهذا من شأنه أن يجعل مصر أقوى على المضى فى تحقيق السلام، أو تزيئة الجو لان يكون سلام. بمساعدة مصر أو بدون مصر..

ونحن العرب أقل الناس جدارة بالكلام عن الوقت الضائع - فتاريخنا مع إسرائيل

هو أحسن نموذج لأسوأ طريقة لإضاعة الوقت.. عاما بعد عام.. ثلاثين عاما.. وأربع حروب!..



وقد يقال أيضا إن الدور المصرى قد انتهى. فالمصريون قد استردوا أرضهم إلا قليلا. حتى هذا القليل لم يعد مشكلة. ولذلك فالمصريون يتراخون فى قضية الحكم الذاتى. وهذه مغالطة تمحو التاريخ الواضح لمصر. فمنذ الخطبة الأولى للرئيس السادات فى الكنيست وهو يدعو للسلام الشامل.. ولا سلام بدون فلسطين.. ثم إن مصر تدعو جميع الأطراف للمشاركة فى حمل الأعباء، ولا يزال الملك حسين يبعث شرقا وغربا أشكالا وألوانا من رجاله يسألون ما الذى يمكن عمله؟.. وكيف؟ ولا داعى لذكر الأسماء والتفاصيل حتى لا يتخذها الملك حسين ذريعة للانكماش مرة أخرى.. مع أن دور الملك حسين قد تحدد فى اتفاقية كامب دافيد، وكان ذلك بإصرار من الرئيس السادات..

وقد رفضت مصر قبل كامب دافيد وبعدها، أن يكون للسلام مع إسرائيل طعم الحل المنفرد. ورغم أن الملك حسين قد تهرب من المشاركة منذ اللحظة الأولى، فإن الرئيس السادات قد أصر على دعوة الملك حسين فى أية مرحلة. ولابد من دعوته. ولكن الملك حسين ليس متعجلا الأحداث، ولا المنظمات الفلسطينية أيضا.. وبعض الدول العربية المعتدلة قد أحست بغياب الولايات المتحدة. ورأت فى هذا الغياب عجزا أمريكيا عن اتخاذ القرار.. وهذه الدول العربية دفعها الفراغ المخيف الذى تركته أمريكا إلى أن تتجه بخوف أشد إلى الاتحاد السوفيتى. ولذلك أحست دول أوروبا الغربية أنها أقرب إلى أمريكا وإلى روسيا. وفى استطاعتها أن تقوم بهذا الدور الذى يرضى أمريكا ويرضى روسيا أو يغضب الاثنين. فأمريكا تفضل أن تقوم الدول الغربية بهذا الدور، وبذلك تبعد الدول العربية عن السوفيت. وروسيا ترى أن الدول الغربية منذ أيام ديجول، ماضية فى تعظيم وزنها الدولى بعيدا عن الولايات المتحدة، ولذلك فهى ترحب بأن يكون لها أى دور..

ولكن الدول الغربية ليست على وفاق فيما بينها، فهى الأخرى لا تستطيع أن تتخذ قرارا واحدا فى أى شئ.. والأمثلة على ذلك كثيرة: إيران وأفغانستان والدورة الأوليمبية والقضية الفلسطينية..

وقد حصلت القضية الفلسطينية على تأييد أدبى عظيم من النمسا ومن الاشتراكية الدولية. ولكن هذا التأييد لم يدفع بالقضية شبرا واحدا فى أى اتجاه..

وأقصى ما تستطيعه الدول الغربية هو العودة إلى الأمم المتحدة، وإشراك الاتحاد السوفيتى فى إصدار قرار بحق الشعب الفلسطينى فى حكم نفسه بنفسه.

هذا ما أعلنه اللورد كارنجتون وزير خارجية بريطانيا ونائبه يان جيلمور. وما أعلنته الدول الأوروبية أيضا.. واكتفت بهذا الاعلان الأدبى الذى يشبه زفة العروس، ولا يعنى الزواج القائم على التوفيق بين رجل وامرأة!..

ولم تسترح أمريكا للدور الأوروبى، أو انعدام الدور الأوروبى، ولذلك أعلن برزنسكى مستشار الأمن الأمريكى: أن أمريكا قامت بما هو واجب عليها، بقى أن نرى ما الذى سوف تفعله الدول الأوروبية!..

ولم تفعل الدول الأوروبية سوى أن قام الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان بزيارة دول الخليج. وملأ صدره من رائحة البترول. وجيوبه أيضا. فأغضب العرب واليهود معا.

أما العرب فرأوا الرئيس الفرنسى تاجرا أنيقا لأروع ما أبدعته فرنسا، وأعلن ياسر عرفات فى إذاعة «أوروبا رقم ١»: أن الرئيس الفرنسى ضحك على ذقون العرب - كأنه هو الوحيد الذى فعل ذلك فى ثلاثين عاما؟!

أما اليهود - فلأول مرة - يتحدون ويتظاهرون ضد الرئيس الفرنسى والحكومة الفرنسية فى عيد انشاء دولة إسرائيل. ولأول مرة يقرر يهود فرنسا أن ينتشروا، وأن يكون لهم دور إيجابى ضد الحكومة الفرنسية. ويتوعدون الرئيس الفرنسى فى الانتخابات القادمة..

وفى أول تصريح للسيد ماسكى وزير خارجية أمريكا الجديد قال إنه على وزراء خارجية الدول الأوروبية أن يفسدوا مفاوضات السلام واتفاقية كامب دافيد!..

ولكن العالم كله لا يعرف بالضبط ما يدور بين مصر وإسرائيل فى مفاوضات الحكم الذاتى. فالمفاوضات معقدة، وهى تجرى أو تتعثر فى ظروف صعبة، محلية أو دولية.. ولكن أهم ما فى المفاوضات هو ذلك الحرص من الطرفين على أن تمضى المفاوضات، وأن تكون هناك حركة بين البلدين وبين الطرفين. هذه الحركة تدل على إصرارنا على أن نستمر، وتدل على أننا أكبر من الصعوبات..

ولم يكن مفاجأة لأحد أن تتوقف المفاوضات. فقد كانت مفاوضات مدينة هرتسلية لها شكل «القعدة»، وذلك بأن توضع الكراسى فى صف واحد، الواحد إلى جوار الآخر، أو الواحد وراء الآخر، ويدور الحديث بأن يلوى كل إنسان عنقه، ويقول أو يسمع ما يقوله الآخرون. فلم تكن هناك مواجهة، إنما هى محاولات مستمرة ليتفادى كل واحد رؤية الآخر.

ولذلك كان لابد أن نتوقف. وتوقفت المفاوضات..

وليس صحيحا أن السادة بيجين وبورج وبقية وزراء اسرائيل، قد فوجئوا بقرار الرئيس السادات بالتوقف لإعادة الحساب وتقويم الموقف من جميع الجوانب..

ثم أعلن الرئيس السادات بعد حديث تليفونى مع الرئيس كارتر، أن المفاوضات سوف تستأنف بعد أن تعلن مصر تصورها الواضح لكل شئ.

وعاد الرئيس السادات يعلن توقف المفاوضات. ودارت الرءوس، وحارت الأقلام والميكروفونات. ولم يعرف العالم ماذا حدث بالضبط. وفقدت بعض الصحف الإسرائيلية عقلها، وطاشت كلمات غير مهذبة عندما أحس بعض الكتاب أن قرارات الرئيس السادات إهانة بالغة لإسرائيل. لأنه يلعب بها، دون أن يلقى ردا عنيفا من أحد؟!..

وليس لهذا كله سوى تفسير واحد، هو: أن «الجو العام» فى إسرائيل يزداد تشددا، فليست المفاوضات - أو انعدامها - فى هرتسلية هى السبب. ولكن تصريحات السادة بيجين وبورج وشارون، والدماء التى أريقت فى مدينة الخليل، والتصريحات الاستفزازية عن التوسع فى بناء المستوطنات، والاشتباكات بين إسرائيل والقوات الفلسطينية، وأشياء أخرى فى المفاوضات..

وفى نفس الوقت كانت إسرائيل تحتفل بمرور ١٣ عاما على إعلان القدس عاصمة موحدة لإسرائيل أى أن القدس حسب التقاليد اليهودية قد بلغت «سن الرشد»، ولذلك احتفل عمدتها السيد تيدى كوليك مع ٢٢ طفلا ولدوا مع القدس العاصمة، أمام تورتة كبيرة.

وفجأة تقدمت السيدة جيئولا كوهين، عضو حزب «البعث» الإسرائيلى، باقتراح بقانون: أن تكون القدس عاصمة موحدة لإسرائيل..

ومن حق أى عضو أن يتقدم بأى شئ، كأن يقول إن حاصل ضرب ٢ ×٢ يساوى حاصل جمع ٢ + ٢. وعلى الرغم من أن هذه بديهية، فإن أحدا لا يستطيع أن يرفضها. ووافق الكنيست بأغلبية على إحالة الاقتراح إلى اللجنة القانونية..

والتقاليد البرلمانية تقضى بأن تدرس اللجنة هذا الاقتراح، وتحيله إلى الكنيست لإعادة التصويت عليه، ثم يعود إلى اللجنة للمرة الثانية، وتعيده اللجنة إلى الكنيست، ثم يعيده الكنيست إلى اللجنة، وبعد التصويت الثالث يصبح الاقتراح قانونا.

وكانت الصحف الإسرائيلية قد أعدت مساحة لا تزيد على عشرة سطور. لنشر الاقتراح الاستفزازى الذى تقدمت به السيدة جيئولا كوهين. ولكن عندما لقى هذا النبأ رد

فعل عنيفا فى مصر، أخذت الصحف الإسرائيلية تعيد النظر فى هذا النبأ، وتهاجم السفير المصرى سعد مرتضى، وتتهمه بأنه لم ينقل صورة صحيحة لحكومته، وأنه وحده المسئول عن ذلك. وانطلقت شائعة تقول: إن مصر قررت سحب سفيرها فى إسرائيل..

ودارت مناقشات فى مصر بين السادة مصطفى خليل وكمال حسن على وبطرس غالى..

ورأوا أن اقتراح السيدة جينولا كوهين، ليس إلا محاولة غامضة متعمدة لتأكيد المواقف الإسرائيلية القديمة!..

وكان التخوف المصرى قد جاء من أن لدينا تصورا بأن «القوانين الأساسية» التى لها قوة الدستور فى إسرائيل، تبدأ بمثل هذه الاقتراحات إلى الكنيست. ومعنى ذلك أنه لن يمضى وقت طويل حتى يكون هذا القرار دستورا يدوس على عنق أية حكومة قادمة. وعلى ذلك فلا معنى لمفاوضات الحكم الذاتى!..

ولكن إسرائيل مثل بريطانيا دولة بلا دستور، بل لا تزال القوانين فى إسرائيل من مخلفات الانتداب البريطانى والحكم العثمانى، ثم إنه لا يمكن أن يصبح قانونا أساسيا إلا الاقتراحات التى تتقدم بها الحكومة، وليس ما يتقدم به أعضاء الكنيست!..

ولكن «الخوف العام» هو الذى جعل مثل هذا الاقتراح يبدو كما لو كان قانونا أساسيا نافذا ؟! أى أن «الجو العام» بين مصر وإسرائيل ومناقشات الحكم الذاتى هى التى جعلت من الحبة قبة!..

وجعلت لمثل هذه المناورة البرلمانية وزن وحجم «الشروط المسبقة» للمفاوضات بشأن القدس والضفة الغربية والحكم الذاتى..

ثم عادت مصر، وشرحت أن سوء فهم بعض الكلمات قد أدى إلى اتخاذ قرار التوقف الأخير.. ولكن الغموض والتشدد واليأس قد أصاب الجميع، ولذلك لابد من أن يمضى بعض الوقت..

وبعث الرئيس السادات برسالة إلى الرئيس كارتر. ثم برسالة أخرى إلى السيد بيجين. وكان فى النية أن تبعث مصر بهذه الرسالة إلى إسرائيل عن طريق السفير الأمريكى، ثم صححت هذا الإجراء الغاضب باستدعاء السفير الإسرائيلى د. بن اليسار. وكان فى النية إرسالها يوم السبت، وهو إجازة إسرائيل الرسمية. والإجازة المقدسة عند السيد بيجين، ثم عدلت مصر واستدعت السفير يوم الأحد..

وانتهز السيد مناحم بيجين هذا الموقف، ليشير فى رسالة بعث بها الرئيس السادات

إلى «أن مجلس الشعب المصرى قد اتخذ قرارات واضحة بشأن القدس والضفة الغربية، وذلك فى أول أبريل الماضى، وعلى الرغم من قرار مجلس الشعب، فإن اسرائيل لم تجد فى هذا القرار ما يمنعها من المفاوضات»..

(فقد أعلن مجلس الشعب المصرى: أن القدس جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، وأنه لابد من احترام الحقوق العربية التاريخية والدينية للقدس، ويطالب باستعادتها كاملة، وأن كل الإجراءات التى اتخذتها إسرائيل لتهويد المدينة باطلة، وأنه لابد من تطبيق قرارات مجلس الأمن الخاصة بالقدس. وأن من حق سكان القدس العربية أن يشاركوا فى إقامة سلطة الحكم الذاتى، وأن تكون القدس العربية مقرا للحكم الذاتى الفلسطينى الكامل..

ويقول السيد بيجين فى رسالة إلى الرئيس السادات: إنه رغم صدور هذا القرار من مجلس الشعب، فإنه لم يتخذ منه سببا لوقف مفاوضات الحكم الذاتى.. ولا أعتبره شرطا مسبقا).

والجانب الإسرائيلى لم يثر موقف مجلس الشعب هذا، لأنه معروف قبل ذلك. ولأن هناك مشاكل معقدة بين الدولتين، لا يضيف إليها كثيرا مثل هذا القرار الوطنى..

وفى نهاية رسالة السيد مناحم بيجين طلب من الرئيس السادات أن يقرر متى تبدأ المفاوضات، لأنه هو الذى قرر وقفها..

وقد سألت السيدة جيئولا كوهين عن سر هذا الاقتراح الذى تقدمت به، فقالت لى: إنما أردت فقط أن يسمع العالم كله صوت الكنيست وهو يعلن أن القدس عاصمة إسرائيل.. وأنها غير قابلة للتفاوض!..



وفى واشنطون التقى د. مصطفى خليل بالسيد سول لينوفتس لمدة ثلاث ساعات، ثم التقى الاثنان بالسيد ماسكى وزير الخارجية الجديد. وناقشوا قرار مصر بوقف المفاوضات.

وأخرج د. مصطفى خليل من جيبه النص العربى لقرار مجلس الشعب، ثم ترجمته إلى الإنجليزية.

وأعلن السيد لينوفتس أنه قد جاء فى رسالة السيد بيجين إلى الرئيس الأمريكى: أن الموقف الأخير للكنيست، ليس إلا ردا على موقف مجلس الشعب المصرى.

الا يدل ذلك على أن الحكومة هى التى دفعت السيدة جيئولا كوهين إلى تقديم

مثل هذا الاقتراح؟!

ولكن د. مصطفى خليل أبدى تخوفه من أن يتحول المشروع أو الاقتراح الذى وافق الكنيست على احالته اللجان، فيصبح قانونا. وقال د. مصطفى خليل: من يضمن لنا أن هذا الاقتراح سوف يدفن فى إحدى اللجان، أو يقفز من اللجنة إلى الكنبست إلى اللجنة؟!.



بقى الدور الأمريكى... فقد أحس الطرفان - مصر وإسرائيل - أن سول لينوفتس. كان وسيطا مهذبا، ولم يكن شريكا كاملا..

والوسيط الأمريكى يعرف مقدما، أنه هو الشخص القبيح الوجه عند الطرفين، فإذا ضغط على إسرائيل، استراحت مصر وغضبت إسرائيل.. وإذا ضغط على مصر، استراحت إسرائيل وغضبت مصر..

ولا تستطيع أمريكا أن تغضب مصر، ولا أن تغضب الناخب اليهودى.. ولم تهتد أمريكا بعد إلى إرضاء كل العرب..

وإذا كان فى استطاعة أمريكا أن تفعل شيئا قبل انتخابات الرياسة وأثناءها، فهو أن تبقى المفاوضات دائرة.. أو متنقلة بين الاسكندرية وهرتسلية طوال هذا الصيف. ولابد أن تتباعد اللقاءات بين الأطراف الثلاثة، إلى أن تحتفل بالرئيس الجديد لأمريكا. وأثناء الاحتفال بالرئيس الجديد، لابد أن نعطيه بعض الوقت ليستريح وليرتب البيت..

وسوف يتضح الموقف تماما بعد محادثات «كارتر - مبارك».

وقد سافر السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ومعه «عرض واضح للموقف المصرى الإسرائيلى، وللمواقف العربية المختلفة».

وسوف يعرض السيد حسنى مبارك على الرئيس الأمريكى كارتر «عددا من البدائل، أو عدة خيارات لاستئناف المفاوضات بين مصر وإسرائيل من أجل الحكم الذاتى»..

وسوف يناقش السيد حسنى مبارك مع الرئيس الأمريكى كارتر، محاولات بعض الدول العربية أن يكون لها دور فى مرحلة متأخرة.

والسيد حسنى مبارك يعلم مقدما مدى ما تستطيع أمريكا أن تقوم به فى هذا الوقت الضيق حتى نوفمبر القادم.

ويعلم مقدما أهمية استئناف المفاوضات عند كل الأطراف، خاصة عند أمريكا..

ولذلك فمن المتوقع أن تستأنف مصر المفاوضات مع أمريكا وإسرائيل فى أى وقت.

وإن كان «الجو العام» سوف يبقى ملبدا بالغيوم. لأن أحدا لا يقوى على تحمل مسئولية «تجميد» المفاوضات وقطعها. ثم إن أمريكا ليست فى حاجة إلى مثل هذا الفشل.. وكذلك الدول الغربية إذا أرادت أن تساهم بشئ فلن تقوى على إنجاح هذه المفاوضات، دون مساعدة من أمريكا!.. ■

حرب الدهاء بين مصر والاتحاد السوفييتى :
٤ جواسيس ولاجئ سياسى!

المخابرات: هى جمع المعلومات وربطها وتحليلها وتقديمها لصانعى القرارات السياسية، وليس من الضرورى أن يكون الذى يحلل المعلومات هو صانع القرار. ولذلك فالمسافة كبيرة بين الذين يجمعون المعلومات فى جميع أنحاء العالم أو «يشترونها» من العملاء، وبين الذين يقومونها، وبعد ذلك يقدمونها للساسة فى أى بلد. أمريكا - مثلا - تنفق ٧٥٪ من ميزانية أجهزة المخابرات على جمع المعلومات، ولابد أن روسيا تنفق أكثر، فلديها أكبر وأخطر جهاز للتجسس فى العالم..

وإذا كان الذين يجمعون المعلومات مثل النمل، يكدسون المعلومات من أى مكان وفى أى وقت ثم يتركونها، فإن العقول التى تحلل المعلومات تشبه النحل الذى يمتص الرحيق ثم يفرز شيئا جديدا..

أو بعبارة أخرى : إن الحرب بين أجهزة المخابرات هى حرب معلومات، أى هى حرب عقول، سلاحها الذكاء. وهذه المعلومات تشبه انتقال الصورة على شاشة التليفزيون، فالصورة تنتقل نقطة نقطة، ولكن بسبب سرعة الضوء الهائلة فإننا نراها متكاملة، ولكن عندما نقفل التليفزيون فإننا نرى الشاشة تظلم فلا تبقى إلا نقطة واحدة مضيئة، هذه النقطة هى آخر شئ فى الصورة.. حتى هذه الكتابة التى تراها خطوطا. فليست هذه الخطوط إلا نقطا متجاورة..

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/١/١٨

وكثيرا ما كانت المعلومات صحيحة، وكذلك التحليل، ولكن صانعى القرار لاعتبارات سياسية لم يأخذوا بها فكانت كارثة: بيرل هاربور التى أحرقها اليابانيون، والغزو الألمانى لروسيا، وهجوم كوريا الشمالية والتدخل الصينى سنة ١٩٥٠، ثم حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. فمصر قد قامت بثلاث مناورات ضخمة فيما بين ٧١ و ١٩٧٣ وواجهتها إسرائيل برفع درجة الاستعداد الحربى ولم تقع حرب. ووجهت إسرائيل اللوم لرئيس الأركان بسبب فداحة تكاليف التعبئة العسكرية. فلما عبرت القوات المصرية تحطم خط بارليف، كانت المفاجأة الكبرى والكارثة المحققة لإسرائيل. وعندما أعلن الرئيس السادات قراره بزيارة القدس، أدرك الجنرال جور أنه ربما كانت هذه خدعة مصرية لشن هجوم على إسرائيل، فاستعدت قواته فى سيناء حتى لا تفاجأ مرة أخرى بهجوم مصرى يحرر بقية سيناء!..

ومنذ طرد السوفييت من مصر وهم يحاولون الدوران حولها، وإحاطتها بالعملاء. أو محاولة التسلل إليها من داخلها.

فيوم كان عشرات الألوف من الخبراء السوفييت فى الجيش المصرى وفى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، لم يكونوا فى حاجة إلى عملاء أو جواسيس. فقد كانت مصر كلها بين أصابعهم أو فى جيوبهم. وكانوا يسيطرون على الجيش ويرفعون ويخفضون من يشاءون، وكانوا يجندون طلبة البعثات والمترددين على مراكزهم الثقافية..

وبعد أن طردوا من مصر راحوا يطوقونها فى ليبيا وأثيوبيا واليمن وسوريا وأفغانستان. وكلما اتخذت مصر قرارا سياسيا خطيرا فزع الروس يحاولون أن يهتدوا إلى جذوره ونتائجه. ولذلك تحولت السفارة السوفيتية فى القاهرة (٦٠ موظفا) ومكاتبها وموظفوها التجاريون والمهندسون (٤٤٠) إلى رجال مخابرات يلتقطون المعلومات ويشترونها من المواطنين..

وفى قاموس المخابرات يوجد تعبير «العميل النائم» أى الذى جندوه وتركوه للعودة إليه فى الوقت المناسب فهو عميل مصرى اتفقوا معه ورضى هو تماما عن ذلك لقاء أجر معلوم. أو خوفا من فضيحة، أو طمعا مزيد من المال.. وليس من الضرورى أن تنفرد السفارة السوفيتية وحدها بجمع المعلومات. إنما هى تكلف السفارات الشيوعية الأخرى بذلك. وقد يكون دور السفارات «نوعيا» فتتولى كل واحدة نوعا من المعلومات. وهى جميعا تصيب فى السفارة السوفيتية التى تضم ضابط مخابرات دبلوماسيين أو مدنيين.. فالسفارة ومكانتها الأخرى ليست إلا واجهات أو ساترا يخفون وراءه نشاطهم

فى معرفة كل ما جرى فى مصر.

ولاعتبارات سياسية يلقى القبض على رجل المخابرات السوفييتى ويطرد من مصر، دون تحقيق أو دون محاكمة. وهذا ما حدث لأربعة من رجال السفارة السوفيتية منذ أسبوع، فمصر تريد فقط أن تؤكد للسوفيت أنها تتابع نشاطهم. وتريدهم أن يحدوا من ذلك النشاط، ولا تريد مصر أن تتسع الهوة بين البلدين أكثر.. إذ يكفى أنها أسقطت شبكة تجسس وتداركت الأخطاء قبل أن تستفحل.

أما هذه «اللعبة» أى لعبة الرقابة والمتابعة والمحاصرة وإسقاط الجاسوس والعميل، فقواعدها معروفة عند الطرفين.. ولذلك فالطرفان يقرآن كتابا واحد المفردات والقواعد. ولكن الأسلوب مختلف فيما بينهما..

ويوم ١٢ يناير الحالى طردت مصر اثنين من ضباط المخابرات هما: يورى مارشينكو السكرتير الثانى بالسفارة وفلا ديمير ساوندسوف مساعد الملحق العسكرى أما ضابط المخابرات الأصلى الذى كان مكلفا بجمع معلومات عن نشاط مجلس الشعب، فهو فيكتور أزبوكين، وقبل طرده قام بتسليم العميل المصرى إلى زميله يورى مارشينكو.

وكان أزبوكين مكلفا بجمع معلومات عن نشاط مجلس الشعب وفى مطعم الكورسال ثم تسليم الموظف المصرى إلى يورى مارشينكو ليستأنف نشاطه فى جمع المعلومات..

أما العميل المصرى فقد تم تجنيده فى موسكو أولا.. فقد درس اللغة الروسية منذ ١٢ عاما. وأتقنها. وطلبوا إليه أن يأتى إليهم بمضابط مجلس الشعب، وأن يترجم بعض القوانين الاقتصادية. وأن يعرف السبب الحقيقى لزيارة د. كيسنجر لمصر.. ويعرف أيضا إن كان الرئيس السادات سوف يطرد بقية السوفييت من مصر بعد أو قبل «يوم أفغانستان».. ثم طلبوا إليه أن يعرف أسماء الوفد البرلمانى المسافر إلى إسرائيل، رغم أن الصحف قد نشرت ذلك أكثر من مرة.. وكان على الموظف المصرى أن يلتقى بأعضاء المعارضة فى مجلس الشعب..

ويوم ألقى القبض على يورى مارشينكو والموظف المصرى كان ذلك فى مصر الجديدة. فقد اتفق الاثنان على أن يلتقيا فى مطعم غرناطة. ثم غيرا الموعد ومكان اللقاء. واتفقا على أن يلتقيا فى مطعم بالميرا ليلا. ونزل كل منهما من سيارته، وسارا وحدهما إلى المطعم. وقدم له الموظف المصرى ترجمة لقانون الاستثمار. وخرج الاثنان لتحاصرهما النيابة والمحامى العام السيد رجائى العربى.

وأخرجت الأوراق من جيب يورى، ولم ينطق بكلمة واحدة. وأعلن: أنه لن يتكلم إلا أمام القنصل السوفيتى..

ولما سئل كيف التقى بالموظف المصرى، قال: أبدا.. كنت أمشى فى الشارع، وسألته إن كان يعرف اللغة الروسية. فقال: نعم.. قلت له: إذن فتعال نجلس معا..

ولما سئل عن هذه الأوراق التى أخرجت من جيبه قال: يجوز أنها كانت فى جيبى..

ولما سئل : من أين أتيت بها ؟

قال : ربما وجدتها على المنضدة..

ولما سئل : ألا تعرف ما بها ؟

قال : لم أقرأها بعد..

ويورى هذا له أفكار غريبة. فهو يعتقد أن هناك إلها. وأن هذا الإله هو امنحتب. وأنه قد ظهر بأسماء أخرى فى التاريخ، ولكنه هو الإله الحق.. وهو يعيب على المصريين: أن الطبيب لا يريد أن يجعل ابنه طبيا.. ولا المهندس.. وهو يرى أن الحضارة لم تزدهر إلا بالتوارث.. أو بأن تتراكم التجارب الإنسانية.. وأن الحضارات التى ذبلت وانقرضت، كانت بسبب هذه الفجوة أو هذه القطيعة بين الأجيال.. ولذلك فقد قرر أن يكون ابنه مهندسا مثله، وأن يدرس الحضارة الفرعونية، وكل الحضارات القديمة، وأن يؤمن بالإله الحكيم أمنحتب!.

وفى اليوم التالى جاء القنصل السوفييتى مارات سارا ليتوف ومحامى السفارة السوفييتية السيد عادل أمين..

وطردت مصر هذا الموظف بالسلك التجارى يورى مارشينكو، وسبقته إلى الطائرة زوجته..

ولخطورة هذا الدور الذى يقوم به رجال المخابرات فى روسيا وغيرها، وماله من دلالة سياسية، فلا يمكن القبض على ضابط المخابرات أو الجاسوس إلا متلبسا تماما، وقبل ذلك ألقى القبض على ضابط مخابرات سوفييتى فى الأزهر اسمه بيرفيرزيف، وفى يده وثائق سلمت إليه من عميل مصرى. وتم طرده يوم ٢ أبريل سنة ١٩٧٩.

ومن الأشياء التى أدهشت يورى فى مصر: أن المصريين لا يشربون الخمر.. وهو لا يعرف لذلك سببا. ومن رأيه أن الخمر عامل مساعد فى معرفة الكثير من المعلومات..

ومما يأسف له يورى: أن الروس خرجوا من مصر، ولم يتركوا صديقا واحدا. وأنه لا يعرف لماذا فشل الروس دائما فى التغلغل بين المصريين.. ويعترف بأن العيب فى الروس

وليس فى المصريين. لأن المصريين.. «عشريون» اجتماعيون بطبعهم.، ولكن الروس لأنهم شكاكون. ولأنهم فى حالة حذر وسوء ظن دائم، ليس فى استطاعتهم أن يكونوا على حريتهم أو على راحتهم مع أى أحد من الناس. فمن التعاليم التى يلقونها: ألا يذهب واحد منهم إلى بيت أى مصرى. فإذا ذهب فليكتب ذلك مقدما.. ثم عندما تنتهى الزيارة لابد أن يكتب بالتفصيل ماذا قال وقيل له وماذا أكل وماذا شرب. وما هى الفائدة التى عادت عليه أو يمكن أن تعود على روسيا من هذه الزيارة. وهل هناك احتمال ولو ١٪ أن يكون هذا المصرى صديقا أو عميلا بعد ذلك؟..

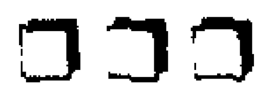
ويورى يعرف أن الحياة فى روسيا شاقة جدا. وأن أكبر عذاب يعانيه أى روسى هو أن يعيش بعض الوقت خارج روسيا، ثم يعود إليها.. فالمسافة بين الحياة فى أى بلد وبين روسيا شاسعة جدا..

وجد بعض الوقت ليسخر من حياتهم فى روسيا. فقال لنا هذه الكلمة. أراد أن يذهب إلى حفلة تنكرية راقصة، فلم يعرف ما الذى يلبسه. فنظر إلى والده يستأذنه فى أن يعطيه بذلته الجديدة!..

أى أن البذلة الجديدة فى روسيا ليست لها ملامح البذلة، إنما يمكن أن يرتديها إى إنسان فيبدو إنسانا آخر أو حيوانا!..

ومن رأى يورى أن أكبر خسارة للسوفييت هى خروجهم من مصر. ولو دخل السوفييت كل الدول العربية، فإن هذا لا يعادل طردهم من مصر، لأن مصر هى أكبر الدول العربية وأكثرها تأثيرا على المنطقة!..

ولذلك فالمحاولات مستمرة لاحتواء عناصر مصرية كثيرة، لعل الروس يعرفون شيئا عن التسليح المصرى، وعن صناعة القرار المصرى. وعن تفاقم العلاقات بين البلدين..



وفجأة ظهر رجل روسى آخر يريد ألا يعود إلى بلاده. طلب حق اللجوء السياسى. ووافقت مصر على ذلك. ثم طلب أن يسافر إلى أى بلد آخر.. ووافقت مصر على أن تسعى لتحقيق هذه الرغبة أيضا. إنه خارلوف لاديسلاف (٥٩ سنة). وكان مسئولا عن توزيع الكتب الروسية فى مصر.. وهو رجل قصير القامة. نحيف. ويبدو كما لو كان فى السبعين بسبب الإرهاق الشديد. وبسبب الدموع المعلقة فى عينيه. وبسبب المستقبل المجهول الذى ينتظره.. وقد سافرت زوجته ناتاليا إلى روسيا، فهى حريصة على أن ترعى ولديها: أحدهما سائق والآخر طالب. وهى لا تدرك بوضوح معنى هذا القرار الذى اتخذه

زوجها.. وقد قال لي خارلوف: إنه أحيانا يشعر بأن قراره ليس حكيما، ولكنه رغم ذلك يفضل أن يموت فى أى مكان على أن يعيش فى روسيا، وأنه لا يخاف الموت، إنما يخشى التعذيب، فهو إنسان لا يريد أن يتألم، ولو عاد إلى روسيا فسوف يرى أنواعا من العذاب لم يسمع بها أحد، وانهم لن يحققوا معه كما أفعل - فقد ظن أننى أحد المحققين معه. ولكنهم سوف يمزقونه عضلة عضلة، وعصبا عصبا. وسوف يجعلونه يرى عينيه فى يديه أو يرى أذنيه بين أصابعه.. أو أحشاءه.. أو يعذبون زوجته وولديه..

وخارلوف قد جاء إلى مصر مرتين، فى المرة الأولى بقى أربع سنوات.. وهذه المرة منذ سنتين ونصف. وفى المرة الأولى تعلم اللغة الانجليزية من سيدة مات زوجها فى حادث طائرة. والسيدة انجليزية وقد قالت له يوما: إن المصريين طيبون. وإننى أفضل الحياة فى مصر على الحياة فى بريطانيا!..

ولم ينس هذه العبارة. وأدهشه أن سيدة بريطانية تعيش فى الجنة الانجليزية، تفضل مصر على بلادها، وتساءل: إذن فماذا لو عرفت الحياة الحيوانية المهينة للإنسان فى روسيا؟ ماذا لو عرفت كيف يعيش الإنسان فى روسيا بلا حرية ولا كرامة.. ولا حق له فى أن يقول آه.. حتى إذا خلعوا أسنانه؟!..

ولما سألته: إن كانت هذه العبارة هى البداية لاتخاذ قراره باللجوء السياسى.. قال: لا أظن.. فأنا قررت منذ وقت طويل ألا أعود إلى روسيا، ولكن لم أجد الوقت المناسب..

وخارلوف يعيش مأساة عصيبة منذ أكتوبر الماضى. فقد لاحظت هيئة طبع وتوزيع الكتاب فى موسكو أن الكتب الروسية لا تلقى رواجا فى مصر، وطلبوا إليه أن يجد حلا، ولم يجد حلا. فلا أحد يريد أن يشترى كتب الدعاية. ولا أن يشترى هذه الكتب القديمة التى يحتجزونها فى القاهرة لعرضها سنوات طويلة دون إضافة شئ جديد لها، وأخيرا قام بحصر الكتب الروسية الموجودة فكانت أربعين ألفا. وقد تقرر إعادتها إلى الاتحاد السوفيتى، وشحنها إلى الاسكندرية، ثم قرروا عودتها إلى القاهرة. وهذه هى المشكلة؟..

فلا أحد اتخذ قرار إعادتها بعد. ولا أحد يسمح له بأن ينقلها، وليس مسموحا له بأن يدفع الشحن والنقل من جيبه..

وفى نفس الوقت يحاكمونه كل يوم عن مصير الكتب، وعن إحصاء كل دور النشر والمكتبات فى كل المدن المصرية. وانهار الرجل. وازداد جسمه ضعفا لدرجة أنه قد أغمى عليه منذ ثلاثة أيام وهو فى الحمام. فقد جاء بخار الماء الساخن خانقا. فسقط على الأرض حتى عاجله الطبيب بحقنة فى ذراعه..

وعندما ذهبت إليه ظللت أنتظره بضع دقائق حتى أكمل ربط الكرافته وتصفيف شعره في المرآة، ثم جلس هادئا، متحكما في أعصابه ينتقى بعناية وحرص شديد كل كلمة يقولها، ويسأل من جديد: هل قبلت مصر أن ألجأ سياسيا؟.. هل وافق الرئيس السادات على ذلك؟..

فيقال له : نعم.

فقد كان يخشى أن تسلمه مصر لبلاده تحت الضغط السوفيتى المتزايد.. ثم إنه رفض مقابلة أى مسئول من السفارة، ولا يزال رجال السفارة السوفيتية يحاولون الاتصال به لعلهم يقنعونه بالعودة إلى روسيا. ولكن الرجل أصر على ألا يلقى أحدا..

ثم يعود يسأل : هل أنت على يقين من أن الدولة التى تستقبل لجوئى السياسى لن تخضع هى الأخرى للضغط السوفييتى؟

ويقال له : إن إحدى الدول قد قبلت بالفعل..

ثم يعود يسأل: ولكن ما الذى أستطيع أن أقدمه من معلومات لهذه الدولة، ثمنا للجوء السياسى؟ إننى رجل كبير فى السن.. مريض.. وليست لدى أية معلومات.. فالنظام السوفييتى يمنع تداول المعلومات بيننا. فكل واحد منا لا يعلم إلا ما يدور فى غرفته. ولا يعلم ما يدور فى الغرف الأخرى المجاورة. لا يعرف ولا يستطيع أن يعرف. ولذلك كانت الأضرار قليلة إذا سقط الواحد منا فى شبكة أية دولة أخرى. فالقاعدة هى : أن تعرف حسب حاجتك!..

فيقال له: لابد أن هذه الدولة سوف تقدر ظروفك وحالتك الصحية. ثم إن لديها معلومات عن فلسفة المخابرات السوفيتية..

ويتساءل وهو ليس على يقين مما يقال له: متى يكون ذلك؟

ويقال له : قريبا..

أما غرفته فهى متوسطة الحجم بها مكتب وسرير وجهاز تكييف وتليفزيون ومدفأة، وهو لا يدخن ولا يشرب الفودكا إلا قليلا.. وهو شاحب الوجه، وليس مريضا، فقد أكد له الأطباء أن قلبه سليم. وأن ضغطه عادى جدا. ولكن قلقه هائل..

وعندما يتحدث عن زوجته يقول: إنها تحب ولديها، ولكنها لا تقدر تماما ما يدور فى رأسه. وهو لم يسئ إلى أحد، ثم إنه لم يرتكب جريمة ضد بلاده. فهو روسى وهو ماركسى. وإن كان يؤمن بالله.. بوجود إله.. وهذا الإيمان لم يجرؤ أن يطلع أحدا عليه. فالروس ملحدون..

وقلت له : إن يورى مارشينكو عندما علم أنك طلبت اللجوء السياسى قال: لابد أنك يهودى.. لأنه يعتقد أن اليهود فقط هم الذين لا يفضلون الموت فى روسيا ، لأنها ليست بلادهم..

فأجاب : لست يهوديا.. ولكنى أفضل الموت فى أى مكان.. فالحياة فى روسيا لكل إنسان هى العذاب النفسى والجسمى إلى غير حدود.. وأنا هربت من العذاب لكى أموت فى هدوء!..



وليست هذه إلا حلقة من حلقات حرب الدهاء بين مصر والاتحاد السوفييتى.. هدفها تفتيش جيوب مصر والتسلل إلى أفكارها ، وشراء ذلك بالمال والتخويف، ثم شحنها جميعا إلى موسكو..

وإذا كانت هناك حلقات ما تزال خافية اليوم، فلابد من إعلانها غدا. وتمضى الحرب إلى غير نهاية. من أجل الحصول على نقطة مضيئة تصبح صورة بعد ذلك عندنا.. وعندهم!.. ■

ولكى أزداد اقتناعا : دعانى إريك شارون لزيارة مزرعة والدته..
أتفقا على «تدويخ» العالم مرة ثانية!

فى الطائرة إلى مدينة هرتسليا منذ أيام خطر لى: أن الوفد الإسرائيلى رفض أن يقم فى فندق فلسطين «اعتراضا» على الاسم.. والوفد المصرى وافق على أن يذهب إلى مدينة هرتسليا - رغم أن المدينة منسوبة إلى هرتسل مؤسس دولة إسرائيل!..

إنه نفس المطار الذى رأى فيه العالم كله الخطوات الأولى للسلام.. بل إن هذه الخطوات قد بدأت عندما اقتربت طائرة الرئيس السادات من المجال الجوى الإسرائيلى.. وظهرت على شبكة الرادار وجاءت لحراستها طائرات الفانتوم الإسرائيلية.. إنه نفس مطار بن جوريون، ولكنه خلا من الناس إلا من فرقة موسيقية، وبعض حرس الشرف. وبضع عشرات من موظفى المطار ورجال الأمن والمخابرات والصحف.

والمسافة بين المطار ومدينة هرتسليا عشرون دقيقة... لا شئ يدل على أننا فى إسرائيل إلا الكلمات العبرية والعربية.. أما الأشجار والأزهار والأرض والوجوه البيضاء والسمراء، فمن الممكن أن تعيش معا على أية أرض أوربية - أية دولة من دول البحر الأبيض المتوسط.. وبعد ذلك فالمناظر عادية.. أما الذى يجعل كل من يذهب إلى إسرائيل يبحث عن الشئ غير العادى، أو الشئ المختلف أو الغريب فهو أننا ننظر إلى إسرائيل من وراء منظار العداوة والدهشة، فالعداوة قديمة وتحتاج إلى وقت طويل لكى تكون حسن جوار ومودة.. والدهشة سببها أن الناس الذين قابلناهم لا يعطوننا تفسيرا واضحا مقنعا :

نشر هذا الموضوع فى ١٩٧٩/٧/١٥

كيف استطاعوا أن يهزمونا فى معارك كثيرة؟..

وقد سألت الكثيرين منهم: قل لى من فضلك كيف انتصرتم علينا؟..

ويكون الجواب: نحن لم ننتصر عليكم.. نحن منتصرون على كل العالم!..

وعندما يجئ إليك مثل هذا الجواب تشعر أنك أخطأت مرتين.. مرة لأنك وجهت هذا السؤال. ومرة لأنك اخترت هذا الشخص بالذات.

وتبقى الدهشة كما هى.. ففى أثناء العشاء فى فندق «أكاديا» سألت جارى: قل لى وحياتك كيف انتصرتم علينا؟..

ويكون الجواب معقولا: تماما كما انتصرتم علينا.. فعندما كنتم تدافعون عن غيركم انهزمتم سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧.. ولكن عندما أردتم استرداد أرضكم المصرية فى سنة ١٩٧٣ انتصرتم.. وكذلك نحن: لنا قضية. ونحن مؤمنون بها. وليس أمامنا إلا النصر أو الموت.. بل أنتم الذين تقولون ذلك لجنودكم.. فقد استجوبت عددا من الأسرى المصريين فى حرب ١٩٦٧. ولم ينقصهم الإيمان ولا الشجاعة. ولكن أشياء أخرى تنقصهم فهم يقولون : النصر أو الشهادة.. أى النصر أو الموت فى سبيل الله والوطن..

واليهود لم يكن أمامهم: إلا الموت أو النصر.. أو إما النصر أو النصر.. فالشعب اليهودى لا يقوى على مثل هذه الخسائر الفادحة فى الأرواح والأموال!..

وهو لم يبعد كثيرا عن الحقيقة إلا عندما قال إننا فى حربى ٤٨ و ٦٧ لم نكن ندافع عن أنفسنا.. بل كنا ندافع عن الأمة العربية وعن الوجود الفلسطينى الذى كان وسوف يبقى وجودا عربيا - رغم الدماء المصرية التى استباحوها!..

ولما رحت أتمشى فى شارع دنترجهوف فى تل أبيب.. لاحظت أن أكثر الشارع من النساء السمروات والشقراوات وقد ارتدين القصير والواسع والطويل والأحذية والشباشب.. نمل أو نحل.. والمحلات كلها صغيرة. وغالية الثمن.. ورأيت الفتيان يعاكسن الفتيات.. ولم تقع عينى على فتاة جميلة - إذن فأين فتيات أورشليم اللاتى تحدث عنهن نشيد الإنشاد.. أين الجمال الإنشاد.. أين الجمال والدلال.. إنما كل ما هناك الأجسام نحيفة والخطوة سريعة عصيبة والعيون جرئية جامدة.. والأصوات عالية.. والناس عليهم عفريت.. لا يعرفون الهدوء ولا السكون ولا الراحة.. وتساءلت: كيف انتصر علينا هؤلاء الناس. كيف؟ هل حاربونا على أرضنا أو حاربونا فى نيويورك وبقية العواصم الأخرى؟.. هل إسرائيل مثل سفن الفضاء تدار من مكان بعيد وبعيون وأيدى وأموال مئات الألوف من المتخصصين؟!..

قلب لى حاخام: خذها منى.. إنه الإيمان بقضية.. إيمانا جاوز حدود الهوس أو الجنون!

ولم يكن هناك معنى لأن أحاوره فى معنى القضية: هل هى قضية اغتصاب أرض الآخرين؟.. هل هى قضية طرد الشعب الفلسطينى والقضاء عليه؟..

ووجدت سيدة إلى جوارى.. إيطالية بولندية برازيلية، ولا أعرف ما الذى شجعنى على أن أسألها: هل هو الهدوء الذى أغرانى بأنها ليست «يهودية» الملامح؟.. هل هو القليل من الإنجليزية الذى تعرفه دفعنى إلى أن أحدثها بالإيطالية؟.. سألتها: قولى لى من فضلك. أو بالعبرية - تسلخى لى - كيف سيطرتم على العالم هكذا؟..

قالت : إن لم تكن تعرف فهى الفلوس يا سيدى.. أن تأتى بها: براعة.. وأن تشترى بها: براعة.. وأن تحسن استخدامها واستخدام الآخرين: براعة يهودية!.. الخ.

ولم يكن هدؤها إلا ظاهريا.. فهى الأخرى تخفى وراء كل ذلك بركانا من الغرور والامتلاء والنفخة.. ولم أجد شهيتى مفتوحة لسماع مزيد من ذلك..

ولكن لديهم ما يجعلهم قادرين على التغلب على الآخرين.

يكفى أن الحرب عندما تنشب فى إسرائيل فكل إنسان جندى.. وقد نشبت الحرب فى مصر خمس مرات.. ولم يشعر بها إلا عدد قليل جدا من المحاربين المحترفين، أما نحن فمتفرجون على كل ذلك.. أو ساخطون على كل ذلك.. أو قادة عسكريون نفهم فى الحرب وفى النكسة وفى العبور أكثر من العسكريين أنفسهم!..

وأخرجت المفكرة من جيبى وحذفت أربعة اسئلة وجدت عنها الجواب فى الساعات الأولى من وجودى فى مدينة هرتسليا - نسبة إلى الصحفى النمساوى تيودور هرتسل الذى نادى بالدولة اليهودية.. ولكن إسرائيل لا تشعر بهذا الاحترام العظيم للصحفيين.. فهرتسل يلقى الاحترام لا لأنه صحفى، إنما لأنه مفكر شديد الإيمان، وصاحب مبادرة واضحة المعالم فى قيام الدولة الإسرائيلية.

وبقية المشاهد فى هرتسليا مألوفة: علامات أن على صدورنا، وأسلاك شائكة.. ورجال أمن آخرون عند مدخل الفندق ومدخل المصاعد والطوابق.. وفوق الأسطح.. وتحت الشماسى حول حمام السباحة.. والعيون كلها علينا داخلين خارجين.. لا تعرف ما يقولون، وإن كان من السهل الاهتداء إلى الصحفيين فى أى بلد.. عيونهم على بعضهم البعض.. وآذانهم على التليفون والميكروفون ودكاكين الصحف.

وأخرجت المفكرة من جيبى وحذفت عددا من الأسماء الكبيرة بسبب «وجودهم خارج

البلاد » - كما يقولون عادة..

ووجدتنى فى جناح وزير الزراعة أريك شارون.. الرجل ليس غريبا.. فقد رأيته بملابسه العسكرية.. يوم دخلت قوات إسرائيل «الثغرة» فى الضفة الغربية لقناة السويس فى أشهر عملية تليفزيونية فى التاريخ.. فقد دخل شارون بدباباته فى مصيدة مصرية.. وتوقف القتال.. وبدأت المفاوضات من أجل فك الاشتباك ومن أجل وقف إطلاق النار.. والتمهيد لمفاوضات السلام على كل الجبهات.. ويومها كان اليهود يطلقون على شارون الذى استدعوه من خارج الجيش، اسم الملك شارون.. وكنا نضيق برأسه الكبير وشعره المنكوش كأنه أحد الجنود الرومان.. وكنا نتساءل: ما الذى لديهم وليس لدينا؟. ما الذى يجعلهم هكذا واثقين من أنفسهم.. أو على الأصح لاثقة لهم فى قدرتنا على القتال؟..

ورأيت شارون فى مطار بن جوريون..

سألت اريك شارون: ما الذى قاله لك الرئيس السادات عندما رآك فى المطار؟

أجاب : نادانى مرتين.. وقال إنه كان سيعتقلنى.. وضحكت.. لأننى لو وقعت فى يده لفعل ذلك..

ونظرت إلى شارون بوضوح.. إنه متوسط القامة.. ممتلئ الجسم وله كرش.. ولذلك فعندما يجلس فى مقعده فإنه يتراجع بظهره ليعطى لكرشه الوضع المناسب.. ورأيت شارون فى الكنيست إذا مشى فأنه يتساقط على الجانبين وإلى الأمام.. وسبب ذلك أن ساقيه متباعدتان تماما. وإن الساقين بينهما مسافة على شكل(٨)..

وفاتنى أن أسأله تفسيراً لذلك، أو أسأل أحدا!.

وعلى المنضدة الصغيرة أمامنا تورتة مكتوب عليها «السلام» بالعبرية.. لا دعانى إليها ولا أشار إلى أحد أن يفعل ذلك.. ولابد أن هذه التورتة هى جزء من الديكور.. أو أنها «حلاوة السلام» فقط.

فقلت له : لدى صورة عنك من الصحف الإسرائيلة أنك رجل غليظ خشن، وأنه من الصعب أن يتحدث إليك أحد دون أن يستشعر المخاطرة، مخاطرة الدخول معك فى خناقة.. وقد رأيت لك صورا لمناقشاتك فى الكنيست. إنها تؤكد هذا المعنى أيضا.. ولكن القضية التى نتصدى لها تساوى هذه المخاطرة!..

قال شارون ضاحكا، ولم يكن تعيسا بهذه الصورة، بقدر سعادته أن تكون له صورة معروفة فى الخارج بأنه رجل متشدد، وجاء حديثه بعد ذلك تفسيرا وتبريرا لذلك. قال: الصحف تظلمنى وتقوم بالتشهير والشوشرة، إننى أتهم بعض الصحف الإسرائيلية

بالتخريب والخيانة. وأشار إلى صحيفة ها آرتس وإلى ما نشره كاتب اسمه «الليطاني» قال: هذا تخريب.. إنهم يحجبون أخبارى ولا ينشرونها فى حينها، ثم يختارون الوقت غير المناسب وينشرونها.

مثلا اليوم عندنا مفاوضات عن الحكم الذاتى.. ولذلك ينشرون أخبارا عن المستوطنات. هذه الأخبار قديمة عمرها سنتان.. والغرض من ذلك هو نسف المفاوضات أو إثارة الناس.. أو التشهير.

وكانت لهجته حادة بعض الشئ.. وعاد كأنه ينفى عن نفسه تهمة الهدوء.. لا تهمة العنف، فقال: ولكن إذا كان الموضوع يتعلق بأمن إسرائيل ووجودها، فلابد أن أثور وأن أكون تماما كما وصفتنى الصحف الإسرائيلية..

وقاطعته لأدخل فى الموضوع: بالضبط ما هى وجهة نظرك فى قضية المستوطنات؟.. إن الذى نقرؤه عنك يجعلك فى الطرف المختلف تماما عن الرأى العام اليهودى والعالمى كله. ويتنافى مع اتفاقية السلام.

قال: الحل الوحيد هو أن الفلسطينيين يأخذون الأردن. هذه هى الدولة الفلسطينية ولا يوجد أى حل آخر. أما بناء المستوطنات فهو ضرورة أمن وضرورة حياة للشعب اليهودى. إن أرضنا ضيقة. ومواردها محدودة. ولا يمكن أن تقوم فلسطين أخرى إلى جانب فلسطين التى هى الأردن..

قلت : وهل فى إسرائيل من يؤيدون رأيك هذا؟..

قال : كثيرون.

قلت : كثيرون ضدك أيضا ومن حزب حيروت وحزب العمل.. حتى رجال الدين.. واليهود فى العالم.. وأمريكا والدول الغربية والاتحاد السوفيتى.. فأنت تقف على رأس أقلية عسكرية فقط.. تستفيد من أن السلام لم يتحقق بعد.. وأن المفاوضات ما تزال جارية متوقفة أو متعثرة، ولكنها متحركة من أجل الاتفاق على مفردات السلام بين كل الأطراف.. إنك لم تبعد كثيرا عن بن جوريون.

قال : لا..

قلت : أعرف.. لا يزال رأيك أن الأرض قبل السلام. وأن الأرض هى السلام. ولكن كيف تبنى مزيدا من الكراهية والخوف والمرارة على أرض الغير وأنت تتوهم أنك تبنى واحات السلام والمحبة بين العرب؟. فالعرب باقون والعرب الفلسطينيون باقون وفى أرضهم اليوم أو غدا. وإنك إذا كنت قد اغتصبت أرضا. فقد اغتصبت حقا أيضا.. وإنك لست

أحق من الشعب الفلسطينى فى أن يكون له وطن على أرضه..

وقال : ونحن لنا وطن على أرضنا.. أرض الأجداد من ألوف السنين.

قلت: إن ما يقوله الدين فى قضية الأرض ليس حجة علمية.. فالتوارة ليست كتابا فى الجغرافيا أو الفلك.. ومع ذلك فهذه قضية لا تناقشها.. ولا أحد يناقشها. فكتب الدين ليست دليلا على أى شئ فى هذه القضية.. إنما هى قضيتكم أنتم.. تختارون من التوارة أسماء تضعونها على الأرض وتقيمون عليها مستوطنات لا حق لها فى فى أن تقوم!.

قال : إننا لا نريد أن نستفتى العالم كله على إرادتنا فى أرضنا وفى أمتنا وحياتنا.

قلت : يكفى ما دار فى الكنيست الإسرائيلى.. فأنت قد اتهمت عددا من أقطاب السياسة والحرب فى إسرائيل بأنهم جواسيس وخونة.. فأنت هاجمت زعيم المعارضة بأنه لم يحمل السلاح ولم يدخل الحرب. مع أن شيمون بيريز معروف دوره الكبير فى وزارة الدفاع.. وأنت تعلم أن الرجل الذى لم يحمل السلاح دقيقة واحدة هو مناحم بيجين.. وكل ذلك قيل فى الكنيست.. ثم إنك هاجمت مندوب التليفزيون وهو درزى، وقلت إنه لا يصح أن يعمل فى التليفزيون إلا اليهود فقط.. وقام المندوب الدرزى فى الكنيست وهاجمك بتهمة التفرقة العنصرية..

إذن فهناك من يعارضك إلى حد القتال. ومن تعارضه أنت إلى درجة الخيانة.. وكل ذلك فى إسرائيل وحدها.. فلست فى حاجة إلى أن تذهب إلى أبعد من اسرائيل لترى هذه المعارضة العنيفة.. وفى الشوارع مظاهرات تقودها جماعة «السلام الآن».. وكلها ترى أن بناء المستوطنات هو استفزاز منظم تتولاه أنت والحزب من ورائك..

واتخذ أريك شارون هذه الجلسة المتصلبة.. فقد ملأ المقعد بجسده وكرشه. ولم يغير هذا الوضع، تماما كما لم يغير شيئا من آرائه أو من حدة آرائه.. ولا كذلك سكرتيره الذى جلس هو الآخر وقد وضع ساقا على ساق.

وكانت بعد ذلك محاضرة طويلة عن طبيعة الشعب اليهودى وحياته فى هذه المنطقة الخطرة. ولذلك كان لابد أن يكون الأمان فى الدرجة الأولى. والأمان هو الأرض، مع أن الأمان هو السلام.. فالأرض لا تحمى أحدا. تماما كما أن خط بارليف لم يحم أحدا.. كما أن الأرض مهما اتسعت فإن الصواريخ قادرة على تهديدها واختراقها.. لقد انتهت عصور الجدران العالية والأبواب المغلقة حول المدن.. كان ذلك أيام كانت الحروب برية وعلى ظهور

الخيول والفيلة.. أما الآن فالصواريخ لا يقودها أحد ولا يراها أحد.. وإنما هي تنطلق إلى أهدافها المؤكدة دون أن تعوقها السماء أو الماء أو الأرض - وكل هذه بديهيات.. ولكن شارون يرى أن الأرض - أرض الغير - هي الأمان من الغير.. وقد اعترض عيزر فايتسمان على ذلك تماما. مؤكدا أن هذه المستوطنات ليست لها أية ضرورة عسكرية.. وأنها تجعل الموقف أصعب، وأنها تعوق السلام الذي يريده الجميع.

يكفي أن يرى الإنسان عشرات الألوف من الأطفال الأصحاء في شوارع بير سبع، وسعادة أمهاتهم جميعا بأنهم أبناء السلام.. وبأن السادات قد وعدهم بالحياة. كما وعد ملايين الأطفال في مصر والبلاد العربية بأنهم لن يكونوا ضحيا حرب بعد اليوم حتى نهاية هذا القرن.

ولم يكن عيزر فايتسمان وزير الدفاع صاحب هذا الرأي وحده. بل شاركه وزير الخارجية موشى ديان اتفق الرجلان وكان من النادر أن يتفقا على شئ!..

ودعاني اريك شارون أن أذهب لزيارة مزيد من المستوطنات. وأن أزور السيدة والدته بصفة خاصة، فهي تزرع الأرض. وهي نموذج للفلاحة اليهودية!..

وأخفيت ضحكة عندما سمعت أنها نموذج للفلاحة اليهودية، فلم يعرف اليهود فلاحة الأرض إلا أخيرا جدا.. ولم يعرفوا العسكرية إلا أخيرا جدا جدا!..

فهو يعرف وأنا أيضا أن أسرة روتشيلد قد انفقت مئات الملايين على تعليم اليهود فلاحة الأرض!..

ولا أعرف لماذا تذكرت والدة كاتبنا الكبير توفيق الحكيم.. فقد كانت هي الأخرى تفلح الأرض. كانت سيدة قوية الشخصية لها أرض ولها مزارع دواجن.. وكانت سيدة الإقليم ووعدته أن أفعل، ولكن ضاق الوقت.

وسألت أريك شارون ولم أتوقع جوابا، قلت: إن مناحم بيجين يريد أن يحل القضية الفلسطينية حلا مبتكرا، فهو يرى أن الشعب الفلسطيني يجب أن تستوعبه الدول العربية كلها.. أي يقوم بتصفية الشعب الفلسطيني.. لتبقى إسرائيل يهودية تماما. وبذلك فلا داعي لأن تقوم دولة فلسطين.. والغريب جدا أن العالم كله كان قد استوعب الشعب اليهودي.. ومع ذلك راح الصهاينة ينادون بقيام دولة اليهود.. فهو يطلب من الشعب الفلسطيني أن يصرف نظره عن الدولة وأن يذوب في الدول الأخرى.. ولماذا لا يفعل بيجين بإسرائيل نفس الشئ.. يتركها لأهلها ويذوب في الشعوب الأخرى كما كان ذائبا من قبل؟!.

سألنى أريك شارون: هل ما يزال رأيك أنى رجل خشن غليظ.. قلت: لا. فلم يكن هناك داع لأن يكون كذلك مع كاتب لا يعرفه.. وأظن أنه لا يفعل ذلك إلا على سبيل الاستعراض فى أرض المستوطنات أو فى الكنيست.

وفى صباح اليوم التالى فوجئت أن جميع الصحف الإسرائيلية فى صفحاتها الأولى قد تقدمت بعناوين كبيرة : رئيس تحرير مجلة أكتوبر يقول : إن شارون ليس خشنا ولا متغطرسا كما توقعت!..

والذى أدهشنى أنه سبقنى ونشر الحديث «الخاص» - أو الذى أعلن سكرتيره لى أنه خاص!..

ولما سألت الصحفيين الإسرائيليين عن تفسير ذلك قالوا : إنه انتهز فرصة الحديث معك ليحسن صورته العنيفة أمام الناس!..

ونشرت صحيفة أخرى تقول: شارون يدعو رئيس تحرير مجلة أكتوبر لزيارة والدته وقد وعده بذلك!!.

ثم وجه أريك شارون الدعوة إلى وزير الزراعة محمود داود فى رسالة بعث بها مع د. بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية عندما التقى به فى بير سبع.

ثم عاد شارون الفريق كمال حسن على لرؤية المستوطنات لعله يقتنع بأهميتها ؟!

وكان فايتسمان قد أعد لهم طائرة هيلكوبتر.. ولكن وزير الدفاع المصرى اعتذر عن عدم ركوبها. وركبوا سيارة. واشترط الوزير المصرى ألا يتجاوز الخط الأخضر - أى حدود سنة ١٩٦٧. وألا يدخل أية مستوطنات إسرائيلية..

وأراد شارون أن يبين للفريق كمال حسن على مدى التقارب بين المدن الإسرائيلية والقرى العربية. واختار بالذات مدينة قلقيلة التى تبعد ١٨٠٠ متر عن ضواحى تل أبيب.. وقال للوزير المصرى: إن العرب هنا يصدرون الفراولة إلى الخارج ويكسبون مالا كثيرا، ولم يشأ وزير الدفاع المصرى أن يعلق بشئ. فقد اشترط قبل بدء هذه الزيارة ألا يصدر عنه أى تعليق..

وقال شارون: إن الذى نقوم به الآن قد وافقت عليه الحكومة الإسرائيلية منذ سنتين.. ولذلك نبنى المستوطنات ونشق الطرق.

قال الفريق كمال حسن على : إن الذى تعملونه لن يخدم السلام. وأنت تتصرف كما لو كنت قائدا عسكريا تخطط لمعركة.. مع أن الدنيا تغيرت ويجب أن تخططوا للسلام. وعندما مرت السيارة بالقرب من مدينة تيرقال شارون: لولا أننا لم نخطر والدتى التى تبلغ

من العمر ثمانين عاما، لدعوتك لزيارتها لترى كيف إنها تزرع الأرض بيديها..

وفى نفس الوقت أعلنت المحكمة العليا فى إسرائيل أنه لا حق للمستوطنين اليهود فى الاستيلاء على أرض الغير. وكانت أرض الغير زراعية (وهو عكس ما قاله بيجين فى مؤتمره الصحفى فى الاسكندرية!)..

والرأى العام اليهودى فى أمريكا. وهو دافع المال وصانع القرار، فى حالة غضب شديدة على سياسة إسرائيل وموقفها من ثلاث قضايا: الأولى: المستوطنات التى ترى مصر وأمريكا بمنتهى الوضوح أنها غير شرعية وأنها استفزازية.

وقد أرسل الرئيس الأمريكى كارتر رسالة خاصة إلى المستشار الألمانى شميت فى الشهر الماضى يطلب إليه أن يساهم فى اقناع الدول الغربية باتخاذ موقف أكثر تشددا ووضوحا من تجريم المستوطنات..

فى نفس الوقت تعالت أصوات فى إسرائيل - غير صوت شارون - ترى أن المستوطنات لن ترقى إلى مستوى خط بارليف الذى لم يمنعنا من تحطيمه!.

وبارليف نفسه هو الذى هاجم شارون قائلا: من الجبن حقا أن تعلن الحكومة أن اعتبارات الأمن هى التى دفعتها إلى بناء المستوطنات. لماذا لا تعلن صراحة أنها الدعاوى التاريخية التى جاءت فى التوارة!.

ولكن جماعة جوش أمونيم الرومانسية المتهوسة ترى أنه ليس الأمن. فلو كان الأمن هو الدافع الحقيقى لقيام الدولة لاختار اليهود كينيا أو اوغندا أو استراليا. بدلا من أن يختاروا قلب العالم العربى الذى يكره اليهود!..

والحقيقة أنهم اختاروا هذه الأرض العربية لأسباب كثيرة، رغم العدواة المحيطة بهم من كل جانب.. ولكن جدران العدوان انهارت مع خط بارليف. والفرصة نادرة أمام إسرائيل أن تبنى السلام على التسامح والاعتراف بحق الشعب الفلسطينى كما اقنعت العالم كله بحق الشعب اليهودى..

والثانية : قضية الجندى الإسرائيلى الذى قتل أربعة من المسجونين الفلسطينيين فى العام الماضى. وقد أدانته المحكمة.. ولكن رئيس الأركان رفائيل ايتان قد داس القرار بالجزمة دفاعا عن القاتل - لأنه صديق لابنته؟!

ولقد نشرت صحيفة «واشنطون بوست» عدة تحقيقات لمراسلها فى القدس فى صفحاتها الأولى ومعها هذه الملاحظة: هذا هو القدر الذى سمحت به الرقابة فى إسرائيل!

الثالثة : أن وزارة الشئون الاجتماعية فى إسرائيل قد حذرت إحدى الجمعيات

الإنسانية الخيرية فى أمريكا من مساعدتها للمعتقلين الفلسطينيين، هذه الجمعية اسمها «كويكرز - أى المرتجفون من خشية الله ومن عذاب الإنسان للإنسان». وقد ظلت هذه الجمعية تساعد الفلسطينيين من ثلاثين عاما بالمال والمحامين، ونشر قضاياهم وفضيحة الظلم والإرهاب الإسرائيلى..

☐ أتفقا على «تدويخ» العالم مرة ثانية !

وفى الاسكندرية حدثت أشياء كثيرة خطيرة، ففى الأسبوع قبل الماضى نشرنا هنا فى «أكتوبر» أن لقاء الرئيس السادات بالسيد بيجين سوف يكون حاسما. وأن الرئيس السادات لم يشأ أن يعلق على البيانات والتصريحات الاستفزازية فى إسرائيل من بيجين ووزرائه، انتصارا لهذا اللقاء الهام جدا. وكان اللقاء هاما جدا..

وتحيرت الأقلام والكاميرات والتليفونات فى أيدى الصحفيين: إن السادات راضى تماما وكذلك بيجين.

ولكن ما الذى أرضاهما؟ إنهما مختلفان على المستوطنات. اعترفا بذلك، ومختلفان على الحكم الذاتى. ثم إنهما استنكر تقسيم لبنان.

واستنكار بيجين معناه: أنه لا يقر سعد حداد على قيام دولة مستقلة رغم أن بيجين يساعده ماديا وعسكريا، وقد أعلن ذلك فى كامب دافيد.

ونحن نعلم أن جيش سعد حداد يضم عددا من المسيحيين من البلاد العربية يحاربون المسلمين، تشجيعا على الانفصال وتمزيق دولة عربية - مع الأسف الشديد.

رفض السادات لتمزيق لبنان أيضا لهذا المعنى. ولمعنى آخر هو أن سوريا هى التى تحتل لبنان، وهى التى تطمع هى الأخرى فى أن تبتلع جانبا من لبنان.. ومعنى ثالث هو أن السادات يرفض تمزيق تشاد واستيلاء ليبيا على مساحة من شمال البلاد..

ولذلك حار الصحفيون فى هذا الذى أسعد الرجلين إذا كانا قد اختلفا على أشياء كثيرة واتفقا على أشياء أخرى دون تفاصيل عن مضمون الاتفاق.. أو عن وسائل تحقيق الاتفاق؟..

ولابد أن ينتظر الصحفيون حتى يعود بيجين إلى إسرائيل. وحتى يبعث برسالة إلى الرئيس كارتر يخطره بهذا الاتفاق!..

إن موقف الرئيس السادات هذه المرة يشبه تماما موقفه أيام كامب دافيد. فقد أعلن أن اجتماعا مع كارتر استغرق نصف الساعة قد غير التاريخ. وبعد لقاء الرئيس السادات

كارتر فوجئ العالم باقتراح أمريكي جديد.. فما الذى قاله السادات؟.. وما الذى اتفق عليه مع كارتر؟. وكيف إن هذا الاتفاق قد أدى إلى اقناع بيجين؟ وكيف إنه جعل الرئيس السادات يعدل عن حزم حقائبه والعودة مباشرة إلى مصر؟.. وقبل العودة كان قد قرر أن يطلع الشعب الأمريكى والعالم على ما حدث. وبذلك يتحول العالم كله من متفرج على ما حدث. إلى شاهد وشريك فى حفظ السلام العالمى!.

وهذه المرة التقى الرئيس السادات بالسيد مناحم بيجين مرتين.

ولم يخف بيجين سعادته بذلك. فقد قالها لمرافقة د. عبد الحميد حسن وزير الشباب: تصور لقد جلست مع الرئيس السادات مرتين. وفى هاتين المرتين تغير كل شئ. إننى سعيد تماما.

وفى لقاء السيد بيجين مع رئيسه تحرير دافار. وهى معارضة له، قال لها: لقد حدث شئ أكثر من السلام!.

أى ليس السلام فقط. ولكن ما هو أكثر من السلام.

ولكن مئات الصحفيين أحسوا أن «المعمل الفضائى» قد تحطم على رؤوسهم فداخوا.. دوخهم الرئيس السادات!.

أما الذى حدث بين الرئيس السادات والسيد بيجين فهو بالفعل شئ هام.

أولا: جلس الرجلان وتصارحان تماما، قال له الرئيس السادات: لا أريد أن أضع شيئا تحت الترابيزة ولا شيئا وراء ظهرى. وعليك أن تفعل نفس الشئ. سأصارحك ، ماذا أريد، وماذا أستطيع؟.. وأنت تفعل نفس الشئ. وعلينا أن نتفق أو أن نختلف وكان موضوع المصارحة هو: ما هو الممكن. وما هو الصعب، وما هو المستحيل؟.. وكانت هذه أول مرة يتصارح فيها الرجلان بمنتهى الموضوعية والأمانة والصدق.

ثانيا: استعرض الرجلان كل الصعوبات التى تواجه البلدين. أما السيد بيجين فقد استعرض مشاكله الداخلية والحزبية والبرلمانية ومجلس الوزراء أيضا. وأدرك أن الرئيس السادات على علم تام بذلك..

واستعرض الرئيس السادات أيضا المتغيرات فى الشرق الأوسط وموقف مصر من البلاد العربية والتحديات التى تواجه الجميع داخليا وخارجيا..

أما اتصال أمريكا بمنظمة التحرير الفلسطينية. فمن المعروف أن المبعوث روبرت اشتراوس قد قابل عددا من زعماء المنظمة. كما أنه عندما اجتمع بالسفراء العرب فى واشنطون قد صارحهم بكل شئ. وأعلن أن أمريكا ملتزمة باتفاقيات كامب دافيد، وأن

أمريكا سوف تطلع العرب على خطواتها. وأنها تقدر كل الصعوبات التى تواجه العرب. وأنه لايعد بالمعجزة، ولا أن أحدا قد طالبه بذلك.. ولكنه يؤكد ما هو معروف عنه: أنه لم يفشل حياته قط.. وأنه قد ولد من أب فقير عاش ومات فقيرا.. ولكنه استطاع أن يكون مليونيرا. وأن يكون أعز وأبقى وأصدق أصدقاء الرئيس كارتر.. وأنه من الممكن أن يكون صديقا للجميع لأن الهدف واحد وهو: سلام العرب وإسرائيل وأوربا وأمريكا!.

ثالثا: كانت هناك مخاوف لا مبرر لها فى إسرائيل من أن مصر بعد أن تسترد سيناء: خط العريش رأس محمد. سوف تتراخى. وفى تراخيها ما يؤكد للعالم أنها كانت مشغولة طول الوقت بأرضها وحدها. وعلى العرب - إن استطاعوا - أن يجدوا لهم حلا.. ولذلك أعلن الرئيس السادات أن مفاوضات الحكم الذاتى يجب أن تنهى مرحلتها الأولى بصورة واضحة تماما فى أكتوبر القادم وليس عند نهاية العام.

رابعا: أن مصر لا تتدخل فى شئون إسرائيل الداخلية. وأن ما يقال من أن مصر تفضل زعيما على زعيم، فليس إلا اجتهادا صحفيا أو مزايدة سياسية.

وأن الشعب الإسرائيلى حر فى أن يختار من يتحدث باسمه ومن يدافع عنه ومن يتخذ له قراراته.

ومن مظاهر البهجة التى لم يعرف أحد بوضوح أسبابها، طلب السيد بيجين من الرئيس السادات أن يكمل هذه المفاوضات فى القدس. ولكن الرئيس السادات قال: إلا القدس، فقد جعلت الموقف مستحيلا بإعلانك المستمر أنها العاصمة الأبدية لإسرائيل. مع أنك تعلم رأى مصر منذ اللحظة الأولى من أن القدس جزء من الضفة الغربية.

قال بيجين: إذن نلتقى فى حيفا، وهى ميناء على البحر الأبيض مثل مدينة الاسكندرية. وقد تقرر ذلك.

ولكن الحيرة تلف الجميع. ما هذا الذى تم الاتفاق عليه وأسعد الأثنين وأدار العالم كله!.. وما هذا الذى يمكن أن يتقرر نهائيا بعد ستة أسابيع من الآن؟.

ذلك ما سوف يعرف العالم جزءا كبيرا منه فى نهاية أغسطس القادم. ■

حوار ساخن حول السلام
بين أنيس منصور وزعماء إسرائيل

في تليفزيون إسرائيل قلت : لا سلام شاملا فى الشرق الأوسط بغير حل لقضية فلسطين، ولا حل بغير الفلسطينيين، ونحن فى خدمتهم..

وقلت أيضا: أن الفرق بين شعب مصر وشعب إسرائيل، أنهم فى إسرائيل عصبيون جدا.. عليهم عفريت.. وكثيرا ما أشرت للصحفيين والكتاب الإسرائيليين أن ينظروا إلى مياه النيل.. أنها تمشى بين الشاطئين بهذا الاستمرار واليقين من ألوف السنين.. ونحن كذلك!

وقلت فى التليفزيون أيضا: أن أكثر الكلمات شعبية هى «التطبيع» وأكثرها خطأ أيضا. فالتطبيع - أى أن تكون العلاقات طبيعية، ولذلك ليس من الطبيعى أن نتفق دائما، فلا نختلف ، فتكون إسرائيل ظلا لمصر. وتكون مصر ذيلا لاسرائيل.. وانما الطبيعى أن نختلف ونتفق وأن نغضب ونتصالح..

ولا شئ يدل على حضارة الإنسان - مع الأسف إلا أنه فى كل حرب نموت باسلوب أكثر تطورا، وهذا هو الجانب الشرير من الحضارة. أما جانبها الطيب فهو عندما نجلس فى أعقاب الحروب نتفق على ألا تكون حرب بعد ذلك.. وقد أحوجنا الحروب إلى كثير من الدموع، والسلام إلى مزيد من العرق..

وقد نكذب على أنفسنا وعلى غيرنا، ولكن أصعب الأسرار التى نحتفظ بها هو

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٦/٨/٩

رأينا فى أنفسنا. ولم يعد ذلك سرا، ليته كان. فقد جاهرنا برأينا، وجاهر غيرنا بعارنا. وذقنا المرارة من كل لون ومن كل حجم ومن كل أحد.

بعد نكسة سنة ١٩٦٧ كانت لى عبارة مشهورة ،هى: إذا انتصرنا فنحن عرب، وإذا انهزمنا فنحن مصريون!

وكانت الهزيمة مصرية..

وكانت الشماته عربية..

فقد دخلنا مع إسرائيل حربا لا نعرفها ولا نعرف من الذى نحاربه، فأخذ كل منا ما يستحقه..

وفى سنة ١٩٧٣ قد عرفنا أنفسنا وعدونا وكانت المكافأة على ذلك أننا انتصرنا.. وقلت فى تليفزيون إسرائيل: بعد هوان سنة ١٩٦٧ وعظمة سنة ١٩٧٣ كان لابد أن ننتصر معا فى حرب ثالثة.. هى ألا تكون حرب بعد ذلك.. فكل الحروب نتيجة لسوء التقدير وللخطأ فى الحساب. ولابد أن نحسبها بالأمل والعمل، فكأن السلام والاتفاق على استمراره وأحيائه وتنشيطه وانعاشه.

وتمشيا مع تقاليدنا العربية الأصلية: خرجت مصر من الحرب منتصرة ومن السلام منتصرة، فكات لابد من اتهامها بالعمالة والخيانة.. بعد أن مات من ابنائها مئات الألوف وانفقنا ألوف الملايين.

وكان خلافنا مع الأشقاء العرب. إذا كان السلام ممكنا بغير حرب. فلماذا الاصرار على الحرب.. ولماذا الحرب دفاعا عن الأمة العربية إلى آخر جندى مصرى؟ وإذا كانت الحرب هى أقصر خط بين نقطتين، فلماذا لا نجرب الخطوط الطويلة، السياسية والدبلوماسية، والتى هى أهدأ وأقل تكلفة.. وفيها احترام عظيم لانفسنا وانسانيتنا. وفيها استعانة بالصبر الجميل..

وإن كان على الصبر فنحن صابرون. بل أن الصبر مصرى البذرة والشجرة و الثمرة، ونحن على هذه الأرض من ألوف السنين. دخلها الغزاة وخرجوا.

دخلتها إسرائيل وخرجت.. وسوف تخرج من كل قوة طاغية باغية ونبقى نحن هنا نتحدث عن ذلك، وعن صبرنا الطويل، وجذورنا العميقة، وسخريتنا المتجددة من كل يسئ إلى ذرة من تراب أرضنا..

وأينما ذهبنا، فى الأربعين عاما الماضية والقادمة.. أو أكلنا أو شربنا، صحونا أو غفونا، رضينا أو سخطنا، فالقضية الفلسطينية هى القضية.. ومصير الشعب الفلسطينى

هو المصير الذى يهز ويهدد كل مصير.. وفي كل عين دمعة احتياطية ادخرناها من أجل أشقاء لنا خرجوا ولم يعودوا، أو اقاموا على أرضهم، ولم يستقروا.

فما الذى أصاب القضية؟..

اصابها الذى اصاب العرب: الخرافات والتمزق والتشرذم والتعالى ومزيد من الخرافات والاتهامات ورفض المنطق ونبذ الواقعية.. والتطلع إلى الأرض لعل عفريتا يخرج منها، وإلى ماوراء السحاب لعل ملائكة الله يدافعون ويترافعون.. ثم نظرنا إلى كل شئ وكل أحد.. إلا أيدينا وما ملكت ايماننا..

وإذا نحن أردنا أن نغالط أنفسنا حتى نرى خيبة أملنا فى أنفسنا، كان علينا أن نحطم مرايانا، وحينئذ لن نرى إلا عظمتنا الوهمية، وقدرتنا الاسطورية، وتضاءل الجبال فنكون فى حجم ذرات الرمال.. ويوم قال أحد شعرائنا أننا شعوب حشاشة، غضبنا منه وطاردناه.. وهو اليوم أحق بهذا الاعتذار فلم نكن نعرف أنه بعيد النظر والنظرة.. وأنه صارحنا بما نكره.. والا فما معنى ان نحل القضية بقنبلة هنا وأخرى هناك، واسقاط طائرة برئية، ونسف سفينة آمنة.. فنحن إذن نحارب فى غير ميدان، ونقاتل فى غير قضية..

فما الذى أصاب القضية؟..

اصابها ما أصاب كل من تلسعه ذبابة «تسى تسى» فهى تصيب ضحاياها بالنوم الطويل حتى الموت.. وقضيتنا نائمة. ونحن نصرخ فى اذنها، فإذا هى فتحت عينا شكرنا الله على صحتها وسلامتها.. وإذا هى حركت ذراعا هتفنا: يد تزرع ويد تحمل السلاح.. وإذا حركت ساقيها تعالت صيحاتنا وسعادتنا بأن القضية تلعب الآن فى الوقت الضائع.. استدراكا للفرص الضائعة، لأننا شعوب الفرص الضائعة، والأهداف الضائعة والطرق الضائعة.. وأخذنا ندور حول القضية كما يدور الوثنيون حول النار.. مع أن القضية ليست فى حاجة إلى طبل وزمر. فقط إلى من يوقظها بشدة، ويوقظنا أيضا..

والفلسطينيون هم أصحاب القضية. وهم أيضا أصحاب الحل.. ومشكلة المشاكل هى: الحل! كيف؟ متى؟

ومن الذى يحل ومن الذى يخاف عندما يحل أن يربطها، ومن الذى يخاف وهو يربطها أن يحلها!

هل يجلسون مع إسرائيل؟..

إسرائيل تقول: نعم.. ولكن ليس قبل أن يعترفوا بقرارى ٢٤٢ و ٣٣٨.. والفلسطينيون يقولون: نعم.. بشرط وجود أطراف أخرى أكبر وأعظم لتكون ضامنة للحل

وخطوات الحل وما بعد الحل..

وإسرائيل تقول: إنها قضية اقليمية تحل بين ابناء الاقليم، دون تدخل من أية أطراف أخرى - أو بمساعدة أجنبية لا بتدخل اجنبى!..

واناس يقولون: أن الضرب فى الميت حرام.. لقد أسمعت لو ناديت حيا، ولكن لا حياة لمن تنادى.. انها شبعت موتا!..

وأناس آخرون: بل القضية شهيدة.. والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

فالقضية قد غيرت.. انتقلت إلى ما وراء الحياة، عظم الله أجرنا.

وبانسون جدا يقولون: ولماذا نستعجل الحل.الأرض تحتنا ونحن فوقها نتكاثر وقد ظل اليهود يحلمون بأرض المعاد مئات السنين!!

والذين يقولون ذلك لا يعرفون ما الذى أصاب الشعب الفلسطينى الإسرائيلى، والفلسطينى الأردنى، والفلسطينى المحتل، والفلسطينى الذى لا هو محتل و لا هو مستقل فى غزة. والشعب الفلسطينى فى «الشتات» فى بقية دول العالم.

فما الذى يصيب القضايا التى تتقادم ويموت قضاتها ومحاموها ومحلفوها وشهودها.. ثم لا يبالى بها أصحابها؟ أن أفدح المشاكل السياسية هى ألا يبالى الناس. وكثير من الفلسطينبن ومثلهم من العرب، قد استطعموا اللامبالاة وراحوا يمزجونها باليأس ويهزونها فى كأس من الثلج، ويرفعونها فى صحة البطل العظيم صلاح الدين الأيوبى ثم لا يقولون لنا شيئا بعد ذلك، كأنهم وجدوا الحل؟!.

كأنها احدى مسرحيات العبث..!

بل أن نقاد المسرح يقولون: هى مأساة اغريقية تقليدية، ففى المأساة الاغريقية يكون الابطال على حق فى مواجهة القدر!

كل ذلك كان على رأسى وفى رأسى وعلى كتفى وعلى ضميرى وأنا أجلس فى مواجهة رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريس، هو ممشوق القوام كما هو، جبهته عالية.. بادى الارهاق. ولكن أفكاره بخيوط لامعة. وتسعفه فى أى وقت يشاء.. فهو منطقى واضح وصوته رتيب خفيض، لم تفلح اجهزة التسجيل ان تلتقطه.. كأن هناك اتفاقا قد ابرم قبل ان القاه، هو يهمس وهى لا تسجل شيئا!..

وقد قابلته مرتين فى يومين متواليين. فى المرة الثانية كان أكثر انتعاشا بعد لقاء نائب الرئيس الامريكى بوش، وبعد زيارة حائط المبكى وبعد أن «وشوشه» فى إذنه مرتين، بما لا أعلم..

وفى رسالة الرئيس حسنى مبارك إليه: حرص مصر الشديد على أن يتوالى الاتصال والتفاهم على كل ما يهم البلدين، أولا بأول وبسرعة، فلابد من عمل شئ لتنتهى مشكلة أو مشاكل طابا. فنحن فى حاجة إلى أن نمضى فى السلام. وقد أكد الرئيس مبارك فى رسالته إلى رئيس وزراء اسرائيل تأييده التام للقائه بالملك الحسن الثانى، وقد أيد الرئيس هذه الزيارة فورا، ثم عاد فأيدها فى اجتماعات المؤتمر السنوى للحزب الوطنى. وابدى اعجابه بالملك الحسن الثانى. سلوكا شجاعا، ومنطقا قويا مقنعا فى الدفاع عن قراره..

وجاء رد رئيس وزراء اسرائيل أنه يثق تماما فى زعامة الرئيس حسنى مبارك وفى قدرته الخلاقة على تحقيق السلام بيننا.. وأنه يعرف تماما حجم الصعوبات التى تواجهه فى صحوة مصر وانعاشها ونهضتها، وأنه متعاطف تماما مع مصر من أجل مستقبل أفضل. ومادامنا نهتم بالسلام، فلابد أن نهتم أيضا برضاء مصر. وقال: وأنا أمل مع الرئيس مبارك فى أن نسوى خلافاتنا بسرعة، من أجل هدف أكبر هو مواصلة السلام..

وقال بيريس: وانها لغلطة فادحة منا جميعا، أن نتوقف عند عتبة السلام. ولذلك فنحن حريصون على أن نمضى فى الطريق.. والسلام لن يتحقق إذا وقفنا ظهرا لظهر، وانما بالوقوف وجها لوجه، ومن هنا كانت المساهمة العظيمة لمصر..

* قلت للسيد شمعون بيريس: تحدثت مع عدد من المثقفين فى إسرائيل، وادهشنى أنهم لم يكونوا يتوقعون تأييدا فوريا من الرئيس حسنى مبارك لزيارتك للمغرب. وحجتهم أن مصر حريصة على أن تقوم بدور الوسيط الوحيد بين اسرائيل والدول العربية، ولذلك ما كان يسعدها دخول أطراف جديدة وسيطة. اليس ذلك تفسيرا غريبا؟..

أجاب بيريس: غريب فعلا. ولكن أنا لم يدهشنى تأييد الرئيس مبارك فأنا أعرف بالضبط ما الذى يريده الرئيس مبارك لبلده وللسلام وللمنطقة ولكن يجب أن نتنبه إلى أن من ضمن مشاكل السلام، أنه غريب علينا.. فنحن بدلا من أن نحيطه بالرعاية والعناية، فاننا نحتويه بالشك وسوء الظن، واعتقد أن اعدى أعداء السلام هو الشك. ولذلك يجب أن نتجاوز حائط الشك والخوف والخجل. فالناس يخافون أن يكون عندهم أمل، ولقد أعرب المصريون كثيرا وطويلا وفى مناسبات عدة، ان للسلام ابعادا نفسية وليست سياسية فقط. وأنا أؤمن ايمانا تاما بأن مذاق السلام واضح الحلاوة، فيما يعلنه ويقرره الرئيس مبارك، ولم يعد له ذلك المذاق المر.. الشديد المرارة.. وأقول يجب الا نخجل من اننا غيرنا طريقنا وطريقتنا نحو ما هو أفضل وأسلم وأكثر ايجابية من أجل سلام ورخاء شعبنا والمنطقة..

* قلت: الا ترى أن زيارتك للمغرب قد تأخرت عاما أو أكثر.. فلو كانت من عام مثلا، لامكن استغلالها وتوظيفها من أجل السلام، وحسما للخلافات الداخلية عندكم.. أو لعلك لو أخرتها بعض الوقت، لامكنك استثمارها فى الأيام الأخيرة لك رئيسا للوزارة، فتلقى ظلالا على زعيم المعارضة الذى سوف يخلفك فى موقعك أرجو أن توضح لى ما غاب عنى.

- فأجاب: اننا نعمل من أجل هذا اللقاء منذ ستة شهور، وكان الملك الحسن الثانى قد اقترح أن يكون اللقاء فى فرنسا فى رعاية رئيس الوزراء جاك شيراك. ولكن ظهرت لنا مشاكل تنظيمية أمنية. انها مشاكل فرنسية، وليست لدى الجانب المغربى، ثم كان اقتراح آخر بأن نلتقى فى أمريكا. وتلقينا نحن الاثنين خطابا رقيقا من الرئيس ريجان، يشجعنا على المضى فى الاعداد والاستعداد لهذا اللقاء. ثم اللقاء. وأخيرا رأى الملك الحسن الثانى أنه من الأفضل أن يكون لقاء ثنائيا بيننا وعلى أرض المغرب. وبذلك لا يحق لاحد أن يدعى أنه هو الذى بادر وانه هو الذى نظم. فلا نضيع «نكهة» هذا اللقاء الهام بين ادعاءات الكثيرين. فهو لقاء بين دولتين كل منهما ذات سيادة مستقلة الارادة. وفى غاية الواقعية. إذن، ليكن فى المغرب ذاتها..

وكان.. ثم برزت مشكلة أمامنا نحن الاثنين: هى كيف نجعل هذا اللقاء واضحا سليما مفيدا لكل منا.. وكان لابد أن نفكر كثيرا وطويلا وبعناية فائقة كيف يواجه كل منا شعبه، وذلك لاختلاف مواقفنا السياسية، وكان علينا أن نسبق الزمن فنتفق على صيغة موحدة تصدر فى بيان مشترك. كل ذلك احتاج وقتا طويلا وجهدا أطول وعناية أعمق فى مناقشات متواصلة.. وقرر الملك الحسن الثانى الا نطلع أحدا فلم يكن لدى أحد علم بذلك. لا عندنا ولا عنده.

وكما نعلم كم طالت اللقاءات من أجل التمهيد لمناقشة قضية طابا.. وهذا هو السبب فى أن حلها تأخر كثيرا. ولهذا السبب أيضا قرر الملك الحسن الثانى، إلغاء زيارته إلى أمريكا، ليفترغ تماما لهذا اللقاء.

* قلت لرئيس وزراء إسرائيل: ولماذا المغرب بالذات.. كانت المغروب ملتقى المصريين والإسرائيليين قبل رحلة الرئيس السادات إلى إسرائيل، وكان ذلك بعلم ومباركة الملك الحسن الثانى.. فلماذا؟..

- أجاب: أنها تقاليد عربية أرساها شعب المغرب.. ودعمها الملك محمد الخامس، فالجالية اليهودية فى المغرب كبيرة وهى فى إسرائيل أيضا، وهذا التسامح بين الأديان

قديم فى بلاد المغرب. وقد رفض الملك محمد الخامس أن يسلم المغاربة اليهود إلى هتلر لاحراقهم فى أفران الغاز. وتلك مأثرة عظيمة لن ينساها شعب إسرائيل للملك محمد الخامس والد الملك الحسن الثانى... فمن هذه «الكيمياء» بين العظمة الشخصية للملك والتسامح الدينى والشجاعة والحب الأكيد للسلام، اكتسبت المغرب هذه الميزة العظيمة.. وعلى هذه القاعدة الراسخة أتخذ ملك مسلم عربى عظيم قرار بلقاء رئيس وزراء إسرائيل.. وواجه هذه الزوابع العربية من ذلك.. وان كنت قد سعدت اليوم بما جاء فى اختيار السعودية.. فقد اجتمع مجلس الوزراء وطالب بالوحدة العربية.. ولم يصدر إدانه الملك الحسن الثانى.. وبعض دول الخليج فعلت كذلك.

* قلت للسيد شمعون بيريس: نحن نتحدث، وأنتم أيضا، عن الذى يجب عمله وبسرعة فى الوقت القليل المتبقى لكم رئيسا للوزراء، فما الذى يمكن عمله حقا؟..

- أجاب : أرجو أن يكون أول شئ ننجزه ونحرص عليه هو لقاء قمة مع الرئيس حسنى مبارك، وأنا على يقين من أننا سوف نمضى فى تنفيذ ما اتفقنا عليه.. وبعدها يعود السفير المصرى إلى إسرائيل.. واعتقد أنه من الضرورى بعد ذلك أن نهتم بالمشاكل الاقتصادية.. وأنا أعتقد أننا أشد حرصا على المساعدة فى هذا المجال. كما أننى أدرك تماما كل الصعوبات التى يعانيها جيراننا.. نحن نعرف ذلك بدقة وبعمق شديد.. ولذلك فقلقنا عظيم.. ويجب الا ننسى اننا نعيش فى زمن أصبحت فيه الدبلوماسية عملا وطنيا، بينما الاقتصاد مشكلة دولية، وأعتقد أنه عند لقائنا سوف نناقش هذه القضايا وإذا شاء الرئيس مبارك عقدنا مؤتمرا دوليا لمناقشة القضايا الاقتصادية.. ويسعدنى ذلك إذا نحن مهدنا لهذا اللقاء الدولى واخترنا الوقت المناسب والاعداد الدقيق - لابد أن نبادر من الآن بالخطوات التمهيدية..

* قلت لرئيس وزراء إسرائيل: كثير من الذين يتابعون الصراعات الحزبية فى إسرائيل، والنزاعات العربية، والخلافات المذهبية والعنصرية، عند الاقتراب من القضية الفلسطينية، يرون أن هذه السنوات الأخيرة هى سنوات الفرص الضائعة على الجميع، فهل تذكر الفرص التى ضاعت على حكومتك؟..

- أجاب بسرعة: ليذهب الماضى إلى مكانه من التاريخ، ولنتجه جميعا إلى المستقبل، توفيرا للوقت وادخارا للطاقة، وترشيدا لاستهلاك الدموع، وتشجيعا للناس على أن يكون عندهم أمل..

* قلت: هل فى حديثكم المرتقب قريبا مع الرئيس حسنى مبارك عن الأوضاع

الاقتصادية، سوف تعاود عرض «مشروع مارشال» الإسرائيلى العربى؟

- وأجاب: دعنى أرتب أفكارى فى هذا الشأن، أن مشروع مارشال ليس خطة اقتصادية لانعاش إسرائيل وحدها. فنحن ندبر أمورنا على النحو الذى يرضينا، أو الذى نقدر عليه.. وفى نفس الوقت نحن حريصون على الا يقع جيراننا ضحايا أحداث عالمية جليلة: مثل هبوط سعر البترول. فقد خسرت الدول العربية أكثر من ألف مليون دولار! أنها مأساة حقا! وهذه الخسارة الفادحة لم تصب دول البترول وحدها، وإنما الدول المجاورة لها أيضا. هات خريطة العالم وانظر إلى الدول الأخرى التى كسبت من هذه الكارثة.. سوف تجد اليابان قد كسبت عشرين بليون دولار.. وسوف تجد ألمانيا قد كسبت خمسة عشر بليونا - كل ذلك بسبب تردى أسعار البترول. ومن الظلم للدول الخاسرة الا ننظر إليها بجدية وعطف على مئات ألوف الناس الذين اصيبوا وعشرات الملايين الذين اضيروا فارتبكت حياتهم، أو أصبحت فى خطر.. ونحن لا نقوم بتعليم أحد. وإنما فقط نحمل هذه الرسالة إليهم، فما يزال هناك وقت، وعلى الدول الصناعية الكبرى أن تساعد الدول الخاسرة، تماما كما ساعدت أمريكا الدول الأوربية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.. فكان «مشروع مارشال».. ويجب الا تشك لحظة واحدة فى نيات الدول الصناعية الكبرى، فهى حريصة على المساعدة.. وهذه المساعدة تخدم كل الأطراف، والفرص مواتية تماما. ومن يفهم الأوضاع الاقتصادية يدرك ضرورة هذه المساعدة وحيويتها للجميع..

* سألت السيد شمعون بيريس: ان كان قد تقدم بمشروعات اقتصادية لمصر، أقل وزنا وحجما من مشروع مارشال؟..

- أجاب: نعم. حاولت ذلك. ولكن من الواجب علينا أولا أن نفرغ من مشاكل «البنية الاساسية» للعلاقات السياسية. فأنا حريص تماما على أن نبدأ بحل ما تبقى من مشاكل بين البلدين. وبعدها نتجه مباشرة إلى المشاكل الاقتصادية..

* قلت.. طبيعى أن نضع المشاكل الاقتصادية سابقة على كل المشاكل الأخرى السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية والسياحية. فالرغيف فى أول طابور المعاناة اليومية..

- أجاب: اننى كقارئ يتابع مشاكل المنطقة ارى أن أعظم المشاكل التى تواجه مصر وكل العالم هى : المشكلة الاقتصادية، فأنا قلق بسبب الاوضاع الاقتصادية أكثر من قلقى بسبب التطرف الدينى - عندنا وعندكم. واعتقد أن مصر قادرة على أن أن تجد حلا، وسوف تجده، وأنا لا أنسى لحظة واحدة أن المشاكل الاقتصادية هى التى تغرق العالم كله

الآن، وليست مصر وحدها..

ومن مشاكل مصر: إن أرضها المزروعة ضيقة وسط هذه الصحارى الشاسعة. كما أن لديها تزايدا فى عدد السكان.. ثم انخفاض سعر البترول لابد أنه قد أثر على الأيدى العاملة وعلى الدخل القومى.. انها مشكلة حقيقية لمصر.

ولكن مصر من الناحية التاريخية دولة متحدة. وكل تاريخها يؤكد حرصها على أن تظل كذلك مهما تعرضت لأنواع مختلفة من الغزوات والهزات السياسية والعنصرية والدينية. فهى قد عاشت دائما على ضفتى النيل: تشرب منه وتتعلم من حكمته، وتاريخ مصر هو تاريخ دولة مستقرة كانت هناك، وسوف تبقى. والزمن قد أعطى للحياة المصرية حكمة باقية، وأنا اتذكر مؤرخا فرنسيا.. اظنه ما سبيرو.. قد قسم الشعوب إلى نوعين: سكان الجبال وسكان الوديان. سكان الجبال قلقون متمردون ثوار.. أما سكان الوديان، ومصر هى النموذج التقليدى الرفيع لذلك، فهى دولة الاستقرار والوحدة والانسجام. وعندكم هذا الميل الفطرى العميق إلى التقارب والاتحاد. وسوف تبقى مصر كذلك، رغم هذا العناء الاقتصادى الذى هو مشكلتها الكبرى.

* قلت: هل أنهى الحديث بيننا بأن أسأل سؤالا تقليديا الآن: ما الذى تبقى من مشكلة طابا؟

- فأجاب ضاحكا وبسرعة : انتهت .. ٩٥٪ بل ٩٧٪ منها انتهى تماما. والباقى ٣٪.. وكما أقول دائما أنه مع الآسف فهذا الجزء المتبقى قد ازدحم بالمحامين.. وكل واحد من هؤلاء المحامين يبحث عن كلمة.. عن حرف.. ولو اننا نشرنا الورق الذى كتبت عليه مشكلة طابا لغطاها، ومساحات أخرى من سيناء!.

* قلت: أخيرا.. نحن معا نتطلع إلى لقائكم مع الرئيس مبارك. أنت تعرفه؟ جيدا؟..

- أجاب شمعون بيريس رئيس وزراء إسرائيل فى هدوئه المعروف وجديته الواضحة.. نعم. كما معنا عندما قابلناه.. ابا ابيان وبارليف وانت وأنا كان وقتها نائبا للرئيس السادات.. وقد اقتضى تقسيم العمل بينهما أن يتولى السادات توجيه السياسة ويتولى مبارك إدارة البلاد. وقد اكتسبت الرئيس مبارك من هذه التجربة قدرة ومهارة خاصة. وهو بالفعل صاحب موهبة إدارية.. وهو الآن يوجه السياسة ويدير البلاد.. وقد أكد ذاته على الساحة الدولية.. ويمكننى أن أقول بمنتهى الاخلاص والصدق أن الرئيس مبارك قد حقق لبلاده قدرا عظيما من الاستقرار والاستمرار، وأعطى للسياسة المصرية

طابعا متميزا، ثم اثبت نفسه زعيما محترما بين شعبه والشعوب الأخرى. وأنا أعتقد أنه حاول ونجح فى تثبيت الديموقراطية لبلاده، كما نجح أيضا فى نشر السلام فى مصر وحولها..



وفعلا كان لابد أن التقى بالسيد اسحاق شامير الذى كان رئيسا للوزراء، وسوف يكون فى أكتوبر القادم.. وهو الرجل الذى خلف مناحم بيجين على زعامته لتكتل الليكود.. وقبل أن التقى به حاولت أن أتذكر بعض المعلومات عنه.. وعلاقة هذه المعلومات بصورته التى تراها فى التليفزيون وفى الصحف.. إنه قصير القامة عصبى هو أيضا، كثيف شعر الشارب والحاجبين.. لا يرتدى كرافته على عكس سلفه بيجين الذى كان ينام بها.. ذهبت إليه ووجدت مكتبه قد امتلأ بالكاميرات والميكروفونات. ووجدته شديد الاحمرار والابتسام والضحك وقد وضع منظارا اسود على عينه بعد أن أجريت له عملية فى أحداهما..

ولم يتحمس كثيرا لزيارة خصمه السيد شمعون بيريس إلى المغرب. وان كان يراها زيارة هامة، لأنه من المهم أن نلتقى مع كل الزعماء العرب.

ولكن ليس الملك الحسن خصما عربيا.. فلا أحد قد كسبه إلى جانبه. فلا إسرائيل لها حدود مشتركة ولا عداوة..

قال اسحاق شامير: إنها زيارة هامة.. ولكن أهم من ذلك أن يكون حوار مع جيراننا، أن بلاده بعيدة جدا، ولا حدود بيننا، ثم ان هذه الزيارة وحدها لا تكفى، بل من الواجب أن يجئ من بعدها حوار.. مفاوضات.. وأرى أن أهم من كل ذلك أن نعاود الحوار مع جيراننا: مع مصر والأردن وسوريا ولبنان.. المهم أن تؤدى الزيارة إلى تنقية «الجو».. بل أن المفاوضات ليست هى الشئ الهام.. وانما «العبور».. الاختراق.. والمفاوضات التى يجب أن تبدأ فورا هى التى مع مصر فى إطار اتفاقيات كامب دافيد.. فبعد تسع سنوات لم تتحسن العلاقات مع العرب.. صحيح أن السلام مع مصر كان خطوة ثورية، وانتهى باتفاق بيننا على حل المشكلة الفلسطينية.. والاتفاق مع مصر هو الاتفاق الوحيد مع أية دولة عربية.. ان مصر هى كبرى الدول العربية وأقواها.. ويجب علينا أن نستثمر هذا الاتفاق لكى نحصل على خير ما فيه.. ويؤسفنى أن هذه المفاوضات قد توقفت.. ولذلك لابد من استئنافها، صحيح أن هناك محاولات أخرى لحل القضية.. الفلسطينية: الجهود الامريكية والجهود المصرية الاردنية. وكلها لم تسفر عن شئ.. وأرى أن الطريق الوحيد

للحل هو عودة المفاوضات فى إطار اتفاقية كامب دافيد.. هذا هو أحسن الطرق. ويجب الا نمل من تكرار هذه الحقيقة..

* قلت: من يدرى ربما بقيت مشكلة طابا بلا حل، حتى تجئ رئيسا للحكومة فإذا جئت فسوف يزداد الموقف تعقيدا والمشاكل عددا وعقدا!!.

- واندهش الرجل واستدار ناحيتى تماما وقال: كيف؟!

قلت: دعنى اصارحك.. أن صورتك عندنا مخيفة.. فأنت رجل متجهم عصبى غاضب وأنت رجل متطرف ولذلك فالناس عندنا وعندكم ينظرون إلى المشاكل التى سوف تخرج من يديك.. ان هناك تخوفا شديدا منك..

ونحن لا ننسى موقفك من اتفاقية السلام يوم كنت رئيسا للكنيست.. بل ان هناك رأيا عاما فى إسرائيل يقول بانك الرجل الوحيد الذى رفض كل الاتفاقيات التى عرضت عليه..

- وظل الرجل يضحك، وكان ذلك تصريحا لأربعة من مساعديه قد حضروا هذا اللقاء بأن يضحكوا هم أيضا، فلم يكن يتوقع هذه المواجهة الصريحة.. وكأنه أعترف بجانب منها فقال: ما الذى أعمله.. أن صورتى غير حقيقتى..

* قلت: أنها مفاجأة أن اراك تضحك بينما أعمالك شئ آخر..

- قال: أن أحدا من مصر لا يقابلنى.. ومادام أحد لا يعرفنى مباشرة فكيف بالله عليك، يستطيع أن يحكم على أعمالى أو على أسلوبى فى السياسة والحكم.. ثم اعتدل ليقول: أما مشكلة طابا فهى قضية صغيرة جدا. ولكن مادامت قد أصبحت قضية، فلابد من الدفاع عن وجهة نظر أى طرف. ولذلك نحن نحترم دفاع كل طرف عن حقوقه. وأنا أحترم الرئيس مبارك وحكومته، فى دفاعه عن وطنه ومصالحه.. ونحن أيضا نحترم رجالنا فى دفاعهم عن مصالحنا.. وعندكم نبيل العربى، أنه مفاوض مصرى متشدد. وأنا لا أشكو من ذلك فهو يؤدى واجبه، ومن المستحيل أن يكون كريما سخيا، على حساب المصلحة الوطنية، ولكن أكرر أن أهم المفاوضات جميعا، هى التى مع الجيران وفى مقدمتها مصر دائما..

* قلت للسيد اسحاق شامير: أنت رجل كشر وأننا نتوقع المزيد من المشاكل على يديك، وأنه من الواجب أن تبادر بتحسين صورتك عند الناس!..



- أما الرجل الذى يحظى بحب العرب واحترامهم الشديد فهو الوزير عيزر

فايتسمان، وهو غير قادر على أن يجئ إلى مصر، حتى لزيارة اصدقائه من الساسة والوزراء لأنه لابد أن يحصل على موافقة مجلس الوزراء، ولكنه استطاع أن يكون أصدق أصدقاء العرب في إسرائيل وفي الأرض المحتلة.. وهو يتمنى أن تنحل المشكلة الفلسطينية، لأنها عبء على إسرائيل أيضا، وأنه يريد أن يكون السلام في بلاده وخارجها.

قال لي عيزر فايتسمان: لو خيروني بين أن ألتقي بالملك حسين وياسر عرفات، لاخترت عرفات..

وقال: أيضا أن مفتاح الموقف كله في يد مصر.. بل مصر هي المفتاح الأكبر للسلام في الشرق الأوسط.. ولذلك فسوف يؤدي لقاء الرئيس مبارك والسيد بيريس، إلى حل مشاكل كثيرة.. صدقني.. أنا أعرف الرأي العام في إسرائيل.

* قلت: سوف يكون اللقاء في الاسماعيلية أو في نوبيع..

- قال رافعا صوته: لا.. لا.. نوبيع لن يفهمها الاسرائيليون.. سوف يرون في اللقاء في نوبيع أهانة لهم.. أنهم يريدون لقاء له مذاق التاريخ.. فليكن في القاهرة.. القاهرة أفضل - أو في الاسكندرية.. أو في الاسماعيلية التي هي رمز تاريخي فقد ألتقى بها الرئيس السادات والسيد بيجين يوم الكريسماس.. يوم عيد ميلاد الرئيس السادات.. أرجو الا يكون في نوبيع..

* قلت لعيزر فايتسمات: هل لك تحفظات على رحلة السيد بيريس إلى المغرب..

- أجاب: أبدا.. لا مشاكل لنا مع المغرب.. ربما يكون بضع مئات منهم قد شاركوا في الحرب إلى جانبكم ضدنا.. ولكنه تضامن عربي رمزي.. وأرى أن هذا اللقاء هو «رسالة» بعث بها الملك الحسن الثاني إلى المعتدلين العرب.. وإلى غير المعتدلين في إسرائيل.. ومعنى الرسالة أنه يمكن الحوار، دون أن تكون هناك حاجة وطنية مباشرة إلى ذلك.. بعض السلبيين عندنا يقولون: لعله أراد أن يحصل على أموال من أمريكا.. وهو تفكير سخيف.. فالملك الحسن الثاني بما له من مكانة عظيمة عند المسلمين والعرب، قد ضرب مثلا رفيعا معناه: أن اسلامه وعروبته ووطنيته لا تحرم عليه أن يلقى مسئولا من إسرائيل!..



أما اللقاء مع الدبلوماسي العتيد أبا أيبان، فأنت أمام أستاذ يتحدث بفصاحة وبلاغة عن تاريخ العرب واليهود والعالم بسهولة، وعبارته لها رنين مزامير داود. ولذلك

فهو لا يتحدث الا إلى الخاصة وكثيرون فى إسرائيل لا يجدونه مفهوما، لأنه يلف بهم ويدور فى تجارب الشعوب كلها، لينتهى إلى تفسير حادث صغير..

* قلت له عن الخلافات التى يعرفها، طبعا، عند حزبى الحكومة فى كل شئ.. وعن صعوبة أن يعرف المثقف السياسى حقيقة الموقف فى إسرائيل إذا هو تابع الصحف المستقلة المعارضة للجميع، والاذاعة والتليفزيون.

- ولأنه أعتاد كل ذلك وعايشه فلم يشاركنى هذه الحيرة، واكتفى ببلورتها فى هذا السؤال: ماذا تقول فى حزبين كبيرين يحكمان إسرائيل ولدى كل واحد منهما خريطة مختلفة تماما لإسرائيل؟!.. ■

الفهم : سهل و التفاهم : صعب

عبارة شهيرة تقول: أن الحرب هى استمرار للسياسة ولكن بالدبابات والطائرات..

وكذلك السلام: استمرار للحرب ولكن بالكلمات والمفاوضات.. ولا مفاوضات بلا تفاهم. ولا تفاهم بلا فهم. وليس أسهل من الفهم، وليس أصعب من التفاهم. لأن التفاهم معناه: مواجهة الذى أفهمه بالذى تفهمه أنت. والاتفاق بعد ذلك - على «فهم مشترك» ومادام مشتركا فلن يتم إلا بالاقتراب والتقارب والحوار.

وليس أسهل من اعلان الحرب وليس أصعب من انهائها. وقد جربنا الحروب بداية ونهاية. وجربت مصر «الفهم المشترك» فاستعادت سيناء. ومهما كان «الفهم المشترك» صعبا، فهو جواز السفر فى طريق السلام.

ولا تزال مشكلة فلسطين هى الامتحان اليومى والمحك السنوى، لكل قدراتنا على مواجهة الواقع: العربى والإسرائيلى والدولى.. وعلى تدارك الذى فات من الرأى والارادة والقرار.

وإذا لن يكن بين العرب «واحد» على يقين من أن كل شئ حولنا وداخلنا يتغير، وأن هذا التغير يتجه بعيدا عنا، فليس واقعيا!.

شئ من كل هذه المعانى وعكسها فى مثل هذه الحكايات الصغيرة عميقة الدلالة أيضا:

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٦/٨/١٦

لم تكن واضحة مشاعرى وأنا فى طائرة الرئيس السادات متجها إلى إسرائيل. وإنما نحن نشارك فى شئ غريب عجيب.. مغامرة؟ انتحار؟ شجاعة.. هذيان.. جنون.. لست على يقين من أى معنى من هذه المعانى. ولكن الطائرة عبرت قناة السويس ودخلت إلى البحر وتتجه إلى إسرائيل.. والأضواء الصغيرة تبدو من تحتنا.. ونحاول أن نجعل لها معنى مختلفا عن الأضواء فى بلادنا.. نحاول أن نستخرج منها معنى عسكريا أو جاسوسيا - فكل شئ له علاقة بإسرائيل واليهود يجب أن يكون غريبا عجيبا وأن يكون له معنى آخر مختلف عن كل معنى مألوف لدينا.. ولا أظن أننى وجدت معنى فريدا للذى آراه من الطائرة.

هل كانت محركات الطائرة ذات صوت أقوى من كل مرة.. أو كانت الشوشرة فى أذانى، فلست اسمع بوضوح.. أو أنه الدم الذى يضخه قلبى ويدق فى عقلى وينفجر فى عروقى..

هبطت طائرة الرئيس السادات.. وكان المطار ألف ألف مصباح مضئ.. بهرنا الضوء.. لم نعد قادرين على أن نرى شيئا أو أحدا.. ولكنهم قادرون على قراءة افكارنا.. ماذا حدث؟ لا أعرف. من الذى نزل؟ من الذى استقبل السادات.. فى المطار زحام شديد.. كل شئ تم بسرعة وانتهى بسرعة.. فالأضواء الباهرة قد خمدت.. وأصبح المطار درجات من الليل الأسود.. واصيبت الاذن بدرجات من الصمم، والعين بدرجات من الرمد.. وبسرعة رأيت فى الأرض اسوار حديدية.. وظهر الجنود الاسرائيليون بأسلحتهم يمنعوننا من الاتجاه يمينا أو شمالا ويدفعوننا فى الظلام إلى الاتوبيسات.. بسرعة تحولنا من ضيوف إلى مواطنين عاديين فى حركاتنا خطورة على الأمن.. على أمننا وأمن الرئيس.. وكان لابد أن نطاوع أيديهم واسلحتهم إلى حيث لا ندرى ولا نفهم..

هل كنا نياما ثم صحونا فجاة؟ أو أنها نشوة قصيرة العمر.. وبعدها جاءت الصحوة.. ومن المطار اندفعنا فى الظلام إلى الشارع.. وكعادتنا نظرنا إلى الشوارع فكانت لامعة، إذن هى نظيفة.. وفى الاتوبيس توقفت العيون على أول اسرائيلى نراه بوضوح.. أنه شاب نحيف.. ملامحه شرقية.. لا شرقية عربية ولكن شرقية أوروبية.. أبيض غليظ الحاجبين ناعم الشعر.. وابتسامته ليس لها معنى واضح، أنه هو أيضا مثلنا لا يصدق ما حدث.. ولا كيف حدث.. وهل هو يهرش صدره من حين إلى حين، أو هو يهرش نفسه، ليعرف أن كان يحلم.. شئ واحد مشترك بيننا اننا رفضنا بعضنا البعض.. فهو لا يرضى بنا، ونحن لا نحاول ذلك.. وهو أيضا أحس ان نوعا من الخيانة قد وقع: فلا

أحد قد هيأه نفسيا لقبول هذه المفاجأة المصرية.. أو المفاجأة الاسرائيلية بقبول الزيارة المصرية.. فلا نحن أصدقاء لا نحن اعداء ولا نحن أسرى حرب.. ولكن أناس هبطوا من السماء، ولابد أن نتعارف لكي نعرف ما المعنى؟.

فكل مشاعره، ومشاعر الناس مؤجلة إلى الغد حين يتحدث السادات في الكنيست للشعب الاسرائيلي في إسرائيل وعلى مسمع ومرأى من ألوف الملايين.. ومجرد ذهاب السادات إلى القدس وخطابه في الكنيست اقرارا بمبدأ الاتصال المباشر!.

ولكن الذي حدث قبل الخطاب هو انبهار واندهاش وحيرة.. ولم ندرك بالضبط ماذا حدث؟ وما المعنى؟ فقد بعد ذلك بأيام وأسابيع..

قال لي السائق وهو من أصل مصري: تصور أنني أقود سيارة بها عشرات المصريين وحريص الا تقع حادثة تودي بحياتهم جميعا! مع أن هذا لو حدث في ظروف سابقة!.. لكان عملا بطوليا - ما أعجب التاريخ!..

وبعد منتصف الليل جاءني من يقول: أن الرئيس السادات يريد أن يراك فورا! وكنت قد نمت. فالذي حدث في ذلك اليوم لا يمكن أن يعالجه إلا النوم، لعل النوم يمدنا ببعض الراحة تمكننا من استيعاب ما حدث.

ووجدت الرئيس قد ارتدى البيجاما وواضح السعادة والارهاق أيضا.. ولديه رغبة في الكلام والاستماع قال لي هه.. ماذا وجدت؟

قلت : لقد نزل الناس بأجهزة التليفزيون إلى الشارع ليروا الموكب.. ولا يعودون إلى بيوتهم إلا بعد أن رأوك رأى العين؟..

- كده؟

- وأكثر.. إلخ.

فسكت وتراجع في فراشه وقال: إذن لقد استعدنا سيناء..

لماذا؟ لأن الشارع الإسرائيلي هو الذي يحكم.. ولن يستطيع بيجين أن «يفلفص».. الحمد لله..

ولماذا لاحظ الرئيس السادات انني غير قادر على السهر قال: انت نايم خالص! ولم أقل للرئيس السبب الآخر الذي يعلني هكذا نايما على روحي.. فعندما ذهبنا إلى فندق الملك داود.. جاءني الجرسون وسألني بالعربية : وتأكل أيه؟..

ولم يقل: حضرتك أو سيادتك.. تأكل أيه.. أو تحب تأكل أيه..

ولاحظت أنه قد اسند جسمه إلى الترابيزة.. وان الترابيزة تحركت في اتجاهي،

تضايقت من هذا الجرسون «الجلف».. أو هذا الجرسون الذى استخف بوجودنا أو تضايق.. فقلت وقد تحركت في داخلي نزعة عدوانية، هى الشعور الذى يحسه الإنسان عندما يكون محاصرا.. أو يكون فى خط فى مواجهة الأخرين، قلت: أريد أية أكلة - شعبية؟!

وإسرائيل بها أكثر من مائة شعب.. ولها مائة طبق شعبى.. فلا يوجد طبق واحد يمكن أن يوصف بأنه شعبى!..

ولم يرد الجرسون.. وانما ذهب وغاب.. وجاءنى بعد ذلك أكثر من جرسون يسألنى أن كنت قد طلبت أو أمرت بشئ.. فكنت أقول: نعم.. وسوف يجئ حالا ما طلبت..

وبعد ربع ساعة أو نصف ساعة، خلا المطعم من كل المصريين.. وبقيت وحدى انتظر.. وجاء الطعام، وكانت مفاجأة: طبق مدمس!..

وتضايقت أكثر. واخفيت غضبى، وأكلت الفول بشهية وانتقام منه.. ومن نفسى أيضا.. وقد أصابنى هذا الفول بالرغبة فى النوم، ونمت فى الساعة الحادية عشرة حتى جاء من يوقظنى فقابلت الرئيس السادات فى حالة من التلبك العقلى!.

وكانت هذه أول خناقة صامتة بينى وبين أول إسرائيلى فى اتصال مباشر!.



وقال الرجل: أننا نحلب البقر يوم السبت.

وقلت مداعبا، ولا أقصد أبعد من ذلك: وكيف لا ترعى الابقار حرمة يوم السبت!

فقال الرجل: لان الابقار ليست من اليهود!

أى من المسلمين والمسيحيين فقلت بسرعة: معك حق فهذا رأى البقر أيضا!..

هل تنبه الرجل إلى أنه شتمنى، وإلى اننى شتمته.. لم يكن ذلك واضحا..

ولكن هذا السلوك منى ومنه، يدل على أن لدينا احتياطيا من العدوان.. أو الدفاع عن النفس.. أو الرفض الهادئ لمثل هذه النكتة، منه ومنى!

ولكن لم تترك اثرا لا عنده ولا عندى - فنحن نفعل فى بلادنا ذلك وأكثر!..



وفى يوم عرضت على الرئيس السادات «علبه هواء» - علبة تباع فى مكتبات القدس مكتوب عليها «هذه العلبة بها هواء نقى من الاراضى المقدسة»!

وضحك الرئيس السادات وقال: إذن نحن نتفاوض مع أناس يبيعون الهواء.

قلت : نحن أيضا نقول اننا قد دهنا الهواء دوكو!

وذكر لى أن أحد المطاعم على النيل فى روض الفرج كان صاحبه يطالب الزبائن

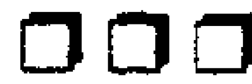
الجالسين فى الهواء بان يدفعوا أكثر من الجالسين فى داخل المحل - أنه أيضا يبيع الهواء للمصريين!

وكتبت مقالا عن علبة الهواء هذه. فقابلنى صحفى إسرائيل من أصل مصرى..

هه.. اضحكت الناس علينا.. انبسطت؟ ماذا ستعملون بعد ذلك؟..

قولت : لا شئ..

قال: فقط أن يضحك الناس.. هذا من الفارق بين العقلية المصرية والعقلية الاسرائيلية.. أما أنا فعلى استعداد أن أخرب لك بيت الرجل الاسرائيلى الذى اخترع هذه العلبة.. وذلك بأن أصنع علبة أجمل وأرخص منها ومكتوب عليها: هذه العلبة.. بها هواء من مقبرة توت عنخ أمون!..



عندما هاجم السيد مناحم بيجين الرئيس السادات فى الكنسيت، وذلك بسبب خطأ فى الترجمة العربية للخطاب سألتنى الاذاعة الاسرائيلية عن رأيى فقلت: أن بيجين قد هاجم السادات ظنا منه أن السادات قد رشح نفسه ضده فى القدس..

وقلت : أن السيد بيجين ارهابى له نبرة حاخام!

وقلت : أن السيد بيجين مثل «البارمان» فى آية خمارة.. فكل الناس يشربون وينتشون، أما هو فلم يشرب حتى لا يخطئ فى محاسبة الزبائن.. وكل الناس قد انتشوا للزيارة، إلا هو ظل فى غاية اليقظة حتى يحسبها بالقرش والمليم!..

وعندما استضاف الرئيس السادات مناحم بيجين ورؤساء الصحف الإسرائيلية فى أسوان، نزلوا جميعا فى فندق اوبروى. وفى جلسة مع الرئيس السادات سألنى: ان كل بيجين متدينا حقا؟..

فقلت : لا أعرف.. ولكن يمكن معرفة ذلك بسهولة جدا.. فهم فى الفندق يقدمون لنا الجمبرى، والمتدينون يمتنعون عن تناوله لأنه حرام!..

وذهبت اسأل السيد إبراهيم الدسوقى مدير فندق اوبروى ان كان رئيس وزراء اسرائيل يأكل الجمبرى سرا، فنفى ذلك تماما..

واستراح السادات إلى ذلك قائلا: اذن الرجل متمسك بدينه!..



وبيجين رجل شديد الحساسية. وهذه مشكلة الذين يتعاملون معه.. ففى لقاء الاسماعيلية كانت مشاكل، وكان ضيقا بما وصلنا إليه.

وكتبت أقول: ان الاعلام وراء السادات وبيجين كانت تخفى معالمها حتى لا تبدو ان كانت مصرية أو عربية أو ليست اعلاما..

وفى اليوم التالى طالب بيجين بأن تكون الاعلام الاسرائيلية منشورة وواضحة، كما كانت الاعلام المصرية فى القدس!

وأجريت حديثا مع الرئيس السادات تكلم فيه عن قرية «ياميت» وقال: ولا يهمنى خذوها.. أحرثوها!

وكان الحديث منشورا فى الأهرام فى مجلة «أكتوبر». ولكن الأهرام جعل العنوان الفرعى «احرقوها»..

وعقدة الاحراق فى أفران الغاز، تتحرك نارا فى أعماق كل يهودى. وغضب مناحم بيجين ولم يدرك أن العنوان الفرعى، مختلف عن الذى جاء فى نص الحديث..

واتصل بى سعيد زغلول نصار السكرتير الصحفى للرئيس السادات: وقال سيادة الرئيس سوف يكلمك عن الخطأ المطبعى الذى وقع فيه الأهرام..

ونشرت تصحيحا لذلك، مع أن النص فى مجلة «اكتوبر» كان (احرثوها) وليس احرقوها!

وكان السادات أيضا شديد الحساسية للنقد الذى توجهه الصحف المصرية لبيجين خصوصا واليهود عموما، وكان يقول: يا ناس يا هوه.. انتظروا حتى نأخذ أرضنا.. لا أريد مشاكل مع هذا الرجل..

وفى يوم حكيت للرئيس أنه أثناء العشاء فى قصر القبة، كانت تجلس إلى جوارى السيدة حنا زمير، رئيسة تحرير «دافار»، فقلت لها: هل تعرفين لماذا نقدم لكم مياها معدينة للشرب؟..

قالت: لا..

قلت: عندنا أسطورة فى مصر تقول إن من يشرب من مياه النيل يعود إلى مصر، ونحن لا نريدكم أن تعودوا!

وضحكنا: ولكن الرئيس السادات تضايق قائلا: يا أخى.. أبلغ لسانك الطويل ده.. وانتظر حتى يتركوا لنا أرضنا.. وتقولى لى أن العقاد كان سليط اللسان، دا أنت العن من العقاد!.



ونحن أمام حائط المبكى سنة ١٩٧٧ سألتنى السيدة همت مصطفى: ما معنى هذا

الحائط قلت: أنه الحائط الغربى المتبقى من الهيكل الذى انهدم مرتين.. وهم يسمونه حائط المبكى لأنهم يبكون أمامه على دولتهم أيام الملك سليمان.. وعلى الرغم من أنهم قد استعادوا الحائط، فان البكاء أصبح تعقيدا دينيا، تماما كما يبكى المسلمون فى المساجد والمسيحيون فى الكنائس.. ويقال انهم اطلقوا عليه اسم حائط المبكى لأن قطرات الندى تظهر النباتات التى تخرج من صخوره..

ثم فجأة سحبت احتياطى الدفاع عن النفس والرغبة فى العدوان فقلت: يقال أن رجلا امريكيا قد جاء إلى القدس وطلب من سائق التاكسى أن يذهب به إلى حائط المبكى. ولكنه لم يعرف هذا الاسم فقال للسائق: اريد أن أرى المكان الذى يبكى عنده اليهود.. فأخذه السائق إلى مصلحة الضرائب!..

وكنت قد رأيت حائط المبكى سنة ١٩٥٥ عندما ذهبت ضمن وفد مصرى ضخم للمشاركة فى «مؤتمر الخريجين» الذى كان يرأسه المليونير اللبنانى أميل البستانى. والذى افتتح جلسته الأولى الملك حسين فى سينما الحمراء.. فى ذلك الوقت كان حائط المبكى قذرا. وكان عدد اليهود الذين يترددون عليه بالعشرات. وكان فى حارة ضيقة خانقة. ومن عادة اليهود أن يكتبوا الشكاوى ويضعونها بين الأحجار.. وأذكر أن الاستاذ الباقورى رحمه الله قد طلب منى أن اسحب ورقة من هذه الأوراق ليعرف ما الذى يقول هؤلاء اليهود.. وسحبت الورقة وضحكنا نحن الاثنين، فقد سبقنا إلى هذا المكان أحد المصريين الظرفاء وكتب ابياتا شهيرة للشاعر المصرى البائس عبد الحميد الديب!..

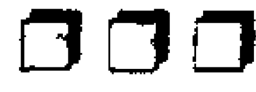
وذهبت أخيرا لا تفرج على حائط المبكى.. المكان واسع جدا.. أصبح ساحات من الحجر وتراجعت البيوت والجدران. وهم الآن يبنون الشرافات ليتمكن الزوار من رؤية

المكان من بعيد.. وتحت حائط المبكى وامتداد له توجد سراديب وآبار وأماكن كثيرة اكتشفها علماء الآثار اليهود.. والمشكلة الآن: ماذا سيحدث للمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة. فهما ملتصقان بحائط المبكى من اليمين واليسار.. وهناك خوف من أن تؤدى الحفائر تحت المسجد الأقصى إلى سقوطه، أو إلى ظهور مجانين متدينين يطالبون بسقف المكان الذى هو أرضية المسجدين الأقصى والصخرة..

وفى مدينة القدس تزاحمت الاديان الثلاثة بآثارها ومخلفاتها وخلافاتها. والقدس هى مدينة السلام - مدينة الأديان التى تدعو للسلام.. أو المدينة التى لم تعرف السلام، وتهدد السلام فى المنطقة وفى العالم؟!

ولكن لاننا نريد السلام ونحرص عليه، يجب أن نسعى لتحقيقه. وبداية الطريق

الوحيد: حل المشكلة الفلسيطنية، بأن يشترك الفلسطينيون فى كل مراحل الحل. وبغيرهم لا حل، وبغيرها لا سلام!

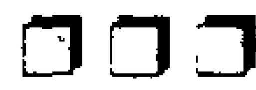


واليهود - وكل الاقليات أولاد نكتة. لأن النكته هى سلاح الضعيف ضد القوى..

النكتة هى عيار نارى أطلقه مجهول على رجل غنى أو رجل قوى.. أو على الأغلبية..

يقولون أن موسى عليه السلام كان يثائئ - وفى القرآن الكريم «واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى..» والعقدة معناها: أما أن موسى عليه السلام لا يعرف اللغة العبرية.. ولذلك احتاج إلى مترجم.. وكان المترجم أخاه هارون.. ويقال أن التاتاة أو الثاثاه.. بسبب انه وهو طفل تناول جمرة قد ظنها ثمرة، فاحرقت لسانه..

فيقال أن الله عندما سأل موسى: إلى أين تريد أن تذهب!؟ فقال موسى: كا.. كا.. كا.. وبسرعة فهمهما اليهود على أنه يقصد أرض: كنعان - أى فلسطين! والحقيقة أن موسى كان يقصد : كايرو - أى القاهرة!



سالنى أحد الصحفيين الاسرائليين: أين تذهب مياه النيل؟

قلت : إلى البحر!

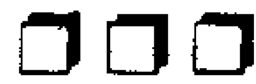
فصرخ : كل هذه المياه؟

قلت : نعم..

قال : كل هذه المياه؟!

قلت : نعم.

فظهر الاسى على وجهه قائلا: غلطة فظيعة وقع فيها موسى عليه السلام: انه ترك مصر، وانه عندما تركها لم يذهب إلى السعودية!..



وفى حيفا كان العشاء. وعلى نفس المائدة جلس موش ديان وزوجته الثانية راميل وحسن التهامى وأنا. وكانت جلسة غير مريحة. فلا أحد يريد أن ينظر لوجه واحد. ولا أن يتكلم. وطلب حسن التهامى من موشى ديان أن يرى المواقع التى انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين.

وتضايق موشى ديان من المعنى الذى قصده حسن التهامي. ولكنه قال: هذه المواقع زرعناها زيتونا وفى سمائها كثير من الحمام وفى أرضها كثير من الحملان الوديعة!..

ولم يسترح التهامى إلى هذا المعنى أيضا.

ولكن موشى ديان قال: انه سوف يستقيل من الوزارة.

وكتمت هذا الحديث بيننا. وعلق الصحفى يورى افنيرى على ذلك بأننى أول من عرفت بهذه الاستقالة ولم اتنبه إلى اننى انفردت بخبر لا يعرفه رئيس الوزراء!.

وشئ غريب قاله ديان.. لقد راح يعدد الملوك والوزراء الذين التقى بهم فى الثلاثين عاما الماضية.. وكلهم ماتوا ولم يبق سواه!

ولم اتنبه إلى أن هذا ما يقوله الناس عادة قبل أن يموتوا..

فقط تذكرت ذلك عندما قال الرئيس السادات أيضا عن كيف سيموت كل الملوك والرؤساء العرب المعاصرين.. هذا بالمرض الوراثى وهذا بالسرطان وهذا بالاغتيال.. وأنه وحده سوف ينظر إلى جثثهم طافية على سطح الماء.. ولم تمضى الا شهور قليلة حتى مات السادات، وبقى على قيد الحياة كل الذين توقع لهم الموت!..

وفى القاهرة ذهب موشى ديان إلى خان الخليلى، وعرفه الناس. أما التعليق الذى قاله: أنه أحساس غريب عجيب.. أن يشعر بأجسام الناس حوله من كل ناحية.. يتزاحمون يتدفقون يضغطون بأجسامهم على جسمه.. ودون خوف من أحد!..

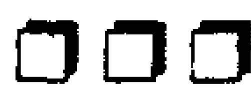


رجل واحد فى العالم فرح عندما اختير موش ديان وزيرا للخارجية، هذا الرجل هو السادات.

قلت : لماذا ؟

قال: لأنه لا يريد أن يفشل مرتين.. لقد فشل فى الحرب ويريد أن ينجح فى السلام.. وسوف يعمل على ذلك!..

وكان من رأى الرئيس السادات أنه لولا موشى ديان ما نجحت اتفاقيات كامب دافيد.. فقد انقذها من التردى مرات عديدة!



سألتنى يا عيل ديان، الروائية المعروفة وابنة موشى ديان: وأنت تنظر إلى الهرم الذى بناه اجدادك، ماذا تشعر بالضبط.. بالعظمة؟ بالكبرياء؟ بالثقة بالنفس؟ نفسى أعرف!

قلت : كل ذلك مرة واحدة فى العمر وبعد ذلك ننسى تماما هذه المعانى وننسى الهرم أيضا.. والمثل عندنا يقول: يذهب إلى الصلاة متاخرا، من يسكن بجوار المسجد!



عندما ذهبت إلى إسرائيل أخيرا قبل منتصف الليل.. إنه نفس المطار الذى رأيته عدة مرات.. ولكن فى هذه المرة كانت مشاعرى مختلفة تماما.. فمعى رسالة من الرئيس حسنى مبارك إلى رئيس وزراء إسرائيل شمعون بيريز وسوف أحمل الرد عليها.. وكان الاتفاق على أن تكون الزيارة سرية. لا من شاف ولا من درى.. ولكن لاسر فى إسرائيل.. لدرجة أنه يقال ان الصحفيين عندما يكونون فى بيوتهم فانهم يطلبون مكاتبهم، لا لانهم يريدون أحدا. ولكن لانهم يريدون أن يفضوا بلحد الاسرار فى التليفون.. يقولون والسلام!..

وفى المطار وجدت مندوبى التليفزيون والصحف يسألوننى عن مضمون رسالة الرئيس مبارك.. وكان المفروض أن أقول: لا رسالة.. وانما أنا جئت لا تحقق من بعض المعلومات عن عملية السلام تساعدنى فيما سوف اكتبه!

ونشرت الصحف واذاع التليفزيون والراديو ووكلات الانباء والاذاعات العالمية، وسمعوها ورأوها فى مصر: ان هناك رسالة وأن مضمونها كذا وكذا - وكان ذلك استنتاجا!.

وفى صبيحة يوم سفرى إلى إسرائيل قال السفير محمد بسيونى للرئيس حسنى مبارك: ان رئيس وزراء إسرائيل قد اخبره بسفرى وانه سعيد بان يتلقى رسالة من الرئيس مبارك!..

إذن السر فى مكتب رئيس الوزراء ومدير مكتبه وبعض مساعديه - لا سر! وعلى باب مكتب رئيس الوزراء سألونى: إن كنت هناك رسالة خاصة. فقلت: لا رسالة. قالوا: ولكننا على يقين مما نقول!

وبعد أن انتهت مقابلتى الأولى مع السيد شمعون بيريز - نحن نكتبها بالزين وهم يكتبونها وينطقونها بالسين - قلت: هل أقول أنا ان هناك رسالة وان هناك ردا عليها.. وان المعنى العام كذا وكذا.. أو تقولون سيادتكم ذلك.

فأجاب بيريز: قلت أنت..

وقلت: وحذرنى صحفى إسرائيلى: احترس.. التليفزيون والاذاعة والصحافة هنا تنقل أى شئ.. فلا تحاول أن تداعب أحدا أو تهزر أو تنكت..سوف تجد ألف نكته على

لسانك غدا صباحا! وفى المرة الثانية قابلت رئيس الوزراء شمعون بيريز وقلت له: ان البن فى مكتب اسحاق شمير أكبر وأفضل!

وبسرعة رد بيريز قائلا: كل واحد له مزاياه!

بمنتهى الجدية. وكأننى فاجأته بنتيجة استفتاء شعبى من الممكن أن يؤدى إلى انتصار شامير فى الانتخابات.. ولكنه جاد جدا بيريز. والذين شاهدوه يضحك فى أية مناسبة قليلون جدا..

واذكر انه كان يتناول طعام الغداء فى نادى التحرير بالقاهرة بدعوة من د. اسامة الباز. قلت له: أن عيزر فايتسمان قال لى أنه سوف ينجح فى الانتخابات وسوف يكون رئيسا للوزراء وأول رئيس جمهورية طيار..

وبسرعة رد بيريز: لا.. حافظ الأسد طيار!

وراحت القفشة أو النكتة!.



وأول إسرائيلى تحدث فى الاذاعة المصرية كان الدبلوماسى العتيد ابا ايبان. ففى القناطر الخيرية بعد أن خرج من لقاء الرئيس السادات مع بيريز وبارليف تحدث أبا ايبان باللغة العربية باللهجة السورية!

وعندما كنا طلبة فى الجامعة، دعينا إلى سماع محاضرة يلقيها الكولونيل ابا ابيان وكان ذلك سنة ١٩٤٤. مكان المحاضرة هو الاتحاد المصرى الانجليزى (نادى الضابط) الآن بالزمالك. موضوع المحاضرة: المستشرق الانجليزى نيكلسون..

وكان ابا ايبان ضابطا فى قوات جنوب افريقيا التى تحارب مع الانجليز ضد القوات الالمانية فى مصر.

واستمعنا إليه. أما لغته الانجليزية فهى فى غاية الفصاحة. واما لغته العربية فواضحة ولكن بلهجة شامية ثقيلة..

ومن شهور جاء ابا ايبان والقى فى نادى الدبلوماسيين محاضرة عن الدبلوماسية الحديثة. واعجب به المستمعون. باسلوبه وعلمه وتجاربه..

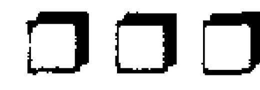
وزرت ابا ايبان فى بيته فى هرتسليا.. فيلا انيقة. هادئة. لا حراسة. دخلت من باب الحديقة.. انفتح باب الفيلا. كان ابا ابيان ببدلة كاملة. اتجهنا إلى مكتبه. ووقف اتى بشفشق ملئ بعصير الليمون المثلج - وهذا الشفشق موجود فى كل البيوت وكل مكاتب الوزراء. لا كوكا كولا ولا ببسى ولا شويبس وانما عصير الليمون البرتقال - وملأ كوبا.

الشفشق كبير به أوراق الليمون.. أو اغصان الليمون.. كلامه ناعم هادئ ولكنه قاطع. والابتسامة هى عبارة عن أشعة الموت التى تضئ إلى كلماته الساحرة، مواطن القتل فى كل من يتحدث عنهم.. قال عن شامير وسياسته وشخصيته.. ومستقبل العلاقات بيننا على يديه كلاما كثيرا. لا داعى لان أذكره. فهو خصم سياسى وبينهما معارك لا تنتهي.. وكل ذلك بهدوء شديد.. وبعلم غزير واسع..

وابا ايبان عديل رئيس الجمهورية حاييم هرتسوج - والزوجتان من مصر..

حدث ان كانت احداهما تمشى فى شوارع الزمالك تريد أن تشاهد بيتها القديم. ورأت البيت وقالت : اريد أن ادخل.

فصرخ مرافقها قائلا: مستحيل.. انها السفارة السعودية!.



السيد حاييم هرتسوج رئيس الدولة التقى بالرئيس السادات فى أسوان، كانت له مشكلة فى السفينة التى ستنقله وزوجته إلى القاهرة. حللت له المشكلة وكانت زوجة حاييم هرتسوج تفهم فى الكف. قالت: أعطنى كفك.

اعطيتها كفى.. قالت: سوف تحصل على جائزة كبيرة بعد شهر .. شهرين..

وكانت جائزة الدولة التقديرية التى حصلت عليها فى سنة ١٩٨١..

وقالت: وجائزة من مكان لا يخطر لك عل بال.

وكانت جائزة الابداع الفكرى لدول العالم الثالث - وقد تسلمها من البرلمان الهندى نيابة عنى صديقى السفير عمرو موسى..

وهى التى تنبأت لشمعون بيريز ان يجئ رئيسا للوزراء.

ثم طلبت منى أن استاذن الرئيس السادات فى قراءة كفه. ورفض الرئيس تماما!

قال: لى حاييم هرتسوج انه لا يكتب وانما يملى كتبه.. وانه يعمل مستشارا لشركة تليفزيون.. ومستشارا لشركة نشر.. ومستشارا قانونيا لشركة بناء.. وقلت: وكيف تعمل كل ذلك!

وفوجئت بان السيدة حرمه قد رفعت يدها متباعدة الاصابع فى وجههى. فقلت: وتؤمنين بالحسد؟!

قالت : نعم

قل : ولكن لا أحسده.. فأنا أعمل كثيرا أيضا ولا ادرى انها ميزة لاحد.. وانما هى لعنة القدر.. فنحن من الذين يعملون ولا يكسبون فى مواجهة الذين يكسبون ولا يعملون!.

وعندما كان حاييم هرتسوج مريضا فى غرفة الانعاش اتصل بالناشر الالمانى لمكتبه وطلب منه أن يعد نسختين من كتابه الجديد عن الحروب العربية الاسرائيلية: نسخة للرئيس مبارك ونسخة لى. وفى معرض الكتاب الدولى بفرانكورت، لم أكد أقف أمام جناح الناشر حتى وجدته قد أعد النسخنين مع اهداء من المؤلف!.



اما اسحاق نافون نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم، فكان رئيسا للدولة قبل ذلك. وقد خطب باللغة العربية الفصيحة فى بير سبع أمام الرئيس السادات. واستاء بعض الاسرائيليين الغربيين.. قالت السيدة حانا زيمر رئيسة تحرير دافار: لم أكن أعرف أن رئيسنا عربى؟!

لم يخطب بالعبرية.. والسادات لم يخطب بالعربية؟!

وفى زيارته لمصر، ولقائنا له فى قصر عابدين تحدث بالعربية عن طه حسين والعقاد. وكيف قرأ وتأثر بهما.. وعن الأدباء الذين زاروا تل أبيب فى الأربعينات والثلاثينات..

وفى أخر أيام اسحاق نافون حملت إليه رسالة من الرئيس حسنى مبارك. وكانت باللغة العربية.. ووجدت فى مكتب الرئيس نافون اثنين يكتبان ما نقول. وكنا نتحدث عن الأدب والفن والشعر والمسرحيات التى ألفها بلغته الاصلية: اللادينو، لأنه من أصل اسبانى..

وفى الطائرة وجدت أحد الركاب يقول لى: لقد سقط من جيبك بضعة دولارات..

قلت: فعلا.. وكيف عرفت؟..

قال : أنا وجدتها وسلمتها للبوليس..

قلت: ولماذا لم تعطها لى؟

قال : اما هذا فلا.. من ادرانى انك إذا اخذتها تقول لى انها كانت ضعف ذلك.. ومن ادرانى انها دولارات صحيحة ،ليست مزيفة.. ومن ادرانى انها ليست اشارة لاحد عملائكم فى إسرائيل.. الاسلم أن أعطيها للبوليس!

وتذكرت ان سوء الظن والشك وعدم الشعور بالامان هو هواء يتنفسه الجميع!

وسألت عن حديث رئيس الوزراء. فقالوا: جاء به أحد رجال الأمن ولابد من استلامه شخصيا.

كيمياء!.

يقولها الاسرائيليون عندما يتحدثون عن العلاقة بين عيزر فايتسمان وبين الرئيس السادات. فقد أحب أحدهما الآخر - وان كانت كلمة «الحب» ليست هى الكلمة.. وانما الكيمياء هى الكلمة. أى تفاعل بين عناصر مختلفة أدى إلى ظهور تركيبة جديدة.. أما ما هى هذه التركيبة فهى تقدير واحترام واعجاب وتصديق متبادل..

وكان بيجين يعرف هذه الكيمياء فكان يوفد عيزر فايتسمان فى المسائل الصعبة.. وكان السادات يطلب إلى عيزر نقل رسائل ذهابا وايابا إلى بيجين. وكان عيزر ينصح السادات بتعديل الرسالة أو التخفيف منها وكان السادات يضحك قائلا: أنت سفير مصر لدى إسرائيل!؟.

وكان عيزر فايتسمان يقول : بل سفير اسرائيل لدى مصر لخدمة مصالح البلدين.. وربما كان أول خلاف بين الرئيس السادات ود. مصطفى خليل رئيس الوزراء كان بسبب عيزر فايتسمان. وسعر البترول المصرى. فقد وعده الرئيس بسعر، ولكن د. مصطفى خليل رأى فى ذلك غبنا شديد لمصر. وكان موقفا عنيفا. وكان لابد من اتخاذ قرار.. وكان القرار لصالح مصر طبعا!.

وقد ظهر اعجاب الرئيس السادات بعيزر فايتسمان فى الحديث معه ومداعبته فى الاسماعيلية يوم حضر بيجين يوم الكريسماس ويوم عيد ميلاد الرئيس السادات.

وكان السادات يحب أن يقول لزواره من اليهود الأمريكان والنمساويين أن عيزر فايتسمان: أصله مصرى ولكنه يخفى ذلك حتى لا يتهموه بالعمالة لمصر!!

وفى ميناء حيفا.. وقف مجلس الوزراء الاسرائيلى بالكامل فى انتظار السادات بملابسه البحرية.. وصافحهم واحدا واحدا.. وأمسك الناس أنفاسهم بضع ثوان ليروا ما الذى سوف يفعله بعيزر فايتسمان.. لقد حدث ما كان يتوقعه الناس: عانقه بحرارة!.

وفى بيت عيزر فايتسمان فى مدينة «قيصرية» فوجئ الضيوف بان عيزر فايتسمان قد أتى بطبق وشوكة وسكين وراح يأكل والناس يتفرجون عليه.. وفجأة ظهرت زوجته وهى أخت الزوجة الأولى لموش ديان، وعاتبته بشدة على ذلك، ولم نفهم. ولكنه بادرنا بقوله: أسف أنا رجل عسكرى طول عمرى.. وفى العسكرية علمونا إذا وجدنا أكلا نأكل فورا.. واذا وجدنا سريرا أن ننام فورا، فنحن لا نعرف ان كانت مثل هذه الفرصة سوف تتاح لنا بعد ذلك!..

ومات السادات، ولكن عيزر فايتسمان لا يعرف ما الذى ضايق الرئيس فى كتابه «دفاعا عن السلام». الكتاب ممتع وملئ بالحكايات والنوادر. وكان ذلك رأى السادات فيه.. حتى وقعت عينه على عبارة يقول فيها عيزر فايتسمان: وكان السادات يتهته!

هنا سقط الكتاب، والمؤلف معا. وخسر عيزر فايتسمان إعجابا عظيما من رجل عظيم!..

قابلت عيزر فايتسمان فى مكتبه أخيرا.. قدم لى حفيدة عمه حاييم فايتسمان. وجلسنا متجاورين، وانطلق يتحدث عن الوضع وعن طابا وعن السلام وعن زيارة بيريز للملك الحسن.. ولكنه كان حزينا، فلن يكون وزيرا لشئون العرب.. بعد أن نجح وبعد شعبيته الهائلة - أو بسبب نجاحه وهذه الشعبية أيضا!.

أصحاب محلات الحلويات الشامية فى مصر يتندرون بزيارته لهم. وكيف أنه تفادى وهو يتنقل من محل إلى محل، ان يكون فى إطار واحد مع تمثال الرئيس عبد الناصر المقام هناك..

ولكن عيزر فايتسمان الخبير بشئون العرب، قد نسى عند زيارته السيد كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية اننا فى رمضان لا نضع الخمور على الموائد..

وعرفت بمحض الصدفة برنامج الزيارة. فقد كنت اتحدث إلى ياعيل ديان.. سألتها: وماذا اعد زوج خالتك لنا؟

قالت: فى الساعة السابعة كوكتيل..

صرخت : كوكتيل فى رمضان!

قالت : لا أفهم..

قلت فى رمضان : لا خمور لأى أحد..

وقد أدى ذلك إلى تغيير الطعام والشراب.. حتى تناولنا افطارنا بعد المدفع بساعة وأكثر..

وفى الفندق فوجئنا فى الساعة الثانية عشرة مساء بمن يدق الأبواب ويقدم لنا طعام السحور.. ولم يتسع وقتهم ليفكروا ما هو الطعام المناسب فى السحور. فاتوا بالدجاج واللحوم والسمك والفواكه بكميات كبيرة!..

وإلى جوار السرير وجدنا مصحفا. هذا المصحف كانت طبعته الأولى فى المطبعة

الاميرية بالقاهرة.. ثم سرقه الناشرون اللبنانيون واشترته إسرائيل..

وعندما فتحت المصحف وجدت مفاجأة أخرى..

فعلى الصفحة الأولى من سورة البقرة ختم بالأزرق يقول: هدية من جيش الدفاع الإسرائيلى!

أعوذ بالله!..



فما الذى تغير فى إسرائيل فى السنوات التسع الماضية.. اما البلاد فكما هى.. أما الذى تغير فهو فهم الناس..

فعندما أذهب إلى إسرائيل فلا شئ يستوقف عينى.. فالبلاد كأنها دولة أوروبية صغيرة.. أما الناس الذين نلتقى بهم من المفكرين والساسة والصحفيين فهم يستحقون الاهتمام.. فكان الواحد منا يذهب مغمض العينين، مفتوح الاذنين..

وقد سألونى فى الاذاعة والتليفزيون: ما الذى تغير؟

لا شئ ولكن أفكار الناس هنا وهناك..

وأفكار الناس: لم تكسب شيئا من السلام مع مصر.

أخذتم سيناء ولم نتقاض عنها علاقات عادية بين الشعبين..

وآخرون يقولون: بل كسبنا السلام مع مصر. فالحدود المصرية الاسرائيلية هى أهدأ الحدود. يكفى أن لنا سفارة ولنا علم. ولكم سفارة وعلم. والباقى يجئ على مهل.. وسوف يجئ!..

وغيرهم يقولون : ما تزال الصحف المصرية تتحدث عن العدو الصهيونى .. وعن اليهود والمؤامرة الصهيونية.. ضرورة الحرب..

واناس يقولون: وفى إسرائيل اناس ضد السلام مع مصر ومع العرب.. وضد اعادة سيناء لمصر.. ويصرون على اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات.. ففى مصر مثل هؤلاء الكارهين الخائفين من اسرائيل أيضا.. ولابد من وقت طويل لإزالة سوء الظن بين البلدين.. وهؤلاء الناس لو كانت اتيحيت لهم فرصة لشنقوا بيجين فى ميدان التحرير بالقاهرة.. والسادات بميدان الملوك بالقدس!..

ونحن شعبان مختلفان، وسوف نبقى كذلك..

ونحن هنا على هذه الأرض من ألوف السنين.. لم تقتلعنا عواصف التعصب الدينى والعنصرى والحقد الطبقى من أى مكان.. لقد تم غرسنا فى أرض مصر.. هنا ولدنا. وهنا نبقى، وتحت هذه الأرض نموت..

ونحن أهدأ وأكثر مسلمة..

وهم عصبيون..

ونظراتنا إلى الأشياء مختلفة إلى حد كبير..

مثلا: بعد زيارة الرئيس السادات للقدس بدأ الصحفيون والسياح يتدفقون على مصر..

وفى يوم نشرت احدى الصحف فى إسرائيل: أن اتوبيس سياحيا ذهب من تل أبيب إلى القاهرة، فلم تنشر عنه الصحف المصرية سطرا واحدا!؟

تصوروا.. اتوبيس به ستون راكبا فى مدينة بها مليون سيارة وعشرة ملايين مواطن، ثم انها دولة سياحية.. بالله كيف يمكن أن يتنبه أحد إلى اتوبيس قادم من تل أبيب!.

طبيعى ألا يلتفت أحد إلى اتوبيس قادم من تل أبيب أو من باريس أو حتى من سيدنى. وعدم الالتفاف أو الانتباه لا يعنى تجاهلا - ولكن الصحيفة الاسرائيلية قارنت بين استقبال السادات فى القدس، وعدم استقبال هذا الاتوبيس فى القاهرة!..

ثم هذه الحكاية التى تدل على اختلاف النظرة، حتى لو كانت نكته!

فقد اقامت عائلتين سعوديتان الخاشقجى والسليمان حفل زفاف فى فندق ماريوت بالقاهرة وتصادف ان كنت اتناول عشائى فى الفندق. وفوجئت بصحفى اسرائيلى فى حالة ذهول.. وامسك بذراعى قائلا: هنا أمر خطير جدا.. واريدك أن تطلب الرئيس حسنى مبارك فورا.. لابد أن تطلب الرئيس أو قل لى على طريقة اتصل بالرئيس أو ابعث له رسالة خاصة أو تلكس يصله الآن قبل أن ينام!

ثم همس فى أذنى: لقد دخلت الى قاعة الفرح.. وبه أكبر وأغنى العائلات السعودية فى العالم.. ولا تنسى اننى جواهرجى وأبى وجدى. وبعملية حسابية دقيقة استطيع أن اؤكد لك ان الماس والذهب الموجود فى هذه الحفلة لا يقل عن مليارين من الدولارات.. يجب أن اتصل بالرئيس مبارك الآن فورا.

قلت : لماذا؟ لا أفهم!

قال : افهمك.. أنتم الذين اخترعتم «مذبحة المماليك» .. وهذه فرصتكم لكى تحلوا مشكلة مصر الاقتصادية!..

ثم دفعنى إلى التليفون لكى اتصل بالرئيس حسنى مبارك لكى يبحث عن طريقة للاستيلاء على الماس والذهب!..

ثم قال : لا داعى للقتل تدويخهم فقط .. ونزع الماس من أصابعهم واذانهم ورقابهم.. ما رايك.. اتصل بالرئيس!

وكنت أضحك ولا اتصور أنه جاد فيما يقول.. ولكنه كان جادا.. ثم قال يائسا.. اتهمونى أنا.. أو اقتلونى وادفعوا لأرملتى وأولادى ٥ ٪ من حصيلة المذبحة!.

وبعد أن تناولت طعام العشاء وخرجت وجدته جالسا حزينا وقد أسند رأسه إلى خده ولم يكد يرانى حتى بادرنى : هل اتصلت بالسيد الرئيس!..

قلت : أنت مجنون ! لا شأن لنا بأموال أحد.. ومجوهرات أحد!..

وغضب وأقسم أن يذهب مباشرة إلى المطار وأنه لن يبقى فى مصر دقيقة، واحدة!

رويت هذه «النكة» للمشير عبد الحليم أبو غزالة فى التليفون وهو فى واشنطون وأنا أقول له: كنا محتاجين إليك أمس!.

فضحك وقال: أنا؟! انها تحتاج إلى شارون!.



فالمجتمع الإسرائيلى متحرك ملئ بالجنون والحركة.. مجتمع علمى. لابد أن يكون فى حالة استعداد وتحفز دائم..

ولو انتظر رد الفعل المصرى لطال انتظاره. ولكنه لا يقوى على الانتظار..

هناك نكتة أو حقيقة تقول: أنه لو اختلف اثنان من اليهود انشأوا ثلاثة أحزاب.. واحدا لكل منهما، والثالث ليعارض الاثنين!

ويقال أن هذه النكتة أصبحت قديمة.. اما النكتة الجديدة فهى : أنه لو عاش واحد اسرائيلى فى جزيرة لاقام معبدين: احدهما يصلى فيه والآخر لا يصلى فيه!

وهناك نكتة إسرائيلية تقول: انه إذا اجتمع ثلاثة من العرب فكروا كيف يكونون عشرة يضمهم حزب واحد ثم لا يتفقون.. وبعد ذلك يتفقون على شئ واحد: انها مؤامرة صهيونية!

وفى التليفزيون الاسرائيلى قلت فى الاسبوع الماضى: كأننا اثنان احدنا خطواته طويلة والآخر خطواته قصيرة.. ولكى يمشيان معا، لابد من تعديل الخطوة. وسوف يحتاج ذلك إلى وقت، ونحن لسنا على عجلة من شئ!

ولكن الشعب الاسرائيلى العصبى، قضى على بيجين بهدوء.. والشعب المصرى الهادئ قضى على السادات بعنف!.. ■

جولة ثانية فى معركة السلام

عندما ذهب مناحم بيجين إلى أوسلو عاصمة النرويج قالت الصحف: حضر من كان ينبغى أن يغيب، لتسلم ما كان ينبغى ألا يأخذ.

وأثناء تسليم الجائزة كانت المظاهرات فى شوارع أوسلو قادمة من استوكهلم. وقبل ذلك تسابقت الأقلام فى الهجوم على لجنة نوبل للسلام، وعلى الرجل الذى لم يحقق للسلام شيئا.. ومع ذلك جاء يقبض المكافأة المالية بيد. ويختطف البراءة الأدبية باليد الأخرى. وصدق بيجين فقط عندما قال: إن هذه الجائزة يستحقها شعب إسرائيل!.

فقط بهذا المعنى من الممكن أن نجد له بعض العذر. فقد ذهب يتسلمها نيابة عن الشعب الذى فرح بمبادرة السلام. ولا يزال يعارض بيجين وأعضاء حكومته الذين يقاومون الرأى العام فى إسرائيل والرأى العالمى الذى يريد السلام حقا!..

ولابد أن المقاعد الخالية فى مأدبة العشاء كانت احتجاجا واضحا على اللجنة التى أعطت الجائزة لبيجين، وتضامنا مع الرجل الذى استحقها ولم يحضر.. مع الرئيس السادات..

ومن المؤكد أن بيجين لم يفرح بهذه الجائزة كما كان يجب. فلا هو استعرض أسلوبه الخطابى فى حبه المزعوم للسلام.. واستجابته الوهمية لكل مطالب مصر.. ولا هو استطاع أن يقاوم تساؤلات الناس.. لماذا حضر هو؟ ولماذا لم يحضر الرئيس السادات؟

*نشر هذا الموضوع فى ١٩٧٨/١٢/١٧

فقد جاء غياب السادات أقوى من حضور بيجين. وأعمق احتراما لنفسه وشعبه.. ولما عاد بيجين إلى إسرائيل جاءت وفاة جولدا مائير أقوى من فوزه بيجين بجائزة السلام فلا فرح بها خارج إسرائيل. ولا استطاع أن يستغلها داخل إسرائيل..

وقالت الصحف الإسرائيلية: إن بيجين مثل رجل ذهب للحفاوة بطهارة طفل لم يولد!!

وكان الرئيس السادات أسبق من المحللين السياسيين عندما قال إنه يفضل أن يكون بيجين فى الحكم ليتفاوض معه.. على أن يكون بيجين فى المعارضة فيكون عقبة أمام السلام. ويوم سأل الرئيس السادات صديقه شاوشيسكو عن بيجين وهل هو الرجل الذى قال فعل؟.. وكان الرد: إنه هو. وسأل الرئيس السادات: إن كان بيجين يريد السلام حقا؟.. وكان الجواب.. لا شئ أعز عليه من ذلك!

وكانت المبادرة الباهرة والصاعقة لبيجين منذ اللحظة الأولى. وهذا يبرر موقفه المرتبك وعباراته التى كانت مجافية للذوق والتى اعتذر عنها بعد ذلك.

ووجد الذين يعرفون بيجين جيدا أنه ارتبك. فالرجل فى غاية الأدب أو التهذيب أو حريص على أن يبدو كذلك.. وأنه متمسك بالشكليات القديمة فى الزى وفى الانحناء عند التحية، وفى تقبيل أيدى السيدات.. وأنه أقرب إلى الحاخامات فى الخطابة والموعظة. إذن ما الذى جعله هكذا غليظا فى خطابه فى الكنيست.. وفى خطابه بعد ذلك فى الإسماعيلية عندما وصف العدوان على مصر سنة ١٩٦٧ واحتلال سيناء بأنه كان يخوض حربا دفاعية؟.. ثم إنه استرجع كل ما كان قد وعد به.. ثم كيف كان بعد ذلك نابيا فى كلمته فى القدس، وليس صحيحا أنه أنفعل. وأن ما جاء على لسانه كان «زلة» غير مقصودة.. وإنما تكرار هذه المواقف خطة مقصودة حتى لا نتقدم معا أو وحدنا نحو السلام.. أو أنه يريد بذلك أن يوقف الزحف عليه حتى لا يلين ويكشف موقفه. ولم يشأ أن يكشف موقفه. ولكنه انكشف يوما بعد يوم..

وفى نفس الوقت تضاعف المد العالمى للسلام. واتخذ طابعا دينيا فى إسرائيل وفى اليهودية العالمية.. فالشعب اليهودى الذى ما يزال يبكى عليه بيجين فى أوسلو، كما بكى عليه قبل ذلك سنجر الأديب الإسرائيلى الذى فاز بنصف جائزة نوبل فى الأدب منذ عشر سنوات وفى نفس المناسبة. هذا الشعب يريد السلام.. رأينا ذلك فى الشوارع والمعابد والمعارض والقصائد ومئات الأحاديث والمقالات.

وظل بيجين يقاوم عشرة شهور حتى كانت لقاءات كامب دافيد. ولم تكن هذه

الشهور بالزمن الطويل.. ولكنها بمقاييس التاريخ لحظات عابرة.. فلم يحدث فى تاريخ الحروب أن أنهيت المشاكل وصفيت المتاعب وذابت جبال الجليد بين الأعداء فى شهر أو عشرين شهرا.. فلا تزال اتفاقيات الأسلحة الاستراتيجية بين أمريكا وروسيا مستمرة منذ أكثر من ١٧ عاما.. ولم تنته الاتفاقية بين أمريكا أقوى دولة فى العالم وبين بناما أصغر دولة فى أمريكا منذ ١٣ عاما..

ومع ذلك فإن مناحم بيجين وحكومته يجربون كل وسائل الضغط والتحايل على الرأى العام فى إسرائيل وفى العالم كله. ولا تزال أجهزة الإعلام اليهودية الضخمة تحاول ما سبق أن حاوله قائدهم القديم يشوع عندما جمع عددا من الكهنة يصرخون فى وقت واحد لتسقط جدران أريحا.

ولكن جدران أريحا أو الرأى العالمى المحب للسلام أقوى وأضخم من أن تسقطه الأصوات أيا كان مصدرها..

ووجد بيجين من يبرر له ويفسر سلوكه: فهناك من يقول : اعذروه.. إنه رجل حرب. ولم يذق طعم السلام ولا يعرفه..

أو من يقول: بل هى غلطة عمره كله أنه قبل زيارة الرئيس السادات للقدس.. وكان فى استطاعته أن يتخلص منها. ولكن بعد أن قبلها وتمت فقد أفلت الزمام من يده، اعذوره..

ومن يقول: إنه استعد للحرب ولم يستعد للسلام. إنه وعد الشعب اليهودى بأن يحارب العرب وحده.. وأن يحارب التدخل السوفيتى وحده. وأنه يريد أن يؤكد لأمريكا أنه القوة الضاربة لكل من تسول له نفسه أن يرفع رأسه من هؤلاء العرب الأغنياء الجهلاء!..

وقيل: إنه بدأ يلين.. إنه تراجع.. إنه يقبل الآن عبارات ومواقف لو قبلها أحد أيام كان زعيما للمعارضة، لا نقض عليه بيجين واكل لحمه نيئا!

وكان بيجين فى مفاوضاته يحارب وهو يتراجع. وكان يلقى بالعقد القانونية والحيل السياسية..

فقد كان يتصور أول الأمر أن ينسحب من سيناء وأن تبقى المستوطنات بحراسة إسرائيلية.. أى أن تكون المستوطنات محطات للسيادة الإسرائيلية على الأرض المصرية..

أو بعبارة أخرى: أن تكون انتقاصا متناثرا للسيادة المصرية. ورفضنا ذلك طبعا.

وقيل: ولماذا لا تعتبرون هؤلاء الإسرائيليين مواطنين أجانب كالموجودين فى كل دول

العالم؟.. وكان الرد: لا مانع أن يكونوا إسرائيليين بشرط أن يخرجوا من الأرض المصرية وأن يدخلوا من الباب. وأن يدقوا الباب وأن نفتح لهم عندما نريد..

ولم يعد يتحدث بيجين عن المستوطنات. ولا يتعرض للسيادة الكاملة لمصر على أرضها.. وجاءت القضية الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة وتطبيق القرار ٢٤٢ الذى ينص على الانسحاب مع التعديلات الطفيفة. ولكن فى نفس الوقت ينص على الحكم الذاتى لأهل فلسطين. أى أنهم يختارون شكل الحكم وشكل الدولة المقبلة وهل تستقل أو هل تدخل فى اتحاد مع إسرائيل أو مع الأردن..

وظهر ألف تفسير إسرائيلى للحكم الذاتى.

وأعلنت أمريكا التى أصبحت شريكا كاملا. أن الحكم الذاتى يجب أن يكون كاملا. بمعنى أن يتولى ابناء فلسطين حكم أنفسهم بأنفسهم. ولاعتبارات الأمن الإسرائيلى تنسحب القوات العسكرية بالتدريج، وتبقى بعض الوقت فى أماكن متفق عليها.

وكان المثل الأعلى للحكم الذاتى فى تفسير بيجين ما رآه هو نفسه عندما كان معتقلا فى السجون الروسية والألمانية. وقد شرح ذلك فى مذكراته فقال: إننا كنا نمارس نوعا من الحكم الذاتى. فنحن الذين نغسل ملابسنا ونطهو طعامنا ونرفع أيدينا بالتحية كلما رأينا أو توهمنا أننا رأينا أحدا من الحراس.. ولكن الحكم الذاتى فى السجون الألمانية كان أفضل!..

ومعنى ذلك أن ابناء الضفة والقطاع يمارسون الحكم الذاتى فى التعليم والأمن والمواصلات. ويرفعون أيديهم بالتحية كلما رأوا أحد الجنود الإسرائيليين.!..

وتوقفت مفاوضات كامب دافيد. وقرر الرئيس السادات أن يعود إلى مصر. ورأى فى ذلك أنه بذل أقصى ما يستطيع. وأن مصر وأمريكا التى هى أقوى دولة فى العالم والسند الأوحد لإسرائيل. لم تستطع أن تحصل على كل ما تريد.. وأن العالم كله إن كان يحب السلام حقا فعليه أن يقوم بواجبه نحو هذه الدولة المعتدية التى تعرض مصالح الغرب والشرق للخطر. لا لشئ إلا لأنها تتمدد على صدر أمريكا. وفى نفس الوقت فإن الشعب الأمريكى الذى يدفع لها بغير حساب، يجب ألا يدفعها بغير حساب أيضا..

وكانت اتفاقية كامب دافيد التى ليست إلا «إطارا» أو «خريطة» من أجل مسار السلام وعلى ضوء هذه الخريطة وهداها يجب أن نمشى جميعا نحو الهدف الأسمى الذى نريده، وهو السلام الكامل الشامل وعودة الحقوق الكاملة إلى الشعب الفلسطينى. فقضية

فلسطين هى القضية. وإسرائيل هى التى اعتدت على أرضه وعلى شعبه وعلى الأرض والشعوب العربية. ورفضت منذ سنة ١٩٤٨ أن تكون لها خريطة أو تكون لها حدود، وإنما تظل حدودها مفتوحة لأى توسع جديد. وهذه الحدود اللا محدودة هى التى جددت آمال المتهوسين من الصهاينة ورجال الدين فى أن تكون إسرائيل ممتدة من النيل إلى الفرات.. وقبل اتفاقية كامب دافيد طالب أستاذ يهودى أمريكا بالضفة الغربية لنهر المسيسبى. لأنه وجد آثار تدل على وجود قوات لملك داود فى أمريكا.. أى أن إسرائيل يجب أن تمتد من المسيسبى إلى الفرات!.

ولا يزال الذين ينادون بالتوسع الإسرائيلى يحملون شعارات بن جوريون: الأرض قبل الأمن.. وكل أرض تدوسها قدم يهودية هى أرض إسرائيل.. وحدود إسرائيل هى حدود القوة الإسرائيلية.. وكان الحاخام الذى ينفخ فى الصور - أى قرن الخروف - فى القدس يسمعه بقية اليهود فى بغداد والقاهرة. فقد كانت هذه المسافة مليئة ببيوت يهودية.. إلى آخر ما يقولون ويرددون ويصدقون ما يتوهمون!..

ولم يكن أحد يعرف بالضبط ماذا يريده مناحم بيجين وحكومته.. وعرف العالم ماذا يريد وماذا يدعى وبماذا يوهم العالم كله أنه رجل سلام..

وأن العرب لا يريدون إلا الدماء.. ولكن بعد زيارة السادات للقدس على مشهد من ألفى مليون نسمة وفى لحظة واحدة. كان من المستحيل أن يقنع العالم جميعا بأن الذى رأوه ليس إلا وهما وسرابا!

وكانت من مشكلات كامب دافيد: كيف تربط بين اتفاقية مصر وإسرائيل وبين مراحل الحكم الذاتى فى الضفة والقطاع..

وكان الاتفاق على ضرورة أن يكون هناك ارتباط أو ربط. وأراد بيجين أن يكون الربط بخيوط من النايلون - تربط الاتفاقيتين دون أن يراها أحد.. أو مثل خيوط العمليات الجراحية.. نراها أول الأمر ثم يتشربها الجسم فلا تظهر، كأنها لم تكن.. وكان رأى المفاوض المصرى أن يكون الربط واضحا تماما. وأن يظل واضحا. فقد اتفقنا على توضيح كل شئ.. فلا توجد هناك أية اتفاقيات أو بنود سرية.. واننا لم نبذل كل هذا العناء علنا. لنخفى نتائجه..

ولم يكن المشاركة أمريكا الكاملة الا هذا المعنى: أن تكون أمريكا حاضرة وأن تكون شاهدا على المواقف الصريحة الواضحة.. وأن تحمل مسئوليتها الكبرى. فلولاها ما كانت ولا عاشت ولا اعتدت إسرائيل!..

ولولاها أيضا لن يكون سلام - ونحن لم نر حتى الآن سلاما أو اقترابا منه بصورة أخرى! ولم يدلنا أحد من المتفرجين على المعاناة المصرية من أجل السلام، على بديل آخر. أو منهج آخر. أو دولة عظمى أخرى تستطيع أن تحقق لقضيتنا ما هو أكثر أو أكبر أو أقرب. وإن كان الباب ما يزال مفتوحا، والمائدة ممدودة والدعوة قائمة - هذا أن كان من الضرورى أن ينتظر أحد دعوة أحد لكى يحل مشاكله القومية وويلاته التاريخية. أما مصر فقد نبذت سياسة أن تقول: لا لأى شئ وتمضى فى الاستسلام والبكاء على الذى كان، واليأس مما سيكون، وقررت أن تفوض علنا عدونا الذى يفاوضه غيرنا من عشرات السنين سرا وخسة وخيانة للأمة العربية. ولأن الخوف هو غريزة الغرائز اليهودية.. كانت مشكلة الأمن هى المشكلة الأولى والأخيرة، فإسرائيل لا تريد أن تنسحب من الأرض، وإذا انسحبت فلابد من ضمانات. أى لابد من تعهدات من مصر ومن أمريكا. ولو شاءت لطلبت من العالم كله، وقدمنا لها الضمانات، لأننا نريد السلام حقا، ونريد أن نفرغ من مشاكلنا السياسية الخارجية والأعباء العسكرية، لأن لدينا مشاكل ساخنة فى الداخل تريد حلا.. فعندنا الرغيف والمسكن والمواصلات والزراعة والصناعة والعمالة والقناة والأرض الجديدة فى الوادى الجديد وبحيرة السد وأرض سيناء ومليون مواطن كل سنة.. إلخ..

وأرادات إسرائيل أن يكون لها وضع متميز.. حاولت أن يكون لها ذلك الوضع عندما طالبت بأن تبقى المستعمرات على الأرض المصرية. ورفضناها، فعدلت عن ذلك بقرار الكنيست وبسبب إصرار المفاوض المصرى والمفاوض الأمريكى أيضا، فعادت إسرائيل تقول: إن الاتفاقيات المبرمة بيننا وبينها تشجب أية اتفاقيات أخرى بيننا وبين العرب.. بمعنى أننا مادمنا قد أنهينا حالة الحرب مع إسرائيل. فيجب أم نقف متفرجين إذا هى اعتدت على دولة عربية. ورفضنا ذلك تماما.. وأيدينا أمريكا..

ومن الخلافات بيننا: الجدول الزمنى للانسحاب من الضفة الغربية والقطاع تمهيدا للحكم الذاتى. وأن تكون كل المراحل فى الزمن وعلى الأرض محددة تماما. لأننا اخترنا الوضوح عندما بدأت المواجهة بزيارة علنية للقدس. وبخطاب واضح فى الكنيست. وأشهدنا العالم كله على كل كلمة وكل لقاء وكل اتفاق - فلا شئ يمكن إخفاؤه. وإذا أمكن فإنه لا يصح. فلم نعد وحدنا منذ مبادرة السلام!..

والخلاف بيننا وبين إسرائيل: أننا نريد الحل شاملا. وأنهم يريدون الحل منفردا.. أو أنهم يريدونه شاملا.. ويكون فى الحقيقة منفصلا. ونحن نصر على أن يكون شاملا. وهم يساهمون على ذلك..

وبيجين يعرقل خطواتنا من أجل السلام الشامل..

وبيجين ليس أسوأ حالامن اخوتنا العرب الذين التقوا فى بغداد: إنهم لا يريدون السلام، وإذا أرادوه فكلام. وإذا تكلموا خطبوا. وإذا خطبوا فهم متفرجون على العذاب والعناء المصرى. وهم مثل إسرائيل يريدون لمصر أن تفشل وأن تسقط، وبذلك يبقى كل شئ على ما هو عليه. أو على ما كان عليه. وهم أسوأ من بيجين لأن الذى بذلته مصر، وما قامت به ليس له نظير فى التاريخ. فإذا فشلت كل هذه الجهود الذكية المضنية لأقوى دولة عربية.. فلن تفلح كل الدول العربية معا فى أن نحقق شيئا - ولم نستطع أن تحقق بغير مصر أى شئ فإذا كانت مصر لم تستطع فإن واحدة منها، أو هى جميعا. لن تستطيع، وبدلا من التفرج على معركة السلام.. لماذا لا يفعلون شيئا آخر.. فلا نهاية لما يمكن عمله. فليست مشكلة مصر مع إسرائيل مشكلتنا وحدنا، ولا هى المشكلة الوحيدة فى الشرق الأوسط. وفى الدول العربية رؤوس تتساقط وسوف تتساقط أمامنا، وسوف نواجه صورة جديدة مروعة للشرق العربى والشرق الأوسط. وكل ذلك تعلمه إسرائيل ونحرص على تأكيده، ويعلمه الاتحاد السوفيتى ويمهد له.. ولن تكون الخسارة هى ألا تتفق مصر وإسرائيل على السلام، إنما الخسارة سوف تكون أفدح من ذلك..

وإذا كانت مصر كبرى الدول العربية، وأمريكا عظمى دول العالم، ولم تستطيعا أن تستخلصا من إسرائيل حقوق العرب إلا بصعوبة شديدة. فما معنى ذلك؟.. معناه أن الموقف عسير للغاية.. وأن الجهود يجب أن تتضافر من أجل أن تحقق شيئا ايجابيا. وليس توقيع الاتفاقية هو النهاية إنما هو بداية النهاية. فمشاكل السلام بعد ذلك صعبة. وليس أيسر ما فى الاتفاق بيننا وبين إسرائيل هو إنهاء حالة الحرب، إنما المشاكل بعد ذلك هى استمرار السلام وأن تكون العلاقات عادية. بين أعداء غير عاديين.. وليس هذا بالأمر السهل..

وفى إسرائيل كتاب كبار يحملون بيجين مسئولية إنعاش العداء لإسرائيل وإحياء العداء للسامية ويرون أن بيجين هو المسئول الأول عن إعادة صورة اليهود الكريه إلى أذهان الناس. وهو المسئول عن عودة المصريين إلى أفكارهم عن اليهود من جديد.. وهو المسئول عن خوف اليهود فى إسرائيل.. بل إن فى أمريكا حزبا نازيا معاديا لليهود. وفى العالم كله رأى معارض لبيجين ومعارض لحكومته وغدا يكون معاديا لإسرائيل، فى نفس الوقت قتل المسلمون فى إيران عددا من الأطباء اليهود وأحرقوا معابدهم، وكان اليهود (٧٠ ألفا) يعيشون فى إيران فى سلام منذ أعطاهم الملك قروش سنة ٥٣٨ قبل الميلاد

حق المعايشة الامنة فى بلاد فارس وفى القدس.. وهم فى إيران يحتكرون صناعة الذهب والماس والسجاجيد ولهم مقعد فى البرلمان.. وإذا بدأ العداء الدموى لليهود فى إيران المسلمة فلا نهاية له. وسوف يصيب اليهود فى العالم العربى كله - والسبب مناحم بيجين!.

وفى إسرائيل كتاب يهود يقولون إن مناحم بيجين يحاول أن يغازل الاتحاد السوفيتى وأن يعطل خطوات السلام، فقد تلقى وعدا سريا بالسماح لعدد من اليهود الروس بالهجرة إلى إسرائيل. وهى قاعدة لم يشذ عنها السوفيت. كلما ساءت علاقة إسرائيل بالعرب.. تحسنت علاقتهم بإسرائيل ولم تنقطع صلة إسرائيل فى أى وقت!.

ولكن هذا العداء المتزايد لبيجين سوف يؤدى إلى نقص المهاجرين إلى إسرائيل.. وفى نفس الوقت تأليب الرأى الأمريكى على إسرائيل التى أحرجت أمريكا والتى هزت صورتها أمام الدول البترولية التى تريد أن ترى ما الذى تفعله أمريكا بإسرائيل وبروسيا الزاحفة من كل اتجاه.. وإذا كانت فرنسا تريد أن تقوم بدور الوارث الشرعى لبريطانيا وأمريكا وروسيا، فإنها لا تقوى على الدفاع عن العالم العربى ولا تقدر على الضغط على إسرائيل!..



وفى أوسلو على الرغم من أن الرأى العام يرى إن إعطاء جائزة نوبل لبيجين مع السادات ظلم للسادات، فقد توقعوا أن يجئ الرئيس السادات. فقد اعتادوا أن يتخذ قرارات ليست فى حساب أحد. واعتادوا على أنه مستعد أن يعمل أى شئ من أجل السلام. وقد تقبل الكثير من الهوان الشخصى من أجل مصر - وأكبر دليل على ذلك علاقته بالاتحاد السوفيتى، فقد هانت عليه نفسه، ولم تهن عليه مصر. فارتضى الهوان الشخصى ثمنا للكرامة القومية..

وكلما رأى الناس طائرة هيلكوبتر فى سماء أوسلو الهادئة قالوا: إنه السادات! وفى ساعة مبكرة من صباح الاثنين الماضى اتصل بى الاستاذ يعقوب خزمة رئيس القسم العربى بإذاعة إسرائيل يسألنى: ان كان صحيحا ما نشرته جريدة الأهرام من أن توقيع الاتفاقية سوف يكون فى موعده ١٧ ديسمبر؟..

قلت له : لا أعرف.

قال : لقد جاء ذلك على لسان سيروس فانس، ولابد أنه أعلن ذلك بالاتفاق مع الرئيس السادات. ونحن هنا فى قمة السعادة..

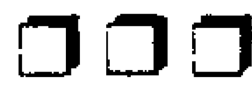
وسألت على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام. واتصل بالقاهرة. وجاء أن المنشور مختلف عن ذلك تماما.

ولما نزلت إلى الدور الأرضى من فندق «ساس» قابلت الصحفيين الاسرائيليين. وكانت معلوماتهم تؤكد أن الاتفاق سيكون فى موعده. ورقصت مندوبة «الأخبار السويدية» فى القدس واسمها كورديليا أدواردسون وهى يهودية، وقالت: إننى احتفظ بصورة لصحراء سيناء وبها شجرة واحدة. تماما كالشجرة التى تجلى عليها الله لموسى عليه السلام.. إن اليوم هو أعظم وأروع أيام حياتى!..

واتصلت بى السيدة ليلى نجار من التليفزيون الإسرائيلى تسأل: إن كان فى استطاعتها أن تجئ لمشاهدة توقيع الاتفاقية على جبل موسى؟.. ثم أوضحت ذلك بقولها: إن مصر رفضت عددا كبيرا من الصحفيين الإسرائيليين الذين هبطوا إلى مطار القاهرة دون تأشيرة دخول!..

واتصل بى د. ويلسون كوهين من نيويورك يسأل: إن كان صحيحا ما أذاعه راديو إسرائيل من أن الاتفاق سوف يتم فى موعده ؟..

وكل ذلك يدل على أن أمريكا ومصر قد تطابقت وجهات نظرهما. وأن بيجين هو الذى يرفض وهو يتعنت ويعرقل كل الطرق المفتوحة من أجل السلام الشامل، وأخشى على شعب إسرائيل أن يفيق من الحلم الجميل، ويكشف أن مناحم بيجين ليس رئيسا لحكومته، إنما هو أيضا زعيم للمعارضة، وأنه إذا كان هناك أحد يريد أن يلقى بإسرائيل فى البحر فهو: بيجين!.



وإذا كان من عادة اليهود عندما تشتد أزماتهم أن يعودوا إلى قراءة التوراة.. فإننى أدعوهم إلى قراءة ما الذى فعله موسى عليه السلام عندما وقف على حدود أرض المعاد. لقد أرسل ١٢ رجلا من الجواسيس يأتون إليه بمعلومات عن أرض كنعان. فغابوا أربعين يوما.وجاء اثنان منهم يحملان عنقودا من العنب ضخما - وقد أصبح العنقود والرجلان بحملانه رمزا لوزارة السياحة فى إسرائيل الآن - وقالا لموسى عليه السلام: إنها أرض كلها خير ولبن وعسل. ومدنها كبيرة. وأهلها أقوياء. ونحن بالقياس إليهم حشرات. ويجب أن ندخلها سالمين آمنين وأن نعيش بينهم..

ولكن العشرة الآخرين خافوا على أنفسهم من الحياة بين هؤلاء الكنعانيين. وضاعوا فى الصحراء أربعين عاما من الخوف الشديد!.

ومناحم بيجين قد أرسل إلى مصر عشرات من الصحفيين ورجال الدين ورجال السياسة وعلماء النفس والسياح.. جاءوا وعادوا. ووجدوا أن مصر تريد السلام الذى لا يريده، وأن مصر شعب متحضر، فليس فى استطاعة اسرائيل أن تبتلعه، وأن مصر رجل واحد وراء رجل واحد، فليس فى استطاعة إسرائيل أن تمزقه، وأن مصر هى الدولة التى تستطيع أن تحسم المواقف وأن تقرر الحرب وأن تنشر السلام، وأنها استطاعت دائما وسوف تبقى كذلك. فهل قرر مناحم بيجين، تماما كما فعلت دول بغداد، مزيدا من ضياع القضية أربعين عاما أخرى؟!

إن خسارة إسرائيل مثل خسارة العرب فادحة. والوقت يمضى..

وكان الوقت لصالح إسرائيل أول الأمر، ولكنه لم يعد فى صالحها الآن. فقد كانت إسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ ترى أن الوضع قد استقر لها. وأن حدود الهدنة هى الحدود الطبيعية.

وفى سنة ١٩٧٥ أرسلت أمريكا إلى إسرائيل تحذرها من استغلال بترول مصر استغلالا اقتصاديا، لأن هذا يتنافى مع القانون الدولى الذى ينص على أن القوات المتحاربة لها حق الاستفادة من المعادن والثروات الطبيعية بما يفى باحتياجاتها فقط، وكان رد إسرائيل: إن قواتنا ليست متحاربة. إنها استقرت تماما. وبذلك لا ينطبق عليها هذا القانون!.

ولكن بعد المبادرة وبعد المفاوضات فى الاسماعيلية والقدس وليدز وكامب دافيد وواشنطون والقاهرة الآن. يجب أن نمضى جميعا فى جولة ثانية وثالثة من أجل أن نحقق أملنا، وأمل العالم كله فينا: السلام طريقا إلى العدل بين الطبقات.. والتسامح بين الأديان، والرفاهية للجميع!.. ■

بدأ السلام غريبا فهل يعود كما بدأ ؟!

من تسعين عاما كان الصحفى النمساوى هرتسل يقول: نريد وطنا لا نشعر فيه بأننا أقلية، ولا نشعر فيه بأن أنوفنا المحدبة عار علينا، وأن شعرنا الأسود أو الأحمر يميزنا عن الآخرين. وإذا قال لنا أحد: أنت يهودى، كان ذلك شرفا لنا.. وكل فلسطينى الآن يريد أن يكون له وطن، فلا يقال له أو عنه أنه لاجئ أو مهاجر أو مهجر أو فدائى أو ضيف على الدولة.. وإنما فقط أن يكون مواطنا فى أرضه مثل ألفى مليون من سكان هذا الكوكب، له أرض مشروعة بين حدود آمنة يمكن الدفاع عنها..

ولكن شعب إسرائيل ويهود العالم قد نسوا كيف كانوا قبل قيام إسرائيل. وحتى عندما أقيمت إسرائيل جعلوها سجنا كبيرا محاطا بالأسلاك الشائكة والعلاقات الشائكة. فهم أرادوا دولة محاطة بمناطق منزوعة السلاح حتى يكونوا بعيدين عن جيرانهم الذين يكنون لهم الحب والرغبة الأكيدة فى السلام - فكان الفلسطينيون ضحيتهم الأولى!.

وقد نسى السادة بيجين وشامير وشارون كيف كانوا سنة ١٩٤٧ وما قبلها. فقد كان بيجين وشامير من الإرهابيين أو الفدائيين أو المقاومة اليهودية ضد الاحتلال البريطانى، وكانوا ينسفون المنشآت العسكرية. وكيف طاردهم الانجليز حتى تواروا فى تل أبيب. وكيف حاصر الانجليز تل أبيب. وقطعوا كل صلة بينها وبين يافا وحيفا. وكان الانجليز يفتشون المساكن بيتا بيتا. واليهود يكررون الآن ما فعله الألمان بهم والانجليز.

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٨/١

وإن كان اليهود أكثر وحشية من الإنجليز، فهم جيوش منظمة وفى أيديهم وفوقهم وتحتهم أسلحة أمريكية متطورة. وهم يهدمون لبنان على أهلها. ويحاصرون بيروت ويقطعون عنها الماء والنور، ولو شاءوا لحبسوا الهواء أيضا. ومن آمالهم وضع الفلسطينيين فى قماقم تحت الماء. والفرق الوحيد هو أن الإنجليز قد عرفوا اليأس وفكوا الحصار عن منظمات الإرهاب والمقاومة اليهودية. ولكن الفلسطينيين والعرب لن يعرفوا اليأس، ولا العالم كله. فالشعب الفلسطينى على حق وصاحب حق، أما الشعب الإسرائيلى فغزاة مغتصبون..

وكما يحدث فى إسرائيل، عادة، فى أعقاب الحروب، من خناقات بين الجنرالات بسبب مقدمات الحرب وإدارتها ونتائجها، فإن المعارك قد بدأت فى داخل الإدارة الإسرائيلية. وسوف يكون السيد إسحاق شامير وزير الخارجية أول الضحايا. أما السبب فهو أنه لم يعقد مؤتمرا صحفيا واحدا يشرح فيه للعالم عدالة العدوان الإسرائيلى، ونظافة القنابل العنقودية، وإنسانية الدبابات وهى «تفعص» الأطفال. أما من الذى اتهم السيد شامير فهو وزير خارجية المستقبل السيد بن اليسار سفير إسرائيل السابق فى مصر. وهى ليست مناورة حزبية وإنما هى طبيعة المعارك فى إسرائيل حين تبحث عن مجرم حرب قام بتشويه صورة إسرائيل فى الدنيا، بحسن نية!

فما الذى خسرته إسرائيل فى هذه الحرب؟..

إن إسرائيل كسبت جنوب لبنان ووسط لبنان وشرقى بيروت، لقد كسبت عسكريا وخسرت سياسيا أو خسرت أعلاميا، فلم تفلح فى إقناع أحد فى العالم بأن الفلسطينيين هم السبب: أى أنهم الذين اضطروا إسرائيل إلى أن ترسم وتخطط وتتفق مع أمريكا على هذا الغزو، وتمنع الطعام والشراب والدواء عن أهل بيروت، كما كانت تفعل مع الجيش المصرى المحاصر فى حرب ١٩٧٣، وتمنع الصليب الأحمر عن لقاء أحد. ثم تأتى بعشرات الأسرى يبكون ويصرخون ويندمون على أنهم حملوا السلاح دفاعا عن أرضهم وعرضهم. فعلت نفس الشئ فى لبنان. ثم شغلت إذاعتها ليلا ونهارا بالذين يمتدحون الاحتلال الإسرائيلى، ويتغنون بجمال الخوف الإسرائيلى الذى هو أروع من الخوف السورى والفزع الفلسطينى، ولم تنجح هذه التمثيليات الإذاعية فى تجديد العطف على الشعب الإسرائيلى المسكين..

وتكررت بذلك النكتة المعروفة عن رجل قتل أباه وأمه، ثم ذهب إلى القاضى يطلب الرحمة لأنه أصبح يتيما!..

وفى الصحف العالمية - لأول مرة - ترددت كلمات القاتل والسفاح والمدمر

والطاغية. وكانت هذه الصفات من نصيب السيد مناحم بيجين. حتى التليفزيون والصحف الأمريكية لم تستطع أن تجامل اسرائيل، وأن تنشر أن الطائرات الإسرائيلية التى راحت تقصف بيروت ليلا ونهارا قد أدت إلى قتل جندى فلسطينى وجرح ثلاثة لبنانيين - أى أن ألف قنبلة وألف صاروخ يتحرك راداريا، لم تصب أحدا من الناس. لماذا؟ لأن الرأى العام الأمريكى قد ضاق بإسرائيل، الصديق الصدوق الذى يقتل بأسلحة أمريكية وأموال أمريكية، ويهدد أصدقاء أمريكا ومصالحها فى الشرق الأوسط. وإسرائيل تهتم كثيرا جدا بالرأى العام الأمريكى، ولكنها تهتم فى الدرجة الأولى بالإدارة الأمريكية صانعة القرار والسلاح، والتى تطمع فى الأصوات اليهودية فى الانتخابات القادمة. وقد خاب أمل إسرائيل فى الرأى العام. وصدق ظنها فى الإدارة فوزير الدفاع الأمريكى واينبرجر إبدى إعجابه بكفاءة الأداء الإسرائيلى، أى ببراعتهم فى استخدام الأسلحة ضد الصواريخ الروسية فى وادى البقاع وضد الأفراد فى بيروت.. ووزير الخارجية السابق هيج هنأ إسرائيل على ذكائها فى اختيار الوقت المناسب عالميا لغزو لبنان.. وظهرت فى الصحف الأمريكية أعنف المقالات ضد إسرائيل، وضد السيد بيجين بصفة خاصة. وتمنى له الكثيرون أن يموت لكى تعيش إسرائيل. ووصفته الصحف الأمريكية بأنه «خومينى» الشعوب اليهودية. والمسئول عن كل يهودى فى أى موقع، وعلى ذلك فليس لأحد الحق فى أن يناقشه فى قراره باحتلال لبنان، وإبادة الشعب الفلسطينى.

ولكن عددا من عمالقة الصهيونية العالمية الخائفين على مستقبل إسرائيل ويهود العالم، استنكروا الغزو الإسرائيلى. وطلبوا من الشعب فى إسرائيل أن يسقط رئيس وزرائه. وفى مقدمة هؤلاء: ناحوم جولدمان ومنديس فرانس وكلوتسنيك. وهم يؤكدون أن بيجين هو صاحب الفضل فى إحياء العداء لليهود فى العالم كله. وأنه إذا كان داعية للسلام، فهو أيضا داعية لهدم السلام الذى حققه مع مصر رغم أنفه، وأنه يعمل جاهدا على توريط مصر الحليف الوحيد له، فى حرب إلى جانب الدول العربية ضد إسرائيل، وأن بيجين لا يهمه كثيرا أن تقع أمريكا فى روسيا فى أوروبا فى آسيا، وأن تشتعل الدنيا كلها وتفنى، لأنه هو شمشون غزة الذى هدم المعبد والمصنع والمستوطنة والمخيمات على رأسه ورأس أعدائه وأصدقائه - إن كان له أصدقاء!..

وخسارة إسرائيل الاعلامية ليست لأنها بلا وزير للإعلام مثل يوسف جوبلز وزير هتلر، وإنما لأن أحدا لم يقتنع بأن جيشا منظما ذهب يحارب منظمة تحريرية لأنها قتلت ثلاثة أشخاص وحطمت سيارة، فاستحق شعب لبنان كله أقصى درجات العقاب.

لقد انقلبت الأسطورة البطولية التى جاءت فى التوارة عندما هدد جوليات العملاق داود الفتى الصغير الذى استطلع أن يقتله. فجوليات فلسطينى تغطى بالدورع، ولكنه نسى أن يغطى رأسه. أما الفتى داود فلم يكن يملك هذا الجسم الضخم ولا هذه الدرع المتينة. ولكنه استطاع بسرعة أن يعرف نقطة الضعف فى جوليات، فأطلق عليه طوبة أصابته فى رأسه فسقط ميتا. وقد تفنن شراح التوراة فى الحكمة وراء هذه القصة.. فجوليات هو العرب الأغنياء أو هو الشعب الفلسطينى. طويل عريض ولكن لا عقل له. أى أنه قوة غاشمة. أما داود فهو ذلك الفتى اليهودى الذى لا يملك إلا سلاح العقل والذكاء.

والمعنى هو: أن الذكاء يغلب القوة، تماما كما فى أفلام الرسوم المتحركة.. فميكى ماوس الضعيف الذكى يغلب القط القوى الغبى..

ولكن القوة الغاشمة هذه المرة هى إسرائيل، أما الضعيف بسلاحه، القوى بحقه والرأى العام العلمى، فهو الفدائى الفلسطينى.

ولذلك فإسرائيل تستورد عشرات الصحفيين اليهود من كل مكان فى العالم وتبعث بهم إلى معسكرات ومخيمات الأسرى.. وتعرض عليهم كيف يعيشون ويأكلون وينامون فى الصحراء، وكيف إنهم نادمون على حمل السلاح. ولكن إسرائيل تخسر مرتين: فهؤلاء الأسرى لا يملكون إلا أن يقولوا ما تمليه القوة. ثم إن هؤلاء الصحفيين لأنهم يهود. فهم فى جميع الأحوال يرون عدلا كل ظلم. ويرون رحمة كل قهر. وإذا كانت الشعوب اليهودية قد عرفت «الهولوكست» - أى الحريق الشامل فى أفران الغاز الألمانية - فهى لم تتمكن من معاملة الألمان بالمثل. ولذلك فمن الواجب على الشعوب العربية أن تعطيها هذه الفرصة لعلها تستريح وتريحهم بعد ذلك. لأنه ثأر مؤجل. ولابد أن تصفى اسرائيل حساب هذا الجيل فى هذا الجيل - ولا يهم من يكون ضحيتها!.

وإذا كانت إسرائيل تهاجم وسائل الاعلام الأمريكية وتهاجم يهود العالم لأنها لم تستطيع أن تكسب العالم إلى جانبها، فإن الإدارة الأمريكية لها مشكلة أفدح. فقد خسرت الكثير. حتى لم تعد قادرة على التأثير وعلى المشاركة فى صنع القرار الذى يخدم قضاياها. فأمريكا لم تنقذ صديقها الأكبر شاه ايران. ولم تفلح فى استخلاص الرهائن من يدى آية الله الخومينى، ولم تفلح فى أن تجعل العالم يقاطع روسيا ولا الدورة الأوليمبية. وهى اليوم أعجز من أى وقت مضى.

فالقرار الذى اتخذته بمقاطعة مد أنابيب الغاز من سيبريا إلى أوروبا لم يلق إلا

معارضة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وإذا كان الرئيس ديجول قد مات دون أن يجعل المحيط الأطلسى أوسع قليلا. وبذلك تتباعد المسافة بين أوروبا وأمريكا. فإن إسرائيل سوف تغرق أى رئيس أمريكى فى البحرين الأبيض والأحمر والخليج..

وعندما تزاحم الناس الطيبون يطلبون من منظمة التحرير أن تعترف بإسرائيل. وأن تقوم أمريكا بهذا الاتصال أو الوساطة، وأن هذا الدور إن لم يكن اعترافا بالمنظمة. فهو كالاعتراف. وعندما أعلن الرئيس مبارك أن المشكلة ليست بيروت ولا لبنان وإنما هى فلسطين. وأن خير حل هو الاعتراف معا وفى وقت واحد للمنظمة وإسرائيل. استراح الناس لحظات لاقتراب الحل. أو للاقتراب من الحل. ولكن السيد بيجين أعلن: ليس قبل خروج السيد ياسر عرفات وقواته من بيروت..

أما أمريكا فسحبت سفنها البحرية. لأنها تعلم يقينا أن الفلسطينيين إذا قبلوا الهوان - هوان الانسحاب على سفن أمريكية، وهوان عدم الاعتراف بهم كشعب مقاتل، فإن اسرائيل تستطيع أن تعتدى على هذه السفن. كما اعتدت على سفيننة التجسس الأمريكية ليبرتى سنة ١٩٦٧.. وإذا حاولت دولة أخرى غير أمريكا أن تنقل المقاتلين الفلسطينيين، فليس بعيدا أن تغرقها إسرائيل أيضا. تماما كما أغرقت غواصة ألمانية سفينة تحمل عشرات الألوف من الأطفال اليهود - فهذا انتقام مؤجل مرة أخرى!..

وفجأة أعلن السيد بيجين أن الوثيقة التى كتبها عضو البرلمان الأمريكى ماكلوسكى، ووقع عليها ياسر عرفات، لا تعنى أى شئ. أما الوثيقة فتقول: «إن رئيس المنظمة يعترف بكل قرارات الأمم المتحدة التى اتخذتها لصالح فلسطين»..

ورأى الرئيس مبارك أن هذه خطوة ايجابية متقدمة وتستحق الاحترام والتشجيع..

ولكن السيد بيجين لا يريد كلاما عاما.. وإنما يريد اعترافا مهينا وإذلالا للشعب الفلسطينى! لأنه لا يريد أن يعترف بالمنظمة، ولا بحق الشعب الفلسطينى فى وطن له بالضفة الغربية وقطاع غزة والقدس. وأعلن السيد بيجين أيضا: أنه حتى لو اعترف ياسر عرفات صراحة وبخط يده بإسرائيل، فإن إسرائيل لن تعترف بالمنظمة!.

ومن قبله قالت السيدة جولدا مائير: إنها بحثت فى القاموس فلم تجد كلمة فلسطين. وحتى لو وجدت الكلمة فلن تكون وطنا. ثم ما الذى يستفيده العرب إذا أضيفت دولة جديدة إلى دولهم العشرين؟!

وإذا كان العقل لا يصدق ما يسمع ويرى فلأننا نعيش فى واقع أغرب من الخيال. واقع أسطورى يجعلنا نفكر فى حلول خرافية.. مثلا: ذلك الزمار الشهير الذى صحت

مدينة هاملن الألمانية فوجدته ينفخ فى مزماره فيجرى وراءه الأطفال إلى أعماق البحر.. أو ذلك البطل الإغريقى مورثيوس الذى أمسك الناى وراح ينفخ هو الآخر.. فكانت الطيور تقفز من أشجارها، والوحوش تخرج من أوكارها، والأجنة من بطون أمهاتها تلاحقه إلى الهاوية، وبذلك يتلاشى كل أمل فى وطن فلسطينى وفى السلام.. أو لعلنا فى حاجة إلى الساحر الهندى الذى يرسم دائرة طباشيرية حول بيروت الغربية، فلا يخرج منها أحد حيا.. وهكذا تنتهى مشكلتان فى وقت واحد: وطن للشعب اللبنانى ووطن للشعب الفلسطينى! أو ذلك «الرفاعى» الذى نعرفه فى الريف يدخل بيوتنا وينفخ فى الناى فتخرج الأفاعى من الشقوق.. فيضعها هى والخوف فى كيس واحد - لولا أن الشعب الفلسطينى لا يمكن إدخاله فى الشقوق لأن عدده أربعة ملايين، والعرب مائة مليون وألوف الملايين من الدولارات وألوف الشركات الأوربية والأمريكية وعدالة القضية الفلسطينية سياسيا وتاريخيا وإنسانيا وشرعيا.

وإذا كانت إسرائيل قد انتصرت فى لبنان. فقد انهزمت فى بيروت لتواجه ألف بيروت أخرى.. وسوف تفتقد إسرائيل الأمان والسلام. فلم تعد إسرائيل دولة لها جيش، وإنما هى جيش له دولة. وإذا كانت الأسلاك الشائكة وحقول الألغام تحيط بها من كل ناحية، فقد اختارت لنفسها سجنا.. حارة لليهود.. حارة ذات سيادة، ولكن سيادتها لا هى مكنونة ولا هى مصونة!

وإسرائيل حين أرادت أن تقضى على القضية الفلسطينية، فإنها قد أنعشتها دون أن تدرى.

إن الشرق الأوسط بعد العدوان الثلاثى على مصر، قد تغير عما كان عليه ذلك، وتغير مرة أخرى بعد حرب أكتوبر، ومرة ثالثة بعد السلام مع مصر، ثم مرة أخيرة بعد حرب إيران والعراق.. أما بعد غزو إسرائيل للبنان. فهذه نقطة تحول كبرى. ولن يكون الشرق الأوسط كما كان من قبل فى أى وقت. وأيا كانت الأسماء التى نختارها لهذه المنطقة بعد ذلك، فإنها قد تغيرت تماما، وسوف تتقلب وتتألب بعضها على بعض. هل هى «بلقان» أخرى؟ هل هى فيتنام التى سوف تنشط فيها القوى السريعة الانتشار فى المغرب ومصر ولبنان والصومال وعمان؟ هل هى مقدمة لانتقال صراع مراكز القوى العالمية إلى بلادنا؟ هل هى مناسبة فخمة للوفاق والاتفاق بين روسيا وأمريكا؟..

وفى يوم الخميس الماضى - ٩ آب من السنة العبرية - احتشد مئات الألوف من اليهود أمام حائط المبكى يجددون حزنهم السنوى على خراب هيكل سليمان الذى هدمه

البابليون سنة ٥٨٦ ق. م، وعاد الرومان وهدموه سنة ٧٠ ميلادية - أعتقد أنه كان بينهم مئات آخرون يبكون على السلام الذى يهدمه السيد مناحم بيجين فى الشرق الأوسط، والأمان لكل الشعوب اليهودية فى العالم..

أخيرا.. هل هم يبكون السلام الذى بدأ غريبا فى الشرق الأوسط وسيعود كما بدأ؟!.. ■

لا حرب فى أكتوبر ولا سلام أيضا !

إسرائيل مثل أمريكا لم تحارب على أرضها.

ومثل أمريكا لم تنهزم إلا مرة واحدة.. أمريكا فى فيتنام وإسرائيل فى أكتوبر سنة ٧٣..

وكما يحدث فى نهاية الحروب دخلت أمريكا فى سلام نهائى مع فيتنام استحق عليه كسينجر الأمريكى جائزة نوبل مناصفة مع لوديك فو الفيتنامى الذى رفضها. كما استحق أيضا جائزة السلام بيجين والسادات الذى لم يذهب لتسلمها.

وفى نفس العام أيضا أنشئت علاقات دبلوماسية بين الدولتين التوأم: ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية.

ولا تزال أمريكا وإسرائيل أيضا تعانيان من هزيمة فيتنام التى أكلت نصف مليون من الأمريكان، وبددت عشرين ألف مليون من الودلارات.. وجعلت شباب أمريكا يتمرد على الدولة وينحرف بالهوس الدينى والمخدرات. وكان ذلك، ولا يزال، نوعا من الرفض للعظمة الأمريكية والأبهة العالمية، فتركوا بيوتهم إلى الكهوف والمواخير والغابات وواجهوا الثراء الفردى بالانتحار الجماعى..

أما المجتمع الإسرائيلى فإنه قد انهار على نفسه سياسيا واجتماعيا ودينيا وهاجر كثيرون إلى الخارج، ورفضوا أن يعودوا إلى إسرائيل، ونحن على الرغم من انتصارنا فى

نشر هذا الموضوع فى ٦/ ١٠/ ١٩٨٥

أكتوبر سنة ٧٣، فإن هزيمة سنة ٦٧ ما تزال عميقة.

فليست هذه الهزيمة إلا استمرارا لهزائم أخرى عسكرية وسياسية مصرية وعربية ودولية ولكن أعنف هزائم الإنسان هى التى تقع فى نفسه، أى هزيمة نفسى بنفسى.. وكانت هذه مأساتنا جميعا. فلم يفلح نصر أكتوبر ٧٣ أن يهون علينا الهزيمة أو يخففها أو ينفيها بعيدا عن أراضنا وعرضنا.. هل لأن كانت عميقة وكان النصر سطحيا ؟! هل لأن المزاج المصرى حزين بطبعه؟! هل لأن البكاء أيسر من الضحك؟! هل لأن خسائرنا المادية فى الهزيمة أكثر من مكاسبنا فى النصر؟..

لقد مضى على انتصارنا ١٢ عاما، تتابعت أعوام النصر ونحن ما نزال واقفين على ضريح الهزيمة العسكرية نترحم على الذين ماتوا ولا نذكر الذين عندما ماتوا وهبونا النصر والحياة والكرامة.

ولكن السبب الحقيقى هو أن المعانى قد اختلطت علينا. فالهزيمة الخاطفة - كالضربة القاضية الفنية فى الملاكمة - قد انتهت المعركة، فكانت هذه النهاية السريعة إهانة لنا. فنحن انهزمنا قبل أن نحارب، وعندما بدأنا نحارب كانت المعركة قد انتهت، وعندما تحققنا من الهزيمة كنا عاجزين عن الحزن، فقد أخفيناه مثل نيران البراكين لتنفجر فينا بعد ذلك.

ولما انتصرنا فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لم نكن مستعدين لذلك. فنحن لم نصدق أننا قادرون على ذلك، ولم نصدق أن المعجزة قد حدثت. ولما كانت المعجزة، بدأ الأخوة العرب والمفكرون المصريون الذين يعيشون ويتعيشون فى الخليج يشككون فى النصر.. وهم فى نفس الوقت ليسوا على يقين من النكسة!..

فكأننا لم ننهزم يوم ٥ يونية ولم ننتصر يوم ٦ أكتوبر.

فالهزيمة كانت إلا قليلا.

وكان النصر إلا كثيرا.

فما هو إذن ذلك الشئ المؤكد عندنا ؟!.

الشئ المؤكد هو أنه لا شئ مؤكد. فلا الهزيمة مؤكدة ولا النصر أيضا.

إذن فماذا ؟!

لقد أوقفنا إطلاق النار على إسرائيل ورحنا نطلقه على أنفسنا، كأننا نادمون عندما انتصرنا، ولسنا نادمين عندما انهزمنا. وكان الطبيعى هو أن نظل كما كنا، وكما نتوقع، وكما يتوقع العالم كله لنا: نتدحرج من هزيمة إلى هزيمة أكبر، ومن ندم إلى عار،

ومن بكاء على الماضى إلى يأس من المستقبل.

وفى تاريخ اليهود: أن هوشع قد أوقف الشمس فى السماء حتى يتحقق لهم النصر. ونحن أوقفنا التاريخ عند ٥ يونية حتى تتأكد لنا الهزيمة، مهما حدث بعد ذلك.

وكأننا لم نستعد للسلام مع إسرائيل، مع أن السلام حقيقة: لقد وقفت النيران بيننا، وانسحبت قوات الاحتلال. وكان ذلك شرفا عربيا لأن مصر دولة عربية، كبرى الدول العربية. وكان هذا السلام المؤكد خطوة صغيرة لمصر، خطوة كبيرة للسلام العربى، الذى هو خطوة إلى انهاء المشكلة الفلسطينية. فمن أجلها كانت كل الحروب.

ولكن السلام المصرى قابلته الحكومات العربية بالرفض الموحد. أى أن العرب الذين يختلفون فى كل شئ قد اتفقوا على مصر. ولم يكن هذا الاتفاق سبباً لقواهم لهزيمة إسرائيل. وإنما لإقامة تمثال ضخم لكلمة «لا» فتكون مثل حائط الصين العظيم فاصلا وعازلا لمصر عن العالم العربى.

وكان شيئا عجيبا حقا.. تماما كما يحترق بيت فى مدينة الجيزة. ويكون له دخان عظيم لا يستطيع الناس أن يروا من ورائه مدينة القاهرة. فيقول أحد سكان هذا البيت: الآن لقد عزلنا أفريقيا - هذا المعنى اقتبسته من كتاب بعنوان «دم إبراهيم» للرئيس الأمريكى جيمى كارتر.

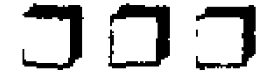
إذن فالعرب رفضونا ولم يصنعوا موقفا ايجابيا بديلا عن السلام المصرى، وإنما استراحوا إلى رفض مصر ورفض أية خطوة نحو الحرب أو السلام.. ونحن نعرف جميعا فى لعبة كرة القدم إنه ليس أحسن الاعبين هو الذى كلما جاءته الكرة. ألقى بها فى الأوت، وهذا بالضبط ما يفعله الأخوة العرب، من ١٢ عاما مضت ومثلها سوف تجئ.. فلا نحن استفدنا من السلام، ولا العرب استفادوا من الرفض. فنحن - المصريين - لم نستفد شيئا من وقف المعارك الحربية مع إسرائيل، فلم نعرف ما هى إسرائيل؟!.. من هم هؤلاء الناس الذين احتالوا على التاريخ فأقاموا دولة على هذه الأرض؟! من هم هؤلاء الذين يحكمون الرأى العام الأمريكى ويجعلونه عجينة ويشكلونها على هواهم؟! من هذا القزم الذى يركب كتفى العملاق الأمريكى؟! ثم أيهما العملاق حقيقة؟!.

لقد جاء إلى مصر مئات الألوف من اليهود الأمريكان، ومن كل الشعوب، يقيسون الرأى العام ويحللون ما يكتبه كل الناس، ثم ينقلون إلى بلادهم كل الذى لا يعرفونه عن مصر وعن الشعب المصرى، بينما نحن لن نفعل شيئا. مع أننا عندما انهزمنا سنة ٦٧ فلأننا لم نكن نعرف عنهم شيئا، ولما عرفنا انتصرنا عليهم.

ولكن لأننا لم نشعر إلا بالهزيمة، ولأن هذا الشعور قد استقر فى ضمائرنا فلم يعد لدينا أمل فى النصر، فلا معنى - إذن - لأن نعرفهم مادمنا لن نحاربهم، وإذا حاربناهم فسوف ننهزم مرات أخرى. ونسينا أننا انتصرنا عليهم فى أكتوبر ٧٣.

حتى هذا النصر العسكرى العظيم اختلفنا عليه: قلنا بالأسلحة السوفيتية. فالنصر إذن روسى مع أن كل الدول التى استقلت فى العالم قد اشترت وتشترى أسلحة من الدول التى انتصرت عليها. فالسلاح لايهم، وإنما الايدى على السلاح، ونهاية المعركة.

وقلنا لأنفسنا : بل هى خطة النصر رسمتها عبقرية عبد الناصر ونفذتها عبقرية السادات. فليكن.. فلا عبد الناصر قائد رومانى ولا السادات زعيم إغريقى.



فهل نحن لم نستعد نفسيا للنصر، كما أن إسرائيل لم تستعد نفسيا للهزيمة التى زلزلت البناء الاجتماعى والأخلاقى والسياسى؟!

الجواب: نعم

بل إن السادات نفسه لم يستعد لأن يحكم الكرة الأرضية بصورته وشجاعته، ولذلك كانت له أخطاء بعد اتفاقية السلام. وكانت له انفعالات صغيرة أصغر من حجمه ووزنه العالمى.

وذات يوم تحدث فى الكنيست ألقى كلمته باللغة العربية لأنه يريد أن يوجه كلامه إلى العرب على مسمع من اليهود. ورفض نصائح كثيرة مصرية وأمريكية بأن يلقى كلمته بالانجليزية ليخاطب العالم كله على مسمع من العرب. وفى هذه الخطبة لم يقل جديدا. ولا حتى كانت خطبته حدثا هاما. فما أكثر ما خطب وما أكثر ما قال. ولكن «الحدث العظيم» هو أنه ذهب إلى هناك.. إلى أعدى أعدائه. فهذه الخطوة قد تجاوز بها كل العقبات النفسية والحقد التاريخى والضيق العالمى بمعارك العرب وإسرائيل. فلم يهتم أحد بما قاله السادات.. تماما كما لم يهتم أحد بما قاله أول إنسان هبط على سطح القمر، فقط مدرسو اللغة الانجليزية والنحو والصرف!!! فلا يهم ما الذى قاله أرمسترونج عندما نزل على القمر، ولكن أن يكون هناك فهذا هو أعظم انتصار للعلم.. كما أن أحدا لا يعرف ما الذى قاله كولومبس عندما اكتشف أمريكا، ولا يهمنا ولا ما الذى قاله نيوتن عندما اكتشف جاذبية الأرض.

فكما أننا لم نكن مستعدين للنصر لم تكن إسرائيل مستعدة للسلام، ولا السادات مستعدا لأن يكون عالميا. ولا العرب مستعدين للظلال الكثيفة التى ألقاها النصر عليهم..

وإذا كان السلام رصيدا أضيف للسادات وإلى مصر فهو خسارة لحقت بإسرائيل ونكسة أصابت العرب أيضا.

والعالم كله سنة ٧٣، لم يكن مستعدا لهزيمة أكبر وأفدح وأفضح، فقد تمرغت الحضارة الغربية فى الوحل والبرد والظلام، عندما فرض العرب حظرا على البترول عقابا لأمريكا وأوربا على تأييدها لإسرائيل. فقد فوجئ العالم كله بهذه اللطمة العربية، كما كوفئ عليها العرب بإرتفاع هائل فى أسعار البترول: ألوف الملايين من الدولارات.. ولكن الغرب شعر بالهوان لأن «هؤلاء» يتحكمون فى مستقبل الحضارة الإنسانية.. وهذه الحضارة لا تساوى وزنها ترابا إذا لم تجد بديلا عن البترول.

ومن المؤكد أنها تعمل لذلك وسوف تجد.

وفى سنة ٧٣ انشغل العالم بأحداث خطيرة أيضا، ولكن حرب أكتوبر كانت أعظمها وأعمقها وأكثرها دلالة على تطور العلوم العسكرية وتهور بعض العسكريين. وعمق الرغبة فى السلام. فى هذا العام غرقت أمريكا فى فضيحة ووترجيت التى راح ضحيتها الرئيس الأمريكى نيكسون، وتوفى الرئيس جونسون، وتوفى بون جريون واغتيل رئيس شيلى الليندى، واغتيل رئيس وزراء أسبانيا كريرا. وعاد بيرون وزوجته رئيسا للأرجنتين وهى نائبة له. وألغت اليونان النظام الملكى، وقام الشاه آخر ملوك إيران بتأميم شركات البترول. ثم مات عدد كبير من دعاة السلام والحياة والجمال والعدل والحق، ماتت أدبية أمريكا بيرل باك وشاعر شيلى يورودا وشاعر بريطانيا أودن وفيلسوف فرنسا جبريل مارسيل والفنان العالمى بيكاسو، ومات فى مصر طه حسين وفى نفس اليوم مات حسنى عثمان أستاذ جغرافيا متواضع ترجم إلى اللغة العربية ملحمة شعرية عظيمة هى الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالى دانتى الليجرى. وبعد ١٦ يوما من القتال بين مصر وإسرائيل صدر القرار ٣٣٨ لوقف العمليات العسكرية والدخول فى المفاوضات من أجل السلام، كما فعلت أمريكا وفيتنام بعد حرب استمرت ١٢ عاما، ثم فشل مؤتمر جنيف الذى حضرته أمريكا وروسيا ومصر والأردن وإسرائيل ولم تحضره منظمة التحرير ورفضته سوريا.

ولكن نصر أكتوبر كان أعظم وأورع أحداث ٧٣، وإن لم يكن شعورنا كذلك، فإذا كان للنكسة طعم العلقم فلم يكن للسلام مذاق العسل.

والعيب فينا.

ولابد إن نندهش حقا عندما نفتش فى أنفسنا ونتابع مسار اللاشعور المصرى،

واللاشعور هو بعض الأغانى والمسلسلات، فهى تبكى مصر كأننا نمنا وقمنا فلم نجد مصر أو وجدنا أنفسنا فى كوكب آخر كأنها تعدد على مصر ونحن نرددها ونذيعها ونشيعها، وعندما رأينا أن نؤرخ للبطولات العسكرية اتجهنا إلى التاريخ الفرعونى والأندلسى لأننا موافقون على ذلك، موافقون على إقامة مأتم.. ابتداء سنة ٦٧ وما زلنا نتلقى العزاء فيها وفينا.

وكما أن الزواج هو أحد أسباب الطلاق فالسلام الهزيل هو أحد أسباب الحرب. فالزواج الذى ليس قادراً على مواجهة الأحداث كالسلام القائم على سوء الظن وسوء الفهم.

ولهذا يجب أن نتدارك أنفسنا بأن نعمق مكاسبنا وأن نتجاوز خسائرنا المادية والنفسية وأن نواجه بقوة : الرفض والتمزق والتعصب للهزيمة أو حتى التعصب للنصر، فليس أضيق من عين الإبرة إلا التعصب - أى رفض الرأى والشخص والطريق الآخر.

وحتى لا تكون حرب فى أكتوبر مرة أخرى فلابد أن نصالح أنفسنا على أنفسنا فنلقى السلاح الذى غرسناه عميقا فى ضمائرنا.

وليس أعدى لك من عدو تحت جلدك وكلنا تحت جلد مصر. فما أظلمنا لها ولأنفسنا، فنحن نكتب كلمة «الحرب» نقرأها «السلام»، وإذا قرأنا «السلام» كتبناها «الحرب».

فلنرحم حاضرنا الكريم من طغيان ماضينا، ولنساعد الأجيال على أن تعيش فى سلام، وأن يكون لسلامها مستقبل. ■

نجحت رحلة السادات

ليس المصرى قبيح الوجه كما تصوره أقلامنا وسوريا !

.. ولما جاء قطار الأمل ألقينا بأنفسنا تحت عجلاته !

اثنان يهاجمان مصر فى الشرق العربى: سوريا ومصر.

ولذلك كانت صورتنا غير واضحة فى البلاد العربية.

وكان من الضرورى أن نمسح الزجاج الامامى للسيارة لنرى أوضح.. وأن نجلو مرآة السيارة لنرى الطريق وراءنا من ٦٧ إلى ٧٣ بكل ملامحه. ولكى نعرف ما الذى تركناه وراءنا..

إن الناس فى البلاد العربية يشفقون على مصر: فصحف البعث تهاجمنا وتخترع قصصا لا وجود لها. والصحف المصرية تتهجم بعنف على كل عيوب الإدارة والتجارة فى مصر، سعيدة بحريتها التى حرمت منها زمنا طويلا..

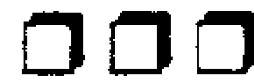
والقارئ العربى على الخليج يجمع ملامح الصورة الداخلية لمصر بأقلام المصريين، إلى الملامح الأخرى القبيحة لمصر بأقلام السوريين.. والنتيجة: أن المصرى قد أصبح انسانا قبيح الوجه. وأنه لم يعد ذلك البطل الأسمر، الذى شرب تراب سيناء، وملح القناة، وذل الهزيمة وقام يثار لعاره فانتصر على نفسه وعلى عدوه.

فكأن هذا البطل الأسمر أخذ ينفق من رصيد حرب أكتوبر فلم يبق له مليم واحد فى

نشر هذا الموضوع فى ١٩٧٦/٣/٣

بنك الثقة العربية.. فهل نحن أفلسنا إلى هذه الدرجة فى عيون الأشقاء؟ هل صحيح أن مصر قد خرجت من الصف العربى؟ هل صحيح أننا سوينا القضية؟ وأننا نهرب بجلدنا - ويا نفس ما بعدك نفس، كما يقول المثل الشعبى المصرى. وهل كفر المصريون بعروبتهم وأنهم يريدون الانطواء على مصريتهم؟ وهل هذا هو شعورهم الحقيقى، وأن السادات قد حقنهم بعقار العزلة والانطواء؟ وهل صحيح أن هذا الفساد الموجود فى مصر حقيقى أو أن الصحافة قد اصطنعته لتغرق الناس فى النظر إلى داخل بلادهم، والانشغال تماما عما يجرى على الأرض العربية أو فى العالم؟ وهل هذا الذى يحدث فى الصحف المصرية من وحى الحرية الممنوحة، أو بتوجيه من الدولة؟..

ولا نهاية لما سمعناه من الاشقاء العرب الذين يحبون مصر ويشفقون عليها من أقلامها ومن خصومها شرقا وغربا..



ولذلك كان من الضرورى أن يعود السادات إلى ما بدأه قبل ٧٣ وهو أن يجمع اصابع اليد الواحدة لكى تكون قبضة قوية على أسلحة المعركة.. وليس لديه ما يخفيه أو ما يخيفه أو ما يخجل منه. فليس سرا خافيا على أحد أننا فى مجتمع مأزوم اقتصاديا.

وأن أسباب هذه الأزمة معروفة: التسليح ونضوب الموارد وزيادة السكان والديون وانسداد قناة السويس. واستيلاء اليهود على كثير من آبار البترول..

وأن حرب أكتوبر كانت ضرورة نفسية وعسكرية وسياسية واقتصادية..

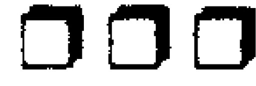
وبعد انتصارات أكتوبر انفتحت القناة والآبار.. وجاءت أموال كثيرة من العرب ومن الغرب.

ولكن هذه الأموال، ككل البذور، فى حاجة إلى تربة صالحة والتربة الصالحة هى الامان. والامان لا يجئ إلا فى ظل الاستقرار. وعرفت مصر الاستقرار ولا تزال فى حاجة إلى مزيد منه.. ولا تمضى مناسبة، حتى يطلب السادات من الشعب أن يصبر.. أى أن يحتمل فى هدوء. وأن يثق بنفسه وقيادته. تماما كما وثق فيه فحقق له النصر. ولابد من صبر جديد لكى تتحقق له انتصارات أخرى.

وما تلقاه مصر من عناء ليس بدعا فى التاريخ، لقد عرفت الشعوب فى أعقاب الحروب كل أنواع الشقاء والجوع.. وكان من الضرورى لها أن تقسم الرغيف الواحد، والكوب الواحدة، والفراش لكى تتجاوز الشعوب أزماتها الاقتصادية.

ومن الضرورى أن يستعين الناس بالصبر على المتاعب، وأن يتزودوا بالامل فى

الخلاص منها. وكل ذلك يحتاج إلى وقت والوقت يجرى لصالحنا.



وكانت رحلة الرئيس السادات الى دول الخليج ضرورية. فالصورة غامضة.. والأقوال متضاربة ولكن الشئ المؤكد: أن مصر على موقفها. وأن مصر تعانى صعوبات اقتصادية. وأنها فى حاجة إلى الرأى والخبرة.

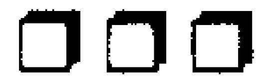
وإلى التضامن العربى مرة أخرى. فالتضامن هو الذى صنع معجزة أكتوبر. وهى معجزة لانها تجاوزت كل ما كنا نتوقعه بل أن أحدا لم يتوقع أن تحقق مصر هذه الضربة العنيفة لإسرائيل - هذا ما يقوله اليهود أنفسهم. فجولدا مائير فى قصة حياتها تقول: أن مصر استعانت السرية والصبر وانها خدعت العالم عندما دربت جنودها سرا وعندما تخطت بهم كل العوائق العسكرية..

ويكفى أن نعود إلى تلك المقارنات التى لا تنتهى، ويجب لا تنتهى: ما كان يوم ٥ يونيو وما كان يوم ٦ أكتوبر حتى تدخلت أمريكا بأسلحتها إلى جانب إسرائيل..

ولم يكد العرب يتحدون من أجل النصر، حتى اختلفوا بعد ذلك.. وكان اختلافهم على معنى النصر.. وهل صحيح كان نصرا.

كأنه مكتوب على العرب الا ينتصروا.. والا يفرحوا أبدا .. ولا تتضافر قواهم.. وتتلاصق اكتافهم صفا واحدا.. ضد عدو واحد؟..

وكأن العرب إذا لم يجدوا احدا يلعنهم، تنافسوا فى لعن أنفسهم، وتعذيبهم واحتقارها، والثورة على هذه الصورة المفزعة التى صنعوها لأنفسهم!.



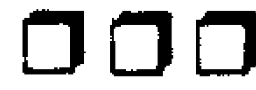
إن الرئيس السادات يصفها بأنها «اللعنة العربية» أو «لعنة العرب».. تماما كلعنة الفراعنة التى تلاحق كل من فتح مقبرة واحد من الملوك وأفسد عليه هدوءه الابدى.. أن اللعنة العربية نوع آخر من اللعنات: انها تلاحق كل من يتضامن وكل من يتحد وكل من يعطى للناس الامل فيما هو أفضل..

ولكنه لعنة الفراعنة لغز حار العلماء فى فهمه..

أما لعنة العرب فهى العرب أنفسهم. لأنه يعز على العربى الا يكون هو العربى الأوحد وهو الزعيم المفرد.. وأن يكون غيره قد انتصر..

وهذا هو الذى دفع حزب البعث إلى الهجوم على مصر وتشويه صورتها واتهامها بكل الصفات الشائنة. وهو بذلك يلوث مصر وسوريا معا فالذى يرمينى بالطين من يديه،

قد لوث يديه أيضا.. والطين الذى يسقط علينا من دمشق، يصيبها قبل إن يصيبنا. انهم فى إسرائيل يقولون: انظروا.. أنهم العرب.. انهم حققوا نصرا لا يستحقونه.. أن العرب كانوا فى أفضل حالاتهم عندما انهزموا سنة ٤٨ و ٦٧.. لقد وحدت بينهم الأغانى الحزينة، وتعمقت فيهم كراهية اليهود، ولم تتحول بهم الكراهية إلى أكثر من احتقارهم لأنفسهم.



لقد انتظرنا طويلا، فلما تحقق لنا انكرناه على أنفسنا..

اننا كالذى ظل ينتظر القطار فلما جاء بعد ساعات ألقى بنفسه تحت عجلاته..!

ولا شئ يسعد الامزجة السورية الحادة، إلا أن كارثة.. أو يفتعلوا كارثة تؤدى إلى توحيد البكاء والعودة فى العالم العربى..

ولذلك يتساءل العرب الأشقاء الذين يراقبون هذه المأساة: ماذا يحدث إذا هاجمت إسرائيل سوريا..

أى إذا وقعت حرب ٥ يونيو مرة أخرى؟..

وكان الرئيس السادات يقول أن هناك تعهدا امريكيا سريا، ولم يعد سريا بعد أن ذهب حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية إلى سوريا واطلعهم عليه، هذا التعهد هو الا تهاجم إسرائيل سوريا. أى أن هذا الهجوم لن يقع بكل تأكيد أمريكى.

ولكن الذين يستشعرون المأساة ويتعجلون الكوارث العنيفة يسألون: وماذا تفعله مصر إذا كانت سوريا هى البادئة.؟

ويرد الرئيس السادات بأنه إذا كان المقصود من ذلك أن تستدرج مصر إلى الحرب فمسألة فيها نظر. أو يجب أن يكون فيها نظر، لان مصائر الشعوب ودمارها اقتصاديا، وخراب منطقة القناة وانسدادها وموت عشرات الالوف ومضاعفة ديوننا بألوف الملايين، ليس أمرا هينا.. ولا نزوة حاكم ولا عبث العابثين أو البعثيين. وانما هى مصير الأمة العربية لمئات السنين..

ومن المهم جدا لهذا المزاج المأسوى الحاد، أن يشقى بهذه الاجابة. لأنه من الضرورى أن يكون شقيا وأن يتعذب بالواقع العربى. ولابد أن يكون هذا الواقع العربى هو: أن مصر لا تريد أن تحارب. وأن مصر تخلت عن واجب الدم. وان رئيسها يريد أن يسحبها بعيدا عن ميدان الشرف.. وان الأمر خطير جدا.. وانه يا عرب ليس أمامكم غير سوريا وليس لعقولكم إلا فلسفة البعث المتعدد الالسنة والممزقة الاهواء.

يقول بن جوريون فى رسالة إلى زوجته: لم أعد أفهم ما يقوله هؤلاء العرب لقد اتفقوا على كل شئ..

فليس طبيعيا ان يتفقوا على رأى..

وانما الطبيعى أن يختلفوا فيضعفوا. فإذا اتفقوا بكوا وراحوا يندبون حظهم وعروبتهم..

مع أن اليهود هم خبراء البكاء والعويل. ولم يحدث ان بكى شعب فى كل مناسبة كما فعل اليهود حتى هزوا قلوب العالم على ما أصابهم. ثم جاءوا يطلبون التعويض عن الذين لم يعذبوهم: من العرب. ولم يكن بكاء اليهود تذويبا لآمالهم وأفكارهم واستسلاما، وانما كان نوعا من التفريغ النفسى.

فبعد البكاء يتآمرون ويحتالون حتى كان لهم ما أرادوا وأكثر.

وقامت دولة إسرائيل رمزا للتضامن الدموى بين اناس لهم عشرات اللغات والألوان ولهم دين واحد: ان يعيشوا رغم ملايين العرب وألوف الملايين من دولاراتهم..

وبعد ان قامت دولتهم اختلفوا بينهم..

ولم يكن اختلافهم عليها، وانما كان اختلافهم من أجلها! وهذا مالا نفعله نحن العرب..

ولذلك فصورتنا قبيحة.. والصورة رسمناها وعلقناها.. ولعناها بعد ذلك..

ولم يكن الرؤساء العرب فى حاجة إلى أكثر من توضيح لما أصاب كل شئ.. لأن حبهم جاهز وايمانهم بمصر كأهرام مصر راسخ. ولم يكن لهم من مطلب الا: احرصوا على مصر.

وهذا الحرص على مصر هو الذى يجعلنا نتجه إلى الصورة المفزعة التى ترسمها مصر لنفسها.. والصورة مأخوذة مما تنشره الصحف المصرية: عن الانحلال والفساد بالامس واليوم. والهدف هو الدعوة إلى الاصلاح الشامل فى مصر. ولم يكن الفساد غائبا فحضر. وانما الفساد كان موجودا، وكانت الصحافة هى الغائبة، فلما انفتحت النوافذ ودخل النور، واطمأنت الاقلام ظهرت عيوب الحياة الاجتماعية والسياسية.

وسوف تبقى الصحافة حرة فى نقد المجتمع وتوجيهه نحو ما هو أحسن.. وسوف تبقى مرآة الشعب للشعب.. يرى فيها عيوبه ويرى علاجها.. ويرى فيها صورة للديمقراطية: فالكل أمامها سواء.

ولكن الصحافة تظلم نفسها وتظلم الناس أيضا.

فلان الصحافة شعارها: كل يوم شئ جديد أو كل شى جديد كل يوم..

فهذا الجديد يوميا يجعلها تتفنن فى العثور عليه. والفن الصحفى يبرزه.. أى يفخمه ويضخمه ويلفت إليه. بل أن هذا الفن الصحفى يجعل قراءته متعة. أى يجعله ضرورة لذيذة للقارئ. ويعتاد القارئ على هذه اللذة المثيرة. ويجرى وراءها اينما وجدها. وهذا الجرى هو منتهى النجاح الصحفى. لأنه يضاعف عدد الذين يلهثون وراء الحدث الذى يثيرهم ويقضى على الملل اليومى.

وهنا يصعب أن نعرف من الذى يطارد الآخر: هل الصحيفة تطارد (القارئ) أو هو القارئ الذى يطارد الصحيفة..هى التى خلقت عادة الفلفل والشطة فى الطعام أو هو الذى يحب الشطة فتتقدم له الصحافة والسينما والمسرح ما يريد..

ولكن النتيجة أمامنا هى: أن الشطة طعام يومى مطلوب. وهنا يقع الظلم على الصحافة لأنها لا تبيع الا الشطة من الكلام. ولا تنشر الا عيوب الناس. والا قصصهم الدامية.

وتكون الصورة فاضحة.. فاضحة للصحافة وفاضحة للقراء أى لمصر كلها..

فهل مصر كلها كذلك!

من المؤكد أنها ليست كذلك.

إذن أين هى مصر من كل ذلك؟

نعود إلى العبارة الشهيرة التى قالها المؤرخ ول ديورانت عندما تحدث عن التاريخ. قال: أنه ذلك النهر الطويل العريض الذى تتدفق مياهه وتتلألأ أمواجه.. وفى الماء قطرات من الدم.. فهناك اناس يتقاتلون واناس يسرقون واناس يصرخون ويبكون ولكن على الشاطئين أناس يبذرون الأرض، وأناس أمام المواقد، واناس يتغنون وأناس يصورون جمال الأشجار والأزهار ونعمة الضياء وقدرة الله.. أن المؤرخين لا يرون الا النهر نفسه. ولذلك فهم متشائمون. وينسون ان الحضارة أنما تولد وتزدهر على الشاطئين..

فليس غريبا أن يشيع التشاؤم من جديد بين الناس.. وفجأة يشعر الناس أنهم انفقوا كل مدخرات حرب أكتوبر.. وأن اليهود مازالوا على أرض مصر.. وان الفساد على رقاب العباد.. وان كل الناس لصوص، وان كل النساء غانيات.. وانه لا أمل فى شئ هناك.. إلى آخر الصورة المخيفة التى أفزعت كل الأشقاء على الخليج.

ولم يكن عندنا من رد على ذلك إلا أن الصحافة حرة، وانه قد مضت سنوات لا يقول فيها الكاتب شيئا. وإذا قاله كان رمزا. وإذا جاء رمزا كان عقابه صريحا.. ولذلك

فنحن نستدرك ما فات.. كأننا نخاف الا نصدر حكمنا قبل أن نموت.. وإن هذا الموت قريب أى لن يمضى وقت طويل قبل أن تعود الرقابة على الصحافة وأن تنسد الافواه وتختفى كل عيوب المجتمع لا لأن المجتمعات بلا عيوب، ولكن لأنه لن تكون هناك عيون ترى، وأقلام تسجل وتوجع..

وأقول «كأن» الكاتب يخشى الا يكون قادرا على النطق بعبارته، واكمال رسالته..

ولابد هنا أن نطالب أنفسنا بالاعتدال..

حدث منذ عشر سنوات أن صدر باللغة الايطالية كتاب عنوانه «المشكلة الجنسية عند المرأة العربية».. الكتاب صورة مفزعة لما يحدث فى مصر والعالم العربى كله..

وكل فصول الكتاب تروى جرائم الجنس فى مصر.. الأب والابن.. والأم والبنات.. وساق التاكسى.. وناظرة المدرسة.. والغسالة والبوابين.. ألوف البوابين ورجال الشرطة..

فى هذا الكتاب أنت أمام أحط وأقذر أعماق الحياة فى مصر.

والخلاصة: ان الذى يجرى فى مصر ليس له نظير فى التاريخ..

والمؤلف اسمه «يوسف المصرى».. وهو اسم كاتب لعله يهودى.

وهو فى كل ما يرويه يرجع إلى الصحف والمجلات والكتب المصرية. ويشير إلى ذلك فى الهوامش..

ولكن المغالطة التى يوقعنا فيها المؤلف انه ينقل احداثا وقعت فى عشرين عاما. ويضمها بعضها إلى جوار بعض فتبدو كأنها صورة واحدة لواقع مصر..

تماما كما تضم صورة قاتل وصورة لص وصورة سفاح وغانية وتلصقها الواحدة الى جوار الأخرى وتقول: عائلة واحدة..

ولكن الذى فعله يوسف المصرى من عمد سيئ، يفعله الناس خارج مصر بمنتهى حسن النية.. فهم لا يجدون فى الصحف الا هذه المذابح والسجون وإلا الفساد والانحلال مع أن هذا جانب أسود من المجتمع، ومع أن لهذا نظيرا فى كل بلاد العالم.. وأننا عندما نعرض هذا كله لا نريد ان تطفئ شمس مصر، وانما فقط ان نتمتع بحرية الكلام وحرية النقد..

وحتى لا يكون هناك يوسف آخر عربى أو يهودى يجب أن نعتدل فى استخدام اللونين: الاسود عندما نتحدث عن مستقبل مصر واللون الآخر عندما نتحدث عن حاضر مصر..

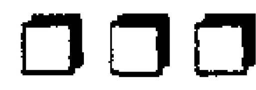
وأذكر أن الرئيس جمال عبد الناصر عندما «أمم» الصحافة - استنكر تماما النقد

الصارخ للحياة فى مصر.. وضاق بالنكت التى تتحدث عن الخيانة الزوجية.. وقال: ان مصر ليست كذلك.. أين هؤلاء الناس الذين ينامون تحت سرير كل زوجين..

وكان قراره ألا يختفى أحد تحت سرير رجل آخر على الورق فقط. وظلت عيوب الحياة الاجتماعية والادارية فى مصر كما هى، ولكن الصحف لا تجرؤ على نشرها..

ومن الأفضل طبعا أن نقول وان نصور وأن نصوب.. ولكن الخلاف سوف يبقى دائما بين الكاتب وبين السلطة على «نسبة» الحرية الممنوحة للكاتب.. ولن يتفق الكاتب والحاكم على هذه النسبة.

ولذلك يجب ان نتواصى نحن الكتاب على الرفق بمصر والرحمة بحاضرها ومستقبلها ولا نكون مع حزب البعث السورى، سلاحا ضد مصر.. والا نكون جرعة من اليأس القاتل لكل آمال مصر فى حياة أفضل..!



المطلوب أن تقوم «ثورة أمل» تقضى على اليأس العام من أى اصلاح فى مصر أو بين العرب..

حتى عبارات الامل التى عندنا يغلب عليها طابع اليأس.. أى ظاهرها الامل وباطنها أنه لا أمل.. تماما كأن نقول: أن كل شئ سوف يصبح رائعا بعد ألف سنة.. وهذه العبارة - ان كانت جادة - معناها أن أمامنا طريقا طويلا للجنة الموعودة بعد ألف سنة ولكن هذه العبارة حتى لو كانت جادة فإنها تعمق الشعور باليأس عند كل الناس الذين لن يعيش منهم واحد ألف سنة..

ولو قلت ان مصر سوف تكون جنة الله، كما كانت، بعد زوال آثار العدوان.. فالعدوان من المؤكد أنه سوف يزول. وبزواله ترتفع هذه الجبال السوداء عن كاهل مصر وقلب العرب. ولكن متى يزول العدوان؟ هذا هو السؤال. وحتى نصبح قادرين على إزالة العدوان يجب أن يعيش الناس وان يجدوا الضرورى كل الوقت والكمالى بعض الوقت.. وأن يكون عندهم أمل.. فالأمل هو قوة جذب تشدنا. إلى الامام فوق الشوك والنار..

أى لابد أن يكون هناك شوك ندوسه ونتوجع ونحتمل الآلم لأننا نتطلع إلى يوم تزول فيه الآلام والاوجاع!

وكما يحدث فى الطائرة عندما تصعد ان تطلب المضيفة إلى الركاب أن يمتنعوا عن التدخين وأن يربطوا الاحزمة، فكذلك لابد من الامتناع عن شئ ولابد من ربط الحزام لكى نصبح قادرين على أن نعلو فوق الصعوبات الاقتصادية.. ولكى نصبح قادرين على أن

نحقق الأمل المطلوب..

اننا نحتاج إلى سنوات من اطفاء السجاير وربط الحزام.. خمس سنوات.. عشر سنوات.. وهى سنوات ليست كثيرة فى عمر الأمة.. سنوات يكون بعدها لاجيال من بعدنا: طعام أوفر وظل أوسع وأمان أكثر، ومقعد مريح فى السيارة والطيارة والمدرسة والمؤسسة..

ليكن عندنا أمل..

فقد اصابنا اليأس بعد النكسة. واستطعنا ان نعلو فوق اليأس فانتصرنا..

ولكننا بعد النصر لم نجد كل ما نريد.. لان الذى نريده كثير. ولأن الذين يريدون الكثير كثيرون ويتزايدون. ولأن مواردنا محدودة. وسوف تزيد من القناة ومن بترول خليج السويس ومن تصدير القوى البشرية ومن زيادة الانتاج والتنمية. ولكن هذه الزيادات لن تجئ بهذه السرعة. ولابد ان نذهب إلى الرخاء لا ان ننتظره. لابد أن نقدم لمصر كل جهد وأمل، لا أن ننتظر مصر لكى تقدم لنا ما عندها.. ان الذين ينتظرون الدولة لكى تعطيهم لن يجدوا شيئا. ولكن الذين انتظرتهم الدولة لكى يعطوها، قد ردت إليهم ذلك جزاء مضاعفا!..

وإذا كان الأمل هو الذى جعلنا نعبر القناة وننتصر على عدونا سنة ٧٣.. فإن الاسراف فى الوهم أو فى الأمل الكاذب هو الذى هزمنا سنة ٦٧..



ولذلك يجب أن ننتج الأمل الحقيقى ونستهلكه.. وألا نملأ الاسواق بسلع الآمال الزائفة حتى لا يغرق الشعب. وحتى لا تكون هزيمة ٦٧ هى النهاية المؤكدة لكل الناس مرة أخرى..

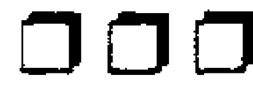
ومن العجيب اننا سمعنا هذه المعانى بأشكال مختلفة فى دول الخليج.. ففى السعودية تحدث أحد المسئولين فقال: أى يأس أيها المصريون.. أربعون مليونا وتخافون من المستقبل.. انكم بماضيكم وحاضركم أمل لشعوب العرب جميعا..

وفى أبو ظبى قال لى أحد الوزراء: يوم كنا ندرس فى مصر كان أقصى أملى أن أعيش فى مصر عشر سنوات بعد تخرجي.. ففى هذه البلاد يشعر الإنسان بإنه ليس وحده إنه فى أحضان الحضارة الانسانية.. وإنه واحد من ابنائها. وان المصرى، أى مصرى. إذا وقف عاريا فى أى مكان فقد كساه اجداده بتيجان من الغار.. فقد اطلقوا النور فى كل اتجاه. وتقدمت قواتهم فى البر والبحر، وداست أرضهم قواة الغزاة.. فأين هؤلاء الغزاة..

ثاروا كالتراب تحت أحذيتهم، وسكنوا كما يسكن التراب وبقيت مصر.

وفى البحرين قال أحد الوزراء على مسمع من الصحفيين: يا ناس ارحموا أنفسكم.. ارحموا بلادكم.. ارحموا الأمة العربية كلها.. ما هذا اليأس فى نبراتكم وعلى صفحاتكم.. الدنيا بخير.. اننا أسرة واحدة.. انى لا أحب أن أرى أبى وأمى بملابس ممزقة.. ان ملابسهما الممزقة تمزق قلبى.. أن مصر أجمل مما يراها المصريون.. أيهما المصريون اتركوا بلادكم لنا وتعالوا هنا وأنتم تعرفون عظمة الدولة والتاريخ والكفاح.. والعظمة فى أن يكون عند الإنسان أمل.. وأمل يمكن تحقيقه!.

وفى الكويت قال لى وزير الدولة عبد العزيز حسين: يجب أن تطلقوا صفارات الخطر فى كل مكان.. فالأقلام المصرية حبرها اسود قاتم.. واخشى أن يعتاد الناس على هذا اللون، فتضيع الألوان الأخرى البهيجة.. وأن يكون هناك أمل فى حياة أحسن.. فإذا لم يكن هناك أمل، فلن تكون هناك قدرة على تحقيق شئ لكم وللأمة العربية.. فلا تزال مهمة مصر كبيرة وثقيلة.. ومهما شكوتم من ذلك، فلا مفر.. ولم يحدث فى كل التاريخ، لا أمس ولا اليوم ولا غدا، أن وقفت مصر وحدها.. لا هى قادرة على ذلك إذا أرادت، ولا الدول العربية سوف تتركها وحدها.. ولن يسكت الغرب عن مصر، ولم يسكتوا.. ولن!



هل نجحت رحلة السادات؟

كان مقدرا لها أن تنجح، لأنه لم يكن هناك خلاف على شئ. لا خلاف على موقف مصر. ولا خلاف بين الأشقاء العرب..

وحتى لو اتفق بعض الأشقاء على أن يختلفوا بعض الوقت، فلابد ان يتفقوا على أن يتفقوا بعد ذلك..

لأن أصابع اليد إذا تفرقت، فلن تكون يدا.. وأن يدا بلا أصابع لا تمسك سلاحا، لأنها لم تعد يدا..

ونحن فى حاجة إلى أصابع اليد الواحدة وإلى اليد وإلى الساعد وإلى البنيان العربى كله يشد بعضه بعضا..

وإذا كان الرسول عليه السلام عندما عاد من احدى معاركه قال: عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ففزع بعض قواده من هذ العبارة. فقال لهم الرسول ان الجهاد الأكبر هو جهاد النفس!.

، وهو جهاد أكبر لأن النفس لا تفارقنا ليلا أو نهارا.. لارغباتها ولا مخاوفها.. وجهادنا لأنفسنا أقسى وأقصى الجهاد.. جهادنا لليأس : اليأس القومى واليأس المصرى..

وإذا كانت النفوس يائسة أصبحت أجسادنا أكفانا لها.. وبلادنا مقابر لنا!.. ■

فإذا خرجت منظمة التحرير من لبنان ؟!

عندما أعلن العرب أنه يجب إلقاء إسرائيل فى البحر، كفر العرب. لأن هذا الشعار دعوة إلى إبادة شعب له دولة تسابقت أمريكا وروسيا فى الاعتراف بها. وعلى ذلك فالعرب وحوش لا يحترمون حقوق الإنسان ، وهى المبادئ التى قامت من أجلها الثورات الأمريكية والفرنسية والسوفيتية. أى أن العرب أعداء الإنسانية كلها ! وعلى الإنسانية كلها أن تعادى هؤلاء العرب الذين يملكون مئات الملايين من السكان ومئات البلايين من براميل البترول !

وقد تبادل العرب وإسرائيل نفس الشعار. فشعار إسرائيل اليوم هو إلقاء أمريكا وأصدقائها العرب فى البحر. قد يبدو هذا الشعار خرافيا مثل أن يعلن الفأر إيقاع الأسد فى المصيدة. ولكنه ليس بهذه الصورة. فالشعب الأمريكى يحكمه عادة رجل مجهول. يكون مأمور مركز ثم محافظا ثم رئيسا للدولة. وأمامه من الزمن أربع سنوات: السنة الأولى يقضيها فى تلقى التهانى. والسنة الثانية يقضيها فى ترتيب البيت وتغيير الخدم والحشم والسكرتارية وقراءة مشاكل أمريكا ومشاكل الكرة الأرضية والكواكب الأخرى. والسنة الثالثة فى الاستعداد للمعركة الانتخابية. والسنة الرابعة والأخيرة للتفرغ للانتخاب وتسول أصوات الجماهير التى تسيطر على توجيهها وسائل الإعلام التى يتلاعب بها يهود أمريكا وهم المواطنون من الدرجة الأولى فى إسرائيل.

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨٢/٨/٨

وعلى الرغم من أن أمريكا ضعيفة عالميا. وعلى الرغم من أن الرئيس الأمريكى ريجان لا يزال يقوم بدور الممثل لرئيس جمهورية أمريكا. فإن هناك «غيابا» مؤكدا فى القيادة السياسية الأمريكية. وهذا «الغياب» قد ظهر فى عهد الرئيس الأمريكى كارتر الذى لم يكن له حضور دولى فى جميع القضايا السياسية. وربما كان حضوره الوحيد هو فى اتفاقية كامب دافيد. حتى هذه الاتفاقية كيف تمت ؟ إن رئيس الدولة الأمريكية قد تفرغ لها تماما وانقطع عن العالم نهائيا. وكان ذلك تحديا كبيرا. أى كان لا بد أن ينجح، تماما كما نجح فى خروج الرهائن أحياء من طهران. فهو نجاح المستحيل. وهو مستحيل لأنه لا يستطيع أن يتفرغ نهائيا لمئات المشاكل الدولية الملحة. وقد ظهر هذا الفشل فى القيادة السياسية الأمريكية عند مواجهة أمريكا لقضية الغزو السوفيتى لأفغانستان. ولم تحصل أمريكا على تأييد عالمى لمقاطعة روسيا. فقد تخلت عنها الدول الصديقة. كما تخلت الدول الصديقة عن الرئيس ريجان الذى طالب بمقاطعة مشروع الغاز الطبيعى الممتد من سيبريا إلى أوروبا، أعلنت عدم المقاطعة فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا. فهذه الدول الكبرى لا ترى نفسها صغيرة إلى درجة أن يحكمها ريجان، ولا ترى ريجان كبيرا لدرجة أنها لا تستطيع أن تقول له : لا .. وهو الآن يخسر بانتظام صداقة العرب أصحاب البترول، والفضل فى ذلك لإسرائيل. التى يحكمها شمشون بيجين واربيل نيرون. ثم إن أوربا لا تريد أن تدفن حضارتها مرة أخرى فى البرودة والظلام عندما أمسكت الدول العربية بترولها عن العالم. ثم إن التحالف مع أمريكا بهذه الصورة، إهانة للشعوب الأوربية. وفى نفس الوقت فإن أمريكا نفسها تشترك فى مشاريع كثيرة مع روسيا فى السلام والحرب والقمح وسفن الفضاء..

ومن أعجب المغالطات ما جاء فى خطاب السيد أفيدور رئيس الكنيست إلى د.صوفى أبو طالب إذ يقول : إن إسرائيل لم تنتهك سيادة لبنان إنما سوريا والمنظمة فعلتا ذلك.

أى أن انتهاك سوريا للبنان، يبرر أن تفعل إسرائيل نفس الشئ.. مع أن سوريا قد دخلت لبنان بتفويض من الشعوب العربية ..

وكتب سيادته أيضا : إذا اختفى اللصوص فى إحدى مدارس الأطفال وجاء رجال الأمن ونسفوا المدرسة، فاللوم يقع على منظمة التحرير الفلسطينية التى توارت فى المدرسة، وليس على قوات «الأمن» الإسرائيلية!

فالفلسطينيون إذن هم اللصوص، أما الجيش الإسرائيلى فهو القوات الشرعية

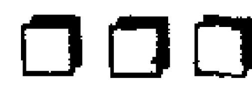
المكلفة بالضبط والربط وتحقيق الأمن فى لبنان!!

وإسرائيل لها دعاوى كثيرة كاذبة فهى تعلن أنها فى دخولها لبنان وهدمها بيروت إنما تحقق أعز آمال الشعب الأمريكى الذى لا يعترف بالمنظمة الفلسطينية. ولا يعترف بوطن فلسطينى. ويرى أن التهديد المستمر لإسرائيل، هو تهديد السلاح السوفيتى للسلاح الأمريكى. وعلى ذلك فانتصار إسرائيل هو انتصار لسياسة أمريكا وسلاحها، وتصفية لأعوان وعملاء السوفيت فى لبنان.

وأغرب من ذلك أن إسرائيل ترى فى دخولها لبنان وهدمها على أهلها تحقيقا لأغلى آمال الشعب اللبنانى. وذلك بتخليصه من الاحتلال الفلسطينى والسورى وإذا كان قد مات فى الخمسين يوما الماضية خمسون ألف لبنانى. فإسرائيل لم تقصد ذلك.. إنما هى تريد الحياة للمليون والنصف فى شرق بيروت وفى جنوب لبنان. وتقول إسرائيل أيضا إن عددا كبيرا من جنودها قد ماتوا وهم يحاولون إنقاذ المدنيين اللبنانيين فجيش الدفاع الإسرائيلى هو جيش الدفاع عن أمريكا ولبنان ؟!

بل إن مساعدة إسرائيل لإيران ضد العراق هى من أجل إبعاد السوفيت عن الخليج. وبذلك يبقى الخليج فارسيا عربيا، وتبقى الآبار عربية أمريكية وإسرائيل لا تنتظر شكرا من العرب على هذا الدور الإنسانى، إنها تتقاضاها من أمريكا !!

بل إن إسرائيل تعلن أنها ذهبت لإنقاذ عرب إسرائيل من إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية. ففى القضاء على المنظمة. إعادة للأمن والأمان للشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع. فإذا حدث ذلك عادت لمناقشة قضية الحكم الذاتى للشعب الفلسطينى. ولا بد أن يكون الإنسان حيوانا بلا عقل. أو ساذجا جدا، أو رئيسا لأمريكا ليس لديه وقت لكى يفكر، حتى يصدق مثل هذه الأكاذيب. إذ كيف يكون حكم ذاتى لشعب فلسطين إذا كانت إسرائيل بجميع أحزابها ترفض أن يكون له وطن ؟. فما هذا الشئ الذى يمكن أن يحكمه الشعب الفلسطينى.. أو يديره لحسابه ؟.. لا شئ !



وأعود مرة أخرى فأذكر ما سبق أن كتبته هنا من واقع مذكرات السيد شمشون بيجين فى كتابه «الليالى البيضاء» - أى الليالى التى لا تنطفئ فيها مصابيح السجون. فيبدو كل شئ أبيض أمام العيون المفتوحة. يقول إن الحكم الذاتى هو أن يقوم السجين بغسل ملابسه وتنظيف زنزانته بكامل حريته. انتهى رأى السيد بيجين فى معنى الحكم الذاتى الذى يدخره للشعب الفلسطينى فى الضفة الغربية والقطاع. ومعناه أن يكونوا

أحرارا فى كنس شوارع لا يملكونها، ولكنهم سوف يكونوا أحرارا تماما فى أن يكنسوا أمام بيوتهم أو داخلها مستخدمين المقشات المصنوعة من سعف النخيل أو المقشات الكهربائية!!

ثم تزعم إسرائيل أن جيش الدفاع الإسرائيلى يخدم مصر أيضا بالقضاء على الشعب اللبنانى والفلسطينى بإرغام لبنان على عقد معاهدة صلح مع إسرائيل وبذلك لا تكون مصر وحدها هى الدولة التى صالحت إسرائيل بعد انتصارها عليها فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣..

بل إن إسرائيل تخدم سوريا. فحكام سوريا من الشيعة. وإسرائيل تساعد إيران الشيعية.. فإذا انتصرت إيران، انتصر الخومينى. وأصبح موقف الرئيس الأسد قويا وموقف العراق ضعيفا. وأدى ذلك مرة أخرى إلى تقوية الجماعات الدينية المتطرفة فى العالم العربى كله. وهكذا لا يكون الرئيس الأسد وحده فى الساحة. وتكون مذابح الإخوان المسلمين فى سوريا عملا إجراميا مبررا. تماما مثل مذابح إسرائيل فى لبنان. ولكن هذه التضحيات ضرورية من أجل استمرار الثورة الإسلامية التى تقوم بتأديب العرب وتهذيبهم، ووضع عقولهم فى رءوسهم. وبذلك يلتفتون إلى شعوبهم. فإذا التفتوا فإن إسرائيل تكون قد خدمت السيد الجديد القوى : الاتحاد السوفيتى. فإسرائيل كالغانية لا بد أن تختار رجلا قويا. وأمريكا لم تعد ذلك القوى الفحل. إنما روسيا هى التى تكسب فى الشرق والغرب دون أن تطلق رصاصة واحدة على أحد. وهكذا تنتشر المذاهب الاشتراكية المعتدلة ثم المتطرفة. وهى أحلام رواد الصهيونية العالمية الذين أقاموا دولة إسرائيل، فقد كانوا جميعا من الشيوعيين.. وليست المستوطنات إلا مجتمعات شيوعية. فإسرائيل أقامها الشيوعيون الروس بأموال الرأسماليين الأمريكان.

ولا بد أن نتذكر الخطاب التاريخى لأدولف هتلر فى البرلمان يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣. أعلن أنه وحده سوف يحل المشكلة اليهودية. وأنه من أجل ذلك سوف يذكره التاريخ ألف عام. وقال أيضا : إن أغنياء اليهود فى أوروبا وأمريكا إذا حاولوا أن يغرقوا العالم فى حروب شاملة، فلن يؤدى ذلك إلى انتشار الشيوعية وإنما إلى القضاء على اليهود أنفسهم!

وأكثر الناس تفاؤلا يرى أن إسرائيل تفعل ذلك الآن بإشعال الفتن بين أمريكا وروسيا والعرب وأوروبا. وهى بذلك تقلب الدنيا بعضها على بعضها، ثم تتوهم أنها سوف تنجو من كل ذلك. ولكن ما جاء فى التوراة هو الذى سوف يتحقق مرة أخرى : نهاية شمشون أعمى مدينة غزة. ولن تكون «دليلة» التى عرفت قوته فقصرت شعره، إلا فتاة

يهودية أيضا. فدليلة هى التى سوف تقضى على شمشون.. وهذا هو الانتحار المؤكد لدولة إسرائيل العسكرية التوسعية..

وإسرائيل اليوم قد نجحت فى مجالات كثيرة. نجحت فى إبادة الشعبين اللبنانى والفلسطينى.. ونجحت فى إحياء القضية الفلسطينية. ونجحت فى كشف أعماقها الشريرة، ونجحت فى فضح الجيل القديم الذى يقوده إرهابيون قدماء مثل السيد بيجين الذى ينتعش صحيا كلما خاض فى بحار الدم والدموع.

ولابد أن يتساءل الناس : ما هذا الذى نراه فى لبنان؟ أهذه هى الوحشية والهمجية.. أو هذا هو العجز العالمى عن فعل شئ ؟.. أليس السكوت عن ذلك مشاركة فيه ؟.. إن أمريكا شريك كامل لا شك فى ذلك أعطت السلاح وأعطت الإشارة. وباركت الدمار. ولا بد أن العرب قد اكتشفوا أن أمريكا التى كانت محاميا للعرب قد أصبحت محاميا للخصوم. بل إنها ترفض أن تكون هناك قضية فلسطينية. والرئيس ريجان شخصية ممتعة لا شك. إنه يمثل دور رئيس الجمهورية. ولكنه يخرج على النص أحيانا، مثل كل ممثلى المسرح الذين يغريهم الجمهور بأن يرتجلوا ويتجاوبوا. فكل الذى أعلنه أنه فى حالة قلق على ما يحدث فى لبنان. ولا أحد يعرف إن كان قلقا على القاتل أو على القتيل.. وحتى لا يخطئ أحد فى مفهوم القلق الرياسى، أضاف الرئيس أنه ينصح منظمة التحرير بالخروج من بيروت ومن لبنان. إذن فهو قلق على الجيش الإسرائيلى الذى يقاومه الجيش الفلسطينى الصغير!

وهنا يختلط الأمر على أكثر الناس قدرة على القراءة، فلا يميزون كثيرا بين صوت ريجان وصوت بيجين !

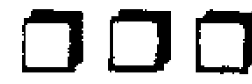
وقبل ذلك أعلن وزير الدفاع واينبرجر. أنه معجب بالأداء العسكرى الإسرائيلى. أى بحسن استخدامهم للسلاح الأمريكى ضد السلاح السوفيتى وهو يشير بذلك إلى ما كان فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ عندما كان الأداء المصرى متفوقا على الأداء الإسرائيلى. أى الاستخدام المصرى للسلاح السوفيتى !

وإسرائيل تعلن أن تجاربها فى حرب أكتوبر قد أفادتها كثيرا فى حربها فى لبنان أى أن حرب لبنان استئناف لحربها مع مصر. ففى الحالتين : يتواجه السلاحان الأمريكى والسوفيتى. وأمريكا يهمها أن ينتصر سلاحها ورجالها ومالها!

ولا بد أن يتساءل الناس مرات كثيرة: هذا الذى يحدث فى لبنان يشبه ماذا فى التاريخ ؟ إن أقرب الأمثلة لدينا ما فعله هتلر ليهود ألمانيا والنمسا وبولندا على مدى ١٢

عاما (يناير ١٩٣٣ - يونيو ١٩٤٥). فقد حاصر اليهود فى معسكرات الاعتقال : أضعفهم بالجوع وجففهم بالعطش وخنقهم بالغاز. ومعهم مئات الألوف من خصومه السياسيين أيضا. ومنذ ذلك الحين ودور النشر والدعاية والسينما والإذاعة تنشر الأعاجيب من الأكاذيب عن هذا الحريق الشامل - أى الهولوكست - للشعب اليهودى. ومنذ ذلك اليهود ويهود العالم يعملون على توطين اليهود. وقد اقترح الرئيس روزفلت أن يذهبوا إلى أنجولا. ولكن الحكومة البريطانية احتجت بصعوبة إقناع حكومة البرتغال بذلك. ورأى البريطانيون أن يقيم اليهود فى روديسيا الشمالية. ولكن شاء الحظ الأسود أن يكون وطنهم فلسطين. وأن يطردوا الشعب الفلسطينى الذى يطالب ببعض أرضه وليس بكل أرضه.

ولكن الذى فعله هتلر فى ١٢ عاما لا يقارن بما فعلته إسرائيل فى ١٢ يوما فى لبنان. وما يعرضه التليفزيون العالمى بالصوت الباكى والصورة الدامية أبشع دليل على أن حكام إسرائيل الذين خرجوا وتخرجوا فى معسكرات الاعتقال ينتقمون. وقد جاء انتقامهم متأخرا. وانتقموا من البرئ وليس من المجرم. أما المجرم - وهو الشعب الألمانى كله فى رأيهم - فقد دفع مليون دولار لكل قتيل يهودى أو كل من أدعى اليهود أنه قتيل !



والآن : لنفرض أن منظمة التحرير قد أخرجت من لبنان. وأن القوات الإسرائيلية بقيت إلى جانب القوات السورية.. فما الذى يحدث بعد ذلك ؟

سوف تجئ حكومة لبنانية تطالب بإخراج إسرائيل وسوريا من لبنان وسوف تملى إسرائيل شروطها.. وكذلك سوريا، على الحكومة اللبنانية الضعيفة.

وسوف يكون من شروط إسرائيل ألا يحمل إنسان سكينا أو موسى حلاقة على الحدود الإسرائيلية ولمسافة أربعين كيلو مترا منزوعة السلاح. وألا يكون للفلسطينيين وجود عسكرى وربما وجود سياسى.

أما سوريا فسوف تطلب نصيبها فى لبنان. وسوف تساعدها إسرائيل على ذلك.

ولنفرض أن سوريا لم تطلب شيئا. ولا حتى هضبة الجولان. وأنها سوف تمد يدها للدول العربية تطلب ثمنا لهضبة الجولان. وسوف تقول سوريا مرة أخرى: إنها قد ورطت إسرائيل فى حرب مع الفلسطينيين، وإنها هى السبب فى أن خسائر إسرائيل فى لبنان أضعاف خسائرها فى حرب أكتوبر. وإنها بذكائها - أى سوريا - قد حققت ما لم تحققه

الحروب. وإنها مستعدة أن تلعب نفس الدور. حين لا تطالب بالجولان أو بالقتال من أجلها..



ولنفرض أن كل شئ قد هدأ على الجبهات السورية الإسرائيلية اللبنانية الأردنية المصرية، فهل هذه هى صورة الشرق الأوسط ؟ وهل هذه هى حاله ؟ وهل هذا هو الدور العربى والدور الأمريكى ؟!

إن رئيس حزب «البعث» الإسرائيلى الذى انضم إلى تحالف الحكومة يطالب بسيناء ويطالب بجنوب لبنان حتى نهر الليطانى ويطالب بالأردن كلها، لأن هذه هى إسرائيل الكبرى !

ويجب ألا نتهم هذا الرجل بالجنون. فالشعب اليهودى كله اتهمه العالم بالجنون عندما كان يطالب بفلسطين. ثم خطفها، وعندما احتل سيناء قرر ألا يخرج منها. ثم ضم الجولان والقدس. وسوف يضم الضفة والقطاع وجنوب لبنان.

وقد ذكرت هنا من قبل أن أستاذا أمريكيا أرسل إلى السيد بيجين أثناء انعقاد كامب دافيد بأنه وجد آثارا يهودية على الضفة الغربية لنهر المسيسبى.. وأنه يطلب إليه تسجيل هذا الحق - أى بضم الضفة الغربية لنهر المسيسبى.. أى باقتطاع جزء من أمريكا التى استضافت نصف يهود العالم !.. وذكرت هنا أيضا أن السيد بيجين كان يعتقد أن الأهرامات قد بناها أجداده من الأسرى والعبيد فى مصر !!

فما هو مستقبل الشرق الأوسط ؟

ربما بدا التساؤل عن المستقبل شيئا غريبا، فليس من عادتنا أن نستطعم هذا السؤال. لأن معناه أن نتجاوز الحاضر إلى ما بعده. وهذا مخالف لعاداتنا التى هى : استغراق فى الماضى ونسيان للحاضر وتجاهل للمستقبل.

ومن المتوقع «بعد» حرب لبنان أن نتباكى نحن العرب على الذى فات. وأن نوزع التهم بعضنا على بعض. وأن نلقى باللوم كله على مصر طبعا، التى سالمت اليهود. الذين انكشفوا تماما فى لبنان. وأن نلقى باللوم على المنظمات الفلسطينية التى تضاربت فيما بينها، والتى رفضت وسائل دبلوماسية وسياسية أخرى.. وسوف نلوم الدول العربية الغنية بأنها لم تستخدم سلاحى : البترول والدولار. فتحبس البترول وتسحب الدولار. وسوف نقضى سنوات طويلة فى ذلك البكاء وتعميق الشعور بالذنب عندنا جميعا. بينما تكون إسرائيل قد ساعدت لبنان على أن تبنى ما انهدم، وتصل ما انقطع من التجارة والتهريب

والسياحة.. وقد بدأ كل ذلك وبسرعة.

والذى فعلته إسرائيل فى يونيو سنة ١٩٦٧ كالذى فعلته فى يونيو سنة ١٩٨٢. لقد أثبتت عجز الدول العربية، وأكدت أن العالم لديه استعداد غريزى على أن يتفرج على الدماء. وأن يصفق للغالب وألا يرثى للمغلوب. وكما تعمق لدينا الشعور بالفشل واليأس بعد هزيمة سنة ١٩٦٧، فقد عاودنا هذا الشعور مرة أخرى هذه الأيام.

ولكن هل موت عشرة آلاف فلسطينى معناه انقراض الشعب الفلسطينى وموت القضية ودفن الوطن القومى لهم؟! إن إعدام هتلر لأربعة ملايين يهودى لم يؤد إلى فناء الشعوب اليهودية، ويأسهم فى أن يكون لهم وطن فى فلسطين! فلسطين!

هل اختفاء المسلحين الفلسطينيين من لبنان، اختفاء لهم من كل مكان؟ هل بيروت هى العاصمة الوحيدة التى يمكن أن يكافح منها الشعب الفلسطينى؟

هل هذا هو الأمان الذى اختارته إسرائيل، والسلام الذى تريده فى الشرق الأوسط - سلام الدم والتصفية وإنكار حقوق الشعوب فى أن يكون لها وطن، كما أصبح لإسرائيل؟!

إن عبارة فيلسوف العسكرية الألمانية كلاوسفتس صحيحة أبدا وهى : أن السياسة هى استئناف للحرب بوسائل أخرى.. وهذا ما سوف يفعله الشعب الفلسطينى والعربى. فما الذى تحقق لإسرائيل أو لأمريكا فى الشرق الأوسط ؟

إن أسلوبا وشكلا وحجما جديدا من العداوة قد بدأ.. ولا أحد يلوم المظلوم والمطرود والجائع واليتيم ومشوهى الحرب على انتظار لحظة الثأر ولعنة السماء!

وقد أعجبنى تعبير سمعته من المشير عبد الحليم أبو غزالة فى وصف حالنا هذه الأيام قال : إن ما تريده إسرائيل الآن هو نوع من «الردع النفسى».

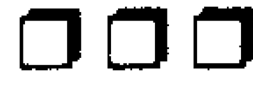
أى تردعنا فنرتدع، وتخيفنا فنخاف ولا نفكر فى الرد والصد لأننا عاجزون عن ذلك!

ولا يبقى إلا أن يتعمق لدينا هذا الشعور فلا نرفع يدا أو رأسا بعد اليوم! وأخطر من ذلك أن يصبح هذا الشعور غامرا. أى يغمرنا ويغرقنا. والشاعر القديم يحدد هذا المعنى تماما عندما قال :

أهل الأمان إن مالوا ومسهم
طيف العدو إذا ما ذوكروا ارتدعوا

أى أنهم خافوا من طيف العدو.. ولكن المعنى الذى ينطبق على إسرائيل هو ما جاء فى القاموس أيضا : فالقاموس يقول سهم مرتدع - أى أنه أصاب الهدف ثم انكسر.

ومن المؤكد أن إسرائيل قد أصابت وأبادت، ولكنها قد انكسرت وخسرت الكثير جدا، وسوف تصبح خسارتها وأمريكا فادحة في الشرق الأوسط..



وحتى ولو حدث ذلك «الارتداع النفسي» وقد حدث بعد هزيمة ١٩٦٧، فهل هذه هي النهاية ؟ هل هذا هو الوضع النموذجي للسلام في الشرق الأوسط.. ثم من الذي يجرؤ على استخدام كلمة السلام؟ وما معناه؟ سلام مَن مع مَن ؟ من الذي يسالم إسرائيل، أو إذا سالمها فمن الذي يأمن لها ؟ من الذي ينسى الدماء والدموع والجوع والعطش والهوان والإذلال والتخريب؟ من الذي ينسى هذا الهولوكست ؟ إن إسرائيل لم تنس ما فعله هتلر باليهود. مع أن الذي فعله هتلر أكثر تواضعا من الذي فعلوه في بيروت.. إن إسرائيل ما تزال تولول كل عام أمام حائط المبكى، أي الحائط الغربي المتبقي من هيكل سليمان الذي انهدم منذ ٢٥ قرنا !

وليست إسرائيل العسكرية التوسعية الاستيعابية لكل يهود العالم هي الخطر الوحيد في الشرق الأوسط وعلى الشرق الأوسط. إن هناك أخطارا تجيء من آسيا. وأخطارا تجيء من أفريقيا، وأخطار الصراع بين الدول الكبرى وبين أمريكا وروسيا. وأخطار التمزق العربي الذي يتشكل ويتلون ويتقارب ويتباعد.

وليس أمام العرب إلا الذي كان أمامهم من وقت طويل: أن يتفقوا على الحد الأدنى من سياسة أمنية. ولكن قصر النظر العربي والفردية والتواكلية والأحقاد العنصرية والمذهبية سوف تساعد على حروب جديدة وصغيرة. وليس هذا رأيا جديدا. ولكنه قديم. ولأنه قديم فلا أحد يلتفت إليه. فقد مللناه.. قلناه وسمعناه. وكررناه في مقدمة كل نكسة وأعقاب كل هزيمة. ولكن هو الحل الوحيد.. وإن لم يكن الحل. فهو الطريق إليه. وإن لم يكن الطريق فهو الأمل في أن يكون هناك طريق واحد لشيء موحد.. وإلا فالشرق الأوسط مفتوح للشعوب اليهودية التي تساندها أمريكا اليوم وروسيا غدا.. وسوف نصبح «هنودا حمرا» من المحيط إلى الخليج! ■

ولا تحققت أحلامهم فى سوريا الكبرى !

قبل أن يظهر السيد هيج. وزير خارجية أمريكا على مسرح السياسة الدولية، سارع مواطنوه بإدخاله عيادة للتحليل النفسى. فقد وجدوا أن أول تصريح قاله بعد إصابة الرئيس ريجان «غلطة نموذجية» كالتى يتحدث عنها عالم النفس فرويد. وعلى ذلك فبدلا من أن يثبت هيج أنه قادر على تغطية القيادة الأمريكية فى غياب الرئيس ريجان، فإنه كشف أعماقه ورغبته الخفية فى أن يكون هو الرئيس.. فقد نشرت وسائل الإعلام كلها أن هيج أعلن فى البيت الأبيض: أنا السيد هنا!

والغلطة هى أنه لا يمكن أن يكون السيد، لأن الدستور الأمريكى يضع نائب الرئيس فى المرتبة الثانية، ووزير الخارجية فى المرتبة الثالثة. فإذا كان هيج قد تعجل وقال إنه فى الدرجة الأولى فهو - على حسب تفسير فرويد - يتمنى أن يموت ريجان ونائبه بوش ليكون هو الرئيس الكسندر هيج. وتبارت الأقلام فى الحديث عن سوء نية هيج.. وعن العنف الذى يستخدمه فى أسلوبه، والذى سوف يلجأ إليه بعد ذلك..

وقيل إن هذه ليست بداية الخلاف.. إنما هى نهاية الوزير هيج.. فلا الرئيس الأمريكى توفى ولا نائبه!

ولكن الحقيقة غير ذلك. فقد أعيد سماع تسجيل تصريح السيد هيج. فوجدوا أن الرجل قال: إن الرئيس الأمريكى فى المستشفى، ونائب الرئيس فى الطريق إلينا. وأنا

نشر هذا الموضوع فى ١٢/٤/١٩٨١

السيد هنا!..

ولما وجد هيج دهشة الصحفيين لهذه العبارة قال: اقرأوا الدستور الأمريكى!..

وموقف الصحف الأمريكية من الوزير الجديد خصوصا والإدارة الجديدة عموما يدل على التخوف منه.. مع أنه بملابسه ووجهه وماضيه يوافق المواصفات الى يريدها الشعب الأمريكى وحلفاؤه فى أوروبا والشرق الأوسط. ولكن المؤسسات الأمريكية تكره أن يكون فى الإدارة رجل قوى جدا. لا مانع من أن يكون قويا، ولكن هناك ألف مانع أن تكون قوته مصدرا لنزاع مستمر بين مجلسى الكونجرس والرئيس الأمريكى. وهى معضلة! فلا أحد يعرف بالضبط ما هى حدود القوة المقبولة والقوة المرفوضة. ولذلك سارع هيج بترك العاصمة الأمريكية ليشغل نفسه وكل وسائل الإعلام بخطوة عملية خاطفة.. فكانت رحلته إلى الشرق الأوسط والبحر الأبيض أيضا..

وهو يعلم مقدما ما هو المطلوب من أمريكا فى مواجهة المشاكل المعقدة فى الشرق الأوسط، وما الذى سوف تفعله إزاء الزحف السوفيتى، ثم كيف تستعيد أمريكا الثقة التى فقدتها فى كل مكان..

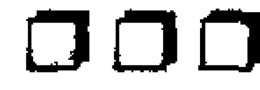
وسوف يبقى سقوط شاه إيران متجدد الدوى فترة طويلة. فقد كان الشاه أعز أصدقائها. وأقواهم أيضا. فعندما كان الرئيس كارتر يرقص مع امبراطورة إيران فى طهران يوم رأس السنة ويتمنى لها مزيدا من الأمان، كانت المخابرات الأمريكية قد بعثت برجلها ليساعد فى حزم أمتعة الشاه إلى خارج البلاد. ولم يكن الرئيس كارتر يعرف ذلك.

إذن لقد التقى فى طهران: الرئيس كارتر رأس الإدارة الأمريكية، والجنرال هاوزر مبعوث الحكومة الأمريكية. ومعنى ذلك أن فى أمريكا قوتين : الإدارة التى أتى بها الرئيس، والحكومة التى هى الكونجرس والمخابرات والمباحث والشركات ووسائل الإعلام. وأصبح واضحا أنه من الممكن أن يكون الرئيس فى ناحية، وأجهزة الدولة الأخرى فى ناحية أخرى. تماما كما أعلن الرئيس كارتر عندما دخل السوفيت أفغانستان، قال: لقد كانت مفاجأة لى!..

وهى جملة صاعقة غير مقبولة من رئيس أقوى دولة فى العالم.. لقد تركته أجهزة المخابرات فى الظل، ولم تطلعه على شئ مما يجرى فى أفغانستان منذ ثلاثة سنوات! لماذا؟ هذه قصة أخرى.. ولكن المهم أن هناك إدارة وأن هناك حكومة. وأنهما قد تختلفان وتتصارعان. وتذهب الإدارة وتبقى الحكومة!..

وأفلت السيد هيج بسرعة من أول صدام أو صدمة مع الأجهزة الأخرى..

وجاء يعرض نفسه على الشرق الأوسط. ووقف الشرق الأوسط يعرض نفسه عليه أيضا..



وفى حديث السيد هيج مع الرئيس السادات.. لم يختلفا على شئ. فعندما التقى به السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية فى واشنطون قد أطلعه على وجهة النظر المصرية بالتفصيل. فلما التقى السيد هيج بالرئيس السادات صارحه بوضوح: نحن لا نفكر ولم نفكر فى أن يكون لنا قواعد عسكرية فى مصر. ونحن نعلم وجهة نظرك تماما. ونحترمها، ونحن لا نخلط مطلقا بين التسهيلات التى تعطى لنا فى رأس بناس وبين «قوة الانتشار السريع» التى لن يكون لها مكان فى الشرق الأوسط!

وفى جنيف أكدت السيدة كيركباتريك مندوبة أمريكا الدائمة فى الأمم المتحدة للدكتور بطرس غالى نفس المعنى قائلة: لسنا فى حاجة إلى قواعد فى مصر، فلدينا الكثير بل إن إسرائيل هى التى تطلب قواعد أمريكية على أرضها..

وكانت الصحف العالمية والعربية وقد وقعت فى مصيدة «الانتخابات الإسرائيلية» التى تصدر القضايا والمشاكل إلى العالم كله. وينسى الذين ينقلون عن الصحف الإسرائيلية أن المشاكل التى يثيرونها، بالاستهلاك المحلى فقط. وأن الكثير من القضايا التى أثيرت فى الشهر الماضى. قد اختفت هذا الشهر.. وسوف تختفى مشاكل أخرى فى الشهر القادم، لأن المزاج الإسرائيلى حاد.. والصراع على السلطة مميت.. ولا أحد يعرف إن كان السيد بيجين هو الذى سوف يبقى فى الحكم. أو أن السيد بيريز هو الذى سوف يجئ. إن المحللين الإسرائيليين ينصحون الأجانب: بأن يريحوا رءوسهم، وألا يقرأوا الصحف الإسرائيلية لأنها لا تدل على شئ واضح. إنما هى صورة لغليان ليس له نظير فى تاريخهم القصير فى المنطقة..

ومما أثارته الصحف الإسرائيلية وجعلته حقلا للألغام تصطدم به الأقلام: الوجود الأمريكى فى المنطقة.. أو الوجود الأمريكى فى سيناء.

فمعاهدة مصر وإسرائيل تنص على وجود قوات ورقابة على الانسحاب النهائى من سيناء وأن تكون هذه القوات دولية.. فلابد من عرضها على مجلس الأمن وفى مجلس الأمن يمكن للسوفيت أن يعترضوا على هذا المشروع.

ولذلك يجب البحث عن تشكيل لهذه القوات خارج الأمم المتحدة. من دول عدم الانحياز. أو من أمريكا وحدها. أو من أمريكا والدول الصديقة، أو العودة إلى لجنة الهدنة

وإسرائيل تفضل الوجود الأمريكى فى شرم الشيخ. ومصر تعترض على الوجود الأمريكى وحده. وإسرائيل ترى أن تكون للأمريكان قواعد فى سيناء. ومصر ترفض ذلك تماما - وهى قضية تتنازعها الأحزاب الإسرائيلية، ولكن يجب ألا تهمنا كثيرا، لأن موقف مصر قد أعلنه الرئيس السادات فى البرلمان الأوروبى، وأعلنه للسيد هيج. كما أعلن الرئيس السادات أنه على استعداد لإعطاء تسهيلات لأوروبا مماثلة للتسهيلات الأمريكية، مادامت من أجل الدفاع عن أى بلد عربى أو إسلامى!..

والبحث فى موضوع القوات سابق لأوانه، فما تزال أمامنا سنة كاملة. ولكن عدوى استعجال كل شئ قد انتقلت إلى العالم من الصحف الإسرائيلية وحدها!.

أما موقف الإدارة الأمريكية الجديدة من الخليج فيجب أن يكون مختلفا عن فلسفة الإدارة السابقة. فالإدارة السابقة اسقطت الشاه، أو تركته يسقط وأدى سقوطه إلى زلزلة العروض فى الخليج. واهتزاز الثقة فى أمريكا نفسها وعندما حاول الأمريكان أن يكون لهم رد فعل متشدد، تحركوا لانقاذ الرهائن. وعندما حاولوا معاقبة روسيا بسبب احتلالها لأفغانستان، لم تقف إلى جوارها كثير من الدول الأوروبية والأمريكية. وعندما تدخلت أمريكا بقواتها كان ذلك لإنقاذ آبار البترول، أى الآبار وليس أصحاب الآبار. وكانت صدمة أخرى لأصحاب الآبار، ولذلك تهامسوا باللجوء إلى موسكو - تماما كما تقفز السمكة من إناء يغلى إلى النار التى تحته.. أو كما تهرب امرأة من «عصمة» رجل سيئ، إلى «عصمة» رجل أسوأ!

ولابد أن يكون السيد هيج قد أعطى الألمان والضمان للسعودية، عندما وافق على أعطائها خمس طائرات انذار مبكر سنة ١٩٨٥ ويقودها أمريكان و ٧ طائرات ت ك س ١٣٥ تحمل وقودا ١٢٠ ألف لتر و ٦٢ طائرة ف ١٥ بخزانات اضافية وبذلك تعادل ١٨٠ طائرة!..



أما سوريا التى لم يزرها السيد هيج فأرادت أن تعلن أن من غيرها لن يكون سلام فى المنطقة. ولذلك انتهزت هذه الفرصة وأطلقت النار على الشعب اللبنانى، الذى لم يجف له دم ودمع منذ ست سنوات.. ومن الغريب أن الاتحاد السوفيتى قد أعلن تأييده لسوريا فى هجومها على مدينة زحلة، أى تأييده لقتل الأبرياء من اللبنانيين مسلمين ومسيحيين والفلسطنيين أيضا. فالسوفيت قد أيدوا الزحف على زحلة، لإسكات الشعب اللبنانى الضحية.. أى أنهم يؤيدون استخدام القوة فى لبنان، وفى بولندا أيضا. وسوف

يقف العالم كله على أطراف أصابعه ليرى ما الذى سوف تفعله الإدارة الأمريكية إذا تكررت مأساة تشكوسلوفاكيا، وسحقت الدبابات الروسية الشعب الأوربى المسيحى فى بولندا.. قد يسكت العالم كله على إبادة الآسيويين المسلمين فى أفغانستان أو فى اليمن، أو الأفارقة المسيحيين فى أثيوبيا. ولكن ما الذى سيفعله الرئيس الجريح ريجان بعد أن أعلن الرئيس المريض برجنيف أنه يؤيد استخدام القوة؟..

ثم إن السوفيت يؤيدون ثورة الإمام خوميني: فطائرات الفانتوم الإيرانية تهاجم العراق من مطارات سوريا السوفيتية.. وطائرات الشحن الإيرانية تنقل العتاد والذخيرة من ليبيا السوفيتية..

أما العرب فقد إلتزموا الصمت لما يتحطم فى لبنان. فلم يحدث أن مؤتمرا عربيا واحدا قد أدان سوريا، فكأن العرب والسوفيت قد اتفقوا معا على أن تفعل سوريا ما تشاء فى لبنان، فى عرب لبنان.. وبذلك تساعد القوات السورية على تقسيم لبنان، وتمهد لإسرائيل دخول لبنان واقتطاع جزء منها، لتضمه بعد ذلك مثل الجولان والضفة الغربية.. فهل هذا ما يريده السوريون؟.. وإذا كان كذلك فما هو موقف العرب الذى يساعدون سوريا بالمال بغير حدود؟ إن خطأ الشعب اللبنانى لا يقل فداحة عن خطأ جميع الأطراف، فقد كان من الواجب على الشعب اللبنانى أن يحل قضيته «لبنانيا» وليس عربيا ولا فرنسيا..

وقد نصحهم الرئيس السادات أن يضعوا لهم ميثاقا جديدا، وأن ينجحوا حتى لا يتدخل أجنبى. فدخل الأجنبى السورى ولم يخرج. صحيح أن الجيش السورى قد عوقب على ذلك بعجزه عن الخروج. وفى نفس الوقت بخوف حزب البعث من عودة الجيش الفاشل إلى سوريا، حتى لا ينضم إلى الشعب السورى الثائر على الرئيس الأسد وأخيه..

وقبل ذلك حشدت سوريا قواتها على حدود الأردن، تخويفا للملك حسين، ووافقت مصر على مرور قطع غيار أمريكية إلى الملك حسين. ولم يؤد هذا التهديد السورى إلى شئ سوى تحريك قوات وتصعيد الموقف، الذى تلاشى عندما بعثت السعودية بمبلغ ٥٠٠ مليون دولار إلى سوريا - إنهم فى السعودية يعرفون كيف يتعاملون مع الرئيس الأسد!.

ولكن بعملية حسابية صغيرة نجد أن سوريا قد حشدت كل هيبتها وقوتها فى لبنان وفى سوريا. ولم تعد قادرة على فعل شئ أكثر! حتى الملك حسين وجد الشجاعة فى أن «يعير» سوريا بأنها ادعت النصر فى حرب أكتوبر.. مع أنها انهزمت فى اليوم الثالث!..

فمن أجل أن تتحقق «سوريا الكبرى» بالوحدة الفاشلة مع العراق، والوحدة الزائفة

مع الأردن، والوحدة المضحكة مع ليبيا، والوحدة الدموية مع لبنان، انهزم الجيش السورى فى الداخل والخارج.. وامتلأت السجون وأصبحت المشانق أشجارا فى كل مدينة.. فما الذى انتهى إليه حزب البعث.. حزب الأقلية الساحقة؟..

لقد أصبح السورى قبيح الوجه، ولم يكن كذلك، إنما هكذا أراد له حكام دمشق. أما بقية المأساة السورية فلا تهم، فليس من الصعب توقع النهاية المألوفة للجيوش المنهزمة إذا عادت إلى أراضيها.. ولكن إذا عادت هذه الجيوش، فهل تقضى على البقية الباقية من الشعب؟ حتى الإجابة عن هذا السؤال لا تهم. إنما السؤال هو : ماذا كسب الشعب السورى الذى هو الجيش السورى أيضا؟ لا كسب أرضا. ولا أرضى شعبا. ولا حقق هدفا. ولا سوريا أصبحت كبرى. بل إن سوريا لم تعد سوريا.. إنها ضحاياها.. بقاياها!..

وليبيا هى الأخرى قد أعلنت عن حجمها ووزنها الذهبى الأسود عندما دخلت بقواتها تشاد، وأذاعت أنها بعد أن أنهت مهمتها قد عادت من تشاد، بل سحبت قواتها الواقعة على حدودها مع مصر.. وكل ذلك ليس صحيحا، وعندما أدانت السودان لأنه أعاد علاقاته مع مصر، كانت ليبيا - كما ذكرت فى الأسبوع الماضى - قد حاولت ذلك سرا مع الرئيس السادات فى باريس فى فبراير الماضى..

وعندما استعرض السيد هيج مع الرئيس السادات الموقف فى أفريقيا، أكد للرئيس أنه كان على حق عندما نبه أمريكا إلى التغلغل السوفيتى فى أفريقيا، وأن أمريكا مع الأسف لم تتحرك بالسرعة الواجبة - بسبب التردد أو الخوف من أن تكون أفريقيا هى فيتنام الجديدة التى أكلت مائة إلف أمريكى ثم هزمتها نفسيا، وفضحتها أمام العالم كله!..

وعلى الرغم من أن مصر قد أدانت حرب إيران والعراق، لأنهما دولتان مسلمتان، ولأن الصراع سوف يتخذ مسارا قديما قد مات: وهو الصراع بين العرب والفرس، فإن مصر قد استجابت لمبادرة من السلطان قابوس. فقد رأى السلطان أن نساعد العراق ولو مساعدة رمزية. فنبعث إليها بما تحمله طائرة واحدة س. ل ١٣٠ من الذخيرة. ووافق الرئيس السادات حتى أن بعث بحمولة عشر طائرات. ووضع السيد حسنى مبارك خطة لإرسال ١٦ طائرة.. وكان الأمل أن نصنع جسرا جويا كالذى تفعله الدول العظمى. تماما كالجسر الجوى الذى سبق أن أقمناه بين مصر والسودان، فقد استطعنا فى ١٢ ساعة أن ننقل لواء كاملا من العربات والذخائر والمعدات.. وقد سعد السلطان قابوس بقرار القيادة المصرية، ولكن العراقيين، بضغط سعودى، رفضوا فكرة الجسر الجوى.. وقالوا: إنهم لايثقون فى الأردن

إذا مرت الطائرات المصرية فى أجوائه..

مع أن طائرات المصرية لم يكن من المقرر لها أن تمر بسماء الأردن. ولكنه عذر انتحلوه. ثم بعث العراقيون بطائرة توبيلوف (٤٠ طنا) لنقل بعض الذخيرة على أن نشحن لهم بقية الصفقة (٣٥ مليون دولار) بحرا لتصلهم عن طريق السعودية. ويبدو أن هذه الطائرات. توبيلوف الروسية قد استطاع الايرانيون القضاء عليها وهى على الأرض. مما استحق تهنئة الامام خومينى لجميع الطيارين!

ومنذ أيام أعلنت الصحف السعودية أن هناك دولة عربية أخرى غير السودان، سوف تعيد علاقتها مع مصر..

وقيل المغرب..

وأسرف آخرون فى تمنياتهم وقالوا : السعودية..

وفى الأسبوع الماضى قابلت الرئيس دانيل موى، رئيس كينيا..

وقابلت الرئيس سياد برى رئيس الصومال..

ثم قابلت الرئيس السودانى جعفر نميرى..

وعند هؤلاء القادة الثلاثة شعور عام بضرورة أن يكون هناك تقارب بين الأشقاء الأفارقة، الذين يشربون من ماء واحد.. وبين الأشقاء العرب أيضا.

وأن يتم ذلك قبل أو أثناء مؤتمر القمة الأفريقى الذى ينعقد فى نيروبى يوم ١٥ يونيو القادم.. وعلى ألسنة الزعماء الثلاثة: أن المبادرة التى هز بها الرئيس السادات العالم كله، يجب أن تكون نموذجا. فلا حل للخلافات بين الدول إلا اللقاء وإلا الحوار..

وإذا كان الحوار قد أمكن بين مصر وإسرائيل، فكيف يستحيل ذلك بين الأشقاء العرب أو الأشقاء الأفارقة؟..

فهل هذا هو المزاج العام فى أفريقيا وفى أوروبا وفى الشرق العربى والإسلامى؟..

هل هذا ما يريده الأشقاء، أو ما تشجع عليه أمريكا، ولا تشجع عليه روسيا؟

هل من السابق لأوانه أن نعرق بالضبط ما هى فلسفة الإدارة الأمريكية الجديدية التى أطلعنا عليها السيد هيج؟..

هل جاء الوقت لكى تتبادل أمريكا وروسيا المقاعد والأقنعة والأسلحة أيضا؟ ففى ثلاثين عاما وزيادة تعودت أمريكا أن تهدد باستخدام القوة ثم لا تستخدمها.. وأن تستخدم روسيا القوة دون أن تجد ضرورة للتهديد بها.. فهل السيد هيج وزير الخارجية، والوجه القوى لأمريكا هو أيضا الفكر الوليد، والأسلوب الجديد، والأمان الأكيد، للحلفاء

فى الشرق والغرب؟..

لسنا على يقين مما سوف تفعله الدولتان العظيمان. فبينهما حسابات وتصفيات ومعادلات شديدة التعقيد. ولكن الشئ المؤكد هو أن أمريكا ريجان، لن تكون أمريكا كارتر.

وأن الجنرال هيج لن يكون المحامى فانس، وأن الرئيس كارتر إذا كان قد أفلح فى إنقاذ خمسين رهينة، فعلى الرئيس ريجان أن ينقذ ٢٥٠ مليون أمريكى، هم رهائن الخوف من فيتنام أخرى!.. ■

الرئيس القذافي :
هل كانت رحلته إلى «كانوسا» ؟!

ليس صحيحا أن الرئيس الليبى معمر القذافى متناقض مع نفسه. إنما قد كان صريحا ثلاث مرات. وكانت صراحته فاضحة لأعماقه. ولذلك يحاول منذ سنوات أن يتستر على كل الذى قال. فكما أن الجريمة لا تفيد، فالصراحة أيضا.

١ - وقد كان الرئيس القذافى صريحا جدا عندما ابتكر «النظرية الثالثة» فى السياسة والدين.. والنظرية الثالثة تقول إن الأمريكان استعماريون كالروس تماما. وإنه لاخلاف بينهما. فكلاهما يريد السيطرة على العالم. ولذلك فهما متفقان على تقسيمه بينهما. وإذا كان الأمريكان مسيحيين فهم منافقون وكاذبون. وإذا كان الروس ملحدين فهم يوهمون الشعوب بأنهم متدينون، ولكن بطريقة خاصة. بل إن المسلمين أنفسهم لا يعرفون دينهم، ولذلك فهم أقرب إلى الكفر والإلحاد. والمسيحيون : لا يوجد شئ اسمه المسيحية. فالدين هو الإسلام. فالمسيحيون مسلمون واليهود كذلك. وعلى ذلك فقد أغضب القذافى كل الأديان وكل المذاهب السياسية. ولا بد أن يخرج برأى جديد. هو التوفيق بين هذه المذاهب جميعا. وهو لم يهتد فى السياسة إلى مذهب يزوج الأمريكى من الروسى، والمسلم من المسيحى. ولذلك كان مذهبه السياسى أقرب إلى الفوضوية، ومذهبه الدينى أقرب إلى البهائية. ومعنى ذلك أن الرئيس القذافى قد تعجل المعركة مع كل سكان الأرض من جميع المذاهب والأديان. صحيح أنه لم يتغلب على أحد، ولكنه خاصم الجميع

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٥/٣

واستنكرهم، وأهم من هذا كله، أن العالم كله عرف من هو الرئيس الليبى، دون أن يعرف الرئيس الليبى من هو العالم. ولكنه تمشيا مع عبارة جاءت فى «النظرية الثالثة» تقول : «إنه هو القبلة، وكما يتجه الناس إلى القبلة، يجب أن يتجه الناس إلى طرابلس». ومعنى ذلك أنه على العالم كله أن يعرف من هو ، وليس عليه أن يعرف ما هو العالم..

٢ - وفى المرة الثانية، عندما التقت به الصحفية الإيطالية الشهيرة أوريانا فالاتشى لم يخف عنها شيئا. وهو معذور فى ذلك. فالصحيفة لها طريقة جذابة فى الحديث إلى الشخصيات العالمية. إنها عادة تبدأ بالهجوم المكثف عليه وتنتظر. تماما كمل تفعل إناث الحيوان والنحل..

وقد استهلت حديثها الأول مع الرئيس الليبى هكذا : شئ عجيب.. يقال عنك إنك وحش وشرس والنار تخرج من عينيك وتحرق ثوب أية أمرأة.. وإن لك أظافر ومخالب. وإنك إذا رأيت أمرأة فأنك تضع يدك على مسدسك.. وبعض الناس يقول : إنك تضع يدك على حذائك لأنك تحتقر المرأة، مع أنك تحب أمك وزوجتك.. ومع أنك مسلم، والنبى قد أوصى بالنساء، وقد تزوج منهن تسعا.. ولكنى أرى غير ذلك تماما.. ففي عينيك حنان عجيب، وفى شفتيك المليئتين جاذبية جنسية.. وفى صوتك رجولة.. شئ غريب..

أما أوريانا نفسها فهى ليست جميلة، ولكنها كانت يوما ما. وهذا واضح فى ساقيها وذراعيها وصوتها المبحوح ونظرتها التى تتزحلق على ملامح الوجه ابتداء من الشعر فالأنف فالشفتين فأصابع اليدين فالحذاء.. وهى جريئة وجارحة. وهى تلميذة مخلصة لنابليون الذى يرى أن الهجوم خير وسيلة للدفاع.. فهى لا تكف عن الهجوم، أما الذى يقوم بالدفاع فهو الشخص الآخر، قال لها القذافى : إن الشعب الليبى لم يخترنى. إن الله وحده هو الذى اختارنى لحكمة، ولا بد أن تكون هذه الحكمة هى جمع شمل الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. وليس هذا حدثا فريدا. فقد أفلح صلاح الدين الأيوبى قبل ذلك. ونجح جمال عبد الناصر أستاذى ومعلمى ومثلى الأعلى. ولكنى أريد أن أجمع شمل المسلمين والمسيحيين واليهود على هذه الأرض. وهذه الحكمة قد جاءت فى كتاب الله العزيز..

وتسأله أوريانا : ولكن هل الشعوب العربية والإسلامية تعرف ذلك، أو إن هذا سر تفضى به لأول مرة ؟ هل أنا أول من أطلعته على هذا السر ؟..

فيقول : أنت أول من أطلعه على آمالى وأحلامى..

وتسأله أوريانا : ولماذا اخترتنى أنا بالذات ؟..

ويقول لها أنا لم اخترك . أنت التى اخترتنى. وهذا ما سوف يفعله كل العرب وكل المسلمين.. وهذه قاعدة فى كل التاريخ.. فالزعماء يجيئون من قرى صغيرة أو من دول صغيرة.. أو من بلاد بعيدة.. تلك حكمة إلهية..

والمعنى هو : أنه إذا كانت ليبيا صغيرة، فهى به كبيرة جدا.. وإذا أصبحت ليبيا كبيرة به. فهى أكبر من أية دولة عربية أخرى..

وقالت له أوريانا : ألا تخشى أن يعاديك كل العرب بسبب هذا الطموح الكبير الذى لم تتهيأ له بعد. وأنت ما تزال شابا وسيما فى مستهل حياتك السياسية ؟.. صحيح أن شبابك وذكاءك وثراءك وشجاعتك قادرة على أن تضعك فى القمة.. ولكن الطريق إلى القمة طويل.. ولا توجد قمة ليس بينها وبين السفح: صخور ومنحدرات وغابات ووحوش.. وأكبر دليل على خطورة ذلك أن العالم ما يزال يحتفل كل عام بالذين يفلحون فى الوصول إلى قمة إيفرست.. فالطريق إلى القمم ما يزال نوعا من التحدي، فما بالك بالقمم السياسية التى يجب أن تصعد إليها محمولا على أكتاف الملايين ؟..

ويرد عليها : كل ذلك فى حسابى. فأنا أعرف طريقى.. أو إن الذى خلقنى قد وضح أمامى الطريق أيضا. وأعطانى موهبة الصعود إلى حيث يريد هو، وليس إلى حيث أريد أنا !..

ولم يكن من الصعب على هذه الصحفية الخبيثة أن تعلن للعالم أنها قابلت : نبى الصحراء الجديد. وأن الذى يشك فى هذه النتيجة فليقرأ حديثها من أوله!..

٣ - وفى المرة الثالثة عندما جاء إلى مصر سنة ١٩٧٣ وبقى فيها ١٧ يوما. أعلن فى مطار القاهرة أمام والدته وزوجته وأولاده وحاشيته، أنه لن يعود إلى ليبيا إلا والوحدة الاندماجية فى جيبه. ولم يفلح الرئيس السادات فى أن يقنعه بفشل هذه التجربة. وتجربتنا مع سوريا ومع ليبيا أيضا درس يجب أن نعيد قراءته كثيرا. ولكن الرئيس القذافى كان قد وصل إلى مجموعة من المسلمات الفكرية. وأنه وحده قادر على أن يقنع الشعب المصرى وإذا افسحنا له الطريق. وقبل أن يصل الرئيس القذافى إلى مصر، كانت بعض شعاراته قد وصلت إلينا. من بينها : أن مصر شعب بغير قائد، وليبيا قائد بغير شعب.. والوضع المثالى : أن تجمع شمل الشعب على قائده - الشعب المصرى وقائده الليبى. وكان يقول أيضا : الثورة فى مصر والثورة فى ليبيا. ولا ثورة بغير ثروة. فإذا تجمعت قوى الفكر وقوى المال فى دولة فهى أعظم دولة : مصر وليبيا. أو إن الله سبحانه وتعالى عندما قال «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» فالمال فى ليبيا والبنون فى مصر، والوحدة بينهما هى

زينة الحياة الدنيا.. أو الرأس بغير جسم: ليبيا.. والجسم بغير رأس : مصر. والجسم السليم والعقل السليم هما : الوحدة الاندماجية بجسم مصر ورأس ليبيا !..

وقيل للرئيس الليبى أن الليبين حكموا مصر قبل ذلك، وليس شيئا جديدا فى التاريخ أن يعودوا لحكمها!..

وأكبر غلطة تدحرج إليها الرئيس الليبى أنه خاطب الشعب المصرى مباشرة، طلب أن يلتقى برجال الدين. وجلس فى مواجهة كبار العلماء وأمسك القرآن الكريم وراح يقلب فيه، وأصبح واضحا أنه لم يحفظ القرآن الكريم. وأنه لا يحسن نطقه، وراح يفسر الآيات القرآنية تفسيرا جديدا. ولابد أن رجال الدين المصريين يمتازون بصبر أيوب عليه السلام. فقد تململوا واهتزوا وكظموا غيظهم، وانتهت هذه المحاضرة، التى كانت استفتاء مباشرا حرا بسقوط الرئيس الليبى فى عيون رجال الدين. فلا هو من العلماء، ولا هو يحترم العلماء.. ولا يحترمه العلماء!.. والتقى بالمثقفين المصريين فى كل المؤسسات الصحفية. وطلبت إليه يومها أن يشرح لنا «النظرية الثالثة» وأسعده أننى سألته، وأتعسنا أننا لم نفهم شيئا. ولما لم يجد أثرا لفلسفته فى الفكر والأدب والحياة الاجتماعية طلب إلينا أن نثور على هذه المؤسسات الصحفية وأن نهدمها على رءوس أصحابها. ولم يكن لهذه المؤسسات أصحاب. فالمؤسسات يملكها الاتحاد الاشتراكى !..

وطلب أن يلتقى بالمرأة المصرية. وهو ينطق المرأة بغير همزة - وهى كلمة قبيحة فى مصر. أما رأيه فى المرأة فهو أنها حيوان يحمل ويلد. وكل حياة المرأة هى كيف تحمل شرعا وتلد بعد ذلك. ونحن نبالغ فى قيمة المرأة عندما نساويها بالرجل. فالرسول يقول عنهن : ناقصات عقل ودين. ولم يكتف الرئيس الليبى بكثير من الكلمات الجارحة، إنما حاول أن يوضح فلسفته بالرسم. فأتوا له بلوحة، ورسم عليها المرأة. ثم أراد أن يكون عصريا فى تفكيره، فوضع المرأة فى معادلة رياضية خلاصتها : أن المرأة حيوان يحمل ويتوحم ويلد وينزف دماء كل مرة كل شهر!.

ومن الطبيعى أن يسقط الرئيس الليبى فى الاستفتاء الحر المباشر بين نصف سكان مصر من النساء!..

وعندما أراد أن يسترضى المرأة تحدث عن «شارع الهرم». وقال إن هذا الشارع هو رمز للإنحلال الخلقى. وإن المرأة يجب أن تثور على أنها تباع كل ليلة فى هذا الشارع. وأن الذى يبيعها هو الرجل. وأن من يدفع أكثر يستمتع أكثر. وأن المرأة ما دامت لا تثور على الرجل، تاجر الرقيق، فهى راضية تماما عن أن يبيعها فى شارع الهرم!..

ولكى يسترضى الشعب المصرى كله فى نهاية رحلته قال : إن شارع الهرم ليس شارعا فى القاهرة، إنه مصر كلها. وعلى ذلك فكل شئ له ثمن، وكل إنسان أيضا..

ومعنى ذلك أنه عندما تحدث عن ثروة ليبيا وثورة مصر، إنما أراد أن يقول إنه بفلوس ليبيا يستطيع أن يشترى مصر. فمصر للبيع. وهو الذى سوف يشتريها، والمصريون يعلمون ذلك. ولن يعترض عليه أحد..

وقد أخطأ كثيرا جدا هؤلاء اليساريون المصريون الذين شخصوا له مصر ومرضها وعلاجها. ووضعوا على لسانه هذه الشعارات، التى هى ليست إهانة لمصر، أنما هى إهانة للإنسان.

ولم يقتنع الرئيسى الليبى إلا أخيرا جدا، وإلا بعد أن فشلت كل محاولات شراء المتهوسين. إن مصر ليست بغير عقل، وليست بغير مال.. وإنه ليس المهدى المنتظر الذى وضعت له مصر حصانا أبيض على الحدود ليركبه ويدخل غازيا - كما كان يحلم موسولينى، السيد الأسبق لليبيا!..

وعندما جاء إلى مصر سنة ١٩٧٣ كان خلافه مع الرئيس السادات واضحا على الوحدة وعلى العلاقات المصرية السوفيتية - حتى بعد أن طردنا الخبراء السوفيت قبل ذلك بعام واحد..

والرئيس السادات يبرأ من أنه هو أول من أطلق على الرئيس الليبى أنه «الولد المجنون». فهذا شرف لا يدعيه، وتهمة لا يدفعها - وهى عبارة مشهور لسعد زغلول. إنما صاحب الفضل فى هذا الاكتشاف الطبى النفسى هو الرئيس السوفيتى برجنيف.. ففى اللقاءات الأربعة فى الكرملين أعلن الرئيس السوفيتى للرئيس السادات : ماذا فعلنا لهذا الولد المجنون؟.. إنه يتهمنا بالاستعمار الجديد والإلحاد والتخريف والصهيونية والتآمر على الإسلام والعرب..

ويكون رد الرئيس السادات : إنه شاب. ومتحمس. وليست له تجارب تاريخية. وهو فى حاجة إلى بعض الوقت لكى «يقلم» مخالب وأنياب هذه العبارات الشائكة. أعطه وقته. إنه أمل الأمة العربية. وهو تلميذ مخلص فى مدرسة عبد الناصر.. وكثير من الشباب العربى ينظرون إليه على أنه رجل المستقبل.. فاصبر عليه قليلا!..

ويرد برجنيف : ولكنه معك فى الوحدة بين سوريا وليبيا ومصر.. ويكون رد الرئيس السادات : هذا هو الضمان. وجوده معى ضمان لكم. فهو لن يستطيع أن يفعل شيئا. سوف يخطب ويصرخ. وهذه لغة الشباب، وقد كنا جميعا شبانا. ولم نتعلم الاتزان

إلا عندما تقدمنا فى السن، وعندما مارسنا الحياة السياسية الشاقة المعقدة.

وتعبير آخر يذكره الرئيس السادات من ابتداع الرئيس السوفيتى، فعندما قامت الطائرات الإسرائيلية بضرب أعماق مصر، سافر الرئيس جمال عبد الناصر إلى موسكو سنة ١٩٧٠ يطلب الصواريخ التى وعد بها السوفيت الرئيس السادات قبل ذلك بشهور. ووجد الرئيس عبدالناصر صعوبة شديدة فى إقناع السوفيت. ثم وافقوا على إرسال أطقم صواريخ سام ٣ التى ركبت فى الأسكندرية.. ووعدوا بمزيد من الأطقم بعد أن يتم تدريب الضباط المصريين، وذهب الرئيس السادات يستعجل ما وعدوا به.. وقال لهم إنه عندما يتم تدريب المصريين فعلى الروس أن يعودوا إلى بلادهم !

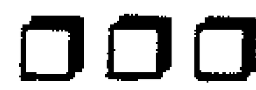
هنا وقف الرئيس برجنيف قائلا التعبير الجديد الذى كان صاعقا لا ينساه الرئيس السادات : ولكن يا سيادة الرئيس السادات إن عودة الأطقم السوفيتية تصفية «للوجود السوفيتى» فى مصر !..

الوجود السوفيتى - تعبير جديد، ومعنى خطير لم يكن على البال. وقال برجنيف : إذا خرجوا من مصر فما الذى يقوله الغرب الذى يتربص بنا فى كل مكان. والذى يعادى السوفيت لأنهم يساعدون مصر على أن تحارب إسرائيل وتخرجهامن الأرض المحتلة ؟!..

أما المفاجأة فهى أن الرئيس السادات أعلن رسميا : إذا كان الخوف على الوجود السوفيتى فى مصر فأنا على استعداد لتدعيم الوجود السوفيتى. أبعث لى غدا مائة ألف جندى. وأنا أعلن ذلك رسميا هنا فى الكرملين، أمام زملائى وزملائك.. ولكن بشرط أن تبعث معهم سربا من طائرات الميج ٢٥!

وهنا تغيرت الألوان على وجه الرئيس السوفيتى، وتتابعت الألوان الباهتة على وجوه بقية المسئولين السوفيت وجاءت كلمة واحدة قاطعة: لا..

لم يوافق الرئيس السوفيتى على إرسال الطائرات المتطورة جدا، التى لم يكن لها نظير فى إسرائيل. وكان هدف الرئيس السادات هو استخدام هذه الطائرات فوق الأراضى الإسرائيلية الضيقة ليلا ونهارا، حتى تفقد إسرائيل عقلها. ففى استطاعة هذه الطائرات أن تظل ساعات فى الجو.. أما الطائرات الميج ٢١ فهى مهزولة ومأساة حقا. فمداها فى الجو ١٣ دقيقة.. وكان الطيارون الإسرائيليون يعرفون ذلك جيدا. فكانوا يستدرجونها إلى الجو، ثم ينقضون عليها فى الدقيقة الثالثة عشرة، وهى تهبط. فيصيبونها، وقد فعلوا ذلك كثيرا!..



ودارت الأيام.. وذهب الرئيس الليبى إلى موسكو.

فما الذى فعله الرئيس الليبى، الذى نعرف آراءه فى السوفيت والوجود السوفيتى ؟ كيف قابلوا ممثل جبهة الصمود ؟ وما الذى قاله؟.. وما الذى اعتذر عنه؟ ومن الذى تغير؟ هل هم الروس الذين ملأوا ليبيا بالدبابات يقودها الألمان الشرقيون، والطائرات يقودها الكوريون والسوريون والفلسطينيون، وبالقوات الكوبية التى يدفع لها القذافى مرتباتها فى أثيوبيا وتشاد والصحراء المغربية واليمن الجنوبية ؟ هل أسلم السوفيت أو ألحد الرئيس الليبى ؟ وما مصير الوحدة بين سوريا وليبيا - أى بين طرابلس الشرق وطرابلس الغرب؟.. وهل فشل هذه الوحدة يرجع إلى أن هناك معاهدة سوفيتية سورية؟..

ثم أين الإسلام الحنيف والقذافى يؤيد إبادة المسلمين فى أفغانستان؟.

وهل ما يزال يؤيد الوجود السوفيتى ؟ أما الوجود السوفيتى فى ليبيا، فليس فى حاجة إلى تأييد. إنه هناك مستقر تماما. وهو يؤيد الوجود القذافى!..

وما هو مصير الثروة الليبية ؟ نحن نعرف مصيرها. فالروس ينفقون منها على الإرهاب العالمى، والقلق الدولى، وعلى الاضطرابات الأفريقية.. فهل يستطيع السوفيت أن يجعلوه مقبولا بالقوة من الدول الأفريقية، بعد أن استباح دماء الشعب التشادى - وهو شعب أفريقى ؟!..

ثم ماذا بعد موريتانيا ؟ وماذا بعد مساندة البوليساريو ؟ إن الرئيس الليبى يسعى لإقامة الإمبراطورية الصحراوية. وهو يؤمن كما قال كثيرا : أنه إذا لم يكن نبى الصحراء، فهو الهادى إلى هذا النبى!..

هل وعده السوفيت بأن يأتوا له بشعب تحت قيادته؟.. كيف يستوردون له عشرين مليونا من الليبيين ؟ لا بد أن الروس قد وضعوا فى رأسه أن الهنود الحمر من أصلى ليبى، وأن المكسيكيين كذلك.. ولا بد أن تظهر فى أمريكا أو فى روسيا مسلسلة اسمها «الجذور» وهذه الجذور تطالب بعودة الهنود الحمر إلى ليبيا.. وبذلك فسوف يعيش القذافى على أمل جديد : هو عودة الليبيين الأمريكان إلى الليبيين الأفارقة!..

وأستطيع أن أضيف فكرة متواضعة جدا. فعلى حدود ليبيا والجزائر توجد كهوف «تسيلى» الشهيرة. وعلى هذه الكهوف توجد نقوش عمرها أربعون ألف سنة. والنقوش تصور أناسا يطيرون وقد ارتدوا ملابس تشبه ملابس رواد الفضاء الآن. ومعنى ذلك أن روادا من الكواكب البعيدة ومن حضارات أخرى قد هبطوا إلى ليبيا. وعاشوا فيها. وفى ظروف غامضة اختفوا. فليس بعيدا أن يكون الليبيون قد جاءوا من هذه الكواكب، أو

سكان الكواكب الأخرى قد هاجروا من ليبيا إلى الفضاء الخارجى. وعلى ذلك فمن حق الرئيس الليبى أن يطالب الروس والأمريكان بتسليمه الرعايا الليبيين الذين يعيشون فى الفضاء الخارجى. وإذا لم يمكن تحقيق هذه الرغبة الآن، فهى أمل معلق يضاف إلى آماله فى عودة الهنود الحمر. وبذلك تمتلئ ليبيا - على الورق - بأكثر من شعب مصرا!..

ومع ذلك فنحن لا نعرف ما الذى قاله الرئيس الليبى فى الكرملين، حيث اتهموه على نفس المائدة التى جلس إليها بأنه «الولد المجنون»؟.. هل اعتذر؟ هل اعتذروا؟ هل انحنى على القدم وأبدى الندم؟ هل فعلوا هم ذلك؟..

نحن لا نعرف!..

ولكن نذكر فى التاريخ القديم حادثة مشهورة. فقد تمرد الإمبراطور هينريش الرابع الألمانى على الكنيسة. ورفض الطاعة لأوامر البابا جريجورى السابع. فأعلن البابا «شلحه» من الكنيسة. وطرده من رحمة الله. وطلب إلى الشعب الألمانى أن يعصى أوامر الإمبراطور.. وتمرد الشعب عليه. وكاد التاج يطير من فوقه، والعرش من تحته. فلم يبق أمامه إلا أن يعتذر للبابا. ورفض البابا. وألح الإمبراطور. وبكى. وندم على ما فعل. ووافق البابا على أن يجئ إليه الإمبراطور. وسافر الإمبراطور إلى قرية «يكانوسا» يوم ٢٨ يناير سنة ١٠٧٧، والقرية تقع وسط الجليد فى شمال إيطاليا، وظل الإمبراطور بالباب ثلاثة أيام والدموع تتساقط من عينيه وتصبح جليدا عند قدميه. وفى اليوم الثالث استقبله البابا. وعفا عنه. وعاد إلى شعبه ذليلا كسيرا نادما!..

فهل كانت رحلة الرئيس الليبى من طرابلس إلى موسكو هى رحلة إلى كانوسا؟..

إننا نذكر حادثة أخرى فى التاريخ. فالمستشار الألمانى بسمارك عندما اختلف مع الكنيسة وقف فى الرايشتساج (البرلمان) سنة ١٨٧٢، وقال للأعضاء لا تخافوا. لن أذهب إلى كانوسا لا على قدمى و لا على ركبتى.. لا بجسمى ولا بفكرى!..

كان ذلك بسمارك العظيم! أما نحن فلا نعرف ماذا حدث فى «كانوسا» السوفيتية؟..

فهل اختلفوا هناك؟.. هل غير رأيه؟.. هل غيروا رأيهم؟.. نحن لا نعرف.

وفى طريقه إلى ليبيا توقف فى يوغوسلافيا. فهل أعاد القادة اليوغوسلاف على مسامعه تلك العبارة الشهيرة للرئيس تيتو: قبل أن يفكر أحد فى إلقاء إسرائيل فى البحر، فعليه أن يلقى بالولايات المتحدة أولا؟..

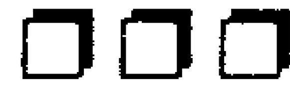
وحدث شئ غريب حقا. فقد نشرت الصحف الليبية أن الرئيس القذافى قد هاجم

التدخل السوفيتى فى أفغانستان!..

ونشرت وكالة تاس السوفيتية أن الرئيس الليبى قد هاجم التدخل الأمريكى..

ونشرت وكالة بوربا اليوغسلافية أنه هاجم العالم كله..

فأيهم القذافى ؟.



إن الرئيس الليبى قد تعرى تماما.. فهو أحد ضحايا. وكل ما يطلبه الرئيس الليبى الآن هو أن يجد أوراقا من التوت تكفى لتغطيته أمام شعبه والعالم، أو أن تصاب الدنيا كلها بفقدان الذاكرة. ولا أظن أن فى ليبيا هذا القدر الهائل من أوراق التوت.. وإن كنت أرى أن الرئيس الليبى فى حاجة إلى أن يتغطى بورقتين من التوت : إحداهما على فمه!.. ■

الحقيقة الوحيدة الواضحة :
انهم سحقوا الشعب الفلسطيني

أمام المشاكل الكبرى يشعر الإنسان أن عقله أصغر من أن يفهم، وأعجز من أن يجد حلا. ولكننا لا نختلف كثيرا عن كبار الزعماء. فهم أيضا فى حيرة مما يحدث فى لبنان. ولكن الزعماء لأنهم مطالبون بأن يجدوا حلا، فلابد أن يفهموا. وإذا فهموا فعليهم أن يجاهدوا فى إقناع شعوبهم بذلك.

وفى الأزمة اللبنانية لا تستطيع أن تعرف ما هى الأطراف. إنها تشبه أطراف الاخطبوط، تتحرك فى كل اتجاه ولأهداف متناقضة. فالجانب اللبنانى وحده مكون من خمس وثلاثين قبيلة - هذه إحصائية رسمية. وكلها تحمل السلاح «دفاعا» عن لبنان. ولا شئ غامضا فى هذه العبارة الأخيرة إلا كلمة «لبنان». لأن هناك أكثر من لبنان: لبنان الحكومة والجيش والتجارة وتزوير الكتب وتهريب السلاح والمخدرات، ولبنان الإسلامى والمسيحى واليهودى والدولى. لقد أصبحت لبنان «كومة» من بقايا كل شئ. ونحن نظلم القوات السورية فى بيروت إذا قلنا إنها سعيدة بهذا الوضع الهابط والليرة الصاعدة. والحقيقة أن بعض اللبنانيين أسعد الجميع.. أما أتعس الناس فهم الفلسطينيون - إنهم الأيتام على موائد اللئام!

ولعلى أحاول أن أقترب من المعنى الذى أريد، إذا لجأت إلى خبير فى فهم مثل هذه المواقف اللامعقولة. فالكاتب الاسبانى ارابال له مسرحية تنتهى الدقائق الأخيرة منها

نشر هذا الموضوع فى ١٩٨١/٥/١٧

هكذا: ينفض الممثلون والمتفرجون وينزل الستار وتنطفئ أنوار المسرح والصالة. وبعد دقائق تعود أضواء المسرح وينفرج الستار وتظهر سيدة عجوز تمسك قطعة من الطباشير وتكتب على السبورة: زرع.. درس.. هرب.. أما المعنى الذى أراده المؤلف فهو أنه لابد من العودة من جديد إلى البداية. فالإنسانية يجب أن تبدأ دائما. إما لأن الناس ينسون. وإما لأن الإنسانية لا تتعلم من الدرس الواحد. وإما لأن الناس يملون الدروس المتكررة. وإما لأن المدرس عندما دخل الفصل، كان الطلبة نياما. أو إنه انشغل فى الكتابة فهرب الطلبة. فظل يتحدث إلى نفسه..

إن هناك شيئا غير معقول، وهو لذلك غير مفهوم ولابد من بداية جديدة!..

وهذه هى حالنا نحن العرب. يجب أن نقول ونقول. ومن أول وجديد، كأن شيئا لم يقع فى الشرق الأوسط. وكأن تجارب الشعوب التى تقدمت بخطوات واضحة عاقلة من أجل السلام الشامل، لم تفعل شيئا، ورغم نجاح السلام فى المنطقة، فإن أحدا لا يدرى بذلك.. لأن السادات عندما دخل الفصل كان الطلبة نياما. ولأنهم فضلوا أن يخرجوا، على أن يكونوا تلامذة فى مدرسة السياسة الواقعية المصرية، إذن فلا مفر من أن نبدأ وأن نكرر كل ما سبق أن قلناه..

ولابد أن حوارا وهميا يدور بين القارئ والكاتب.

يقول القارئ الذى هو الضحية اليومية لهذا التكرار المستمر: ولكن ما ذنبى أنا؟..

ويرد الكاتب : ولكننى لا أتحدث إليك. إننى أتوجه بالحديث إلى الزعماء على مسمع ومرأى منك.

- لماذا لا تكتب رسالة خاصة إلى كل واحد منهم؟..
- ولكنهم لا يقرأون.
- فلماذا تعاقبون الذين يقرأون؟..
- إننا لا نعاقبك.. إنما نحن نشهدك عليهم.
- ولكننى مارست ذلك سنوات طويلة. ألا يكفى ذلك؟.
- إنه يكفى، وإنما لكى تشفق علينا نحن الكتاب. فنحن نكتب إلى الذين لا يقرأون حتى ضقنا بهم. وعلى مرأى من الذين يقرأون حتى ضاقوا بنا!..

ومن أية بداية تختارها للموقف العجيب فى لبنان، سوف تواجهك المتناقضات. التى يجب أن تقبلها فورا على أنها صحيحة، وهذا يضاعف صعوبة الفهم واستحالة اتخاذ القرار. ففى أول الأمر أيدت أمريكا دخول القوات السورية. وسارعت برسم «خط أحمر»

يعزل الجيوش السورية والإسرائيلية، وبذلك تكفلت أمريكا بحماية سوريا من إسرائيل.. وفى هذا الموقف المبكر التقت جميع الأطراف: أمريكا والاتحاد السوفيتى ودول الرفض العربية.

وفعلت القوات السورية بلبنان ما تشاء، وبالقوات الفلسطينية. ولم تحقق سوريا شيئا واحدا مما كانت تريده فى البداية. لسوريا الكبرى تكونت. ولا حررت الجولان. ولا مكنت الفلسطينيين من التقدم خطوة إلى أرضهم الموعودة. وكلما ساءت الأوضاع الداخلية فى سوريا، تعالت أصوات المدافع والانفجارات فى لبنان، وبذلك غطى دخان لبنان على حرائق سوريا، وتضاءلت صرخات الإخوان المسلمين فى عويل الأخوان المسيحيين.

ووقفت الدول العربية تساعد سوريا أدبيا وماديا، ومعنى ذلك أنها توافق على حرب القبائل اللبنانية، وعلى أن تضم إسرائيل جنوب لبنان. وأهم من ذلك كله.. وتوافق على القضاء على الكيان الفلسطينى.. وعلى أن يكون للسوفيت وجود مستمر فى سوريا، كما هو فى ليبيا واليمن وأفغانستان..

وعندما زار وزير خارجية أمريكا الكسندر هيج هذه المنطقة. لم يكن فى حسابه أن يسافر إلى سوريا. فكان لابد أن تفعل سوريا ما يلفت النظر إليها. فأشعلت المزيد من النيران فى الأرض والجو. وتعرضت طائراتها لصواريخ إسرائيل، ثم أقامت سوريا صواريخ سام ٦ واسقطت إحدى طائرات الاستطلاع الإسرائيلية، وتصاعد الموقف وازدادت الخطوط احمرارا على حدود الدولتين.

وبعث الرئيس ريجان برسالة إلى السيد بيجين يطلب إليه أن يضبط أعصابه وأن ينتظر الحلول الدبلوماسية. ويؤكد له أن أمريكا لن تتخلى عنه. وبعث السيد بيجين برسالة إلى الرئيس الأمريكى، ثم أرسل الرئيس الأمريكى السيد فيليب حبيب، وهو دبلوماسى محترم تقاعد منذ ثلاث سنوات. ويذهب إلى دمشق لأن مطار لبنان مغلق. ويتجه مباشرة إلى لبنان، ويلتقى بكل الزعماء، ثم يعود يلتقى بالرئيس حافظ الأسد. وبعده يلتقى بالسيد مناحم بيجين. والتعليمات التى عنده هى أن يستمع. وفعل ذلك. ولو حاول أن يقول شيئا فلن يجد أذنا صاغية.

فالرئيس الأسد مشدود الأعصاب بسبب الفشل فى الداخل والخارج وبسبب العزلة السياسية.

غير أن التصعيد العسكرى قد أدى إلى تخفيف هذه العزلة، فجاء نائب وزير الخارجية السوفيتية، والمبعوث الأمريكى اللبنانى الأصل.

وفى إسرائيل لم يكن السيد بيجين أحسن حالا منذ وقت طويل. فقد أعطيت له مادة جديدة فى معركته الانتخابية. فارتفعت نسبة شعبية بين المواطنين. حتى أصبح معادلا لزعيم المعارضة شمعون بيريز، وانتهز بيجين هذه الفرصة ليؤكد للرئيس الأمريكى أن الموقف الآن بين سوريا وإسرائيل يشبه ما كان عليه فى سنة ١٩٦٧، وأن إسرائيل سوف تجد نفسها مضطرة إلى القيام بضربة عنيفة، وقد حاول ضرب بطاريات الصواريخ لولا كثافة الضباب فى جنوب وشرق لبنان.. ولولا أن جاءت رسالة الرئيس الأمريكى..

وهاجم السيد بيجين حكومة فرنسا، وهاجم المستشار الالمانى هيلموت شميت بعد زيارته للسعودية واتهمه بأنه ما يزال يدين بالولاء لهتلر، وأن الشعب الالمانى سوف يبقى مدينا لليهود إلى الأبد. فقد أحرق منهم الكثير، وألوف الملايين التى دفعها لاسرائيل لا يمكن أن تعوضهم عن هذه الخسارة الفادحة. ولم يشأ المستشار الالمانى شميت، وهو سليط اللسان أيضا، أن يرد علينا علنا. إنما رد عليه فى حديث خاص مسجل وهو يعلم أن هذا التسجيل سوف يصل إلى بيجين. قال المستشار الالمانى: لقد احتاج الشعب اليهودى إلى الفى سنة ليعثر على دولة واحتاج إلى ثلاثين عاما لكى يظهر بينه رجل مجنون مثل بيجين!

وقد لا يذهب الرئيس الأسد إلى أبعد من ذلك فى التهديد وقد لا تذهب إسرائيل أيضا. ولكن سوف يبقى كل شئ فى داخل لبنان كما هو وأسوأ.

وفى الأسبوع الماضى ضحكت بيروت على نكتة. لم يقلها الرئيس اللبنانى الياس سركيس. ولكن كان هو النكتة. فقد زاره أحد الزعماء اللبنانيين. ووقف فى حضوره حانى الرأس قائلا: سيدى الرئيس..

وعندما رفع الرجل رأسه، وجد الرئيس سركيس يتلفت حوله يبحث عن الشخص المقصود بهذا الخطاب!.

ولم يكن الرئيس سركيس رئيسا فى أى وقت. وعلى الرغم من أن قمة الرياض قد جعلته رئيسا لقوات الردع السورية، فلم يمارس هذا الحق لحظة واحدة.. وإذا كانت المسرحية اللبنانية «مأساة» فالمتفرج الوحيد عليها هو الرئيس اللبنانى سركيس.. وإذا كانت «مهزلة» فمن المؤكد أن الرئيس اللبنانى قد قفز بسرعة من مقاعد المتفرجين ليكون صاحب بطولتها المطلقة!..

والرئيس اللبنانى مارونى، ولكن ما الذى فعله للمارون؟ إنهم تحت الحماية الاسرائيلية بناء على طلبهم وبموافقته أيضا. وذابت الفوارق والحدود بين الأرض التى

اقتطعها سعد حداد من لبنان وبين إسرائيل.

وهدف هذه الدولة المسيحية أن تكون نواة لجمع شمل المسيحيين فى لبنان وسوريا ومصر، ولذلك فما يزال عدد من أقباط مصر يحاربون مع سعد حداد. ويحاربون مع الكتائب.. وقد أمسكت المنظمات الفلسطينية خمسة منهم. وبعثت للرئيس السادات تسأله إن كان يمكن تسليمهم إلى مصر. وطلب الرئيس السادات من السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن ينقل ذلك إلى القيادة القبطية فى مصر!..

وفى رسالة حزينة إلى الرئيس السادات بعثت بها السيدة لمياء توفيق مفرج رئيسة جمعية نداء القدس تقول: لقد بكيت تأثرا وفرحا عند سماع ندائك، ودعوت لك بالقوة والصحة والخير والبركات والتوفيق.

لقد خربت بلادى ونزف دمها وترملت نساؤها ومات شبابها، والعالم يتفرج علينا.. والآن ننظر إليك يا أبا العائلة العربية بأكملها، ويا زعيم أمتنا، أن تستمر جهودك لإنقاذنا، أنت الذى برهنت للتاريخ وللعالم أجمع - رغم جهود حسادك - أنك رجل القرن العشرين بحكمتك ومهارتك السياسية واخلاصك وايمانك وحبك لله، ومبادرتك للسلام التى أدهشت العالم كله».

أما الأمل، إن كان هناك، فهو أن يتولى اللبنانيون حل قضيتهم. إنهم أول من أعلن أن القضية اللبنانية لا يمكن أن تحل إلا «لبنانيا» أى لا سوريا ولا عربيا ولا دوليا. وهذا هو الرأى العاقل. ولكن كيف؟ ومتى؟ يجب أولا أن يكون للبنان رئيس. ولكى يكون لها رئيس يجب أن تخرج القوات السورية من لبنان. وأن تخرج القوات الإسرائيلية. فلا حق لسوريا أو إسرائيل فى لبنان. ويجب أن يتولى الجيش اللبنانى وقوات الأمن إعادة الحياة الآمنة إلى البلاد. فإذا لم يكن الجيش اللبنانى قادرا، وهو بالفعل كذلك، فلابد أن نبعث إليه بقوات دولية تساعده على هذه المهمة الصعبة..

ولكى تخرج القوات السورية، فلابد أن تتمسك الدول العربية بمنع الدعم عن قوات الردع فإذا فعلت انحسرت القوات السورية المقهورة وعادت إلى سوريا تواجه حساب الشعب. وأول عملية حسابية يقوم بها الشعب هى اختصار القيادات الطاغية.. فيسقط الرئيس الأسد والأقلية الحاكمة.

وقد وصف السيد عبد الحليم خدام قرار منع الدعم بأنه يبعث على «الأسف». ولا

يمكن أن تكون كلمة «الأسف» هى التى تفى بالمعنى إنما هذا القرار هو عزل كامل للرئيس الأسد، وإرغامه على مواجهة عنيفة مع الشعب السورى، ومع إسرائيل. أما إسرائيل فهو لا يقوى عليها. لا استطاع فى أى وقت ولن يستطيع. حتى عندما كان يحارب إلى جانب مصر لم يستطع. أما الشعب السورى فهو صاحب العصا الغليظة.. وهو الضحية بلا قضية.. وقد جاء دوره لكى يحاكم جلاديه..

ومهما اختلفت وجهات النظر، وهى مختلفة متناقضة متضاربة. فإن هناك حقيقة واحدة عالية - تماما كإنسان مصلوب على قمة جبل: إنهم الفلسطينيون لقد سحقهم الرئيس الأسد والملك حسين وباركت دول الخليج هذه التصفية الجسدية، إيمانا منها بأنه لا حل للقضية الفلسطينية، وأنه يستحيل أن تقوم لها دولة. فلكى يقضوا على الدولة الفلسطينية المنشودة والموعودة فليفرغوها من محتواها السكانى : وذلك بالقضاء على الشعب.. حتى لا يكون شعب فلا تقوم دولة. ونحن نعرف ذلك. وهم يعرفون أيضا.

فلا يبقى إلا أن يتولى الشعب الفلسطينى قضيته.. لقد أهين الفلسطينيون فى كل محكمة، وأكثر الذين أهانوهم هم الذين تولوا الدفاع عنهم. هل يمكن أن يكون الملك حسين محاميا لشعب فلسطين؟ وهل يكون الرئيس الأسد؟ وهل كان الرئيس القذافى؟.

إن أكثر الأشياء مدعاة للملل والقرف والضيق وامتهان العقل الإنسانى أن نعود فنقول: يا أيها الفلسطينيون.. دافعوا عن أنفسكم. اعرفوا عدوكم.. إنه ليس إسرائيل وحدها. إن أكثر أعدائكم هم أعلاهم صوتا فى ادعاء الدفاع عنكم. إن الحل واضح. والطريق إليه أوضح: لن يكون حل للقضية دون الجلوس مع إسرائيل اجلسوا واختلفوا على كل شئ. إن الذين يزعمون أنهم وحدهم القادرون على حل قضيتكم عاجزون تماما عن حل قضاياهم الداخلية والخارجية.. إن سوريا خرجت تحل قضيتكم فى لبنان، كما خرجت ليبيا تحل قضيتكم فى تشاد، والعراق يحلها فى إيران..

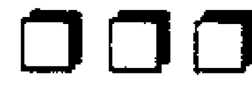
إن شيئا واحدا تفخر به سياسة هيئة المحامين عن القضية الفلسطينية. أنهم يرفضون الحل، ويخافون من اتخاذ القرار، ويشيعون أنهم يحاولون ذلك سرا.. فليس صحيحا أن مبعوثا سوريا جاء إلى مصر فى الأسبوع الماضى، ولا صحيحا أن مبعوثا مغربيا أيضا. ولا صحيحا أن منظمات فلسطينية تقدمت بشروط إلى أمريكا بالاتفاق مع روسيا.. كل هذه خرافات يعالجون بها حقيقة مؤكدة وهى : ان الشعب الفلسطينى

مسحوق.. وهذا «المسحوق» يذرونه الآن فى العيون حتى لا نرى التضليل، ولا نسمع الكذب، فلا نعرف إن كان الذى تجرى دماؤه ودخانه فى لبنان هو بداية النهاية، أو هو نهاية البداية.. ولكن من المؤكد كما تقول كتب القانون، أنها «الجريمة المستمرة»: جريمة تؤدى إلى جريمة أكبر إلى ثالثة أبشع!

وإذا كان الرئيس الأسد قد أعطى لإسرائيل ثلث لبنان ثمنا لاسترجاع الجولان. فقد أخطأ فى الحساب، لأنه باع الجولان قبل ذلك عندما كان وزيرا للدفاع. وقبض الثمن - هكذا قال الملك فيصل فى قمة الرباط، ولم يستطع الرئيس الأسد أن ينفى ذلك. ولابد أن يدفع ثمنا أكبر فإذا كان الثمن الأكبر هو أن يقضى نهائيا على مشروع الدولة الفلسطينية بتصفية الشعب الفلسطينى. فقد أخطأ فى الحساب. فقد تعهد العالم كله للشعب الفلسطينى أن تكون له دولة - رغم الجهود السورية التى يؤيدها الاتحاد السوفيتى .. وإذا لم يكن الشعب الفلسطينى فى كل البلاد العربية وفى لبنان وفى الأردن وفى أوروبا قد أدرك أنه الضحية. وأن دوره قد جاء، فمتى يدرك هذه الحقيقة؟..

وإذا كنا عند كل منحنى خطير تنظر وراءنا نبكى على الذى فات، وندير ظهورنا للمستقبل، ونسد آذاننا عن دروس التاريخ، فمتى يظهر الفلسطينى الرشيد، ذو الرأى السديد. والبصر الحديد، الفعال لما يريد - إلى آخر هذه التراكيب الخطابية التى هى الطعام اليومى للأمة العربية!..

إننى لا ألوم من ضرب الشعب الفلسطينى على خده الأيمن فى الأردن، وعلى خده الأيسر فى سوريا.. إنما ألوم الذى يقبل هذا الهوان.. ولكن إذا كان الشعب الفلسطينى قد أدمن الهوان، فإننى أسحب لومى، وأكسر قلمى، وأبتلع ألمى، وأضع هذه النقط فى نهاية هذا السطر.. مثل سحب سوداء تتستر بها الأرض من عيون السماء.



ويعز على النفس ويوجعها أن تكون هذه هى النهاية.. فهل أمسك مصباح الفيلسوف الإغريقى ذيوجانس فى وضح النهار وأقول: إننى أبحث عن إنسان..

ويكون هذا الإنسان هو الفلسطينى صاحب القضية، وصاحب الحق، والذى ينطبق عليه قول أمير الشعراء شوقى. حين وصف كوبرى الآستانة المنهار المتهالك والذى لم تحاول تركيا أن تصلحه. رغم أنها تتقاضى رسوما مالية من الذين يعبرونه ويمشون تحته..

إنه مثل القضية الفلسطينية، اتخذها الجميع جسرا وممرا وكنزا وشرفا يزعمونه لأنفسهم. قال شوقى:

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا

ومامن ذاك شئ فى يديه؟!

والآن : فى استطاعة الشعب الفلسطينى أن يقارن بين السلام على الطريقة المصرية، والسلام على الطريقة السورية..

ونحن راضون بما سوف يختار!. ■

تصفية «الحسابات الجارية» بدأت فى لبنان !

كان الرئيس السادات يتحدث كثيرا عن « المخاض» فى الشرق الأوسط - أى الآلام التى تسبق ولادة جديدة. وكان يؤمن تماما بأن مصر هى التى سوف تبقى بنظامها ورئيسها، بينما تساقط كل الرؤساء عقابا لهم على الفشل المتواصل فى أن يجدوا حلا للمشكلة الفلسطينية. وكان الرئيس السادات يذكر أسماء هؤلاء الرؤساء الواحد بعد الآخر. ويجدها رياضة عقلية ممتعة حين يتخيل كيف تكون نهاية كل واحد منهم، ولا يزال الرئيس السادات على حق فى ذلك، فسوف تتغير الخريطة السياسية تماما فى الشرق الأوسط، مع اختلاف يسير فى الموعد الذى تصوره الرئيس السادات..

فعندما ثار الإمام الخومينى على ملك الملوك شاه إيران، رأى الرئيس السادات أول الأمر أن هذه هى الثورة الثالثة الكبرى فى التاريخ بعد الثورة الفرنسية والثورة الروسية.. وكان معجبا بعقلية شاه إيران، وإن لم يكن راضيا عن أسلوبه العنيف في الحكم. وقد أدت ثورة الخومينى إلى زلزال يلقى بالحمم الدينية والسياسية فى كل مكان. وكان لابد أن نقرر منذ اللحظة الأولى: إن كان الخليج فارسيا أو عربيا. إن كان فارسيا فالخومينى سيده، وإن كان عربيا فصدام حسين. ومن أجل هذه السيادة علي الخليج. كان لابد من صراع بين إيران والعراق. وتقدمت القوات العراقية تتعجل سقوط الخومينى الذى لا خبرة له فى الحرب والسياسة. وتوقعنا أن تتمزق إيران إلى دويلات عرقية ودينية. غير أن هذه الحرب قد أدت

إلى نوع من الوحدة الوطنية. فقد نفخ الإمام الخومينى فى أبواق الجهاد. فاستقرت قلوب الناس فى آذانهم.. وتقدموا وراءه إلى الموت فى سبيل الله.

وطالت حرب لا ضرورة لها ولا خطة ولا هدف. وانتهت بخسائر فادح على الجانبين، وانقسمت الدول العربية، كما انقسمت بعد السلام المصرى الإسرائيلى. فدول تساعد العراق علنا وسرا، ودول تساعد إيران سرا وعلنا. وطالت حيرة العرب أيضا. وإذا كانت دول الخليج قد أطمأنت إلى أن هذه الحرب سوف تقضى على «قوة» الدولتين، فإنها لن تقضى عليهما. وسوف تستعين دول الخليج بواحدة على الأخرى. وليس من الضرورى أن تكون الدولة التى يستعينون بها هى العراق دائما..

وقبل نهاية حرب العراق وإيران بدأ الغزو الإسرائيلى الوحشى للبنان العربى الشقيق، ولم يكن سبب هذا الغزو أن أحدا قد هاجم سفير إسرائيل فى لندن وحاول قتله. فذلك عذر ضعيف وحجة عوجاء. فإسرائيل كانت ستهاجم معسكرات الفلسطنيين فى أى وقت، إن لم يكن هذا العام فالعام القادم. وقد اختارت أنسب الأوقات الدولية المضطربة والمتداخلة والمعقدة. لحل القضية الفلسطينية بالقضاء على الشعب الفلسطينى؟!

فاختارت إسرائيل الممكن لتحقيق المستحيل - أما الممكن فهو الحرب، وأما المستحيل فهو القضاء على الشعب الفلسطينى، وهذا هو جنون الحرب والسياسة معا.

ثم إن وجود إسرائيل دليل على ذلك، فلم يفلح العداء العالمى للسامية فى القضاء على الشعوب اليهودية، لقد عذبها وطردها واقتلعها وأحرقها، ولكنه لم يقض على أملها فى أن يكون لها وطن. وشاء حظ إسرائيل، وساء حظ العرب حين كانت إسرائيل اليوم هى أرض فلسطين الأمس.

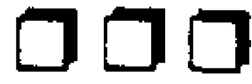
ولو بقى فلسطينى واحد، فسوف يكون نوح الطوفان: بذرة أمل ووعدا بالثأر حتى تكون له دولته على أرضه. ومهما تفرق العرب وتمزقوا ووقفوا ظهرا لظهر، فسوف ترغمهم الأخطار الواحدة على أن يقفوا وجها لوجه، وصفا وراء صف دفاعا عن حياتهم. وإذا كانت مصر تتمسك بصبر أيوب. فإننا نتغنى بأن الصبر له حدود. هذه الحدود تستطيع إسرائيل أن تجعلها قريبة أو بعيدة عن الغضب الشامل والسخط الجارف، فلا نقنع بالسير فى جنازة الشعب الفلسطينى دون أن نرمى إسرائيل بحجر - إن دولا عربية كثيرة مع الأسف ما تزال تستورد كل شئ حتى أحجار الغضب!.

وفى مواجهة هذا التحول المفاجئ فى الحرب والسياسة أمامنا طريقان: أن نرد بسرعة وأن نتلفت ونتأمل. ونحن لا نملك - الآن - إلا أن نتلفت، فقد فوجئنا بينما إسرائيل قد

فكرت طويلا للقيام بهذا الغزو الدموى. أما نحن فلا فكرنا ولا دبرنا ولا توقعنا. فالمفاجأة قد أربكتنا جميعا.

أما الذين يواجهون هذا الغزو بوضوح تام فهم الفلسطينيون، فهم لم يضعوا السلاح منذ ثلاثين عاما. وهم يتوقعون هذا العدوان، ويستعدون له فى الخيام والكهوف والجبال والغابات. وفى حربهم اليوم يلتقى صدق النبوءة وفداحة التضحية وخيبة الأمل فى الأمة العربية وفى الدول الكبرى والعظمى والصديقة والشقيقة وأصدقاء فلسطين فى إسرائيل. وأمام هذه المأساة أو المهزلة الجديدة تتطابق وجهات نظر أمريكا وروسيا عند وادى البقاع: طائرات أمريكا وصواريخ روسيا وانتصار للدولتين العظميين على إسرائيل والعرب. ثم فشل أنيق للأمم المتحدة بكل هيئاتها ومبعوثيها!..

ومادمنا قد قررنا مؤقتا أن نقوم بدور المتفرج المتأمل، فلنعاود النظر من بعيد إلى ما يجرى قريبا: ما حدث فى العراق وإيران.. وما سوف يكون فى لبنان. فقد اتخذت إسرائيل موقفا واحدا. ضمت سيناء وانتظرت. وضمت جنوب لبنان، وضمت القدس وانتظرت. وضمت الجولان وكذلك الضفة والقطاع وانتظرت. والآن تضم مزيدا من جنوب لبنان وغربها وشمالها. ولن تخرج إلا بخروج الجيش السورى وبخروج أرواح الشعب الفلسطينى. وتستدرجهم جميعا إلى مائدة المفاوضات فى ظل الحديد والنار ومباركة أمريكا وروسيا والدول الكبرى. وهكذا تنتقل إسرائيل من إحاطة شعبها ببحار الكراهية الهادئة، إلى الكراهية الهادرة. ومن حياة عنيفة إلى انتحار أعنف.



وهناك طريقتان لرؤية لوحة من اللوحات.. أو معركة من المعارك.. أن تقترب منها أكثر لترى كل ألوانها، وتلمس حركة الفرشاة التي هى حركة الفنان نفسه.. ومن هذه الحركة ومن موسيقي الألوان، تعرف أعماق الفنان ودوافعه.

وهناك طريقة أخرى: أن تتراجع أبعد، لنرى اللوحة فى جملة ألوانها. أى تحس بالانطباع العام لها. ثم تراها مع بقية اللوحات الموجودة على نفس الجدار. ومن النظرة الشاملة إليها جميعا تعرف المعنى والهدف والموقع التاريخى لهذا الإنجاز الفنى..

فالذى ينظر إلى العراق وإيران والخليج فقط، هو الذى يقترب ليسمع الصرخات، ويرى الدخان، ويلمس تدفق الدولارات والبراميل، ويحصى عدد المآذن. وعدد الداخلين المساجد والخارجين. والذين يتصافحون والذين يتخاصمون. فهو «محدود» النظرة لأنه

قريب جدا من الأحداث. فالنظرة عاطفية، والنظرية إقليمية..

أما الذى يقف بعيدا ليرى كثيرا وطويلا، فهو منطقى الرؤية عالمى الطريق.. ومن الصعب أن نحقق العدل بين هاتين النظرتين. وإن كان ذلك ضروريا فما الذى يراه من ينشد العدل - أى الفهم العلمى الموضوعى لما يجرى بيننا وعلى أرضنا، وما سوف يجرى لنا وعلينا فى هذه المنطقة؟.. لابد أن نتراجع إلى الوراء أكثر لندخل فى حسابنا الصراع بين أمريكا وروسيا. وإذا قال أحد إنه لا يشعر بهذا الصراع، فالرد على ذلك أننا أيضا لا نشعر بجاذبية الأرض. مع أننا بغيرها نطير فى الهواء. فليست حركاتنا إلا مقاومة منظمة لجاذبية الأرض. تماما كالسباحة: التى هى مقاومة منظمة للماء. وكالطيران: مقاومة منظمة للهواء.. وحروب التحرير: ليست إلا مقاومة منظمة لتسلط الآخرين علينا تسلط الأقوى، وليس أقوى من أمريكا وروسيا فى هذا العالم.. ونحن نشغل أنفسنا كثيرا بمعرفة العلاقات المعقدة بين الدولتين العظميين ويحلو لنا كثيرا أن ننظر إليها على أنها ألغاز وكلمات متقاطعة، ونتسلى بذلك كثيرا. ولكن الذى يجب ألا ننشغل به كثيرا هو: كيف نوقع بينهما. أو كيف نفعل ما يورط الدولتين. فالخلافات بين الدولتين قليلة. والتسابق بينهما مستمر، ولكنها بسرعة تتقاسمان الأهداف والغنائم. لا حبا. ولا كرها. بل تفاديا لحرب شاملة. فقط حتى لا تكون حرب، وحتى لا تخسر كل منهما فى الحرب ما كسبته بالسياسة وليس من السياسة أن تكون العلاقات واضحة فالوضوح كلمة ليست سياسية، ولذلك فكلمة: لا.. ليست سياسة.. وكذلك كلمة نعم: إنما الكلمات السياسية الخالدة هى: أحيانا.. وربما.. ولعل.. ويجوز.. ولذلك وقفت الدولتان العظميان مع وضد كل دولتين متحاربتين: إيران العراق، ومع وضد إسرائيل والعالم العربى؟!..

وهذه هى السياسة التى لجأت إليها أمريكا فى الأربعينات. منذ ترومان وأيزنهارو ونيكسون وكارتر. فقد اتخذت أمريكا سياسة «احتواء الخطر» حتى لا يتسع نطاقه..

فعندما وقفت أمريكا إلى جانب الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية، كان الهدف هو القضاء على هتلر، وقد عبر الرئيس روزفلت عن ذلك بقوله: يجب أن نساير الشيطان حتى نصل إلى الجسر، وكان الشيطان هو ستالين، والجسر هو النصر على هتلر، وقد ردد تشرشل هذا المعنى أيضا. فقد كان هدف الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية هو القضاء على ألمانيا واليابان. وفى سبيل ذلك لاتهم كثيرا هوية من يحارب معهم. ولذلك

تحالف روزفلت وتشرشل مع ستالين. وبعد أن انتصر الحلفاء على ألمانيا واليابان، كان لابد من «احتواء» ستالين الذى أصبح قويا قاهرا، حتى لا تؤدى مكاسبه إلى مزيد من التوسع فى أوروبا وآسيا. ولذلك حاولت أمريكا مساعدة ستالين ماديا وأدبيا. حتى يعتمد عليها، وإذا اعتمد عليها، تحكمت فيه، وإذا تحكمت فيه، عوقت نموه وأوقفت توسعه..

وكان هذا الاحتواء نوعا من العناق العنيف الذى يكسر الضلوع، أو كالذى يقبل أحدا فيمزق خديه وشفتيه فالاسم: عناق، والفعل: خناق واختناق..

وربما كان الرئيس ترومان هو أوضح الساسة الأمريكان تعبيرا عن هذا المعنى، فهو الذى قال: إذا بدا في الحرب بين روسيا وألمانيا أن روسيا هى التى سوف تنتصر وجب علينا أن نساندها، وإذا بدا أنها ألمانيا فمن الواجب أن نؤيدها. وبذلك نساعد الاثنتين على أن تقتلا أكبر عدد ممكن منهما!..

وإذا احتفظت بمعانى هذه العبارة فى رأسك، ورحت تنظر إلى الخليج العربى الفارسى، فسوف تعرف تماما ما الذى حدث. وما الذى سوف يحدث فى لبنان غدا. فأمريكا وروسيا وراء كل دول المنطقة ولنفس الهدف.

وإذا كان الرئيس السابق كارتر قد أعلن أن أى تدخل لقوة أجنبية فى الخليج يعتبر عدوانا على المصالح الأمريكية لابد من مقاومته بالقوة، فإن الروس قد أعلنوا نفس الشئ. ولكن دون أن يسمع ذلك أحد. فالروس أقل قولا وأكثر فعلا، والأمريكان أقل فعلا وأكثر قولا. وليس من الحكمة أن ندعى لأنفسنا أننا نعرف بالضبط نسبة القول إلى الفعل عند كل من الدولتين، فبينهما حسابات غامضة لا نعرفها بوضوح..

فكما أن اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل قد باعدت بين العرب، وغيرت مواقعهم وأهدافهم، فكذلك الحرب العراقية الإيرانية.. ثم الحرب الإسرائيلية السورية اللبنانية الفلسطينية..

وسوف يؤدى الغزو الإسرائيلى للبنان إلى أسوأ من كل ما عرفنا فى الثلاثين عاما الماضية! والدول العربية التى تقف مع وضد حرب إيران والعراق معروفة تماما. وما تقدمه الدول العربية من مال وسلاح وخطب وإضراب عن الطعام ومظاهرات معروف. ولكن الذى يهم أكثر هو أين تقف الدولتان: أمريكا وروسيا؟!..

قد تقول إن أمريكا التى أسقطت الشاه وطردها الخومينى تقف الآن ضد إيران.

وليس هذا صحيحا. إن الجيش الإيرانى يحارب بأسلحة أمريكية. أما قطع غيار هذه الأسلحة فبعثت بها وروسيا عن طريق فيتنام. لأن الجيوش الأمريكية قد تركت وراءها فى فيتنام مخازن هائلة للسلاح وقطع الغيار.. وكذلك إسرائيل تشحن الأسلحة الأمريكية والخبراء والخبرات إلى إيران.. بعلم أمريكا وموافقتها..

ويتلقى العراق أيضا أسلحة من الحلفاء: اليونان وبريطانيا وإيطاليا ودول حلف الأطلنطى، وعن طريق السعودية والأردن.

كما يتلقى العراق ويشترى أسلحة وذخيرة سوفيتية من مصر..

ثم إن أمريكا تشترى البترول من إيران عن طريق سويسرا..

وفى نفس الوقت لم يتوقف ضخ البترول العراقي إلى أمريكا..

وفى بغداد عدد من الخبراء الأمريكان..

وما يزال الخلاف شديدا فى وزارة الخارجية الأمريكية بشأن موقف العراق، فأمريكا كانت قد أدانت العراق بأنه يساعد الإرهاب العالمى. ولذلك قررت حرمانه من الأسلحة والذخيرة.. وأضافت العراق إلى بقية الدول العربية «المحرومة»: سوريا وليبيا واليمن الجنوبية. وهى جميعا حليفة للسوفيت.

وتقدمت شركات صناعة الطائرات الأمريكية إلى وزارة الخارجية تؤكد أن العراق قد غير موقفه فلم يعد يساعد المنظمات الإرهابية، ولذلك يجب استبعاده من قائمة الدول المحرومة من السلاح الأمريكى. وكذلك عدم معاقبة الشركات الفرنسية الي تنتج الطائرات العسكرية والتى تتقاسم معها أرباحها.. فوافقت الحكومة الأمريكية وسمحت للعراق أن يشترى ١٢ طائرة سى ١٣٠، وهى طائرة لنقل الجنود والمعدات، يبدأ تسليمها فى أواخر سنة ١٩٨٣ ؟! وكان هدف أمريكا: إبعاد العراق عن الاتحاد السوفيتى..

ثم عادت أمريكا فمنعت تصدير الغاز إلى إيطاليا حتى لا تستخدمه توربينات السفن الحربية التي تبنيها للعراق؟!..

وليس واضحا اتصال أمريكا بخصوص آية الله الخومينى خارج إيران وداخلها..

ولا اتصال أمريكا بالأكراد الذين يحتشدون خارج الحدود..

ولا موقف أمريكا من التطرف الدينى الذي يهدد أمن الخليج. وقد كانت أمريكا أول من حاول احتواء آية الله الخومينى عندما كان فى فرنسا!!

ولكن يمكن تفسير الموقف الأمريكى، والروسى أيضا: بأنه احتواء للحرب دون وقفها، أى وقف انتشارها وليس اطفاءها.

لأن الحرب إذا انتهت بنصر ساحق لإيران على العراق، فسوف تؤدى إلى إنقلاب فى داخل العراق. (والانتصار الساحق هو ما لا تريده أمريكا لبريطانيا على الأرجنتين فى جزر فوكلاند!) وسوف يكون هذا الانقلاب لصالح السوفيت. ولو تركوا العراق يتقدم حتى يقضى على الإمام الخومينى. لأدى ذلك إلى خلل فى قوى الخليج.. وزعزعة النظم العربية وتمزيق إيران. ودخول السوفيت كما حدث فى أفغانستان.. ثم إلى حرب جديدة بين العراق البعثى وسوريا البعثية. أو إلي وحدة بينهما.. وفى ذلك توسيع للنفوذ السوفيتى وتهديد للسلام فى الشرق الأوسط..

أما موقف الدول العربية فسوف يكون واحدا: مساعدة إيران والعراق معا بالمال، حتي لا تحدث انقلابات تؤدى إلى مزيد من القلق فى الخليج، وفى نفس الوقت «ملء الأفواه بالذهب» حتى تستحى العين العراقية أن تنظر إلى الكويت، وتستحى العين الإيرانية - فلا تنظر إلى البحرين.

إما النتيجة التى تبتغيها الدولتان العظميان معا وفى وقت واحد: فهى أنهاك لإيران والعراق، وإضعاف لهما تماما، ومن نتيجة ذلك أن تجرى المحاكمات فى داخل البلدين بحثا عن المجرم الحقيقى. ولن يكون هذا المجرم - عادة - أحد الوطنيين، إنما أحد الخونة المتعاونين مع الروس والأمريكان.. وهنا تتبارى أمريكا وروسيا فى مساعدة الدولتين مما يؤدى إلى مزيد من الاضطراب والقلق ودفع البترول ثمنا للسلاح، أو قطع للبترول أو تجميد للدولارات فى البنوك الأمريكية.. وهكذا إلى أن تقع حروب جديدة بأشكال جديدة.. ويؤدى الإنهاك الجديد إلى استسلام الدول الصغيرة التى أصبحت ضئيلة - وليس من أهداف أمريكا طبعا: إرهاق إسرائيل..

وقد تقع فى خداع بصرى عندما تقرأ اسم ريجان ألف مرة كل يوم، وتقرأ اسم برجنيف مرة واحدة.. فتتوهم أن ريجان هو الحاضر وأن برجنيف هو الغائب. والحقيقة أن ريجان قوة عسكرية واضحة. وأن برجنيف قوة سياسية خفية، ولكنهما معا: قطبا الجاذبية فى العالم.

وإذا اقتربنا كثيرا من لوحة الشرق العربي، وهالتنا الدماء، وأوجعتنا الصرخات،

وحيرتنا المعانى، فنحن أمام «المخاض» الذى يسبق الولادة.. إننا لا نعرف للمولود اسما أو جسما.. ولكننا نعرف آباء وأولياء أمره وأقاربه والذين يتربصون للقضاء عليه..

إن متاعب كثيرة تتوافد وتتوالد على هذه المنطقة.. فلا تزال هناك «حسابات جارية» لم تتم تصفيتها بعد!.. ■

المحتويات

رقم الإيداع
١٩٨٨ / ٢٤٦٦

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٣٩١١٨٦٢